2020
8.1.2020

عارف حجاوي

الزبدة

إحياء الشعر

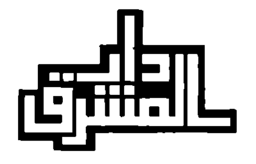
البارودي والزهاوي وشوقي وحافظ والرصافي والجواهري

دار المشرق

إحياء الشعر

البارودي والزهاوي وشوقي وحافظ والرصافي والجواهري

عارف حجاوي



إحياء الشعر

الفهرسة أثناء النشر - إعداد دار المشرق

حجاوي، عارف
إحياء الشعر: البارودي والزهاوي وشوقي وحافظ والرصافي والجواهري/عارف حجاوي.
٦٣٩ ص.
١. شعر. أ. العنوان.
???

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر دار المشرق»

الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠١٨

دار المشرق

القاهرة - المعادي - شارع المعراج

almashriq.books@gmail.com

أبواب الكتاب

مقدمة

نفخ البارودي في صورِه وأقام الشعر العربي من قبره، فنهض يفرك عينيه، ولبس جبته، واعتجر عمامته وركب ناقته.

لا، ليس كذلك بالضبط.

أريد أن أدخل إلى أشعار هذا العصر من باب أكاديمي، ولو على سبيل التغيير. هذا العصر الذي يتناول كتابنا أشعاره عصر قريب منا، بعضنا عاشه، وكلنا عايشه. فآخر من تناولنا من شعراء هذا العصر توفي عام ١٩٩٧، وله حضور قوي بصوته وصورته، ذلك هو الجواهري. وكل شعرائنا في هذا الكتاب ـ وهو الكتاب الرابع من سلسلة الزبدة ـ ماتوا في القرن العشرين. وسترى أننا في الكتاب الخامس والأخير سنعرض لشعراء ماتوا جميعاً في القرن العشرين أيضاً. سيعترض أحدهم قائلاً: ما أراك جعلت القرن العشرين في كتابين إلا لأن المادة كثرت عليك، فلم يكن لك بد من القسمة. في هذا الاعتراض شيء من الحق. وليس كل الحق.

سأقنع القارئ بأن ثمة فارقاً بين هذا الكتاب الرابع، وبين الخامس الذي سيتبعه. ومن هنا التمست مدخلاً أكاديمياً. والكلمة المفتاح هنا هي الكلاسيكية.

عندما انتصف إنتاج بيتهوفن ركبه عفريت «التعبير». صار يعبر في موسيقاه عن الحنان والرقة والغضب. تسمعه في سيمفونياته المتأخرة ويدك على مفتاح الصوت حتى تخفضه خفضاً سريعاً عندما يجن جنون صاحبنا وتأخذ الأوركسترا تصرخ بطبولها ونحاسها بغضب.. أنت لا تريد أن يدق لك ساكن الشقة المجاورة على الحائط.

خرج صاحبنا من الكلاسيك إلى نمط جديد، سيسميه أهل الصناعة «الرومنس».

الكلاسيك انضباط ووقار، والتزام بالأعراف الفنية في الشكل وفي المشاعر. والرومنس حرية في التعبير عن مكنونات الفؤاد، وقسط من الحرية في الخروج عن الشكل المعروف.

في الشعر العربي أعراف راسخة من حيث الشكل، فالأوزان أوزان الخليل، واللغة لغة الخليل، فإذا أدخل الشاعر في قصيدته لفظة عامية فلا يكون ذلك إلا من باب التظرف، وسرعان ما يستغفر آلهة اللغة ويعود إلى الفصحى المعجمية.

عندما «أحيا» البارودي الشعر العربي لم يخرج عن الكلاسيك، بل عاد به إلى زمن أوغل في القدم من زمن مجايليه. لا بل جعل معظم شعره مصبوباً في قوالب الشعراء القدامى تقليداً في الشكل واللغة، ومجاراة في المعاني وطريقة سوقها.

الكلاسيك انضباط، والرومنس تحرر. لكن، حنانيك، الرومنس ليس فلتاناً. فيه تحرر عظيم في المشاعر وفي التعبير عنها، ولكنه يتخذ لنفسه ضوابط. فماذا لو مل الشعراء من الرومنس، وابتغوا التجديد؟

سأعيدك إلى الموسيقى هنيهة. بعد بيتهوفن، الذي جاء عند مسمار المقص بين الكلاسيك والرومنس، أتحفنا أهل الرومنس بموسيقى بديعة فسمعنا برليوز وتشايكوفسكي وبيزيه. ثم حدثت أشياء.

المشعوذون

في سنة ١٩٥٢ قُدمت على مسرح في نيويورك قطعة موسيقية غريبة اسمها ٤:٣٣. جلس العازف إلى البيانو، وصمتت القاعة.. وضع العازف النوطة الموسيقية أمامه بعناية، وأخرج من جيبه ساعة وقْف، وضغط على الزر. وظل جالساً أربع دقائق وثلاثاً وثلاثين ثانية، لم يلمس البيانو. ثم قام. هذه القطعة «الموسيقية» هي موسيقى بلا صوت. يقول «الموسيقار» جون كيج إن الموسيقى في قطعته تلك «ليست صوتاً منبعثاً من البيانو، بل هي همهمات الجمهور». فإذا كنت تملك حاسوباً وكان عندك إنترنت فاكتب ٤:٣٣ وستسمع تلك القطعة العبقرية. وستسمع أن الجمهور لم يهمهم ولا صنع شيئاً بل قعد مؤدباً وصفق للعازف، الذي لم يعزف، عندما قام ـ قامت قيامته ـ عن البيانو. ولك أن تسمع هذه الموسيقى الفريدة معزوفة ـ بغير صوت ـ على أوركسترا كاملة.

ولي مع هؤلاء الدجالين تجربتي الخاصة. كان ذلك في الإسكندرية في نحو عام ٢٠٠٩. وكان ملتقىً إعلامياً ـ فنياً في شبه قرية سياحية قرب بحيرة مريوط. حضر من لبنان بعض مشاهير الممثلين، حضرت نضال الأشقر وحضر روجيه عساف، ومن فلسطين حضرت ممثلة عن مؤسسة يبوس، ومن تونس حضرت فتاة لا أذكر اسمها، وكنت أمثل مؤسسة إعلامية عربية، وحضر من مصر كثيرون بالطبع؛ لكن المصيبة كانت لبنانية.

جرى نقاش حاد في إحدى الجلسات عن الأعمال الفنية وحظها من الظهور إعلامياً. وصدع الحاضرون رأسي بكلمات من قبيل الفضاءات والمَدَيات والإبداع والجديد وما بعد الجديد والحداثة والحرائة في السباخ. فقلت في مداخلتي إن ما يهمني عرضه إعلامياً ـ وكنت أشغل موقع مدير البرامج في مؤسستي ـ هو الفن الذي يصل إلى الجمهور ويحمل قضية أو فيه على الأقل متعة، ويجعل المشاهد يشاهد. ولعلي أيضاً مسحت بلاط القاعة بتلك المصطلحات التي أراها بضاعة الضعيف. وانبرت لي الفتاة التونسية. تكلمت واقفة ومتشنجة، وشنت هجوماً عليَّ كاد أن يكون شخصياً. ولأنها تصغرني كثيراً فقد آثرت أن يكون ردي رد الشيوخ الهادئين المحتملين نزوات الشباب. وانتهت تلك الجلسة.

وقبل ختام المنتدى دعينا إلى حفل موسيقي. حملونا في حافلة كبيرة إلى وسط الإسكندرية. الفرقة لبنانية. وعلى المسرح أشياء عجيبة. وفي الصالة مجموعتنا الكبيرة، وراهبتان، وبضعة أشخاص آخرين. وبدأ العزف. بدأ «العزف» على لوح فيه ترانزستورات وأسلاك ويصدر أصوات صعقات كهربائية مصحوبة ببعض الشرر، وهناك آلة نفخ في الزاوية تقول شيئاً واحداً أععع أععع. وفي الوسط منشار كهربائي راح يلوث الجو بضجيجه. بدأ الناس ينسلون واحداً واحداً، وخرجت الراهبتان بعد نحو عشر دقائق. وصبرت أنا حتى أرى آخرتها. وانتهى العرض. ولا أتذكر إن كان الخمسة أو الستة الباقون قد صفقوا.

في طريق العودة إلى منتجعنا كنت جالساً في الحافلة صامتاً. وسمعت من خلف ظهري الفتاة التونسية تقدم لي اعتذاراً.

وسأنقلك إلى الرسم حتى تكتمل لديك صورة الحداثة وما بعدها. لعلك تقف متأدباً أمام تلك اللوحات الخرابيش؟ مؤكد أن تقف متأدباً. أنا مثلك. لا أحب أن أقول للرسام: إلى الجحيم بك وبلوحاتك يا مشعوذ.

قد أحتمل سلفادور دالي، فلديه الريشة وجنون التعبير، ولديه الشكل. وقد أحتمل بيكاسو مع بعضِ التفسير. لكن فن الرسم أصبح شعوذة خالية من أي شكل ومن أي معنى، اللّهُمَّ إلا تلك المعاني التي يجب أن يقولها لك الرسام، بيد أنك لا تراها في لوحته.

كلاسيك الكراسي

كنا في سن اليفاعة نشتغل في مشغل في الحي نقشش الكراسي بقشور الخيزران. القشة طولها نحو متر وعرضها مليمتران، وننسج القش في ست طبقات: الأولى عرضية بأجر قرشين، والثانية طولية بأجر قرشين، والثالثة موروبة قطرية بستة قروش، والرابعة تكرار للأولى بقرشين، والخامسة طولية بثمانية قروش (السبب أن القشة في هذه الطبقة يجب أن تقتحم ما بين الأولى والرابعة)، والسادسة موروبة قطرية بستة قروش. ولربط القشة بالقشة طريقة معينة، ولا بد من بلِّ القش بالماء باستمرار وشده شداً. ويخرج الكرسي بخلاياه السداسية المميزة آية في الجمال. كلاسيك. ثم أخذ أصحاب المقاهي يسترخصون، فيطلبون وضع قطعة من الخشب المعاكِس، الأبلكاج، بدل القش، فيخرج الكرسي قبيحاً، وغير مريح. لكن، البشر تفننوا في الكراسي، وإنك لتجد تصميمات بالعشرات للكراسي بتوقيع جماعة الباو هاوس المعمارية المشهورة، وفيها تفنن كثير، وبعضها يعتمد التقشيس الذي كنا نصنعه بالخلايا السداسية نفسها.

صادف في مدينة دارمشتادت بألمانيا ذات سنة أن كنت في جلسة لعب ورق مع الشباب العرب، وذكر صديقي المخضرم في البلد ـ كان في السنة السادسة عشرة من دراسته.. تلك ألمانيا التي كانت تبتلع الشاب العربي ابتلاعاً ـ أن له صديقاً ألمانياً يملك كراسي موروثة ثمينة ولكن للأسف! لقد تخرق القش عليها، ولا سبيل لتجديده لأن إنتاج هذ النوع من الكراسي توقف منذ زمن طويل. في اليوم التالي كانت الكراسي عندي في غرفتي، وجلبت القش الفرنسي الملائم، وبعد أيام كنت أدفئ جيبي ببعض الماركات.

للكلاسيك رونقه. وأنت لا تطلب من الشعر أن يشبع معدتك، لا بد من الجمال، ولا بد للجمال من شكل، ومن ضوابط.

كتابنا هذا يضم الكلاسيك الجديد، وكتابنا المقبل يضم الرومنس المنضبط

عمودياً. . فأما عندما خرج الشعر العربي إلى التفعيلة، وهذا نمط جميل وله انضباطه وإيقاعه الحلو، فقد اجترح فعلاً صاخباً وكبيراً، وسيحتاج شعر التفعيلة إلى بضعة عقود كي تبرز قممه، فالزمن يغربل كل الأشياء. عندها سيكون الأمر، والعمر، قد خرج من يدنا. نعم، قد قصرنا جهودنا على الشعر العمودي التقليدي في هذه السلسلة الخماسية كلها.

شعراء الإحياء

كان البارودي يعيش طفولته وصباه في برج عاجي هو طبقته المتميزة عن بقية الناس. فهو من الجراكسة، ولكنه أتيح له أن يكون عربي اللسان، وأن يكون متعلقاً بالأدب منذ الطفولة. واتصل سريعاً بحماة الشعر القديم. . لم يدرس ـ لحسن حظه ـ المتون والحواشي، وعاش يقرأ الفصيح من كلام الفصحاء القدامى. وقلدهم. وليس البارودي طفرة بأي حال. ففي زمنه وقبل زمنه كانت الأشعار تجري على ألسنة الفصحاء. في لبنان نسمع مدائح الشعراء في أمراء الجبل، ونسمع أكثر ما نسمع تهادي الشعراء بقصائد المدح، وهذه القصائد من أركّ ما ورد في باب «الإخوانيات»، وفي مصر انتشر شعر الإخوانيات في غياب السلطان الذي يفهم الشعر أو يقدره. وطرق الشعر باب الهزل، والغزل، وباب الرقاعة.

لكنه لم يقيض للشعر رجل تلقى الفصاحة عن غير طريق حلقات المساجد حتى جاء البارودي. كان ضابطاً فوزيراً، وكان يشعر في أعماقه بأنه من حكام البلاد، وكان يعيش في بلد مستقل استقلالاً لا بأس به عن الدولة العثمانية وله جيشه ويملك إلى حد بعيد قراره، وكان ثائراً عانى النفي الطويل. . فجعله كل ذلك ـ الذي لم يتوفر لغيره ـ أكبر شاعر عربي في القرن التاسع عشر. زودته تجاربه الحربية ووضعه الطبقي بالشموخ، وزودته المعمعة الثورية ـ المتمثلة في اشتراكه بعض الاشتراك في ثورة عرابي وما تلا ذلك سريعاً من العيشة القاسية في المنفى ـ برقة ومرارة وبعمقِ فهمٍ للطبيعة البشرية.

لا، لم يقل البارودي للشعر العربي قم فقام. لكن ظروفه جعلته المرشح لاستهلال شعور العربي بذاته في عالم الشعر.

وفي العراق بدأ الزهاوي يقول الشعر في أواخر القرن التاسع عشر، لم يكن الزهاوي صاحب سيف، لكنه كان صاحب قلم وكتاب، وكان من كبار

المثقفين، وبدأ يشم ريح التحرر ضمن الدولة العثمانية مع الدستور، ١٩٠٨، ثم ريح الاستقلال السياسي للعراق مع الحكم الفيصلي، وكان مهادناً للإنجليز كمليكه. لكنه كان يشتاق إلى أن يتحرر العربي من الجهل ومن الأمية ومن الخرافات ومن حجب المرأة عن النشاط الاقتصادي والاجتماعي. كأنما لم ير الزهاوي أن الاستقلال السياسي سيكون شيئاً عظيم الأهمية في حضور الجهل والأمية والتخلف الاجتماعي. وستصدقه السنين. وكالزهاوي في فكره كان الرصافي في العراق، مع اختلاف في المزاج، ومثلهما كان الجواهري في الفكر وفي أشواق الانعتاق من أسر التخلف؛ ولكنهم، ثلاثتهم، تمسكوا بالشكل الشعري الكلاسيكي. الأقدمان منهما كانا مع سهولة اللفظ، والجواهري ابن القرن العشرين ميلاداً كان أميل إلى اللفظة القديمة، وإن عاقه السير في طرق ملتوية لبلوغ المعنى الدقيق عن أن يبلغ صاحبيه في الفصاحة.

وفي مصر كان شوقي ابن ثقافة واسعة، وبيئة مترفة. أحس في نفسه بشموخ واستقلال لأن أميره الذي يمدحه ابن بلده. نعم، قد مدح سلطان الدولة العثمانية ونال منه رتبة البكوية؛ لكن، كان له في مصر من دواعي الفخر الكثير، فبنى صرح فخره على صخر الفراعنة، وأحس بما في مصر من نهضة تبشر بعودة النهضة الأولى في عصر محمد علي، والثانية في عصر إسماعيل فافتخر ببنك مصر وبما كانت مصر تعالجه من وضع دستور جديد وحياة سياسية نشطة. ورغم أن شوقي كان من كبار المثقفين، فلم يكن في جرأة الزهاوي. على أن ثقافة شوقي العريضة، وخياله الواسع، وتبحره في شعر القدماء فتحت له أبواب القول، فديوانه بستان. لم يجعله شعر البارودي ـ وهو أكثر شعر أثر في نفسه، على اختلافه في السياسة مع البارودي ـ ينظر نظرة مراجعة في مسألة تقليد القدماء. لا، بل مضى يصب الشعر في قوالبهم. لكن، ديوان شوقي ليس نمطاً واحداً، ففيه أشعار في أولاده، وفيه أناشيد للأطفال، وفيه تلك المسرحيات، التي جعلها ضعفة النقاد ميزته الكبرى. شوقي دنيا شعرية جميلة، وقد أنفقنا صفحات كثيرة معه في كتابنا، عرضنا فيها أحداث ذلك الزمن، وتتبعناها تتبعاً من خلال شعره.

وقرين شوقي حافظ إبراهيم صوت شعري رنان. ولم يكن حافظ بأقل محافظة من شوقي. كان إمعة في مسائل الفكر والمجتمع، وكثير التحفظ في جانب السياسة، لا سيما بعد أن نال الوظيفة السمينة.

بثلاثة من مصر، وثلاثة من العراق قام الشعر العربي في القرن العشرين، وقبله بقليل، ليكون صوتاً لضمير أمة خرجت بعد أربعمئة سنة من القمقم العثماني، وأخذت تفرك عينيها. ترى في هذا الشعر الأمة العربية تتوق إلى التقدم والاستقلال، وترى أيضاً أنها غير واثقة، وأنها لا ترى معالم الطريق الذي يؤدي إلى اللحاق بالأمم المتقدمة. أعاد شعراؤنا الستة إلينا بعض الثقة بأن لغتنا الفصحى لم تمت، فها هي على ألسنتهم تترنم بشعر جميل. لكنهم أدركوا وأدركنا أن شعرهم شعر النخبة. فلئن كانت الفصحى لغة حية وقادرة على أداء كل المعاني فإن عامة الناس لا يتقنونها، لا قولاً ولا فهماً، إلا بقدر.

حال بين الناس وبين إتقان الفصحى أن قواعدها النحوية ليست كقواعد لهجاتهم، وأن مفردات اللغة الأدبية تختلف اختلافاً غير هين عما يستعملون من مفردات. وحال بينهم وبين شعر الفصحى الذي أتاهم به هؤلاء الرواد، علاوة على القواعد والمفردات، أن أوزان الشعر العربي خرجت من آذانهم منذ قرون.

قال شوقي، فيما نقل إلينا، «أخشى على الفصحى من بيرم». واعترف الرصافي للملا عبود الكرخي الشاعر العامي بأن أشعاره العامية هي ما يفهمه الناس.

لكننا لا نقول إن الفصحى كائن لا مبرر لوجوده، ليس فقط لأننا نكتب هذه الأسطر بها، بل لأنها هي ما يجمع العرب. هذا مظفر النواب يعد نفسه شاعر العامية البغدادية، ويقول إنه لا يعرف العروض، ثم رأيناه في السبعينات، عندما دعته دواعي النضال والسياسة، يقول أشعاراً فصيحة موزونة على التفعيلة مع قليل جداً من التجاوزات، فيتسامع بشعره العالم العربي كله، ويخرج من ضيق بغداد إلى رحاب العالم العربي، ويعبر عن أوجاع العرب السياسية أحر تعبير وأقواه.

المعركة بين الفصحى والعامية مستمرة في مجال الشعر، وفي كل مجال.

عرفان

صحوت على موظفة المصرف تقول لي «البوليس». وبما أنني «صحوت» فلا شرطة ولا بوليس، هو كابوس. والذي فتح الباب للكابوس أمران: الأول أكلة دسمة شبعت منها وبقيت في الطبق بقية، لا هي تصلح للثلاجة، ولا أنا

أصلح أن أرمي طعاماً في كيس القمامة، فرميت بالباقي في معدتي. والثاني أنني كنت في المصرف فعلاً قبل هذه القيلولة الثقيلة.

للمرة الكذا يعيدون لي صكوك أجرة المنزل.. ويطلبونني لفرع المصرف كي أوقع أمامهم. لكن هذه المرة، وهي المرة الكذا، كانت مختلفة. أحالني الموظف إلى الموظفة ذات الخال كي أسجل بصْمتي في الحاسوب، فمنذ اليوم لن يُقبل مني أي توقيع. وعلي، أسوة بالحاجَّة فلانة والحاج فلان، أن أبصم بإبهامي الأيمن. وفرحت. وبعد طول استعلام، كانت المسألة قد وصلت إلى نائب المدير. وانشغل نصف موظفي المصرف بهذه القضية العجيبة. (هذا ليس الكابوس، بل هو ما حدث فعلاً).

ثم تبين أن البصمة غير مقبولة في الصكوك.

أخذ نائب المدير بنفسه يدربني على توقيع جديد. وتوقيعي الجديد مثل القديم، هو كتابة اسمي ليس غير. لكنني مبتلىً بمرض لم يكن مكتشفاً حتى ظهر اليوم: أنا لا أستطيع التوقيع مرتين بنفس الطريقة. وأنا عارف هذا الشيء عن نفسي، فقد واجهت مشكلات في معاملاتي في أكثر من مناسبة للسبب نفسه. لكن مصرفي الحالي أراد أن يداويني. وبعد أن اتفقنا على صورة مبسطة جداً لكتابتي اسمي، أخذت أتدرب على ورقة وموظف الصندوق يرفع أمامي النموذج قبل أن يعتمده في الحاسوب.

ثم وقعت. ثم ذهب الموظف إلى نائب المدير، ثم عاد وهو يمزق ورقة المعاملة. ومرة أخرى وقعت. وهذه المرة مشت المعاملة مع شفتين تتحركان من الموظف المرهق. وعندما ستكون لي معاملة مقبلة فسوف تتكرر المأساة.

لم أقل لأحد في المصرف إنني كنت أعمل ذات سنة خطاطاً في وزارة حكومية، تلك وزارة الدفاع في الكويت في أواخر السبعينات. ولم أقل لهم إنني رجل صحب القلم والورقة سنين طويلة قبل دخول الحاسوب في حياتنا. فلم يكن ينقصهم المزيد من الأعاجيب في تلك الظهيرة.

قواعد الخط العربي

القواعد في الخط العربي مقيسة قياساً دقيقاً بالنقاط التي تضبط النسبة بين عرض القلم وحجم الحرف، وهي ترشد الخطاط حتى يكتب الحرف في كل مرة بالكيفية نفسها. وتعلمت هذه القواعد وسرت عليها وأصبحت خطاطاً. لكن

علتي ليست في أصابعي فحسب، هي في عقلي أيضاً. والخطاط الجيد يضبط عقله ضبطاً محكماً فيسكب الحرف على وجه الورقة سكباً من قالب ذهني لا يتغير. وأقص هنا قصة عن خطاط لم أر أضبط من ذهنه، هو المرحوم عبد الغني الباشا، وكان لي زميلاً في القدس، يعمل خطاطاً في جريدة الشعب، وكنت فيها محرراً.

ذات يوم زرت صديقاً لي يعمل أستاذاً في مدرسة الأمة في ضواحي القدس. وبينما نحن نهبط الدرجات رأيت على مبعدة مجلات الحائط. قلت لصاحبي: تلك المجلة هل تراها! يبدو أن أحد الطلبة من أقارب الخطاط عبد الغني، فخطوط عناوينها بقلم عبد الغني. صاح بي الصديق: هذه خطوط بأقلام ملونة رفيعة، فلوماستر، وكيف حكمت من هذه المسافة أنها من خطوط عبد الغني؟ وعبد الغني أهم خطاط في القدس. وتحققنا من الأمر ـ ولم يكن بي حاجة للتحقق أصلاً ـ فتيقن صاحبي أنني على حق، وتعجب. فشرحت له أنني أميز خط الرجل ولو من حرف واحد. لكن أحداً لا يميز خطي أنا، لا من حرف ولا من فقرة فهو شديد التقلب.

أنا لا أصنع كوب شاي ولا طبخة مقلوبة مرتين بنفس الطريقة.

عزيزي القارئ، أكتب لك فقرة من هذا الكلام، وأنصرف بعدها إلى ورقة بجانب الحاسوب أتدرب على توقيعي المبسط الجديد.

لهذه العلة في ذهني، ولعلة أخرى، عرفت باكراً أنني لن أصبح خطاطاً ماهراً. العلة الأخرى أن يدي غير ثابتة الثبات المطلوب من يد الخطاط.

العرفان الآن

في الكابوس ـ وقبل أن تتوعدني الموظفة بالـ «بوليس» ـ سألتها وماذا يكون شأن رصيدي في المصرف وأنتم قد حجزتم عليه؟ فقالت لي ببساطة: اشتر به لوحة فنية. وثرت بها ثورة عارمة ربما هي التي أدت إلى ذلك التهديد. وعندما سأنام الليلة سأقول للموظفة في الكابوس المقبل: يا فالحة، عندما سأشتري لوحة فنية سأكتب للبائع صكاً بالمبلغ وأوقع عليه، وسيعود الصك مرفوضاً. ألم تفكري في هذا؟

خليق بمن يكتب كتاباً أن يكون لديه ميزان في رأسه، بحيث يضبط الإملاء فلا يكتب بعض الكلمات كتابة مختلفة في كل مرة. وأنا قد اعتمدت في هذا

الكتاب على أخي الشاعر عمران القفيني، اعتمدت عليه في الإملاء، وفي ضبط النحو والصرف، وفي بضعة أمور أخرى، منها مراجعة فهمي المنحرف لبعض الأبيات. في كل مرة يصحح لي خطأ في النحو أقول في نفسي: لعلي معذور، فأنا أشكل بعض الكلمات «على الوهم». وهذا من معاذير قدامى الكتاب. ولعله يقول في نفسه: حسناً، هذا مشكول خطأ «على الوهم». ثم أسمعه بأذن التوهم يردف قائلاً: ما أكثر أوهامك يا أخي!

قد قرأ عمران معي هذا الكتاب منجماً لم يغادر منه باباً، وأشركت القارئ في ملاحظاته واستحساناته حتى يقرأ ما يقرأ وكأنه جالس إلينا.

وللصديق محمد عبد العزيز الشكر الجزيل لأنه يأبى أن يتركني بحالي، فهو يلح علي أن أوافيه بالمخطوط حتى يدفعه إلى المطبعة. وما إن يطبع الكتاب في بلد بعيد حتى أراه تجشم أجر البريد السريع ـ وهو أجر غير هين ـ لكي يأتيني بنسخة سريعة. لعله رأى فيَّ، أنا الكسول المتواني، فرخاً في العش لم ينبت ريشه، فهو يزقني زقاً، أو سيارة تعطلت في الطريق الصحراوي، فهو يزقها زقاً.

محمود سامي البارودي
(١٨٣٩م ـ ١٩٠٤م)

كان محمود سامي البارودي ـ الذي تعبت الأقلام وهي تصفه بأنه الشاعر الذي قاد عملية «إحياء الشعر العربي» ـ زعيم حركة شعرية رجعية. خرج من الركاكة التي وجدها في شعر زمانه ماشياً إلى الوراء. ركب «آلة الزمن» وضغط على الزر الخطأ فأعاده تسعمئة سنة، فرأى من النافذة رياضاً حسنة فنزل.

هذا قدر، ولا نناقش في القدر. ولا نقول لو.

كان البارودي شاعراً. كان في قلبه شعر حق، وكانت نفسه نفس شاعر، وكان ذا خيال خصب. وكان لديه من خفة الدم قدر صالح، لعله كان صالحاً جداً. . غير أن اصطناع شاعرنا اللغة القديمة عقَد لسانه.

مشكلة البارودي ـ ومشكلتنا جميعاً، المستمرة حتى اليوم، ومشكلتي وأنا أكتب هذا الكلام ـ أن إرثنا اللغوي قديم ومكتنز، فنحن لا نريد أن نخلع ذلك الثوب خلعاً. لا نريد أن نكتب باللهجة التي تعلمناها من أمهاتنا، بالعامية كيفما كانت، باللهجة التي نتحدث بها في الشارع وفي الجلسة الثقافية، وفي كل مكان. اللهجة التي ليس فيها «تشكيل»، وليست فيها ألفاظ وأساليب عتيقة. نحن كلنا ـ حتى دعاة الحداثة، وحتى كاتبو قصيدة النثر ـ نكتب بالفصحى. والفصحى ليست لساننا البريء. وقد ورثنا، ضمن ما ورثنا، شعراً كثيراً طال تردادنا له في المدارس، وهذا الشعر ذو رائحة نفاذة، وهو طبيخ معقد فيه مكونات كثيرة وتوابل، له أوزان كثيرة ولهذه الأوزان قواعد صارمة. وله طرائق في التعبير بناها القدماء عبر قرون كثيرة. فكل عصر شعري يتخذ من كل ما سبقه أساساً، ويضيف مدماكاً.

انظر إلى شعر إيليا أبو ماضي في بواكيره، وستفتح عينيك دهشة. . ستسمع صليل السيوف، وستقابل لغة متنبئية.

البارودي قَدَرُ شعر الفصحى. قدر هذا الشعر أن يستأنف مسيرته الطويلة بعملية «مراجعة». عز علينا أن نرمي ما بقي في القِدر من طبخة الأمس ـ التي وضعنا فيها ألواناً من التوابل وبالغنا في تجويدها بمقادير محسوبة من المكونات المختلفة ـ ونطبخ طبيخاً جديداً؛ فأضفنا إلى طبخة الأمس بعض الخضار ورفعنا القدر على النار.

قد وفر البارودي على نفسه كثيراً من الجهد إذ جعل الشعر العباسي وحده نموذجه، وهذا واضح من «مختاراته» التي لم تضم شيئاً سوى الشعر العباسي. على أن الشعر العباسي يحمل في جوفه قدراً كبيراً من طبخة أول أمس. فهو امتداد للشعر الأموي والجاهلي.

حتى الطرماح والكميت، اللذان عاشا في قلب العصر الأموي، كانا موضع انتقاد لأنهما كانا يحاولان تمثل القديم ويسعيان في ذلك سعياً. وحتى الفرزدق، فهو كان يحفظ الشعر الجاهلي ويطبع شعره عليه.

هذه السمة الرجوعية التي نجدها بتفاوت في شعرنا العربي كله جعلت من هذا الشعر إرثاً واحداً، وجعلته لوحة جدارية ضخمة يروعك وأنت تنظر إليها من بعيد ذلك التماسك رغم كثرة التفاصيل. وهذه الجدارية البديعة هي ما أدى بنا إلى تعقب أكثر من أربعين شاعراً في سلسلة «الزبدة» هذه، التي بيدك الجزء الرابع منها.. أردنا أن ننظر إلى اللوحة التي اكتملِ تشكلها وقعدت داخل إطارها. فأما لو نظرت إلى الشعر الذي قلناه بعد أن طلَّقنا العمودي فسوف ترى لوحة أخرى مختلفة، ولعلها لم تكتمل بعد.

المتنبي والبارودي والمتقمصات الهنديات

ترفع سماعة الهاتف وأنت في بيتك في كاليفورنيا، عذراً للتعبير العتيق.. بل أنت تدق الرقم على موبايلك. تريد أن تعرف عن العرض المغري الذي طرحته شركة السيارات. ويأتيك على الخط صوت فتاة رقيقة تحدثك بلهجة نيويورك وتشرح لك العرض وشروطه، وتجيب عن أسئلتك. هذه الفتاة ليست من نيويورك، وليست أميركية. هي تعيش في شقة ضيقة في نيودلهي بالهند على مسافة ١٢ ألف كيلومتر. وهذه الفتاة تعيش حياة غريبة.. تلبس الملابس التي تلبسها فتيات نيويورك، وتصبغ شعرها كشعورهن، وتتعاطى مساحيق تبييض البشرة، وتنفق ساعات عمرها وهي تتقمص شخصية فتاة نيويوركية، وتتخذ

لنفسها اسماً ملائماً للحالة.. تسمي نفسها ماري مثلاً. وتخوض مع نفسها صراعاً، قد تجده لذيذاً، لتقمص شخصية أخرى، ونقطة البداية هي «دي إنديانايزيشن» أي «نزع الهنديَّة»، تخلع الفتاة شخصيتها الهندية، وتتعلم طريقة الكلام النيويوركية من حيث اللهجة ومن حيث الكلمات المستعملة، ومن حيث اتخاذ الموقف الأميركي من الأشياء. وفي النهاية تنجح.. وآلاف نجحن. عندما تطلب رقاقة بيتزا من المطعم المجاور لبيتك في سان فرانسيسكو فالفتاة الهندية على بعد اثني عشر ألف كيلومتر ستسألك إن كانت البيتزا التي تريدها رقيقة أم منفوخة، وستخوض معك في الزوائد التي تريدها فوق بيتزتك.. لائحة المطعم محفوظة في عقلها.

تعيش «ماري» هنديةً في الصباح ونيويوركية في الليل. قد لا تستطيع أن تتخلى عن الكاري والماسالا لصالح البيتزا الرديئة التي تبيعكها، لكنها تستطيع أن تفرض على إنسانيتها شيزوفرينا لذيذة.

في حياته اليومية كان المتنبي إنساناً يعيش عصره، فإذا جنه الليل أوقد شمعته وكتب أبياتاً يستحضر فيها روح الشعراء القدامى وأساليبهم.

والبارودي عاش فِصامه، يتقمص الشعراء القدامى حيناً ويحاكيهم حيناً. ومثلما كانت تبرز شخصية المتنبي الحقيقية عندما يغضب كانت شخصية البارودي الحقيقية تظهر عندما يحزن. فأما إن غضب البارودي فكان يستعير ثوب المتنبي ليغضب فيه.

عارض البارودي أبا فراس الحمداني في قصيدته (أراك عصي الدمع)، فقال قصيدة في بحرها وقافيتها، ولم نأخذ من قصيدة البارودي شيئاً. وسترانا ـ إذا قرأت ما صنعناه عن أبي فراس ـ نأخذ أبياته الأربعة والخمسين كلها، لم نترك منها بيتاً واحداً. أعود الآن وأقرأ قصيدة أبي فراس، يا لها قصيدة! هذا شيء لا يحاكى.

لئن جازت الهندية المتقمصةُ قميصَ نيويورك في الأميركيات فإن الشاعر المحاكي لا يجوز في الشعراء الأصل.

الآن، كيف أخلع نفسي من أبي فراس ومن المتنبي ومن أبي نواس وأعود إلى البارودي المقلد؟ هل أستطيع بعد الشوكولاطة السويسرية والبلجيكية أن أعود إلى شوكولاطة بلدنا التي كنا نمضغها طويلاً وتأبى أن تذوب.

أضع القلم. وأنتظر سانحة أكمل فيها هذه المقدمة.

الإمساك بالقلم

فلماذا، بعد كل هذا الذي قلته عن البارودي المقلد، أختار من شعره وأكتب مقدمة عنه؟ لا بل لماذا أهتم أصلاً بكل الشعر العربي الذي قيد نفسه بقيود محاكاة القديم؟

هذا كله تاريخنا، وهذا ما عندنا من زاد شعري. وقد قرأت أمس مقالة لأحمد أمين شن فيها حرباً هوجاء على الشعر العربي، وطالب بأن لا ندرس التلاميذ إلا أقل القليل منه. وكنت طالبت بذلك كثيراً، وقد فرحت إذ وجدت من يؤيدني. وثمة شيء آخر.. أنا نفسي نتاج كل هذا التاريخ. فلا تظن أبداً أنني لا أستمتع بشعر المتنبي، وبشعر شوقي، و.. بشعر البارودي أيضاً. أنا عتيق في ذوقي الشعري.. هكذا رمتني رحم أمتي.. هكذا شكلتني العصور السابقة. ومثلما أشتهي أن أعتمر طربوش جدي، وأرتدي بذلته ذات الصدرية، وأن أضع في جيب تلك الصدرية ساعة بسلسلة مثل ساعته، أشتهي أن أطالع الشعر القديم. لكنني لا أرتدي ملابس جدي، ربما خشية أن أصبح أضحوكة في البلد. فلماذا أطالع الشعر القديم؟ ثمة ههنا أمران: فائدةٌ تاريخية، فالشعر القديم أبلغ في وصف عصوره المختلفة من كتابات المؤرخين، وومضاتٌ شعورية، فكل شعر ـ حتى ذلك الذي يحاكي في موضوعاته، وأسلوبه، ومفرداته العصور السابقة عليه ـ فيه شيء من نبض الشاعر، وفيه قدر من مشاعره.

حياة البارودي

سماه محمود شاكر «الإمام الأول» الذي «ردَّ الشعر إلى شباب فقده في عصور متتابعة». ومدحه مصطفى صادق الرافعي كثيراً، ونبهنا إلى أن البارودي وَلَد شوقي. وقال فيه العقاد إنه «وثب بالعبارة الشعرية وثبة واحدة من طريق الضعف والركاكة إلى طريق الصحة والمتانة... فإذا أرسلت بصرك خمسمئة سنة وراء عصر البارودي لم تكد تنظر إلى قمة واحدة تساميه أو تدانيه» فهو «الإمام القدير» و«الفضل الذي له على عصره أكبر من الفضل الذي لعصره عليه.. وذلك وحده خليق أن يبوئه زعامة جيله، ويقدمه إلى طليعة معاصريه وتابعيه». وفي الكلمة الأخيرة «تابعيه» يريد العقاد أن يجعل البارودي أعلى من شوقي مقاماً.

ذكروا في تاريخ مولده ثلاثة أعوام ميلادية متتالية، فإن صح ما اتفقوا عليه من أنه ولد في رجب عام ١٢٥٥ للهجرة فقد ولد محمود سامي البارودي عام ١٨٣٩.

ولد جركسياً ابن جركسي وجركسية. وهؤلاء من بعض المماليك. وكان محمد علي باشا قد قتل قادة المماليك في مذبحة القلعة قبل ولادة شاعرنا بثمان وعشرين سنة. قتل منهم بضع مئات غيلة وغدراً، ثم تعقبهم جنوده بالقتل في أنحاء مصر. واستتب الأمر لمحمد علي. والبقية الباقية من المماليك الذي لجأوا إلى دنقلة بشمال السودان ظلوا فيها حتى بعد أن اكتسحتها جنود محمد علي. واحتفظ الصف الثاني من المماليك بمزارعهم وبوظائفهم وخدموا دولة محمد علي جنوداً وموظفين، فهذا الحاكم الباطش دخيل على مصر وقادته دخلاء، والمماليك دخلاء. بانتهاء سطوة المماليك دخلت بقيتهم في خدمة الدولة، ومن هؤلاء والد شاعرنا حسن حسني بك أحد أمراء المدفعية.

لعل العائلة منسوبة إلى إيتاي البارود في مديرية البحيرة بمصر، ولعله كان لها أملاك في الدلتا، وفي القاهرة، فقد قيل لنا إن محمود سامي ولد في القاهرة. وقد ذاق اليتم باكراً، فأبوه يعيش في دنقلة بالسودان وهو يعيش عند أخواله بمصر، وما بلغ السابعة حتى توفي أبوه في دنقلة.

تهمنا هذه السنوات السبع الأولى في حياة البارودي، وفي حياة كل إنسان نحاول أن نفهمه. لقد عاش فيها مدللاً عند أخواله، ولا نظنه عانى كل ما يعانيه يتيم الأب. وكان خاله إبراهيم شاعراً. وبخاله افتخر في الشعر، كأنما أراد أن يقول إنني من بيت فيه شعر. وخير ما صنعه له بيت خاله أنه جنَّبه دخول تلك المدارس التي كانت موجودة في القاهرة آنذاك ـ وسيأتي زمن تغلق فيه، ثم سيأتي زمن تفتح فيه من جديد ـ، لقد درس في البيت. درس على خاله وعلى معلمين كانوا يَغْشون ذلك البيت. وطالع كتب النحو والصرف والعروض والبلاغة. (وقد مزق الباحثون الجادون أسطورة، اخترعها حسين المرصفي وتلقاها دون تمحيص الرافعي، بأن البارودي لم يعرف شيئاً من علوم اللغة). على أن دراسة البارودي كانت تلك الدراسة الحرة التي تؤتي ثمراً أطيب بكثير من الدراسة المقيدة في المدارس.

لعله بين السابعة والثانية عشرة لم يقرأ سوى الأشعار والقصص، على أنه بعد ذلك ثقف نفسه بعلوم العربية، ما وسعه.

في الثانية عشرة دخل المدرسة الحربية أسوة بأبناء الجراكسة. وتخرج بعد

أربع سنين وعمره ست عشرة سنة. وأصبح ضابطاً في الجيش. في تلك السنة نفسها تولى سعيد باشا عرش مصر.

وهو طفل يقرأ القصص في بيت خاله كان البارودي يسمع عن أمجاد محمد علي العجوز الذي حكم مصر قرابة خمسين سنة، وما دخل المدرسة الحربية إلا وعباس الأول على عرش مصر، وتخرج منها وسعيد في الحكم. ومكث البارودي بضع سنوات لاهياً، ثم توجه إلى إستانبول، والتحق بوزارة الخارجية، وفي عاصمة الدولة العثمانية ـ وكانت مصر تتبعها بعض التبعية ـ أتقن البارودي التركية، وتعلم الفارسية، وزعموا أنه قال شعراً في اللغتين، غير أنه لم يصلنا شيء من هذا. ولا نظنه إلا قد انشغل بما في إستانبول من كتب عربية مطبوعة ومخطوطة، ولا سيما دواوين الشعراء القدامى.

ومات سعيد باشا، وتولى عرش مصر إسماعيل، وفي سنة توليه الحكم توجه إسماعيل باشا إلى إستانبول، ليعود منها وبصحبته محمود سامي البارودي الذي كان بلغ الرابعة والعشرين. وترقَّى البارودي في الجيش، وحضر دورة عسكرية في فرنسا وأخرى في بريطانيا، وكانت هاتان الدولتان قد بدأتا تعدان الخطط لتضييق الخناق على مصر التي كانت تُحفر فيها قناة السويس، وتعِد بموقع استراتيجي متزايد الأهمية.

وكان إسماعيل باشا (وسنقول «الخديوي» إسماعيل منذ سنة ١٨٦٦ حين نال اللقب من السلطان العثماني، ونال معه الحق في توريث العرش لأكبر أبنائه) قد بدأ نهضة كبيرة في التعليم والعمران ذكَّرت الناس بجده محمد علي. في هذه السنة نفسها قامت في جزيرة كريت (في اليونان حالياً) ثورة على الحكم العثماني، فأرسل إسماعيل جيشاً لقمعها كان من بين ضباطه البارودي. وأخمدت الثورة. وقال البارودي في ذلك شعراً، غير عالم أنه سيشارك عما قليل في ثورة ستُخمد، وسيقول فيها شعراً من نوع آخر.

ثم استرخى البارودي في مزرعته، يلهو ويقول الشعر، ويتصل بأقطاب البيان في مصر، وأهمهم الشيخ حسين المَرصَفي، صاحب الكتاب التعليمي المدرسي المهم «الوسيلة الأدبية»، وأهم شيء في هذا الكتاب على الإطلاق أنه احتوى على قصائد عديدة للبارودي. كان حسين المرصفي شيخ العربية في دار العلوم التي أنشئت في أواسط عهد إسماعيل. وكانت داراً للعلوم حقاً، وفيها عدد من الأساتذة الأوروبيين وخصوصاً الفرنسيين يدرسون العمارة والسكة

الحديد والآلات والفلك والتاريخ. وجاءها المرصفي من الأزهر، وهو شيخ معمم أعمى يحب اللغة ويحب الأدب، ويعرف كيف يصيخ بسمعه إلى شعر متين السبك حتى لو جاء من شاب يافع. وباعتناء الشيخ بأشعار الشاب ونشره لها في كتابه الخطير عرف شوقي أن الشعر العربي المتين يمكن له أن يولد في هذا الزمن أيضاً. ويخبرنا الرافعي بأن تأثر شوقي بالبارودي أهم من تأثره بالمتنبي والبحتري لما بين شوقي والبارودي من معاصَرة.

في هذه الفترة عب البارودي من شعر القدماء ما شاء له أن يعب.

ولما كنا قلنا «ما شاء له» وهي عبارة طه حسين الأثيرة، فنحن نذكر المرصفي الآخر «سيد بن علي المرصفي» الذي تلقى عليه طه حسين وعدد من كبار الأدباء في زمنه علمهم، وكان سيد المرصفي محباً للأدب راعياً للشباب كابن قريته حسين المرصفي.

اثنتا عشرة سنة وضع فيها البارودي السيف في قرابه، وراح يدرس الأدب، ويحفظ روائع الشعر القديم، وقد يقوم بمهام دبلوماسية إلى إستانبول، وقد يخلد إلى مزرعته يلهو ويشرب، ويقول في ذلك الشعر. ثم قامت حرب البلقان بين روسيا والدولة العثمانية سنة ١٨٧٨، فأُرسل البارودي، وهو الآن ضابط مهم في نحو الأربعين من عمره، إلى الجبهة. وقال في ذلك شعراً كثيراً.

بعد هذه الحرب بقليل نُحي إسماعيل عن الحكم بضغط من فرنسا وبريطانيا، وتولى عرش مصر ابنه توفيق. وكان البارودي قريباً من توفيق وهو ولي عهد. فترقى البارودي وأصبح مديراً للأوقاف، ثم جمع إليها الحربية. ثم اختلف مع رئيس النظار (رئيس الوزراء) رياض باشا، فاستقال، وجيء بشريف باشا، فعاد البارودي، ثم استقال شريف، فعين البارودي في عام ١٨٨٢ رئيس وزراء لأربعة أشهر. وسميت وزارته «وزارة الثورة» لأنها ضمت ثلاثة من أقطاب الثورة.

كان الجيش متململاً، يشعر ضباطه أن أقدار البلاد ومقدراتها تتسرب لتكون بيد الإنجليز والفرنسيين. وكان في الجيش سخط على عدم إعطاء الوطنيين، وعلى رأسهم أحمد عرابي، المكانة التي يستحقون بإزاء الجراكسة. ومع أن البارودي كان رأس الجراكسة فقد كان محبوباً من الجميع، وكان يعطف على قضية الجيش في وجه التضييق الأوروبي.

كانت ديون مصر كثيرة، فقد أسرف إسماعيل في الاستدانة ليبني البنايات وينشئ المدارس ويقوي الجيش، و.. ليكون مسرفاً.. واتخذ الأوروبيون من

هذه الديون حجة للاستيلاء على مصر التي جعلت لها قناة السويس من الموقع الاستراتيجي ما أسال لعاب أوروبا.

أراد الجيش خلع الخديوي توفيق، ولكن عرابي تلكأ في إعلانها صريحة، ولعل حلم السلطة نما في عقل البارودي، ولكنه آثر الاكتفاء بالتعاطف مع الجيش، دون التقدم خطوة أخرى نحو الانقلاب على توفيق.

ودخل الإنجليز مصر، وهزموا جيش عرابي، وحكموا عليه وعلى البارودي وعلى بعض كبار الضباط بالنفي. وعلى سفينة إنجليزية حُمل الضباط إلى جزيرة سيلان، سرنديب.

قضى البارودي سبع سنين في كولمبو، ولما استفحل الشقاق بين الضباط وتراشقوا بالاتهامات بشأن أسباب فشل حركتهم، انتحى البارودي في «كاندي» في وسط الجزيرة (و١٤٪ من سكانها الآن، بحسب الويكيبيديا، مسلمون). وراح يعلم المسلمين العربية ويؤمهم في صلاتهم. وقيل إنه تعلم الإنجليزية هناك. ومن سرنديب (جزيرة سيلان، وهي الآن دولة سريلانكا) كان البارودي يتصل بمصر بالبريد، ويتساجل مع الأدباء كالأمير شكيب أرسلان.

كان منفاه السرنديبي سبع عشرة سنة قال فيها بعض أجمل شعره، ورجع بعدها إلى مصر بعفو في مايو/أيار ١٩٠٠، وفي القاهرة توفي في ديسمبر/كانون الأول ١٩٠٤.

خدم البارودي شعره بأن جمعه قبل وفاته، وكتب له مقدمة. وقد غير في أبياته بعض التغيير، وخفف من غلواء الغزل والمجون بعض التخفيف، ويبدو هذا واضحاً من خلال مقارنة أبيات الديوان بأبيات نشرها المرصفي في «الوسيلة الأدبية». كان البارودي في آخر سنواته قد فقد بصره، على أن بيته أصبح مجلساً عامراً بأهل الأدب.

وقد طبع ديوانه بعد وفاته، طبعتْه أرملته، وطَبعت مختاراته التي هي قصائد لثلاثين شاعراً عباسياً جمعها البارودي ورتب شعراءها تاريخياً، وهي تملأ ثلاثة مجلدات كبيرة.

عاش شعر البارودي، واخترنا منه صفحات كثيرة رغم ما قلنا عن صاحبه من أنه رجع للوراء.. فقد عاش شعر البارودي لأنه شعر جميل فيه قوة وفيه تعبير صادق عما في نفس صاحبه من فرح وألم. هذا شعر طيب، فإن كنت ما زلت تحت تأثير كلامنا الأول فهذه دعوة إلى الاتزان: شعر البارودي شعر ذكي، وفصيح.

١ شقيقة القمرين

يا هاجري مِن غيرِ ذنبٍ في الهوى، مهلاً، فهجرُكَ والمنونُ سَواءُ

المنون: الموت

أَغريْتَ لَحْظَكَ بالفؤادِ فَشَفَّهُ ومِنَ العيونِ على النفوسِ بَلاءُ

أغريت نظرك بفؤادي فشفه (براه برياً فجعله شفافاً)، وقد يقع البلاء على النفوس من عيون الجميلات

هِيَ نظرةٌ، فامْنُنْ عَلَيَّ بِأُختِها فالخمرُ، مِن ألمِ الخُمارِ، شفاءُ

انظر إليَّ أيها المحبوب مرة أخرى تشفيني من النظرة الأولى، فهذا مثل الخمر التي تصيب المرء بالخمار (صداع السكر) فيداويه بشرب مزيد من الخمر

لا أنتَ ترحمُني، ولا نارُ الهوى تخبو، ولا للنفسِ عنكَ عزاءُ

فبِقلبِ كلِّ فتىً غرامٌ كامنٌ وبِعِطْفِ كلِّ مليحةٍ خُيَلاءُ

العطف: الخصر، الخيلاء: الزهو والتثني

فَدَعِ التكَهُّنَ يا طبيبُ، فإنَّما دائي الهوى، ولكلِّ نفسٍ داءُ

أَلَمُ الصَّبابةِ لَذَّةٌ تحيا بها نفسي، ودائي لو علمْتَ دواءُ

حَكَمَ الجمالُ لها بما تختارُهُ فتحكَّمَتْ في الناسِ كيف تشاءُ

أَشقيقةَ القَمريْنِ! أيُّ وسيلةٍ تُدْنيِ إليكِ، فليس لِي شُفَعَاءُ

يا شقيقة الشمس والقمر، كيف أتقرب منك؟ فليس لي من يشفع عندك

والناسُ أشباهٌ، ولكنْ فَرَّقَتْ ما بينَهُمْ في الرُّتْبةِ الآراءُ

الناس متشابهون جسماً، والفوارق بينهم في المنزلة قائمة على الآراء (الفكر والمواقف). التسويد لعمران القفيني

والنفسُ إنْ صَلَحَتْ زَكَتْ، وإذا خَلَتْ مِن فِطنةٍ لعبتْ بها الأهواءُ

النفس الصالحة تزكو (تسمو وتنمو)، وإذا خلت من الفطنة تميل مع شتى الأهواء

كيف الوثوقُ بذِمَّةٍ مِن صاحبٍ وبِكُلِّ قلبٍ نُقطةٌ سوداءُ؟

كيف أثق بصاحب وكل امرئ له قلب وكل قلب فيه نقطة سوداء (يشير إلى تعبير سويداء القلب أي وسطه/ إن فلقت قلب دجاجة رأيت النقطة السوداء)

فانفُضْ يديْكَ مِن الزمانِ وأهلِه فالسعيُ في طلبِ الصَّديقِ هَبَاءُ

٢ الصغيرة الواسعة

قال يمدح الخديوي عباس حلمي الثاني:

أَوْلَيْتَنِي منكَ الرضا، وجَلَوْتَ لِي وجهاً قرأتُ البِشْرَ في أثنائِهِ

أوليتني: منحتني، جلوت لي: بينت لي

العدلُ مِنْ أخلاقِهِ، والعلمُ مِنْ أوصافِهِ، والحِلْمُ مِن أسمائِهِ

هذا الخديوي عادل عالم حليم، والحلم من أسمائه إشارة إلى اسمه المركب «عباس حلمي»

لا غَرْوَ أنْ جمعَ المَحامِدَ يافِعاً وسما بهِمَّتِهِ على نُظَرائِهِ

لا غرو: لا عجب، يافعاً: فتى، وارتفع بهمته (طموحه) على أقرانه

فالعينُ وَهْيَ صغيرةٌ في حجْمِها تَسَعُ الفضاءَ بِأرضِهِ وسمائِهِ

فهو في صغره واسع المعرفة والطموح، ولا عجب فالعين على صغرها ترى الأرض والسماء فكأنها تسعهما

٣ في الواقع.. هي نار

قال يذكر أياماً مضت له بالجيزة:

حمراءُ دارَ بها الحَبابُ، كأنَّها شَفَقٌ بَدَتْ فيهِ نجومُ سماءِ

خمر حمراء دار على وجه كأسها الحباب (الفقاقيع)، فكأن الخمر بحمرتها شفق الشمس عند المغيب، وكأن الفقاقيع نجوم تتلألأ

وإذا رجعتَ إلى اليقينِ فإنَّها نارٌ تَحَلَّلَ جسمُها في ماءِ

وفي الواقع فالخمر بلونها الأحمر ومذاقها اللاسع كالنار، وعند مزجها بالماء فكأن جسمها يتحلل فيه

تَجرِي فتفعَلُ بالعقولِ كؤوسُها ما تفعلُ الألحاظُ بالأحشاءِ

التسويد لعمران القفيني

هِيَ جَمْرَةُ الفُرْسِ التي سجدتْ لها أَمْلاكُها في سالِفِ الآناءِ

الخمر كنار المجوس التي كان يسجد لها أملاكها (ملوكها) في سالف الآناء (الأزمان)

أنا في زمانٍ غادرٍ، ومَعاشِرٍ يَتلوَّنونَ تَلَوُّنَ الحِرباءِ

شَقِيَ ابنُ آدمَ في الزمانِ بعقلِه إن الفضيلةَ آفةُ العُقلاءِ

٤ حفل زفاف

أَلَا عـاطِـنـيِـهـا بـنـتَ كَـرْمٍ تَـزوَّجَـتْ ... عـلـى نَـغَـمـاتِ الـعـودِ بِـابـنِ سـمـاءِ

عاطنيها (بادلني كؤوسها) بنت كرْم (معصورةٍ من عنب الكروم) وقد مزجت بالماء الذي هو ابن السماء، وهكذا تزوجت بنت الكرم ابن السماء على نغمات العود في مجلسنا هذا

إذا اتَّقَدتْ في الكأسِ خِلْتَ وَميضَها ... عـلـى وَتَـراتِ الـكَـفِّ نَـضْـحَ دِمَـاءِ

تشتعل الخمر في الكأس بلونها الأحمر وتظن وميضها إذ ينعكس على وترات الكف (الجلد الذي بين الأصابع) نضح دماء (دم مرشوش)

أبـي آدَمٌ بـاعَ الـجِـنـانَ بِـحَـبَّـةٍ ... وبِـعْـتُ أنـا الـدنـيـا بِـجَـرْعَـةِ مـاءِ

آدم أخرجته من الجنة تفاحة، وأنا بعت دنياي بشربة ماء (يعبث بالتعبير العامي، وهنا تورية لطيفة، فشربة الماء هي الخمر، وهي أيضاً أنه باع الدنيا بسهولة.. بشربة ماء). التسويد لعمران القفيني

٥ إلا أقلهم

ومِـنَ الـنـاسِ مَـنْ تَـراهُ سَـلـيـمـاً ... وبـه لِـلْـحُـقـودِ داءٌ عَـيـاءُ

سليماً: بريئاً، الحقود: الأحقاد، داء عياء: أعيا الأطباء

فاحْذَرِ الناسَ ما استطعْتَ فإنَّ النَّـ ... ـاسَ، إلَّا أقـلَّـهُـمْ، أعـداءُ

٦ سواي

قال في صباه يَرُوض القول:

سِـوايَ بِـتَـحْـنَـانِ الأغـاريـدِ يَـطـربُ ... وغـيـرِيَ بـاللَّـذاتِ يـلـهـو ويُـعْـجَـبُ

لست أنا من يهتم بالأغاريد (الأغاني) وبالملذات.. فأنا أخو حرب وضرب

ومـا أنـا مِـمَّـنْ تَـأْسِـرُ الـخـمـرُ لُـبَّـهُ ... ويـمـلِـكُ سَـمْـعَـيْـهِ الـيَـراعُ الـمُـثَـقَّـبُ

ولا تستولي الخمر على قلبي (يشربها لكن دون أن يكون عبداً لها)، ولا يستولي على سمعي اليراع المثقب (القصبة ذات الثقوب، أي الناي، أي الموسيقى)

ولـكـنْ أخُـو هَـمٍّ، إذا مـا تَـرَجَّـحَـتْ ... بـه سَـوْرَةٌ نـحـوَ الـعُـلا راحَ يَـدْأَبُ

لكنني أخو هم (صاحب طموح) إذا ترجحت به (تأرجحت) سورة (فورة نشاط وغضب) تؤدي نحو المجد فهو يحث خطاه

نفَـى الـنـومَ عـن عَـيـنـيْـهِ نفسٌ أَبِـيَّـةٌ ... لـهـا بـيـن أطـرافِ الأَسِـنَّـةِ مَـطْـلَـبُ

أسهرته نفسه الأبية (الرافضة لما يشين) التي تجد مطلبها في الكفاح بين الأسنة (أطراف الرماح)

وَمَن تَكُنِ العَلياءُ هِمَّةَ نفسِه فكلُّ الذي يَلقاهُ فيها مُحَبَّبُ

من تكن العلياء (المجد) همة نفسه (طلبه ومطمحه) أحب الصعوبات التي يلقاها في سبيل الوصول

إذا أنا لم أُعطِ المكارمَ حقَّها فَلا عَزَّني خَالٌ، ولا ضَمَّني أَبُ

إذا لم أبذل للمكارم (الأمجاد) ما تستحق من جهد فليس لي أن أعتز بأخوال ولا أعمام

ولا حملتْ دِرعي كُمَيْتٌ طِمِرَّةٌ ولا دارَ في كفِّي سِنانٌ مُذَرَّبُ

ولا معنى لركوبي، لابساً درعي، الكميت (الفرس الداكنة اللون) الطمرَّة (الفرس العالية)، ولا لحملي الرمح ذا السنان المدبب الحاد

خُلِقْتُ عَيُوفاً لا أَرى لابْنِ حُرَّةٍ لَدَيَّ يَداً أُغضي لها حين يَغْضَبُ

خلقت عيوفاً (أبياً) لا أرى لأحد يداً علي (فضلاً يمن به) بحيث أغضي (أطأطئ رأسي) عند غضبه

فلستُ لِأمرٍ، لم يكنْ، مُتَوَقِّعاً ولستُ على شيءٍ مضى أَتَعَتَّبُ

لا أترقب بخوف أمراً لم يحدث بعد، ولا أتعتب (أتذمر) على شيء حدث وانتهى

أسيرُ على نهجٍ يرى الناسُ غيرَه، لكل امْرِئٍ فيما يحاولُ مَذهَبُ

طريقي خلاف ما يرى الناس، ولكل إنسان في تحقيق أغراضه طريق

وبَحْرٍ مِنَ الهيْجاءِ خُضْتُ عُبَابَهُ ولا عَاصِمٌ إلَّا الصَّفيحُ المُشَطَّبُ

ورب هيجاء (حرب) كأنها البحر، وقد خضت عبابه (موجه) إذ لم يكن هناك ما يعصم المرء (يقيه) إلا الصفيح المشطب (السيف ذو الحزوز)

تظلُّ به حُمْرُ المنايا وسُودُها حَواسِرَ في أَلوانِها تتقلَّبُ

وبحر الحرب هذا فيه المنايا الحمر والسود (الموت جرحاً أو خنقاً)، وهذه الميتات حواسر (كاشفة رؤوسها) وتتقلب بين المتحاربين آخذة هذا وذاك

تَوَسَّطْتُهُ والخيلُ بالخيلِ تلتقي وبِيضُ الظُّبَا في الهَامِ تبدُو وتَغْرُبُ

دخلت وسط القتال حيث الخيل تلتقي بالخيل، وحيث بيض الظبا (شفرات السيوف) تظهر ثم تغرب (تغيب) داخل الرؤوس

فما زِلْتُ حتى بَيَّنَ الكَرُّ مَوقِفي لدى ساعةٍ فيها العقولُ تَغَيَّبُ

ظللت في المعمعة أقاتل حتى بدأ الكر (التقدم) فشوهدتُ هاجماً بعد إذ كنت مختفي الشخص في الالتحام، وهذه ساعة تغيب فيها العقول لهولها

لَدُنْ غُدْوَةٍ حتى أَتى الليلُ، والتَقى على غَيْهَبٍ مِن سَاطِعِ النَّقْعِ غَيْهَبُ

هذا عند غدوة (باكراً).. ثم استمر القتال حتى الليل فالتقى غيهب (ظلام) ساطع النقع (الغبار المرتفع) بظلام الليل

يَوَدُّ الفتى ما لا يكونُ طَمَاعَةً ولم يَدْرِ أن الدهرَ بالناسَ قُلَّبُ

المرء يتمنى ما لا يكون (المستحيل) طمعاً، غير مدرك أن الزمن يتقلب بالناس

ولو عَلِمَ الإنسانُ ما فيه نَفْعُه لأَبصَرَ ما يأتِي وما يَتَجَنَّبُ

ولو علم المرء سلفاً الأمر الذي فيه فائدة له، لكان عرف ما الذي يجب أن يأتيه (يفعله) وما الذي يجب أن يتجنبه. التسويد لعمران القفيني

٧ ذو الهيبة والبديهة

في مدح الخديوي إسماعيل:

ذو هَيْبَةٍ تكفيهِ سَوْقَ جنودِه وبَديهةٍ تُغني عن التَّجريبِ

له هيبة لا حاجة به معها إلى أن يقود الجنود ليحارب عدواً، فالعدو لا يجرؤ على تحديه أصلاً، وله بديهة (فكر فطري) يجعله يدرك الأمور قبل أن يجربها

٨ نعاشر من لقينا

قال يذكر أيام الشباب:

زمانٌ كلَّما لاحَتْ بِفِكري مَخَايِلُهُ بَكَيْتُ لِفَرْطِ ما بي

مخايله: صوره المنطبعة في الخيال

مَضى عنِّي وغادرَ بي وَلُوعاً تَوَلَّدَ منه حُزني واكتِئابي

الوَلوع، ونقول اليوم الوُلوع، وهي أقيس: شدة التعلق

وكيف تَلَذُّ بعد الشَّيْبِ نفسي وفي اللَّذاتِ إنْ سَنَحَتْ عذابي

إن أتيحت الملذات وجدتها تعذبني لأنني شبت

أَصُدُّ عن النَّعيمِ صُدودَ عَجْزٍ وأُظْهِرُ سَلْوَةً، والقلبُ صَابِ

أتجنب الحياة المرفهة عجزاً عن الاستمتاع بها، وأبدي سلوة (انصرافاً عنها)، مع أن قلبي يصبو (يحن)

حَلَبتُ الدهرَ أَشْطُرَهُ مَلِيَّاً وذُقتُ العيشَ مِنْ أَرْيٍ وصَابِ

حلبت الدهر أشطره (تمرست واحتنكت) ملياً (كثيراً)، وذقت الأري (العسل) والصاب (المرّ)

فما أبصرتُ في الإخوانِ نَدْباً يَجِلُّ عنِ المَلامَةِ والعِتابِ

لم أجد في الأصدقاء ندباً (مبادراً للنصرة) يرتفع قدره عن اللوم والعتب

ولـكـنَّـا نُـعـاشِـرُ مَـنْ لَـقِـينـا   عـلـى حُكْـمِ الـمُـروءَةِ والتَّغـابـي

نعاشر من نلقى ونستعمل معهم المروءة والتغابي (التغاضي بادعاء الغباء)

٩ انتهاء العمران بدء الخراب

قال وهو بسَرَنْدِيب يتشوق إلى مصر، ويرثي صديقه الشيخ حسيناً المَرْصَفِيّ، وعبد الله باشا فكري:

كـلُّ شـيءٍ يَـسْـلُـوهُ ذو الـلُّـبِّ إلَّا   مـاضِـيَ اللَّـهْـوِ فـي زمـانِ الـشـبـابِ

ينصرف العاقل عن كل شيء إلَّا ذكرى لهوه في شبابه

فـلـئِـنْ زالَ، فـاشْـتـيـاقـي إلـيـهِ،   مِـثْـلُ قـولـي، بَـاقٍ عـلـى الأَحْـقـابِ

زال الشباب ولكن اشتياقي إليه باق على مرور الأزمان، وكذا شعري.. فشعري باقٍ على الزمان

يـا نَـديـمَـيَّ مِـنْ «سَـرَنْـدِيـبَ» كُـفَّـا   عـن مَـلامـي، وخَـلِّـيَـانـي لِـمَـا بـي

سرنديب: جزيرة سيلان، وهي دولة سريلانكا، وكان البارودي منفياً فيها

كـيـف لا أَنْـدُبُ الـشـبـابَ وقـد أَصْـ   ـبَـحْـتُ كَـهْـلاً فـي مِـحْـنَـةٍ واغـتـرابِ

أَخْـلَـقَ الـشـيـبُ جِـدَّتـي، وكَـسـانـي   خِـلْـعَـةً مـنـه رَثَّـةَ الـجِـلـبـابِ

أخلق (أبلى، وهرأ/ من الاهتراء) الشيب ما كان جديداً من جسمي ونفسي، وكساني خلعة (ثوباً) رثة (مهترئة)

ولَـوى شَـعـرَ حَـاجِـبَـيَّ عـلـى عـيْـ   ـنَـيَّ، حـتَّـى أَطَـلَّ كـالـهُـدَّابِ

الهَداب: الشراشيب، الخيوط المتدلية من أطراف النسيج

لا أرى الـشـيْءَ حـيـن يَـسْـنَـحُ إلَّا   كـخـيـالٍ كـأَنَّـنـي فـي ضَـبـابِ

أرى الأشياء حين تسنح (تبدو) خيالاً كأن حولي الضباب لضعف بصري

وإذا مـا دُعِـيـتُ حِـرْتُ كـأَنَّـي   أَسـمـعُ الـصـوتَ مِـن وراءِ حِـجـابِ

إذا ناداني أحد تحيرت لا أعرف مصدر الصوت، كأنه يناديني من وراء ستر

كـلَّـمـا رُمْـتُ نَـهـضَـةً أَقـعَـدَتْـنـي   وَنْـيَـةٌ لا تُـقِـلُّـهَـا أعـصـابـي

إذا رمت (ابتغيت) نهضة (قياماً) أقعدتني ونية (ضعف) لا تحتملها أعصابي

لـم تَـدَعْ صَـوْلَـةُ الـحـوادثِ مِـنِّـي   غـيـرَ أَشـلاءِ هِـمَّـةٍ فـي ثـيـابِ

هجمة الحوادث (المصائب) علي تركتني أشلاء همة (بقايا عزيمة)

فَـجَـعَـتْـنـي بِـوَالِـديَّ، وأهـلـي ثـم أنْـحَـتْ تَـكُـرُّ فـي أتْـرابـي

فجعتني المصائب بأبوي وأهلي، ثم أنحت (مالت) تكر (تهجم) على أترابي (من هم في سني، لداتي)

أينَ مِنّي (حُسَينُ) بَلْ أينَ (عبدُ الـ ـلـهِ) ربُّ الـكـمـالِ والآدابِ؟

لـم أجِـدْ مـنـهـمـا بَـديـلاً لِـنـفـسـي غـيـرَ حُـزنـي عـلـيـهِـمـا واكـتـئـابـي

ليس لي من يعوضني عن فقدهما، وبقي لي منهما الحزن والاكتئاب

قد لَعَمري عرفتُ دهري، فأنْكَرْ تُ أُموراً ما كُنَّ لـي في حِسابِ

وتَـجَـنَّـبْـتُ صُـحـبـةَ الـنـاسِ حـتـى كـانَ عَـوْنـاً عـلـى الـتُّـقَـاةِ اجـتِـنـابـي

اجتنابي الناس أعانني على التقوى

لا أُبـالـي بِـمـا يُـقـالُ، وإن كُـنْـ ـتُ مَـلِـيَّـاً بِـرَدِّ كـلِّ جـوابِ

ملياً: قادراً

قد كفاني بُعدي عن الناسِ أنّي في أمانٍ مِن غِيبةِ المُغْتابِ

لـيـس يَـخـفَـى عـلـيَّ شـيءٌ، ولـكِـنْ أتـغـابَـى، والـحَـزْمُ إلْـفُ الـتَّـغَـابـي

الحصافة مصاحبة للتغابي، فمن أراد أن يكون حازماً فعليه أن يتغاضى عن السفاسف، وهو مدرك إياها

وكَفَى بِالمشيبِ، وَهْوَ أخُو الحَزْ مِ دَلـيـلاً إلـى طـريـقِ الـصَّـوابِ

إنَّـمـا الـمـرءُ صـورةٌ سـوف تَـبْـلَـى وانـتـهـاءُ الـعُـمْـرانِ بَـدْءُ الـخَـرابِ

١٠ سبب فيضان النيل

قال بَرُوض القول:

إذا لم تُعينوني وأنتُمْ عشيرتي فسيرُوا، وخَلُّوني، فلستُ بِذاهِبِ

إذا المرءُ لم يَنصُرْ أخاه بِنفسِه لدى كلِّ مكروهٍ فليسَ بِصاحبِ

لَعَمْرُكَ ما في الأرضِ، وَهْيَ رَحيبةٌ كَغِزْلانِ هذا الحَيِّ عُذْرٌ لِناسِبِ

ليس في الدنيا على اتساعها من عذر للناسب (المتغزل) مثل غزلان (فتيات) هذا الحي (هؤلاء القوم). فمن يتغزل معذور لفرط جمالهن

فَلا تَطلُبَنَّ الحُسْنَ في غيرِ أهلِهِ فأَبْدَعُ ما في الأرضِ حُسْنُ الأَعارِبِ

فَهُنَّ الأُلَى عَوَّدْنَ قلبي على الهوى وأخلَفْنَ ظَنّي بالعِدَاتِ الكَواذِبِ

عودن قلبي على الهوى، ثم أعطينني الوعود الكاذبة

وما زَادَ ماءُ النيلِ إلَّا لِأنَّني وقفتُ به أبْكي فِراقَ الحَبائبِ

يقول إن دموعه رفعت منسوب مياه النيل. أواثق يا محمود باشا من هذا؟ مبالغة قد يراها بعضهم سمجة، لكنها جارية على طريقة القدماء في صنع صورة كاريكاتيرية

١١ ملكت حلمي

وقال وهو بسرنديب:

أَضَعْتُمونيِ وكانَتْ لي بِكُمْ ثِقَةٌ متَى خَفَرْتُمْ ذِمَامَ العهدِ يا عَرَبُ؟

خفرتم ذمام العهد: نقضتم العهد

أَبيِتُ في غُربةٍ لا النفسُ راضيةٌ بِها، ولا المُلْتَقى مِن شِيعَتِي كَثَبُ

أصبحت في غربة فلا نفسي راضية، ولا اللقاء بشيعتي (أصحابي) كثب (قريب)

فلا رفيقٌ تَسُرُّ النفسَ طلعتُه ولا صديقٌ يَرى ما بي فيكتَئِبُ

فَهل دِفاعِيَ عن دينِي وعن وطنِي ذَنْبٌ أُدَانُ به ظُلْماً وأَغْتَرِبُ؟

فلا يَظُنَّ بِيَ الحُسَّادُ مَنْدَمَةً فإنني صابرٌ في اللَّهِ مُحْتَسِبُ

مندمة: ندم، محتسب: راض بنيل الثواب من الله

لا يَخْفِضُ البُؤْسُ نَفساً وَهْيَ عَالِيةٌ ولا يُشيدُ بِذكرِ الخامِلِ النَّشَبُ

الخامل: غير المعروف، النشب: المال

إنيِ امْرُؤٌ لا يَرُدُّ الخَوفُ بَادِرتيِ ولا يَحيِفُ على أَخلاقِيَ الغَضبُ

بادرتي: إقدامي، يحيف: يجني وينتقص

مَلَكْتُ حِلْمِي فلم أَنْطِقْ بِمُنْدِيَةٍ وصُنْتُ عِرضيِ فلم تَعْلَقْ بِهِ الرِّيَبُ

مندية: كلمة مخجلة يندى لها الجبين، الريب: الشبهات

١٢ في المعركة

ولمَّا تَداعَى القومُ، واشتَبَكَ القَنا ودارتْ كما تَهوى على قُطْبِها الحربُ. .

لما دعا القوم بعضهم بعضاً، واشتبكت القنا (الرماح)، ودارت الحرب كما تهوى الحرب (دون أن يتحكم بها أحد) على قطبها (محورها) مثلما تدور الرحى فتطحن. .

وزُيِّنَ للناسِ الفِرارُ مِن الرَّدَى ومَاجَتْ صُدورُ الخيلِ، والتَهَبَ الضَّرْبُ. .

زين للناس الفرار (صار حسناً في عيونهم الهرب) من الموت، وصارت صدور الخيل تتلاقى كالموج، واشتد الضرب بالسيوف. .

ودارَتْ بِنا الأرضُ الفَضاءُ كأنّنا سُقِينا بِكأسٍ لا يُفيقُ لها شَرْبُ..

.. ودارت بنا الأرض الفضاء (الواسعة) كأننا سقينا بكأس لا يصحو لها شرب (شاربون)..

صَبَرتُ لها حتى تجلَّتْ سماؤُها وإني صَبورٌ إنْ أَلَمَّ بِيَ الخَطْبُ

عندئذ صبرت حتى انجلت سماء المعركة وركد غبارها، وأنا صبور إن ألم بي (عرض لي) خطب ومصيبة

١٣ الجود بالنفس والمال

لا يُدركُ المجدَ إلّا مَن إذا هَتَفَتْ به الحَمِيَّةُ هَزَّ الرمحَ وانتَصَبا

يستَسْهلُ الصَّعبَ إن هاجَتْ حفيظَتُه ولا يُشاوِرُ غيرَ السيفِ إن غَضِبا

حفيظته: غضبه

إن حَلَّ أرضاً حَمَى بالسيفِ جانبَها وإن وَعَى نَبْأَةً مِن صارِخٍ رَكِبا

إن وعى نبأة (سمع صوتاً خفيفاً) يطلب النجدة، ركب حصانه لتلبية النداء

فَذَاكَ إنْ يَحْيَ تَحْيَ الأرضُ في رَغَدٍ وإنْ يَمُتْ ينْقَلِبْ صِدْقُ المُنى كَذِبا

فاحْمِلْ بِنفسِكَ تبلُغْ ما أَرِدْتَ بها فالليثُ لا يَرهَبُ الأَخطارَ إن وَثَبا

لا يَقعُدُ البطلُ الصِّنْديدُ عن كَرَمٍ مَنْ جادَ بالنفسِ لم يبْخَلْ بِمَا كَسَبا

الصنديد (الشجاع) لا يقعد (لا يتوانى) عن كرم، فمن يجود بروحه لا يبخل بماله

١٤ صوني القناة

أَفَتّانَةَ العينينِ كُفِّي عن القَلْبِ وصُوني حِمَاهُ، فَهْوَ مَنزِلَةُ الحُبِّ

منزلة: موضع

ولا تُسْلِمي عينيَّ للسُّهْدِ والبُكا فإنَّهما مَجرَى هَواكِ إلى قَلْبي

١٥ يا حُسنَه من حديث

قالتْ، وقد سمِعَتْ شِعري فَأعجَبَها: إنِي أخافُ على هَذا الغُلامِ أَبي

تخاف عليه من سطوة أبيها

أَراهُ يهتِفُ بِاسمي غيرَ مُكْتَرِثٍ ولو كَنَى لم يَدَعْ لِلظَنِّ مِنْ سَبَبِ

لو كنى: لو تحايل ولم يذكر الاسم صراحةً

فكيف أصنَعُ إنْ ذاعَتْ مَقالَتُه ما بين قَومي، وهُمْ مِنْ سَادَةِ العَرَبِ؟
فنَازَعَتْها فتاةٌ مِنْ صَواحِبِها قَولاً يُؤَلِّفُ بين الماءِ واللَّهَبِ
نازعتها (خالفتها) صديقتها بقول توفيقي يجمع بين المتناقضين

قالتْ دَعيهِ يَصُوغُ القولَ في جُمَلٍ مِنَ الهوى، هِيَ آياتٌ مِنَ الأَدَبِ
وما عليكِ وفي الأَسماءِ مُشْتَرَكٌ إن قالَ في الشِّعْرِ يا لَيْلَى ولم يَعِبِ؟
يَا حُسْنَهُ مِنْ حَديثٍ شَفَّ باطِنُهُ عن رِقَّةٍ أَلْبَسَتْني خِلْعَةَ الطَّرَبِ
ما أجمل حديث صاحبتها

١٦ النائحات

قال وقد مرَّ بصحراء القرافة، فرأى نسوة ينُحْنَ على ميت:

رأيْتُ بصحراءِ القَرافَةِ نِسْوَةً نَوازِعَ، لا يَأْوِينَ حُزْناً إلى بَيْتِ
نوازع: خارجات من بيوتهن

يَنُحْنَ على مَيْتٍ سَيَتْبَعْنَ إِثْرَهُ ومِنْ عَجَبٍ مَيْتٌ يَنوحُ على مَيْتِ

١٧ براءة بلا براهين

قال يمدح النبي ﷺ:

أَبِيتُ أَرعَى نجومَ الليلِ في ظُلَمٍ يخشَى الضلالَةَ فيها كلُّ مُدَّلِجِ
أراقب النجوم في ظلمات ليل يخشى أن يضل فيه كل مدلج (سائر ليلاً)

كأنَّ أَنْجُمَهُ والجَوُّ مُعْتَكِرٌ غِيدٌ بِأَخْبِيَةٍ ينظُرْنَ مِنْ فُرَجِ
كأن النجوم والجو معتكر (مسود) عيون الغيد (الحسان) وهن ينظرن من فرج (شقوق) الأخبية (الخيام)

ليلٌ غياهِبُهُ حَيْرَى، وأَنْجُمُهُ حَسْرَى، وسَاعاتُه في الطُّولِ كالحِجَجِ
ليل غياهبه (ظلماته) حيرى، أي يتحير فيها المرء، ونجومه حسرى (متعَبة)، أي تتعب في مراقبتها العين، وساعاته طويلة كأنها الحجج (السنوات)

فَلَيْتَ مَن لامَني لانَتْ شَكيمَتُهُ فَكَفَّ عنِّي فُضُولَ المَنطِقِ السَّمِجِ
ليت اللائم لانت شكيمته (خفف تشدده)، فكف عني فضول المنطق (أي الزائد من الكلام)

هَيهاتَ يَسْلُكُ لَوْمُ العَاذِلينَ إلى قلبٍ بِحُبِّ رسولِ اللَّهِ مُمْتَزِجِ

يا رَبِّ بِالمُصطَفى هَبْ لِي، وإنْ عَظُمَتْ جَرائِمي، رَحمةً تُغني عن الحُجَجِ

أعطني يا رب، بشفاعة النبي، رحمة تغنيني عن تقديم الحجج (البراهين على براءتي) مهما كبرت ذنوبي

ما لي سِواكَ وأنتَ المُستعانُ، إذا ضاقَ الزِّحامُ غَداةَ المَوقِفِ الحَرِجِ

ما لي سوى شفاعة النبي في زحمة الموقف الحرج (يوم القيامة)

١٨ حسام الفجر

قال يوازن قصيدة ابن النبيه (يا ساكني السفح كم عين بكم سفحت):

خَفَّتْ مَعاطِفُها لَكِنْ رَوادِفُها بمثلِ ما حَمَّلَتْنِي في الهَوى رَجَحَتْ

معاطفها (خصرها) رقيقة، وأردافها ثقيلة وراجحة مثل الهم الذي حملتني إياه في حبها

وليلةٍ سالَ في أعقابِها شَفَقٌ كأنَّها بِحُسَامِ الفجرِ قد ذُبِحَتْ

ليلة جاء بعدها شفق (غسق، النور الخفيف المؤذن بالفجر) كأنه دم سال عندما ذبح سيف الفجر ظلمة الليل

طالَتْ وقَصَّرَها لَهْوِي بِغانِيةٍ إن أعرَضَتْ قَتَلَتْ، أو أقبَلَتْ فَضَحَتْ

طالت الليلة وأحسست أنها قصيرة وأنا ألهو مع غانية (جميلة)، إعراضها يقتلني وإقبالها علي يفضحني (يفضح شهواتي، أو يفضحني بين الناس)

دَارتْ علينا بها الكاساتُ مُتْرَعَةً بِخَمْرةٍ لو بَدَتْ في ظُلْمَةٍ قَدَحَتْ

مترعة: مملوءة

١٩ ابنة الفرح

قال على وزن مخترع:

اِمْلَإِ القَدَحْ واغْصِ مَنْ نَصَحْ

وارْوِ غُلَّتي بِابْنَةِ الفَرَحْ

غلتي: عطشي

وَهْيَ إنْ سَرَتْ في العليلِ صَحّ

٢٠ روح بلا جسد

وقال في الروح بعد مفارقة الجسم:

بلغتِ مَداكِ مِنْ أرَبٍ فَسيحي فَأنتِ اليومَ في جَوٍّ فَسيحِ

بلغت أيتها الروح، بعد موت الإنسان، أقصى المدى من أربك (مبتغاك) فانطلقي

فَعَادَتْ صورةُ الجُثمانِ عُطْلاً ... لِفَقْدِكِ مِثلَ دينارٍ مَسيحِ
أصبح الجسم معطلاً من روحه، فهو كالدينار الذهبي المسيح (الممسوح، فلا كتابة ولا صورة عليه)

فَليتَكِ تَرجِعينَ لَنا بِصِدْقٍ ... يُباغِتُ كلَّ خَتَّالٍ مَسيحِ
ليتك ترجعين للجسم في البعث فيفاجأ كل منكر ختال (ماكر) مسيح (دجال)

بِربِّكِ هل وجدتِ كما وَجَدْنا ... خِلافاً بين أَحمدَ والمسيحِ؟
سؤال للروح: هل ثمة فعلاً خلاف بين دين أحمد، الإسلام، ودين المسيح؟

٢١ عش عزيزاً

قال يفخر ويعرِّض بالمظالم على عهد الحكومة الاستبدادية:

رضيتُ مِن الدنيا بما لا أَوَدُّهُ ... وأيُّ امرِئٍ يَقْوَى على الدهرِ زَنْدُهُ
رضيت من الدنيا بما لا أرغب فيه فعلاً، وليس هناك إنسان يستطيع زنده (ذراعه) أن يلوي ذراع الدهر

أُحاولُ وَصْلاً، والصُّدودُ خَصيمُهُ ... وأَبْغي وَفاءً والطبيعةُ ضِدُّهُ
أحاول وصل المليحة، ولكن الصدود يعترضني، وأطلب الوفاء ولكن طبع الأشياء ضد الوفاء

حَسبتُ الهوى سهلاً، ولم أَدْرِ أنَّهُ ... أَخُو غَدَراتٍ يَتْبَعُ الهَزْلَ جِدُّهُ
وما الحبُّ إلّا حاكِمٌ غيرُ عادلٍ ... إذا رامَ أمراً لم يجِدْ مَن يصُدُّهُ
لَعَمْرِي لقد ولّى الشبابُ، وحلَّ بي ... مِنَ الشيبِ خَطْبٌ لا يُطاقُ مَرَدُّهُ
حل بي من الشيب خطب (مصيبة) لا سبيل إلى مقاومته

وكيف أَلومُ الناسَ في الغَدْرِ بَعدَما ... رأيتُ شبابِي قد تغيَّرَ عَهْدُهُ؟
كيف ألوم الناس على الغدر وشبابي غدر بي، وذهب

أُطالِبُ أيّامي بما ليس عندَها ... ومَنْ طلبَ المَعدُومَ أَعياهُ وَجْدُهُ
أعياه وجده: أعجزه إيجاده والعثور عليه

أَبى الدهرُ إلّا أنْ يَسُودَ وَضيعُهُ ... ويَملِكَ أَعناقَ المَطالِبِ وَغْدُهُ
أبى الدهر إلا أن يجعل الوضيع يصبح في موقع سيادة، وأن يتحكم الوغد في الأرزاق

إذا المرءُ لم يَدفَعْ يَدَ الجَوْرِ إنْ سَطَتْ ... عليهِ، فلا يَأْسَفْ إذا ضاعَ مَجْدُهُ
من لم يقاوم يد الجور (الظلم) عندما تسطو عليه فلا يأسفنَّ عندما يضيع مجده

وأَقْتَلُ دَاءٍ رُؤْيَةُ العينِ ظالماً   يُسيءُ ويُتْلَى في المحافِلِ حَمْدُهُ

مما يؤذي المرء أن يرى ظالماً مسيئاً ومع ذلك يشيدون به في المجالس

عَفَاءٌ على الدنيا إذا المرءُ لم يَعِشْ   بها بطلاً يَحمي الحقيقةَ شَدُّهُ

عفاء على الدنيا (لتذهب إلى الجحيم) إذا لم يعش المرء بطلاً يحمي شدُّه (إقدامه) الحقيقة (الشرف)

أَبَتْ ليَ حَملَ الضَّيْمِ نفسٌ أَبِيَّةٌ   وقلبٌ إذا سِيمَ الأذى شَبَّ وَقْدُهُ

نفسي الأبية ترفض تقبل الظلم، وقلبي إذا سيم الأذى (تعرض للأذى) شبت ناره غضباً

وحَسْبُ الفتى مجداً إذا طالَبَ العُلا   بما كانَ أوصَاهُ أبُوهُ وجَدُّهُ

كفى المرء مجداً أن يطلب من المكارم ما كان أوصاه به أبوه وجده

أَصُدُّ عنِ المَرمَى القَريبِ تَرَفُّعاً   وأَطلُبُ أمراً يُعْجِزُ الطيرَ بُعْدُهُ

أترك المرامي (الأهداف) السهلة مترفعاً عنها، وأطلب البعيد العالي الذي لا يصل إليه الطير في سمائه

ولا بُدَّ مِنْ يومٍ تَلاعَبُ بِالقَنا   أُسُودُ الوَغَى فيهِ وتَمْرَحُ جُرْدُهُ

لا بد من يوم تتلاعب بالرماح فيه أسود الوغى (الحرب)، وتمرح الجرد (الخيل)

يُمَزِّقُ أستارَ النَّوَاظِرِ بَرْقُهُ   ويَقرعُ أَصدَافَ المَسَامِعِ رَعْدُهُ

لمعان السيوف يمزق أستار النواظر (العيون) والعيون مستورة بغبار المعركة، ويقرع رعد الضرب صواوين الآذان التي كالأصداف

تُدَبِّرُ أَحكامُ الطِّعَانِ كُهُولُهُ   وتَمْلِكُ تصريفَ الأَعِنَّةِ مُرْدُهُ

الكهول يدبرون سير المعركة، والمرد (الشباب الذين لم تنبت لحاهم بعد) يصرفون الأعنة (يتحكمون في مقاود الخيل). أي أن التخطيط للكهول والقتال للشباب

فإمَّا حياةٌ مثلُ ما تشتهي العُلا   وإمَّا رَدىً يَشْفي مِنَ الداءِ وَفْدُهُ

إما حياة عزيزة ترضى عنها المكارم، وإما موت يشفي وفده (قدومه) ما بالنفس من حمية ضد الظلم

٢٢ مسحتها وخلبتها

وقال على روي قصيدة النابغة الذبياني التي أولها «أمن آل مية رائح أو مغتد»:

قالوا غداً يومُ الرحيلِ، ومَنْ لَهُمْ   خوفَ التَّفَرُّقِ أن أعيشَ إلى غَدِ؟

قالوا سيرحلون غداً، فقلت إنني لشدة خوفي من فراقهم قد لا أعيش إلى يوم الغد

هِيَ مُهْجَةٌ ذَهَبَ الهوى بِشِغَافِها مَعْمُودَةٌ، إن لم تَمُتْ فَكَأَنْ قَدِ

مهجتي (قلبي) ذهب الهوى بشغافها (غشاء القلب) وهي معمودة (منهوكة حباً) إن لم تمت نفسي فكأنْ قد (كادت)

يَا أَهلَ ذا البيتِ الرَّفيعِ مَنَارُهُ أَدْعوكُمُ يا قَومُ دَعْوَةَ مُقْصَدِ

يا أهل البيت العالي أدعوكم دعوة رجل مقصد (مصاب بطعنة)

إنِي فقدْتُ اليومَ بين بُيوتِكُمْ عقلي، فَرُدُّوهُ عَلَيَّ لأَهْتَدي

أو فاسْتَقيدوني ببعضِ قِيَانِكُمْ حتى تَرُدَّ إليَّ نَفْسِي أَوْ تَدِي

استقيدوني (ادفعوا دية قلبي) بإعطائي بعض قيانكم (إحدى فتياتكم)، حتى ترجع لي نفسي أو تدي (تدفع الدية)

ولقد شَهِدْتُ الحربَ في إبَّانِها ولَبِئْسَ راعِي الحَيِّ إنْ لم أَشْهَدِ

شهدت الحرب في إبانها (في عزِّ التهابها)، وسأكون بئس راعي الحي (حامي القوم) لو لم أشهدها

بِمُضَمَّرٍ أَرِنٍ كَأَنَّ سَرَاتَهُ بعدَ الحَميمِ سَبيكَةٌ مِنْ عَسْجَدِ

شهدت الحرب بمهر مضمر (مدرَّب نحيل اكتملت عضلاته بالجري) أرن (ممراح) كأن سراته (ظهره) بعد الحميم (العرق) سبيكة عسجد (ذهب)، فجسمه يلمع مع العرق

خَلَصَتْ له اليُمْنَى وعَمَّ ثَلاثَةً منهُ البَياضُ إلى وَظِيفٍ أَجْرَدِ

قائمته اليمنى خلصت من البياض، فلونها كلون سائر جسمه، والقوائم الثلاث الأخرى فيها بياض من الحافر حتى الوظيف (الساق تحت الركبة) الأجرد (ذي الشعر القصير)

فَكَأَنَّما انتَزَعَ الأَصيلَ رِداءَه سَلَباً، وخَاضَ مِنَ الضُّحَى في مَوْرِدِ

كأنه بلونه المحمر قد انتزع من الأصيل (وقت الغروب) رداءه سلباً (أي غنيمة)، وكأنه خاض شمس الضحى بدل أن يخوض مورد الماء، فلونه محمر على اصفرار

مُتَلَفِّتاً عن جانِبَيْهِ، يَهُزُّهُ مَرَحُ الصِّبَا كالشَّارِبِ المُتَغَرِّدِ

يتلفت بمرح كأنه شارب خمرة يترنم

فإذا ثنيْتَ له العِنانَ وجَذْتَهُ يَمْطُو كَسِيدِ الرَّدْهَةِ المُتَوَرِّدِ

إن ثنيت عنانه (مقوده) وشددته فهو يمطو (يسير حثيثاً) كسيد الردهة (كذئب الرابية) المتورد (الوردي اللون)

وإذا أَطَلْتَ له العِنانَ رأيتَه يَطوي المَهَامِهَ فَدْفَداً في فَدْفَدِ

وإذا أرخيت مقوده أسرع وصار يطوي المهامه (الصحارى) فدفداً بعد فدفد (فلاة بعد فلاة)

نِعْمَ العَتادُ إذا الشِّفَاهُ تَقَلَّصَتْ   يومَ الكَريهَةِ في العَجاجِ الأَرْبَدِ

المهر خير عتاد (عدة الحرب) إذا اشتد القتال وتقلصت شفاه المحاربين لشدة التوتر في يوم الكريهة (الحرب) وسط العجاج (الغبار) الأربد (القاتم)

بل رُبَّ غانيةٍ طَرَقْتُ خِباءَها   والنَّجمُ يَطْرِفُ عن لَواحِظِ أَرْمَدِ

رب غانية طرقت خباءها (أتيت خيمتها ليلاً) بينما النجم يرتجف كأنه لواحظ (عيون) شخص مصاب بالرمد تطرف

قالتْ وقد نظَرَتْ إليَّ: فَضَحْتَني   فارجِعْ لِشأْنِكَ فالرجَالُ بِمَرْصَدِ

فَمَسَحْتُها حتَّى اطمَأَنَّ فؤادُها   ونَفَيْتُ رَوْعَتَها بِرأْيٍ مُحْصَدِ

مسحتها مثلما يمسح الحالب ضرع البقرة لتهدئتها عند الحلب، ونفيت روعتها (خوفها) برأي محصد (سديد). تعليق عمران القفيني: هل أنت متأكد أن البارودي كان يفعل هذا؟ الجواب: لعله!

وخَلَبْتُها بالقولِ حتَّى رُضْتُها   وطَوَيْتُها طَيَّ الحَبيرَةِ باليدِ

وخلبتها (فتنتها) بالكلام حتى روضتها، ثم ضممتها كما يضم المرء الحبيرة (الثوب) بيدي. البيت أسقطه البارودي عندما جمع ديوانه، لكنه موجود في كتاب الوسيلة الأدبية للمرصفي

وخرجْتُ أَختَرِقُ الصُّفوفَ مِنَ العِدَا   متَلَثِّمَاً والسيفُ يَلْمَعُ في يَدي

٢٣ سرى البرق

وقال وهو بأقريطش (جزيرة كريت) أيام الحرب يتشوق إلى مصر (١٨٦٥ م):

سرى البرقُ مِصرياً، فأرَّقَنِي وحدِي   وأَذْكَرني ما لستُ أنساهُ مِن عهدِ

سرى البرق (سار ليلاً) آتياً من مصر فسهرت له وحدي، وذكّرني بعهود لن أنساها

فيا بَرقُ حدِّثنِي، وأنتَ مُصَدَّقٌ،   عن الآلِ والأصحابِ: ما فعلوا بَعدي

٢٤ صؤول ضروب

وقال وهو في حرب الروس مع الدولة العثمانية ١٨٧٧م، وأرسل بها إلى الشيخ حسين المرصفي:

ومَن كان ذا نفسٍ كنفسي تصدَّعَتْ   لِعِزَّتِه الدنيا، وذَلَّتْ له الأُسْدُ

يقول إن نفسه كبيرة شديدة عزيزة تتصدع (تتشقق وتتكسر) لها الدنيا وتذل الأسود

ومِن شِيَمي حبُّ الوفاءِ سَجِيَّةً   وما خَيْرُ قَلْبٍ لا يدومُ له عَهْدُ

سجيتي وشيمتي (خُلقي وطبعي) الوفاء، وما خير (لا خير في) قلب لا يدوم له عهد

ولـكـنَّ إِخْـوَانـاً بـمـصـرَ ورُفْـقَـةً نَسُونا، فَلا عهْدٌ لَدَيْهِمْ ولا وعْدُ

فيَا سَاكني الفُسْطَاطِ ما بالُ كُتْبِنا ثَوَتْ عندَكُمْ شهراً وليس لها رَدُّ؟

الفسطاط: القاهرة القديمة، ثوت: قعدت

نَأَتْ بيَ عنكُمْ غُربةٌ، وتَجَهَّمَتْ بِـوَجْـهِـيَ أيـامٌ خـلائِـقُـهَـا نُـكْـدُ

أبعدتني عنكم غربة، وكشرت بوجهي أيام خلائقها (طباعها) نُكد (مشاكسة)

أَدُورُ بِـعـيـنـيِ لا أَرى غـيـرَ أُمَّـةٍ مِنَ الرُّوسِ بِالبَلقانِ يُخْطِئُها العَدُّ

الروس: يعني السلافيين بشكل عام

جَـواثٍ عـلـى هَـامِ الـجبـالِ لِغَـارَةٍ يَـطيرُ بـهـا ضَـوْءُ الـصباحِ إذا يَـبدُو

هؤلاء القوم جواث (جاثون رابضون) على رؤوس الجبال مستعدون لغارة، يطيرون فيها من جبالهم مع بزوغ شمس الصباح

إذا نـحـن سِرْنـا صَـرَّحَ الـشرُّ باسْـمِهِ وصاحَ القَنا بِالموتِ، واسْتَقْتَلَ الجُندُ

إذا مشينا إلى أعدائنا غدا واضحاً أن شراً سيقع، واستدعى القنا (الرماح) الموت استدعاء، ورمى الجنود أنفسهم على الموت

إذا اشتَبَكُوا، أو راجَعُوا الزَّحْفَ، خِلْتَهُمْ بُـحوراً تَـوالَـى بـيـنَـهـا الـجَـزْرُ والـمَـدُّ

ففي الاشتباك، وفي الكر والفر، تحسب جموع الجند مثل بحر يعتوره الجزر والمد

فـهُـمْ بـيـن مقـتـولٍ طريـحٍ، وهـاربٍ طَـلـيـحٍ، ومَـأسـورٍ يُـجَـاذِبُـهُ الـقِـدُّ

الجنود موزعون بين مقتول مطروح أرضاً وبين فار طليح (مرهق) ومأسور يجاذب القد (القيد المصنوع من سير جلدي)

نَروحُ إلى الشُّورَى إذا أَقْبَلَ الدُّجَى ونَغْدُو عليْهِمْ بِـالـمـنـايـا إذا نَـغْـدُو

في الليل نتشاور ونخطط، ونغدو (ننطلق صباحاً) ومعنا للأعداء المنايا (الموت)

ونَـقْـعٍ كَـلُـجِّ الـبحـرِ خُـضْـتُ غِـمـارَهُ ولا مَـعْـقِـلٌ إلَّا الـمَـنـاصِـلُ والـجُـرْدُ

رب نقع (غبار) كلج البحر (مائه) خضت في غماره (مياهه العميقة)، وليس من معقل (حصن يحميني) إلا المناصل (السيوف) والجرد (الخيل)

صَـبـرتُ لـه والـمـوتُ يَـحْـمَـرُّ تـارَةً ويَـنْـغَـلُّ طَـوراً فـي الـعَـجـاجِ فَـيَـسْـوَدُّ

صبرت وحولي الموت يحمر بدم القتلى تارة، وينغل (يتغلغل) طوراً وسط العجاج (الغبار) فيكون موتاً أسود

فَما كنتُ إلَّا اللَّيْثَ أَنْهَضَهُ الطَّوَى وما كـنـتُ إلَّا الـسيفَ فَـارَقَـهُ الغِـمْـدُ

كنت كالليث نهض شرساً للصيد بفعل الطوى (الجوع)، وكالسيف الذي فارق غمده (بيته)

صَؤُولٌ ولِلأبطالِ هَمْسٌ مِنَ الوَنَى ضَروبٌ وقَلْبُ القِرْنِ في صدرِهِ يَعدُو

صؤول (هاجِم) بينما الأبطال يهمسون من الونى (التعب)، وضارب بينما قلب القرن (الخصم) يركض في صدره خوفاً

فَما مُهجَةٌ إلَّا ورُمْحي ضَميرُها ولا لَبَّةٌ إلَّا وسيفي لها عِقْدُ

رمحي دخل في كل مهجة (قلب) فصار كأنه ضمير لها مختبئ فيها، ولا لبة (عنق) إلا جعلت سيفي لها مثل العقد

إذا القلبُ لم يَنْصُرْكَ في كلِّ مَوطِنٍ فما السيفُ إلَّا آلةٌ حَمْلُها إدُّ

إذا لم يكن قلبك قوياً فينصرك فلا نفع في السيف وحده، فهو فقط أداةٌ حملها إد (يؤودك ويتعبك)

٢٥ الصبا في وادي الفناء

وقال يَرُوضُ الشعر:

تولَّى الصِّبا عنِّي، فكيف أُعيدُه وقد سَارَ في وادِي الفَناءِ بَرِيدُهُ

البريد هو البغل، وكانت البغال تحمل الرسائل من بلد إلى بلد. المعنى: ذهب عهد الصبا ولا عودة له، فقد سار عني إلى.. وادي الفناء..

أُحاولُ منهُ رَجْعَةً بعد ما مضى، وذلكَ رأيٌ غابَ عَنِّي سَديدُهُ

أحاول إرجاع الصبا وهذا ليس بالرأي السديد

وفي الحيِّ ظَبْيٌ إن تَرنَّمْتُ باسمِه تَنَمَّرَ واشيهِ وهَاجَ حَسُودُهُ

في الحي (القوم) فتاة حسناء إن ترنمت باسمها في شعري تنمر الواشي (تحفز) واستنفر الحسود

تَهيمُ بهِ أَستَارُهُ وخُدُورُهُ وتَعْشَقُهُ أَقْراطُهُ وعُقودُه

تهيم بالظبي أستاره وخدوره (تلفه وتحوطه/والخدر بيت داخل البيت، أو خيمة داخل الخيمة، كانت المرأة تستتر بها عن الغرباء قديماً/واليوم لبست المرأة في بلادنا خيمتها)، وتتعلق بالظبي المحبوب أقراطه (والقرط الحلق) وعقوده

تَأَنَّقَ فيه الحُسْنُ فامتَدَّ فَرْعُهُ إلى قَدَمَيْهِ، واسْتَدارَتْ نُهودُهُ

الجمال تأنق في صوغ هذا الظبي فطال فرعه (شعره) ووصل إلى قدميه، واستدارت أثداؤه

فَلِلْمِسْكِ رَيَّاهُ، ولِلْبانِ قَدُّهُ ولِلْوَرْدِ خدَّاهُ، ولِلظَّبي جِيدُهُ

رياه (رائحته) منسوبة للمسك، وقده منسوب لغصن البان، وخداه في حمرتهما كالورد، وجيده كجيد الظبي

أُضَاحِكُ وجْهَ المرءِ يَغْشَاهُ بِشْرُهُ وأَعلَمُ أن القلبَ تَغْلي حُقُودُهُ

حكمة: أبادل المرء الضحك إذا كان يغشى (يغطي) وجهه البشر والانشراح، مع أنني أعلم أن الحقود (الأحقاد) تغلي في قلبه. التسويد لعمران القفيني.. وأنبني لأنني لم أكن سودته، في المسودة، فها قد سودناه يا سيدي

ومَنْ لم يُدَارِ الناسَ عَادَاهُ صَحبُهُ وأنكَرَهُ مِنْ قومِهِ مَنْ يَسُودُهُ

لكن من لا يداري الناس يعاديه مصاحبوه، ويستنكر أفعاله من قومه من هو سيد لهم، والسيد يجب أن يكون بشوشاً، حليماً لا يعادي الناس بسهولة

٢٦ رجال السياسة

وقال يذم رجال الحكومة الاستبدادية في عهد إسماعيل خديوي مصر:

لن يَسودَ الفتى ولو مَلَكَ الحِكْـ ـمةَ مَا لم يَكُنْ مِن الأَجْوَادِ

السيادة ليست بامتلاك الحكمة فقط، بل لا بد من أن يكون المرء أيضاً من الأجواد (الأسخياء)

رُبَّ خِلٌّ تَراهُ طَلْقَ المُحَيَّا وَهْوَ جَهْمُ الضَّميرِ بِالأَحْقادِ

رب خل (صديق) تراه طلق المحيا (بشوشاً) وضميره جهم (مسود) بالأحقاد

فَتأَمَّلْ مَواقِعَ اللَّحْظِ تعلَمْ مَا طَوَتْهُ صَحائِفُ الأَكْبادِ

فأمعن النظر في مواقع اللحظ (النظرات) فالعيون تفضح ما طوته صحائف الأكباد من حقد ونيَّة غدر (شبَّه الكبد بكتاب له صحائف مكتوبة فيها أشياء)

إن في العينِ وَهْيَ عُضْوٌ صَغيرٌ لَدَليلاً على خبايا الفؤادِ

أنا ما بينَ نِعمَةٍ وحَسودٍ والمَعالي كَثيرةُ الحُسَّادِ

فَلْيَمُوتوا بِغيْظِهِمْ، فاحتِمَالُ الـ ـغَيْظِ مَوْتٌ لَهُمْ بِلا ميعادِ

الغيظ للحاسدين عقاب، فهو كالموت جاءهم قبل موعده

كيف تَبْيَضُّ مِن أُناسٍ وُجوهٌ صَبغَ اللؤمُ عِرضَهُمْ بِسَوادِ؟

فترى المَرءَ مِنْهُمُ ضَاحِكَ السِّنِّـ وفي ثوبِهِ دِماءُ العِبادِ

مَعشَرٌ لا وَليدُهُمْ طَاهِرُ المَهْـ ـدِ، ولا كَهْلُهُمْ عفيفُ الوِسَادِ

حَكَمُوا مصرَ وَهْيَ حَاضِرَةُ الدُّنْـ ـيا، فَأَمْسَتْ وقد خَلَتْ في البَوَادي

أَصْبحتْ منزلَ الشقاءِ، وكانتْ جَنَّةً ليس مِثْلُها في البِلادِ

وقَليلاً مَا يَصْلُحُ المَرءُ للجِدِّ إذا كانَ ساقِطَ الأَجْدَادِ

٢٧ رثاء الزوجة

وقالي يرثي زوجته وقد ورد إليه نعيها وهو بسرنديب، وتوفيت سنة ١٨٨٣ بالقاهرة:

أَيَدَ المَنونِ! قَدَحْتِ أَيَّ زِنادِ وأَطَرْتِ أَيَّةَ شُعْلَةٍ بِفؤادي

يا يد الموت، قدحت أي زناد (حجر النار)! فأوقعت الحريق بقلبي

أَسْتَنْجِدُ الزَّفراتِ وَهْيَ لَوافِحٌ وأُسَفِّهُ العَبَراتِ وَهْيَ بَوادِ

أطلب النجدة من زفراتي اللوافح (الحارة)، وأُسفِّه الدموع (لا أدرك وجودها) وهي ظاهرة

لا لَوْعَتي تَدَعُ الفُؤادَ، ولا يَدٌ تَقْوَى على ردِّ الحبيبِ الغَادي

لا لوعتي تترك قلبي، ولا يدي تستطيع رد الحبيب الغادي (المفارق)

يا دهرُ فِيمَ فَجَعتَني بِحَليلَةٍ كانت خُلاصَةَ عُدَّتي وعَتادي

فيم (لماذا) فجعتني يا دهر بحليلة (زوجة) كانت خلاصة عدتي في هذه الحياة. تعليق عمران القفيني: (رغم أنه استخدم «حليلة» بدل «حبيبة»، إلا أن البيت يبقى تحفة.. انظر إليه تره يقطر تفجعاً)

إن كنتَ لم ترحَمْ ضَنايَ لِبُعْدِها أَفَلا رَحِمْتَ مِن الأَسَى أَوْلادي

أَفْرَدْتَهُنَّ فلم يَنَمْنَ تَوَجُّعاً قَرْحَى العيونِ، رَواجِفَ الأكبادِ

بناتي أصبحن في وحدة، وعيونهن قرحى من البكاء (مجرحة)، وأكبادهن راجفة

أَلْقَيْنَ دُرَّ عُقودِهِنَّ، وصِغْنَ مِن دُرِّ الدموعِ قَلائِدَ الأَجْيادِ

رمين لآلئ العقود واستبدلن بها لآلئ هي الدموع في الأجياد (الأعناق)

وَلَهي عليكِ مُصَاحِبٌ لِمَسيرتي والدمعُ فيكِ مُلازِمٌ لِوِسادي

ولهي عليك (حزني) يصاحبني في مسيرة النهار، ودمعي فيك يلازم وسادتي ليلاً

فإذا انتبهْتُ فأنتِ أَوَّلُ ذُكْرَتي وإذا أَوَيْتُ فأنتِ آخرُ زَادي

التسويد لعمران القفيني. وعبارته: أدرك هذا البيت بالتسويد

فَلَئِنْ «لَبيدُ» قَضى بِحَوْلٍ كَاملٍ في الحزنِ فَهْوَ قضاءُ غيرِ جَوادِ

لبيد الشاعر، الذي يقول إن الذي يبكي حولاً (سنة) قد بلغ المدى واكتفى، لم يكن جواداً (سخياً).. فالسنة لا تكفي

كلُّ امْرِئٍ يوماً مُلاقٍ ربَّه والناسُ في الدنيا على ميعادِ

الناس في دنياهم ماكثون على ميعاد يكون في الآخرة حين يلاقون ربهم

فاستَهْدِ «يا محمودُ» ربَّكَ، والتمسْ منه المَعونَةَ فَهْوَ نِعْمَ الهَادي

يا محمود سامي البارودي اطلب الهداية من ربك واستعن به

٢٨ واكبدي يا علي بعدك

وقال يرثي ولده علياً من زوجته الثانية التي تزوجها وهو في المنفى أواخر سنة (١٨٨٥):

كيف طَوَتْك المَنونُ يا ولدي؟ وكيف أوْدَعْتُك الثَّرى بِيَدي؟

واكَبِدي يا «عليُّ» بَعدَكَ! لو كانتْ تَبُلُّ الغَليلَ «وَاكَبِدي»

فَقْدُكَ سَلَّ العِظَامَ مِنِّي وردَّ الصَّبرَ عنيِ، وفَتَّ في عَضُدي

فت في عضدي: أنهكني

كم لَيْلةٍ فيكَ لا صَباحَ لها سهِرتُها باكياً بلا مَدَدِ

٢٩ رثاء الوالد

وقال في صباه يرثي والده:

أَبي، ومَن كَأَبي في الحَيِّ نعلَمُهُ أوْفى وأَكْرمُ في وعدٍ وإِيعادِ

والدي ليس في الحي (القوم) مثله، وهو وفيٌّ عندما يعد وعندما يوعد (يهدد)

لا يستبدُّ بِرأيٍ قبل تَبْصِرَةٍ ولا يَهُمُّ بأمرٍ قبل إعدادِ

كان حصيفاً لا يستبد برأيه إلا بعد التبصرة (إدامة النظر)، ولا يهم بتنفيذ أمر إلا وقد أعد له عدته

تَراه ذا أُهْبَةٍ في كلِّ نائبةٍ كالليثِ مرتَقِباً صيْداً بِمِرْصَادِ

٣٠ حوار العاشق مع سيفه

وقال وهو بسرنديب يتشوق إلى مصر:

ومِن عَجبِ الأيَّام أنِّيَ مُولَعٌ بمَنْ ليس يَعنيهِ بُكائي ولا سُهدي

أَبيتُ عَليلاً في «سَرَنْدِيبَ» ساهِراً أُعالِجُ ما أَلقاهُ مِن لَوعَتي وَحْدي

ولا صَاحِبٌ غيرُ الحُسامِ مَنُوطَةٌ حَمائِلُهُ مِنِّي على عاتِقٍ صَلْدِ

صاحبي الوحيد السيف المنوطة حمائله (المعلقة سيوره) على عاتقي (كتفي) الصلد (الشديد)

لقد كنتَ لي عَوْناً على الدهرِ مَرَّةً فما لي أراكَ اليومَ مُنثَلِمَ الحَدِّ

فقالَ: إذا لم تستَطِعْ سَوْرَةَ الهوى ... وأنتَ جَليدُ القومِ، مَا أنا بِالجَلْدِ

قال السيف: إذا لم تقوَ على سورة (هجمة) الهوى، وأنت الجليد (الصبور) فأنا لن أكون أصبر منك

وهـل أنـا إلَّا شِـقَّـةٌ مِـن حَـديـدَةٍ ... أَلَحَّ عليها القَيْنُ بِالطَّرْقِ والحَدِّ؟

ما أنا ـ يقول السيف ـ سوى قطعة حديد بالغ القين (الحداد) في طرقها وتمضية شفرتها

فما كنتُ لولا أَنَّني وَاهِنُ القُوَى ... أُعَلَّقُ في خيطٍ وأُحْبَسُ في جِلْدِ

وأنا جماد ـ يقول السيف ـ ولولا أنني ضعيف القوى لما عُلِّقت بخيط، ولما حبست في قِراب من جلد

فدونَكَ غيريِ، فاستَعِنْهُ على الجَوى ... ودَعني مِن الشَّكوى فَدَاءُ الهَوى يُعْدي

دونك (التمسْ) غيري ليعينك على الجوى (حزن العاشق)، واتركني بحالي فداء الهوى يعدي

٣١ ما لي وللناس

لـو عَـلِـمَ الإنـسـانُ مـا أَضْـمَـرَتْ ... أَحـبَـابُـهُ هَـانـتْ عـلـيـهِ الـعِـدا

لو علم الإنسان ما تضمر له الأحباب من غدر لهان عليه الأعداء

مـا لـيِ ولِـلـنـاسِ وأَعـمـالِـهِـمْ؟ ... كـلُّ امْـرِئٍ رَهْـنَ حِـسـابٍ غَـدا

نصبنا رهن على الظرفية، ولك أن تنصبها على أنها مفعول مطلق، ولك الرفع على الإخبار فعل شارحي الديوان

هـل هِـيَ إلَّا مـدةٌ تـنـقـضـي؟ ... وكـلُّ نـفـسٍ خُـلِـقـتْ لـلـرَّدى

٣٢ طلب اللهو

هل في التَّصابي على امْرِئٍ فَنَدُ؟ ... أم هل يَعيبُ الفتى الكَريمَ دَدُ؟

هل في التصابي (لهو الكهل) فند (خطأ) أم هل يعيب الفتى الكريم دد (لَعِب)؟

وأَيُّ لومٍ على امْرِئٍ طَلَبَ اللَّـ ... ـهوَ وَأثْوابُ عمرِهِ جُدُدُ؟

وهل ثمة لوم على من التمس اللهو وأثواب عمره جديدة (وهو شاب)؟

فاسْعَ لِمَا شئتَ غيرَ مُتَّئِدٍ ... فلن يَحُوزَ الكمالَ مُتَّئِدُ

اصنع ما شئت غير متئد (بلا إبطاء)، فالمتردد لا يصل إلى الكمال

٣٣ اللوم في الحب من الحسد

دَعني مِن اللومِ إن كنتَ امْرَأً فَطِناً   فاللومُ في الحبِّ مَعدودٌ مِن الحَسَدِ

لو كان للمرءِ عقلٌ يَستدلُّ به   على الحقيقةِ لم يَعتَبْ على أَحَدِ

التسويد لعمران القفيني

إن كنتَ ذا إِمْرَةٍ فَانْهَ الصَّبابَةَ عَنْ   قلبي لِتغْنَمَ شُكري آخرَ الأبدِ

إن كنت ذا إمرة (قدرة) فاجعل الصبابة (الغرام) تنتهي عن الحلول بقلبي، وأنا لك شاكر

أَوْ لا، فَدعني ولا تَعْنُفْ عليَّ فَما   أمري إليَّ، ولا حكمُ الهوى بِيَدي

وإلا فاتركني، فليس أمر الهوى طوع يدي

٣٤ عنصراً الدنيا

وما الدنيا سوى عَجزٍ وحِرصٍ   هما أصلُ الخَليقَةِ في العِبادِ

فلولا العجزُ ما كان التَّصافي   ولولا الحرصُ ما كان التعادي

عجز المرء عن مقارعة عدوه يلجئه إلى التصافي (المصالحة)، وحرص المرء على جرِّ النفع إلى نفسه يوقعه في معاداة الآخرين. وكل شيء سوى هذين تفاصيل، الحياة صراع

٣٥ واحدة بواحدة

قال يصف أيام الربيع ويذكر مواسم اللهو في عصر الشباب:

وقد شاقَني، والصُّبحُ في خِدْرِ أُمِّهِ،   حنينُ حَماماتٍ تَجاوَبْنَ في وَكْرِ

شاقني (أهاج شوقي) والصبح لم يطلع بعد صوت حمامات يتردد في عشهن

هَتفنَ فأَطربْنَ القلوبَ كأنَّما   تعلَّمْنَ ألحانَ الصَّبابَةِ مِن شِعري

فبَادِرْ لِميقَاتِ الصلاةِ، ومِلْ بِنا   إلى القَصْفِ ما بين الجزيرةِ والنهرِ

لنصل أولاً، ثم لنذهب للقصف (اللهو) في ذلك المكان على النيل

إذا ما قَضَينا واجبَ الدِّينِ حَقَّهُ   فليس علينا في الخلاعَةِ مِن وِزْرِ

لا إثم علينا في الخلاعة بعد أن أدينا واجب الدين

لدى روضةٍ رَيَّا الغصونِ تَرنَّحَتْ   مَعاطِفُها رَقْصاً على نَغْمَةِ القُمْري

نلهو في روضة ريا (طرية) الغصون، تترنح جنباتها على نغمة القمري (الحمام)

تـدورُ عـلـيـنـا بـالـمُـدامَـةِ بـيـنَـهـا   تـمـاثـيـلُ إِلّا أنَّـهـا بـيـنـنـا تَـجْـري

تدور الفتيات الشبيهات بالتماثيل لحسنهن علينا بكؤوس الشراب

لَوَى قَدَّها سُكْرُ الخَلاعَةِ والصِّبَا   فَمالَتْ بِشَطْرٍ، واسْتَقَامَتْ على شَطْرِ

تلوي قدود الفتيات نشوة اللهو والشباب، فنصف الجسم الأسفل معتدل والنصف الأعلى يتمايل. أو العكس. للرجل الذي لم يفهم معنى البيت نقول: استعمل عينيك

وعَـلَّـمَـهـا وَحْـيُ الـدَّلالِ كَـهـانَـةً   فإن نَطَقَتْ جاءَتْ بشيءٍ مِن السِّحرِ

الدلال أوحى للفتيات بكهانة (سحر) فينطقن بكلام يذيب قلوبنا

٣٦ قلبي ولساني: سراج وسيف

ولا تَـحسَبَنَّ الـحِـلْـمَ يـمـنـعُ أهـلَـه   وُقُوعَ الأَذَى، فالماءُ والنارُ مِن صَخْرِ

لا تظننَّ أن الشخص الحليم السمح يمتنع من إيقاع الأذى بالآخرين، ففي الإنسان كل المتناقضات فهو مثل الصخر الذي ينبجس منه الماء، لكنه أيضاً يُخرج الشرر عندما يُقدح

بلغْتُ مَدى خَمسينَ وازدَدْتُ سَبعَةً   جعلتُ بها أَمشي على قَدمِ الخِضْرِ

عمري سبع وخمسون سنة، وطفت بلاداً كثيرة كأنني أرافق النبي «الخضر»، النبي الرحالة

فكيف تَرانِي اليومَ أَخْشَى ضَلالَةً   وشيبيَ مصباحٌ على نُورِهِ أَسري؟

لا أخشى أن أضل عن الطريق السوي فشيبي مصباح أسري (أسير ليلاً) على نوره. يعني أنه أصبح رزيناً وتقياً يمنعه الشيب من العبث

أقـولُ بِـطـبْـعٍ لـسـتُ أَحـتَـاجُ بـعـدَه   إلى المَنهلِ المَطْروقِ، والمَنهجِ الوَعْرِ

أقول الشعر عن طبعٍ، فلا أضطر إلى المنهل المطروق (الحوض الذي يرده الناس) ولا إلى المنهج الوعر (الطريق الوعر)، أي أنه لا يأتي بالمعاني المعروفة المطروقة ولا بالمعاني الملتوية

وَلِي مِنْ جنَانِي، إن عزمتُ، ومِقْوَلِي   سراجٌ وعَضْبٌ: ذا يُضِيءُ وذا يَفري

جناني (قلبي) ومقولي (لساني) هما لي كالسراج والسيف: قلبي يضيء لي الطريق، ولساني يفري (يقطع)

إذا جاشَ طَبعِي فاضَ بِالدُّرِّ مَنطِقِي   ولا عَجَبٌ فالدُّرُّ يَنشَأُ في البحرِ

إذا جاش طبعي (زخر وماج) فاض من كلامي الدر (اللؤلؤ)، أليس اللؤلؤ يتكون في البحر؟

سيَذكُرني بالشعرِ مَنْ لم يُلاقِني   وذِكْرُ الفتى بعدَ المَماتِ مِن العُمْرِ

من لم يلتق بي في الحياة سيذكرني من شعري، وذكر المرء (شهرته الحسنة) امتداد لعمره بعد إذ يموت. تعليق عمران القفيني: (قال المتنبي: ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته/ ما قاته وفضول العيش أشغال، وسيأتي أحمد شوقي ويقول: فاحفظ لنفسك بعد موتك ذكرها/ فالذكر للإنسان عمر ثان، ولا نعلم من سيمضغ هذا المعنى لاحقاً)

٣٧ دوران الكرة الأرضية

وقُلنا لِساقِينا أدِرْها، فإنَّما ... بقاءُ الفتى بعد الشبابِ يَسيرُ

أدرْ كؤوس الشراب فالحياة قصيرة

إذا ما شربناها أَقمْنا مَكانَنا ... وظلَّتْ بنا الأرضُ الفضاءُ تَدُورُ

نشرب الخمر، ونمكث في مجلسنا قاعدين، ولكننا نشعر أن الأرض تدور بنا

٣٨ عندي أمل

وقال بعد وصوله إلى جزيرة سَرَنْدِيب، وقد رأى ابنته الوسطى في المنام:

صبرتُ على كُرْهٍ لِمَا قد أَصَابَنِي ... ومَنْ لم يَجِدْ مَندوحَةً فَهْوَ صَابِرُ

من لم يجد مندوحة (بديلاً) فلا بد له من الصبر

ومَا الحِلْمُ عند الخَطْبِ، والمرءُ عاجِزٌ، ... بِمستَحْسَنٍ كالحِلْمِ والمرءُ قادِرُ

الحلم والتسامح عند وقوع الخطب (المصيبة) ليس مصدر فخر عندما يكون الإنسان عاجزاً، فهو إذ ذاك مضطر للحلم، ولا كذلك الحلم عندما يكون المرء مقتدراً

وقد يَستقيمُ الأمرُ بعد اعْوِجَاجِه ... وتَنهضُ بالمرءِ الجُدودُ العَواثِرُ

قد تنصلح الأحوال، وقد تنهض بالمرء الجدود العواثر (الحظوظ المتعثرة)

ولِي أَملٌ في اللهِ تَحيا به المُنى ... ويُشْرِقُ وجهُ الظنِّ، والخَطْبُ كَاشِرُ

أملي في الله يحيي في قلبي الأمنيات ويجعل وجه الظن (الفكر) يشرق بينما الخطب كاشر (المصيبة صعبة مكشرة)

ولولا تكاليفُ السِّيادَةِ لم يَخِبْ ... جبانٌ، ولم يَحْوِ الفضيلةَ ثَائِرُ

لولا تكاليف السيادة (متطلباتها) لكان كل الناس سادة، ولكان الجبان لا يبوء بالخيبة، ولما كان الثائر على الظلم يعد ذا فضل. المعنى: صعوبة الوصول إلى السيادة تكشف معدن الإنسان، وتجعل الجبان يقصر عنها، والثائر على الظلم ينالها

ولو رُمْتُ ما رَامَ امْرُؤٌ بِخيانَةٍ ... لَصبَّحَني قِسْطٌ مِن المالِ غَامِرُ

لو طلبت ما يطلبه الإنسان عن طريق ارتكاب الخيانة لجاءني صباحاً المال الغامر الكثير

ولو أن أَسبابَ السيادةِ بِالغِنى ... لكاثَرَ رَبَّ الفضلِ بالمالِ تَاجِرُ

ولو كانت السيادة بالغنى لكاثر (افتخر) التاجر الغني رب الفضل (صاحب الفضل)

٣٩ تاريخ اللهو

فَيا لها لَيلةً كانت بِرَونَقِها   تاريخَ لَهْوٍ، لِما أحرَزْتُ مِن وَطَرِ

حوت تلك الليلة برونقها (بهائها) كل عناصر اللهو فهي تاريخ اللهو كله، وقد نلت فيها وطري (بغيتي)

لو كان يَسمَحُ لي دهري بعَوْدتِها   لَبِعْتُ فيها لذيذَ النومِ بالسَّهرِ

٤٠ لا تكلني لمن يعذبني

وقال، ولعله قالها وقد لجأ إلى عزبته بعد إخفاق حركة عرابي:

صُبْحٌ مَطيرٌ، ونَسمَةٌ عَطِرَةْ   وأَنْفُسٌ للصَّبوحِ مُنتَظِرَةْ

الصبوح: شرب الخمر عند الصباح

فَيا ابنَ وُدّي هَلُمَّ نَقْتَسِمُ اللَّهْـ   ـوَ، فنفسي إلى الصِّبا حَسِرَةْ

يا صديقي تعال للهو فنفسي تتحسر على انقضاء الشباب

وخَلِّنَا مِن سِياسَةٍ دَرَجَتْ   بينَ أُناسٍ قلوبُهُمْ وَغِرَةْ

وغرة: حاقدة

يَقضُونَ أَيّامَهُمْ على خطَرٍ   فبِئْسَ عُقبَى السِّياسَةِ الخَطِرَةْ

الساسة يحيط بحياتهم الخطر، وبئس عقبى السياسة (نتيجتها)

مَا لِي وللناسِ، لا لَدَيَّ لهُمْ   حَقٌّ يُؤَدَّى، ولا عَلَيَّ تِرَةْ

ليس للناس عندي حقوق، ولا ترات (ثأرات)

يا رَبِّ هَبْ لي مِنَ الكرامةِ ما   يَسُرُّ نفسي، فإنَّها وَجِرَةْ

وجرة: خائفة

ولا تَكِلْني لِمَنْ يُعَذِّبُني   فإنَّ نفسي إليكَ مُفتَقِرَةْ

٤١ كرم العنصر

صبرتُ على رَيْبِ هذا الزمانِ   ولولا المَعاذِرُ لَمْ أَصْبِرِ

المعاذر: السعي لتجنب اللوم

فلا تَحْسَبَنِّي جهِلْتُ الصَّوابَ   ولكنْ، هَمَمْتُ فلم أَقْدِرِ

وكنَّا جميعاً، فلمَّا وقعتُ صبرتُ وغَادَرَني مَعشَري

كنا معاً فلما وقعت في المشكلة صبرت وغادرني صحابي

ولو أنَّني رُمْتُ إعنَاتَهُمْ لقلتُ مَقالَةَ مُسْتَبْصِرِ

لو قصدت إعناتهم (إرهاقهم) لقلت قول مستبصر يعرف حقيقة تخاذلهم

ولكنني حينَ جَدَّ الخِصَامُ رجَعْتُ إلى كَرَمِ العُنْصُرِ

لكنني حين اشتد الخصام رجعت إلى طيب أصلي فلم أقل شيئاً

٤٢ معاكسة في «شبرة»

سَمْراءُ تَهفُو بِقَدٍّ كالرمحِ لِيناً وسُمْرَةْ

تتحرك بقد مثل الرمح في لينه ولونه الأسمر

مَرَّتْ عَلَيَّ تَهادَى مِثْلَ المَهاةِ بِشُبْرَهْ

مرت تتهادى كالمهاة (البقرة الوحشية) في حي شبرا بالقاهرة

فقُلتُ يا نورَ عيني! ما لي على الصبرِ قُدْرَةْ
فَنَقَّبَتْ وَجْنَتَيْها يدُ الحَياءِ بِحُمْرَةْ

يد الحياء وضعت نقاباً من الحمرة على خديها. أي أنها احمر وجهها خجلاً

٤٣ أعطيه فرصة بعد فرصة

أُصافي خليلي ما صَفا لي، فإن جَفا عَتَبْتُ عليهِ غيرَ جَافٍ ولا وَعْرِ

أصافي خليلي (أعامل صاحبي بصفاء نية) ما دام لي مصافياً، فإن جفا وابتعد عتبت عليه بلا جفاء وبلا خشونة

فإن عادَ لي بِالوُدِّ عُدْتُ، وإنْ أَبَى صَبرتُ لأَرْعَى ذِمَّةَ الوُدِّ بِالصَّبْرِ

فإن عاد إلى الود عدت، وإن رفض صبرت احتراماً لذمة الود (لعهد المودة السابق)

فإن زادَني هَجْراً ضربْتُ على اسمِه، وأَمْسَكْتُ عن سُخطي عليه وعن شُكري

فإن زاد في الهجر ضربت على اسمه (محوت اسمه)، ولم أكن لا ساخطاً ولا شاكراً

وما تِلكَ مِني نَبْوَةٌ، غيرَ أنني أُنَزِّهُ نفسي عن مُلابَسَةِ الغَدْرِ

وهذا اللين من جانبي ليس نبوة وليس انحرافاً في الخلق، ولا ضعفاً.. بل إنني أترفع عن ملابسة (مخالطة) الغدر

٤٤ نعيش مرة واحدة

فَخُذْ في أفانينِ الخَلاعَةِ والصِّبا ودَعْنِيَ مِن زَيْدِ النُّحَاةِ ومِنْ عَمْرِو

مارسْ أفانين (صنوف) الخلاعة والصبا (العبث)، واترك هذا العلم العتيق

وكيف يَعيشُ المَرْءُ في الدهرِ آمِناً ولِلْموتِ فينا وَثْبَةُ اللَّيْثِ والنِّمْرِ؟

على أن الإنسان لا يعيش آمناً وهو يرى الموت يختطف الناس، ويثب عليهم كأنه أسد أو نمر

٤٥ العصامي والعظامي

أتْلَفْتَ دُنياكَ التي أُوتِيتَها ولَسوفَ تَهْلِكُ حَسْرةً في الآخِرَةْ

أتلفت دنياك التي أُعطيتها بما ارتكبت، وسوف تهلك حسرة (حزناً) في الآخرة

حتَّام تفخَرُ بالجُدودِ، ولم تنلْ ما أَحرَزَتْ تلكَ الجُدودُ الفَاخِرَةْ؟

إلى متى تظل تفتخر بجدودك، وأنت لم تحرز ما أحرزته تلك الجدود؟

فاجْعَلْ لِنفسِكَ مِن فَعالِكَ شَاهداً يُغنيكَ عن ذِكرِ العِظامِ النَّاخِرَةْ

ليكن شاهدك فعالك أنت، بحيث تستغني عن ذكر عظام أجداد الناخرة (المنخورة). انظروا من يقول هذا!

٤٦ سلطان الشعر

للشِّعْرِ في الدهرِ حُكْمٌ لا يُغيِّرُهُ ما بِالحوادثِ مِن نَقضٍ وتَغييرِ

الشعر يحكم على الحوادث حكماً يبقى على الدهر

لولا أبو الطيِّبِ المَأثورُ مَنطِقُهُ ما سارَ في الدهرِ يوماً ذِكْرُ كافورِ

لولا المتنبي ذو القول المأثور الخالد لما سار لكافور الإخشيدي ذكر ولما سمع به أحد

٤٧ صفة الحاكم

وقال في ما يجب على الحاكم:

إذا سُدْتَ في مَعشرٍ فاتَّبِعْ سبيلَ الرَّشادِ وكُنْ مُخلِصا

إن كنت سيداً لقوم فكن رشيداً مخلصاً

ووَالِ الكريمَ، ودَارِ السَّفيهَ وَصِلْ مَن أَطَاعَ، وخُذْ مَن عَصَى

حالف الكريم الأصل، ودارِ السفيه مداراة، وصل (كافئ) المطيع وخذ (عاقب) العاصي

ونَـقِّـبْ لِـتَـعـلَـمَ غَـيْـبَ الأُمـورِ فـإنَّ مِـنَ الـحـزمِ أن تـفْـحَـصـا

تعقب الأمور لتعرف الخفايا

ولا تُـبْـقِـيَـنَّ عـلـى فَـاجِـرٍ فـإنَّ الـلـئـامَ عـبـيـدُ الـعَـصَـا

لا تبقين (لا تترك بدون عقوبة) الفاجر الذي لا يبالي بأي أخلاق، فاللئام لا يرتدعون إلا بالعقوبة

وإن خَـفِـيَ الـحـقُّ فـاصـبِـرْ لـه وبـادِرْ إلـيـه إذا حَـصْـحَـصَـا

اصبر حتى تتبين وجه الحق، فإذا حصحص (ظهر) فأسرع إليه

٤٨ سطور على وجه الماء

قال يَرُوض القول:

ومَرْبَعٍ، لِنسـيـمِ الـفجرِ هَـيْـنَـمَـةٌ فـيـهِ، ولـلـطَّـيْـرِ فـي أرجائِهِ لَـغَـطُ

رب مربع (مكان معشوشب) لنسيم الفجر فيه هينمة (غمغمة، همس) وللطير لغط (كلام غير مفهوم)

كـأنَّـمـا الـقَـطْـرُ دُرٌّ فـي جـوانِـبِـه يـكـادُ مِن صَـدَفِ الأزهـارِ يُـلْـتَـقَـطُ

كأن حبات المطر في أنحائه لآلئ، نلتقطها من أوراق الأزهار الشبيهة بالأصداف

ولـلـنـسـيـمِ خـلالَ الـنَّـبْـتِ غَـلْـغَـلَـةٌ كـمـا تغلغَلَ وَسْطَ اللِّمَّـةِ الـمُـشُـطُ

ويتغلغل النسيم خلال النبات كما يتغلغل المشط في اللمة (الشعر)

والـريـحُ تَـمْـحُـو سُطوراً ثـم تُـثْـبِـتُـهـا فـي الـنهـرِ، لا صِـحَّـةٌ فـيـهـا ولا غَـلَـطُ

والريح تصنع على وجه مياه النهر أمواجاً صغيرة كأنها السطور. لكنها سطور ليس فيها كلمات صحيحة وكلمات خطأ

٤٩ فيم اقتناء الدرع؟

قال يروض القول:

فـلا تَـحـسَـبَـنَّ الـدهـرَ لُـعـبـةَ هَـازِلٍ فـمـا هُـوَ إلَّا صـرْفُـهُ والـفَـجـائِـعُ

ليس الدهر لعبة، ولا هزلَ فيه، فكله صروف (أحداث مؤلمة) وفجائع (مصائب)

فـيـا ربَّـمـا بَـاتَ الـفَـتـى وَهْـوَ آمِـنٌ وأصـبـحَ قـد سُـدَّتْ عـلـيـهِ الـمَـطـالِـعُ

قد ينام المرء شاعراً بالأمان، ويأتي عليه الصباح وقد سدت في وجهه المطالع (الطرق)

ففيـمَ اقـتـنَـاءُ الـدِّرْعِ والـسَّـهْـمُ نـافِـذٌ؟ وفـيـمَ ادِّخَـارُ الـمـالِ والـعـمـرُ ضَـائـعُ؟

لماذا نقتني الدرع والسهام ستنفذ في جسمنا؟ ولماذا ندخر المال والعمر كله زائل؟

٥٠ شيب القلب

إذا شَابَ رأسُ المرءِ شَابَ فؤادُه ... ولم يَبْقَ فيه للبَشاشَةِ مَوضِعُ

فعلاً لا نرى شيخاً مستبشراً ضاحكاً إلا في الفلتات. فإن رأيت شيخاً هازلاً لاعباً فهو بالتأكيد ذو صحة جيدة أولاً، وذو عقل خفيف.. أو ربما كان فيلسوفاً عرف أن الدنيا شيء سخيف

٥١ النصح التقريع

لكلِّ قولٍ مَنارٌ يستقيمُ به ... عند الخطابِ فَمَلْفُوظٌ ومسمُوعُ

لكل قول ميزان يوزن به: عندما يقال، وعندما يصل إلى أذن السامع

فالعَتْبُ إن جازَ حَدَّ العَدْلِ مَقْطَعَةٌ ... والنُّصحُ ما لم يكنْ في السرِّ تَقْرِيعُ

العتاب الذي يتجاوز حد العدل (درجة التوسط) مقطعة (يؤدي للقطيعة)؛ والنصح العلني تقريع (توبيخ)

٥٢ همي بين أضلاعي

قال وهو بسرنديب:

وَيْلاهُ من حاجةٍ في النفسِ هامَ بها ... قلبِي، وقَصَّرَ عن إدراكِها بَاعي

الويل لي من حاجة لنفسي لا يدركها باعي (لا أستطيع تحقيقها)

يا هل أَرانيِ بذاكَ الحَيِّ مجتمِعاً ... بِأهلِ وُدِّيَ مِن قَومِي وأَشياعي؟

يا هل أراني (يا هل ترى) أجتمع بذاك الحي (القوم) من أحبابي وأشياعي (رفاقي)

وهل أسوقُ جَوادِي للطِّرادِ إلى ... صيدِ الجَآذِرِ في خَضراءَ مِمْراعِ؟

وهل يتاح لي أن أسوق حصاني للطراد (الصيد) فأصيد الجآذر (بقر الوحش) في أرض خضراء ممرعة (خصبة)؟

منازلٌ كنتُ منها في بُلَهْنِيَةٍ ... مُمَتَّعاً بين غِلْماني وأَتْباعي

منازل (مواضع) كنت أعيش فيها في بلهنية (رخاء) مستمتعاً بالحياة بين غلماني وأتباعي

فاليومَ أصبحْتُ لا سَهْمِي بِذي صَرَدٍ ... إذا رميْتُ، ولا سيفي بقَطَّاعِ

اليوم أصبحت عاجزاً: لا سهمي ذو صرد (صائب)، ولا سيفي قاطع

لا في «سَرَنْدِيبَ» خِلٌّ أستعينُ به ... على الهمومِ إذا هَاجَتْ، ولا رَاعِ

لا صديق بسرنديب يعينني على الهموم إن تكاثرت علي، ولا من يرعاني

يَظُنُّني مَن يراني ضَاحكاً جَذِلاً   أَنِّي خَلِيٌّ، وهَمِّي بين أَضْلاعي

من رآني ضاحكاً جذلاً (منشرحاً) ظن أنني خلي من الهم، ولكن همومي مكنونة داخل صدري

فإن يَكُنْ سَاءَني دهري، وغادَرني   رَهْنَ الأَسى بين جَدْبٍ بعدَ إِمْراعِ. .

إن كان دهري قد ساءني وتركني بيد الأسى في جدب روحيٍّ بعد زمن الخصب. .

. . فإنَّ في مِصرَ إِخواناً يَسُرُّهُمُ   قُربي، ويُعجِبُهُمْ نَظمي وإِبْداعي

فهناك في مصر من يسره قربي ومن يعجبه شعري

٥٣ العثور على صديق

وقال يجيب رجلاً عن قصيدة أرسلها إليه من الهند يخطب بها مودته:

قَليلٌ بِآدابِ المَوَدَّةِ مِن يَفي   فمَنْ لي بِخِلٍّ أَصطَفيهِ وأَكْتَفِي؟

ما أقل من لديهم الوفاء ومراعاة أدب المودة، فكيف لي بالحصول على صاحب أصطفيه وأكتفي بصحبته؟

بَلَوْتُ بني الدنيا، فلمْ أَرَ صَاحباً   يَدومُ على وُدٍّ بِغيرِ تَكَلُّفِ

بلوت (جربت) الناس فلا صاحب يدوم على الود الخالي من التكلف

رَضِيتُ بمَنْ لا تَشتهي النفسُ قربَهُ،   ومَن لم يَجِدْ مَنْدُوحَةً يَتَكَلَّفِ

رضيت بالمتاح الذي لا أشتهي معاشرته؛ ومن لم يجد بديلاً فهو يتكلف (يتجشم ما لا يريد)

أَديبٌ له في جَنَّةِ الشِّعرِ دَوْحَةٌ   أَفاءَتْ على الدُّنيا بِأَجْمَلِ زُخْرُفِ

هذا أديب له دوحة (شجرة وارفة) في عالم الشعر، أفاءت (ظللت) على الدنيا بظلال مزخرفة بديعة

تَأَلَّفَ نفسي بعدَما زالَ أُنسُها   ونوَّهَ باسمي بعدما كادَ يختَفي

تألف نفسي (جعلها أليفة) بعد أن توحشت وزال منها الأنس، وذكر اسمي بخير بعد أن نسيني الناس

تَوَسَّمْتُ فيهِ الخيرَ قبلَ لقائِه   وأَحْمَدْتُ منهُ الخُبْرَ بعد التَّعَرُّفِ

تأملت خيراً منه قبل اللقاء به، وأحمدت الخبر (وجدت حقيقته حميدةً) بعد التعرف عليه

٥٤ .. وقامتي ألفُ

وعِصَابَةٍ غَلَبَ الكمالُ على   أخلاقِهِمْ، وغَذَاهُمُ التَّرَفُ

رب جماعة فيهم كمال الأخلاق، ونشأوا على الترف

لــلــهِ أيــامٌ بِــهِــمْ سَــلَــفَــتْ   لــو أنَّــهــا بِــالــوصْــلِ تُــؤْتَــنَــفُ

ما كان أجمل الأيام القديمة بصحبتهم، ويا ليتها تؤتنف (تستأنف)

إذ لِـمَّــتــي فَــيــنَــانَــةٌ، ويَــدي   فــوقَ الأَكُــفِّ، وقَــامَــتــي أَلِــفُ

أيامئذ كانت لمتي (شعري) فينانة (طويلة، كأنها ذات أغصان)، وكانت يدي فوق الأكف (كنت محسناً للناس/ فاليد العليا خير من اليد السفلى)، وكانت قامتي معتدلة كحرف الألف

٥٥ استخفاف

قــلــبــي عــلــيــكَ يَــرِفُّ   وعَــبْــرتــي لا تَــجِــفُّ

وأنــتَ يــا نُــورَ عــيْــنــي   بِــلَــوْعــتــي تَــسْــتَــخِــفُّ

٥٦ خذي ما بقي

عُودي بِوَصْلٍ، أو خُذي ما بَقي   فقد تَداعَى القلبُ مِمَّا لَقي

عودي للوصل أو خذي ما بقي من قلبي، فهو قد تداعى (تهدم) مما لقي من هجرانك

عَلَّمتِني الذلَّ، وكنتُ امْرَأً   أفعلُ ما شئتُ ولا أتَّقي

علمتني الذل في العشق وكنت أفعل ما أشاء لا أحسب حساب أحد

٥٧ وحيداً في سرنديب

وقال وهو بسرنديب يتشوق إلى وطنه:

قد كان أبقَى الهوى مِن مُهجَتي رَمَقاً   حتى جَرى البيْنُ فاستَوْلَى على الباقي

الهوى كان قد استولى على مهجتي مبقياً رمقاً (بقية قليلة)، ثم جاء البين (الفراق) فذهب بهذه البقية

حزنٌ بَراني، وأَشواقٌ رَعَتْ كَبِدي   يا وَيْحَ نفسِيَ مِن حُزْنٍ وأشواقِ

الحزن أنحلني وبرى جسدي، والشوق أكل كبدي فيا ويلي

لا في «سَرَنْديبَ» لي خِلٌّ أَلوذُ به   ولا أنيسٌ سِوى هَمِّي وإِطْراقي

ليس لي بسرنديب صديق ألجأ إليه وآتنس به، اللهم إلا الهم والإطراق بالرأس في تفكير

يا قلبُ، صبراً جميلاً، إنه قَدَرٌ   يجري على المرءِ مِن أَسْرٍ وإِطلاقِ

يحث قلبه على الصبر، فالأسر والإطلاق قضاء وقدر

لا بد للضيقِ بعدَ اليأسِ مِنْ فَرَجٍ   وكــلُّ داجِــيَــةٍ يــومــاً لإِشــراقِ

كل ليلة داجية (مُظلِمة) ستؤول إلى إشراق

٥٨ الخذلان

وقال يعرِّض برؤساء الجند الذين تخاذلوا في الثورة العرابية:

بَلَوْتُ بنيِ الدنيا فلَمْ أَرَ صادقاً   فأين لَعَمْري الأكرمونَ الأَصَادقُ؟

بلوت: جربت

أُحاولُ أمراً قصَّرَتْ دونَه النُّهَى   وشابَتْ، ولم تبلُغْ مَداهُ، المَفَارِقُ

أسعى لتحقيق أمر قصَّرت دونه النهى (العقول)، وشابت المفارق (الرؤوس) قبل أن تبلغ آخره

وأَعظَمُ ما ترجُوه ما لا تَنالُهُ   وأكثرُ مَن تَلقاهُ مَن لا يُوافِقُ

الأمنيات الكبرى تبقى بلا تحقق، وأكثر من تلقى من الناس من لا يوافق طبعه طبعك. التسويد لعمران القفيني

مَعاشِرُ سَادُوا بالنِّفَاقِ، وما لَهُمْ   أُصولٌ أَظَلَّتْها فُروعٌ بَواسِقُ

قوم وصلوا إلى السيادة بالنفاق، وليس لهم أنساب عريقة تكون لهم كالجذور التي لها فوقها أغصان بواسق (عالية) ترمي بظلها

طَلاقَةُ وَجْهٍ تحتَها الغَيْظُ كاشِرٌ   ونَغْمَةُ وُدٍّ بينَها الغدرُ نَاعِقُ

يبتسمون لك ويكتمون غيظاً مكشراً، ويتكلمون بنغمة ود، ولكنها تكتم نعيق الغدر

تعلَّمْتُ كَظْمَ الغَيْظِ فِيهِمْ، وإنه   لَحِلْمٌ، ولكنْ لِلحَفيظَةِ مَاحِقُ

تعلمت بوجودي بينهم أن أكظم غيظي، وهذا من الحلم (التسامح) ولكنه يمحق الحفيظة (الغضب للشرف)

دَعَوْني إلى الجُلَّى فقمتُ مُبَادِراً   وإنيِ إلى أمثالِ تِلكَ لَسَابِقُ

دعوني إلى الجلى (العمل العظيم) فأسرعت وبادرت، وأنا لمثل هذا مبادر سابق

على أَنني حذَّرْتُهُمْ غِبَّ أَمرِهِمْ   وأَنْذَرْتُهُمْ لو كانَ يفْقَهُ مَائقُ

لكنني حذرتهم غب (عاقبة) أمرهم، وأنذرتهم لو كان المائق (الأحمق) يفقه

فيا ليتَني راجعْتُ حِلميِ ولم أَكُنْ   زَعيماً، وعاقَتْنيِ لِذاكَ العَوائِقُ

ليتني كنت راجعت حلمي (عقلي) ولم أرض بالزعامة، وليتها كانت عاقتني العوائق عن ذلك

هُمُ عَرَّضُوني للقَنا ثم أَعْرَضُوا سِراعاً، ولم يَطْرُقْ مِن الشَّرِّ طَارِقُ

لقد عرضوني للقنا (الرماح) ثم أعرضوا (تجنبوا) القتال سريعاً وقبل أن يلم بهم أي خطر

وقد أَقْسَمُوا أَلّا يَزُولوا، فما بَدا سَنا الفجرِ إلّا والنِّساءُ طَوالِقُ

وكانوا قد أقسموا بالطلاق ألا يزولوا (يفروا)، فما إن بدا سنا الفجر (ضوءُه) حتى فروا، فلذا نساؤهم يجب أن يكنَّ طوالق!

ولكنْ دَعَتْهُمْ نَبْأَةٌ فَتَفَرَّقُوا كما انقضَّ في سِربٍ مِن الطيرِ بَاشِقُ

دعتهم نبأة (همهمة بسيطة) فتفرق جمعهم، كأنهم سرب طيور انقض عليه باشق (طير كاسر)

إذا أَبصَرُوا شخصاً يقولونَ جَحْفَلٌ وجُبْنُ الفتى سيفٌ لِعينيْهِ بَارِقُ

إذا رأوا شخصاً قالوا هذا جحفل (جيش)، والجبن سيف مسلط يبرق أمام عيني الجبان ويخيفه

أُسودٌ لَدى الأَبياتِ بين نِسائِهِمْ ولكنَّهُمْ عند الهِياجِ نَقَانِقُ

أسودٌ في بيوتهم، وعند الهياج (المعركة) نقانق (نَعام)

إذا المرءُ لم يَنهضْ بِقائِمِ سيفِه فيا ليتَ شِعري كيف تُحْمَى الحَقائِقُ؟

إذا المرء لم ينهض وقائم سيفه (مقبضه) بيده، فكيف تُحمَى الحقائق (الشرف)

٥٩ الصديق الحق

إذا ما المرءُ لم يَنْفَعْ أَخاهُ على الحالَيْنِ في سَعَةٍ وضيقِ..

من لم ينفع صديقه، سواء أكان في سعة من الرزق أم في ضيق..

فدَعْهُ غيرَ مَأْسُوفٍ عليهِ فخيرٌ منهُ إخوانُ الطريقِ

فاتركه، فأحسن منه إخوان الطريق (زملاء السفر الذين تنتهي صحبتهم بانتهاء السفر)

٦٠ العين بالعين

إذا المرءُ لم يَرْمِ الهَناةَ بِمثلِها لِيَدْفَعَ ضَيْماً فهو بالذلِّ أَخْلَقُ

إذا لم يردَّ الإنسان على الهناة (الإساءة) بمثلها كي يدفع الظلم، فهو خليق (مستحق) بالذل

ومَن شهدَ الهيْجاءَ مِن غيرِ آلَةٍ يَذودُ بها عن نفسِه فَهْوَ أَحمَقُ

فهو كمن يشهد الحرب بغير سلاح

٦١ أنا والشعر

ومـا كَـلَـفـي بـالـشِّـعـرِ إلَّا لِأَنَّـه مَـنـارٌ لِـسـارٍ، أو نَـكـالٌ لأَحْـمَـقِ

كلفي بالشعر (غرامي به) إنما هو لأنه ينير الطريق للساري (السائر ليلاً)، أو يمثل تقريعاً وتنكيلاً بالأحمق وهجاء له

عَلِقْتُ به طِفْلاً وشِبْتُ، ولم يَزَلْ شـديـداً بـأهْـدَابِ الـكَـلامِ تَـعَـلُّـقي

تعلقت بالشعر منذ الطفولة، وقد شاب رأسي وما زلت شديد التعلق بأهداب الكلام (شديد الشغف به)

بَلغتُ بِشِعري ما أردْتُ، فلم أَدَعْ بَـدائِـعَ فـي أَكْـمـامِـهـا لـم تُـفَـتَّـقِ

بلغت بشعري ما أردت من ذيوع الصيت، ولم أترك إبداعاتي مخبأة كالزهر الذي ظل في أكمامه لم يفتّح

٦٢ تبرير بعد الهزيمة

كَفَى بِمُقامي في «سَرَنْدِيبَ» غُرْبَةً نـزعْـتُ بـهـا عـنِّـي ثِـيـابَ الـعَـلائِـقِ

كفى بهذه الغربة في جزيرة سرنديب (سيلان) أنني نزعت بها عني صلاتي بكل من كنت أعرف

فـإنْ تَـكُـنِ الأيَّـامُ رَنَّـقْـنَ مَـشْـربـي وثَلَّمْنَ حَدِّي بِالخطوبِ الطَّوَارِقِ . .

إن يكن الزمن قد رنق مشربي (كدَّر عيشتي)، وثلم حدي (أضعفني) بالخطوب الطوارق (المصائب التي تهجم ليلاً) . .

فـمـا غَـيَّـرتْـنـي مِـحْـنَـةٌ عـن خَـلـيـقَـتـي ولا حَـوَّلَـتْـنـي خُـدْعَـةٌ عن طَـرائـقـي

فالمحنة لم تغير أخلاقي، والخداع لم يحرفني عن طريقتي في الحياة

فحَسْرَةُ بُعدي عن حبيبٍ مُصادِقٍ كَـفَـرْحَـةِ بُـعـدي عـن عـدوٍّ مُـمَـاذِقِ

فالحزن لبعدي عن الحبيب يقابله الفرح ببعدي عن العدو المماذق (المخادع). التسويد لعمران القفيني

فـتِـلْـكَ بِـهـذي، والـنَّـجـاةُ غَـنـيـمَـةٌ مِـن الـنـاسِ، والـدنـيـا مَـكـيـدَةُ حَـاذِقِ

فهذه واحدة بواحدة، والنجاة من الناس غنيمة، والدنيا كلها كأنها مكيدة من تدبير حاذق (ذكي)

يـقـولُ أُنـاسٌ إنَّـنـي ثُـرْتُ خـالِـعـاً وتـلْـكَ هَـنـاتٌ لـم تَـكُـنْ مِـن خَـلائـقـي

يقولون إنني ثرت خالعاً طاعة من ولاني الأمر، وهذه هنات (صفات) ليست من أخلاقي

ولـكـنَّـنـي نـاديْـتُ بِـالـعَـدْلِ طـالـبـاً رضَـا اللَّـهِ واستنْهَضْتُ أهلَ الحَقائِقِ

فأنا ناديت بالعدل طلباً لرضا الله، واستنهضت أهل الحقائق (الشرف) وأهبت بهم للخروج

فإن كانَ عِصْياناً قِيامي، فإنَّني أردتُ بعِصيانِي إطاعَةَ خالقي

فإن كان قيامي بما قمت به عصياناً فلم أرد به إلا طاعة الله

على أنَّني لم آلُ نُصْحاً لِمَعْشَرٍ أَبَى غدرُهُمْ أنْ يقبَلُوا قولَ صادِقِ

لكنني لم آلُ (لم أقصر) نصحاً للقوم، ولكن غدرهم منعهم من قبول نصحي

فلمَّا استمرَّ الظُّلْمُ قامَتْ عِصابَةٌ مِن الجُنْدِ تَسْعَى تحتَ ظِلِّ الخَوافِقِ

فلما استمر الظلم قامت جماعة من الجنود تسعى لتحقيق العدل تحت ظل الخوافق (الرايات)

وشَايَعَهُمْ أهلُ البلادِ، فأقبَلُوا إليْهِمْ سِراعاً بينَ آتٍ ولاحِقِ

وشايعهم (ناصرهم) أهل البلاد فالتفوا حولهم بين مبادر سريعاً ولاحق به فيما بعد

يَرومُونَ مِن مَوْلَى البِلادِ نَفاذَ مَا تَأَلَّاهُ مِن وَعْدٍ إلى الناسِ صَادِقِ

يطلبون من مولى البلاد (الخديوي) تنفيذ ما تألّاه (أقسم عليه) من وعود

فيا مصرُ مَدَّ اللَّهُ ظِلَّكِ، وارْتَوَى ثَراكِ بِسَلْسَالٍ مِن النيلِ دَافِقِ

يدعو لمصر بدوام النعيم، ولثراها بالارتواء من سلسال النيل (مائه المتدفق)

فإنْ تَكُنِ الأيامُ ساءَتْ صُروفُها فإنِّي بفضلِ اللَّهِ أوَّلُ واثِقِ

فقد يَستقيمُ الأمرُ بعد اعْوِجَاجِهِ ويَرجِعُ للأوطانِ كلُّ مُفَارِقِ

٦٣ تحريض

وقال يذم سيرة الحكام، ويحض الناس على طلب العدل في الأحكام، وذلك في عهد الخديوي إسماعيل:

فانهَضْ إلى صَهَواتِ المجدِ مُعْتَلِياً، فالبازُ لم يَأْوِ إلَّا عَالِيَ القُلَلِ

قم لاعتلاء صهوات المجد، والباز (الطير الجارح) لا يسكن إلا القلل (القمم) العالية. صهوات الخيل ظهورها، وجعلها صهوات مجد، وعندما انصرف بسرعة إلى الباز خلط طيراً بدابة فجعل في البيت طعوماً شتى كذلك الطباخ الذي حشا جوف الخروف بديك رومي فاضطرب مذاق طبخته

ودَعْ مِنَ الأمرِ أَدناهُ لِأَبعَدِهِ، في لُجَّةِ البحرِ ما يُغني عن الوَشَلِ

اترك الأمر القريب لصالح الأمر البعيد، ففي لجة البحر (وسطه) من الصيد واللؤلؤ ما يغنيك عن الوشل (الماء الضحل)

حَلَبْتُ أَشْطُرَ هذا الدهْرِ تَجْرِبَةً وذُقْتُ ما فيهِ مِن صَابٍ ومِن عَسَلِ

حلبت ضروع هذا الزمن مثلما يحلب المرء البقرة لكثرة ما جربت، وذقت الصاب (المرّ) والعسل

فـمـا وجـدْتُ عـلـى الأيـامِ بـاقِـيَـةً   أَشهَى إلى النفسِ مِن حُرِّيَّةِ العَمَلِ

أشهى شيء أن يعمل المرء بحرية ودون أن يتقيد بتنفيذ أمور سخيفة يريده عليها مديره أو رئيسه. فعلاً المرء يستمتع بالعمل الحر، فمهنة اللص أمتع من مهنة الشرطي، ومهنة الروائي أمتع من مهنة كاتب المحكمة

لـكـنَّـنـا غَـرَضٌ لـلـشـرِّ فـي زمـنٍ   أهـلُ الـعـقـولِ به في طاعةِ الـخَـمَلِ

نحن هدف للشر في زمن يسيطر فيه الخمل (الخاملون البليدون) على أهل العقول، ويجعلونهم عاملين في طاعتهم

قـامَـتْ به مِـن رجالِ السُّوءِ طائِفَةٌ   أدهَى على النفسِ مِن بُؤْسٍ على ثَكَلِ

قامت به (بهذا الزمن) مجموعة من رجال السوء وأخذت تحكم، وهي أسوأ تأثيراً على نفس الإنسان من بؤس يأتي بعد ثكل (فقدان عزيز)

مِن كُلِّ وَغْدٍ يكـادُ الدَّسْتُ يَدفَعُهُ   بُغْضـاً، ويَلْفِظُهُ الديوانُ مِن مَلَلِ

هؤلاء مكونون من كل وغد يكاد الدست (المنصب) يرفضه كراهة له، ويكاد ديوان الوزارة يلفظه (يطرده) لأنه ممل

ذَلَّتْ بِهِمْ مصرُ بعدَ العِزِّ، واضطربَتْ   قَواعِدُ المُلْكِ حتى ظلَّ في خَلَلِ

ولا تـلِـجُّـوا إذا مَـا الـرأيُ لاحَ لـكُـمْ   إن الـلَّـجَـاجَـةَ مَـدْعَـاةٌ إلى الـفَـشَـلِ

يا صحبي لا تلجوا (لا تكثروا الجدل) إذا اهتديتم إلى الرأي الصحيح، فاللجاجة مدعاة (سبب) للفشل (الجبن)

ولا تَـخـافـوا نَـكـالاً فـيـه مَـنْـشَـؤُكُـمْ   فالحوتُ في اليَمِّ لا يَخشَى مِن البَلَلِ

لا تخافوا النكال (العقوبة) فقد نشأتم في ظل العقوبات والمظالم، فأنتم متعودون، ومثَلكم في هذا مثَل الحوت الذي لا يخاف من البلل لأنه نشا في جوف البحر

٦٤ مضى اللهو

وقال، وكتب بها إلى الشيخ حسين المرصفي:

مَضَى اللَّهْوُ، إلَّا أنْ يُخَبَّرَ سَائِلُ   ووَلَّـى الـصِّـبـا إلَّا بَـوَاقٍ قَـلائِـلُ

انتهى زمن اللهو، ولم يبق منه إلا كلام أقوله جواباً لسؤالِ من يسألني، وولّى عهد الشباب إلا بقية قليلة

رَضِينا بِحُكْمِ الحُبِّ فينا، وإنَّنا   لَلُدٌّ إذا التَفَّتْ علينا الـجَحَافِلُ

رضينا بحكم الحب فينا، مع أننا لد (شديدو الخصام) في الحرب حيث تلتف علينا جموع الجند

وإنَّـا رِجـالٌ تَـعـلَـمُ الـحـربُ أنَّـنـا   بَنُوها، ويَدري المجدُ ماذا نُحاوِلُ

نحن أبناء الحرب، وهي تعلم ذلك؛ ويعلم المجد ما الذي نسعى إليه

إذا ما ابْتَنى الناسُ الحُصونَ فمَا لنا   سوى البِيضِ والسُّمْرِ اللِّدَانِ مَعاقِلُ

الناس يبنون الحصون يحتمون بها، ونحن نحتمي بالبيض (السيوف) والسمر اللدان (الرماح السمراء اللينة) فهي فقط معاقلنا

إذا أنتَ أَعْطَتْكَ المَقاديرُ حُكْمَها   فَأَضْيَعُ شيءٍ ما تقولُ العَواذِلُ

إذا أتاح لك حسن طالعك أن تسيطر على مجريات الأمور، عجزت العواذل عنك وضاع كلامها سدى. والعواذل كالفوارس تصلح لجماعة الذكور ولجماعة الإناث

بَلَوْتُ ضُروبَ الناسِ طُرّاً فلم يَكُنْ   سوى المَرْصَفِيِّ الحَبْرِ في الناسِ كامِلُ

جربت صنوف الناس طراً (جميعاً) فلم يكن فيهم من كامل سوى الحبر (العالم) الشيخ حسين المرصفي

٦٥ تصديق الأباطيل

لا تَحْسَبِ الناسَ في الدنيا على ثِقةٍ   مِن أمرِهِمْ، بل على ظَنٍّ وتَخييلِ

يظهر لك الواحد من الناس وكأنه واثق من كل شيء، كلام فارغ.. كل أمورهم قائمة على الظنون والتخييل (الوهم)

حبُّ الحياةِ وبُغضُ الموتِ أَوْرَثَهُمْ   جُبنَ الطِّباعِ وتَصْديقَ الأَباطيلِ

حب الحياة وكره الموت أورثهم (زودهم) الجبن في الطبع، وتصديق كل باطل.
كأنني ألمح بادرة جحد عند البارودي في هذين البيتين اللذين وردا وحدهما، كأنه يقول إن حب الحياة والخوف من الموت جعل الناس يتخيلون حياة أخرى، لا نضع الكلام في فمه، بل نحاول قراءته، والبارودي في شعره من أشد الناس إيماناً بالله وتمسكاً بالإسلام، لكن كذلك كان أبو العتاهية وقالوا في دينه ما قالوا

٦٦ عدو في ثياب صديق

ليس الصديقُ الذي تَعْلُو مَناسِبُه   بل الصديقُ الذي تَزْكُو شَمائِلُهُ

ليس صديقك الحق من كان ذا نسب عال، بل من كان ذا شمائل زكية (طباع طيبة)

لا كالذي يدَّعي وُدّاً وباطِنُهُ   بِجمرِ أحقادِهِ تَغلي مَراجِلُهُ

فهذا ليس كمن يدعي الود بينما باطنه كالمرجل الذي يغلي بجمر الحقد

يَذُمُّ فعلَ أخيهِ مُظهِراً أَسَفاً   لِيوهِمَ الناسَ أنَّ الحُزنَ شامِلُهُ

هذا النوع من الناس يؤنبك على أفعالك وهو يظهر الأسف، ليوهم الناس أنه حزين من أجلك

وذاكَ منه عَداءٌ في مُجامَلَةٍ فاحْذَرْهُ، واعْلَمْ بأنَّ اللهَ خاذِلُهُ

فهذا عداء من جانبه يسوقه سَوْق المجاملة، فاحذر منه فسوف يخذل الله مسعاه. في هذه الأبيات لقطة بارعة لما عند أهل النفاق من طباع

٦٧ هجاء الصَّعْل

وقال يهجو عثمان رفقي، وهو ناظر الحربية الذي عزله الخديوي توفيق وعين بدلاً منه البارودي:

صَغُرَتْ رأسُهُ، وأفرَطَ في الطُّو لِ شَواهُ وعُنْقُهُ، فَهوَ صَعْلُ

رأسه صغير وشواه (أطرافه) وعنقه طويلة، فهو صَعْل (أي صغير الرأس). وأنث الرأس على العامية المصرية، وعلى وجه ضعيف في الفصحى

أَبرزَتْ قُدرةُ الطبيعةِ منهُ شكلَ لُؤمٍ، إن كان للُّؤمِ شَكلُ

قدرة الطبيعة أرتنا شكل اللؤم في شخصه، هذا إن كان للُّؤم شكل

هَدَفٌ لِلعُيوبِ، في كلِّ عُضوٍ منهُ سَهْمٌ للطَّاعنينَ ونَصْلُ

في كل عضو من جسمه هدف لأسهم ونصال الطاعنين

نَسَلَتْهُ مِنَ اسْتِها أُمُّ سُوءٍ مَا لَها غيرُ طَائِفِ الليلِ بَعْلُ

ولدته أمه من خلف، وهي أم سوء ليس لها زوج سوى شخص يطوف ليلاً ويدخل عليها

نَازَعَتْكَ اليَهودُ واختلفَتْ فيـ ـكَ النَّصارَى، فأنتَ لا شَكَّ بَغْلُ

اليهود تدعيك لنفسها والنصارى مختلفون هل أنت منهم أم لا، فأنت كالبغل أبوه حمار وأمه فرس

إنَّ بيتَ الوَزَّانِ لم يَزِنُوا شيـ ـئاً، ولكنْ فيهِمْ على ذَاكَ ثِقْلُ

أسرة الوزان لم تزن شيئاً (ليس لها وزن ولا قيمة)، ومع ذلك فهم ثقلاء. من هذه الأسرة، والأغلب أنها كانت يهودية، مصطفى رياض الذي أصبح رئيس وزراء في عهد توفيق، وكأن البارودي يعد عثمان رفقي من أقارب هذه الأسرة.. ولم أجد مصدراً يصل نسب رفقي بأسرة الوزان

كَثُروا عِدَّةً، ولو أَحْصَنَ البَا بَ أَبوهُمْ عنِ الزُّناةِ لَقَلُّوا

عددهم كثير، ولو كان أبوهم أحصن الباب (أغلقه) ولم يسمح للزناة بالدخول، لقلوا.. أي أنهم أولاد زنا

لو عَزَوْنا كلَّ امْرِئٍ لأبيهِ مِنْ فِراخِ الوَزَّانِ لم يبقَ نَسْلُ

لو نسبنا أولاده لآبائهم الحقيقيين لم يبق للوزان نسل

كلُّ وَغْدٍ أَهْدَى إلى اللُّؤمِ مِنْ بَا زِ، ولكِنْ مِنَ الحِمَارِ أَضَلُّ

كل وغد منهم أهدى (أكثر اهتداء) إلى اللؤم من الباز (الطير الجارح ذي البصر الحديد) ولكنه أكثر ضلالاً من حمار

كنتُ لا أُحْسِنُ الهِجاءَ، ولكنْ عَلَّمَتْني صِفاتُهُمْ كيف أَتْلُو

لم أكن أحسن الهجاء، ولكن صفاتكم علمتني كيف أتلوه

٦٨ ها هي الأهرام

ذَهَبَ الصِّبا وتَوَلَّتِ الأَيَّامُ فعَلى الصِّبا وعلى الزمانِ سَلامُ

تَجري علَيْنا الكأسُ بين مَجالِسٍ فيها السَّلامُ تَعانُقٌ ولِزَامُ

في مجالس الشراب تلك كان سلامنا عناقاً ولزاماً (بالأحضان)

حتى انتَبَهْنا بعدمَا ذهَبَ الصِّبا أَنَّ الخَلاعَةَ والصِّبا أَحْلامُ

لا تَحْسَبَنَّ العيشَ دامَ لِمُتْرَفٍ هيهاتَ، ليس على الزمانِ دَوامُ

تأتي الشهورُ وتنتهي أيامُها لَمْعَ السَّرابِ وتنقضي الأَعْوامُ

فادْرأْ هُمومَ النفسِ عنكَ إذا اعْتَرَتْ بالكأسِ فَهْيَ على الهمومِ حُسَامُ

ادرأ (ادفع) عنك الهموم بالكأس فهي سيف مصْلت على الهموم

مِن خَمرةٍ تَذَرُ الكبيرَ إذا انتَشى بعدَ اشْتِعالِ الشَّيبِ وَهْوَ غُلامُ

حُبِسَتْ بِأَكْلَفَ لم يَقُمْ بِفِنَائِهِ نُورٌ ولم يَبْرَحْ عليه ظَلامُ

حبست الخمر في دن أكلف (جرة كبيرة مغبرة اللون) في قبو مظلم لم يظهر نور في فنائه، وما برح الظلام سائداً حوله

فاطْمَحْ بِطَرْفِكَ هل تَرى مِن أُمَّةٍ خَلَدَتْ، وهل لابْنِ السبيلِ مُقامُ؟

اطمح بطرفك (ارفع رأسك وانظر بعينيك) هل ترى أمة خلدت؟ وهل لابن السبيل (المسافر) مكوث؟

هَذي المَدائِنُ قد خَلَتْ مِن أهلِها بعدَ النعيمِ، وهذهِ الأَهرامُ

هذه المدن خلت من أهلها الأولين، وها هي أمامك الأهرام.. كل قوم إلى زوال. يوازن زكي مبارك بين قصيدة البارودي هذه وبين قصيدة أبي نواس (يا دار ما فعلت بك الأيام)، وينصف ديباجة البارودي الجميلة، ولا يعجبه وصفه للخمر، فهو ليس منغمساً في حمأتها انغماساً مقنعاً، فأما أبو نواس ففي شعره حرارة جعلت زكي مبارك يقف عند البيت (وبلغتُ ما بلغ امرؤٌ بشبابه/ فإذا عصارة كل ذاك أثام) قائلاً: «الله أكبر، هذا هو الشعر، وذاك هو الشاعر، أبو نواس!» وعن وصف الشاعرين للخمر يقول زكي مبارك: «إن خمرية البارودي هذه لن تهوي بأحد إلى الجحيم، ولن يسأل عنها يوم الحساب، أما خمريات أبي نواس فقد صيرت قبره سعيراً لا يخمد له أوار، وسيكون يوم الدين جبلاً يتفجر بالبراكين»

٦٩ لذّات فانيات

وقال يصف روضة المقياس:

ومَـنـزِلَـةٍ لـلأُنْـسِ كـنَّـا نَـحُـلُّـهـا ونَرعَى بِها اللَّذاتِ رَعْيَ السَّوائِمِ

رب مكان أنس ولهو كنا نحل فيه ونستمتع باللذات كأننا نرعاها رعي السوائم (المواشي)

عَفَتْ وكَأَنْ لم تَغْنَ بالأَمْسِ، والتَقَتْ عليها أعاصيرُ الرياحِ الهَواجِمِ

هذه المنزلة (المكان) عفت (امَّحت) كأنها لم تكن عامرة بالأمس، والتقت فيها الرياح الهاجمة عليها فغيرت معالمها

وما خَيْرُ دُنيا لا بَقَاءَ لِعَهْدِها وما طيبُ عَيْشٍ رَبُّه غيرُ سَالِمِ؟

ما خير دنيا (لا خير في دنيا) لا يبقى لها عهد، ولا طيب لعيش ربه (صاحبه) غير سالم، فلا بد له بعد العيش من موت

٧٠ إلى كم تنام؟

وقال، وكتب بها من حرب الدولة العثمانية مع روسيا (١٨٧٧م) إلى صديقه الشيخ حسين المرصفي:

يا نَاعِسَ الطَّرْفِ إلى كَمْ تنامْ؟ أَسهَرْتَني فيكَ ونَامَ الأَنامْ

يا أيها المحبوب الناعس الطرف (النائم)، أسهرني عشقي لك، ونام الناس

أَوشَكَ هذا الليلُ أن يَنقضي والعينُ لا تعرِفُ طِيبَ المَنامْ

اللَّهَ في عينٍ جَفاهَا الكَرَى فيكُمْ، وقلبٍ قد بَراهُ الغَرامْ

اتق اللهَ في عيني التي جفاها الكرى (هجرها النوم) فيكم (بسببكم)، وفي قلب براه (أنهكه) الغرام

طالَ النَّوَى مِن بَعدِكُمْ، وانقَضَتْ بَشاشَةُ العيشِ، وساءَ المُقامْ

طال النوى (البعاد) وذهبت بشاشة العيش (طيبه)، وساء وجودي ههنا

أَرتَاحُ إنْ مَرَّ نَسيمُ الصَّبا، والبُرْءُ لي فيهِ مَعاً والسَّقَامْ

نسيم الصَّبا يذكرني بك فهو لي برء (شفاء)، لكنه أيضاً سقام (مرض)

يا لَيْتني في السِّلْكِ حَرْفٌ سَرَى أو رِيشَةٌ بينَ خَوافي الحَمامْ

ليتني حرف يسير في سلك التلغراف فأصل إليك بشخصي، أو ليتني ريشة بين خوافي الحمام (الريشات الداخلية في الجناح)

حتَّى أُوافيَ مِصْرَ في لَحْظَةٍ أَقضِي بها في الحُبِّ حَقَّ الذِّمَامْ

حتى آتي إلى مصر فأقضي حق الذمام (العهد) للحب

٧١ عذر العاشق

ألا لا تَلُمْ صَبّاً على طولِ سُقْمِهِ ودعْهُ فليس الأمرُ فيهِ لِحُكْمِهِ

لا تلم الصب (العاشق) على طول سقمه (مرضه)، فهذا أمر ليس خاضعاً لحكمه

إذا ما أَقَرَّ المرءُ يوماً بذنبِهِ فماذا الذي تُغني لَجَاجَةُ خَصْمِهِ؟

لجاجة: جدال، ومماحكة

٧٢ أنا كمجلة الأحكام

أنا في الدهرِ ضائعٌ بين فَهْمٍ فاتِكٍ حَدُّهُ، وجَدٌّ كَهَامِ

أنا ضائع بين فهم حاد وذكاء، وبين جدٍّ (حظٍّ) كهام (متثلم). يعني أنه فاهم وذكي لكن حظه سيء

حُزْتُ عِلْماً، وما رُزِقْتُ قَبولاً فكأنّي مَجَلَّةُ الأَحْكَامِ

أحرزت العلم، ولكنني لم أحرز القبول، تماماً كمجلة الأحكام الرسمية التي تنشر بنود القوانين:
فهي مملوءة بالمعلومات، لكنها جافة لا يقبل الناس عليها

٧٣ صديق صعب

ألا مَن مُعينِي على صاحبٍ جَرَعْتُ بِصُحبتِهِ العَلقَما؟

من يعينني على صديق تجرعت في صحبته العلقم؟

يلومُ على غيرِ ذنبٍ جَرى ويَغضَبُ مِن قبلِ أنْ يَفْهَما

سريع اللوم سريع الغضب

فإن قلتُ مَهلاً لَوى شِدْقَهُ وإن لم أُجِبْ قولَهُ بَرْطَمَا

برطَمَ: زعل

٧٤ ارغب عن الدنيا

المرءُ طَوْعُ يدِ الزمانِ، يقودُهُ قَوْدَ الجَنيبِ لِغايَةٍ لم تُعْلَمِ

المرء بيد الزمان يقوده مثلما يقود المرء الجنيب (الحصان) ويأخذه إلى غاية مجهولة

إن الحياةَ شَهِيَّةٌ ما لم تكنْ غَرضاً لإمْرَةِ ظالمٍ لم يرحَمِ

ما لم تكن أنت مستهدفاً من ظالم

لا أرتَضي عَيْشَ الجبانِ، ولا أَرى فضلاً لِذي حَسَبٍ إذا لم يُقْدِمِ

لا فضل للشريف ذي الحسب إذا لم يكن شجاعاً مقداماً

لو كان للإنسانِ علمٌ بالذي ... في الغيبِ لم يفرَحْ ولم يتنَدَّمِ
فدَعِ الأمورَ إلى مدبِّرِ شأنِها ... وارغَبْ عن الدنيا بنفسِكَ تَسْلَمِ

٧٥ سيف وقيد

سُكوتي إذا دَامَ الحديثُ كلامُ ... وتَقليبُ عيني في الوُجُوهِ مَلامُ

سكوتي وهم يتكلمون له معنى فهو كالكلام، ونظراتي في وجوه المتحدثين تحمل اللوم لهم

وصَبري على الأيامِ لا مِن مذَلَّةٍ ... ولكنْ يَدٌ مَغلُولَةٌ وحُسَامُ

صابر على الأيام ليس لأنني ذليل، لكن لأن يدي مغلولة (مقيدة) وإن كانت تحمل سيفاً

أُلامُ على أنّي صبرتُ، وهل فَتىً ... على الصبرِ، إن قلَّ المُعينُ، يُلامُ؟

٧٦ المال الضعيف

لا تَعْذِلَنِّي على وَفْرٍ سمحتُ به ... للمُعْتَفينَ فإنِّي ماجِدُ الشِّيَمِ

لا تلمني على مال سمحت به (تفضلت به) للمعتفين (الفقراء) فأنا ماجد الشيم (شريف الطباع)

فإنْ يكُنْ قَلَّ مالِي بعد وفرَتِه ... فإنَّ مَالِيَ لا يَقْوَى على كَرَمي

فإن كان مالي قد أصبح قليلاً بعد ثراء، فذلك لأن مالي لا يتحمل سخائي

٧٧ الذم بالمدح

أيُّها الشاعرُ المُجيدُ تَدَبَّرْ ... واجعلَ القولَ منكَ ذا تَحكيمِ
لا تَذُمَّ اللئيمَ، وامْدَحْ كَريماً ... إنَّ مدحَ الكريمِ ذمُّ اللئيمِ

٧٨ القامة المقوسة

حنَى الشيبُ عُودي، فاستَقامَتْ رَوِيَّتي ... ولولا انحناءُ القوسِ ما صَرَّدَ السهمُ

حنى العمر قامتي، فاستقامت رويتي (حكمتي)، وكذا القوس فإنها محنية ولذا فالسهم الذي ينطلق عنها يصرد (يصيب)

٧٩ رب السيف والقلم

ولو كان للإنسانِ عِلمٌ يَدُلُّهُ ... على خافياتِ الغيبِ ما كان يَندَمُ

لو علم الإنسان الغيب لما ندم على شيء، إذ سيعرف أن كل شيء مقدر محتوم

كتمتُ الهوى خوفَ الوُشاةِ، فلم يَزَلْ بيَ الدمعُ حتَّى بَانَ ما كنتُ أَكْتُمُ

كتمت حبي خوفاً من الوشاة، وظل دمعي يسيل حتى ظهر ما أكتم

ويَصْحَبُني في كلِّ رَوْعٍ ثَلاثةٌ: حسامٌ، وطِرْفٌ أَعْوَجِيٌّ، ولَهْذَمُ

يصحبني في الروع (الحرب) سيف، وطرف أعوجي (حصان أصيل) ولهذم (رمح)

ويَنصُرُني في كلِّ جَمْعٍ ثَلاثةٌ: لِسانٌ، وبُرهانٌ، ورَأيٌ مُحَكَّمُ

ينصرني في المجالس لساني، وما عندي من براهين على ما أقول، ورأيي الصائب

فلا تحتقِرْ فضلَ الكلامِ، فإنَّه مِن القولِ ما يَبني المَعالي ويهدِمُ

لا تحتقر أهمية الكلام، فمنه ما يصنع للمرء المعالي (الأمجاد)، ومنه ما يُسقط صاحبه ويفضحه

فما كُلُّ مَن حاكَ القصائدَ شاعرٌ ولا كلُّ مَن قالَ النَّسيبَ مُتَيَّمُ

فإنْ يَكُ عَصْرُ القولِ وَلَّى، فإنَّني بِفَضْلي، وإنْ كنتُ الأخيرَ، مُقَدَّمُ

لئن ولى عصر الفصاحة فإنني مقدم متميز وإن جئت في هذا الزمن المتأخر

٨٠ بين يوسف وكافور

ومَا مِصْرُ، عُمْرَ الدهرِ، إلَّا غَنيمَةٌ لِمَنْ حَلَّ مَغنَاها، ونَهْبٌ مُقَسَّمُ

مصر، طولَ عمرها، غنيمة لمن ينزل في مغناها (جنانها) ومنهوبة مقسمة بين الفاتحين

تَداوَلَها المُلَّاكُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ ونَال بها حَظَّاً فَصيحٌ وأَعْجَمُ

تداولها الملوك، ونال بها الغنى الفصيح والعيي. فالعرب الفصحاء نالوا بها حظوة عندما فتحوها، وفي زمن البارودي كان للإيطاليين واليونانيين والفرنسيين ثم الإنجليز مكانة، واغتنوا بمصر

فما أَهلُها إلَّا عَبيدٌ لِمَنْ سَطَا ولا رَيْعُها إلَّا لِمَنْ شَاءَ مَغْنَمُ

سطا: استبد

عِدَادُكَ في سِلْكِ البَرِيَّةِ خِزْيَةٌ ودَعْواكَ حَقَّ المُلْكِ أَدْهَى وأَعْظَمُ

أن نعُدَّك في سلك البشر شيء مخزٍ، وادعاؤك الملك أدهى، وينطبق هذا القول على الخديوي توفيق الذي شايع الإنجليز

لقد هانَتِ الدنيا على الناسِ عندما رأَوْكَ بها في مُلْكِ «يُوسُفَ» تَحْكُمُ

الدنيا هان شأنها على الناس عندما رأوك تحكم مصر التي حكمها ذات يوم النبي يوسف

فإنْ تَكُ أَوْلَتْكَ المقاديرُ حُكْمَها   فقد حَازَها مِن قبلُ عَبْدٌ مُزَنَّمُ

إن كنت توليت أمر مصر، فقد تولاها قبلك عبد مزنم (دعي منسوب إلى غير أبيه)، يقصد كافوراً الإخشيدي الذي هجاه المتنبي

٨١ الداء القديم

أَعِدْ على السَّمْعِ ذِكْرَ البَانِ والعَلَمِ   واعذِرْ شآبيبَ دَمعي إن جَرَتْ بِدَمِ

كرر على مسامعي ذكر البان والعلم (مكانين في الحجاز)، واعذرني على شآبيب (زخات) دمعي إن جرى معها الدم لشدة البكاء

وكيف أَنسَى دِياراً قد نشأتُ بها   في منبتِ العِزِّ بين الأَهلِ والحَشَمِ؟

يتذكر الآن مكان نشأته بمصر في بيئة العز وحوله الأهل والحشم (الخدم)

ودَّعْتُ شطرَ حياتي يومَ فُرْقَتِهِمْ   وصافَحَتْني يَدُ الأحزانِ والهَرَمِ

ودعت شطر (نصف) حياتي عندما فارقتهم، وجاءني الحزن وهجمت علي الشيخوخة

تَغيَّرَ الناسُ عمَّا كنتُ أَسمَعُهُ   واستَحْكَمَ الغَدْرُ في السَّادَاتِ والحَشَمِ

وظَلَّ أَعْدَلُ مَن تلقَاهُ مِن رَجُلٍ   أَعْدَى على الخلقِ مِن ذِئبٍ على غَنَمِ

أعدل الناس صار أكثر اعتداءً من الذئب على الغنم

لم أدْرِ هل نَبَغَتْ في الأرضِ نابِغَةٌ   أم هذهِ شِيمَةُ الدنيا مِن القِدَمِ؟

هل انبثقت طفرة من الطفرات فصار الأمر كذلك، أم أن هذه شيمة وطبع الدنيا منذ القدم؟

٨٢ تفرَّدْ

كلَّما قلتُ قد أَصَبْتُ خليلاً   أَضحَكَتْني مِنْ غدرِهِ الأيامُ

أصبت خليلاً: عثرت على صديق

فتفَرَّدْ تعِشْ بنفسِكَ حُرَّاً   رُبَّ فَرْدٍ يخشاهُ جيشٌ لُهَامُ

عش وحيداً حراً، فرب فرد يخشاه الجيش اللهام (الكبير)

٨٣ وداع الوطن

وقال يذكر وداعه للوطن، (كان ذلك في ديسمبر/ كانون الأول ١٨٨٢، إذ احتل الإنجليز مصر، ونفوا البارودي وعرابي وخمسة آخرين من قادة الثورة إلى جزيرة سيلان التي كانت مستعمرة بريطانية):

مَحَا البينُ ما أبقَتْ عيونُ المَها مِنِّي   فَشِبْتُ، ولم أَقْضِ اللُّبَانَةَ مِنْ سِنِّي

محا الفراق ذلك القليلَ الذي أبقته عيون المها مني، فداهمني الشيب قبل أن أقضي اللبانة (الحاجة) من شبابي

فَإنْ أَكُ فارقْتُ الديارَ فَلي بها   فؤادٌ أَضَلَّتْهُ عُيونُ المَها مِنِّي

لئن فارقت البلاد فلي بها قلب ضيعته مني عيون المها

فهل مِنْ فتىً في الدهرِ يجمعُ بينَنا؟   فليس كِلانا عن أَخيهِ بِمُسْتَغْنِ

فهل أجدُ من يجمعني بقلبي؟ فلا غنى لي عنه، ولا غنى له عني

ولمَّا وقفْنا للوَداعِ، وأَسبَلَتْ   مدامعُنا فوقَ التَّرائِبِ كالمُزْنِ..

لما وقفنا نتوادع، وأسبلت دموعنا (نزلت) فوق الترائب (أعلى الصدر) كالمزن (السحاب)

أَهَبْتُ بِصبري أن يعودَ فعَزَّني   ونَادَيْتُ حِلمي أن يثوبَ فلمْ يُغْنِ

طلبت من صبري أن يعود فعزني (قوي علي وأبى)، وناديت حلمي (عقلي) أن يثوب (يعود) فلم يغن ندائي شيئاً

ولم تَمْضِ إلَّا خَطْرَةٌ ثم أَقْلَعَتْ   بنا عن شُطُوطِ الحَيِّ أَجْنِحَةُ السُّفْنِ

وما هي إلا خطرة (برهة) حتى أقلعت بنا السفن ناشرة أجنحتها (أشرعتها)

ولولا بُنَيَّاتٌ وشِيبٌ عَواطِلٌ   لَمَا قَرَعَتْ نَفسي على فَائِتٍ سِنِّي

لولا بناتي الصغيرات، والنساء الكبيرات العواطل (غير المتزينات) من الأهل لما قرعت نفسي السن (لما ندمت) على ما فات من أمر

ومَنْ شَاغَبَ الأيامَ لانَ مَريرُهُ   وأَسْلَمَهُ طولُ المِراسِ إلى الوَهْنِ

من عاند الأيام لان مريره (قوته)، وأسلمه (أدى به) طول المراس (المعافرة ومزاولة المخاطر) إلى الضعف

٨٤ واطولَ شوقي

وقال وهو بسرنديب:

وَاطُولَ شَوقي إليكَ يَا وطنُ!   وإن عَرَتْني بِحبِّكَ المِحَنُ

عرتني: اعترتني

لستُ أُبالي، وقد سَلِمْتَ على الدَّـ   ـهْرِ، إذا مَا أَصابَني الحَزَنُ

إن سلم الوطن فلست أبالي ما أصابني من حزن

٨٥ المكتفي بعقله

رَضيتُ مِن الهوى بِنُحولِ جِسمي   ومِن صِلَةِ البخيلةِ بِالأماني

ولستُ بِطالِبٍ في الناسِ خِلّاً   يُناصِحُني، فعَقْلِي قد كَفاني

٨٦ ليلة أنس

لاعَبَ السُّكْرُ قدَّهُ فتَثَنَّى   ودعاهُ فَرْطُ السُّرورِ فغَنَّى

سكر المحبوب فأخذ يميل بقده ويتثنى، ومن فرط سروره أخذ يغني

رَشَأٌ تَعْبُدُ النَّواظِرُ مِنْهُ   وَاحِداً في الجَمالِ ليسَ يُثَنَّى

رشأ (غزال) تعبد النواظر (العيون) إذ تنظر إليه الواحد الذي لا ثاني له، يقول الناس سبحان الله الخالق عندما يرون مثل هذا الجمال

أَنْبَتَ الحُسْنُ فوقَ خَدَّيْهِ وَرْداً   ليسَ إلَّا بِغمْزَةِ اللَّحْظِ يُجْنَى

الحسن جعل في خديه ورداً هو الاحمرار، ونقطف هذا الورد بنظراتنا

لم يَزَلْ يَرْضَعُ السُّلافَةَ حتى   غابَ عنَّا كأنَّه ليس مِنَّا

شرب المحبوب كثيراً من السلافة (الخمر) حتى غاب عن الوعي

٨٧ حبيب افتراضي

يا ذُكْرَةً أبصَرْتُ في   مِرْآتِها صُوَرَ التمَنِّي

يا ذكرة (خاطرة) رأيت فيها صورة من صور التمني

خَطَرَتْ عليَّ فَنَفَّرَتْ   طَيْرَ الكَرى مِنْ وَكْرِ جَفْنِي

خطرت لي، فنفرت طير الكرى (أبعدت النوم) من وكر جفني

عَلِقَتْ حِبَالَةُ خَاطِرِي   مِنهَا بِمَكْحُولٍ أَغَنِّ

حبالة خاطري (مصيدة ذهن) أمسكت هذا الغزال المكحول الأغن (الأكحل العينين ذا الصوت الذي فيه غنة)

كانتْ مِثَالاً خَطَّهُ   بِمَخيلَتي نَقَّاشُ ذِهني

كانت هذه الخاطرة كالمثال (الصورة) التي رسمها ذهني فكأنه نقاش يرسم بإزميله على الحجر رسماً

هِيَ لُقْيَةٌ وَهْمِيَّةٌ   سمحَتْ بها خَطَراتُ ظَنِّي

هذا لقاء وهمي، من بنات الظنون

٨٨ نصحت قومي

نصحتُ قومي وقلتُ الحربُ مَفجَعَةٌ وربـمـا تَـاحَ أمـرٌ غـيـرُ مَـظـنـونِ

قلت لقومي: الحرب تأتي بالفواجع، وقد يأتي أمر لم يخطر بالبال

فـخَـالَـفـونـيءِ، وشَـبُّـوهـا مُـكَـابَـرةً وكـان أَوْلى بِـقـومـيِ لـو أَطـاعُـوني

خالفوني وأشعلوا نار الحرب مكابرة وعناداً، وكان أولى بهم لو أطاعوني

تأتيِ الأمورُ على ما ليس في خَلَدٍ ويُخطِئُ الظنُّ في بعضِ الأَحايينِ

الأمور تأتي بما ليس في خلد (عقل) والظن يخطئ أحياناً

٨٩ علَّمت الحمام الأغانيا

وما لـيَ ذنـبٌ عـنـدَهُـمْ، غـيرَ أنَّـنـيِ شَـدَوْتُ فَـعَـلَّـمْـتُ الـحـمـامَ الأَغـانِـيـا

وهل يكتُمُ المرءُ الهَوى وَهْوَ شَاعِرٌ ويَـثْـنـيِ عـلـى أَعـقَـابِـهِـنَّ الـقَـوافـيـا

الشاعر لا يكتم الهوى، ولا يرد القوافي على أعقابها ولا يرفضها

فيَا نَـسَماتِ الـفَـجْرِ مَا لَكِ كلَّما تـنَـسَّـمْـتِ أَضْـرَمْـتِ الـهـوى في فؤاديا

ويا رَوْضَـةَ الـمِـقْـيَاسِ جَادَكِ سَلْسَلٌ مِنَ النيلِ يَدعُو لِلحنينِ السَّواقِيا

أيتها الروضة جادك سلسل من مياه النيل يجعل السواقي تدور وتصدر صوتاً كحنين الإبل. وفي جزيرة الروضة هذه مقياس يقيس ارتفاع النيل

هِيَ الـوطنُ الـمألـوفُ والـنفسُ صَبَّةٌ بِـمـنـزِلِـهـا الأَدْنـى، وإن كـان نَـائـيـا

هذا وطني الذي ألفته، والنفس صبة (مغرمة) بمنزلها القريب إلى القلب حتى وإن كان بعيد المسافة

فـلا حَـبَّـذا الـدنـيـا إذا هِـيَ أَدْبَـرَتْ وإن أَقْـبَـلَـتْ يـومَـاً فـيـا حَـبَّـذَا هِـيَـا

الدنيا رديئة عندما تدبر عن المرء وتوليه ظهرها، وما أجملها عندما تقبل

فهرس القوافي

(القافية فرقم القصيدة)

جميل صدقي الزهاوي
(١٨٦٣م ـ ١٩٣٦م)

يذهب الرجل للتعزية. وما يكاد يسخن تحته الكرسي حتى يتنحنح ويسأل ابن الفقيد أو أخاه هامساً: كيف مات؟ أبجلطة على قلبه، أم ببلطة شقت رأسه؟

وما لك ولهذا السؤال البارد يا ثقيل!

وهبْك تريثت بعد أن تنحنحت، ولم تشعر بعد أنك استجمعت ما يكفي من الشجاعة كي تسأل سؤالك. لا بأس عليك! لا تستجمع شجاعتك يا أخي، لا لزوم لذلك. فذوو الفقيد سيصدعون رأسك بوصف الميتة كيف مِيتت، وبالميت كيف لفظ آخر أنفاسه. ولن تجدهم يذرفون دمعة وهم يقصون القصة بأدق التفاصيل، لا بل سيتدفقون في الحديث بحماسةٍ وشهوةِ حَكْيٍ عجيبتين.

وكيف مات جميل صدقي الزهاوي؟ وقع وهو يمشي داخل بيته وتفتت عظم في قدمه، فلزم سريره. ومات.

فكيف إذن عاش؟

كل الكتب والمقالات تعدد لك وظائفه ومناصبه كأنها تكتب سيرة وظيفية لإرفاقها بطلب عمل. الزهاوي أكبر من وظائفه ومناصبه.

لا أكتمك أنني أذكر وظائفي ومناصبي في بعض ما أكتب وبعض ما أقول. وقد تراني أفعل ما يفعله صغار النفوس من دسِّ عبارة في أثناء كلامي تُشعِر بأنني توليت ذات يوم الوظيفة الفلانية أو الفلانية. هذا بعض ما في طباعي من لؤم. وإنما أفعل ذلك كي أدرأ عن نفسي تهمة كان ينبغي أن أشرُف بها: تهمة أنني فاشل في المناصب.

لا، لا، لست فاشلاً فقد كنت ذات يوم كذا أو كذا. سبحان من خلقني!

لا شيء أجلب للشرف على الكاتب من أن يكون فاشلاً في سباق الجرذان، هذا السباق على المناصب.

على أنني، ككل الناس، أريد أن أبدوَ ناجحاً اجتماعياً ووظيفياً. لكنني ما سمعت بكاتب أو أديب ذي مناصب إلا وهو مخفق في أدبه بقدر نجاحه في مناصبه. وعندما تدبرت حياة الشاعر ابن المعتز، الذي تولى الخلافة يوماً وليلة ثم قتل، قلت في نفسي: هكذا ينبغي للأمر أن يكون.

لن أذكر لك مناصب الزهاوي. لكنني سأقول لك إنه كان يعيش في بيت مريح بناه هو بماله في بغداد مع زوجته «زكية» التي تصغره كثيراً. ولم ينجبا، غير أنه كان عنده كلب أسود وحمارة بيضاء يتنقل بها بين مقاهي بغداد.

وقد تعجَّب بعض الأدباء من رفائيل بُطي كيف يعتني في كتابه عن تاريخ الأدب المعاصر في العراق بذكر كلب الزهاوي وبذكر اسمه، واسمه بالمناسبة «ولك»، وأما اسم الحمارة فهو من غوامض الأمور التي تحتاج إلى دفتر من هذه الدفاتر التي يسمونها رسائل دكتوراه لتحقيقها.

أحذرك من أن ما ستقرأه من شعر الزهاوي مزعج. فالزهاوي متمرد على المعتقدات حد الجحد. وهو علماني، وإن لم يكن ملحداً ولا عدمياً.. قد كان صاحبنا يؤمن بالإنسان. لكنه سيزعج كثيرين الآن مثلما أزعج كثيرين في حياته. يكفي أن ابن أخيه الفقيه الدَّيِّن رفض أن يشيع جنازته.

عاش الزهاوي مع زوجة أحبته وخدمته، وكان لها محباً مخلصاً. وكان على بعض اليسار، (ربما بسبب الوظائف والمناصب، لا حول ولا قوة إلا بالله.. وهل تريده أن يعيش سائلاً أمام باب المسجد؟)

هذا رجل عتيق.. ولد والعراق عثمانية جداً. ولد عام ١٨٦٣، بحسب المتواتر، أو قبلها بعشرة أعوام إن صدَّقنا إبراهيم عبد القادر المازني وأحمد حسن الزيات. وانتزعه أبوه، وحده من بين إخوته، وأعاشه في بيته. يبدو أن أمه كانت تعيش وأولادَها في بيت آخر. لعل والده رأى فيه نبوغاً باكراً. وأبوه رجل فقه وعلم وفتيا، ورجل شعر أيضاً، وكان يتقن الفارسية وينظم بها علاوة على نظمه بالعربية.

كان أبوه يعطيه درهماً على كل بيت يستقيم له نظمه بغض النظر عن معناه.

ذلك بالعربية. ونشأ الزهاوي على اللغة العربية. لكنه تعلم الفارسية والتركية حدثاً، وأجادهما إجادة بلغت أن كان ينظم بالفارسية، وينشد بها شعره، وأن كان يكتب في الصحف التركية ويترجم القوانين من التركية إلى العربية، ويتولى التدريس في معاهد إستانبول العليا. وقيل إنه عرف الكردية، وبعض الفرنسية.

آن أن نقول لك إنه كردي. قال إبراهيم الدروبي صاحب كتاب «البغداديون في أخبارهم ومجالسهم» إن أصل العشيرة من مخزوم القرشية، غير أن العائلة أخذت اسمها من «زهاو» التي عاش بها الأجداد، وهي اليوم في إيران. وقيل إنه من أصل كردي.

لا تلمس في كل شعر الزهاوي وحياته شيئاً من كرديته. فهو قد نشأ في حضن أبيه الفقيه المفتي على حب اللغة العربية، ونشأ عربياً.

الزهاوي فحل من فحول البيان العربي. انظر في الصفحات السبع التي كتبها تقديماً لديوانه المطبوع بمصر، عام ١٩٢٤، وسترى قلماً بديعاً. وانظر في شعره وسترى الرجل يعرف العربية معرفة عميقة. ولا تغتر بهذه البساطة في شعره، ولا بأسلوبه المعاصر والمباشر، هذا كله وليد فكرِه المعاصر والمتمرد على القديم.

أُشبِّه الزهاوي بابن الرومي في هذه، وأشبهه به في كثير غيرها. فهو بغدادي جداً، وابن الرومي لم يكد يبرح بغداد طول عمره. والزهاوي يبلغ به تطلُّب المعنى أن يسترسل في «نثرية» يتململ منها الشعر ويكاد يأباها، والزهاوي يطيل جداً ويكرر المعنى نفسه باللفظ نفسه في القصيدة بعد القصيدة، والزهاوي كان مضطرب الأعصاب مصاباً في نخاعه الشوكي منذ سن الخامسة والعشرين، وكان نحيلاً شديد النحول. وهذه كلها كانت في ابن الرومي. وكان الشاعران كلاهما متمردين، وكانا على معرفة عميقة بالعربية يسترها الأسلوب السهل. على أن ابن الرومي، المعتزلي المتمرد الرافض، كان يثوب إلى الإيمان بين الحين والحين فيقول أشياء تشعرنا بإيمانه الديني العميق، ولكن الزهاوي كان في هذه شبيهاً بالمعري.

يقول الزهاوي الأبيات الكثيرة في الجحد ثم يدس بيتاً يتقي به تهمة الإلحاد. وقد يلقي قصيدة في احتفال المولد النبوي فتأتي باردة.

عاش الزهاوي في بغداد، وقضى فترات تطول وتقصر في إستانبول،

وأُزعج عن بغداد، أي هجَّ منها وطفش، فرحل إلى الشام فبيروت وزار مصر وتعرف على أدبائها وعلمائها. وقابل يعقوب صروف.

كانت صحيفة «المقتطَف»، التي أسسها يعقوب صروف ثم حررها خمسين سنة، معلِّماً درس الزهاوي على يديه العلم والفكر. كان والده يحتفظ بمجلدات من هذه المجلة، والتهمها الزهاوي يافعاً. وكانت المقتطف مدرسة تقدم العلم والأدب. وعلى هذه الصحيفة ـ التي بدأت في بيروت ثم انتقلت إلى مصر ـ نشأ خلق من كبار الأدباء والعلماء. منها ومن الكتب التركية المترجمة عن اللغات الأوروبية استقى الزهاوي العلم.

طريف أن ترى الزهاوي والعقاد يتناقشان عبر الصحف في نظرية آينشتاين عن الضوء والكون المحدب وطبيعة الجاذبية. ولعل العقاد كان أحسن اطلاعاً على الكتب الأوروبية لأنه كان يقرأُها مباشرة بالإنجليزية، غير أن الزهاوي كان أثقب ذهناً.

كان الزهاوي من الأدباء الذين اشتهوا أن يكونوا علماء طبيعيين. مثَله في ذلك مثل غوته الألماني الذي حبر مئات الصفحات في العلم المحض، وأصاب وأخطأ، وظل مجرد أديب يرفض تحويل أمور العلم إلى «الجهات المختصة». مثل غوته كتب الزهاوي في العلم كتباً، ونشرها. وما بقي لها من القيمة هو أنها تنبئ عن ذهن منفتح وتوق شديد إلى العلم.

غير أن ما تعلمه الزهاوي من المقتطف، ومن الكتب التركية المترجمة عن أصول أوروبية، كان ثميناً. كان الأساس في فلسفة الرجل. وللزهاوي فلسفة حقيقية: هو مادي يرى الحياة مجرد تعبير عن التركيب المعقد للمادة، فالجماد مادة دنيئة بسيطة التركيب، والحي معقد التركيب بدرجات بين حيوان وحيد الخلية وإنسان فيه ما بين ٣٧ تريليون خلية (دراسة من الدراسات لشخص وزنه ٧٠ كغم)، و٧٢٤ تريليون خلية (دراسة أخرى). والروح هي الحياة، هي تعبير عن هذا التعقيد في التركيب. وعليه فإذا فني الجسم، أي تفكك التركيب، فالروح تفنى.

ولأن الروح من أمر ربي فلا نمعنُ في مناقشة الزهاوي، ونظل نطالب العلماء بتخليق خلية حية في المختبر ـ وهو أمر حاولوه مراراً منذ خمسينات القرن العشرين، ومنتهى ما توصلوا إليه أن اشتقوا حياة من حياة عن طريق الاستنساخ ـ قبل أن نحملهم على محمل الجد. الاستنساخ شيء وتخليق الحياة شيء آخر.

وقد عالج الزهاوي المقولة الإلهية معالجة عابثة جرَّت عليه كثيراً من العنت، وألجأته مرةً إلى التزام بيته أياماً خوفاً على نفسه من «الاغتيال» على يد العامة ببغداد. والعامة اليوم تغتال الزهاوي على صفحات الإنترنت. لا تراهم يصفونه إلا بالكلب، أو لعل أحدهم وصفه بهذه الكلمة ثم ببَّغها الناس من بعده، فالإنترنت حديقة حيوان يكثر فيها على وجه الخصوص طائر الببغاء.

عرف الزهاوي أنه كان في القديم آلهة، وعرف أنهم في القديم وحَّدوها في إله. ولو كان حسن الإيمان بالدين لما أتعب نفسه وأزعج القوم بعشرات الأبيات التي يرواح فيها بين الجد والهزل متناولاً قضية أصل الكون وخالق الكون.

ونحن لسنا ممن أزعجهم الزهاوي، بل نقول: ليقل ما شاء كيفما شاء. إيماننا بحرية الفكر وحرية الجهر به فوق أن ننزعج من أي رأي.

كان يجلس في مقاهي بغداد، وكان يجلس إليه بعض مريديه. ولا يندر أن يتلاسن بأبيات الهجاء مع رضا الطالباني، وبأبيات المديح مع معروف الرصافي. ومن عجبٍ أنه كان للطالباني صديقاً، وللرصافي خصماً. فكان بين شاعري العراق الكبيرين منافسة شديدة تثور فتصبح خصومة، فتعقبها مصالحة ينشد فيها كل منهما أبياتاً في تقريظ صاحبه.

في إستانبول مدح الزهاوي السلطان عبد الحميد ثم هجا الاستبداد، ثم سجن سَجنةً صغيرة، ثم رحَّلوه إلى بغداد. كانت الأمور في تلك الحقبة، في أواخر القرن التاسع عشر، مختلفة عما عهدناه بعدها، حتى إنه ليصعب عليَّ تخيُّل أن العراق وسوريا ولبنان.. الخ، لم تكن سوى قطعة من الدولة العثمانية.

وعندما انقلب ضباط الاتحاد والترقي على السلطان ثم خلعوه رحب الزهاوي بالخطوة وبالدستور الجديد. ثم بدأ يشعر بتوجه الحكام الجدد إلى مزيد من التتريك. ولئن كان شاعرنا يحسن من الثقافة التركية ما يحسنه أهلها فإنه كان عربياً منزرعاً في تراب اللغة العربية. وهبه كان تركي الهوى، أفلا يعني التتريك أن حكام إستانبول قد جعلوا هذا المستترك في درجة ثانية بعد درجة التركي الأصيل؟

مع تفكك الدولة العثمانية في أخريات الحرب العالمية الأولى انقلب

الزهاوي عليها، فأصبح أكثر عروبية، ومالأ الإنجليز الذين احتلوا العراق بعد الحرب، وتقرب من فيصل بن الحسين الذي عينوه ملكاً.

لكنه ظل يشكو من أنه لم يعين في وظيفة كبيرة.

وظل الزهاوي ينظم. برغم قلمه النثري الجميل فإن الزهاوي عاش للشعر، وأدمن النظم. عندما أصدر ديواناً له في مصر باسم «ديوان الزهاوي»، عام ١٩٢٤ في ٤٤٣ صفحة، قال إن الديوان يضم أقل من الثلث وأكثر من الربع من شعره. وقد ترجم ما صح له من رباعيات الخيام نثراً وشعراً، مثبِتاً الأصل الفارسي فوق الترجمتين لكل رباعية. وطبع دواوين أخرى وكتباً في العلم، قد لا تريد أن تعد كتابه عن لعبة «الدامة» أحدها.

في الزهاوي خفة تجدها في شعره مختلطة بغير قليل من التذمر. يصطاد قوافيه بمهارة، وقد تتحكم فيه الفكرة فيلقي بالقوافي على عواهنها، ولكنه في كل ذلك محافظ على العربية القويمة السليمة المتينة، لا غرو فقد حفظ جزء عم من القرآن طفلاً لم يتعلم النطق سوى أول أمس.

نقلوا عنه كثيراً قوله إنه كان يسمى «المجنون» في طفولته لحركاته غير المألوفة، و«الطائش» في شبابه لنزوعه إلى الطرب، و«الجريء» في كهولته لمقاومته الاستبداد، و«الزنديق» في شيخوخته لمجاهرته بآرائه الفلسفية.

كان كذلك.

إن كنت ممن يقرأون الشعر بآذانهم، ويحسون بوزنه ـ وهذا ما ينبغي للشعر، وإلا كان الشعر كطبخة صاحبنا الذي وجد امرأته تلف أوراق العنب ورقة بعد ورقة على حشوة من الأرز واللحم وتقضي في ذلك بياض يومها، فجاءها باختراع جديد: فتت أوراق العنب تفتيتاً وجعلها في القدر مع الأرز واللحم وصب على ذلك الخليط ماء وطبخه، فكانت طبخته بدعة منكرة، ونال من زوجته المثل المعروف: العين هي اللي تأكل، وهنا نقول: الأذن هي التي تأكل الشعر. فعندما تقرأه بعينك وحدها غير حاسٍّ بما فيه من إيقاع يفوتك شيء هو الفارق بين الشعر والنثر ـ إن كنت ممن يحسون بالوزن فسوف تجد في الزهاوي ما يزعجك، بخلاف آرائه الخارجة عن المألوف إن كنت من أهل المألوف.

الزهاوي يحب البحر الخفيف. وكأنه لم يكتف بما في هذا البحر من علة

وقوع الكلمة بين الشطرين، وهي علة ظاهرة في الخفيف ظهوراً لا تراه في أي بحر آخر، فصاحبنا يُجلس كلماته فيما بين التفعيلات في داخل الشطر على هيئة غير مألوفة. وقد ظن العقاد ـ بعد إذ سمع الزهاوي ينشد ـ أن شاعرنا إنما تأثر بالطريقة الفارسية في الإنشاد. وليس لنا على قول العقاد تعليق، فلا نحن نعرف الفارسية ولا طريقة إنشادها، ولا ندري إن كان العقاد يعرف. وزاد العقاد فقال أشياء عن مستفعلن ومتفعلن، ونرى أن الأمر أهون من ذلك، فكل شعراء العربية ركبوا هذا الزحاف المستساغ كل الاستساغة، على أن شاعرنا كان لا يبالي أن يقطع الكلمة بين التفعيلة وجارتها في مكان غريب (فأنت إن قطعت بعد أل التعريف ساغ ذلك ولم يجلب تلك الضعضعة التي تحدث عند تحطيم الكلمة من منتصفها).

لن أحدثك عن معارك الزهاوي الأدبية الكثيرة، فتفاصيلها موجودة في الكتب، ولكنني أطللت من خلالها على خصلة في شخصية الزهاوي، فهو كثير الامتداح لشعره عميق الإيمان بشاعريته، ينافح عن نفسه وعن آرائه وشعره ويمقت النقد مقتاً ـ كلنا ذلك الرجل ـ ويزيد صاحبنا فيجأر بالشكوى من النقد، وكثيرون منا يكرهون النقد لكنهم يسكتون تعالياً أو دهاء، فإهمال الناقد أسكَتُ له من الرد عليه، ولا كذلك الزهاوي، فهو يرد على كل ناقد.

الزهاوي على نور أبيض

ذكرني بالزهاوي الليلة مصباحي الأثير ذو الضوء الأبيض، وهو مصباح لا يكاد ينفق شيئاً من الكهرباء، وإذا انقطعت الكهرباء فهو يبقى مشتعلاً ساعات، فإذا شئت وصلته بالحاسوب فيستمد قليل ما يحتاجه من طاقة من جوف الحاسوب، غير أنني أركبته قائم سريري ليلقي عليَّ أشعته البيضاء من خلف كتفي فينير صفحة كتابي. أخذت في ساعات المساء أقرأ عن الزهاوي على نور مصباحي الأبيض ـ الواقع أن المصباح نفسه أبيض، لكنني أقصد أن نوره أبيض، وأنا عاشق للنور الأبيض من مصابيح النيون، ولا أرى ما يرى كثيرون من أن النور البرتقالي يعطيهم إحساساً بالدفء؛ ويتفوق مصباحي على مصابيح النيون، وهي اقتصادية، في أنه اقتصادي جداً حتى إنني لأخجل منه وهو يدوِّي بنوره ساعة بعد ساعة لا يكل ولا يمل فأكاد أُخرج من جيبي بعض الدراهم لأعوضه بها عما يبذله في خدمتي ـ ومرت ساعات المساء ودخلتُ في عمق الليل، وأشحت بوجهي عن كتبي، وعادت بي الذاكرة عقوداً.

قبل أربعين سنة، قد تنقص سنة لا أكثر، وقد تزيد سنة لا أكثر، اشترى لي أبي مصباح نيون للمنضدة. كان في متجر ورأى المصباح، وقال في نفسه: ما أجدر أن يكون هذا ذا نفع لولدي الذي يقرأ كثيراً. لم يكن والدي رحمه الله يعرف ما سأصنع بالمصباح فور استقبالي الهدية الثمينة. كنت آنذاك في نحو العشرين من العمر، أصغر من ذلك بسنة لا أكثر، أو أكبر من ذلك بسنة لا أكثر.

نصبت المصباح على منضدة عالية سوداء بجانب سريري، واتفق أن كانت والدتي رحمها الله وسائر إخوتي مد الله في أعمارهم.. هل سأمضي هكذا في الحديث عن أفراد العائلة الكريمة؟ الحاصل.. أنهم كانوا جميعاً مسافرين.. ربما كانوا يحضرون مناسبة ما في بلد قريب.. لا أدري. كنت وحيداً في البيت مع أبي. مثلما كان الزهاوي ملازماً لأبيه الذي انتزعه من بين إخوته واختص نفسه بالطفل النابغ. على أن أبي لم يكن يقرأ عليَّ ديوان المتنبي مثلما فعل والد الزهاوي بطفله، كان أبي صاحب مخيطة يروح إلى عمله صباحاً ويغدو إلى البيت عند العصر فيؤلف من بطن الثلاجة طبقاً نتغدى به. لكنه في تلك المدة رأى مني عجباً.. كان يصحو ومصباحي مشتعل وأنا تحته أقرأ، ويعود من عمله ومصباحي مطفأ لكنني أقرأ، ويهبط الظلام فيشتعل المصباح وأنا أقرأ، فإذا أيقظتْ أبي حاجة في قلب الليل رأى المصباح مشتعلاً ورآني أقرأ. مضت علي ست وثمانون ساعة وأنا أقرأ. كنت أنام ساعاتي الثماني على الكتاب وأصحو عليه. وهذه الساعات تعُد ثلاثة أيام ونصف يوم وساعتين، وبانقضائها عاد أهل البيت إلى البيت واعتدلت حياتي. وقعدت فور عودتهم أحسب كم مضى علي وأنا منشغل بقراءاتي، فمن هنا جاء الرقم الدقيق ٨٦. والشاهد في الموضوع أنني في تلك الأيام المضاءة بالأبيض كنت أقرأ الزهاوي وعن الزهاوي في كتب كانت تحفل بها المكتبة العامة في بلدنا نابلس بفلسطين.

تركت كتبي في ليلتي هذه التي أكتب لك فيها، وقلت في نفسي: أما اكتفيت من الزهاوي؟ أما أعدت قراءة شعره كله كي أنتخب منه أبياتاً، ثم شرحتها؟ لا، لم أكتف. قد عدت إلى الزهاوي وقرأت عنه في كتب أخرى يسَّرها الإنترنت في صورة بي دي إف، ونبشت مواقع النت ـ وأنا أفعل ذلك عادة حتى أتجنب ترداد ما في النت من أشياء، فقد أصابتني مواقع النت بعقدة لكثرة ما فيها من القص واللصق ـ ورأيت أننا بحاجة إلى كتاب سيرة حقيقي عن الزهاوي. وهذا يحيلني إلى استطراد جديد.

أولعت، بعد ذلك المصباح القديم بنحو عشر سنين، بكاتب إنجليزي هو سومرست موم، وقرأت معظم ما كتب في سنوات حياته الاثنتين والتسعين. إدمان. ولما صار الرجل شغلي الشاغل مضيت إلى الكتب التي كتبت عنه فقرأت منها اثنين، وقرأت له هو نفسه ثلاثة كتب تحدث فيها عن مهنته ككاتب. ثم؟ طبعاً نسيت كل شيء قرأته.

وبقي عالقاً في نفسي أن القوم يكتبون السيرة بحرفية عالية. وقرأت بعد ذلك حمل بعير من كتبهم التي تروي سير المشاهير. ثمة حرفة ههنا. أذكر كتاباً من ثلاثة أجزاء عن برنارد شو، بلغ فيه كاتبه مايكل هولرويد أن اندس في أدق تفاصيل حياة وفكر وإنتاج الرجل. كان برنارد شو يحب أن تصنع له شطيرته أمه لا الخادم، لأن أمه كانت تضع زبدة ومربى أكثر في الشطيرة. تلك طرفة أتت في سياقها، ومثلها مئات، لكن الكتاب ليس كتاب طرائف، هو كتاب منسوج نسجاً محكماً ومبحوث بحثاً لا أصفه إلا بأنه ذلك النوع من البحث الذي لم نعرفه نحن العرب حتى الآن.

وأسارع بالإقرار بأنني لست كاتب سيرة ولا باحثاً. أنا هنا، وهناك أيضاً وفي كل ما أكتب، امرؤ يسجل انطباعاته. فاعلم أنني لا أنتقد الآخرين لأنني صنعت ما لم يصنعوا، بل أنتقدهم لأنني أريد أن يصنعوا ما عجزت أنا عن صنعه، وما رأيت قوماً آخرين يصنعونه.

كتاب السير الأدبية الكبير الذي انحدر إلينا عبر العصور هو الأغاني للأصفهاني. وسيرة كل أديب داخل الأغاني هي مجموعة من الطرائف والخرافات، والروايات المتضاربة. قد كنا في ذلك العصر، قبل أكثر من ألف سنة مرت على تأليف الأغاني، متفوقين على غيرنا.

واليوم تغيرت الدنيا، وتوفرت المعلومات، وتيسرت أدوات البحث. ولكننا لم نقطع شوطاً بعيداً، وما زالت الكتب التي تترجم لأديب أو لسياسي بعيدة عن التجرد، قريبة من الخرافة. نحن في دائرة السِّيرة التمجيدية، فإن خرجنا منها فإلى دائرة سيرة اللعنات. فالمشهور عندنا إما قديس أو شيطان. وهناك شيء أسوأ: أن نكتب عن المشهور كتاباً مثل الماء لا لون ولا طعم له ولا رائحة، ولكنه لا يروي كالماء بل يهوم تهويماً في ثرثرة باردة. عند أهل الثقافة السكسونية من بريطان وأمريكان كثير من السير التمجيدية، ووجدت عندهم في القديم، قبل مئة سنة مثلاً، سيراً فيها الثرثرة والتهويم، لكن أدب

السيرة عندهم ظل في صعود، وأحسبهم فيه الآن رواداً في العالم.

فماذا يصنع الأكاديميون في جامعاتنا؟ هؤلاء قاعدون ـ أُقعِدوا ـ ينتظرون مستشرقاً يأتي ويكتب لهم كتاباً يسرقون مادته ويشوهونها ثم ينشرونها مشوهة، ثم.. يشتمون المستشرقين. رأيتهم بعيني يمشون في ممرات الأبنية الجامعية فيلتقي الواحد منهم بزميله الدكتور الآخر ـ وبالمناسبة فدكاتيرنا ينادون بعضهم بعضاً بيا دكتور ـ يقول له: يا دكتور. ويتلمظ ويتمطق. هو لا يريد أن يقول له شيئاً سوى يا دكتور، فيجيب الآخر: يا دكتور.

لست أتهمهم بالغباء، ولا والله لن تجدني في أي شيء أقوله أو أكتبه أتَّهم أحداً بالغباء، فكل إنسان لديه عقل، ولكن بعض خلق الله يملك من القحة أن يأخذ ثمن عقله ثم لا يستعمله، ويمد يده ـ شَلَّت ـ لأخذ مرتبه وهو لا يصنع شيئاً سوى تشغيل الطلبة في كتابة أبحاث ليست بالأبحاث، ويحسبها لجهله أبحاثاً فيسرقها ويضمنها كتاباً له يضيفه إلى قائمة الكتب التي يبتغي بها نيل ترقية جامعية. يؤذيني الدكاتير التقليديون الذين يلوذون بالماضي لياذ خائف من أسد مَزير. ويؤذيني من بين هؤلاء التقليديين أكثر من هو نشط متبحر في علوم الأوائل. تراه يمشي كالطاووس، مستشهداً بألفية ابن مالك، أو متكئاً ـ مالت عليه ـ على نص لابن جني، أو كاتباً كتاباً ثقيلاً، في وزن نكبتنا بوجوده، عن خزعبلة تافهة أساسها رمل رجراج، لكنها ـ والله غالب ـ قد وردت في نص قديم.

وقد رأيت في الأشهر الأخيرة كتاباً من أربعة أجزاء لكاتب عباسي، قامت على نشره وزارة الثقافة في دولة نفطية. ذهبتْ الوزارة إلى بلد عربي آخر فيه رمل، ولكن لا يوجد تحت رمله سوى مزيد من الرمل، ووظفت لتحقيق الكتاب خمسة من الرجال. وطبعوا الكتاب مرة ثم صدرت بعد تسع عشرة سنة طبعة ثانية، وهذه الطبعة الثانية وقعت، ووقع محققوها، في يدي.

خمسة من الدكاتير أصروا على وضع كلمة «الدكتور» كاملة قبل اسم كل منهم، غير قانعين بحرف الدال. ثم إذا التحقيق ـ وفي طبعته الثانية، وبعد طول المهلة ـ مشحون بالأخطاء، وبالحواشي القلقة، وبالفهارس غير النافعة. أحتسبُ هذه الدراهم التي أهدرتها في ذلك الكتاب. ليس أنه يخلو من كل فائدة، فالمرء يستطيع أن يعثر في صفحاته على معلومة مفيدة هنا وهناك، لكن ثمة فرقاً بين أن تمشي واثقاً في ردهات كتاب حققه محقق أمين، وأن تمشي خائفاً متحسباً في ممرات مظلمة داخل كتاب مملوء بالأغلاط وبإساءة الفهم.

بعد هذه الوصلة المعتادة في قدح الأكاديميين لا بد من عودة إلى جميل صدقي الزهاوي.

هذا رجل داعية: يدعو إلى السفور، ويدعو إلى العلم، ويدعو إلى نظرية داروين. وهو ابن عصر بدأت تنفتح فيه لنا طاقة صغيرة على الغرب فملأت الدهشة نفوسنا.

ما زلنا في هذا العصر.

١ أبيات فرائد

وما زلتُ في جَوٍّ مِن الفكرِ طائراً ... ومِن عادَتي ألَّا أَطيرَ مَعَ السِّرْبِ

* * *

إنني إنْ حَمِدْتُ ربِّي على ما ... أَتَشَكَّى منهُ أُكَذِّبُ نفسي

* * *

يحيا الجمادُ إذا الشروطُ توفَّرتْ ... والحيُّ إن فَقَدَ الشروطَ جَمادُ

الحياة لا تكون بوجود روح، بل بتوفر «الشروط»

* * *

ذهبَ الشبابُ وأنتَ بعدَ ذهابِه ... مُتَمَسِّكٌ بالعيشِ مِنْ أَذْنابِهِ

* * *

وليسَ بِعقلِ المرءِ يَكبُرُ شِعْرُهُ ... ولكنْ بما في روحِهِ مِن تَكَهْرُبِ

٢ نتف

مَن كان في سَعَةٍ تَسيرُ وراءَهُ ... أتباعُه، فكأنَّهُمْ أَفْياءُ

كأنهم أفياء: أي يتبعونه كظله

وإذا الليالي غيَّرتْ سَعْدَ امْرِئٍ ... يخفَى الصديقُ وتظهرُ الأعداءُ

* * *

يا سماءَ العراقِ إنِّي مريضٌ ... يا سماءَ العراقِ أنتِ شِفائي

اِفتحِي في ستارِ سُحْبِكِ شِقّاً ... وانظُريني بِعينِكِ الزرقاءِ

* * *

مَـن لـم يَـجِـئْ بِـحُـجَّـةٍ　　فـلا يـفـيـدُه الـصَّـخَـبْ
لا تــسـتــقــلُّ أمَّــةٌ　　فـي الأرضِ مِـن غـيـرِ تَـعَـبْ

* * *

لا خـيـرَ فـي نـاسٍ إذا　　أفـحـمـتَـهُـمْ وَلَّـوْا غِـضـابـا
عَـزَوْا الـحِـجـابَ إلـى الـكـتـا　　بِ، فـلـيْـتَـهُـمْ قـرأُوا الـكـتـابـا

* * *

أنـا لا يَـسـألُ عَـنِّـي　　أحـدٌ حـيـنَ أغـيـبُ
أنـا كـالـرَّحـمـةِ مَـنْـبُـو　　ذٌ، وكـالـحَـقِّ غَـريـبُ

* * *

أهـوَى الـصـبـاحَ فـإنـنـي　　فـي ظِـلِّـهِ أنـسـى اكـتـئـابـي
وكـأنـمـا هُـوَ قِـطـعَـةٌ　　رجـعـتْ إلـيَّ مِـن الـشـبـابِ

* * *

يا جهلُ أنتَ بِرَغْمِ العلمِ والأدبِ　　ممتَّعٌ بِعُلُوِّ الجَاهِ والرُّتَبِ
يا جهلُ يَأتيكَ عفواً ما تحاوِلُهُ　　يا جهلُ مِن غيرِ سعيٍ منكَ أو تَعَبِ

* * *

لَـكَ فـي الـحـيـاةِ، فـلا تَـخَـفْ　　مِـن أن تُـفـارِقَـهـا، ثُـبـوتُ
ومِـنَ الـطـبـيـعـةِ أنـتَ جُـز　　ءٌ، والـطـبـيـعـةُ لا تَـمـوتُ

* * *

فـي حـيـاتـي أنـا لاقَـيْـ　　ـتُ صُـنـوفَ الـمُـشـكـلاتِ
غـيـرَ أنِّـي لـم أجِـدْ مُـشْـ　　ـكِـلَـةً مـثـلَ حـيـاتـي

* * *

إن الـذيـن عـن الأفْـرادِ قـد بَـعُـدُوا　　لم يَجْحَدُوا أنهُمْ مِنهُنَّ قد وُلِدُوا
الناس الذين تطوروا كثيراً وابتعدوا عن جنس القردة، وآمنوا بنظرية التطور، لا ينكرون أن أصل الإنسان قرد

أما الأُلَى لم يَزالُوا في مَدارِكِهِمْ　　أدنَى إلى أصلِهِمْ منها فقد جَحَدُوا
ومن ظلوا في مداركهم، فهمهم، قريبين من أصلهم القردي فهم ينكرون نظرية التطور

* * *

أقولُ لِباكٍ صُنْ مِن الدمعِ بعضَه لِآتـي الـرَّزايـا، إنـهـا تَـتـجـدَّدُ
وما بيِ على عينيكَ خَوفٌ مِن العَمى إذا بَـكـتـا، لـكـنْ دُمـوعُـكَ تـنـفَـدُ

وفِّر دموعك للرزايا، المصائب، المقبلة.. ولست خائفاً على عينيك ولكن دموعك تنفد.. لا يَفُتْكَ ما في البيتين من سخرية

* * *

أيـهـا الـروحُ الـذي اسـتـقـرأْتُـه بـاذلاً فـي الـبـحـثِ عـنـه جَـلَـدي
إنـكَ الـمُـخُّ الـذي قـد ذَهـبَـتْ شُـعَـبـاً أعـصـابُـه فـي جَـسَـدي

الروح، الذي ظللت أبحث عنه، هو في الواقع المخ والأعصاب التي انتشرت في الجسم

* * *

مَنعَ الذين تَسيْطَروا أن يُحسِنُوا ثِـخَـنُ الـوُجـوهِ وغِـلـظـةُ الأكـبـادِ
مـهـمـا تـقـدَّمَ فـي حـضـارَتِـه الـفـتـى لـم يَـخْـلُ مِـن هَـمَـجِـيَّـةِ الأجـدادِ

* * *

عـجـبـي مِـن الإنـسـانِ يَـهـجَـعُ آمـنـاً والـمـوتُ لِـلإنـسـانِ بـالـمـرصـادِ
لا تـطـمـئِـنَّ بِـكـونِ لـيـلِـكَ هـادئـاً فلسوف يأتي السيلُ مِلْءَ الوادي

* * *

لا تَـخونُ الـعـقـولُ أصـحـابَـهـا فـيـ ـمـا تَـراهُ، وقـد يـخـونُ الـضَّـمـيـرُ
قـيـلَ لـي قِـفْ فـقـلـتُ غـيـرَ مُـلَـبٍّ: أنـا إنْ لـم أَسِـرْ فَـمَـنْ ذا يَـسـيـرُ

غير ملب: غير مستجيب، ولا ألبّي الدعوة للوقوف

* * *

فِـتَـنٌ عَـمَّـتِ الـبـلادَ فـمـا أَغْـ ـنـى عـنِ الـمـرءِ أهـلُـه والـعَـشـيِـرُ
وإذا ثَـارتِ الـجَـمـاعَـةُ يـومـاً فَـهْـيَ قـد لا تَـدري لـمـاذا تَـثُـورُ

* * *

يـا عِـلْـمُ يـا كُـلَّ الـهِـدَايَـةِ لِـلـوَرى صـلَّـى عـلـيـكَ الـلـهُ والأَبـرارُ
الـحـربُ بـعـدَ الـيـومِ حَـرْبُ سِـيـاسـةٍ والـغـالـبـونَ بِـهـا هُـمُ الأَحـرارُ

* * *

لسانيِ على الصمتِ الطويلِ مُواظبٌ وفي الصدرِ آراءٌ يضيقُ بها صدري

وقد كنتُ لا أدري حقيقةَ ما أرى زمـانـاً، ولا أدري بِـأنِّـيَ لا أدري

* * *

أقولُ لِشِعري أيها الشعرِ صُلْ وَجُلْ فـأنـتَ بـميدانِ الـفـصـاحـةِ فـارسُ
يُمـارسُ شِعـرِي الـيومَ إِصلاحَ أمةٍ فلِلَّـهِ شعـرِي الـيومَ مـاذا يُمـارسُ

* * *

قـلـتُ لـلـشـاعـرِ والـشـا عـرُ ذو سـهـم يَـطـيـشُ
أنـتَ إن عـشـتَ تَـمُـتْ جـو عـاً وإن مُـتَّ تـعـيـشُ

المبدعون يكرمون بعد موتهم

* * *

إذا ما قضى ربُّ السماواتِ حاجَنا حَمِدْناهُ حَمْدَ المخلصينَ على الأرضِ
وإنْ يَأْبَ مِنْ بعدِ الدعاءِ قَضاءَها نَكُنْ نحنُ أَرْباباً لحاجاتِنا نَقْضي

أرباباً: أصحاباً

* * *

رثاء عبد الله، والد الشاعر اللبناني بشارة الخوري:

جزعتُ لِعبدِ اللَّهِ إذ مات إنني على كلِّ ذي فضلٍ يموتُ جَزوعُ
فَتىً مثلَما ترجُوه: أَمَّا لِسانُه فَـرَطْـبٌ، وأمَّـا كـفُّـه فَـرَبـيـعُ

* * *

مـا فـي الـسُّـفـورِ مَـعَـرَّةٌ تُـخـشَـى عـلـى امـرأةٍ عـفـيـفـةْ
إن الـنـظـيـفـةَ فـي قـرا رةِ نـفـسِـهـا تـبـقـى نـظـيـفـةْ

* * *

أنـا يـا شـمـسُ ذَرَّةٌ فـوقَ أرضٍ هِـيَ فـي سيـرِهـا عـليكِ تَـطُـوفُ
لا تـكـونـي مـغـرورَةً، إنَّـمـا مـثـ ـلُـكِ فـي أَجـوَازِ الـفـضـاءِ أُلُـوفُ

* * *

لا يـخـافُ الـرَّاعـي ذِئـابـاً تَـعَـاوَى مِـن بَـعـيـدٍ مُـلِـحَّـةً فـي الـطَّـوافِ
إنَّـمـا خـوفُـهُ إذا الـلـيـلُ أَدْجَـى مِـنْ ذئـابٍ تَـنْـدَسُّ بـيـنَ الـخِـرافِ

* * *

وإنَّ الذي يسعى لتحريرِ أمَّةٍ يهونُ عليه النفيُ والسَّجْنُ والشَّنْقُ
إذا رُمْتَ عن دارِ المَذَلَّةِ رِحلةً فسِرْ قبل أن تنْسَدَّ في وجهِكَ الطُّرْقُ

* * *

أَخبَثُ الناسِ صديقٌ عن نِفاقٍ يتحرَّكْ
فمعَ المظلومِ يبكي ومع الظالمِ يضحَكْ

* * *

أَحْبَلَ الليلَ نهارٌ قد نَزا ثم تَوَلَّى

أحبل: جعله يحبل ويحمل جنيناً، نزا: اعتلى

فانتظرْ ما تَلِدُ الليـ ـلةُ، فالليلةُ حُبْلَى

* * *

أما النجاحُ فلا نجاحَ لِأمَّةٍ ما أيَّدتْ أقوالَها أفعالُها
غُلَّتْ فما أَبدَتْ أقلَّ تَذَمُّرٍ فكأنَّما طابَتْ لها أغلالُها

غُلَّت: قيِّدت

* * *

إنِّي إذا حادِثةٌ غَيَّرَتْ حقيقةً، غَيَّرْتُ أقوالي
لو نَبَتَتْ لِخالَتي لِحيةٌ سَمَّيْتُها عندئذٍ خالي

كان العقاد يفاخر بأنه لم يغير قط آراءه، الزهاوي يفاخر بأنه مستعد لتغيير آرائه بحسب ما يجدُّ من حقائق

* * *

يا حاملَ الصَّمْصامِ لا يحمِي به حقاً، لماذا تحمِلُ الصَّمْصاما؟

الصمصام: السيف

جَهِلَ الذين على قديمٍ عَوَّلُوا أَنَّ الزمانَ يُغَيِّرُ الأَحكاما

* * *

الناسُ إمَّا أَذْؤُبٌ فتَّاكةٌ أو غَنَمُ
الذئبُ لا يَروِي غَليـ ـلَ جَوْفِه إلَّا الدَّمُ

غليل: عطش

* * *

لـم نـكـنْ بـالأرزَاءِ نَـعبـأُ حـتـى أخـذَ الـمـوتُ قـاهـراً إِدِسُـونـا

الأرزاء: المصائب، توماس إديسون: المخترع الأميركي المشهور

أيـهـا الـمـبدعُ الـكـثـيرُ الـمَـنـاحـيِ أيَّ شـيءٍ تـركـتَ لِـلآخَـريـنـا

* * *

وواعِظٍ غارقٍ في لِحيةٍ كَبُرَتْ يأتي بكلِّ قبيحٍ ثم يَنهانا

لا واللِّحَى، والذي في الوجهِ أَنْبَتَها ما إنْ تكونُ اللِّحَى لِلفضلِ ميزانا

* * *

يـقـولـونَ إنَّ الـشـعـرَ نـحـنُ عِـمـادُهُ فمَنْ أنتُمُ حتى يَكونَ لَكُمْ «نَحنُ»

ومَنْ لـم يَـزِنْ عـنـدَ الـتـكـلُّـمِ نفسَـه فـمِـن حَـقِّـهِ أنْ لا يُـقـامَ لـه وَزْنُ

* * *

لقد جاءَ شيطانٌ مِن الجِنِّ داعياً إلـى جنَّـةٍ فـيـهـا عَـذارى وغِـلـمـانُ

فقلتُ له: اغرُبْ أنتَ لستَ بِخادِعِي فـإنِّـيَ شـيـطـانٌ كـمـا أنـتَ شـيـطـانُ

* * *

بـأعـمـالِـهِ الإنـسـانُ يُـعـرَفُ عـقـلُـه فليس سِواها للنُّهَى مِنْ مَوازينِ

النهى: العقول

سَلِيما يَظَلُّ الخَيْطُ بينَ أُولِي النُّهَى وينقَطِعُ الجَنزيرُ بينَ المجانينِ

الجنزير: السلسلة الحديدية. وتسمي البنت المخطوبة السوار الذهبي الذي هو عبارة عن حلقات من ذهب يمسك بعضها ببعض، وتمسك كلها بخناق الخطيب المسكين، جنزيراً

* * *

فُـهْـتُ بـالـحَـقِّ فَـجَـازَوْ نـي بِـسَـبٍّ وامـتِـهـانِ

فهتُ: تفوَّهت

إنَّـنـيِ يـا لَـشَـقـائـيِ جـئـتُ فـي غـيـرِ زمـانـي

* * *

أَتَـتْ فـي صـورةِ الأطـيـافِ لَـيـلـى بِـلـيـلٍ فـيـه قـد هَـاجَـتْ شُـجـونـي

جعلتُ لِنومِها صَدريِ فِراشاً فَعافَتْهُ، ونامَتْ في عُيوني

تعليق صديقي الشاعر عمران القفيني: (هذا نفسه: بذلت لها المطارف والحشايا ـ فعافتها ونامت في عظامي)، وتعليقي أن بيت المتنبي أشهر من أن يسرق، ولكن كأن الزهاوي «استعان» بالكبير العظيم

* * *

لقد جُنِنْتُ بِليلى فطابَ فيها جنوني

سِيروا.. ارجِعُوا، عند ليلى لا تَذكُرونيِ، اذْكُروني

* * *

في حَبَّةَ الرملِ فوقَ الأرضِ ساكنةً مِنَ القُوى ما بِه الأَطوادُ تَنْفَطِرُ

ليس القُوى غيرَ بعضِ الجسمِ قد لَطُفَا والجسمُ إلَّا قُوىً مَجموعةً كِثَفا

هذان البيتان يختصران النظرية الذرية الحديثة: الذرات مادة تتحول إلى طاقة تنفطر بها الأطواد، تحطم الجبال. فالقوى، أي الطاقة، هي مادة في الأصل. والمادة ليست سوى طاقة مجموعة كثفاً، أي جماعات

* * *

إنْ طِبْتَ طِبْتُ وإن هُنْـ ـتَ، يا عراقُ، أَهُونُ

إنِّي على كُلِّ حالٍ كما تكونُ أكونُ

* * *

أنا يا شِعرُ كَئيبٌ مثلَما أنتَ كئيبُ

وكِلانا أيُّها الشِّعْـ ـرُ بِبغدادَ غَريبُ

* * *

آهِ مِنْ هَمٍّ تَظَلُّ النَّـ ـفسُ فيهِ وتَبيتُ

لا تَموتُ النَّفْسُ بِالهَمِّ ولا الهَمُّ يَموتُ

* * *

لا تُطِلْ شِعرَكَ وابْذُلْ كلَّ جَهْدٍ أن تُجيدَهْ

ربَّ بيتٍ هُوَ إنْ أحـ ـسَنْتَ خيرٌ مِن قَصيدَهْ

* * *

إنَّما المرأةُ والمَرْ ءُ سَواءٌ في الجَدارَةْ

عَـلِّـمُـوا الـمـرأةَ فـالـمَـرْ أةُ عـنـوانُ الـحَـضـارَةْ

* * *

يَـرفَـعُ الـشـعـبَ فَـريـقَـا نِ: إنـاثٌ وذُكـورُ
وهَـلِ الـطـائـرُ إلَّا بِـجـنـاحَـيْـهِ يَـطـيـرُ

* * *

أَصْـحَـبُ الـنـاسَ ومـنـهُـمْ حَـذَري مِـثْـلُ وُثـوقـي
كـلُّ إنـسـانٍ عَـدُوِّي، كـلُّ إنـسـانٍ صَـديـقـي

* * *

لا تَـقِـفْ فـي وجـهِ لَـذَّا تِـكَ مَـكـتُـوفَ الـيـديـنِ
أنـتَ لا تـأتـي إلـى دنـ ـيـاكَ هَـذي مَـرَّتَـيْـنِ

كان عباس العقاد يحب هذين البيتين للزهاوي

* * *

إنَّ جِـسـمَ الـمـرءِ لِـلـرُّو حِ الـتـي فـيـهِ يَـقُـوتُ
فـإذا مـا مـاتَ جـسـمُ الـ ـمَـرْءِ فـالـرُّوحُ تَـمـوتُ

سيظل الزهاوي يكرر هذه المقولة، ومن مجمل شعره فالرجل «مادي» فلسفياً

* * *

الـغـربُ يَـلـقـاكَ مِـن مَـكْـ ـرِهِ بِـوجْـهٍ طَـلـيـقِ
يـا شَـرقُ لا تَـأْتَـمِـنْـهُ فـالـغـربُ غـيـرُ صَـديـقِ

* * *

سـئِـمـتُ كـلَّ قـديـمٍ عَـرفْـتُـه فـي حـيـاتـي
إن كـان عـنـدَكَ شـيءٌ مِـنَ الـجـديـدِ فَـهـاتِ

* * *

إن الـحـقـيـقـةَ تـأبَـى لِـنـاظِـري أن تَـبـيِـنـا

تبين: تظهر

إذا جَـمَـعْـتُ شُـكـوكـي فـلا تُـسـاوي يَـقـيِـنـا

مجرد شكي في أمور كثيرة لا يعني أنني وصلت إلى معرفة يقينية. صفر + صفر = صفراً

* * *

قــالــوا لِــشــاعِــرِ مِــصْــرٍ   قــصــرُ الإمــارَةِ يُــبــنَــى
فــقــلــتُ: يــا أهــلَ مِــصْــرٍ،   مــنــكُــمْ أمــيــرٌ ومِــنَّــا..

قال الزهاوي البيتين عندما نصب الناس أحمد شوقي أميراً للشعراء، في حفل كبير عام ١٩٢٧، ويردد الزهاوي قول الأنصار للمهاجرين بعد وفاة الرسول: «منكم أمير ومنا أمير». وحذف الأمير الأخيرة اكتفاء.. وظرف في هذين البيتين ما شاء له.. واتته القافية أي مواتاة

* * *

قــد مَــدَحْــتُ الــذيــن لــمْ   يَــسْــتَــحِــقُّــوا مَــدائِــحــي
إحْــسِــبُــوهــا عــلــى ضَــرُو   رَتِــهــا مِــنْ قَــبــائِــحــي

على ضرورتها: أي رغم أنها جاءت لضرورة. والمدح لا يأتي إلا لضرورة نفاقية. قد حسبناها من قبائحك، ولم نقتطف منها شيئاً في مختاراتنا

* * *

إرتَــحِــلْ عــن بــلــدٍ   أنــتَ فــيــه مُــهْــمَــلُ
إنَّــمــا الــحُــرُّ إذا   سِــيــمَ خَــسْــفــاً يَــرحَــلُ

سيم خسفاً: عُرِّض للذل

* * *

لـيس تَـرقَـى الأبـنـاءُ فـي أُمَّـةٍ مَـا   لـم تَـكُـنْ قـد تَـرَقَّـتِ الأُمَّـهـاتُ
أَخَّـرَ الـمـسـلـمـينَ عـن أُمَـمِ الأَر   ضِ حِجابٌ تَشْقَى به المسلماتُ

* * *

إنَّ الــخــيــالَ نِــهــايــةٌ فــي أُمَّــةٍ   لِــسُــكــونِــهــا، وبَــداءَةُ الــحَــرَكــاتِ
كُــنَّــا نَــذُمُّ مِــنَ الــشــعــوبِ خَــيــالَــهــا   وإذا الــخَــيــالُ مُــوَلِّــدُ الــرَّغَــبــاتِ

مشكلة المدارس أنها تقتل في الطفل الخيال، لصالح الواقع، المدرسة تسعى لتحويلك إلى خروف اجتماعي يساهم في تثبيت الأحوال، والخيال يجعلك تسعى لتغيير الأحوال

* * *

لقد علِمْتُ، لو انَّ العِلمَ ينفَعُني،   مِنْ طولِ ما جِئتُ قَبْلاً أَدْرُسُ النَّاسا..
أَنَّ الـجَـمـاعَـةَ دونَ الـفَـرْدِ مَـعـرِفَـةً   وفـوقَـهُ بِـصُـروفِ الـدهـرِ إِحْـسَـاسـا

* * *

مـا زالَ لِـلـمـرءِ مِـنْ لَـذَّاتِ عـيشَـتِـه   رِضـىً، ولِـلـمـرءِ مِـنْ آلامِـهِ بَـرَمُ

برم: ضجر

لم يعرفِ المرءُ في كلِّ الحياةِ سوى   حقيقتينِ هُما اللَّذاتُ والألمُ

* * *

مَـنِ اطـمـأنَّ بِـديـنٍ كـانَ يَـرْضَـعُـهُ   فـلـيسَ يَـسمَـعُ تَـأنيبَ الـبَراهـيـنِ

ولـيـس يـقـبـلُ فـي ديـنٍ مُـعـارَضَـةً   إلَّا الـذي هُـوَ فـي شَـكٍّ مِـنَ الـدِّيـنِ

في نظر الزهاوي فالدين فكرة مسيطرة تستولي على الإنسان استيلاء، وتصنع سداً يمنع دخول فكرة أخرى. والمرء يصادف في حياته المتدين الذي يقبل أن يناقش في العقائد، والمتدين الذي يقبل أن يناقش في «المسح على الخفين» ثم يقف عندها. قلت: «المرء»، ولم أقل أنا، فأنا فرغت من مثل هذا النقاش منذ أن كنت في المرحلة الإعدادية، وأعددت نفسي لاستقبال المعلومات عن هذه الدنيا تاركاً الأخرى لصاحب الكون الجليل

* * *

إنَّـهـا الـعـاداتُ لا يَـخْـلَـعُـهـا   غـيـرُ ذاكَ الـمـارِقِ الـمُـنْـطَـلِـقِ

قـد تَـلَـقَّـاهـا تُـراثـاً سـيِّـئـاً   أَحـمَـقٌ عـن أحـمـقٍ عـن أحـمـقِ

* * *

قـد اسـتَـطَـابَ فـوقَ صَـدْ   رِهـا الـهـوى رُقَـادَهْ

مُـتَّـخِـذاً لِـنَـفْـسِـهِ   مِـنْ ثَـدْيـِهـا وِسَـادَةْ

* * *

جَـمَـلاً أَبـصَـرْتُ فـي حَـوْ   مَـانَـةِ الـدَّرَّاجِ أَمْـسِ

حومانة الدراج: موضع تغنى به قدامى الشعراء

يَـتـراءَى كَـالـكَـثـيـبِ الـ   ـفَـرْدِ، فـاسْـتَـصْـغَـرْتُ نَـفـسـي

* * *

لـيـسَ يَـسْـطـيـعَ وإنْ جَـدَّ   ابـنُ آوَى أن يَـطـيـرا

قـبـلَ أن يـمـلِـكَ رِيـشـاً   كـافـيـاً أو يَـسـتَـعـيـرا

ولماذا اخترت هذين البيتين؟ لا أدري. ربما لأنهما يعبران عن هذا الشاعر المهذار الذي لا يقدر يقعد دون أن ينظم شيئاً. لا يستطيع ابن آوى أن يطير.. لكن، لا تعجلوا.. بإمكانه الطيران إن امتلك الريش.. أو إن استعار ريشاً. بالله عليك يا جميل صدقي ما هذا؟ أرجوك! أرأيتم كيف يمكن لعبث صراح أن يكون شعراً؟

* * *

رأيتُ بالأمسِ شيخاً قد انحنى باضْطِرابِ
فقلتُ: يا شيخُ، ماذا أضعتَ؟ قالَ: شبابي

يا سلام!

٣ الجماعة الخشب

ليسَ تَسْتَحِقُّ حياةً جَماعةٌ خَشَبُ
مَعشرٌ إذا وَعَدُوا في كلامِهِمْ كَذبوا
أو إذا بَدا وَهَنٌ مِنْ أخٍ لَهُمْ وَثَبُوا

٤ ذهبت السعادة

سكتْنا حين ذَمُّونا وعَابوا وإنَّ سكوتَنا عنهُمْ جوابُ
سأرحلُ جاعلاً بغدادَ خَلفي فما عَيْشي بِها إلَّا عذابُ
ولا أرجوُ السَّعادةَ بعد شَيْبي فقد ذهبتْ كما ذهبَ الشبابُ

٥ الزهاوي يتمشى في دروب بغداد

لقد كنتُ في دَرْبٍ بِبغدادَ ماشياً وبغدادُ فيها لِلمُشاةِ دُروبُ
فصادفتُ شيخاً قد حَنَى الدهرُ ظهرَهُ له فوقَ مُسْتَنِّ الطريقِ دَبيبُ

مستن الطريق: أي الطريق المستن، أي الممهد

عليهِ ثيابٌ رثَّةٌ غيرَ أنها نِظافٌ فلم تَدْنَسْ لَهُنَّ جُيوبُ

تدنس: تتسخ، جيب الثوب: فتحة العنق فيه

تَدُلُّ غُضُونٌ في وَسيعِ جبينِه على أنه بين الشيوخِ كئيبُ
يَسيرُ الهُوَيْنا والجماهيرُ خلفَه يسُبُّونَه، والشيخُ ليسَ يُجيبُ
له وَقْفةٌ يَقْوَى بِها ثم شَهْقَةٌ تكادُ لها نفسُ الشفيقِ تَذُوبُ
فساءَلْتُ من هذا؟ فقال مُجاوِبٌ هُوَ «الحقُّ» جاء اليومَ فَهْوَ غريبُ
فقُلتُ له: «إنَّا غريبانِ هَهُنا وكلُّ غريبٍ لِلغريبِ نَسيبُ»

تضمين لبيت امرئ القيس المشهور

٦ رسالة إلى الدمعة

أنتِ ما إنْ تُخَفِّفِينَ مُصابي ... دَمعَتي؛ فارجِعي على الأعقابِ
أنتِ لا تدفعينَ وَطْأَةَ شيْبي ... أنتِ لا تُرجِعِينَ عهدَ شبابي
إنما أنتِ قطرةٌ ستَبُلِّيـ ... ـنَ إذا سِلْتِ بُقْعَةً مِن ثِيابي
يا ابْنَةَ الهَمِّ إنَّ غُرْفَتَكِ القَلْـ ... ـبُ، فلا تَخْرُجي إلى الأبوابِ
أنا لم أسأَلِ العيونَ بُكاءً ... لِتَكُوني عَنِ السؤالِ جوابي

٧ غروبها وشروقها

ماذا تُحِسُّ الشمسُ عند غروبِها ... فيكونَ ذلكَ باعِثاً لِشُحُوبِها؟
ما إنْ رأتْ عيني وقد راقبْتُها ... كالفَرقِ بين طُلُوعِها وغروبِها
إنِّي لَيُحْزِنُني الغُروبُ، فإنَّهُ ... لَمُذَكِّرٌ نفسي بِكُلِّ كُروبِها

٨ ميت ابن موتى

تناسيتَ يا إنسانُ أنكَ ميِّتٌ ... وأنتَ مِن الأمواتِ تَرفَعُ أبياتا

الإنسان يبني بيوتاً ويرفعها، والتراب الذي يستخدمه فيه شيء من رفات البشر الذين ماتوا قبل أزمان

وتَمشي على الأمواتِ في كل خُطوةٍ ... وتأكلُ أمواتاً وتلبَسُ أمواتا
تَناسَلْتَ مِن أمواتِها ثمَّ رُمْتَ أنْ ... تَعيشَ بها عيشَ الخلودِ وهَيْهَاتا
وإنَّكَ في أعماقِ قبرِكَ لا ترى ... وُجوهاً، ولا في القبرِ تسمعُ أصواتاً
ولستَ بِمسؤُولٍ إذا ما سكنْتَهُ ... أكنتَ عَبدتَ اللَّهَ قَبْلاً أم اللَّاتا

اللات: اسم صنم

٩ نهاية الحركات

تبكي الشبابُ على شيـ ... ـبٍ في الحفائِرِ باتُوا

الشيب: الشيوخ الشائبون، الحفائر: القبور

والشِّيبُ تبكي شباباً ... عاشُوا قليلاً وماتوا
إلى سكونٍ طويلٍ ... ستنتهي الحركاتُ

يَردَى الصديقُ وتبقى ... مِن بعدِهِ الذكرياتُ

يردى: يموت

١٠ ورقة الأسئلة

هاتُوا اذكُروا لِيَ هاتُوا ... ما هذهِ الكائِناتُ
ما أنتَ، ما أنا، ماذا ... وجودُنا والحياةُ؟
وما المكانُ، وماذا ... مِن المكانِ الجِهاتُ؟
ما الجسمُ، ما الجذبُ، ماذا السُّـ ... ـكونُ والحركاتُ؟
وما لِشيءٍ زَوالٌ ... وما لِشيءٍ ثباتُ

لا شيء يزول، بل يتحول إلى صورة أخرى، ولا شيء ثابت فالحركة أساس الكون

وربما سوف تَنْحَلُّـ ... هذهِ المُشكِلاتُ
إذا تفكرتُ كانتْ ... للشكِّ بي وَخَزَاتُ
دعِ الغُرورَ فما فيـ ... ـكَ وحدَكَ المَلَكاتُ

يخاطب الإنسان: لست وحدك صاحب الملكات، أي المواهب والمهارات

إن كنتَ طِرْتَ فقدْ طا ... رتْ قبلَكَ الحَشَراتُ
أو كنتَ غُصْتَ فقد غا ... صَتْ مِثْلَكَ السُّلْحَفاةُ

الأكثر في اللغة السُّلَحفاة بفتح اللام، وأورد تاج العروس السُّلْحفاة كما أجاء الوزن الزهاوي إليها. يومئ عمران القفيني إلى أن هذه القصيدة تناظر قصيدة «الطلاسم» لإيليا أبو ماضي، فهذه طلاسم الزهاوي

١١ النهايات المتشابهة

ستَجِدُ الأبناءُ سَيْراً لِدارٍ ... نَزلَتْها الآباءُ والأمَّهاتُ
رُبَّ قومٍ عاشوا بأمنٍ زماناً ... ثم دارتْ عليهِمُ الدائراتُ
وقَبيلٍ باتُوا جميعاً بِلَيْلٍ ... فإذا هُمْ في صُبْحِهِ أَشْتاتُ

قبيل: قوم، جميعاً: مجتمعين

١٢ لن أسكت

إنَّ هذا الحجابَ قبرٌ كثيفٌ ... حالَ بين الفتاةِ والنَّسَماتِ

إن هـذا إِثـمٌ أُقَـبِّحُـهُ، مـا   جـاءَ حَـضٌّ عـلـيـهِ فـي الآيـاتِ
أيُّـها الـمُسكِـتـي عنِ القَولِ ما أنــ   ـتَ بِـذي قُـدرةٍ عـلـى إسـكـاتـي

١٣ أسفل الدرجات

جَـنَّـةٌ عـنـدَ جَـنَّـةٍ عـنـدَ أخـرى   هـكـذا يَـمْـتَـدِدْنَ مُـتَّـصِـلاتِ
غـادَرَتْـهـا أَيْـدي الـجـهـالَـةِ قَـفْـراً   بـعـدَ تـلـكَ الـرِّيـاضِ والـجَـنَّـاتِ

قفراً: قاحلة غير مزروعة

مَـن رأى الأرضَ في العراقِ مَواتاً   ذَهـبـتْ مـنـهُ نـفـسُـهُ حَـسَـراتِ
وانـتـهـتْ سُـلـطَـةُ الـبـلادِ لِـقـومٍ   خُـلِـقُـوا لِـلـرِّشَـى ولِـلـسَّـرِقـاتِ
اِرْتَـقَـتْ سُـلَّـمَ الـتـقـدُّمِ نـاسٌ   ووقـفْـنـا فـي أسـفـلِ الـدرجـاتِ
فَـخَـرُوا بـالـعـلـومِ إذْ رفـعَـتْـهُـمْ   وفَـخَـرْنـا بـالأَعْـظُـمِ الـنَّـخِـراتِ

١٤ سوف تاتي!

يَـرجُـو وِصـالَ الـحُـورِ بَـعــ   ـدَ الـمـوتِ قـومٌ بِـالـصَّـلاةِ
هَـيـهـاتَ، لـيـس لِـمَـنْ بِـه   تُـودي الـمـنـيَّـةُ مِـن حـيـاةِ
إلّا إذا أَتَــتِ الـقــيــا   مَـةُ، وَهْـيَ يَـوْمـاً سَـوفَ تَـاتـي

١٥ الموت ميراثاً

أَحْـدَثَـتْـنـي الأيـامُ عـن غيـرِ قصدٍ   فَـهْـيَ مَـدفُـوعـةٌ إلـى إحْـداثـي
أَحْـدَثَـتْـنـيِ، وبـعـدَمـا أَحْـدَثَـتْـنـي   أَلْـبَـثَـتْـنـي فـلـم تُـطِـلْ إِلْـبـاثـي

أحدثتني: أوجدتني، إلباثي: إبقائي

إنـمـا الـمـوتُ خـيـرُ مـا خَـلَّـفَـتْـهُ   لِـبـنـيـهـا الآبـاءُ مِـن مـيـراثِ

١٦ الامتزاج

نظرتُ إليـهـا، وَهْـيَ بيـضـاءُ تَبْهَجُ   بِـخَـدٍّ بِـه مـاءُ الـصِّـبـا يَـتـمـوَّجُ

تبهج: تتألق. قال بيرم التونسي: ليه يا بنفسج بتبهج/ وانت زهر حزين

علـى صدرِهـا نـهـدانِ قَـامـا أمـامَـهـا   ومِـن خـلـفِـهـا أردافُـهـا تَـتـرجـرجُ

بل «قاما» وقعدا بك يا جميل صدقي

وقد خَرجَتْ مِن دارِها لِلُبَانَةٍ   فأحسَسْتُ منها أنَّ رُوحِيَ تَخرُجُ

لبانة: حاجة

مَشتْ ومَشى قلبي المتيَّمُ خلفَها   يُقبِّلُ آثارَ الخُطَى حيث تَنْهَجُ

تنهج: تسير في النهج أي الطريق

أُريدُ إذا قابلتُها أنْ أَبُثَّها   غرامي بِها، لكِنَّني أتلَجْلَجُ

أتلجلج: أتلعثم

تمنيتُ يا ليلَى، وهل تنفعُ المنى   لو انَّ حياتي في حياتِكِ تُمْزَجُ

كان ابن الرومي، على صراحته، أعفَّ إذ جعل الروحين يمتزجان

١٧ الفرار

يُثَبِّطُني حبٌّ لِبغدادَ لازمٌ   ويدفعُني شوقٌ إلى مصرَ مُشْتَدُّ

يثبطني: يفل عزمي ويحبطني

ولم تَكُ بغدادٌ سوى دارِ كُربةٍ   نهاريَ فيها مثلُ ليليَ مُسْوَدُّ

مَشيتُ إلى مصرٍ أُسارِعُ قبلَما   طريقي إلى مصرَ الجميلةِ يَنْسَدُّ

شهد الزهاوي الدولة العثمانية شاباً فرجلاً وكانت إستانبول قبلته ورئته الثقافية، يهرب إليها من العراق ويتمتع بالاقتراب من مركز الكون (بالنسبة إلى عربي يعيش في ظل الدولة العثمانية)؛ وفجأة تبخرت إستانبول من عالم الزهاوي. فأصبحت مصر بالنسبة إليه هي الجنة، وهي المهرب: فيها نشر شعره، وفيها لقي التكريم، وهي الملاذ.. بعيداً عن بغداد وما يلقى فيها من عنت المتشددين في الدين، وما يعاني فيها من ضيق الأفق الثقافي

١٨ فرار الشيخ

جَعلتُ على سيارةٍ ذاتِ سُرعةٍ   إلى الشامِ أَطْوي فَدْفَداً ثم فَدْفَدا

جعلت: بدأت، الفدفد: الأرض الخلاء

فأدركتُها من بعدِ يومٍ وليلةٍ   ومنها إلى بيروتَ قد جئتُ مُوفَدا

وكنتُ ببغدادٍ أُكابِدُ جَفْوةً   وكان يُسمِّيني بها القومُ مُلْحِدا

وقالوا لِيَ احْمَدْ في البلادِ هُمامَها   فقلتُ لَهُمْ هاتُوا هُماماً لِأَحْمَدا

الهمام، بالمعنى القديم: الزعيم

إذا المرءُ رامَ البُعدَ عن أرضِ ذِلَّةٍ فلا ينبغي لِلمرءِ أن يَتَرَدَّدا
ولا خيرَ في غِمْدٍ خَلا مِن حُسامِهِ ولا في حسامٍ ظَلَّ يَصْدَأُ مُغْمَدا
وإنيِ على شيخوختيِ وزَمانَتيِ أُريدُ بِشعريِ في الحياةِ التَّجَدُّدا

زمانتي: مرضي المزمن

ولا خيرَ في شعرٍ مضَى اليومَ عهدُه وفي شاعرٍ إن قالَ قالَ مُقلِّدا
وما شاعرُ العصرِ الجديدِ سوى الذي على دولةِ الشعرِ القديمِ تَمَرَّدا

هذا الزهاوي شيخاً. وكان شهد العز وارتقاء الحال أيام الدولة العثمانية، ثم جاء الإنجليز وجاء فيصل ملكاً على العراق فتعلق الزهاوي بالعصر الجديد متأملاً أن يزداد رفعة، وتقرب من الحكم الجديد، ومات فيصل وأحس الزهاوي بوطأة الشيخوخة، ووطأة الناس الذي ضجوا لأفكاره، فهو الآن شيخ برم بالحياة.. يفر من بغداد إلى الشام وإلى مصر كأنه يفر من زمن لم يعد زمنه

١٩ الفيلسوف المؤمن!

مَلأُوا صُدورَ الصُّحْفِ حِقْدا والحقدُ قد سَمَّوْهُ نَقْدا
قالوا دَخيلٌ في القَريـ ـضِ فمَا أجادَ ولا أَجَدَّا
قالوا صغيرٌ لا يُعَدُّ مِنَ الفُحولِ ولن يُعَدَّا
ولَهُ جَراءَةُ فيلسو فٍ يُوسِعُ الأديانَ جَحْدا
كَذَبُوا فإنِّيَ شاعرٌ وأدِينُ بالإسلامِ جِدًّا
إنَّ الخُطوبَ نَزلْنَ بيِ فتركْنَنيِ عظْماً وجِلْدا

٢٠ اللامتناهي

لقد ضَحِكْتُ فكان الضِّحْكُ مِلءَ فَميِ مِنَ الذي قالَ إنَّ الكونَ محدودُ
ما الأرضُ بين شُموسٍ لا عِدادَ لها إلَّا حَصاةٌ حَوالَيْها جَلاميدُ

جلاميد: صخور

وكم بِها سُدُماً تمتَدُّ واسِعةً فيها النجومُ عناقيدٌ عناقيدُ

السدُم، وواحدها سديم: الغيوم الكونية، مجموعات من الشموس تبدو كأنها غيوم

٢١ القيامة؟

ما لِلحياةِ وراءَ الموتِ تَجديدُ فلا يقومُ مِن الأجداثِ مَلْحودُ

فيها النهارُ كَلَيْلٍ لا صباحَ له   أما الليالي فَتِلْكُمْ كلُّها سُودُ
القبرُ آخرُ بيتٍ لِلأُلَى هَلَكُوا   والحِسُّ في الهالِكِ المَلْحُودِ مفقودُ

٢٢ معاهدات

تُلغَى معاهدةٌ وأخرى تُعقَدُ   والشعبُ يُستفتَى لها، ويُهَدَّدُ
والشعبُ يُطري لِلجهالةِ خِنجَراً   في صدرِه عمَّا قريبٍ يُغمَدُ
أمَّا الزعيمُ فما تحرَّكَ، ذائِداً   عن حقِّهِمْ، منهُ اللِّسانُ ولا اليَدُ

٢٣ قصيدة عتيقة

يُحَوِّلُ عنها العينَ ثم يُعيدُها   حِذارَ عِدىً تَغلي عليه حُقُودُها
ويُغضي خلالَ النَّظْرَتيْنِ محاذِراً   رقيباً لها، إن لم يَكِدْهُ يَكيدُها

بداية غزلية ثم دخول في معنى آخر

تُنازِعُهُ حَوضَ المنيَّةِ نفسُه   فتطلُبُ وِرْداً عندَهُ ويَذُودُها

نفس الشاعر تنازعه حوض الموت طالبة وروده، ولكنه يذود نفسه ويصدها عن حوض الموت

إذا هِيَ ماتتْ ماتَ كلُّ همومِها   وأقلعَ عنها نحسُها وسُعودُها

إذا النفس ماتت انتهى كل شيء

سواءٌ على مَنْ باتَ في بطنِ حُفرةٍ   رهينَ البِلى بيضُ الليالي وسُودُها
يَعِزُّ على عَينيَّ أن تنظرا إلى   بلادٍ تَسوسُ الناسَ فيها قُرودُها

٢٤ شوق إلى المجد

وَهُوَ العراقُ يَسوؤُني ألَّا يُرى   متقدِّماً ولِأهلِه استعدَادُ
لا ريبَ في أن العراقَ بِأهلِهِ   يَسمُو إذا أهلُ العراقِ أرادوا
يَغلي سُروريَ كلَّما فكرتُ في   مجدٍ إلى بغدادَ سوف يُعادُ

شعور متوقع من ابن مدينة كانت عاصمة الدنيا ذات يوم. على أن المجد الزائل لا يعود، بل يخلق مجد جديد.. إذا أراد الناس

٢٥ قيود الشعر

بادتْ شُعوبٌ لا تريدُ   وإذا أرادتْ لا تَبيدُ

لا تريد: ليس عندها إرادة

لا الـــنـــارُ تُـــوقِـــفُ مـــا أرا ... دَتْـهُ الـشـعـوبُ ولا الـحَـديـدُ
الـنِـعـزُّ فـي صِـدقِ الـعـزيــ ... ـمةِ، والـشـعـوبُ كـمـا تُـريـدُ
والـــنـــاسُ إمَّـــا ســـادةٌ ... لَـــهُـــمُ الإرادةُ أو عـــبـــيـــدُ
كـــلُّ الـــفـــنـــونِ تـــجـــدَّدَتْ ... والـشـعـرُ يُـعـوِزُهُ الـجـديـدُ
مـــا قـــامَ حـــتـــى أثـــقَـــلَـــتْـــ ... ـهُ مِـنْ قَـوافـيـهِ الـقُـيـودُ
وضـــعَ الـــوَرى حـــدّاً لـــه ... والـشـعـرُ لـيـس لـه حـدودُ
مـــا ضَـــرَّ ســـامـــعَـــهـــا لـــو اخـــ ... ـتَـلَـفَـتْ قَـوافـيـهـا الـقَـصـيـدُ
مَـــن كـــان يـــنـــظِـــمُ عـــن شـــعـــو ... رٍ صـادقٍ فَـهُـوَ الـمُـجِـيـدُ

وفي أخريات حياته كتب الزهاوي قصائد مرسلة القوافي، لكنه ظل حبيس الأشطر المتساوية، وسينتظر الشعر في العراق بعد الزهاوي عشرين سنة حتى يكسر شعراؤه قالب الشطرين المتساويين

٢٦ فلسفتي

حَـيَّـرَتْـكَ الـحـيـاةُ وَهْـيَ لَـعَـمـري ... لـيـس إلَّا تـطـوُّراً فـي الـجـمـادِ

فكرة فلسفية عميقة في نفس الزهاوي: الكائن الحي ليس شيئاً مختلفاً نوعياً، بل هو مادة تعقدت في تركيبها فنشأت فيها «الحياة»

تَـخِـذَ الـنـوعُ فـي الـوَرى لِـلـتَّـعـالـي ... سُـلَّـمـاً مِـن جَـمـاجِـمِ الأفـرادِ

تخذ: اتَّخذ، أي أن أجيالاً تموت وتأتي أجيال وبتعاقبها يتطور الكائن

لـيـس مَـن يـدرسُ الـطـبـيـعـةَ بـحَّـا ... ثـاً بِـنـاجٍ مِـن تُـهـمـةِ الإلـحـادِ
أنـتَ يـا عـقـلُ، فـي جـمـيـعِ حـيـاتـي، ... سَـنَـدٌ يـنـتـهـي إلـيـه اعـتـمـادي
قـد تـعـوَّدتُ أن أكـونَ صـريـحـاً ... فـأقـولَ الـذي عـلـيـه اعـتـقـادي
إن تـكـنْ مِـنِّـيَ الـصـراحـةُ إثـمـاً ... فَـهْـوَ جـزءٌ مـتـمِّـمٌ لِـجـهـادي
فـقـد اخـتـرتُ لـيِ جـهـنـمَ مَـثْـوىً ... وتـركـتُ الـجِـنـانَ لـلـزُّهَّـادِ
أنـا هـذا، ولـسـتُ أقـوَى عـلـى تَـغْـ ... ـيـيـرِ نـفـسـي يـومـاً أوِ اسـتـعـدادي

٢٧ كفر وإيمان

سـبـقـتْـنـي إلـى الـمـقـابـرِ مـوتـى ... أنـا فـي الـراحـلـيـنَ غـيـرُ وحـيـدِ
مَـن قـضـى نـحـبَـهُ ونـامَ بـقـبـرٍ ... لا يُـبـالـي طُـولَ الـلـيـالـي الـسُّـودِ

لستُ أدري أَلِلفناءِ سنمضي　　بعد أَنَّا نَموتُ أم لِلخلودِ
حبَّذا لو حَظيتُ مِن بعدِ موتي　　بِحياتي التي انتهتْ مِن جديدِ
إنني في شَكٍّ وإنْ مَلأُوا سمْـ　　ـعي بِوَعدٍ يَروُونَهُ وَوَعيدِ
لا تثقْ بالجمهورِ يا عقلُ يوماً　　إنَّ رأيَ الجمهورِ غيرُ سَديدِ
يَمِّمي يا نَفسي السماءَ فإنِّي　　لا أرى في الثَّرى طريقَ الخلودِ
أنتِ إنْ تَعزِمي يَهُنْ كلُّ صعْبٍ　　لا يَنالُ المرادَ غيرُ المُريدِ
أَحمَدُ البَارِئَ الذي يتَساوى　　عنده إيماني به وجُحُودي
قيلَ إنَّ الشهيدَ يحيا لدى الربِّ　　فمَنْ ذا في الأرضِ غيرُ شهيدِ
كلُّنا مؤمنٌ يسبِّحُ للرحـ　　ـمنِ في ظِلِّ عرشِهِ المَمْدُودِ
إنني ما سجدتُ يوماً لِغيرِ اللّـ　　ـهِ، فاللّهُ وحدَهُ مَعبودي

٢٨ العربة والحصان

ليس مِنَّا الأجسادُ بِالروحِ تَحيا　　إنَّما يَحيا الرُّوحُ بالأجسادِ
أنا بِالشعرِ وحدَه أتسلَّى　　إنه كلُّ طَارِفي وتِلادي
وإذا وافَتْهُ المنيَّةُ قبلي　　فاحفِرُوا حفرةً له في فؤادي

٢٩ زجاج المعري

بعد أنِّي أموتُ فَلْـ　　ـيَدفَعُوا بي إلى سَقَرْ
لا تُؤَمِّلْ تَجدُّداً　　لِزجاجٍ قد انكسرْ
أتَرى الروحَ باقياً　　بعد جِسمٍ له دَثَرْ

قال المعري: يحطمنا ريب الزمان كأننا/زجاج ولكن لا يعاد له سبك

٣٠ درجات الهيام

أولُ الحبِّ في القلوبِ شَرارَةْ　　تختفي تارةً وتظهرُ تارةْ
ثم يَرقَى حتى يكونَ حريقاً　　فيه هُلْكٌ لأهلِهِ وخَسارةْ
ثم يَرقى حتى يُمَثِّلَ بُركا　　ناً يرى الناسُ مِن بعيدٍ نَارَهْ
ثم يَرقى حتى يكونَ جَحيماً　　عن تفاصيلِها تضيقُ العِبارَةْ

٣١ سياسة وشعر

عامَلَ الناسَ بالعدالةِ والظُّلْـ ـمِ فكانُوا يَلْقَوْنَ نوراً ونارا

يتحدث عن الوالي العثماني المنصرف

جَرَّ عِزّاً إلى العراقِ وذُلّاً وحياةً لأهلِه وبَوارا

وأَصارَ النهارَ ليلاً بَهيماً وأصارَ الليلَ البهيمَ نهارا

جعل النهار ليلاً بظلمه، ولكنه اهتم بالمرافق العامة فأنار الشوارع ليلاً

أَفقرَ القومَ بالعراقِ، وأَغنى وَسَّعَ الطُّرْقَ، ضَيَّقَ الأفكارا

اِختَفى عنْ قوم وخَالَطَ قوماً فأرى الناسَ خفَّةً ووَقارا

أخضَعَ الناسَ، نفَّذَ الحكمَ فيهِمْ، وَطَّدَ الأمنَ، أَرخَصَ الأسعارا

غَرَّبَ الأبرِياءَ، بَثَّ الجَواسيـ ـسَ على الناسِ، أَسعَفَ الفُجّارا

مَقَتَ العلمَ ساخراً مِنْ ذَويهِ بَذَّرَ المالَ، جَرَّأَ الأشرارا

قال لِلناسِ إنما الأمرُ شُورى بيْنَنا، ثم إنَّه ما استشارا

أيها المستبِدُّ بالأمر إيهاً لا تحاربْ بِظُلْمِكَ الأحرارا

إيه: كلمة لا معنى لها

إن شمسَ الدستورِ لِلقومِ لاحتْ فأضاءتْ بِنُورِها الأبصارا

أيها الوالي العثماني.. لقد جاء دستور ١٩٠٨، فأضاء الطريق

قد مَشاها خُطَىً تعَثَّر فيها لا أَقالَ الرحمنُ منه العِثارا

لم يكنْ مجلسُ الإدارةِ إلّا آلةً في يديهِ تُمضي القرارا

إن في مجلسِ الإدارةِ عُضواً حيثما دارتِ الزجاجةُ دارا

رَبِّ إنَّ المنافقينَ ببغدا دَ كثيرٌ، وقد أَتَوْا أَضْرارا

رَبِّ إنِّي دعوتُهُمْ فَتَمادَوْا وأَصرُّوا، واستكبروا استكبارا

إنَّني والهَزارَ فَرعانِ مِنْ أصـ ـلٍ كِلانا قد مارسَ الأشعارا

الهزار: عصفور مغرد

وكلانا بَثَّ الصَّبابَةَ إلّا أنني قد صَرَّحتُ وَهْوَ أَشارا

وكلانا أجادَ نظمَ القوافي غيرَ أَنِّي قد فُقْتُ فيها الهَزارا

أنا قد طِرْتُ في سماءِ المعاني ... وَهْوَ في جَوٍّ روضةٍ قد طارا

وجناحُ الهَزارِ ريشٌ قليلٌ ... وجناحي فِكري الذي لا يُجارى

أعشقُ الزُّهرَ في السماءِ فَأشْدُو ... وَهْوَ في الأرضِ يعشقُ الأزهارا

الزهر: النجوم اللامعة

هُوَ في نَظمِه يقلِّدُ طيراً ... سبقَتْه وإنَّ فِيَّ ابتكارا

يَصِفُ الحُبَّ وحدَه، ثم إنِّي ... أَصِفُ الناسَ والهوى والديارا

وقُصارى أنغامِه الوَجْدُ، أمَّا ... نَغماتي فما لَهُنَّ قُصَارى

إنَّهُ شاعرٌ يكرِّرُ ما قا ... لَ، وإنِّي لا أَحْمَدُ التَّكرارا

شعرُه في الحياةِ وَقْفٌ عليه ... فَهْوَ إنْ عاشَ عاشَ أو بَار بارا

بار: هلك

وقَريضي يَعيشُ بَعدي طويلاً ... ويجوبُ البلادَ والأمصارا

إيه، يا جميل صدقي ـ وإيه كلمة لا معنى لها، هي تسليك حنجرة ـ إيه، قد والله عاش شعرك بعدك. هذا كلام فصيح غاية الفصاحة، جار على سَنن العربية ألطف جري، دونما إغراب. ما أجهل من تفتنه سهولة الزهاوي عن فصاحته!

٣٢ ثورة في الجحيم

هذه القصيدة تعد ٤٣٣ بيتاً وفيها يقص الزهاوي كيف مات وكيف حوسب، واقتطفنا منها أبياتاً تحكي القصة وبقدر من التفاصيل. نشرها الزهاوي عام ١٩٣١، وقيل إن الملك فيصل ملك العراق أنبه عليها، فرد الزهاوي: عجزت عن إشعال ثورة في الأرض فأشعلتها في السماء:

بعد أن مُتُّ واحتواني الحَفيرُ ... جاءني يَبْلُوُ مُنكَرٌ ونَكيرُ

يبلو: يمتحن

مَلَكانِ اسْطَاعا الظُّهورَ، ولا أد ... ري لِماذا وكيف كان الظهورُ

ولكلٍّ أنفٌ غليظٌ طويلٌ ... هُوَ كَالقَرنِ بِالنِّطاحِ جَديرُ

كنتُ في رقدةٍ بقبري إلى أن ... أيْقظاني منها، وعادَ الشعورُ

أَتَيا للسؤالِ فَظَّيْنِ، حيث الـ ... ـمَيْتُ بعدَ استيقاظِهِ مذعورُ..

عن أمورٍ كثيرةٍ قد أتاها ... يومَ، في الأرضِ، كان حيَّاً يَسيرُ

صيْحةٌ تحتَ الأرضِ ثم جِوارٌ بين أَقسَاهُما وبيني يَدورُ
واقفاً لي كأنَّما هُوَ نَسْرٌ وكأنّي أمامَه عُصفورُ
قالَ مَن أنتَ، وَهْوَ ينظُرُ شَزْراً قلتُ: شيخٌ في لَحْدِهِ مَقبورُ
قالَ ماذا أتيتَ إذ كنتَ حيَّاً قلتُ: كلُّ الذي أَتَيْتُ حقيرُ
قال ما دِينُكَ الذي كنتَ في الدنـ ـيا عليهِ وأنتَ شيخٌ كبيرُ
قلتُ كان الإسلامُ دِينِيَ فيها وَهْوَ دِينٌ بالاحترامِ جَديرُ
قالَ مَنْ ذا الذي عبدتَ فقلتُ اللّـ ـهَ رَبِّي، وَهْوَ السميعُ البصيرُ
قالَ هلَّا كَسَبْتَ غيرَ المَعاصي قلت إن لم أَكْسِبْ فَرَبِّي غَفورُ
كان إثمي أَنّي إذا سَألوني لم أَقُلْ ما يقولُهُ الجُمهورُ
وإذا لم يكنْ هنالِكَ رأيٌ لِيَ أُقْضي بِهِ فَلا أَسْتَعيرُ
رُبَّ أَمرٍ يقولُ في شأنِهِ العقـ ـلُ نَقيضَ الذي يقولُ الضميرُ
قال هل صَدَّقْتَ النَّبِيِّينَ فيما بَلَّغُوهُ ولم يَعُقْكَ الغَرُورُ
والكتابَ الذي مِنَ اللَّهِ قد جا ءَ، فَأَدْلَى بِهِ البَشيرُ النَّذيرُ
قلتُ في خَشيةٍ: بَلى، وفُؤادي مِن شَعاعٍ بِه يكادُ يَطيرُ

شَعاع: دم منتشر.. لعله يقصد إن قلبه أراد أن يطير مفارقاً دمه؟

إنه مُنزلٌ مِنَ اللَّهِ يَهدي النا سَ طُرّاً فَهْوَ السِّراجُ المُنيرُ
قال: هل كنتَ لِلصَّلاةِ مُقيماً؟ قلتُ: عنها ما إن عَراني فُتورٌ
إنَّما في اقْتِناءِ حُورٍ حِسانٍ بِصَلاةٍ، تِجَارةٌ لا تبورُ
قالَ هل كنتَ قائلاً بِنُشورٍ؟ قلتُ رَبِّي على النُّشورِ قَديرُ
فإذا شاءَ لِلعِبادِ نُشوراً فمِنَ السهلِ أن يكونَ نُشورُ
قال ماذا تقولُ في الحَشْرِ والميـ ـزانِ، ثم الحسابِ، وهْوَ عَسيرُ
والسؤالِ الدقيقِ عن كلِّ شيءٍ والصِّراطِ الذي عليه العُبورُ
قلتُ مَهْلاً يا أَيُّها المَلَكُ المُلْـ ـحِفُ مَهلاً، فإنَّ هذا كثيرُ

الملحف: الملحّ

كان إيماني في شبابِيَ جَمَّاً ما بِه نَزْرَةٌ ولا تَقصيرُ

نزرة: قلّة

غيرَ أن الشُّكوكَ هَبَّتْ تُلاحيـ ـنيِ، فلم يَستَقِرَّ مِنِّي الشعورُ

تلاحيني: تتجاذبني

ثم عادَ الإيمانُ يَقوَى إلى أن سَلَّهُ الشيطانُ الرَّجِيمُ الغَرورُ

ثم آمنتُ ثم ألْحَدْتُ حتّى قيلَ هذا مُذَبْذَبٌ مَمْرُورُ

ممرور: ملتاث، به شيء من اكتئاب جنوني

ثم إنِّي في الوقتِ هذا لِخوفي لَسْتُ أدري ماذا اعتقادِي الأخيرُ؟

لم يَرِبْني أمرُ الصِّراطِ مُقاماً فوقَ وادٍ مِنَ الجَحيمِ يَفورُ

غيرَ أنِّي أُجِلُّ رَبِّيَ مِنْ إتْـ ـيانِ مَا يَأْباهُ الحِجا والضَّميرُ

فإذا صَحَّ أنَّه كَغِرارِ السَّـ ـيفِ أو شَعْرَةٍ، فكيفَ العُبورُ؟

غرار السيف: حده

ولعلَّ الذين ضَحَّوْا بِأكْبا شٍ، عليْهِمْ بِها يَهُونُ المُرورُ

بها: أي بسبب تلك الأكباش التي ضحوا بها في دنياهم سيهون عليهم المرور على الصراط

أنا لو كنتُ بِالبَعيرِ أُضَحِّي سارَ بي مُرْقِلاً عليْهِ البَعيرُ

مرقلاً: مسرعاً. عليه: أي على الصراط

قالَ ماذا رأيتَ في الجِنِّ قَبْلاً ومِنَ الجِنِّ صَالِحٌ وشَرِيرُ

ثم في جِبريلَ الذي هُوَ بينَ اللّـ ـهِ ذي العرشِ والرسولِ سَفيرُ

قُلتُ لِلَّهِ في السَّماواتِ والأر ضِ وما بَينَهُنَّ خَلْقٌ كثيرُ

غيرَ أنِّي أرتابُ في كل ما قد عَجَزَ العقلُ عنه والتفكيرُ

لم يكُنْ في الكتابِ مِن خَطَإٍ كلّا ولكِنْ قد أخطَأَ التفسيرُ

قال هل في السُّفورِ نفعٌ يُرَجَّى قلتُ خيرٌ مِن الحِجابِ السُّفورُ

إنَّما في الحجابِ شَلٌّ لِشعبٍ وخَفاءٌ، وفي السُّفورِ ظُهورُ

كيف يسمُو إلى الحَضارَةِ شعبٌ منه نِصفٌ عن نِصفِهِ مَسْتُورُ؟

ليس يَأتِي شَعبٌ جَلائِلَ ما لم تتقَدَّمْ إناثُهُ والذكورُ

جلائل: أعمال جليلة

قالَ هل في الإلَهِ عندَكَ شَكٌّ؟ قلتُ لا، والذي إليهِ المصيرُ

إنَّــمـا هــذهِ الـطـبـيـعـةُ ذاتُ الــ ـــلاتَـنـاهـي كِـتـابُـه الـمَـسـطـورُ
إن هــذا مــا قــد تَــلـقَّـنْـتُـهُ والـــ ـــقَـلْـبُ مِـنْ شَـكِّـهِ يـكـادُ يَـخُـورُ

يخور: يضعف

وأرَى فـي الـصِّـفـاتِ مـا هُـوَ لـلَّـ ـهِ، تَـعـالَـتْ شُـؤُونُـه، تَـصـغـيـرُ

من التصغير لأمر الله أن نصفه بصفات نستمدها من بيئتنا

ما عِقابي مِنْ بعدِمَا صَحَّ نَقْلاً أنَّ مــا قـد أَتَـيْـتُـهُ مَـقْـدُورُ؟

ما وجه معاقبتي بعد أن صح ما نقل عن السلف من أن كل أفعالي مقدرة سلفاً، وليس لي فيها اختيار؟

وإذا كــانَ مــنـهُ كُـفـرِي وإيـمــا نِـي فـإنَّ الـجَـزاءَ شَـيءٌ نَـكـيـرُ
أَمِنَ الحَقِّ خَلْقُ إبليسَ وَهْوَ الـ ـمُسْتَبِدُّ المُضَلِّلُ الشريرُ
قـالَ إنِّـي أرَى بِـخَـدِّكَ تَـصْـعِـيـ ـراً فـهـلْ أنتَ يَـزدَهِـيكَ الـغُـرورُ؟

التصعير: إمالة الخد، كناية عن التكبر

قـلـتُ مَـن مَـاتَ لا يُـصَـعِّـرُ خَـدّاً لـيسَ بِـالـموتَى يِخْلُقُ التَّصْعيرُ

يخلُق: يجدُر

إنَّني أَخْشى الظَّالِمينَ فلا أُفْـ ـضي إليْهِمْ بِما بِرأسي يَدورُ
لا تكونا عَليَّ فَظَّيْنِ في قَبْـ ـري فإنِّي شيخٌ، بِعَطفٍ جَديرُ
إن قولَ الحَقِّ الصُّرَاحِ على الأحـ ـرارِ حتى في قَبرِهِمْ مَحظُورُ

الصراح: الخالص الصافي

فَدعانِي في حُفرتِي مُستريحاً أنـا مِـن ضَـوضـاءِ الـحـيـاةِ نَـفُـورُ
إنَّــمـا قــد سَـأَلْـتُـمـا عــن أمـورٍ هِـيَ لـيـسـتْ تُـغْـنـي ولـيـسـتْ تَـضيرُ
ولماذا لم تَسألا عن ضَميري والفتى مَن يَعِفُّ مِنْه الضميرُ
ولماذا لم تسألا عن جِهادي في سبيلِ الحقوقِ وَهْوَ شَهيرُ
ولـمـاذا لـم تـسـألا عـن وَفـائـي ووفـائـي لِـمَـنْ صـحـبْـتُ كـثـيـرُ
وسَـلانـي عـمَّـا نـظـمـتُ مِـنَ الـشـعـ ـرِ، فَبِالشعرِ يَرتقِي الجُمهورُ
وسَلانِي عن جَعْلِيَ الصدقَ كالصَّخـ ـرِ أسـاسـاً تُـبـنَـى عـلـيـه الأمـورُ
أَسُـكـوتٌ عــن كـلِّ مـا هُـوَ حَـقٌّ وسُــؤالٌ عــن كــلِّ مــا هُــوَ زُورُ؟

قالَ كُلُّ الذي عَرضْتَ علينا أيها الشيخُ الهِمُّ شَيءٌ حَقيرُ

الشيخ الهم: المسن الضعيف

نحنُ لَسنا بِسائِلينَ سِوى ما كانَ حولَ الدِّينِ المُبينِ يَدُورُ

قلتُ مَا لي بِكُلِّ ذلكَ عِلْمٌ فَبِجَحْدِي عَقْلِي عليَّ يُشيرُ

كنتُ حَيَّاً فَمُتُّ، والموتُ حَقٌّ شاهِداتٌ بِما هناكَ القُبورُ

كنتُ فوقَ التُّرابِ بالأمسِ أَمشي وأنا اليومَ تحتَهُ مَقبورُ

قالَ ما أنتَ أيها الرِّجْسُ إلَّا مُلْحِدٌ قد ضَلَّ السبيلَ، كَفُورُ

ثم تَلَّاني لِلجَبينِ وقالا لِيَ: ذُقْ أنتَ الفيْلَسوفُ الكبيرُ

تلاني للجبين: ألقياني أرضاً

قُلتُ صَفْحاً فَكُلُّ فلسفتي قد كانَ مِمَّا يُمليهِ عقلي الصَّغيرُ

لم تَكُنْ أقوالِي الجَريئةُ إلَّا نَفَثاتٍ يَرمي بِها المَصْدُورُ

أقوالي الجريئة كان نفثات، بصقات بلغم، يرمي بها المصدور، المصاب بداء في صدره، فهو يرمي بالبلغم فيستريح قليلاً

فأَجابَاني قَائِلَيْنِ بِصوتٍ لا يَسُرُّ الأَسْمَاعَ منهُ الهَدِيرُ

ثم صَبَّا بقَسوَةٍ فوقَ رأسي قَطِراناً لِسوءِ حَظِّي يَفُورُ

القطران: الزفت، مستخرجاً من نفط أو من فحم

فَشَوَى رَأْسِي ثم وَجْهِيَ حتى بانَ، مِثْلَ المَجْدُورِ، فيهِ بُثُورُ

ثم طَارا بي في الفضاءِ إلى الجَنَّـ ـةِ حتى يُغْرَى بِلَوْمي الضَّميرُ

وأَسَرَّا في أُذْنِ «رِضوانَ» شيئاً فأباحَ الجَوازَ وَهْوَ عَسيرُ

رضوان: حارس الجنة

لَمَسَتْ، إذ دخلتُها، الوجهَ مِنِّي نَفْحةٌ فاحَ عِطرُها والعبيرُ

جَنَّةٌ عَرْضُها السَّماواتُ والأر ضُ بِها مِنْ شَتَّى النعيمِ الكثيرُ

فَطعامٌ لِلآكلينَ لذيذٌ وشرابٌ للشاربينَ طَهُورُ

سَمَكٌ مَقْلِيٌّ وطَيْرٌ شَوِيٌّ ولذيذٌ مِنَ الشِّوَاءِ الطُّيورُ

وعلى أرضِها زَرَابِيُّ قد بُثَّـ ـتْ حِسانٌ كَأَنَّهُنَّ زُهورُ

زرابي: سجاجيد

وعلـيـهـا أَسِـرَّةٌ وفِـراشٌ، مثلَما يَهوَى المؤمنونَ، وَثيرُ
وعلـى تِلْكُـمُ الأَسِـرَّةُ حُـورٌ في حُـلِيٍّ لهـا، ونِعْمَ الحُـورُ
ليسَ يَخشَيْنَ في المَجانَةِ عَاراً وإنِ اهـتَزَّ تـحتَـهُـنَّ السَّـريـرُ

وكـأَنَّ الـوِلْـدَانَ حيـنَ يَـطُـوفـو نُ عـلـى الـقـومِ لُؤْلُـؤٌ مَـنـثُـورُ
إئْـتِ مـا شِـئْـتَـهُ ولا تَـخْـشَ بَـأْساً لا حَـرامٌ فـيـهـا ولا مَـحـظُـورُ
فإذا ما اشْتَهَيْتَ طَيْراً هَوى مِنْ غُـصْـنِـهِ مَـشْـوِيَّـاً وجـاءَ يَـزُورُ
وإذا رُمْـتَ أن يَـحُـولَ لَـكَ الـتِّـيـ ـنُ دَجـاجـاً أَتـى إِلـيـكَ يَـطـيـرُ

لو قال حماماً أو إوزاً لكان الطيران معقولاً، فأما الدجاج الذي يطير فهو.. لا علينا، ربما كان دجاج الجنة كذلك

أو إذا شئتَ أن يصيرَ لَكَ الحصـ ـبـاءُ دُرَّاً فـإنـه لَـيَـصـيـرُ
ولـقـد رُمْـتُ شَـرْبـةً مِـنْ نَـمـيـرٍ فَـتَـيَـمَّـمْـتُـه فَـفَـرَّ الـنَّـمـيـرُ

النمير: الماء العذب

وتَـذَكَّـرْتُ أَنَّـنِـي رَجُـلٌ جِـيـ ءَ بِـهِ كـيْ يُـراعَ مـنـهُ الـشُّـعـورُ
قلتُ عُودَا مِنْ حيثُ قد جِئْتُما بي إنَّـمـا هـذهِ لِـهَـمِّـي تُـثـيـرُ
أَخْـرَجـانِـي مـنـهـا وشَـدَّا وِثـاقـي بِـنُـسُـوعٍ كـمـا يُـشَـدُّ الـبَـعـيـرُ

نسوع: أحزمة من جلد

ثـم قَـامـا فَـدَلَّـيَـانـي ثَـلاثـاً في صَميمِ الجحيمِ وَهْيَ تَفورُ

ثلاثاً: ثلاث مرات، أو ربما ثلاث قامات.. أي بقدر طول الرجل ثلاث مرات

وأخيـراً فـي جـوفِـهـا قـذَفـا بـي مـثـلَـمـا يُـقـذَفُ الـمَـتـاعُ الـحَـقـيرُ
ربِّـيَ اصْـرِفْ عـنِّـي الـعـذابَ فـإِنِّـي إنْ أكُـنْ خـاطِـئـاً، فـأنـتَ الـغـفـورُ
وأشـدُّ الـعـذاب مـا كـان فـي الـهـا وِيَـةِ الـسُّـفْـلى، حيثُ يَطغَى السَّعيرُ
حـيـثُ لا يـنـصُـرُ الـهَـضـيـمَ أَخُـوهُ حـيـثُ لا يُـنْـجِـدُ الـعَـشـيـرَ الـعَـشـيـرُ

الهضيم: الضعيف المهزول، العشير: الصاحب

اَلـطَّـعـامُ الـزَّقُّـومُ فـي كـلِّ يـومٍ والـشـرابُ الـيَـحْـمُـومُ والـيَـحْـمُـورُ

اليحموم: الأسود، اليحمور: الأحمر

ولـقـد يُـسقَـى الـظَّـامِـئـونَ عـصـيـراً هُـوَ مِـنْ حَـنْـظَـلٍ وسـاءَ الـعَـصـيـرُ

يَضرعُ المُجرمونَ فيها عِطاشاً والضَّراعاتُ ما لها تأثيرُ
ولَهُمْ مِن غَيْظٍ تَأَجَّجَ فيهِمْ نَظَراتٌ شَرارُها مُستَطيرُ
ولقد أبْصَرْتُ الفَرزدَقَ نِضْواً يتلوَّى ووجهُهُ مَعْصُورُ

نضواً: مهزولاً

وإلى جَنْبِه، يقاسي اللَّظَى الأخـ ـطَلُ مُسْتَعْبِراً، ويَشكُو جَريرُ

مستعبراً: باكياً

قلتُ ما شأنُكُمْ؟ فقالوا دَهانا مِن وَراءِ الهِجَاءِ ضُرٌّ كثيرُ
ولقد كانَ آخَرونَ حَوالَيْـ ـهِمْ جُثوماً وكلُّهُمْ مَوْتورُ

كانوا جثوماً: كانوا جاثمين، موتور: شاعر بظلم وطالب للثأر

منهُمُ العَالِمُ الكبيرُ ورَبُّ الـ ـفَنِّ والفيلسوفُ والنِّحْريرُ

النحرير: المتبحر في علمه

لم أشاهِدْ، بعد التَّلَفُّتِ، فيها جاهلاً ليس عندَه تَفكيرُ
ثم حَيَّاني أحمَدُ المتنَبِّي والمعَرِّيُّ الشَّيخُ، وَهْوَ ضَريرُ
ولقد كادَ يَخْنُقُ الغيظُ بَشَّا راً، وفي وجهِهِ الدَّميمِ بُثورُ
ويَليهِمْ أبو نُواسٍ كئيباً وهو ذاكَ المِمْرَاحةُ السِّكِّيرُ
مثلُهُ الخيَّامُ العظيمُ، ودَنْتي وإمامُ القَريضِ شاكِسْبيرُ
ولقد كان لامْرِئِ القيسِ بين الـ ـقومِ صَدْرٌ، ولِلمُلوكِ الصُّدُورُ
قلتُ ماذا بِكُمْ؟ فقالوا لَقِينا مِن جَزاءٍ ما لا يُطيقُ ثَبيرُ

ثبير: جبل في بلاد العرب كبير

إنَّنا كُنَّا نَسْتَخِفُّ بِأَمْرِ الدِّ ـينَ في شعرِنا، فَساءَ المصيرُ
ثم إنِّي سمعتُ سُقراطَ يُلقي خُطبةً في الجحيم، وَهْيَ تَفورُ
وإلى جنبِه، على النارِ، أَفْلا طُونُ يُصغي كأنَّهُ مَسرورُ
وأَرِسْطَاليسُ الكبيرُ وقد أَغْـ ـرَقَ مِنه المَشاعِرَ التفكيرُ
ثم كُوبَرنيكُ الذي كان قد أَفْـ ـهَمَنا أنَّ الأرضَ جِرْمٌ يَدورُ
تَتْبَعُ الشمسَ أيْنما هِيَ سارَتْ وعليها مثلَ الفَرَاشِ تَطُورُ

تطور: تحوم

ثم دَرْوِينُ وَهْوَ مَنْ قالَ إنّا نَسْلُ قِرْدٍ قَضَتْ عليه الدُّهُورُ
ونُيُوتُونُ الحَبْرُ ثم رِنَانٌ ثم رُوسُّو ومثلُه فُولْتِيرُ
وزَرَادَشْتُ ثم مَزْدَكُ يأتي وجُموعٌ إمَامُهُمْ أَبِقُورُ
والحَكيمُ الكِنْدِّيُّ ثم ابنُ سينا وابنُ رُشْدٍ، وَهْوَ الحَفِيُّ الجَسُورُ

الحفي: العالم المستقصي

كان سُقْراطُ أَثْبَتَ القومِ جَأْشاً فَهْوَ ذُو عَزْمٍ فائقٍ لا يَخُورُ
قال، مِنْ بعدِ شرحِهِ مَنْشَأَ النَّا رِ، وفي قولِه إليها يُشيرُ

كان يشرح منشأ النار، وهو يشير بيده نحوها

سوفَ يَقضي فينا التَّطَوُّرُ أنْ نَقْـ ـوَى عليها، وأنْ تَهُونَ الأُمُورُ
إن في ذا الوادي السحيقِ عُيوناً ثَرَّةً لِلبِتْرُولِ، منها يَفُورُ
ولقد تنضِبُ العيونُ، فلا نا رٌ ولا سَاعِرٌ ولا مَسْعُورُ
مَكثُوا حتى جاءَ منهُمْ حكيمٌ باختِراعٍ لم تَنتَظِرْهُ الدهورُ
آلَةٌ تُطْفِئُ السعيرَ إذا شا ءَ فلا تُحْرِقُ الجسومَ السَّعيرُ
ولقد قامَ في الأخيرِ فَتىً يخـ ـطُبُ فيهِمْ، والصَّوْتُ منهُ جَهُورُ
قال يا قومَنا جهنمُ غَصَّتْ بالأُلى يُظلَمونَ منكُمْ، فثُوروا
قال يا قومَنا أَرى الأمرَ مِنْ سُو ءٍ إلى الأَسْوَأِ الأَمَضِّ يَسيرُ
أنتُمُ اليومَ في جهنمَ أَسْرى ولْيَكُنْ مِنكُمُ لكُمْ تَحريرُ
أنتُمُ اليومَ الأكثَرونَ وأَمَّا عَددُ الحارِسِينَ فَهْوَ صَغيرُ
فَعَلا مِنْ أهلِ الجَحيمِ ضَجيجٌ رَجَفَ الوَادي منهُ والسَّاعُورُ

الساعور: التنور

أَطْفَأُوا جَمْرَةَ الجَحيمِ فكانتْ فتنةً ما جَرى بِها التَّقديرُ
ثورةٌ في الجحيمِ أَرجَفَتِ العَرْ شَ، وكادتْ منها السماءُ تَمُورُ

تمور: تموج

زَحَفوا ثَائِرينَ مِن كلِّ صَوْبٍ في صُفوفٍ كأَنَّهُنَّ سُطُورُ
لَكُمُ الأكْواخُ المَشِيدَةُ بِالنَّا رِ وَلِلْبُلْهِ في الجِنانِ القُصورُ!
إنْ خَضَعْتُمْ فما لَكُمْ مِن نَصيبٍ في طَوالِ الدهورِ إلَّا السعيرُ

ولـقـد أسـرَعَـتْ زَبَـانِـيَـةُ الـنـا ... رِ إلـيْـهِـمْ وكـلُّـهُـمْ مَـذْعُـورُ
ثم جاءَتْهُمُ الشياطينُ أنصا ... رأً، وما جيشُ المَارِدِينَ حَقيرُ
كـان إبـليسُ قـائداً لِلشياطيـ ... ـنِ وإبليسُ، حيثُ كان، قَديرُ
ولـقـد جاءَ مِـنْ مَلائكـةِ العَرْ ... شِ لإرجاعِ الأمنِ جَمٌّ غفيرُ
وتلاقَى فوق الجحيمِ الفريقا ... نِ، وهـذا نـارٌ وهـذا نـورُ
يتَرامَوْنَ بِالصَّواعقِ صَفَّيْـ ... ـنِ، فيشتدُّ القتلُ والتدميرُ
حارَبوا بِالجبالِ تُقذَفُ بِالأيـ ... ـدي تِباعاً كأنَّهُنَّ قُشُورُ
بِالبراكينِ ثَائِراتٍ، جَرَتْ مِن ... حُمَمٍ فيها أبْحُرٌ ونُهورُ
وقد اهتَزَّ عَرشُ رَبِّكَ مِنْ بعـ ... ـدِ سُكونٍ، والدَّائراتُ تَدُورُ
كانتِ الحربُ في البِدَاءِ سِجَالاً ... ما لِصُبْحِ النصرِ المبينِ سُفُورُ
ثم لِلنَّاظِرينَ بَانَ جَلِيَّاً ... أنَّ جيشَ المَلائِكِ المَدْحورُ
ولِأهلِ الجحيمِ تَمَّ، بِإنجا ... دِ الشياطِين، في القتالِ الظُّهورُ
فاستَراحُوا مِن العذابِ الذي كا ... نُوا يُقاسُونَه وجاءَ السُّرورُ
ثم طارُوا على ظهورِ الشياطيـ ... ـنِ خِفافاً كما تطيرُ النُّسورُ
يطلبونَ الجِنانَ حتى إذا ما ... بَلغُوها جَرى نِضالٌ قصيرُ
طَردُوا مَن بها مِنَ البُلْهِ واحتَلُّوا ... القصورَ العُليا، ونعمَ القصورُ
غيرَ مِنْ كانُوا مُصلِحِينَ، فهذا الـ ... ـقِسمُ منهُمْ، بالاحترامِ جَديرُ
فَرَّ رِضوانُ لِلنَّجاةِ ومِنْ أتـ ... ـباعِ رِضوانَ، مُسرعاً، جُمْهورُ
وأَقاموا لِفتحِهِمْ حفْلةً أعـ ... ـقَبها مِنهُمُ الهُتافُ الكثيرُ
إنه أكبرُ انقِلابٍ به جَا ... دَتْ على كَرِّها الطويلِ، الدهورُ
وتنبَّهْتُ مِنْ مَنامِيَ صُبحاً ... وإذا الشَّمْسُ في السماءِ تُنيرُ
وإذا الأمرُ ليس في الحَقِّ إلَّا ... حُلُماً قد أثارَهُ الجَرْجيرُ

سودنا ما سودنا من الأبيات التي اخترناها من هذه القصيدة الطويلة كي تتسق القصة، وهي قصيدة تلبس ثوب الملحمة، لكنه ثوب مرقع بألوان كثيرة من السخرية ومن التندر بالمعتقدات الشائعة، ومن آراء الزهاوي المعروفة عن الحجاب والسفور وحرية الرأي، إلخ. ويغفر للزهاوي هذه النثرية العالية روحه الفكهة، وتمرده، وأنه مختلف عن غيره؛ وأما تناوله عرش رب الكون الجليل فلا يغفره إلا رب الكون الجليل

٣٣ الهامس والجاهر

وليس بِحُرٍّ من تكلَّمَ هامساً ... ولكنَّ مَن نَادى جَهاراً هُوَ الحُرُّ

يقولون في الإيمانِ كلُّ نجاتِنا ... ويا رُبَّ إيمانٍ قَويٍّ هُوَ الكفرُ

وينتظرون الفجرَ في ليلِ قبرِهِمْ ... ولكنْ ليالي القبرِ ليس لها فجرُ

٣٤ سفر سفر

أحييكِ يا مصرُ الجميلةُ يا مصرُ ... بشعرٍ يُزَكِّيهِ شعوريَ والفِكْرُ

إذا الشعرُ لم يَهزُزْكَ عندَ سَماعِهِ ... فليسَ خَليقاً أن يقالَ له شعرُ

التسويد من عمران القفيني

إلى بلدٍ يَلقَى بهِ الحقُّ ذَادَةً ... ويَنْعُمُ في أكنافِهِ الشاعرُ الحُرُّ

أسيرُ إلى بلد يلقى به الحق من يذود ويدافع عنه

قصدتُ بِسيْري مِصرَ حتى وَصلْتُها ... ولا بُدَّ مِنْ مصرٍ وإنْ بَعُدَتْ مِصرُ

صَبرتُ على ضَيْمي ببغدادَ حِقبةً ... فما سِرْتُ إلَّا بعدَ أن نَفِدَ الصبرُ

وقد ذُقْتُ حُلْوَ العيشِ دهراً ومُرَّهُ ... إلى أن تَساوَى في فمي الحُلْوُ والمُرُّ

٣٥ الطفل الضرير

أُمَّاهُ إنِّي ضَريرُ ... والقلبُ مِنِّي كَسيرُ

يا أُمُّ إنَّ شَقائي ... لو تَعلمينَ كبيرُ

يَومي ولَيلي سواءٌ ... كِلاهما لا يُنيرُ

يا أُمُّ إنْ لم يَضِرْني الـ ... ـعَمى فَماذا يَضيرُ؟

هلِ الضِّياءُ جميلٌ ... كما يقولُ البصيرُ

وهل هناك خَفاءٌ ... وهل هُناك ظُهورُ

وهل هناك سماءٌ ... فيها النجومُ تَدورُ

وهل إذا جاء فصلُ الرَّ ... بيعِ تَزهُو الزهورُ

وهل جميلٌ عليها الـ ... ـفَراشُ حين يَطيرُ

مَا لي غِنَىً عن جَوابٍ ... يا أُمُّ إنِّي ضَريرُ

هذه القصيدة تشبه قصيدة أخرى عذبة جداً مطلعها: (يا أم ما شكل السماء وما الضياء وما القمر)، وهي منسوبة إلى ولي الدين يكن، ولم أجدها في ديوانه، وإن وجدت له قصيدة رقيقة عن فتاة ضريرة

٣٦ مهنتي كشاعر

إنِّـــي امْـــرُؤٌ لا أَجْـــهَـــرُ إلَّا بِـــمـــا أنـــا أَشْـــعُـــرُ
إنَ نَـــابَـــنـــي شَـــرٌّ فَـــإِنِّـــ ـيَ مـــنـــهُ لا أَتَـــذَمَّـــرُ
أو جـــاءنـــي خـــيـــرٌ فـــلا أَغْـــتَـــرُّ مـــنـــه وأَبْـــطَـــرُ
ولـــقـــد قَـــنِـــعْـــتُ مـــنَ الـــطـــعَـــا مِ بِـــبُـــلْـــغَـــةٍ تَـــتَـــيَـــسَّـــرُ
لا كـــالـــذيـــنَ عـــلـــى طـــعـــا مٍ واحـــدٍ لـــم يـــصـــبِـــرُوا

قال العباس بن الأحنف «لكنني جربتكم فوجدتكم/ لا تصبرون على طعام واحد» يتهم محبوبته بأنها تواصل سواه

أو كـــالـــذيـــن إذا تـــغـــيَّـــ ـرَتِ الـــظُّـــروفُ تَـــغـــيَّـــروا
لـــيـــس الـــقـــريـــضُ بِـــطُـــولِـــه بـــل قـــد يـــفـــوقُ الأَقْـــصَـــرُ
وإذا شـــرعـــتُ بِـــنـــظـــمِـــه لِـــلـــذِّهْـــنِ فـــيـــه أَحْـــضُـــرُ
فـــإذا نـــظـــمـــتُ الـــبـــيـــتَ مـــنـــ ـهُ أُعـــيـــدُهُ وأُكَـــرِّرُ
وإذا رأيـــتُ الـــلـــفـــظَ لـــيـــ ـس كـــمـــا أَرُومُ أُغَـــيِّـــرُ
وأظـــلُّ أَصـــقُـــلُـــهُ إلـــى أنْ تـــســـتَـــقـــيـــمَ الأَشْـــطُـــرُ
مَـــا لِـــلأديـــبِ بِـــقُـــطْـــرِهِ فـــي الـــشـــرقِ قَـــدْرٌ يُـــذْكَـــرُ
ولـــقـــد يُـــصـــادِفُ عِـــزَّةً مِـــن بـــعـــدِمـــا هُـــوَ يُـــقْـــبَـــرُ
مِـــن بَـــعـــدِمـــا فـــي قَـــبـــرِهِ أَوْصَـــالُـــه تَـــتـــبـــعـــثَـــرُ..
مـــاذا مِـــن الـــتَّـــكـــريـــمِ يَـــرْ جُـــو مَـــيِّـــتٌ لا يَـــشـــعـــرُ؟

٣٧ في المغني عبد الوهاب

وَصَـــبَـــوْنـــا إلـــى الـــلـــقـــاءِ، ولـــكـــنْ حـــالَ دونَ الـــلـــقـــاءِ شَـــحْـــطُ الـــمَـــزارِ

شحط المزار: بُعد المكان

ولـقـد كـان صـوتُـكَ الـعَـذْبُ قَـبْـلاً فـي الـفُـنُـغْـرافِ مَـالِـئـاً كُـلَّ دارِ

الفونوغراف: البك أب، جهاز له إبرة تنسلط على قرص مخدد بأخدود لولبي دقيق في جوفه هضاب ووديان، ويدور القرص وتسير الإبرة صاعدة هابطة، وتنقل ذبذباتها إلى سماعة مكبرة مكهربة فتتحول الذبذبات إلى صوت. بهذه الطريقة الميكانيكة تمكن الإنسان لأول مرة في التاريخ من حفظ الصوت (يسمى القرص أسطوانة لأن المخترع إديسون أدار إبرته الأولى على أسطوانة، ١٨٧٧). ودخل الفونوغراف العالم العربي عام ١٩٠٤

فإذا ما رَفَعْتَ في مِصرَ صوتاً رَدَّدَتْهُ بقيَّةُ الأَمصارِ
إنَّ مَنْ لا يَهُزُّهُ منكَ لَحْنٌ حَجَرٌ جامدٌ مِن الأحجارِ

٣٨ أنا والمتعصبين

يا قومُ مَهلاً مُسلمٌ أنا مِثْلَكُمْ اللَّهَ ثم اللَّهَ في تَكفِيري

اللهَ: اتقوا الله

أَسَفِي على مُتَعَصِّبينَ تَأَلَّبُوا يَحْمُونَ حوضَ الجَهلِ بِالسَّاطُورِ

الساطور: سكين القصاب الكبير

ماذا عليَّ مِنَ الذي قد قلتُه أوَلَسْتُ حُرَّ الرأيِ والتفكيرِ
يا ظلمُ إن طالَتْ يدٌ لكَ بُرْهةً فالعدلُ ليس ذراعُهُ بِقصيرِ

٣٩ رثاء

قال في رثاء صديقه عبد الرحمن عميد آل جميل:

القلبُ مِنِّيَ مُضغةٌ والهَمُّ أكبرُ مِنْ ثَبيرِ

ثبير: جبل كبير.. يقع في قصائد القدماء

إنَّ اعتمادَ الأكثَريـ ـنَ على الحياةِ مِنَ الغُرورِ
ولقد رأيتُ مصيرَهُمْ فعرفتُ حينئذٍ مَصيري
أمَّا النساءُ فقد أقمْـ ـنَ مَناحةً حولَ السريرِ
يَلْدِمْنَ بِالأيدي هنا كَ على التَّرائِبِ والنُّحُورِ

يلدمن: يلطمن

يَندُبْنَ فقْدَ وَلِيِّهِنَّ وَضَيْعَةَ الحامي الكبيرِ
لم يبقَ في بَغدادَ، غيـ ـرَ الحزنِ، بَعْدَكَ مِن كَبيرِ

٤٠ منتهى العجز

وأرى بينَ الموتِ وَهْوَ أمامي وحياتِي في كلِّ يومٍ صِراعا
أمهَلَتْني الصُّروفُ حيناً من الدهـ ـرِ فلمَّا أتَيْنَ جِئْنَ سِراعا
وكأنِّي أرى حَفيري بِعيْني فاغِراً فَاهُ يبتغي لي ابْتِلاعا

وأرى أيْـدِيـاً تُـحـاوِلُ دَفـنـي ثـم إنِّـي لا أسـتـطـيـعُ دِفـاعـا

٤١ الروح

وإذا تصدَّعَ منكَ جسمُكَ للرَّدَى يوماً فَروُحُكَ مِثلَه تتصدَّعُ
والروحُ ليس سوى الحياةِ تَشارَكَتْ زُمَراً خلايا الجسمِ فيها أجمَعُ
هِيَ في الجمادِ خَفِيَّةٌ لِبساطَةٍ فيها، فلا تبدُو ولا تتفَرَّعُ

الروح لا تظهر في الجماد، ولا تتفرع أي لا تتكاثر الجمادات

أمَّا النَّباتُ فإنَّها مُنْحَطَّةٌ فيه فلا يَرنُو ولا يَتَسَمَّعُ

فلسفة الزهاوي ببساطة: الروح هي الحياة لا غير

٤٢ العقل والخلق

قد مَيَّزَتْكَ رَجاحَةٌ في العقلِ، والخُلُقُ الوسيعُ
وصنعتَ ما بلغَتْ يَدا كَ وحبَّذا منكَ الصنيعُ
والمرءُ ليس بِفاعِلٍ إلّا لِمَا هُوَ يستطيعُ

٤٣ يا رب

قرأتُ اسمَكَ المحمودَ في الليلِ والضُّحى إذِ الشمسُ تَستَخفي إذِ الشمسُ تَطْلُعُ
فأيقنتُ أنَّ الكونَ بِاللَّهِ قائمٌ وآمنتُ أن اللَّهَ لِلكونِ مُبدِعُ
وأنَّكَ مَعنىً والخَليقَةُ لَفْظَةٌ وأنَّكَ حُسْنٌ والطَّبيعَةُ بُرْقُعُ
أَيَذكُرُكَ الإنسانُ في العُسرِ جائعاً وينساكَ عندَ اليُسرِ إذْ هُوَ يَشبَعُ
تَعالَيْتَ أنتَ اللَّهُ مُقْتدراً فما يَضُرُّكَ نِسيانٌ ولا الذِّكرُ يَنفَعُ

٤٤ خرج ولم يعد

قد طَلَعَتْ في خَيْلَعِ فَيا لِحُسْنِ المَطْلَعِ

الخيلع: البلوز الحَفرُ، الذي بلا أكمام، وهو الخيعل أيضاً، وهو الإتْبُ والشَّوْذَر والقَرقَر والصِّدار والمِجول والشامال. وقال قوم السامال، وهو العِلْقَة. وهو عندنا اليوم الكطّ، مسمَّىً بالكلمة الأجنبية. وهو الحفْر، بتسمية الشيء بالمصدر كقولك حديد سَكْبٌ، وهذه أفصح من كل ما سبق، وقد ترى المرأة نزعت الكمين ولم تكتف بهذا فحفرت في قماش قميصها حفرتين أخريين كي تعرض علينا المزيد من لحم ترائبها، فالحفر على هذا كلمة مناسبة جداً

دعـنـي بِـحـسـنِ وجـهِـهـا ... لِـنـاظِـري أُمَـتِّـعِ
فـإنَّ عـيـنـي بـعـدُ مِـنْ ... رؤيـتِـهـا لـم تَـشـبَـعِ
ودِدتُ لـو أنّـي أرا ... هـا بِـعُـيـونٍ أربَـعِ
ذَهَـبْـتُ فـي حُـبّـي لِـلَـمْـ ... ـيـاءَ، ولَـمّـا أرجِـعِ

٤٥ المُزْبئِرّ

اِفتحُوا لِلفتى الهَضيمِ الطريقا ... فـلـقـد جاءَ يَـزْبَـئِـرُّ حَـنـيـقـا

الهضيم: النحيل، يزبئر: ينتفش ويتهيأ للصراع

رافِـعـاً رايـةَ الـتَّـمَـرُّدِ تَـهـفُـو ... حـامـلاً مِـن يَـراعِـهِ مَـنـجـنـيـقـا
لا يُـبـالـي مِـن بـعـدِ إدراكِـه الـثـأ ... رَ أَلاقَـى سَـلامـةً أم زُهُـوقـا
ذاكَ حُـرٌّ يَـأْبـى الـقَـبـولَ لِـضَـيْـم ... واثـقـاً فـي صـراعِـهِ أن يَـفُـوقـا
جـاءَ يـعـدُو لِـيـسـتَـرِدَّ بَـمـا أُو ... تِـيَ مِـن قُـوَّةِ الـجَـنـانِ الـحُـقـوقـا

الجنان: القلب

رُبَّ غِـرٍّ إذا عَـلا أَكْـمَـةً ظَـنَّـ ... ـغُـروراً أَنْ صَـافَـحَ الـعَـيُّـوقـا

أكْمة: الأكَمة التلّة، العيوق: نجم بعيد. ويزعم صديقي عمران القفيني أن ناسا تبحث عنه منذ أن سمعت به من الشعراء العرب.. دون جدوى

سَـيُـلاقـي الـبُـغـاةُ يـومـاً ثـقـيـلاً ... فـيـهِ لا يَـنـفـعُ الـصـديـقُ الـصـديـقـا
مـا يـزالُ الـهَـضـيـمُ يَـشـهَـقُ يَـأْسـاً ... ثـم لا يُـشـبِـهُ الـشـهـيـقُ الـشـهـيـقـا
أيـهـا الـدَّائِـسـونَ بِـالـرِّجْـلِ حَـقّـي ... لـيـس حَـقّـي بـأن يُـداسَ حَـقـيـقـا

حقيقاً: مستحقاً

يـحزنُ العَندليبُ أن يَـجِـدَ الـجَـوَّ ... جـمـيـلاً ولا يَـكـونُ طَـلـيـقـا
قُـلْ لِـمَـنْ أَحْـفَـظَـتْـهُ زَنـدقـةٌ لـي ... سـيـدي أنـتَ لا تـكـنْ زِنـديـقـا

أحفظته: أغضبته

ذاك أمـرٌ لـه مَـسـاسٌ بِـنـفـسـي ... فَـمِـنَ الـحُـمْـقِ أن تـكـونَ حَـنـيـقـا
وَهُـوَ الـعِـلـمُ لا يـقـولُ بـمـا لـم ... تـأتِ فـيـه الـعـيـونُ فـحـصـاً دقـيـقـا
وَهُـوَ الـعِـلـمُ شَـكَّ فـي حِـسِّ مَـيْـتٍ ... مَـزَّقَـتْـهُ أيـدي الـبِـلَـى تـمـزيـقـا

البلى: اهتراؤنا بعد إذ نموت

إنَّني مُؤمِنٌ، على الشكِّ مِنِّي ومِنَ اللَّهِ أطلبُ التَّوفيقا
حيثُما ألتَفِتْ أُشاهِدْ بِعيني ساحِقاً في الحياةِ أو مَسحوقا
وإذا نِمتُ في قَرارةِ رَمْسي فمِنَ الخيرِ الجَمِّ ألَّا أُفيقا
حَبَّذا جنةٌ سَتَشربُ فيها لبناً طابَ طعمُه ورَحيقا
وهناك الحُورُ الحِسانُ يُقَعْقِعْـ ـنَ حَوالَيْكَ الكأسَ والإبريقا
إنني لا أَلْتَذُّ إلَّا بدنيا يَ، وإنْ لم أكنْ بها مَرزوقا
وإذا اليأسُ كَظَّ نفسي فضاقتْ منهُ فَرَّجْتُ بِالخيالِ الضِّيقا

كظ: ملأ

٤٦ المملوكة

لقد أضاعتْ عندَه مِنَ الحياةِ حقَّها
فهل تزوجتْ به أمْ مَلَّكتْهُ رِقَّها
يَسُومُها الخَسْفَ، فإنْ تَذَمَّرَتْ طَلَّقَها

يسومها الخسف: يظلمها

٤٧ الحياة حريق

يُودِي الفَتى مِن حيثُ يَسْلَمُ غيرُه ما لِلسَّلامَةِ مَنهَجٌ مَطروقُ

يودي: يموت

الكونُ بحرٌ مِن لهيبٍ لاهِبٍ والناسُ فيه سابحٌ وغريقُ
في كل حيٍّ شُعلةٌ مِن نارِهِ فكأنَّما هذي الحياةُ حَريقُ

٤٨ في السياق

إنَّ أعدائي في العراقِ كثيرٌ كلُّهُمْ فيه آخِذٌ بِخِناقي
سأُوَلِّي رُبوعَ بغدادَ ظَهري تاركاً خيرَها لأِهلِ النفاقِ
أصلحَ اللَّهُ ثُلَّةً شَتموني وأَطالُوا في مَوطِني إرهاقي
ليس قَصدِي ممَّا ذكرتُ عتاباً غيرَ أنِّي أوردتُه في السِّياقِ

هذا البيت الأخير تحفة في الخفة واقتناص النكتة

٤٩ الجامعة البائدة

قد أَمَمْنا المُسْتَنصِرِيَّةَ صُبْحاً — فوجدْناها أَرْسُماً وطُلولا
وكِلانا يا معهدَ العِلم مُبْدٍ — جسداً ناحلاً وجسماً عليلا
قد لَعَمري أمستْ عليكَ الليالي — وعَلَيَّ الحياةُ عِبئاً ثقيلا
أيها المعهدُ الجليلُ سلامٌ — ليس ما قد قاسيتَ شيئاً قليلا

٥٠ تأمُّل

ينسب كتاب إبراهيم الدروبي «البغداديون وأخبارهم ومجالسهم» هذه الأبيات إلى والد الزهاوي. ويقول إبراهيم المازني في مقال له عن شاعرنا إن الزهاوي نفسه أسمعه هذه الأبيات ـ وفيها ما يشير إلى بلوغ صاحبها التسعين ـ وهو ببغداد، ويزعم المازني أن الزهاوي أسن بكثير مما هو مرقوم في كتاب رفائيل بُطي من أنه مولود عام ١٨٦٣. ونظرة إلى ما توفر لنا من صور الزهاوي تجعلنا نرى في افتراض المازني بعض الوجاهة، ويقول الزيات عن أول لقاء له بالزهاوي إنه وجد أمامه شيخاً في حوالي الثمانين، وكان عمر الزهاوي عندما التقاه الزيات في عام ١٩٣٠ سبعة وستين عاماً بحسب رفائيل بطي.

وليس يعني ورود «التسعين» في القصيدة أن الزهاوي يتحدث عن نفسه:

بانَ لي في المرآةِ شيخٌ كبيرٌ — عاشَ حتَّى تَعرَّفَ الأحوالا
قلتُ كم عِشْتَ قالَ تِسعينَ عاماً — قلتُ ماذا فعلتَ فيها فقالا:
أَكَلاتٌ دفعتُها فَضَلاتٍ — وشُروباً أَرَقْتُها أَبْوالا
وثياباً لبستُها فاخِراتٍ — جُدداً وانتَزَعْتُها أسمالا
كلُّ شيءٍ مع الجَديدَيْنِ يَفْنَى — ثم يبقَى جلالُ رَبِّي تَعالى

الجديدان: الليل والنهار، فهما يتجددان دوماً ويبليان كل شيء

٥١ مقالة

في الغربِ حيثُ كِلا الجنسيْنِ يشتغِلُ — لا يَفْضُلُ المرأةَ المِقدامَةَ الرجلُ
كِلا القرينَيْنِ معتزٌّ بصاحبِه — عليه إن نالَ منه العجزُ يَتَّكِلُ
وقد يُطلِّقُها أو قد تطلِّقُه — إذا قضَى بالطلاقِ الكُرْهُ والمَلَلُ
أمّا العراقُ ففيه الأمرُ مختلِفٌ — فقد ألمَّ بنصفِ الأمّةِ الشللُ
وقد يُطلِّقُها في حانةٍ ثَمِلاً — وليس تَدرِي لماذا طَلَّقَ الثَّمِلُ
كم قد تزوجَ ذو الستينَ يافِعَةً — والشيبُ في رأسِه كالنارِ يشتعلُ

يقضي لُبانَتَه منها إلى أجلٍ ... وقد يكونُ قصيراً ذلك الأجلُ
ولم تكنْ أَرْبَعٌ يُشبِعْنَ نَهْمَتَهُ ... والذئبُ يُشبِعُه مِن جُوعِه حَمَلُ

٥٢ المصير

تَؤُولُ حَياتِيَ بعد الرَّدَى ... ولكنْ إلى أيِّ شيءٍ تَؤُولُ؟
أَسيرُ بِليلٍ مِن الشكِّ دَاجٍ ... على ضَوْءِ عقلِيَ، وَهْوَ ضئيلُ

داجٍ: مظلم

سيبقى شقائي بقاءَ حَياتي ... فإن هِيَ زالتْ فهذا يزولُ
وإنِّي على كَبْرتي هذه ... أَوَدُّ لو اَنَّ حياتي تَطولُ

٥٣ بيروت الأمل

لولا تفاقُمُ شرٍّ ليس يُحتَملُ ... ما كنتُ عن وطني بَغدادَ أرتَحِلُ
قد كفَّرُوني لأَنِّي في مجالِسِهِمْ ... على الحقيقةِ إمَّا قُلتُ أَتَّكِلُ

إمَّا قلت: كلما تكلمت

اليأسُ بالأمسِ مِن بغدادَ أخرَجَني ... واليومَ جاءَ إلى بيروتَ بي الأملُ

٥٤ المستبدّ

فيا وَيْحَ قومٍ فوَّضُوا أمرَ نفسِهِمْ ... إلى مَلِكٍ عن فِعلِه ليس يُسأَلُ
وذي سُلطةٍ لا يرتَضِي رأيَ غيرِه ... إذا قالَ قولاً فَهْوَ لا يتبَدَّلُ
أيأمُرُ ظِلُّ اللّهِ في أرضِه بما ... نَهَى اللّهُ عنه والكتابُ المنزَّلُ
فيُفْقِرُ ذا مالٍ ويَنفي مُبَرَّأً ... ويسجُنُ مظلوماً ويسبي ويَقتلُ
تمهلْ قليلاً لا تُغِظْ أمَّةً إذا ... تأجَّجَ فيها الغيظُ لا تتمهَّلُ
وأَيديكَ إن طالَتْ فلا تغتَرِرْ بها ... فإن يدَ الأيامِ مِنهُنَّ أَطْوَلُ

٥٥ التعايش مع المرض

ساكِتٌ أنتَ والأعادي تقولُ ... ومُضِرٌّ بكَ السكوتُ الطويلُ
أين ذاك الشعرُ الرقيقُ المُنَقَّى ... أين ذاك النثرُ النفيسُ الجميلُ

لكَ في الذَّبِّ مِن لِسانِكَ سيفٌ شهِدَ اللّهُ إنَّهُ مَصقُولُ

الذبُّ: الدفاع

القَوافِي، يا شاعرَ العصرِ فانظِمْ، بينَ أيْديكَ واقِفاتٌ مُثولُ
إن تُسالِمْ بِها فتِلْكَ أغانٍ أو تحارِبْ بِها فتِلْكَ نُصولُ
أيها اللائِمي على الصمتِ إيهاً أوَمَا قد دَرَيْتَ أنِّي عليلُ
قبلَ عِشرينَ حِجَّةً جاءَ داءٌ نازلاً بي، وذاكَ ضيفٌ ثقيلُ
هُوَ داءٌ مَبيتُه في نُخاعِي إن داءَ النُّخاعِ داءٌ وَبيلُ

كان الزهاوي مضطرب الأعصاب شديد النحول، وألم به مرض في النخاع الشوكي وهو في الخامسة والعشرين

فتَهاوَنْتُ في البِداياتِ فيه راجِياً أنَّ وَطْأَهُ سيَزُولُ
فمضتْ تِلْكُمُ السِّنونَ ودَائي ذلكَ الداءُ نفسُه لا يَحُولُ
وتَداوَيْتُ عند كلِّ طبيبٍ ونصيبي مِنَ التَّداوي نُحولُ
كنتُ في أوَّلي أُقاوِيهِ حتى خارَ جِسمي فقلتُ صبراً «جميلُ»

الصبر الجميل: الصبر الكبير، و«جميل» هو اسم الشاعر

ثم صافَحْتُهُ أدارِيهِ باللِّيـ ـنِ كما صَافحَ الخَليلَ الخَليلُ

٥٦ رثاء العروبيين

قال الزهاوي في رثاء نحو أربعين رجلاً شنقهم جمال باشا في بيروت ودمشق بين ١٩١٥ و١٩١٧ لتخليهم عن الدولة العثمانية وسعيهم للاستقلال في سنوات الحرب العالمية الأولى:

على كل عودٍ صاحبٌ وخليلُ وفي كلِّ بيتٍ رَنَّةٌ وعويلُ

رنة: نواح

وفي كلِّ عينٍ عَبْرةٌ مُهَراقَةٌ وفي كلِّ قلبٍ حَسرةٌ وغليلُ

غليل: غيظ

كأنَّ وجوهَ القومِ فوقَ جُذُوعِهِمْ نجومُ سماءٍ في الصباحِ أُفولُ
دَنَوْا فَرَقُوها واحداً بعد واحدٍ وقالوا وَجيزاً ليس فيه فُضولُ

اقتربوا ورقوا، أي صعدوا، سُدَّة المشنقة وكانت لكل منهم عبارة قصيرة

ولـلّـهِ مـا كـانـوا يُـحِـسُّـونَ مِـن أذىً   إذِ الأرضُ تَـنـأى تـحـتَـهُـمْ وتَـزُولُ
سَـرَتْ روحُـهُـمْ تَطوي السماءَ لِربِّها   ومـا غـيـرَ ضَـوْءِ الـفَـرقَـدَيْـنِ دلـيـلُ
ولـلّـهِ عـيـدانٌ مِـن الـلـيـلِ أثْـمـرتْ   رجـالاً عـلـيـهِـمْ هَـيْـبـةٌ وقَـبُـولُ

لله أمر هذه الأعواد الخشبية التي كأنها أغصان لها ثمر هو أولئك الرجال الذين شنقوا عليها

ويـا لَـكَ مِـنْ رُزْءٍ حَـمِـدْتُ له الـبُـكـا   وقَـبَّـحْـتُ فـيـه الـصـبـرَ وَهْـوَ جـمـيـلُ

هذا رزء، مصيبة، يحسن فيه البكاء ويقبح الصبر

فـمـا رَدَّ عـنـهُـمْ بِـالـشَّـفـاعَـةِ عُـصْـبـةٌ   ولا ذَبَّ عـنـهُـمْ بِـالـسـلاحِ قَـبـيِـلُ

ذب عنهم: دافع

لَـعَـمْـرُكَ لـيـس الأمـرُ ذنـبـاً أصـابَـه   قِـصـاصٌ، ولـكـنْ يَـعْـرُبٌ ومَـغُـولُ

المسألة ليست عقاباً على ذنب ارتكبوه، بل هو الصراع بين العرب والمغول، أي الأتراك ذوي الأصول الآسيوية

وإنِّي على ما بي مِنَ الحَرِّ والصَّدَى   لَأَنْـظُـرُ مـاءً مـا إلـيـهِ سـبـيـلُ

الصدى: العطش

أفكِّرُ في الـمـاضـي فـيـأتـي خَـيـالُـه   جـمـيـلاً أمـامَ الـعـيـنِ ثـم يـزولُ

كان الزهاوي منعَّماً في ظل الدولة العثمانية، ولكنه يرى الآن تفككها، ويرى قومه العرب يريدون الاستقلال.. وكان الزهاوي سريع الانصراف عن ولائه العثماني، بخلاف زميله معروف الرصافي الذي ظل على هذا الولاء زمناً وانتقده الناس لأنه لم يتحرك لشنق الوطنيين، لقد رأى أنهم خانوا الدولة في وقت محنتها

أَبـعْـدَ بـنـي قَـومـي أُنَـهْـنِـهُ عَـبْـرَتـي   وأمـنـعُـهـا؟ إنِّـي إذن لَـبـخـيـلُ

أنهنه عبرتي: أحبس دمعتي

قد اسوَدَّ لـيـلُ الـظـلـمِ حتى كأنَّـه   سِـتارٌ على الأرضِ الفضاءِ سَدِيلُ
ويـا لَـكَ مِـن لـيـلٍ يَـرُوعُ كـأنَّـمـا   بِـكُـلِّ مـكـانٍ مـنـه يَـرقُـبُ غُـولُ

٥٧ حيرة

لستُ أدري ما غَايَتي مِن حياتي   ما وُجودي، ما مبدَئي ما مَآلي
وإذا ما قلبي عَصَى حُكْمَ عقلي   لم يُفِدْ مَنطقي ولا استدلالي
خَطَلي بعد أن ضَلَلْتُ سبيلي   هُوَ أنِّي أرى الهُدى في ضَلالي

خطلي: حمقي

٥٨ انهيار الشعر

قد انْهارَ صَرحُ الشِّعرِ إلَّا أقلَّهُ وقد كانَ مِلءَ العينِ كالجَبلِ العالي
لقد ظلَّ هذا الشعرُ خمسينَ حِجَّةً يُهذِّبُ أقوالِي ويُصلِحُ أعمالي
نشأتُ على استقلالِ نفسٍ تمرَّدتْ فلا أرتضِي نَسجاً على غيرِ مِنوالِي

٥٩ مؤمن نصف إيمان

أنا في حياتيَ ما كذبْـ ـتُ لِنَيْلِ شيءٍ ليس لي
أنا ما كفرتُ بكلِّ عُمـ ـريَ بالكتابِ المُنزَلِ
أنا لم أَزَلْ أشدُو بِنعـ ـتِ للنبيِّ المرسَلِ
أنا لستُ بالمسؤولِ عن نَزَوَاتِ عقلٍ مُبْطِلِ
ما زالَ يُبدِي رأيَه سألوهُ أم لم يُسألِ
قد شاءَ عقلِي بعدَ تفـ ـكيرٍ وطُولِ تأمُّلِ
بِاللَّهِ حَلَّ المشكلا تِ، فَكانَ أكبرَ مُشكلِ

أراد عقلي أن يحل مشكلة الوجود بإرجاع كل أمر إلى الله، فكانت فكرة الله أكبر مشكلة

ما ضَرَّنا لو ظَلَّ هـ ـذا الكونُ غيرَ مُعَلَّلِ؟

بالله نعلل هذا الكون فهو السبب والمسبب، ولكن ماذا يضيرنا إن ظل الكون بلا تعليل؟

الكونُ ماضِيهِ يعُو دُ بِنا إلى المستقبَلِ
وتعودُ هذي الأرضُ بعـ ـدَ خرابِها كالأوَّلِ
ونعودُ نَحيا مثلَما كنَّا بِغيرِ تبَدُّلِ
ونموتُ ثم نعودُ في أدوارِها بِتَسلسُلِ
كذبَ الذي قد قال إنَّـ ـالقبرَ آخرُ منزِلِ
هذا لَعَمْرِي ما يرى عقلِي بوجهٍ مُجمَلِ

عقله يقول له إن المرء يموت ثم تنتشر مكوناته ثم يخلق منها خلق جديد، فليس ثَمَّة فناء

أمَّا الضميرُ فقائلٌ لِي بالحِجا لا تَحْفِلِ

يقول له ضميره، أي قلبه، لا تحفل بالعقل ولا تهتم بما استنتجه

الدِّينُ مَعْقِلُ أهلِه والدينُ أمنَعُ معقِلِ

وأخافُ ناراً في الجحيـ ـمِ بها الأثيمُ سيصطلي
أما الصِّراطُ فإنَّه فوق الجحيمِ كمُنْصُلِ

المنصل: السيف

لا يأمنُ الماشي بأر جُلِهِ سُقوطاً مِن عَلِ
إلّا إذا عبرَ الصِّرا طَ على أغرَّ مُحَجَّلِ

أغر محجل: فرس له غرة وبياض في أسفل قوائمه

أو فوقَ كَبْشٍ قَرْنُه في رأسِه كالمِعْوَلِ
يا ربِّ، حينَ أجُوزُه مَشياً، عليكَ تَوكُّلي
صَعْبٌ عليَّ عبورُه يا ربِّ ثَبِّتْ أرجُلي

٦٠ الحمار والجزرة

ولستُ مِن الموتِ ذا خَشيةٍ وإن كان حين يُلِمُّ زُؤَاما

الموت الزؤام: السريع

ولكنَّ حَشْوَ الحياةِ مُنىً تُحَبِّبُها لِيَ عاماً فعاما
لقد عشتُ عُمراً أؤَمِّلُ أن تُميطَ الحقيقةُ عنها اللِّثاما
ولمَّا أبَتْ أن تُميطَ اللِّثا مَ باتَتْ شُكوكي رُكاماً رُكاما

٦١ الاستقلال

عِشْ هكذا في عُلُوٍّ أيها العَلَمُ فإنَّنا بكَ بعدَ اللهِ نَعتصِمُ
عِشْ لِلعروبةِ، عِشْ لِلهاتِفينَ لها عِشْ لِلألى في العراقِ اليومَ قد حَكَمُوا
عِشْ خافِقاً في الأعالي لِلبقاءِ، وثِقْ بأنْ تُؤَيِّدَكَ الأحزابُ كُلُّهُمُ
كأنَّما الناسُ في بغدادَ إذْ هَتَفُوا بَحرٌ خِضَمٌّ به الأمواجُ تَلتَطِمُ
إنَّ العيونَ قَريراتٌ بِما شهِدتْ والقلبُ يفرحُ والآمالُ تَبتسِمُ
هذا الهُتافُ الذي يعلُو فتَسْمَعُه جميعُه لَكَ فاسلَمْ أيها العَلَمُ

٦٢ شاكٌّ ظانٌّ

يُسائِلُني عن مذهبي وعقيدتي فريقٌ مِن الأشياخِ ما أنا مِنهُمُ

فقلتُ لهُمْ أمَّا السؤالُ فبَارِدٌ وأما جوابي فَهْوَ أنِّيَ مُسلِمُ
ولكنني ما كنتُ يوماً مقلِّداً يرى أن حُكمَ العقلِ في الدينِ مَأْثَمُ
فما القلبُ منِّي بِالسخافاتِ مُولَعٌ ولا الرأسُ منِّي بِالخرافاتِ مُفْعَمُ
ولم أَكُ يوماً بالإصابةِ واثِقاً فإنِّيَ في داجٍ مِن الليلِ أَرْجُمُ

أرجم: ألقي بالظنون

٦٣ أصابني ما أصابك

قد قلتَ «حقاً» فلم تقبَلْهُ أذهانُ وحاربَتْكَ سياساتٌ وأديانُ

فأنتَ مِن بعدِ إنكارِ الجميعِ «له» شَهرتَه فَهْوَ مثلَ السيفِ عُريانُ

بعد إنكار الجميع للحق شهرتَه وأبرزته

وكنتَ أنتَ البصيرَ الفردَ يومئذٍ وحولَكَ الناسُ كلُّ الناسِ عُميانُ
تَخِذْتَ بيتَكَ سِجناً ثانياً فَغَدا وأنتَ فيه سجينٌ ثُمَّ سَجَّانُ

وألجأ عوامٌّ بغداد الزهاوي مرة إلى بيته لا يجرؤ يخرج منه لما سمعوه من بعض المتشددين عن انحراف شاعرنا عن الدين

الشرقُ ما زالَ يَحْبُو وهْوَ مُغتَمِضٌ والغربُ يركضُ وَثْباً وهْوَ يَقظانُ
الغربُ يَشغَلُهُ مالٌ ومَتْرَبَةٌ والشرقُ يَشغَلُهُ كفرٌ وإيمانُ

الغرب منشغل بالمال وبالمتربة، بقضايا الفقر

أصابَنِي في زمانِي ما أصابَكَ مِن حَيْفٍ فما رَدَّ هذا الحيفَ إِنسانُ

٦٤ يا ضيعة الشعر

مَسروقَةٌ كلُّها تلكَ المَضامينُ وليس منها لهم إلَّا العَناوينُ
لقد أهانَكَ مِنهُمْ غيرُ ذي أَدَبٍ يا شِعْرُ إِنِّي عليكَ اليوم محزونُ
قد يفضُلُ البيتُ ديواناً بِرُمَّتِه وقد تُقصِّرُ عن بيتٍ دواوينُ

٦٥ في مدح النبي

قالوا امتَدِحْ فخرَ البَرِيَّةِ أحمَدا بقصيدةٍ تشدو بِرِفعَةِ شَانِهِ
فأجبتُهُمْ ماذا أقولُ بِمدحِ مَنْ أَثنَى عليهِ اللّهُ في فُرقانِهِ

مَنْ ذا أنـا حـتـى أقـومَ بـمـدحِـه بـل أيـنَ شِـعـري مِـن عُـلُـوِّ مـكـانِـه
كـم قـد رَدَدْتُ الـشـعـرَ عـنـهُ قـائـلاً هـذا مـجـالٌ لـسـتُ مِـن فُـرسـانِـه

٦٦ المسبة والبرهان

إليكِ يا نفسُ عنِّي لا تلوميني إن المَلامَ على ما جئتُ يُؤذِيني
يا نفسُ لومُكِ هذا مُكثِرٌ شَجني أليس ما بي مِن الأشجانِ يَكفيني
نَـشـرتُ لِـلـقـومِ آراءً أريـدُ بـهـا إصلاحَ دُنياهُمُ لا الطَّعْنَ في الدِّينِ
فـإنْ أصَـبْـتُ فـهـذا نـافـعٌ حـسـنٌ أو كنتُ أخطأتُ فيها فَلْيَرُدُّوني
رَدُّوا بِسَبِّي على ما خَطَّهُ قلمي كأنَّما السَّبُّ مِن بعضِ البَراهينِ
إنَّ الأَكُـفَّ الـتـي قـد كـنـتُ آمُـلُـهـا لـلـذَّوْدِ صَـارتْ مَـع الأيـامِ تَـرمـيـنـي

للذود: للدفاع

أَمْسَتْ رماحُ بني عَمِّي وقد غَضِبوا تنوشُ جِسمي وكانتْ شُرَّعاً دُوني

صارت رماح قومي تنوش جسمي، تصيبه وتؤذيه، وكانت مرفوعة مشرعة دوني، للدفاع عني

لـلـجـهـلِ حَـقٌّ رُعَـاةُ الـجـهـلِ تَـضْـمَـنُـه لـهُ، ولِـلـعـلـمِ حَـقٌّ غـيـرُ مَـضـمُـونِ
قُمْ مِن ضَريحِكَ يا مَأْمونُ واشْكُ إلى أبيكَ حامي ذِمارِ الشِّعرِ هارونِ

قم أيها الخليفة المأمون يا ناصر العلوم، وارفع الشكوى إلى أبيك هارون الرشيد الذي كان يحمي ذمار الشعر، والذمار هي الأعراض والأملاك، وذمار الشعر.. حماه

وقُـلْ عَـنـادِلُ بَـغـدادٍ قـد اكـتَـأَبَـتْ على المعالي فَماتَتْ في البَساتينِ
إلَّا شَـقِـيَّـيـنِ: هـذا طـارَ مُـرتَـحِـلاً وذا أَقـامَ طَـريـداً لِـلـشَّـواهـيـنِ

ارتحل الشاعر معروف الرصافي، وكانت في دينه رقة كتلك التي في دين الزهاوي، عن بغداد في العشرينات فاراً بآرائه السياسية والفكرية فمكث في بيروت قليلاً ثم توجه إلى القدس فعمل في التدريس. وأقام الزهاوي ببغداد والشواهين، الطيور الكاسرة، تطارده.. وسيفر الزهاوي إلى بيروت فمصر وسيعود.. وسيعود الرصافي أيضاً. الحال لم تتغير بالمناسبة. ولن تجد في العالم العربي اليوم ـ وأكتب في يناير ٢٠١٧ ـ أحداً يقول نصف ما قاله شاعرا العراق. فأما في المهجر فتجد كثيرين

لـهُ بِـبَـغـدادَ عُـشٌّ لا يُـفـارِقُـهُ بَـنـاهُ فـي دَوْحِـهـا بـيـنَ الأَفـانـيـنِ

الدوح: الشجرة، الأفانين: الأغصان

وقـد يُـغـرِّدُ فـي الـوادي عـلـى وَجَـلٍ مُـرَفْـرِفـاً فـوقَ أوراقِ الـرَّيـاحـيـنِ

٦٧ رثاء أحمد شوقي

خَرَّتْ لِعِزَّةِ شِعرِكِ الشُّعَراءُ فكأنَّهُمْ أرضٌ وأنتَ سَماءُ
يا رَاحِلِينَ لِغَيْرِ عَوْدٍ إنَّنا لا نستطيعُ فِراقَكُمْ فَخُذُونا
سِيرُوا خِفافاً إن أردْتُمْ أو قِفُوا إنَّا على آثارِكُمْ آتُونا

* * *

مِنْ بعدِ دُرٍّ كنتَ تنظِمُ عِقْدَهُ بَرَزَتْ تُريدُ لِتَلْمَعَ الحَصْبَاءُ
عَجَّلْتَ في التَّرَحَالِ يا شَوقِي وقد بَقِيَتْ هَنالِكَ، لم تُقَلْ أشياءُ

القصيدة ملونة القوافي

الأبيات فيما سيلي من شعر الزهاوي منتخبة من ديوان له لم ينشره في حياته، بل تركه كي ينشر بعد موته، لما فيه من أبيات فلسفية قاسية لا يحتملها الناس. وقد نشر هذا الديوان، واسمه «النزغات» أي وساوس الشيطان، الأديب العراقي هلال ناجي، وأبدل كلمات معينة بنقاط بقدر عدد حروف الكلمة المبدلة.. ونحن نصنع صنيعه حتى لا نؤذي مشاعر من مشاعره رقيقة. وقد أشار الزهاوي نفسه إلى ديوان النزغات المخطوط في مقدمة ديوانه المطبوع بمصر عام ١٩٢٤

٦٨ دع المحال

دعِ المُحَالَ وكَلِّمْ بِلَهجَةِ المُستَدِلِّ

دع المحال، المستحيل قبوله عقلاً، وكلمني بلهجة المستدل، أي الذي يقدم دليلاً على كلامه

ما كنتُ أقبَلُ إلَّا ما ليس يأباهُ عقلي

٦٩ الخفاء والظهور

هذهِ الدنيا دارُ كلِّ جَزاءٍ فَهْيَ للناسِ جَنَّةٌ وسَعيرُ
ولقد يُعْقِبُ الظهورَ خَفاءٌ ثم لا يُعقِبُ الخَفاءَ ظُهورُ

٧٠ الترهيب

لا تَخَفْ بعدَ المنايا مِنْ عذابٍ وشَقاءِ
إنَّ ما قالُوهُ تَرهيـ ـبٌ لِناسٍ بُسَطاءِ

٧١ الصلاة

الـخـمْـسُ مِـن صَـلَـواتـيِ عِـبْءٌ عـلـيَّ ثَـقـيـلُ
أَمَـا لِإِرضـاءِ رَبِّـي غـيـرَ الـصَّـلاةِ سَـبـيـلُ؟

٧٢ الدليل

قـالـوا سَـنَـحـيـا جـمـيـعـاً بـعـدَ الـرَّدَى خـالِـديـنـا
فـقـلـتُ: هـاتُـوا دلـيـلاً إن كـنـتُـمُ صـادقـيـنـا

٧٣ أين الدليل؟

فـكـرتُ فـي كـل شـيءٍ مِـن حـادِثٍ وقـديـمِ
فـلـمْ أُشـاهِـدْ دلـيـلاً عـلـى (...) حـكـيـمِ

٧٤ المسير

أنـا لـو كـنـتُ مُـخـتـاراً لَـمَـا جـئـتُ إلـى الـدنـيـا
وأكـبـرُ سَـلْـوَتـيِ أَنِّـيَ بـعـدَ الـمـوتِ لا أحـيـا

٧٥ التجديد

إنَّ ديـنَ الـخَـلَـفِ مِـن تُـراثِ الـسـلـفِ
وهُـوَ الـيـومَ بِـحَـاجَـاتِـهِـمْ لـيـسَ يَـفـي

٧٦ قد بُحتَ الآن

مَـا عـلـى كُـفـرِيَ عـنـدَ خُـصـومـي سَـنَـدُ
أنـا مـا بُـحْـتُ لَـهُـمْ بِـالـذي أعـتَـقِـدُ

٧٧ قد تزندقت لكن غير متعمد

ولا تَحْسَبَنِّي قد تَزَنْدَقْتُ عامِداً لأُحْرِزَ مُكْثاً في جهنَّمَ خالدا
ولكنَّنِي لم أَقتَنِعْ بِكلامِهِمْ فأصبحتُ مِن جَرَّاءِ ذلكَ جاحِدا

٧٨ مشكلة أكبر

لما جهلتَ مِن الحقيقةِ أمرَها وأقمتَ نفسَكَ في مقامِ مُعَلِّلِ
أثبتَّ (...) تبتَغي حَلَّاً بِهِ لِلمُشكلاتِ، فكانَ أكبَرَ مُشْكِلِ

٧٩ الجنة والسعير

يرجُو أُناسٌ أن ينالُوا بعدَما يَعثُو الرَّدَى فيهِمْ وِصالَ الحُورِ

يعثو: يفسد

أو يُبْصِرُوا في العالَمِ المَستورِ ما لم يُبْصِرُوا في العالَمِ المنظورِ
أمَّا أنا فإِخَالُني في هَذهِ الدُّ ـنيا مُلَاقِيَ جَنَّتي وسَعيري

٨٠ غير واثق

توقفتُ لا أدري تِجاهَ الحَقائِقِ أَأَنّي خلقتُ (....) أم هُوَ خَالقي
لئِنْ وَثِقَ الجمهورُ (......) خالِقاً فرُبَّ حَكيمٍ بينَهُمْ غيرُ واثِقِ
أأكفُرُ لَمَّا شاءَ لي الكفرَ سَاعةً وأَخلُدُ في النيرانِ غيرَ مُفارِقِ

٨١ المستريب

إلى (....) أشكو أنني منه في رَيْبِ تمكَّنَ مِنِّي في شبابي وفي شيْبي
إذا كانَ هذا فيَّ عَيباً يَشينُني فإِنّي بإِقرَاري أَدُلُّ على عَيْبي
ومَا رَابَني (..) الشهادةِ وحدَها ولكنَّما (..) الشَّهادَةِ والغَيْبِ

هذا البيت الأخير فيه فوق الزندقة مجون

٨٢ اقتناص فرصة

قَالُوا بَأنَّ (......) حَيٌّ لهُ على عرشِهِ ثُبوتُ
فقلتُ ما (....) غيرَ وَهْمٍ أكبَرَهُ الوصفُ والنُّعوتُ
إنْ حَيِيَ العِلمُ في أُناسٍ (......) مِنْ ذاتِهِ يَموتُ
أَوْسَعَني المؤمنونَ سَبَّاً فكانَ بي يَحْسُنُ السكوتُ
لكنَّني قُلتُها لِأنّي حسِبْتُها فُرصَةً تَفُوتُ

٨٣ أهل الديانات السماوية

إنَّ اليهودَ أصابُوا مِنَ التِّجارةِ مالا
وللنَّصارَى مكانٌ مِن الرُّقِيِّ تَعالى
والمسلمونَ تَراهُمْ بِكلِّ أرضٍ كُسَالى

٨٤ خالق الناس والطاعون

ما ذَكَرْتُ (....) ذا إلّا ـ تَذكَّرْتُ جَحيما
ليسَ (..) الناسِ لِلنا سِ كما قالوا رحيما
خَلَقَ الطَّاعونَ والهَيْـ ـضَةَ والسِّلَّ الأَليِمَا

الهيضة: الكوليرا

٨٥ محنة الإنسان

جاءَ ولم يَدْرِ السببْ وَهْوَ كما جاءَ ذَهَبْ
جِيءَ بِهِ إلى الوُجُو دِ، وهْوَ قَطُّ ما طَلَبْ
وقَيَّدُوهُ بِالحَلا لِ والحرامِ والأَدَبْ

٨٦ عتاب

الناسُ إِمَّا غَنَمٌ سَارِحٌ ليس له حولٌ، وإمَّا ذِئابْ
ليس على الذئبِ إذا ما جَنَى يُزيلُ جُوعَ بطنِهِ مِنْ عِقابْ
بل إنَّما العَتْبُ على بَارِئٍ قد سَلَّحَ الذئبَ بِظُفْرٍ ونَابْ

٨٧ النعيم الدنيوي

ما الناسُ إلّا نَباتٌ يحورُ بَعْدُ هَشِيما
فلا تَخافَنَّ يوماً قِيامَةً وجَحيما
ولا صراطاً كما يَذْ كُرونَهُ مُستقِيما
وفي حياتِكَ فانْعَمْ إذا أردتَ نَعيما

٨٨ استغفار

أتَى غيرَ مُختارٍ وفَارَقَ مُضْطَرَّا ولم يَكُ لَمَّا عاشَ في نفسِه حُرَّا

تَرَأَّفْ ولا تقذِفْ بِنارِ جَهَنَّمٍ فتىً غيرَ مُسطيعٍ على حَرِّها صَبْرا

إذا لم تكُنْ دارٌ يُجازَى بِها الفَتى تَساوَى إِذَنْ مَن يَفعَلُ الخيرَ والشَّرَّا

لقد قلتُ قولاً بَاطِلاً بِجَهالَةٍ وأَلحَدْتُ فَاللَّهُمَّ يا خَالِقي غُفْرا

٨٩ الدين والحجاب

لقد جَهِلُوا الإسلامَ كلَّ جَهالَةٍ فآذَوْهُ ذَمَّاً شَأْنَ مَن ليس يَفْهَمُ

وقالوا بَنَى الإسلامُ عُمرانَ أهلِهِ زماناً، وأمَّا اليومَ فَهْوَ يُهَدِّمُ

وعَدُّوا مِن الأسبابِ، وَهْيَ كثيرةٌ لَديْهِمْ، حِجابَ المسلماتِ وأَعْظَمُوا

وليسَ مِنَ الدينِ الحِجابُ لو انَّنا رجعْنا إلى أحكامِه نَتَفَهَّمُ

٩٠ أنا وعقلي

ما قلتُ شيئاً بِفَمي إلَّا وعقلِي مُلهِمي

أنا ابْنُ عقلِي وحدَهُ تُنْبِئُ عنِّي كَلِمي

بهِ اهتَدَيْتُ في شبَا بي مِثلَما في هَرَمي

وربَّما كانتْ أُمو رٌ أنا عَنْهُنَّ عَمِ

أو قَدْ رَمَيْتُ أَسهُماً فما أَصابَتْ أسهُمي

فهرس القوافي

(القافية فرقم القصيدة)

أحمد شوقي

(١٨٦٨م ـ ١٩٣٢م)

قرأتُ شعر شوقي، هذه المرة، وبيدي قلم. فكلما وقعت على بيت جميل جعلت بإزائه علامة. ولما أنهيت المجلدات العشرة، وعدد صفحاتها أكثر من أربعة آلاف، انتهت المتعة وبدأ الشغل.

رحتُ أنظر في الأبيات التي أخذتها من كل قصيدة، فأزيد بيتاً هنا أو هناك، حتى تقف القصيدة.

ثم دققت ذلك كله بيدي على الحاسوب، وشكلته. ثم عرضته على المصدر الذي منه أخذت، وهو «الموسوعة الشوقية» لإبراهيم الأبياري، وعارضته بـ «الشوقيات».

وبعد ذلك سميت كل قصيدة باسم من عندي، وأخذت أكتب تحت كل بيت شرحه، وصنعت فهرساً للأشعار على القوافي.

أما معيار الاختيار فهو ذوْقي. وأما طريقة الشرح فامش بضع صفحات حتى تراها.

ولا أزعم أنني فتحت فتحاً، فقبلي اختار الناس من أشعار الناس، وقبلي شرحوا. لكنني أرى شرحي متميزاً بثلاث: الاجتهاد، والأمانة، والتفاعل.

فأما الاجتهاد فأنني كنت أقلّب البيت المشْكل على أوجهه، وأنظر في المعاجم، وفي شروح الشوقيات والموسوعة الشوقية، وفي كتب التاريخ؛ وأنني قرأت مرات وظللت أصحح حتى اطمأن القلب.

وأما الأمانة فأنني لم أترك معنى بقي غامضاً علي إلا أشرت إلى ذلك؛ ولم أكن أعرض للكلمة السهلة فأشرحها تاركاً الكلمة الصعبة دون شرح. ذلك

عمل لم أعمله. ولم أذكر حادثةً أو مناسبةَ قصيدة إلا وأنا مطمئن إلى صحتها، فإن داخلني شك فيها فإما أن أضرب عن ذكرها، أو أن أذكرها، لطرافتها، مع التنبيه على الشك في صحتها.

وأما التفاعل فأنني تعمدت أن أنقل إليك ما أشعر به حيال بعض الأبيات. فالبيت الذي يحسن اقتباسه وحفظه للمذاكرة جعلته بالحرف المشدد، فإذا كانت فيه تورية لطيفة أو علة خفيفة أشرت إليهما. وإذا رأيتُ القصيدة معبرة عن حادثة ذكرتُ ذلك في صدرها أو في ذيلها. ومسعاي في كل ذلك أن يحس القارئ أنني أقرأ معه وأشاركه. فإن أحس القارئ في خلال ذلك، ما لا بد أن يحس، من ميل إلى التعالُم والتفاصح، فهذه نقيصة ابن آدم، وستزول عني عندما أزول.

شرحت مختاراتي هذه من أبيات شوقي للكبير والصغير والمقمَّط في السرير. كنت أحياناً أحس أنني أُفرط في التبسيط وأنني أشرح كل كلمة، فأرفع القلم عن الكلمات التي يفهمها عامة المثقفين؛ ثم أعود وأكرُّ عليها كرة أخرى فيبدُو ليَ فيها، فأشرحها، رفقاً بشاب في مقتبل ثقافته العربية. وألزمتُ نفسي بشرح الكلمة في كل موضع ترد فيه، فلعل من قرأ شرحها أولَ ورودها يكون قد نسي معناها عندما ترد مرة أخرى بعد صفحات، ولست افترض أنك تقرأ الباب من أوله إلى آخره، فهذا ليس رواية.

عليَّ في هذا الكتاب ديْن لصاحب الموسوعة الشوقية، إبراهيم الأبياري، فقد أفدت من شرحه الوافي؛ ولئن خالفته في فهم المعنى في أبيات كثيرة، ووجدته لم يعط البيت حقه من الشرح في أبيات أكثر، فذلك لأنه شرح الثلاثين ألف بيت كلها ملزماً نفسه ألا يهرب من بيت مغلق؛ فأما أنا فاخترت ما راقني وما سهُل عليّ، وكنت إذا اعترضني بيت عسير تجاوزته مُريحاً نفسي من تمحُّل وجه له، وجارياً على معتقد لي في الأبيات الصعبة: وهذا المعتقد هو أن البيت المغلق الصعب هو نتاج مخاض صناعي تكبده الشاعر، ويكون بعيداً عن القريحة الحرة، وصفاء الروح. وليس من المصادفات أن البيت الجميل يكون سهلاً قريب المأخذ.

وعليَّ ديْن لشارحي الشوقيات على اختلافهم، فلئن كانت شروحهم قليلة الغناء في معظم الأحيان، فقد اجتهدوا في ضبط الشعر ضبطاً طيباً.

ولا أذكر الكتب الكثيرة التي تحدثت عن شعر شوقي وحياته حتى لا

أغمس لساني فيما لا ينفع. وما استفدت منه ذكرته في محله.

أما أن أصنع صنيع الأكاديميين فألملم أسماء الكتب ومؤلفيها في جريدة بآخر الكتاب، فقد كُفيته، وأنا آكل لقمتي من مائدة أخرى غير تلك المعابد التي يسمونها جامعات.

أردت في هذا الكتاب بأبوابه أن أثبّت لنفسي طريقة في اختيار الشعر وشرحه، واستندت إلى تراث عربي غني في مضمار الاختيار والشرح. وقد بسطت رؤيتي العامة للشعر العربي في مكان آخر من هذه المقدمة.

سميت أحمد شوقي «شاعرَ الألف سنة» لأنني لم أجد بين المعريِّ وبينه شاعراً أهم ولا أعظم منه. وكنت أطلقتُ هذا الاسم على البرنامج التلفزيوني الذي أعدته وأخرجته لقناة «الجزيرة» الزميلة هويدا طه في الذكرى الخامسة والسبعين لوفاة شوقي، ثم اكتشفتُ أنني لست أول من فكر بهذه الفكرة. فقد كتب الشاعر شفيق جبري بعد أيام من وفاة شوقي مقالاً بعنوان «أحمد شوقي: شاعر لم يظهر مثله من ألف سنة» في جريدة الأيام الدمشقية.

وقد انغمست في شعر شوقي أكثر وأنا أقدم برنامجاً آخر قصيراً في قناة «الجزيرة» كان اسمه «قال الشاعر» أنتجته الزميلة نِعَم عيتاني. وقد خصصت شوقي باثنتين وعشرين حلقة من أصل نحو مئتين وعشرين حلقة تم إنتاجها قبل توقف البرنامج، ولو قيض له أن يستمر لأربت الحلقات المخصصة لشوقي على الخمسين.

سميت كل قصيدة أو قطعة في هذه المختارات باسم من عندي. واستندت إلى الطبعة البيروتية الثانية من «الموسوعة الشوقية». فأما الطبعة الأولى - التي ازدانت مجلداتها جميعاً بصورة خليلِ مطران - فكنزتها على أحفادي حتى يبيعوها بالمال الكثير بيعَ النوادر. وأذكر للناشر البيروتي، سوى جودة أحرفه وورقه، أنه ضبط الأبيات بالشكل ضبطاً جيداً، فلم يقصر في هذا عن الطبعة المصرية.

وأما الشوقيات فهي ديوان شوقي الذي نشره بنفسه في مارس عام ١٩٠٠ (وإن كان مؤرخاً في عام ١٨٩٨)، وسماه «الشوقيات» على حياء، لائذاً بأن شكيب أرسلان هو من اقترح التسمية، وهذه حقيقة يؤكدها أرسلان في كتابه عن شوقي. ثم صدرت طبعة أخرى وشوقي في السابعة والخمسين من عمره

فأضاف إليها الكثير، لكنه ـ أيضاً ـ حذف كثيراً من المدح في أولياء نِعَم لم يعودوا أولياء نعم. وكانت طبعة الشوقيات الأولى محلاة بمقدمة ثمينة وطويلة من قلم شوقي، فأسقطها في الطبعة الثانية وأبدل بها مقدمة من قلم محمد حسين هيكل. وأضيف إلى الشوقيات الكثير بعدئذٍ، فطبع منها جزء ثانٍ في حياة شوقي، وجزء ثالث بعد وفاته بأربع سنوات، ثم رابع بعد وفاته بعشر سنوات. وعبثت السياسة بطبعات الشوقيات بعد ثورة ١٩٥٢ في مصر. وجاءت بعدئذ طبعات لبنانية رديئة كثيرة. على أن طبعة إميل كبا محققة تحقيقاً حسناً، ومخدومة بقطع نثرية قد تعين الطلبة. وفيها «مداخلات» تذوقية طيبة. وسعت إلى الالتزام بالطبعات الأصلية، بدلاً من التسكع في تيه الطبعات «المهذبة». وفهرسها ممتاز، بخلاف فهرس الموسوعة الشوقية الذي جُعل له مجلد برأسه ولكنه قليل النفع.

وفي الستينات نشر محمد صبري السوربوني كتاب «الشوقيات المجهولة»، فكان جهداً علمياً طيباً. لكن بعض شعر شوقي ظل دفين الجرائد. فكان نشر الموسوعة الشوقية في مطلع الثمانينات خدمة جليلة للأدب، ولئن سبقتها ولحقتها كتب حاولت جمع شعر شوقي الغنائي ومسرحياته ونثره، فإن الموسوعة الشوقية هي التي جمعت فاستوعبت.

قد بذلتُ جهداً في ترتيب هذه الأشعار التي اخترتها ترتيباً زمنياً صارماً يجعلك تقرأ الكتاب وتتابع فيه حياة الرجل وتطور فنه ومواقفه السياسية والاجتماعية. ولكن التناقض في التأريخ بين كِتاب وكِتاب حال دون الترتيب الصارم، وحال دونه أيضاً إهمال المؤلفين، وكثرة أغلاطهم. وأكبر المهملين أحمد شوقي. فهذا الرجل الذي عاش لشعره، كان مهملاً في جمعه. كان أحياناً ينشر القصيدة في جريدة أو مجلة باسم مستعار ثم يعود إليها فيحككها ويزيد في أبياتها وينقص، ثم ينشرها في طبعة من ديوانه. أو تنشرها له بعلمه أو بدون علمه جريدة أخرى.

وحاد بي عن الترتيب الصارم قليلاً أنني جمعت قصائده التي على لسان الحيوان في مكان واحد. فهو، وإن يكن نظمها كلها تقريباً في سن الشباب الباكر، غير أنه أضاف إليها قصائد قليلة كهلاً. فضممت الشبيه إلى الشبيه.

قد صدعتك بمزايا مختاراتي هذه، وأزيدك في الختام واحدة: اخترت ما اخترته لك بمزاج.

حياة أحمد شوقي

إذا آمنتَ، مثلما أُومن، بأن الشاعر بجيده لا برديئه، وبأن أكثر ما يعنينا من سيرة الشاعر شعره، فخير سيرة لأحمد شوقي هي ما يتضمنه هذا الباب من شعر. فقد عرضت لك مختاراتي من شعر الرجل: ما كتب في صباه فشبابه فرجولته فكهولته، مرتباً ترتيباً زمنياً، مشروحاً، مع ذكر المناسبات والمواقف والمعلومات التي تُعينك على فهم الجو السياسي والاجتماعي الذي أحاط بالقصائد.

ولكنك قد تحب أن تعرف عن نشأة الرجل.

نشأته

اسم جده «أحمد شوقي» أيضاً، وهو كردي ـ عربي، «سمعت أبي، رَحِمَهُ اللهُ، يرُدُّ أصلنا إلى الأكراد فالعرب».

قدم الجد إلى مصر حاملاً رقعة توصية من أحمد باشا الجزار والي عكا إلى محمد علي باشا والي مصر. وكان الجدُّ يتقن العربية والتركية ويكتب بهما، فالتحق بالمعيَّة؛ وما زال يتقدم حتى صار أميناً للجمارك المصرية في منتصف القرن التاسع عشر. وجمع ثروة طيبة بددها ابنه «علي» سريعاً.

عاش «علي»، أبو شاعرنا، من عمله. وتزوج فتاة أبوها مصري من أصل تركي وأمها يونانية أُسرت في الحرب وجيء بها لتكون وصيفة أو شبه ذلك عند إبراهيم باشا ابن محمد علي. وأنجبا ابناً في عام ١٨٦٨ سمياه باسم جده. فهذا «أحمد شوقي» الشاعر. وقيل، استناداً إلى شهادة الليسانس الفرنسية، بل ولد عام ١٨٧٠.

يذكر شوقي جدته أمَّ أمه، واسمها تمزار، كثيراً. فهي بنت القصر، جاءته سبيَّة وعمرها عشر سنين، واعتنقت الإسلام بالطبع؛ ولعلها نسيت كل ما تعرف من لغتها اليونانية، فكانت تتكلم ـ فيما أحسب ـ العربية والتركية. وكبرت، وزوَّجها القائد الذي أسرها إبراهيم بن محمد علي من رجل عالي المكانة، واحتفظت بصلتها بالقصر. واحتفظت بمعاش زوجها بعد وفاته. وقد أخذت شاعرنا من المهد وكفلته. «حدثتني أنها دخلت بي على الخديوي إسماعيل وأنا في الثالثة من عمري، وكان بصري لا ينزل عن السماء من اختلال أعصابه. فطلب الخديوي بدرة من الذهب، ثم نثرها على البساط عند قدميه، فوقعتُ

على الذهب أشتغل بجمعه واللعب به، فقال لجدتي: اصنعي معه مثل هذا، فإنه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض. قالت: هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك يا مولاي. قال: جيئي به إليَّ متى شئت، إني آخر من ينثر الذهب في مصر». انتهى كلام شوقي في مقدمة الشوقيات.

أدخله أهله في مكتب الشيخ صالح وهو في الرابعة من العمر، «وهي من أهلي جناية على وجداني أغفرها لهم». ثم انتقل للمبتديان فالتجهيزية، فكان ترتيبه الثاني في المدرسة وهو في الخامسة عشرة فحصل على المجانية لتفوقه.

نبوغ شاعر

كان دخوله الكُتَّاب في هذه السن الطرية الشرارة الأولى التي لن تخبو. لقد عرف اللغة العربية الفصحى وهو طفل صغير، وعرف أن هذا هو المضمار الذي يجب أن يركض فيه. وفي المدرستين اللاحقتين التصق بلغة القرآن ولغة الأدب ولغة المثقفين. هنا التقط شوقي فيروس العربية الذي لن يفارقه. ووضع في جيبه المسطرة التي سيقيس بها كل أدب. عرف المتنبي والبهاء زهيراً، وقرأ على الشيخ حسين المرصفي صاحب كتاب «الوسيلة الأدبية» «كشكول» العاملي ثم «الوسيلة»، وكان آنذاك في الرابعة عشرة من عمره. وعثر على قالبه في شعر محمود سامي البارودي الذي قرأ منه عدة قصائد في «الوسيلة». ولمصطفى صادق الرافعي تحليل طيب لسبب التأثر الشديد بالبارودي: السبب هو المعاصَرة، «فالمعاصَرة اقتداء، ومتابعة على الصواب إن كان الصواب، وعلى خطأ إن كان الخطأ». ويعلل الرافعي خروج البارودي عن غثاثة الشعر في زمنه تعليلاً طيباً: «كان البارودي جاهلاً بفنون العربية وعلوم البلاغة، لا يحسن منها شيئاً، وجهله هذا هو كل العلم الذي حَوَّل الشعر من بعده، فيا لها عجيبة من الحكمة. أكبَّ البارودي على ما أطاقه وهو الحفظ من شعر الفحول، إذ لا يحتاج الحفظ إلى غير القراءة ثم المعاناة والمزاولة، وكانت فيه سليقة، فخرجت مخرج مثلها في شعراء الجاهلية والصدر الأول. وجاءت بذلك الشعر الجزل الذي نقله المرصفي بإلهام من الله تعالى ليخرُج به للعربية حافظٌ وشوقي».اهـ.

نظم شوقي وهو في الرابعة عشرة. وجليٌّ في أول قصيدة وصلتنا، وهي وصف للخريطة، واقتبسنا معظمها هنا، أن هذا التلميذ ذو خيال عجيب، وأنه يمتلك ناصية اللغة، ويتصرف بها باقتدار.

درس شوقي على حسين المرصفي مدة غير قصيرة. قال في مقابلة نشرتها الأهرام عام ١٩٢٧: «أستاذي الوحيد الذي أعد نفسي مديناً له هو الشيخ حسين المرصفي صاحب الوسيلة الأدبية، وتتلمذت سنتين لحفني بك ناصف، وهما أستاذاي حقيقة اللذان استفدت منهما».

ثم دخل شوقي مدرسة الحقوق وهو دون السن القانونية، فدرس بها سنتين، وعندما أنشئ بها قسم للترجمة دخله وأقام به سنتين أخريين. ونال إجازة في الترجمة.

كان وهو تلميذ يمدح الخديوي توفيقاً، وكان هذا يصل إلى الخديوي، فتوفيق يتقن العربية ويبدو أنه كان يتذوق أدبها، إذ إنه درس بمصر ولم يتسن له السفر إلى أوروبا للدراسة.

ثم ألحق الخديوي توفيق شوقي في معيته. وعين أباه مفتشاً بعد أن كان فقد وظيفته.

بقي شوقي سنة في معية الخديوي توفيق، ثم أرسله إلى فرنسا للدراسة وخيَّره، فاختار شوقي الحقوق، فنصح له الخديوي توفيق أن يجمع بين «الحقوق وبين الآداب الفرنسوية بقدر الإمكان».

الدراسة في فرنسا

ركب شوقي البحر إلى مرسيليا في يناير عام ١٨٩١، وأنفق عامين في مونبلييه، وعاماً في باريس، ورجع إلى مصر في نوفمبر عام ١٨٩٣. ومنعه الخديوي من القدوم إلى مصر في العطلة الدراسية، وطلب منه أن يقيم «أربع سنوات كاملة في أوروبا»، وألا يضيع منها دقيقة واحدة، «ثم أرسل إليَّ خمسين جنيهاً لأنفقها في رحلة أزمعها إلى أي بلد أشاء، إلا مصر».

في السنة الثالثة نال شوقي شهادة الحقوق الفرنسية، ولكن الخديوي توفيقاً طلب إليه أن يبقى في باريس ستة أشهر ليتمكن من «معرفة أشياء باريز وأهلها».

الخلاصة أن شوقي مكث في فرنسا ثلاث سنوات تنقص شهراً.

موظفاً في القصر

رجع شوقي إلى مصر ليجد توفيقاً قد مات، وابنه الشاب عباس حلمي قد

تولى الحكم. عمل شوقي في القصر. ولا شك أنه أحس بغصة، فالخديوي توفيق كان يحب الآداب، وهو رجل تربى على اللغة العربية. أما عباس حلمي فشاب يصغر شوقي بست سنوات، ودرس في مصر ثم في فيينا مدة قصيرة وقطع دراسته بموت والده ليتولى الحكم بعده.

لكنّ شوقي نال ثقة عباس حلمي، وتولى له رئاسة القلم الإفرنجي. وبعد سنتين مثَّل مصر في مؤتمر المستشرقين في جنيف بسويسرا عام ١٨٩٤. وعاد فكتب تقريراً «إلى سيدنا ومولانا، وليِّ النعم الأكبر، الخديوي المعظم».

في المؤتمر عرض شوقي قصيدة من ٢٩٠ بيتاً قص فيها تاريخ مصر الفرعوني والإسلامي. وقال كلمة بالفرنسية، ترجمها بنفسه لاحقاً إلى العربية، حث فيها المستشرقين على الاهتمام بالحاضر الأدبي للعرب الذي «دخل في الحركة العصرية من نحو نصف قرن،» ودعاهم إلى ألّا يقصُروا اهتمامهم على ماضي العرب وتراثهم القديم، وعرض عليهم روايته الشعرية علي بك الكبير، و«مجموعة حكايات منظومة على ألسنة الحيوانات، بإنشاء عربي محض، وفكر مصري خالص». وستظل هذه الحكايات من درر أدبنا العربي زمناً طويلاً. وقد اخترنا منها الكثير هنا، ليس لطرافة موضوعها فحسب، بل لأنها من أجمل الأدب.

تغزل شوقي بالحسان في مصر وفي إستانبول التي كان يزورها كثيراً. ولم يكن في غزله سوى رجل يحب الجمال، و«الجمال البشري سيد الجمال كله» كما قال ناثراً.

وعرف مكائد الوظيفة، ودسائس القصور جيداً، وانطبع هذا في شعره بشكل حِكَم كان يقصد إليها قصداً، على أنه كان يغترفها من حياته. وتأثر ولا شك بالأدب الفرنسي، وهو يقول لنا إنه تأثر كثيراً بفكتور هوغو وألفريد دي موسيه ولامرتين، وأما لافونتين القديم فقد تأثر بقصصه وصنع قصصاً على طريقته. وعرف شكسبير باكراً من ترجمات صديقه خليل مطران لبعض مسرحيات شكسبير من الفرنسية إلى العربية. ولكن مثله الأعلى ظل المتنبي «صاحب اللواء، والسماء التي ما طاولتها في البيان سماء، ولو سلم من الغرور، وسلم الناس من لسانه لأجللتُه إجلال الأنبياء».

الزواج والأولاد

تزوج شوقي خديجة ابنة حسين باشا فهمي شاهين، وأنجبت له أمينة في

الليلة التي مات بها أبوه. ثم وُلد له علي، ثم بعد حين حسين. وأحب أولاده بشغف. وكتب فيهم قصائد فيها مرح وحب وفيها تعلق. وأخذنا معظم أبياتها هنا، ليس فقط لأن مثيلها نادر في شعر العربية، ولكن لأنها جميلة أيضاً. ولم يقل في زوجته شيئاً، ولعله كان في هذا الأمر الرجل الشرقي الذي يتفنن في إخفاء زوجته عن العيون والأذهان، تقرأ شعره في أولاده فلا تملك أن تسأل: وأين أمهم، ولا تملك أن تظن أنه كان يعثر عليهم تحت الشجرة في الحديقة. ويصرح ابنه حسين في كتابه عن أبيه بأن شاعرنا كان يسهر كثيراً ويهمل زوجته، وهي صابرة لا تؤاخذه في شيء.

شوقي شاعراً متميزاً

كان شوقي رجل سماع، يحب الموسيقى الشرقية، ويألف الموسيقى الكلاسيكية. ونحن نرى هذه الألفة من خلال أذن محمد عبد الوهاب الذي رافق شوقي في فرنسا لاحقاً واستمع بمعيته إلى الموسيقى في مسارح باريس.

ونعرف أنه كان يسهر في مجالس الغناء، ويحضر المسرحيات الغنائية في القاهرة. لكن ارتباطه بالقصر يمنعه من التمادي في علاقات نسائية. ولعل الرجل لم يكن شهوانياً. كان يحب الخمر، ويعاقرها باتئاد. وكان يحب الجمال. ولكنه كان قد أصبح منذ أوائل الصبا راهباً في معبد الشعر.

«كان شوقي يقيد الشوارد ولا يدعها تفوت، ولم يقل لنفسه في وقت من الأوقات: دعينا من هذا الآن لأن لنا ما يشغلنا عنه وسنعود إليه في ساعة أخرى، بل كان المعنى المبتكر هدفاً له كيفما عنّ وأنى عرض.. لم يخلط شوقي الشعر بالسياسة ولا التجارة ولا الفقه ولا الإدارة ولا الزراعة ولا عمل من الأعمال الأخرى التي يتعاطاها الناس،» كما قال شكيب أرسلان في كتابه «شوقي: صداقة أربعين سنة».

و«كان شوقي يفكر في الشعر قاعداً وحاضراً وبادياً وسائراً وسارياً وفي المركبة وماشياً، إلى غير ذلك. فقد أعطى شوقي نفسه للشعر فأعطاه الشعر ما لم يعطه غيره في هذا العصر»، كما قال عنه صديقه خليل مطران.

ولم يكن موسراً. كان موظفاً نافذاً في معية الخديوي. لا بل يرى شكيب أرسلان أنه «في عام ١٩٠٠ كان شوقي ضعيف الحال، لم يحصل على الثروة التي جمعها فيما بعد، والتي كان السبب فيها شعره بدون نزاع». أما أنه كان

ينفق من سعة بسبب ثروة زوجته وأهلها، فأمر مشكوك فيه. لقد كان شوقي محجة لأصحاب الحاجات سنين طويلة. ولعله كان لا ينسى نفسه من عمولة هنا أو هناك على الطريقة التي كانت متبعة كثيراً في ذلك الزمن التركي. وهذه تهمة يؤكدها محمد كرد علي في كتابه «المعاصرون»، من حيث نفاها ضمناً شكيب أرسلان. ولعل «بدون نزاع» هذه التي وردت في عبارة شكيب أجلَبُ للتهمة منها لدفعها.

لا نعرف الكثير عن معتقد شوقي. لكن شعره يوحي بأنه كان مؤمناً دون تمسك بالعبادات. كان منتمياً إلى أمة الإسلام انتماء روحياً وسياسياً، فقد ناصب الإنجليز العداء مجاراة لأميره، وناصر الخليفة عبد الحميد في إستانبول مثلما ناصره أميره في مصر، وكان نصيراً لدولة الخلافة بمعنييها الزمني والديني. على أنه كان في شعره كثير الشك في الحياة الأخرى. ولكن، أليس هذا دأب كثيرين من الشعراء؟ قد لا يحل لنا التعويل على أبياته تلك في رسم خريطة لوجدانه الديني. على أننا نقول إن شوقي انتمى إلى الإسلام حضارياً وعاطفياً بعد إذ قدس اللغة العربية، وليس العكس.

وإذ رأى السفور في كثير من نساء إستانبول، واجتلى جمالهن ووصفه، أخذ يميل إلى السفور كفكرة، وحبذه للمرأة العثمانية في قطعة نثرية طويلة كتبها عن زيارته لعاصمة الإسلام، قبل سنة من كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة». ولم يسارع إلى تأييد قاسم أمين في مطلع القرن العشرين. فوقف متحفظاً من صاحب كتابيْ «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة»، ثم رصد في شعره تحول مواقف الأمة، ومال إلى السفور بالتدريج.

ناصر شوقي الحزب الوطني وزعيمه مصطفى كامل، الذي كان منسجماً مع قصر عابدين ومؤيداً لإستانبول والخلافة، لكن شوقي لم يكن سياسياً حزبياً.

دخل القرن العشرون وشوقي أكبر مثقف في مصر. ولئن فاقه أحمد لطفي السيد، الذي يصغره ببضع سنين، في ثقافته الفلسفية والقانونية، فإن شوقي كان يمسك بزمام العربية كما لم يتسنَّ لأحد منذ مئات السنين. وكان العقاد وطه حسين، كلاهما، آنذاك مع بدء القرن في الحادية عشرة من العمر.

وسنرى طه حسين بعد ثلاثين سنة يشهد لثقافة خصمه شوقي: «كان شوقي يحسن التركية، وكان متقناً للفرنسية، فقد برع فيها نطقاً وفهماً. وكان في أول أمره كثير القراءة حريصاً على الفهم، فقد قرأ كثيراً وفهم كثيراً وتمثلت نفسه ما

قرأ وما فهم. . العنصر الفرنسي عمل في عقله وخياله ومزاجه كله. . عاشر شوقي العرب في شعرهم وأدبهم فعظم حظه من العربية، وعاشر الترك في حياته اليومية، واتصل بهم أشد اتصال فعظم العنصر التركي فيه».

وإذا عرفت شح طه حسين في الشهادة لأي أحد ـ ولا سيما فيما يتعلق بالثقافة الفرنسية ـ عرفت قدر شهادته هذه في شوقي.

نرى شوقي مُنقَلبَ القرن شاباً تخطى الثلاثين، قصيراً، بدأت صباحة الصبا تنحسر عن وجهه سريعاً، ولم يشفع له من جسمه شافع. يحضر حفلات الرقص في قصر عابدين ويستمتع بالجمال وهو يرى الفتيات يرقصن على أنغام الفالس، وتسيل خصورهن من أكف الرجال، والخديوي، الذي درس في فيينا سنة أو سنتين، يعيش الدور بجانب زوجته النمساوية.

ذاق شوقي هجمة نقدية من المويلحي وأخرى من اليازجي، في مطلع القرن، وكره النقد وسيظل يكرهه. وهاجم سعد زغلول المقرب من المعتمد البريطاني في مصر. وكان صديقاً لزعيم الحزب الوطني مصطفى كامل. فلما مات هذا عام ١٩٠٨، لم يكن شوقي ميالاً لخلفه محمد فريد.

عاد إلى المسرح الشعري وهو في أواخر الثلاثين بعد تلك الرواية الباكرة التي نظمها وهو في أواسط العشرين من عمره. فكتب مسرحيتين هما «الست هدى» و«البخيلة». وانصرف عن الأمر.

رحب بالانقلاب العثماني وبالدستور عام ١٩٠٨، ثم لم يذرف الدموع على عزل ممدوحه السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩، الذي كان أنعم عليه بالبكوية. وبكوية إستانبول كانت في ذلك الزمن تجعل صاحبها أهلاً لأن يلقب بصاحب السعادة، وكانت، كما زعم محبو شوقي، مساوية للباشوية المصرية.

وانغمس في السياسة المصرية مع اغتيال بطرس غالي رئيس مجلس النظار عام ١٩١٠، لاتهامه بعدم الوقوف بصلابة أمام تجديد ولاية الإنجليز على قناة السويس. وعاش جو مصر وجو الدولة العثمانية المحتضرة شاعراً بما يجري شعوراً دفيناً وقوياً. كان يرتفع عن الأحداث الصغيرة ويرى حاضر الأمة الإسلامية، ويراه في انهيار متسارع.

المنفى

عندما قامت الحرب العالمية الأولى كان شوقي في إستانبول، وفيها كان

عباس حلمي. وطلب الإنجليز من عباس عدم العودة إلى مصر. وأسرعوا فأعلنوا مصر سلطنة وعينوا حسين كامل ابن إسماعيل سلطاناً، ففصلوها بذلك عن الدولة العثمانية التي كانت في المعسكر المعادي.

ورجع شوقي إلى مصر وهنأ السلطان الجديد. ولكن سلطات الاحتلال الإنجليزي في مصر أبعدته، مع كثيرين من أصحاب الولاء للدولة العثمانية، إلى مكان يختاره. فاختار إسبانيا لبعدها ـ على الأرجح ـ عن الأطراف المتحاربة.

وعاش مع أسرته وأربعة من الخدم في برشلونة. وانقطع إلى كتب العرب ودواوينهم. وكتب شعراً ونثراً، وأرجوزة قص فيها تاريخ عظماء العرب. ولم يكن له نشاط اجتماعي يذكر في إسبانيا. ولم يتميز شعره هناك عن شعره قبل النفي، إلا في قليل. كتب قصيدتين عامرتين واحدة في الحنين إلى مصر، وأخرى في وصف آثار العرب في الأندلس.

كان أولاده قد شبوا، وكانوا له سلوى في منفاه. يقص علينا ابنه الأصغر حسين، في كتابه «أبي شوقي» الذي كتبه بعد موت والده، قصة طريفة عن أبيه في إسبانيا: «ركبنا الحافلة ذات يوم، هو وأنا، فصعد رجل عملاق بادي الترف والثراء، يعلق سلسلة ذهبية بصدره وفي فمه سيجار ضخم، ثم ما لبث أن استسلم للنوم في ركن من العربة، وراح يغط غطيطاً يرهق الأعصاب. وصعد نشال في مقتبل العمر جميل الصورة، وهمّ بأن يخطف السلسلة، لكنه أدرك أن أبي يلمحه، فأشار إليه إشارة برأسه مؤداها: هل آخذها؟ فأجابه أبي برأسه «خذها»، فنشلها الشاب ونزل، بعدما حيّا أبي برفع قبعته! ولم يكد ينزل حتى التفتُّ إلى أبي وقلت: هل يصح أن تترك النشال يأخذ سلسلة الرجل وهو نائم؟ فأجاب: شيء عجيب يا بني! لو كنتَ مقسماً الحظوظَ فلمن كنتَ تعطي السلسلة الذهبية؟ أكنت تعطيها عملاقاً دميماً أم شاباً جميلاً؟ فقلت: كنت أعطيها الشاب الجميل، فأجاب ببساطة: ها هو ذا أخذها».

هذا شوقي وهو يقترب من الخمسين.. شاعر الأخلاق. لكن معياره الأخلاقي داخلي ذاتي. ويصرح ولده حسين بأن أباه كان ذا نزعة بوهيمية دفينة.

العودة من المنفى

عاد شوقي إلى مصر بعد انتهاء الحرب بقليل، وكانت مصر تخرج من

عقابيل ثورة ١٩١٩، وسعد زغلول لم يعد مقرباً من الإنجليز، بل هو زعيم وطني نفاه الإنجليز، ثم عاد وراح يفاوضهم بعناد.

رجع شوقي إلى مصر وفيها حاكم جديد. السلطان أحمد فؤاد الذي تولى الحكم بعد وفاة السلطان حسين كامل. لم يقرِّب السلطان أحمد فؤاد أحمد شوقي. ولعل شوقي أحس براحة في البعد عن القصر. وهو الذي كتب قبل عشرين سنة «أَوَ لم يكن من الغبن على الشعر والأمة العربية أن يحيا المتنبي مثلاً حياته العالية التي بلغ فيها أقصى الشباب، ثم يموت عن نحو مئتي صحيفة من الشعر تسعة أعشارها لممدوحيه، والعُشر الباقي، وهو الحكمة والوصف، للناس؟ هنا يسأل سائل: وما بالك تنهى عن خلق وتأتي مثله؟ فأجيب: أني قرعت أبواب الشعر وأنا لا أعلم من حقيقته ما أعلمه اليوم، ولا أجد أمامي غير دواوين للموتى.. والقوم في مصر لا يعرفون من الشعر إلا ما كان مدحاً في مقام عالٍ، ولا يرون غير شاعر الخديوي صاحب المقام الأسمى في البلاد، فما زلت أتمنى هذه المنزلة.. حتى وفقت بفضل الله إليها، ثم طلبت العلم في أوروبا، فوجدت فيها نور السبيل، من أول يوم، وعلمت أني مسؤول عن تلك الهبة التي يؤتيها الله ولا يؤتيها سواه». انتهى كلامه في مقدمة الشوقيات (١٩٠٠).

لكن شوقي أحس بالمرارة التي يحسها كل امرئ كان قريباً من مركز السلطة ثم صار بعيداً. حقاً لم يبتعد عن الملك فؤاد كل البعد، بل ظل يمدحه بين الفينة والأخرى مدحاً عارضاً في الأغلب، لكنه لم يعد شاعر القصر، ولا الموظف ذا النفوذ فيه.

انصرف شوقي إلى دنيا من الشعر والفن أوسع. فقال قصيدة في النيل فاخرة. وقال قصائد في رثاء الكبراء كان بها يحافظ على منابره الشعرية، وينفث مخاوفه التي لا تهدأ من الموت. كان يعيش مرتاحاً ثرياً. وأظن أن شوقي الصبي الذي رأى أباه يبدد الثروة ويعيش عيشة عادية عرف كيف يمسك يده على ما نال في زمن الخديوي عباس حلمي من ممتلكات.

بعد المنفى

رجع شوقي إلى تمجيد مصر، وهي نغمة باهى كثيراً بأنه أول من صدح بها. فقد كان وقف على آثار الفراعنة واستوقف وهو شاب في الخامسة والعشرين في قصيدته أمام مؤتمر المستشرقين عام ١٨٩٤.

وقبل الكشف الأثري الباهر عن مقبرة توت عنخ آمون بسنة وقف شوقي يخاطب أبا الهول، ثم جاء الكشف الشهير الذي اهتزت له الدنيا، فتفجر شوقي بشعر كثير في وصف آثار الفراعنة ومناجاتها. وألبس حجارتهم من فنون القول ما هز النفوس، وكان العصر عصر بحث عن هوية وطنية. لم يتمسح شوقي بمومياءات الفراعنة تمسحاً بليداً، ولا هو تنكر لماضي مصر العربي الإسلامي. لكنه قال شعراً مليئاً بالجمال، وكفى.

كأنما كان في نفس هذا الشاعر حسرة لأنه لن يستطيع أن يقف على الإطلال وقوف شعراء العرب القدماء، الذين كانوا، وظَلُّوا، مثله الأعلى وقالبه الخالد، فوجد في قبور الفراعنة مناسبة للوقوف والاستيقاف دون أن يتهم بأنه صدى باهت للقدماء. كان أصيلاً في هذا الشعر ليس لدقة الوصف وحسب، ولكن ـ أكثر ـ لأنه رأى الموت حياً أمامه في آثار الأقدمين فتحدث عن شعوره تجاه الموت؛ وتحدث ـ وأسرف في الحديث ـ عن الخلود الدنيوي وبقاء الذكر.

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى انهارت الدولة العثمانية، فبكاها شوقي. ولكنه أثنى على أتاتورك وتحمس له في حربه مع اليونانيين، وفي مساعيه للحد من أطماع الدول المنتصرة في تركيا. ثم ألغى أتاتورك الخلافة فلامه شوقي ثم انقلب عليه. وأحس شاعرنا أن مصر هي الكيان الوحيد الذي يمكن أن يعده وطناً. ولم يعد إلى إيمانه بدولة الخلافة ولا بالخلافة. ولم يعر أذناً للدعوة التي كانت لها جلبة في العشرينات لتجديد الخلافة.

أصبح شوقي قريباً من سعد زغلول يحضر مجالسه، في بيت الأمة ومسجد وصيف، ويمدحه بالشعر. وقربه سعد، وجعله عضواً في مجلس الشيوخ عن محافظة سيناء سنة ١٩٢٤. وكانت هذه السنة بداية الحياة البرلمانية الحديثة في مصر وقد زالت عنها الحماية البريطانية ونالت استقلالاً إسمياً.

في مجلس سعد، وفي جلسات ضاحكة في بار اللوا ومحل صولت، كانت لشوقي جولات ساخرة مع الدكتور محجوب ثابت. واشتهرت قصائده العابثة في حصان الدكتور محجوب وسيارته وعيادته.

شوقي السميع

اتخذ شوقي لنفسه صديقاً شاباً، مطرباً صاعداً لم يبلغ العشرين، هو محمد

عبد الوهاب. آمن بموهبته، وأخذ يصقلها بالمعرفة. كان عبد الوهاب يحضر مجالسه ويلازمه كظله. وكانت له غرفة في قصر شوقي. وأخذه شوقي معه إلى باريس مراراً، وإلى لبنان أخذه، وإلى الشام. وعلى عهدة عبد الوهاب، فيما نقله لنا مجدي العمروسي، فإن شوقي أخذه إلى باريس لأول مرة وعمر عبد الوهاب خمس عشرة سنة. ويروي لنا عبد الوهاب كيف أن شوقي خالف نصح طبيبه وشرب زجاجة ويسكي كاملة في الباخرة، وذلك عندما علم أن في الباخرة ثقباً وظن أنها غارقة.

وكان لشوقي في باريس معارفه من الناس العاديين في مطعمه وفندقه، تماماً مثلما كان له في القاهرة. وكان يقرأ بالفرنسية كثيراً. وفي إحدى الرحلات الأولى مع عبد الوهاب أحضر كتباً فرنسية كثيرة عن كليوباترا إذ كان يتهيأ لكتابة مسرحيته الشعرية «مصرع كليوباترا».

لقد عرف شوقي عبد الوهاب ولداً صغيراً يغني بين فصول مسرحية تقدمها فرقة عبد الرحمن رشدي، فكلم حكمدار بوليس القاهرة الإنجليزي لمنعه من الغناء لصغر سنه. كان ذلك فيما يروي عبد الوهاب (في كتاب عن سيرته نشر مرتين: مرة بقلم محمد رفعت المحامي ومرة بقلم لطفي رضوان!) سنة ١٩٢١. ثم في سنة ١٩٢٤ سمع شوقي عبد الوهاب في كازينو سان استفانو بالإسكندرية، واستقبله بحرارة ودعاه لزيارته في مكتبه بشارع جلال بالقاهرة. وبعد ثلاثة أشهر وانقضاء موسم التصييف ذهب عبد الوهاب إلى مكتب شوقي، وكان لقاءٌ طيبٌ أعقبته دعوة عشاء، ثم ثماني سنوات من الالتصاق الشديد بين مغن ناشئ وبين أشهر شاعر في العالم العربي.

من عبد الوهاب عرفنا طرائف لا بأس بها عن شوقي. فهو يتناول إذ ينظم الشعر، ثلاث بيضات نيئة ـ يرفعها عبد الوهاب، عندما يحكي القصة لسعد الدين وهبة، إلى خمس بيضات ـ يشربها شرباً. وعندما سأله عبد الوهاب عن سر البيض النيء قال: «علشان بحرق فسفور كتير». وشوقي ينظم الشعر في قلبه ولا يدونه إلا بعد أن ينظم عدة أبيات منه. يمشي هائماً في الشوارع، يدخل صيدلية، ويخرج منها دون أن يطلب شيئاً، ويدخل محلاً ويخرج، ثم يكتب أبياتاً على علبة سجائر، وكان مدخناً شرهاً، أو يمليها على أحد، ولا يزال كذلك حتى يفرغ من القصيدة. وبعد ذلك. . «ألاقيه بعدما يولد الولادة وِشُّه أصفر، عرقان تعبان منهوك، ويقول لي حتعمل إيه ما مخمد، ها. . تتعشى فين يا مخمد؟» كان يناديه كذلك تحبباً.

ومن حديث عبد الوهاب، وغيره، عن شوقي نعرف أن شاعرنا كان يرجع إلى المعجم كثيراً. نجد ذكراً لرجوعه إلى المعجم وهو في بيته بالقاهرة «كرمة ابن هانئ» ووهو في السفينة مسافراً إلى فرنسا. وفي بيته كان له من يساعد في إعادة ترتيب كتبه على الرفوف. فبعد الخاطر «تيجي هنا عملية الصنعة».

وقد عرفنا عن طريقة شوقي في النظم من مصادر عدة أهمها وأوثقها رواية سكرتيره الشخصي أحمد عبد الوهاب أبو العز الذي حدثنا كيف نظم شوقي قصيدة «قفي يا أخت يوشع خبرينا»: «جاء من منزله في المطرية فوجدني في المكتب في الساعة الحادية عشرة والنصف فأملى علي ثمانية وعشرين بيتاً، ثم قال لي لا تبعد عني حتى إذا جاءني شيء أمليته عليك. وخرج يمشي حول العمارة، فكان كل بضع دقائق يعود فيملي علي خمسة أو ستة أو سبعة أبيات. وأخيراً دخل المكتب وجلس على مقعده وأخذ يمر براحته اليسرى على رأسه ففهمت أنه ينظم في سرِّه قال: اكتب، فكتبت وكتبت، ونظرنا إلى الساعة فإذا هي الواحدة بعض الظهر فقال: كفى، أعطني ما كتبت لأني على موعد في هذه الساعة مع داود [بركات] في جريدة الأهرام، فقدمتها له بعد أن عددت أبياتها ووجدتها أربعة وثمانين بيتاً».

وقد وجدنا القصيدة زادت عشرة أبيات فأصبحت أربعة وتسعين بيتاً اقتبسنا لك منها هنا نحو نصفها.

وعرفنا من عبد الوهاب كيف زار سعد زغلول بيت شوقي لتهنئته بعرس ابنه البكر. وكيف التقط لهما المصور صورة. وأثناء التحضير للصورة بمعدات ذلك الزمن قال أحدهم، هذه صورة تجمع الخلودين: خلود الوطنية، وخلود الشعر. فعلق سعد زغلول ويده على كتف شوقي: «هذا الرجل وحده هو الخلود، فبعد خمسين سنة لن تجدوا من يذكر اسم سعد، ولكن ستجدون للأبد من يذكر شوقي ويترنم بشعره».

كان شوقي عاشقاً للغناء، ولفت نظري وصف الناقد الموسيقي كمال النجمي لعبد الوهاب بأنه «آخر مطربي شوقي». فقد كان شوقي متابعاً لفن محمد عثمان وعبده الحامولي، ثم بعد موتهما منقَلَب القرن تعلق بيوسف المنيلاوي وعبد الحي حلمي وسلامة حجازي ومنيرة المهدية وأم كلثوم. وعرف قيمة سيد درويش جيداً، وبرز تذوقه لما أتى به سيد درويش من جديد في القصيدة التي رثاه بها. وكتب الشعر بالعامية لعبده الحامولي وسلامة حجازي

ثم لمحمد عبد الوهاب. وقد أحصى إدوارد ميخائيل في كتابه المتميز بالدقة العلمية عن عبد الوهاب تسعاً وعشرين قصيدة غناها عبد الوهاب من شعر شوقي، عشر منها بالعامية. والعدد قابل للزيادة والنقصان، لأن الكلمات لم تكن تنسب لشوقي إلا بعد حين.

لقد بلغ من حب شوقي للطرب أنه كان يأتي بالأطباء لعلاج المغني الشيخ محمد المسلوب وهو في المئة من عمره. ويبدو أن هذا العلاج كان نافعاً حقاً فقد عاش الشيخ حتى تجاوز المئة والعشرين.

هجمة نقدية شرسة

في أوائل العشرينات تعرض شوقي لأقسى هجمة نقدية. فقد نشر العقاد والمازني كتاب الديوان (١٩٢١)، وفيه حمل العقاد على شوقي حملة قاسية: «كنا نسمع الضجة التي يقيمها شوقي حول اسمه في كل حين فنمر بها سكوتاً كما نمر بغيرها من الضجات في البلد، لا استضخاماً لشهرته ولا لمنعة في أدبه عن النقد، فإن أدب شوقي ورُصَفائه من أتباع المذهب العتيق هدمُهُ في اعتقادنا أهون الهينات، ولكنْ، تعفُّفاً عن شهرةٍ يَزحَف إليها زحف الكسيح، ويضن عليها من قولةِ الحق ضن الشحيح، وتُطوى دفائن أسرارها طي الضريح. ونحن من ذلك الفريق من الناس الذين إذا ازدروْا شيئاً لسبب يقنعهم، لم يبالوا أن يُطْبِق الملأ الأعلى والملأ الأسفل على تبجيله، والتنويه به. فلا يعنينا من شوقي وضجته أن يكون لهما في كل يوم زفة، وعلى كل باب وقفة». وحمل العقاد حملته منوهاً إلى أن كثيرين يؤيدونه، ومشدداً النكير على شوقي وعلى آلته الدعائية. وكان شوقي ممن يحسنون الذب عن أدبهم بتسخير الأقلام لمدحه، والصحف لنشره. كان إذا غضب غضب له ألف قلم مأجور. فمن هذه الناحية لم يتجن العقاد كثيراً. كان شاباً في الثلاثين يرى أن شوقي ينال اهتمام الصحف، فأراد أن ينال قسطاً من الشهرة بالتعرض لشوقي. وأجابه شوقي الإجابة المتوقعة من مشهور يتعرض له أديب ناشئ ليقتطع جزءاً من شهرته لنفسه: سكت عنه سكوت قبر.

ثم انثنى العقاد إلى قصائد شوقي فتناول منها قصيدة متوسطة فسلقها بلسانه. ثم أخذ قصيدة رديئة حقاً فأنشأ يسخر من شوقي في نثر مليء بالحيوية والتدفق. وعرج على قصيدة من الجياد هي مرثيته في مصطفى كامل ـ واخترنا

في كتابنا ثُلث أبياتها ـ فأوسعها تهكماً. وغرس في قلب شاعرية شوقي، بعد التهكم من قصيدته الجيدة، أربعة نصال: التفكك، والإحالة، والتقليد، والولع بالأعراض دون الجوهر. فأما التفكك فقد عالجه العقاد علاجاً عجباً. كتب قصيدة شوقي بأبياتها الأربعة والستين كاملة، ثم عاد وكتبها مرة أخرى بعد أن بدل وغير مواضع الأبيات فبدأ بالبيت الأول ثم الرابع عشر ثم الحادي والعشرين ثم الرابع والستين وهلم جرا. ورأى العقاد بعد أن صنع ذلك أن القصيدة صارت أحسن نسقاً وأقرب نظماً. وأكد العقاد نظريته المشهورة بأن الشعر العربي العتيق يقوم على وحدة البيت لا وحدة القصيدة. وأن شعر شوقي مفكك.

وأما الإحالة فهي الإتيان بمعنى مستحيل الحدوث في الواقع كقول شوقي:

يزجون نعشك في السناء وفي السنى ... فكأنما في نعشك القمران

وعلق عليه العقاد قائلاً: «وزعيمنا الفقيد كان فرداً، والقمران اثنان، فمن كان الثاني في ذاك النعش؟»

وكقوله:

مصر الأسيفة، ريفها وصعيدها ... قبر أبر على عظامك حان

وعلق العقاد: «مصر، أيها القارئ، ولا تخطئ فتحسبها القاهرة المعزية ـ فإنها مصر بريفها وصعيدها ـ مصر كلها، ما هي إلا قبر واحد. فلله در شاعرها يرثي رجلاً أحيا نهضة في بلاده فيجعلها قبراً. ولأي ضرورة؟ وليدل على ماذا؟ لا شيء».

وأما التقليد فعنى به العقاد ما عبر عنه نقاد الشعر منذ القدم بالسرقة. ولشوقي سرقات كثيرة، ولكنه إذا قيس بالمتنبي كان عفيف الوجه واليد واللسان.

وأما الولع بالأعراض دون الجوهر فضرب له العقاد مثلاً البديع الفرد من أبيات هذه القصيدة:

دقات قلب المرء قائلة له: ... إن الحياة دقائق وثوانِ

وعلق قائلاً: «إنه بيت القصيد في رأي عشاق شوقي، فعلى أي معنى تراه يشتمل؟ معناه أن السنة أو مئة السنة التي قد يعيشها الإنسان مؤلفة من دقائق

وثوانٍ. وهذا هو جوهر البيت. . بلاغتهم المزورة لا تتعلق بالحقائق الجوهرية والمعاني النفسية، بل بمشابهات الحس العارضة».

كان العقاد متحاملاً، وآية تحامله أنه لم يرض أن يسلِّم لشوقي ببيت واحد جيد أو حتى متوسط. لقد حكم على الرجل حكماً جارفاً، ولم يعجبه من الثلاثين ألف بيت التي نظمها شوقي في حياته شيء.

كانت هجمة نقدية عاتية. وكانت فيها فائدة للأدب العربي. ولكن شوقي، وهو موضوعنا لم يزل، مضى في طريقه لم يغير شيئاً. ظل الحارس الأمين للطريقة الكلاسيكية في الشعر العربي. وظل شعره «مفككاً»، أو إن شئت قائماً على وحدة البيت. وظل يعارض الشعراء الأقدمين ويباريهم، و«يسرق» منهم.

وظل العقاد يهاجم شوقي، ولكن شوقي راح ينعم بالتكريم في مصر والشام ولبنان، إلى أن توجته تلك الحفلة الكبيرة، سنة ١٩٢٧ في دار الأوبرا بالقاهرة برعاية سعد زغلول، أميراً للشعراء.

لقد اضطر حافظ إبراهيم إلى مبايعة شوقي حتى لا يقال حسَدَه فتخلف. لكن العقاد اعترض بصراخ وزئير. وفي العراق قال الزهاوي:

قالوا لشاعر مصرٍ ... دار الإمارة تبنى
فقلت يا أهل مصرٍ ... منكم أميرٌ ومنّا

مستعيداً قولة الأنصار للمهاجرين بعد وفاة الرسول: «منكم أمير ومنا أمير».

وكان الرصافي أكيس. فقال، وأشار إلى محنة طه حسين في كتابه «في الشعر الجاهلي»، ومحنة علي عبد الرازق في كتابه «الإسلام وأصول الحكم»:

إذا احتفلت مصر بشوقي فما لها ... تقيم على الأحرار في العلم حاجرا
فقد أسمعتنا ضجة أمطرت بها ... عليّاً وطه حاصباً متطايرا
إذا لم تكُ الأفكار في مصرَ حرة ... فليس لمصرٍ أن تكرِّم شاعرا

وفي لبنان كتب مارون عبود بعد ست سنوات من التتويج: «فهل كانت إمارة شوقي ـ وهو شاعر جيله ـ غير مهزلة سجلها الدهر؟» على أن الجملة المعترضة عند مارون «وهو شاعر جيله» لم تكن لمجرد المجاملة، فقد رددها بعد أكثر من عشر سنوات عندما جعل شوقي «خلاصة الرؤوس وخاتمة الشعر

الكلاسيكي»، «كان شوقي قويَّ المخيلة، وعَيْنُه أحَدُّ من قلبه، فوثب وثبات استولى بها على الأمد فكان شاعر جيله.. فلولا وثبات رائعة فاق بها شوقي شعراء جيله ودنا بها من كبار القدماء لما كان هو ذلك «الرأس» الذي نختم به المدرسة القديمة. إن حظ الشعر القديم المصقول قد ختم بشوقي الذي أعاد عهد الديباجة البحترية». انتهى كلام مارون عبود في كتابه الرؤوس.

سافر شوقي في العقد الأخير من عمره كثيراً، إلى فرنسا حيث كان ولداه علي وحسين يدرسان، وإلى لبنان وسوريا حيث كان يلقى الترحيب الكثير ـ رأيناه يشكو لمحمد عبد الوهاب كثرة مجاملات أهل لبنان ـ، وكان يعجبه من أهل سوريا ولبنان أنهم يحفظون شعره. وكان يطرب لسماع شعره من أفواه الآخرين. وسنراه يسأل كامل الشناوي في أول لقاء بينهما عام ١٩٣١ إن كان يروي شيئاً من شعره، ويطلب إليه أن ينشده قصيدة «أبو الهول». حدث هذا اللقاء في مسرح الأزبكية عقب حضور شوقي لبروفة إحدى مسرحياته، وكان يقوم عليها زكي طليمات.

في السنوات الخمس الأخيرة من حياة أحمد شوقي عاد إلى المسرحيات الشعرية فكتب خمساً أو ستاً منها، وكان شوقي مولعاً بحضور بروفات مسرحياته. ولعل الممثلين كانوا يذوقون الأمرين من تلك النصوص. فماذا يفعلون ببيت من الشعر مقسوم بين ثلاثة أو حتى أربعة ممثلين؟ عليهم أن يتقنوا الأداء وأن يلتزموا بالوزن الصارم! عجب ذلك الذي صنعه شوقي في مسرحياته، فقد التزم بأوزان الخليل، وحاول مع ذلك أن يُبقي على التدفق، وأن يراعي تطور القصة. وقد لاقت مسرحياته من اهتمام النقاد الكثير. ولقي من ثناء النقاد الكثير لأنه فتح هذا الباب في الأدب العربي. ولكن أي باب؟

لقد ولد المسرح الشعري على طريقة شوقي ميتاً. وهو الآن نصوص في الكتب، لا تنفع الممثل، وترهق المطالع. وهي قد لاقت المصيرين، ثناء النقاد والموت الزؤام، للسبب نفسه: فكرة طريفة لكنها فطيرة. استوردت على عجل قبل أن تجد في أوزان الشعر العربي ما يساعدها على النمو. ومن أراد أن يحيل الشعر العربي الغنائي بطبيعته وبتاريخه إلى شعر مسرحي عليه أن يجري الكثير من التغييرات ليس فقط على بنية الشعر واللغة، بل أيضاً على نفوس السامعين والمشاهدين. وعندما جاء الرحبانيان فصاغا مسرحياتهما خالطَيْن الشعر بالنثر بالموسيقى نجحا عند الجمهور؛ ثم عاد الجمهور وسقط ـ الجمهور

هو الذي سقط - لأنه لم يواصل الاهتمام بهذه الأهرامات الفنية الخالدة، وساعد الجمهور في ذلك بلادته ورداءة المؤسسات الإعلامية في الدول العربية.

ارتاد شعرُ شوقي في سنواته الأخيرة موضوعات جديدة، وسافر في بلاد العرب، ولا سيما في سوريا ولبنان، وظل هذا الشعر يؤبن الموتى كعادته.

لما مات حافظ إبراهيم رثاه شوقي متمنياً أن يكون حافظ هو الراثي:

قد كنت أوثر أن تقول رثائي يا منصف الموتى من الأحياء

وبعد حافظ بشهرين وثلاثة أسابيع مات أحمد شوقي، في ١٤ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٢.

لم يكن ناسياً الموت. بل لم تطلع على أحمد شوقي شمس نهار إلا تذكر الموت. ولو اضطرني أحد عشاق التصنيف إلى أن أضع شوقي في زمرة لوضعته في زمرة شعراء «تقديس الحياة»، ولوضعت بجانبه أبا العتاهية وأبا العلاء. فهؤلاء الثلاثة كانوا يحبون الحياة حباً جماً، إلى درجة أنهم نغصوها على أنفسهم بتذكر الموت. فأبو العتاهية شغف بالمال مع شغفه بالحياة وكان زاهداً وبخيلاً في النصف الثاني من حياته؛ وأبو العلاء زهد زهده المشهور في النصف الثاني من حياته ولكنه ظل متعلقاً بالحياة، نعرف ذلك لكثرة ما قال عكسه. وشوقي كان يلهو في النصف الأول من حياته، وفي النصف الثاني أيضاً. ولكنه كان دائماً كالولد الذي أعطته أمه قطعة جاتوه كبيرة، فراح ينظر إليها متحسراً ويفكر في اللحظة التي سوف تنتهي فيها، وظل يكزم من طرفها قليلاً ويتحسر قليلاً.

نظرة ذاتية في الشعر العربي

ليس مستحيلاً أن تمر بك أبيات للبارودي أو لبدوي الجبل ليس عليها اسم الشاعر فتحسبها لعنترة أو للأعشى. وقد تقرأ نصف ديوان البهاء زهير، الذي مات قبل أكثر من سبعمئة سنة، فتحسب أن هذا الشعر قيل قبل سبعين سنة أو سبع سنين.

تلك مشكلة في اللغة، وفي التقدم، وفي الشعر، وفي صدق الشعور والتعبير. وهي ظاهرة. فرغم أن التبدل في مجتمعات العرب كثير: لأن البداوة والارتحال المستمر طابع مسيطر عليهم في قديمهم، وموجود ملموس في

حديثهم، ولأن بلادهم تقع في وسط العالم، فكثر في أرضهم الغزو والفتح، منهم وعليهم، ولأن بلادهم واسعة ومرقَّطة بالجماهر البشرية التي تفصل فيما بينها الفيافي والكثبان، رغم ذلك ثبتت لغتهم ثباتاً عجيباً.

القرآن الذي وحد العرب على لسان واحد قبل أربعة عشر قرناً، جعلهم يلفون لغتهم براية القداسة. والقرآن كتاب أحكام ودين لا كتاب لغة، وهو لا يضم من مفردات اللغة إلا ما شاء ربك أن يضم. لكن أثره كان أن قَدَّس العرب اللغة العربية. ثم دخل في الإسلام وفي اللغة العربية الأعاجم، فقدسوا العربية أكثر من العرب. ومن عرف لغتين كان في اللغة امرَأً لعوباً. لقد وجد الأعاجم في العربية لعبة جميلة، وراحوا «يخدمونها» بتأسيس قاعدة ثابتة لها من النحو والصرف وتحقيق المفردات. وما انقضت مئتا سنة على نزول القرآن إلا والناطقون بالعربية قد اشتعلوا شغفاً بتأصيلها. فأخذوا كالمجانين يجمعون المفردات من ألسنة الأعراب، ويقدسون الشعر الجاهلي تقديساً، ويتخذونه مسطرة يقيسون بها كل شعر.

لغة كل عصر هي بصمته التي لا يمكن لعصر آخر أن يقلدها. وقد أنفق العرب ألف سنة وبضعة قرون يحاولون ـ سدى ـ تقليد بصمة العصر الجاهلي. يستعملون الكلمات نفسها والتراكيب نفسها، ثم يفلت منهم الوجدان الجاهلي. البصمة لا تقلد. ولكن الإسراف في محاولة تقليدها يسلب المرء أصالته ويسلكه في المقلِّدين.

عربية الجرائد اليوم غير عربية الحجاج بن يوسف، وعربية الناس في بيوتهم وأسواقهم غير عربية الجرائد. والتمسك بالفصحى بوصفها جوهراً لم يتغير فيه شيء ألبتة منذ أوقفها الله على لسان آدم، تمسك شكلي بالطبع. فلا قواعد اللغة ظلت على حالها، ولا مفرداتها. فالنحو غير موجود على الألسنة اليوم ومراعاته في الكتابة تقتضي جهداً غير قليل؛ والألفاظ المأنوسة اليوم لا تتعدى عشرين بالمئة مما يضمه «لسان العرب»، فأما الثمانون بالمئة الباقية فموميـاءات.

وحالنا في الشعر قريب من هذا في أشياء، بعيد في أشياء.

الشعر العمودي

وصف أبو علي المرزوقي المتوفى قبل ألف سنة (٤٢١هـ/ أما ما ورد في

ترجمته في مقدمة شرحه لحماسة أبي تمام من أنه مات سنة ٢٤١، فهو بعض ما تفعله المطابع بالأرقام)، وصف «قواعد الشعر التي يجب الكلام فيها وعليها، حتى تصير جوانبها محفوظة من الوهن، وأركانها محروسة من الوهي، إذ كان لا يُحكَمُ للشاعر أو عليه بالإساءة أو بالإحسان إلا بالفحص عنها وتأمل مأخذه منها...». واستقرأ صفة «عمود الشعر المعروف عند العرب» واستقر على سبع خصال، فالعرب «كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف، والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما، فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر». اهـ كلام المرزوقي.

هذا عمود الشعر أي أساسه، مثلما يكون العمود في وسط الخيمة أساسها. ومن هنا تسمية «الشعر العمودي»، فعندما ابتدع الناس في منتصف القرن العشرين طريقة أخرى في رصف التفاعيل وتوزيع القوافي ظنوا أنهم خرجوا على عمود المرزوقي (أو عمود البحتري إن صح أنه أول من نطق بالمصطلح)، فسموا كل الشعر العربي القديم عمودياً، وسموا ما ابتدعوه الشعر الحديث. وما صنعوه في الواقع هو أنهم خرجوا خروجاً محدوداً عن البحور كما وصفها الخليل بن أحمد. فأما عمود المرزوقي الموصوف أعلاه بكلمات صاحبه فلم يخرج عليه ـ في جانب المعنى ـ إلا شعراء السريالية والرمزية المغرقة، أما في جانب المبنى فقد خرج عليه شعراء قصيدة النثر. وسوى ذلك من قصائد شعر التفعيلة فمعظمه يتبع عمود الشعر العربي كما وصفه المرزوقي بدرجة كبيرة.

لقد قام الشعر العربي وقعد كثيراً في القرن العشرين. ودخلنا القرن الحادي والعشرين وكثيرون من شعرائنا مصممون على ألا يكون شعرهم كشعر الألف والخمسمئة سنة المنصرمة. لا بد من الاعتراف بأن العرب يشتهون أن يكسروا كل قوالب الماضي في الشعر. لقد وجهوا ضربة لبحور الخليل أحسبها قاضية. وأوغل العديد من شعرائهم في الرمزية، وتحللوا من التفعيلة، ومن القافية. أفليست هذه مناسبة لتأبين الشعر القديم؟ أم لعلها مناسبة للوقوف على معالمه البارزة؟ أم هي من مفترقات الطرق تلك التي تمر بها الأمم فتنظر في عِطفيها وتتأمل ما مر بها، وما يوشك أن يرِد عليها؟

حفل وداع للشعر العمودي

ما نصنعه في هذه السلسلة هو أن نقدم مجموعة كبيرة ومنتقاة من الشعر العربي بحسب تقاليده التي ثبتها أهلها تثبيتاً لعدد من السنوات كبيرٍ يفتِنُ العقل ويدهش إدهاشاً، وتتعجب منه الثقافات الأخرى. وكما قدمنا فليس هذا بالأمر الممدوح، فمن يمدح الجمود! ولا هو بالأمر المذموم، فمن ذا الذي يملك القِحَة الكافية كي يذم حالة من الحالات دامت هذا الدوام! من يملك أن يذم الماء لأنه يتجمد على درجة الصفر المئوية. إنه أمر واقع، وحال وجدنا شِعْرَنا عليها، ونحن نصفها. هذا وضعنا نحن العرب، وهذا شعرنا. وهو من أعظم الشعر الذي عرفته البشرية.

سلسلتنا الحاضرة تستمد سبب وجودها من هذا الانقلاب الذي يشهده الشعر العربي.

إحياء الشعر القديم: حلاوة الروح

جاء البارودي خاتماً لشعراء القرن التاسع عشر، فكان ملحة الوداع. ثقب ثقباً صغيراً في السد الذي أقامه «علماء» الشعر العربي في وجه الإبداع. لكنْ رشح الماء، وأصيب الشعر العربي بالبلل الذي لا ينفع فيه سوى تغيير الملابس. وجاء شوقي ففتح ثغرة في السد في موضع المقتل. وسيجيء بعد شوقي شعراء يهدمون السد صخرة صخرة فيكون الري ويكون الفيضان، ويدخل إلى الشعر العربي ماء كثير، ويدخل معه طين وحشرات.

والشعر يحب الثورة ويحب التغيير، وهو بين المخلوقات الأدبية مخلوق بوهيمي. لكنه، ويا للغرابة، مخلوق منضبط بإيقاع هو نصف حلاوته.

بعد شوقي جاء عصر رومنسي حالم نام على وسادة الذاتية أعواماً ثم على وسادة العروبة ثم على وسادة الاشتراكية. وكان يتخلله شعراء يديرون الناعورة بالعكس فتسحبهم الناعورة. ثم جاء نزار قباني فكان جسراً عبر عليه الشعر العربي من الإيقاع الرتيب إلى الإيقاع الحر.

وانبهم الوضع العربي انبهاماً بعد أن نفق الحصان القومي فالاشتراكي. وبعد أن بعثنا رقعة دعوة إلى الاستعمار، أوصلناها إلى باب بيته، وفيها: تفضل بالعودة إلى بلادنا، لأننا لم نستطع أن نصنع شيئاً وحدنا، فنحن مثل الحمار الذي هرب من سيده يريد الصحراء ليتحرر، وفي منتصف الطريق تذكر أنه نسي رسنه، فرجع أدراجه.

والتقط نزار قباني الوضع العربي في لحظة انهيار الأمل فتفجر ينبوعاً من الشعر الفاخر في عام ١٩٦٧ وما بعدها.

والآن في عام ٢٠٠٨ يقف الشعر العربي مذهولاً. (معظم هذه المقدمة وما تلاها من شرح كتب عام ٢٠٠٨، وأنا أحرره وأهيئه للطباعة في آخر شهر من عام ٢٠١٦).

سمع الشعر العربي صرخات قوية من مظفر النواب في السبعينات والثمانينات، وترددت في جنبات الإنترنت نغمات على ربابة أحمد مطر الرتيبة الحانقة. لكننا لا نزال نجد أبناء يوسف الخال يحاولون دخول السينما بلا تذاكر. وهؤلاء قوم بدأوا سيرتهم بالنفور من اللغة العربية الفصحى، واشتدوا في البحث عن شيء يميزهم فقرروا أن يكون ما يسمونه قصيدة النثر.

وهذا موضع يحسن بي فيه أن أبين حد الشعر عندي. حده عندي الكلام الذي فيه إيقاع. وأما الخيال والصدق وأناقة التعبير والموسيقى الداخلية فتجدها جميعاً في الشعر وفي النثر وفي الرواية. ولست متكلماً عن قصيدة النثر بأكثر من ذلك.

لا، بل يطيب لي أن أتكلم.

جبراً لخواطر الحداثيين

تلك الخواطر التي يتهمونها بأنها شعر أُحِبُّ لها أن تكتب كتابة النثر لسبب اقتصادي، فإن ما يصنعونه من وضع كلمة أو كلمتين في السطر، وبضعة أسطر في الصفحة، يكلفني شراء كتب كثيرة، ثم لا يكون الكتاب كله سوى بضع مئات من الكلمات أقرأُها وأنا أنتظر الباص في طريقي إلى البيت، وأود لو أعود إلى بائع الكتب لكي أرد إليه ما اشتريت منه، فأخجل وأتكبد. ويُخرِج عليَّ هذا في كل شهر غرماً ثقيلاً. ولانبهام وضعنا العربي صارت هذه الخواطر التي يسمونها قصيدة النثر مغرقة في الرمزية أو في التعقيد، وأظن أن هذا فتح باباً واسعاً للمشعوذين.

ولست، بعد، من محبي اللغة العربية الفصحى على الطريقة القديمة. لست ممن يتمطق بعبارة «اللغة الشريفة». وفي قلبي للشعر المقول بالدارجة موقع جليل. أُجلُّ بيرم وأحمد فؤاد نجم ونخلة وكل زجالي لبنان وفلسطين، ولا أضع شعرهم في مرتبة تنحط عن شعر الفصحى بحال، ويلمس وتراً في قلبي

مدى تعلق أهل العراق والخليج بأشعارهم المقولة بالدارجة وإن لم أستطع تذوقها بدون مساعدة. شعر الدارجة شعر ذو لغة معينة ويلمس قلوب من يفهمونها. إنه شعر وحسب، ولكنه مكتوب بلغة أخرى غير اللغة العربية الفصحى.

ولست من كارهي النافرين من الفصحى. وليوسف الخال في قلبي مكانة. أحب إنسانيته وغضبته القوية على التقليديين، وأرضى تعبيره عن مسيحيته وعن لبنانيته، وأحب عذاباته التي تعذبها على ألسنة القوميين المفلسين، وأقدره تقديراً. فهو ناثر ذو قلم جميل منفعل. ولكنه لم يصنع شعراء. وأزيد أنني عارف بما قيل عن ارتباطه بمؤسسات أجنبية. وعارف أيضاً أن هذا الوطن العربي كله يقف بأبواب الأجنبي سائلاً صدقة. ومن كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر. وفي زمنه كان شعراء القومية يحررون فلسطين كل يوم بما يتقاضونه من ميزانيات وزارات الثقافة والصحف التابعة لها. فلست ممن يصغي إلى الراجمين الناس بالتهم.

مشكلتي مع قصيدة النثر مشكلة تبويب، مشكلة صغيرة. لكنها كبيرة على من يصنف كتاباً يريد أن يقصره على الشعر.

الحد الذي أرسمه للشعر قائم على الشكل فحسب. وفي هذا كفاية. فالشكل في الشعر عماد.

لا أعرف أحداً يحسنُ يرقصُ على أنغام منشار كهربائي، فلماذا يريدوننا على أن نطرب لشعر لا نحس بإيقاعه ولا نفهم معناه؟

ومثلما كان السدُّ يحجز وراءه ماء آسناً مليئاً بالديدان فإن السيل الذي جاء بانفجاره جاء بكثيرين مهارتهم في فنون الشعر قليلة، ومعرفتهم باللغة قليلة، وقلوبهم ليس فيها شعر. دخلوا علينا من باب الشللية ومن باب العلاقات العامة. وكان أسلافٌ لهم من الدخلاء في مرحلة الركود يدخلون عالم الشعر من باب أنهم يحسنون قول الكلام الموزون المقفى. في الماضي كان إتقان وزن الكلام الشهادة الوحيدة المطلوبة لنيل لقب شاعر. وقد عشنا مئات السنين ولا شعر عندنا إلا ما يقيئه أولئك الوزانون. ولعل بعض ثورتنا على الشعر العمودي ثورة على تلك الشهادة. ثم جاء يوسف الخال وعصبته فرفعوا الشرط فجاءنا دخلاء آخرون.

عودة لحلاوة الروح، ووصف للذهول الحاضر

حطم الشعر العربي سد البلادة في مصر. وكان لصوت شوقي وحافظ في مصر رجعٌ في العراق. ولولا أن الزهاوي كان يشغل نفسه بالحمام المطوق والنظريات العلمية فوق ما يجب، والرصافي يبدد طاقته في نقد الدين والخوض في السياسة، لكان للعراق في الشعر ديباجة أحلى مما كان. على أن الرجلين قالا شعراً بنكهة تاريخ العراق المضطرب. وجاء بعدهما الجواهري فكان من عبيد الشعر، وجاء السياب فركز راية الشعر العربي في العراق بضع سنين.

ومثلما كان للعباسيين مشرق ومغرب في الشعر، كان لعرب القرن العشرين موطن ومهجر. من المهجر جاءتنا روح إيليا أبو ماضي ورشيد سليم الخوري وإلياس فرحات. وفي لبنان كان بشارة الخوري قيثارة لها صوت عذب، وكان بالشام بدوي الجبل وعمر أبو ريشة كهرمي خفرع ومنقرع، وكان نزار قباني خوفو الشعر العربي ثلاثين سنة لا ينازعه أحد.

ولست أعرف عن المغارب سوى ما يعرفه كل الناس عن الشابي. ولا أعرف عن فلسطين سوى أن نكبتها أطلقت إبراهيم طوقان وعبد الكريم الكرمي، ثم تلاهما شعراء المقاومة الذين نكافئهم على وطنيتهم بلا حساب، ونحاسبهم في الشعر كما نحاسب الأغراب.

يصعب على المرء أن يرسم خريطة إبداع للشعر المعاصر. فهو كثير، وتجعله المعاصرة عصياً على القياس.

نحن العرب نقف على مفترق طرق. دخلنا عهد الافتقار والاستعمار الجديد منذ أربعين سنة، وجاء احتلال العراق مجرد تأكيد لحقيقة معروفة، ولكننا في هذه الأربعين سنة لم نتحرك، وبقينا نحدق في خيبتنا بذهول. وفي الشعر نقف على مفترق أرجو أن أوفق إلى وصفه.

كان المتعلمون في عصر شوقي والرصافي يحسنون الفصحى إلى درجة يطربون معها للشعر العمودي المألوف لآذانهم من ألف وخمسمئة سنة. وكان وزن الشعر يَصنع في أجسامهم إيقاعاً.

ثم ازداد عدد المتعلمين ازدياداً كبيراً. وصار محصولهم من العلم موزعاً بين العلوم المختلفة، ولم يعد للفصحى ما كان لها من شأن. وسقطت أوزان الخليل من الأذن العربية. وصرت ترى أساتذة اللغة العربية يقرأون الشعر

العمودي كما يقرأون مقالاً في جريدة، ويكسرون ما طاب لهم. فجاء اتخاذ التفعيلة لبنة لبناء القصيدة «إجراء» منطقياً يستدعيه حال الأذن العربية، فقصيدة التفعيلة قائمة على لَبِنةٍ واحدة تتكرر حتى النهاية، وليس فيها ذلك الخلط بين التفاعيل الذي تسمعه في البحور الستة عشر. ثم رأينا الناس لا يحسون حتى بالتفعيلة. ومعنى هذا نهاية الشعر، وبدء عصر الخواطر. وقد بدأ.

قد يترك الناس الفصحى تماماً، فعندئذ يصبح لكل قرية قوالها، يصدح بالمواويل في أعراسها، وكفى الله العرب القتال.

وأظن أن هذا لن يكون. بل ستشتد الفصحى كثيراً لأن فيها قدرة تعبيرية كبيرة، ولأنها تصل إلى مسافة أبعد، ولأن المشاعر الإسلامية نهضت كثيراً، وهي تعيد الفصحى إلى الأذهان بحضور القرآن والنصوص الدينية الكبير في آذان ووجدانات الناس، رغم رطانة كثير من الدعاة المتلفَزين بالعامية.

لست واثقاً الثقة نفسها من أن الإعراب سيعيش. لا بل أعرف أنه سيضمحل. أقصد سيموت، فأما الاضمحلال فهو يحدث من زمن أبي عثمان الجاحظ المتوفى قبل ألف ومئة سنة شمسية.

ولن يعاني إيقاع الشعر كثيراً بغياب الإعراب. ولكن هذا الإيقاع يعاني أشد المعاناة بسبب الشعراء. والغريبة العجيبة أن أكثر من يذبحون الإيقاع الشعراء الحريصون عليه. ترى نزار قباني يكتب قصيدته بتفاعيلها وقوافيها الرنانة، ثم يقف يلقيها أمام الناس كأنه يلقي قصيدةَ عدو له. يجردها من كل ما أتعب نفسه في حقنه فيها من إيقاع. قصيدته على الورق رقصة وأغنية، وعلى لسانه مجرد خاطرة. شدَّما كان يهتم بإبراز المعنى فينسى الإنشاد. ورأيت محمود درويش يصنع صنعه. أما المذيعات اللائي يهمسن بالشعر بعد منتصف الليل فهن أخبر بما يردن ويصنعن. ووالله لو قرأن بدل شعر السياب وقباني افتتاحية جريدة فنلندية لما قل تأثرنا ببحة أصواتهن، وبهمسهن البهيج. وأي حَجَر في ركن السور لا يهتز لهمس امرأة بعد منتصف الليل.

على أن إلقاءهن الهامس ذاك لم يعزز في أذن العرب ضربة الطبل، التي هي تكرار التفعيلة.

وأنا مدرك، من تجربة لي غير قصيرة، أن الذي يلقي الشعر جاهراً به يكون طول الوقت متحيراً بين أن يبرز ضربة الطبل وأن يجلو المعنى. وأنا

مدرك أن الأمر ممكن. وإذا لم يكن الجمع بين الإيقاع والمعنى ممكناً على لسان من الألسنة فخير لي أن أسمع الشعر منه موقّعاً توقيعاً بلا معنى من أن أسمعه مجلوَّ المعاني بلا إيقاع، خلا ما كنت ذكرته عن مذيعات آخر الليل.

الاجتزاء من الشعر

يغضب أحدهم، أحد هؤلاء الحداثيين، إذا اقتبستَ بيتاً أو بيتين. ويجأر بالشكوى مما اقترفت من تشويه لهذا الخلق المكتمل الذي خلقه الشاعر. يقولون في ذلك نظريات يضحك لها المنكوب في البورصة ليومه، يقولون: القصيدة كائن حي، فكيف تقتطع جزءاً منه ولا يتشوه!

تلك دعوى فارغة. ألم يسمعوا العرب يستشهدون بالبيت ونصف البيت؟ وبالآية ونصف الآية؟ ألم يروا كتب الأقوال المأثورة عند أمم الدنيا تقتبس نتفاً نتيفة من أشعار الأولين والآخرين. لا أقف عند هذه الدعوى كثيراً، ولكنني أوردها مثالاً لصرعات ونظريات يطلع بها علينا الطالعون، ويريدون لنا أن ندين بها، اقتنعنا أم لم نقتنع.

كتب الاختيارات كثيرة، وزادت كثيراً في الآونة الأخيرة. والموجود في السوق لا يعجبني أبداً. ولذا، مضيت في طبع مختاراتي.

رأيت بعض المؤلفين ينسخون بضع قصائد من هنا وهناك، ويجعلونها بين جلدتين، وتصب المطابع على الغلاف الألوان الفاقعة، وتجعل فيه نتوءات تغري الناس بشرائه لتزيين رف في صالة البيت. ورأيت بعضهم يهبر من كل قصيدة أبياتاً، أو يهبر قطعة من قطعة أخرى كان هبرها مؤلف قبله، ولا يُشعرني أنه تخير لي. ولا أرى عند الهابر ولا في المهبور تحقيقاً ولا ضبطاً ولا شرحاً. وإذا شرح أحدهم بيتاً فسر لك الكلمات التي تعرفها، وترك الكلمات التي لا تعرفها ولا يعرفها.

تكفي ذبابة واحدة لتجعلني أشيح عن الطبق، فكيف بكتاب فيه عشرات الذبابات. وقد وجدت كتب المختارات عامرة بالأغلاط، وجدتها طروحاً ألقاها في وجه الجمهور ناشر مستعجل، ومؤلف عابث ومقصر. فعقدت العزم على أن أمضي في نشر مختاراتي. وقد تعمدت في هذا الباب عن أحمد شوقي أن أشرح وأستقصي، ليكون حجتي فيما أنتقد الناس فيه. ولكنني لا أضمن أن أشرح شرحاً مستفيضاً في كل باب آخر. على أنني لن أرتكب كبيرةَ «شرح

الكلمة السهلة وترك الصعبة»، فإن عجزت عن كلمة فلن أغادرها إلا وقد أخبرتك بعجزي. وفي كل مرة مقبلة ستراني اخترت من المصدر الأصلي، وستراني اخترت ما أراه الزبدة. وسترى من التحقيق والضبط ما يرضيك. في هذا الباب عن أحمد شوقي شرحت كثيراً، إلى درجة ثقل الدم. وتصورت قارئي شاباً في مقتبل العمر محتاجاً إلى شرح كثير.

ليلتمس لي القارئ المتمكن من الفصحى العذر.

حياة مليئة بأنصاف المواهب

من حقك علي وأنا أتصدى لاختيار شعر من أجلك أن أخبرك عن نفسي. عن حياة مليئة بأنصاف المواهب.

حب النكتة، وفهم النكتة، وليبرالية الذوق، والنملية مواهب وهبنيها الذي خلقني. وسأشرحها لك في فقرة مقبلة متأخرة.

على أنني أكشف لك عن مواطن قصور عندي كنت اكتشفتها واحداً بعد واحد، وكان لكل اكتشاف لسعة بقي لها في نفسي أثر.

زميل لي يصغرني بنحو عشر سنين، يتذوق الشعر كثيراً، ويقوله بالفصحى وبالعامية وعلى كل الموازين. خلطت نفسي به زمناً. ففضح كماله من قصوري أنني أسمع في الغناء اللحن وحده، لا أبالي أن يكون عبد الوهاب يغني للجندول أو ينادي على البصل في سوق الخضار، فالكلمة في الأغنية تلبس أمامي طاقية الإخفاء، ولست أهتم إلا باللحن. رأيت صاحبي ذاك وثاباً إلى تذوق الكلمة. ثم سمعته يغني، فوجدته يحسن تصيد الطبقة، ويحتفظ بصحة اللحن، ووجدت له صوتاً. ووجدته يتذوق الألحان كما أتذوقها، وأحسن مما أتذوقها.

فتح في عقلي نافذة مقارنة وحسد. وعرفني بما حرمني الله.

وظللت أسمع الموسيقى والغناء. ومضيت فصنعت برنامجاً للإذاعة عن الموسيقى الكلاسيكية في أربع وخمسين حلقة، وبرامج عن الغناء العربي لا أحصيها. ومضيت فصنعت برامج في الشعر العربي رتلت فيها آلاف الأبيات.

رأيت بعد صاحبي ذاك أشخاصاً أفضل مني في تذوق الكلمة. أو لعلهم وجهوا طاقتهم هذه الوجهة. ورأيت من يفضلني في الثقافة اللغوية والأدبية وفي قوة الذاكرة.

ضع فوق ذلك كله تلجلج لساني في المذاكرة، وافتقار حججي إلى الصقل في أتون المناظرة، وتشرذم معارفي تشرذماً جعلها في أحيان معلومات من نوع ما يحفل به طلبة المدارس.

ما أكثر ما أوبخ نفسي: ويحك! كأنك لم تبرح مقعد الدراسة، لك في المطالعة وفي التفكير، وحتى في التعبير عن نفسك، طريقة هي أشبه بطريقة المراهق الذي فتح عينيه على الدنيا لتوه فهو مندفع مندهش أبداً، مرتبك عندما يكتشف أنه مسبوق إلى كل فكرة من أفكاره، زائغ في أحكامه، متمسك بالقديم كما يتمسك الرضيع بثدي أمه، خواف من الجديد، يغوص في الفكر قليلاً ثم يضيع في اللجة.

أليس يحق لي أن أيأس من نفسي؟ وأن أمضي في ترتيب تقاعد يضمن لي أن أعيش عيشة رجل لا يعرف الثقافة ولا تعرفه الثقافة؟

الآن عرفت لماذا أنفقت ثلاثين سنة متسكعاً بين الوظائف، هارباً فيها من مواهبي الناقصة، متعللاً بها عن الخوض في استهلاك المعرفة وإنتاجها.

طالت علي «سن اليأس»، فلا أزال منذ خمس عشرة سنة أحاسب نفسي على ما لم أنجز.

أما المواهب التي وهبنيها الله فهي التلذذ بالنكتة وفهمها، لكن دون روايتها. والشعر نكت كثيرة. وكل بيت رائع فيه نكتة دفينة أو غير دفينة. تكون النكتة في المعنى، أو في استخدام اللفظة، أو في كلمة القافية، أو في تورية، أو في جَلَبة تحدثها ألفاظ البيت إمَّا يتلى أو يُرى بالعين. والنكتة في بيت الشعر ليست زخرفة الجصّ يضيفها البنّاء إلى سقف البيت بعد الفراغ من بنائه، بل هي بعض البناء، وشمعة يقوم عليها.

لن أضرب لك مثالاً، ثقةً من أنك عرفت ما أقصده بالنكتة، وحتى يبقى لهذه المقدمة عُطلها من الأمثلة.

وليبرالية الذوق، وهذه ثانية المواهب، لها علاقة بفهم النكتة. فأنا أجد في كل شعر شيئاً حسناً، وأسعى في البحث عما في القصيدة من دواعي الدهشة. وليست ليبرالية الذوق بالموهبة النادرة، فأنت تجدها عند الملايين، ولكنها في المثقفين أعز منها في عامة الناس. وكائن رأيت من مثقف يقسم الأشعار قسمين: قسماً نُفايةٌ، وقسماً هو شعر شاعره المفضل أو شعره هو، إن كان أخا شعر.

والنملية موهبة أخرى. فأنا أحب الجمع والتصنيف. وترى هذه الموهبة كثيراً عند صغار الموظفين، وعند قليلي الطموح ومحدودي الذكاء. وهل تشك في أن النملة محدودة الذكاء، وأن سلوكها صادر عن غريزة شبه ميكانيكية؟

بمواهبي وعيوبي جمعت أبياتاً لشعراء كثر. كتبتها حيناً بالقلم في اثني عشر دفتراً، ثم جعلتها ملفات على الحاسوب الذي فرض نفسه على حياتي. وتنوقت في ترتيبها وشكلها، ونويت أن أشرحها.

فإذا لم يعنَّ لي شيء أجدى على نفسي وعلى عيالي وعلى البشرية من هذا الذي أنتويه، فسوف يجد الناس بين أيديهم مجموعة كبيرة من المختارات الشعرية تزاحم مئات الكتب المشابهة التي تختنق بها رفوف المكتبات.

لغز بيت الشعر العربي

كل كائن حي أو ميت يوضع في بيئة مدة من الزمن يتشكل بحسبها، ويصبح آية في الكمال النسبي. فمرور السنين يوائم الأشياء مع بيئاتها، ويجعلها الأصلح. تنظر إلى الشجرة الاستوائية فترى أوراقها وجذعها، وثمارها وجذورها ملائمة تماماً لبيئتها. ازرعها في بيئة أخرى ترها أقل نجاحاً.

البيئة قيد. والقيد خلّاق. والبيئة ليست الشيء السهل دائماً ولا هي الشيء الأمثل. فالبركان في مكان مّا يخلق بيئة غريبة عما كان مألوفاً. ومع تراكم السنين تتشكل الأحجار والأشجار على نحو يوافق هذه البيئة، ويصنع معها انسجاماً.

اللبناني في أعراسه وفي سهراته الصيفية على الأسطح، وسهراته الشتوية في أكواخه الجبلية، كان يغني ويباري جاره في فنون القول، وقد قيَّد نفسه بقوالب من الإيقاع اللفظي، وأخرى من النغم. وصار هذا القيد يفجر المعاني في نفوس شبانه. صاروا يكدون أذهانهم ليبرزوا المعاني الغريبة والجميلة من قمقم الوزن، فتنطلق هذه المعاني موقعة توقيعاً ومحلاة بقافية فيها نكتة. فأنت تنتظر القافية لكي تشعر بسعادة شبيهة بسعادتك وأنت تسمع ختام النكتة فتنفجر ضاحكاً. يهتز جسمك مع إنشاد البيت لأنه موقع، وتهتز نفسك وخيالك مع القافية، والمعنى في أثناء ذلك يتسلل إلى مكانين في وقت واحد: يتسلل إلى عقلك، المكان الطبيعي للمعنى، ولكنه يحاول أن يتفلت ليتسلل إلى قلبك قبل عقلك.

أن المعاني مقيدة بقيد الوزن والقافية يجعلها تنطلق بقوة أكبر.

الوزن والقافية للزجال اللبناني بيئة، وهي قيد. وجدهما، بعد أن أوجدهما أجداده، مفروضين عليه. رأى أبناء قريته محتاجين إلى أن يهزوا أجسامهم على كلامه، قبل أن تهتز قلوبهم وتدرك عقولهم، فصنع لهم الشعر فطربوا وهزوا أجسامهم ما شاءوا، وما زالوا يهزونها، وما زالوا يأبون أن يهزوها إلا على القرّادي والمعنّى ومع قوافٍ رنانة. ولو قلت كلاماً عذباً باللهجة اللبنانية وسرحت بخيالك إلى الأعالي ثم لم تقيد نفسك بالقافية لما صنعت سوى ما يصنعه أي عجوز يجلس بباب الدكان ويحدث الشباب عن سنة الثلجة الكبيرة.

والعربي في صحرائه، وفي مدنه القديمة في الحيرة ودمشق والطائف، كان يرتجز على إيقاع رتيب، ثم صار يلون رجزه ألواناً. وقيد نفسه بقيود وجدها أحفاده حافزاً، وبيئة إبداع.

واليوم، في سنة ٢٠٠٨، ما مبرر التمسك بهذه القيود؟ لا الشعراء يعرفونها، ولا السامعون يهتزون لها. صار الشعر مقروءاً بالعين في معظم الأحيان. وصارت الأمسية الشعرية ترفاً يمارسه طالب الجامعة مرة في السنة. وصار شعراء هذه الأمسيات يترنمون بمعانيهم يوجهونها إلى العقول كاسرين أوزانها التي تعبوا في إقامتها، أو تكون من الأصل أوزاناً مكسورة لأنهم قليلو المعرفة بالوزن. والفصحى نفسها ضعفت في النفوس كما أسلفنا. فكان لا بدَّ من الانصراف عن أوزان الخليل.

وجاء الشعر الحديث مبنياً على نظام التفعيلة لكي يواكب حالة فقدان التوازن وفقدان الوزن هذه، ولكنْ.. لا الشعراء ولا مستمعوهم يهزون أجسامهم على التفعيلة. ودخلنا عصر الخاطرة، أيضاً كما أسلفنا.

وبما أنني بدأت أكرر نفسي فقد آن الأوان للانتقال إلى عنوان جديد.

ما العمل؟

حتى لا تفاجأ في آخر هذه الفقرة، فإن السؤال الذي يطرحه العنوان قد يبقى بدون إجابة شافية.

لست أدعو إلى الرجوع إلى أوزان الشعر العمودي. وما سُمِّيت الرجعية رجعية إلا لأنها رجوع.

ولكن ذخيرتنا من الشعر العربي مليئة بكل ما هو معجِب وجميل. هي ذخيرة، هي تراث، وكفى. علينا أن نمشي إلى الأمام، بشعر أو بدون شعر. الخواطر تكفينا في هذا الزمن. وليعلم العالَم أن أبرع قوم في الشعر في الدنيا قرروا نبذه.

قصتي مع الشعر قصة تستحق سطرين. فقد قرأت منه الكثير، وصارت أبياته تشكل الفواصل والنقط في كتاب عيشتي. صرت أستلهم الشعر العربي في مواقفي من الأشياء. به ازددت انتماء إلى العروبة. وبه اهتديت أخلاقياً في كثير من أمري. ومنه صنعت هيكلاً تاريخياً للأحداث. وهو يطربني، ويسليني.

ولأنني قرأته قراءة جهرية في الإذاعات، وحتى في التلفزيون، وأكثرت من ذلك، فقد استولى علي صوتياً، أي بصورته الأصلية. فالأصل في الشعر أن يقرع طبلة الأذن لا شبكية العين. وعندما أقرأ شعراً بعينيَّ الآن، تراني أنقله فوراً إلى لساني لكي أسمعه فأتذوقه. ولهذا تراني، إذ لا أبالي أن أقرأ الجريدة على أنغام الموسيقى، لا أستطيع أن أقرأ بيتاً واحداً من الشعر إلا إذا خلا الجو من أي صوت موقَّع.

الشعر العربي العمودي ديوان العرب، ليس في جاهليتهم فحسب، بل هو ديوان الناطقين بالعربية في كل العصور. وفيه اختزنوا تجربتهم الإنسانية والشعورية. لا، لن تستطيع صناعة سيارة استناداً إلى مخزونك من الشعر العربي، ولن تستطيع حتى أن تتخيل شكل الناقة من قراءتك لقصائد الأقدمين ـ وأنصح للراغبين في معرفة شيء عن النياق أن يتفرجوا على فلم وثائقي في ديسكفري، فذلك خير لهم ـ، لكن الشعر العربي خزان مشاعر ومواقف وأخلاقيات. بعضها منحرف عما نراه صحيحاً، فعندنا من شعر الغزل بالمذكر الكثير.

لن نستغني عن الشعر العمودي لبضع مئات من السنين. سيظل هو السجلات القديمة التي فيها وجدان العرب.

التمسك الزائد بالشعر العمودي ومحاولات إحيائه دليل رجعية. والطوفان الذي نشهده من كتب المختارات الشعرية القديمة ظاهرة رجعية. فالناس كفروا بالمد القومي والمد اليساري، وأدركوا مبكراً وبحساسية مدهشة أن الاتصال بأوروبا والتشبه بها في كل شيء ليس الطريق إلى النهضة. والآن يقف العرب مذهولين، يبتلعون أطناناً من الشطائر السريعة من مكدونالد، ويستهلكون الفلم

الأميركي بجنون. ويسيرون في ركب هذا العالم. وهم كالغريق الذي يبلع ماء البحر، لكن ليس بإرادته. وتنتابهم صحوات يثوبون فيها إلى الدين فيتمسكون بجوهره حيناً وبتفسيرات متشددة أحياناً، ويثوبون إلى التراث الشعري القديم فيمجدونه حيناً وينبذونه أحياناً.

العرب بحاجة إلى صحوة عاقلة. صحوة يابانية. محتاجون إلى كثير من المعرفة المادية، وإلى غذاء روحي متوازن، وإلى أن يخلقوا الثروة من كدهم، وأرضهم. ستنحسر عنهم مرحلة الذيلية الحاضرة بعد بضع سنوات أو بضعة عقود، وسينهضون. وسيكون لهم صوت شعري لا أقدر أتكهن بشكله. لكنهم سيجدون دائماً في شعرهم القديم جذوراً ثقافية مهمة.

من هنا يحتاجون إلى التعرف على تراثهم الشعري.

فضيلة هذه المجموعة التي أسعى في تقديمها أنها معاصرة.

أما ما العمل؟ فأرى أن نستمر في تدريس أبنائنا الصغار قصائد أجدادهم، في مختلف العصور، وأن نزيد جرعة الشعر ذي التفعيلة، وأن نضع ما يسمى بقصيدة النثر ضمن باب الخواطر، وألا نكثر منه، فلا الأولاد سيفهمونه، ولا هو ذو شأن كبير. أما لمن يريد أن يكون شاعراً فأقول: منذ متى يأخذ الشاعر نصائح النقاد؟ انصرف.

مقاييس الاختيار

كتبت لك كل الكلام السابق وفي ضميري هدف خفي. أردتك أن تعرف من أنا وكيف أفكر وكيف أتكلم، وكيف تتداعى أفكاري، وكيف أسكبها في اللغة، وذلك حتى تعرف مقاييسي في اختيار الشعر. فالمقياس هو أنا، إنه مقياس ذاتيٌّ محض. إذا أرسلت ابنك إلى السوق فسوف يشتري من المكسرات ما لا يلائم أسنانك المخلخلة، ومن الحلوى ما لا يلائم السكريّ الذي معك. سيشتري على هواه. وإذا كان باراً، مثلي، فسوف يحضر لك علبة مياه غازية دايت.

صنعت صنع ذلك الصبي. اخترت أساساً ما يطربني، ثم إنني كنت أمر بالبيت الذي أعرف أنه يستهوي اللاهين فأختاره لهم، ولست باللاهي؛ وقد أمرُّ بالبيت الذي يعجب المتزمتين الجادين كل الجد، فآخذه في طريقي، وما أنا بالمتزمت ولا الكثير الجد.

اخترت الأبيات التي سلمت فيها اللغة، وسلم فيها الخيال، والتي فيها معنى غريب، والتي لها وقع على الأذن جميل، والتي فيها صدق، والتي كانت الصناعة فيها أقرب إلى الفن وأبعد عن التعمُّل. واضطرني الربط بين الأبيات الجميلة إلى أبيات ليس فيها رواء. ولا بد بين الروض والروض من ممر مفروش بالحصباء.

كنت أختار الأبيات الرائقة، ويزدهيني عملي. وأتلذذ بحصول هذا الكنز الثمين في قبضتي. ثم أقرأها فأجد في المعنى قفزة هنا أو هناك، فأجد بيتاً يَصلح جسراً فأختاره. وأدُقُّ القصيدة على الحاسوب بيدي وأراها بدأت تتخلق خلقاً جديداً، وتصنع لنفسها موقعاً في قلبي. وقد أعود إلى القصيدة الأمِّ باحثاً عن جسر.

وقد أقرأ قصيدة في ديوان الشاعر تكون مغسولة من أولها إلى آخرها، ليس فيها بيت يهزني. فأهملها الإهمال كله. وقد أقرأ قصيدة ليس فيها سوى بيت واحد فيه بريق، فأختاره ولا أختار غيره، وقد أشد أزره بأخٍ يسبقه لغيرما علة سوى أن يسمع القارئ رنين القافية تتكرر على أذنه.

قد أجد بيتاً قامت عليه ضجة نقدية، لِعيب فيه. فإذا كان سخيفاً مرذولاً، كقلاقل المتنبي، تركته دفين ديوانه، فإن بعثه ناقد لغرض فذلك من شغل الناقد. وإن أراد قارئي أن يقرأ رديء المتنبي أو رديء شوقي فالديوانان موجودان، ولم أزعم قط أن مختاراتي تلغيهما. وإن كان البيت المعيب في لفظه يضم فكرة لها بريق اخترته لفكرته، وتشجعني الضجة النقدية على اختياره. وقد يكون للبيت قصة طريفة، فأتحمس له حتى لا تفوت القارئ هذه القصة. وقد يكون البيت حزيناً باعثاً على الكآبة، فأريد أن أشرك القارئ معي في اكتئابي به. أو باعثاً على الانشراح والسرور، أو مستنهضاً للهمة، أو مادحاً لفضيلة أو لرذيلة بأسلوب فيه فن وفيه جمال، فهذا كله مما أريد إشراك القارئ فيه. وما اختياري الخمريات إلا من هذا الباب. وإلا فأي خير في الخمر؟ لكن الشعراء عبروا في وصفها وفي وصف مجالسها عن كثير من تمردهم ومن بوهيميتهم، واستثمروا في ذلك فناً كثيراً.

كنت أقرأ الشعر في وسيلة إعلام قبل أشهر فقط. فاخترت أبياتاً في مدح جمال عبد الناصر لنزار قباني، واخترت في مرة أخرى أبياتاً في هجائه لبدوي الجبل. وكنت في كلتا الحالتين سعيداً بما اخترت، وقرأت هذه وتلك

بالحماسة نفسها. وأما موقفي من عبد الناصر فلا أظنه يعنيك.

أحب من الشعر الجزل. والجزالة هي الصلابة في الحطب. والحطبة الصلبة تشتعل طويلاً وتدفئ كثيراً. والشعر الجزل موجز مكتنز لا ترى به كلمات زائدة. والكلمة فيه مشحونة بالمعنى شحناً.

وأحب من الشعر المهلهل الذي رق نسجه وانساب انسياباً، فأنت تفهمه بالسرعة التي بها تسمعه. فلا تكد ذهنك في ألفاظه ولا في معانيه.

وأحب الشعر الصادق. يقف أبو الطيب أمام سيف الدولة شاكياً باكياً صارخاً يقول: أنت لا تحبني كما أحبك، وتحب الآخرين وهم لا يحبونك، ظلمتني، وأنا أحسن واحد في الدنيا! فما هذه المعاني؟ أليست كأحط ما تسمعه من موظف يزعم أن مديره تخطاه في الترقيات؟ ثم تجد نفسك تترنم بقصيدة أبي الطيب تلك، ثم تلقى العرب قد ترنموا بها ألف سنة. هذا لما فيها من صدق. ولما فيها من فن أيضاً.

أنا لا أحاكم معاني الشعر محاكمة عقلية محضة، وإلا لكنت خسفت الأرض بكل شعر العرب وغير العرب.

أحب، ككل عاقل متزن، شعر الهجاء. فهو أصدق من غيره. وفيه فكاهة غالباً. وقد تجر الفكاهة والحقد الشاعر فيكذب في هجائه ويجعل المهجو إبليساً. هذا كذب في الوقائع فقط، أما في وصف نفسية الشاعر فالمبالغة في الهجاء هي الصدق كله. وشيطنة المهجو ونزع كل صفة حميدة عنه ضرب من الشعر. ولعل الهجاء المقتصد أشد إيلاماً. ووالله لَلقولُ إن فلاناً «سخي اليد واسع العلم لكنه جبان»، أوجع له من القول إنه «خسيس بخيل جبان».

أحب من شعر الرثاء والمديح ما كان صادقاً، وهذا نادر. وأحب منه ما كان عامراً بالفن، وهذا كثير. وقد رأيت نفسي ـ عندما اخترت من شعر المتنبي ـ آخذ من مدحه لسيف الدولة أضعاف ما آخذ من مدحه لكافور، وذلك لفضل ما بين الصادق الجميل، والكاذب الجميل.

أبحث عن الأبيات التي تنطلق من لاوعي الشاعر انطلاقاً يتعجب هو نفسه منه. هذه الأبيات التي يعتصرها الشاعر من أعماق وجدانه دون جهد الاعتصار. هذه وثبات نادرة. وأنا قاعد لها، متحفز، محدِّق بأذني تحديقاً متواصلاً حتى أتصيدها لك.

وتعجبني أبيات الحكمة، ما كان منها أصيلاً وجديداً، وما كان مصنوعاً.

ويعجبني الشعر في المشيب، وشعر النواح على الشباب؛ صار يعجبني الآن أكثر. والصادق منه، كالصادق من كل شعر، أحلى.

ويعجبني وصف الخمر؛ ويعجبني أكثر، وصف مجلسها.

أحب الشاعر يباهي بشعره، وأحبه أكثر وهو يصف صنعته ويحدثنا كيف أدرك النعاس ربة الشعر وهو قد توسط لجة القصيدة، وكيف راح يوقظها، ويرقق لها الهمس حيناً، ويغلظ لها الشكوى حيناً، وهي تغط في سباتها.

أحب الشاعر يعترف بدناءة اقترفها، ويعجبني المفتخر بسموه من غير تنفج. والمفتخر بقومه يعجبني إن كان صادقاً. والهاجي عشيرته يعجبني. الصدق هو المحك.

ويكذب الشاعر، فإن كذب ظريفاً فهذا شعر، وإن كذب ثقيلَ دمٍ تركت كذبته في ديوانه وسترت عليه.

وقد أتعبني الشعراء وأنا أتعقبهم بالستر. أستر رديئهم فلا أشير إليه؛ وأستر أغلاطهم فيما أخذت منهم من شعر حلو لكنَّ به خللاً، وأتمحل لهم وجهاً في غوامضهم. وهدفي على الجملة هو أن أجلو لك الشاعر وأقدم خير ما قال.

وأحس بالشاعر إن كان ينظم مرتاحاً أو كان يتجشم. وتقاليد الشعر العربي الصارمة ـ التي زادها كر الدهور شدةً ـ تقاليدُ فضّاحةٌ، تخبرك عن الشاعر بأكثر مما يقول من كلمات، وتنبئك إن كان ينحت من صخر أو يغرف من بحر.

يعجبني البيت تقعد في آخره كلمة القافية مرتاحة، كأنها جاءت لموقعها عبر صندوق الاقتراع، ولا تجد كلمة أخرى تصلح لتحتل مكانها.

يعجبني بعض الشعر الذي لغته صعبة، وأشترط فيه كي يعجبني فأختاره صدقاً كثيراً وجمالاً كثيراً. فأنا، بعدُ، أنتقي بذوقي المعاصر لقارئ معاصر. فإذا أسرف الشاعر في الوقوف والاستيقاف تراني اكتفي بأبيات قليلة. وأنا أفضل البيت السهل على البيت المغلق. فإن انفتح لي المغلق بجهدي وبقاموسي وبما تيسر من شروح القدماء، فلي فيه طريقان: إن وجدت وراء كلماته الكالحة وأسلوبه الملتوي معنى بديعاً أخذته وتوكلت على الله في شرحه شرحاً وافياً، وإن وجدته بعد كل ما بذلت في فهمه عادياً اطّرحته اطّراحاً واحتسبت عنائي في فهمه. وقد وجدت الصدق لصيقاً بالبيت السهل، والتصنع لصيقاً بالبيت المغلق المعقد، فهذه من نعم الله.

يعجبني شاعر يجترئ على اللغة، وشاعر يحترم اللغة. وقلَّ شاعر اجترأ عليها إلا وهو يحترمها.

ولا أخوض في النحو والصرف في شرحي. وحسبي أن أضبط الأبيات بالشكل، وألا أدخر جهداً في ضبطها الضبط الصحيح. ولا أكترث أن تكون لغتي وأنا أشرح البيت فصيحة كل الفصاحة. لا بل أضطر إلى كثير من الركاكة حتى أظل سائراً مع البيت بنفس ترتيب كلماته وأفكاره. وأسعى أن أضع في مكان الكلمة الصعبة كلمة تطابقها في المعنى وفي الاشتقاق، وفي هذا مشقة غير قليلة. وأرى الشاعر يسهل الهمزة ويصرف الممنوع ويمنع المنصرف، فلا أجاريه، فهو معذور، وأنا غير.

وألفِتُ القارئ بين الفينة والفينة إلى بيت مشهور، أو بديع، أو إلى بيت أحبه كثيراً، فأجعله بالحرف السميك.

الشاعر بجيده لا برديئه. وقد اخترت أجود الشعر. فمن أراد دراسة حياة شاعر من شعره دراسة أكاديمية فليرجع إلى ديوانه. أما من أراد أن يقرأ خير ما قال هذا الشاعر فأنا له، على المقاييس التي بسطتها فيما مضى.

الشاعر الشاب

في هذا الفصل ما اخترته من شعر شوقي في القرن التاسع عشر، والرجل عاش اثنتين وثلاثين سنة في القرن التاسع عشر، ومثلها في القرن العشرين. والقصائد مرتبة تاريخياً. على أنني جعلت القصائد القصصية، ومعظمها على لسان الحيوان، معاً في آخر هذا القسم، وهي على كل حال تتبع هذه الفترة من حياة شوقي. وقد اعتمدت في الترتيب على ما ذكرته «الموسوعة الشوقية» و«الشوقيات المجهولة». ولكنني لم أذكر التاريخ عندما شعرت بوجود تناقض. وشعر شوقي كله محتاج إلى تحقيق تواريخ نظمه بالاستعانة بصحف ذلك الزمان. وهذه مهمة لم أتصدَّ لها.

١ عنقود في ماء مِلْح

قال شوقي (وهو تلميذ في الثانوية):

إفـريـقِـيـا قِـسـمٌ مِـنَ الـوُجـودِ   فـي شـكْـلِـهِ أشْـبَـهُ بـالـعُـنـقـودِ

إفريقيا جزء من الكون، وهذا الجزء أشبه ما يكون في شكله بعنقود العنب. في هذا البيت سذاجة شوقي الفتى، لكن فيه أيضاً طريقة القدماء في أراجيزهم التعليمية. وكان شوقي في أيام التلمذة يقرأ كشكول بهاء الدين العاملي المليء بأمثال هذه الأراجيز

وذلكَ العُنقودُ في الماءِ انْغمرْ ما أملحَ الماءَ، وما أحلى الثمرْ

العنقود منغمر في ماء البحار والمحيطات التي تكتنفه، فما أملح الماء وما أحلى الثمر! فكرة حلوة، تنبئ عن أن عقل الصبي فيه شعر وفيه غوص على المعاني. وهل ترى جاءته المطابقة بين كلمتي «أملح» و«أحلى» عفواً؟ وهل التورية في كلمة «أملح» وحدها جاءت عفواً (فمعناها المقصود أشد ملوحة، والمعنى الذي تستدعيه عبارة «أحلى الثمر» أشد ملاحة)؟ لعل كثيراً من ألاعيب شوقي اللفظية يأتيه عفواً، أي بِتداعٍ لاواعٍ. لكنه في الجانب الأعظم صانع صائغ

مَدَّتْ إليهِ يَدَها أورُبّا مِنْ فوقِهِ، كَمَنْ يريدُ الحَبَّا

مدت أوروبا يدها إلى العنقود من الأعلى كأنها تريد أن تأخذ الحَب. أهو يصف شكل الخريطة فقط، أم أنه واعٍ نهبَ الإنجليز والفرنسيين لمصر، وكان النهب متصلاً من نيف وعشرين سنة؟

وآسِيا بالجنْبِ كالمحتالِ تنقُصُهُ من شرْقِهِ الشَّمالي

آسيا من الجنب تقضم جزءاً من إفريقيا من شمالها الشرقي. دقة في وصف الخريطة، فسيناء التي هي جزء من آسيا تبدو وكأنها مقضومة من جسم إفريقيا

وبينَ هذينِ ترى القَنالا يتَّصلُ الماءُ به اتِّصالا

بين أوروبا شمالاً، وآسيا في الشمال الشرقي يقع قنال السويس

أنشاهُ إسماعيلُ عُنوانَ الظَّفَرْ فوقَعَ الحافرُ فيما قد حَفَرْ

أنجز القنال في عهد إسماعيل الذي احتفل بتمام حفره احتفالاً عظيماً، لكنه وقع في شر تبذيره. في استخدام كلمتي «حافر، وحفر» دقة في اللغة وخفة روح، فالقنال حفر حفراً، ومن حفر حفرةً وقع فيها، والحافر أيضاً هو حافر الفرس، ولست على يقين من أن شوقي قصد هذه. قد قال صاحب «الموسوعة الشوقية» إن القصيدة فيها خلل في الوزن في بيتين هما:

بثت شكواي فذاب الجليدُ/ وأشفق الصخر ولان الحديد ـ وقلبك القاسي على حاله/ هيهات بل قسوته تزيدُ

وقال إن القصيدة ارتجال. فأما أنها ارتجال فمحال، فهي مصنوعة صناعة متقنة. وأما الغلط فغلط في النسخ، والبيتان بعد التصحيح يؤولان إلى:

بثت شكواي فذاب لي الجليد/ وأشفق الصخر ولان لي الحديد ـ وقلبك القاسي على حالته/ هيهات بل قسوته تزيد

الصبي الذي قال هذه القصيدة بلغ في «صناعة» الشعر مبلغ من لا يغلط في الوزن هذا النوع من الغلط، لا بل هو يلعب بالكلمات لعباً يبعث على الدهشة. وليس شوقي، بعد، بالمعصوم عن الغلط في الوزن، وقد نبهه إبراهيم اليازجي سنة ١٨٩٧ إلى أنه خلط بين السريع والمنسرح مرتين في قصيدة

٢ الجدة الحنون

لـي جَـدَّةٌ تَـرْأفُ بـي أحْـنى علـيَّ مِـنْ أبـي

لي جدة تعطف علي، وهي أشد حُنُوّاً عليَّ من أبي

وكـــلُّ شـــيءٍ سَـــرَّنـــي تـــذهـــبُ فـيـــهِ مَـــذهـبـي

وكل شيء يسعدني توافقني عليه

مـــشـــى أبـــي يـــومـــاً إلـــيَّ مِـــشـــيـــةَ الـــمـــؤدِّبِ

مشى أبي يوماً نحوي يريد تأديبي

غـضـبـانَ قـدْ هـدَّدَ بـالـضَّـ ـربِ، وإنْ لـــم يَـــضـــربِ

وكان غضبان يهدد بضربي، وإن لم يفعل

فـلَـمْ أجِـدْ لـي مـنـهُ غَـيْـ ـرَ جـدَّتـي مِـنْ مَـهْـرَبِ

فَـجَـعَـلَـتْـنـي خَـلْـفَـهـا أنـجـو بـهـا، وأخـتـبـي

وهْـــيَ تـــقـــولُ لأبـــي بِـــلَـــهْـــجـــةِ الـــمـــؤنِّـــبِ

لم أجد مهرباً سوى جدتي، فوضعتني خلف ظهرها، وأخذت تقول لأبي بلهجة تأنيب:

ويْـــحٌ لـــهُ، ويـــحٌ لـــهـــ ـذا الـــوَلـــدِ الـــمـــعـــذَّبِ

مسكين هذا الولد الذي يلاقي منك التعذيب،

ألـــم تَـــكُـــنْ تـــصـــنـــعُ مـــا يـــصـــنـــعُ إذْ أنـــتَ صـــبـــي

ألم تكن تصنع مثله وأنت صبي؟ القصيدة ناضجة في مغزاها على سهولتها وخفتها، ولم نتحقق من تاريخ نظمها، لكنها ليست مما يقوله صبي

٣ كوثر الدنيا

الـــنـيـلُ الـعـذْبُ هُـوَ الـكـوْثَـرْ والـجـنـةُ شـاطِـئُـهُ الأخـضـرْ

النيل العذب (وكأنَّ هناك نيلاً مِلْحاً) هو نهر الكوثر (نهر الجنة)، وضفافه الخضر هي الجنة

ريَّـانُ الـصـفـحـةِ والـمـنـظـرْ مـا أبـهـى الـخُـلْـدَ ومـا أنـضـرْ

النيل ريان (جميل) الصفحة (السطح) والمنظر، فما أجمل الخلد (الجنة)، فهو نهر الجنة لا راح ولا جاء. هذا البحر المتدارك ينساب بإيقاع يشغل الأذن عما في البيت من حاجة إلى ربط عجزه بصدره

* * *

الـــبـــحـــرُ الـــفـــيَّـــاضُ الـــقُـــدُسُ الـــسَّـــاقـــي الـــنـــاسَ ومـــا غَـــرَسـوا

البحر (نهر النيل) الفياض (الممتلئ) القُدْس (المبارك) هو الساقي الناس والساقي ما زرعوا

وهُـــوَ الـــمِـــنْـــوالُ لِـــمـــا لَـــبِـــســـوا والـــمُـــنـــعِـــمُ بـــالـــقـــطـــنِ الأَنْـــوَرْ

والنيل كأنه المنوال (آلة النسج) لملابسهم، إذ ينعم عليهم بالقطن الأنور (ذي النُّوَّار الأبيض)

* * *

جـعــلَ الإحــســانَ لــهُ شَـرْعــا لـم يُـخْـلِ الـوادي مِـنْ مَـرعـى
جعل النيل الإحسان شرعاً (أسلوباً) له. ولم يُخلِ الوادي (لم يترك الوادي يخلو) من مرعى

فــتــرى زَرعــاً يــتــلــو زَرعــا وهــنــا يُـجـنـى، وهـنـا يُـبْـذَرْ
الحقول متراصة، فهنا يجني الفلاحون الثمار وهناك يبذرون

* * *

جــارٍ ويُــرى لــيــسَ بِــجــارِ لأنــاةٍ فــيــهِ ووَقــارِ
النيل يجري، ولا نلاحظ أنه يجري لما فيه من الأناة (التأني) والوقار

يَــنْــصــبُّ كَــتَــلٍّ مُــنــهــارِ ويَـضِـجُّ فـتـحـسَـبُـهُ يَـزأرْ
ثم إذا به يصب ماءه صباً كالتل المنهار، ويهدر (يضج) فتحسبه يزأر كالأسد. ويترك لنا شوقي أن نفهم وحدنا أن الحالة الثانية هي نقيض الأولى، فالنيل الآن غادَرَ وقاره وتأنيه، ولم يمهد الشاعر للانتقال من الحالة إلى نقيضها

* * *

حَـبَـشِـيُّ الـلـونِ كَـجـيـرتِـهِ مِـنْ مـنـبـعِـهِ وبـحـيـرتِـهِ
النيل معكَّر المياه لما حمله من طين، فلونه داكن كلون أهل الحبشة الذين هم جيرانه في المنبع من جبالهم، وكذا جيرانه الآخرون في بحيرته فكتوريا. سيكتب شوقي في أخريات حياته أغنية لعبد الوهاب تبدأ بـ «النيل نجاشي حليوة أسمر»

صَـبَـغَ الـشَّـطَّـيْـنِ بِـسُـمْـرَتِـهِ لـونـاً كـالـمـسـكِ وكـالـعـنـبـرْ
وهو يلقي طينه على شاطئيه فيسمر لونهما، ويصبح كلون المسك البني الداكن، أو العنبر (وهو داكن اللون في الغالب)

٤ العبث

قال شوقي ضمن رثاء الأميرة تفيدة هانم (١٨٨٩):

النفسُ ترغبُ في الدنيا، وما حَصَلَتْ مِنْ الحياةِ على صَفْوٍ بِلا كَدَرِ
النفس ترغب في الدنيا وهي ما حصلت من الحياة على صفو (سعادة) خالص من التكدير

ولِلْحياةِ مدىً، واللهُ يعلمُهُ ما أشبهَ الطولَ في الأعمارِ بالقِصَرِ
للحياة مدى علمه عند الله. ولكن، بما أن كل الحياة عبارة عن صفو مختلط بالتكدير، فالطول والقصر في العمر سيان. كأني بالعقاد يقف لشوقي قائلا: «بربك هل الحياة لها مدى؟ كنّا والله نظنها أبدية! وهل يعلم الله حقاً هذا المدى؟ ما أعجب

ما أتيت به!» ولكن الشعر لا يقوم على المعنى وحده. ومع ذلك فالنصف الثاني من البيت له رنة جميلة، ومعناه يفضي إلى تفكر في العمر وطوله. حقاً إذا كانت سنوات العمر أشبه بالخبز البلدي المخلوط بالرمل فلا فرق بين أن تأكل رغيفاً أو خمسة. وقد سخر العقاد في كتابه الديوان من طريقة شوقي في الرثاء سخرية بلغ بها في الإضحاك مسْك الخواصر. تعليق عمران القفيني: «إعجابنا أنت وأنا بشوقي عجيب، حتى إذا أردنا نقده بحثنا عن لسان آخر واستأجرناه للتعليق»

٥ عبدك وابن عبدك

قال يهنئ الخديوي محمد توفيق بعيد الجلوس (١٨٨٩):

شَرَفاً أبا العباسِ، هذا مُلْكُ مصـ ـرَ وذي خزائِنُهُ، وذلكَ دَسْتُهُ

ازدد شرفاً يا أبا العباس، فهذا ملك مصر، وهذي خزائنه (قال يوسف لملك مصر: «اجعلني على خزائن الأرض» يوسف ٥٥)، وهذا الدست (مجلس الحكم) كلها لك. قال البحتري «شرفاً بني العباس إن أباكم/عم النبي وعيصه المتفرع»

مُلْكٌ كبيٌر جاءَ في التَّوْراةِ والـ إنجيلِ والقرآنِ قِدْماً نَعْتُهُ

ملك كبير ورد في التوراة والإنجيل والقرآن قِدْماً (في الزمن القديم) نعته (وصفه)

مولايَ! عُذْراً إنَّ لي فِكْراً أَبَتْ إلّا الزِّفافَ إلى عَفافِكَ بِنْتُهُ

مولاي! اعذرني على السكوت حتى الآن فإن لي فكراً أَبَتْ بنته إلا أن تُزفَّ إلى مقامك العفيف (جعل «بنات الأفكار» بنتاً وزفها إلى الخديوي)

فاسمعْ لِعبدِكَ وابنِ عبدِكَ مَنْطِقاً مُتَطايِراً بِكَ في القوافي صِيتُهُ

فاسمع لعبدك وابن عبدك (وأبو شوقي كان في حاشية الخديوي) منطقاً (كلاماً) صيته يتطاير بذكرك على هيئة قوافٍ. رنين وقعقعة. وتكثيف لغوي مفعم بالإيحاء، وإن كان فيه كثير من ليّ أعناق التعابير. هذا، إلى سِناد رِدف أجازه شوقي لنفسه وركبه في أكثر من موضع

٦ الوفاء وعدمه

قال شوقي (١٨٩٠):

إنَّ الوفاءَ سياجُ أخلاقِ الفتى مَنْ حازَهُ حازَ المحامِدَ أجْمَعا

الوفاء سياج يحمي أخلاق الإنسان، فمن حازه (مَلَكه) حاز المحامد (الفضائل) كلها

كَمْ مِنْ لبيبٍ كان يُرجَى نفْعُهُ لكنْ أبى عدمُ الوفا أنْ يَنفَعا

كثيراً ما لقينا عاقلاً رجوْنا منه النفع، لكنّ عدم وفائه منع حصول هذا النفع

٧ لا مثيل لها

قال شوقي يمدح الخديوي محمد توفيق (١٨٩٠):

يـا مُـكْـرِمَ الـشُّـعـراءِ كَـمْ مِـنْ آيـةٍ   لـي فـيـكَ لـيـسَ لِـشـاعـرٍ تـبـديـلُـهـا

يا مكرم الشعراء كم من آية (قصيدة كأنها في بلاغتها آية) قلتها فيك، ليس لشاعر تبديلها. فهي كآي الكتاب الحكيم الذي لا تبديل له

ويَـزيـدُهـا مَـرُّ الـزمـانِ حـلاوةً   حـتـى يَـلَـذَّ لأهـلِـهِ تـرتـيـلُـهـا

يزيد مَرُّ (مرور) الزمن «آياتي» حلاوة، حتى يلذَّ (يطيبَ) لأهل الزمن ترتيلها، وليس قراءتها فقط

ألبسْتَني حُلَلَ القَبولِ، فنلتُ شأْ   واً في القوافي لَمْ ينلْهُ فُحولُها

ألبستني حلل (أثواب) القبول، فنلت شأواً (مدى) في القوافي (القصائد) لم ينله فحول القصائد

فـإلـيْـكَـهـا عـذراءَ لا يُـرجـى لـهـا   وَصْلٌ، ولا باعُ الشُّيوخِ يَطولُها

إليكها (خذها) قصيدة عذراء (مبتكرة) لا رجاء في وصلها (علاقة معها)، كالحال مع الفتاة العذراء؛ ولا يطولها باع الشيوخ (فحول الشعر). قال «الشيوخ»، ولم يقل الفحول، لأنه شبه القصيدة بالعذراء فجعل الشعراء شيوخاً كباراً في السن، فزادهم بعداً عن عذرائه. وهذا من التكثيف اللفظي والمعنوي عند شوقي. وفي الشعر شبه من الدعاية التلفزيونية، تكون الدعاية مكتظة بالصور ومليئة باللفتات الكثيرة فتشاهدها المرة تلو المرة وتكتشف في كل مرة شيئاً جديداً

تـهـتـزُّ أعـطـافُ الـمـلـوكِ لِـمـثـلِـهـا   لو كانَ يوجدُ في القريضِ مثيلُها

تهتز أعطاف (خصور) الملوك طرباً لمثل هذه القصيدة، هذا لو كان يوجد في القريض (الشعر) مثيل لها

٨ خدعوها

قال شوقي (١٨٩١):

خـدعـوهـا بـقـولـهـم: حـسـنـاءُ   والـغَـوانـي يَـغُـرُّهُـنَّ الـثَّـنـاءُ

خدعوها بقولهم إنها حسناء. والغواني (الجميلات) يغرهن الثناء

أتُـراهـا تـنـاسـتِ اسـمـيَ لَـمَّـا   كـثُـرتْ فـي غـرامِـهـا الأسـمـاءُ

هل تناست اسمي عندما كثر المغرمون بها كثرة صاروا معها مجرد أسماء؟

إنْ رأتْـنـي تـمـيـلُ عـنِّـي، كـأنْ لـمْ   تَـكُ بـيـنـي وبـيـنَـهـا أشـيـاءُ

إن رأتني تنحرفْ عني كأنه لم يكن بيني وبينها أشياء. و«أشياء» هذه مليئة بالظرف والشعر، وفيها فخر الرجل وكذبه وتشدقه

نـظـرةٌ، فـابـتـسـامـةٌ، فـسـلامٌ   فـكـلامٌ، فـمـوعـدٌ، فـلـقـاءُ

بيت كهذا لا يتاح إلا في الفلتات

فـفـراقٌ يـكـونُ فـيـه دواءٌ   أو فـراقٌ يـكـونُ مـنـهُ الـدَّاءُ

ثم الفراق الذي إما أن يشفي الصدر من العلاقة، أو يكون داء (مرضاً) للقلب

يـومَ كُـنَّـا، ولا تَـسَـلْ كـيـفَ كُـنَّـا   نَـتَـهـادى مِـنَ الـهـوى مـا نـشـاءُ

أتذكَّرُ كيف كنا، ولا تسل (تسأل) كيف كنا! كنا نتهادى (نتبادل كالهدايا) ما نشاء من لوازم الغرام كالقبل والهمسات

وعـلـيـنـا مِـنَ الـعَـفـافِ رقـيـبٌ   تـعِـبـتْ فـي مِـراسِـهِ الأهـواءُ

وكان علينا رقيب هو عفافنا (والعفاف هو الامتناع الجنسي بانتظار الفرصة الأفضل)، وهو رقيب تعبت في مراسه (مغالبته) أهواؤنا (رغباتنا)

جاذبتْني ثوبي العَصِيَّ، وقالتْ:   أنـتـمُ الـنـاسُ أيُّـهـا الـشـعـراءُ

جاذبتني (كانت تشد وأنا أشد) ثوبي العصي (الممتنع)، ـ كما فعلت امرأة العزيز بيوسف عندما جاذبته قميصه طلباً للفعل الجنسي ـ، وقالت لي: أنتم فقط الناس أيها الشعراء، فلا أحد غيركم جدير بالاهتمام

فاتقوا اللَّهَ في قلوبِ العذارى   فـالـعـذارى قـلـوبُـهُـنَّ هـواءُ

وقالت: اتقوا الله في قلوب العذارى، فقلوبهن رقيقة كالهواء. كتب أحمد شوقي في مقدمة الشوقيات (١٩٠٠): «رفعت إلى الخديوي السابق [محمد توفيق] قصيدتي التي مطلعها: خدعوها بقولهم حسناء/ والغواني يغرهن الثناء، والتي غزلها في أول الديوان، وكانت المدائح الخديوية تنشر يومئذ في الجريدة الرسمية وكان يحررها يومئذ أستاذي الشيخ عبد الكريم سلمان فدُفعت القصيدة إليه، وطُلِبَ منه أن يسقط الغزل وينشر المدح فود الشيخ لو أسقط المديح ونشر الغزل. ثم كانت النتيجة أن القصيدة برمتها لم تنشر»

٩ نومة القلم موت

قال شوقي يمدح عباس حلمي الثاني (١٨٩٣):

قُـلْ لـراجٍ أنْ يَـسْـتَـرِقَّ يَـراعـي   أنـا لا أَشـتَـرِي بِـذَا الـتـاجِ قَـيْـدَا

قل لمن يرجو أن يسترق يراعي (يستعبد قلمي) إنني لا أرضى قيداً سوى ارتباطي بتاج مصر

نَـوْمَـةُ الـسَّـيْـفِ قـد تـكـونُ حـيـاةً   ورأيـتُ الـيَـراعَ إنْ نـامَ أَرْدى

نوم السيف في غمده قد يسبب بقاء الحياة للناس وإبعاد شبح القتل عنهم، وأما القلم فإذا نام عن الكتابة أردى (قتل) المجتمع بنومه

خَلَقَ اللَّهُ ذاكَ صاحِبَ غِمْدٍ   وبَرا ذا لا يعرِفُ الدهرَ غِمْدَا

وقد خلق الله السيف وخلق له غمدا (غلافاً)، وبرأ (خلق) القلم لا يُغمَدُ أبد الدهر

١٠ كبار الحوادث في وادي النيل

ألقاها في مؤتمر المستشرقين المنعقد في جنيف بسويسرا في سبتمبر (١٨٩٤)، وكان مندوباً عن مصر:

هَمَّتِ الفُلْكُ، واحتواها الماءُ   وَحَداها بمن تُقِلُّ الرجاءُ

همت الفلك (السفينة) بالرحيل، ثم احتواها الماء، وحداها (سيَّرها) بمن تقل (تحمل) رجاء الوصول بسلام. فكأن السفينة ناقة يحدوها (يغني لها) الحادي؛ وما الحادي سوى الرجاء. ما أخلق مؤلفي كتب البلاغة المدرسية أن يجدوا في مثل هذا البيت مادة لتعذيب التلامذة!

قل لبانٍ بنى فشادَ فغالى: لم يَجُزْ مصرَ في الزَّمانِ بِناءُ

قل لمن يبني الصروح ويبالغ في رفعها: لم يجز (يتفوق على) مباني مصر في كل الزمن أي بناء

زعموا أنها دعائمُ شِيدتْ   بِيَدِ البَغْيِ، مِلْؤُها ظَلْماءُ

زعموا أن مباني مصر، كالأهرام، دعائم للملك العظيم شِيدت (بُنيت) بيد البغي (الظلم)، وأن المباني مليئة بالظلام - ظلام تسخير الناس -

فاعذِرِ الحاسدينَ فيها إذا لا   موا، فصعبٌ على الحَسودِ الثناءُ

اعذر الحاسدين في شأنها إذا لاموا، فصعب على الحسود أن يمدح

لا رعاكَ التاريخُ يا يومَ قَمبيـ   ـزَ، ولا طَنطَنتْ بكَ الأنباءُ

لا رحمكَ التاريخ يا يوم (غزو/وأيام العرب غزواتها) قمبيز (ملك الفُرس)، ولا طنطنت (رددت) الأنباء بذكرك

بنتُ فِرعوْنَ في السَّلاسلِ تمشي   أزعجَ الدهرَ عُريُها والحَفاءُ

هذه بنت فرعون تمشي في قيودها، وعريها وحفاؤها يزعجان الدهر (أحرارَ الناس على مر الدهر)

فكأنْ لمْ ينهضْ بهَوْدَجِها الدهـ   ـرُ، ولا سارَ خلفَها الأُمراءُ

كأنما لم يحمل الدهر نفسه في أيام العز هودجها (والهودج إنما يحمله الجمل أو الفيل لا الدهر)، وكأنما لم يكن يسير خلفها الأمراء

وأبوها العظيمُ ينظرُ لمَّا   رُدِّيتْ مثلما تُردَّى الإماءُ

وأبوها فرعون كان ناظراً عندما رُدِّيتْ (أُلبست) كما تُلبَس الإماء (الجواري)

أُعطيتْ جَرَّة، وقيل إليكِ النَّـ ـهرَ، قومي كما تقومُ النساءُ

أُعطيت بنت فرعون جرة، وقيل: إليكِ (ها هو) النهر، قومي كغيرك من النساء!

فمشتْ تُظْهِرُ الإباءَ، وتحمي الدَّ مْعَ أن تَسْتَرِقَّهُ الضَّرَّاءُ

مشت وفي مِشيتها الإباء (العِزَّة)، وهي تحمي دمعها من أن تسترقه (تستعبده) الضرَّاء (المصيبة)

والأعادي شَوَاخِصٌ، وأبوها بِيَدِ الخَطْبِ صخرةٌ صمَّاءُ

والأعداء شاخصون (رافعو الرؤوس)، وأبوها واقع في قبضة الخطب (المصيبة) وكأنه صخرة صماء (مصمتة) لا تعابير على وجهه

فأرادوا لينظُروا دمعَ فِرْعَوْ نَ، وفِرْعَوْنُ دمعُهُ العَنْقاءُ

فأراد الأعداء أن يروا دمع فرعون، وفرعون دمعه العنقاء (الطائر الخرافي غير الموجود)، فلا وجود لشيء اسمه «دمع فرعون»

فأَرَوْهُ الصديقَ في ثوبِ فقرٍ يسألُ الجمعَ. والسؤالُ بلاءُ

فأروه صديقه في ثوب رث يدل على الفقر وهو يسأل الناس إحساناً. والسؤال بلاء

فبكى رحمةً، وما كان مَنْ يبـ ـكي، ولكنَّما أرادَ الوفاءُ

عندئذٍ بكى فرعون رحمة له، وما كان فرعون ممن يبكون، إنما أراد منه وفاؤه أن يبكي

وابْكِ عَمْراً إن كنتَ مُنْصِفَ عَمْرٍو إنَّ عَمْرواً لَنَيِّرٌ وَضَّاءُ

وابكِ، أيها السامع، عمرو بن العاص إن كنت منصفاً إياه - وما أكثر أعداء عمرو! -، فعمرو نيِّر وضَّاء (مشرق)

جادَ للمسلمينَ بالنيلِ، والنيـ لُ لِمَنْ يقتنيهِ إفريقِياءُ

فقد جاد للمسلمين (تفضَّل عليهم) بالنيل بفتحه مصر، والنيل لمن يقتنيه (يملكه)، مفتاح إفريقية

واذكُرِ الغُرَّ آلَ أيُّوبَ وامدحْ فَمِنَ المدحِ لِلرجالِ جَزاءُ

واذكر الغر (المشرقين إشراقاً) آل أيوب (الأيوبيين)، وامدحهم، - فلئن كان كثير من المدح تزلفاً - فإن من المدح أيضاً جزاءً (مكافأة) للرجال

هكذا المسلمونَ والعَرَبُ الخا لونَ، لا ما يقولُهُ الأعداءُ

هذه حقيقة المسلمين والعرب الخالين (الماضين)، لا ما يقوله الأعداء

لـيسَ لـلـذُّلِّ حِيـلَـةٌ فـي نُـفـوسٍ   يـستـوِي الـموتُ عـنـدَهـا والـبَـقـاءُ

لا حيلة للذل في الوصول إلى نفوس - كنفوس أولئك العرب الفاتحين - يستوي (يتساوى) بالنسبة لها الموت والحياة. لغة شوقي الشاب (نحو ٢٦ سنة) غنية، مفعمة بالإشارات التاريخية، وتنبئ عن ثقافة عربية متينة، وهو يستعمل اللغة باقتدار ويقلبها بين يديه كيف شاء، متعسفاً حيناً، آتياً بالطريف حيناً. وهو مع ذلك يقول ما يريد، ولا تجره الألفاظ إلى أن يقول ما لا يريد. وهو يعبر عن موقف. وهذه القصيدة فيها نَفَس خطابي هو نَفَس الشعر العربي في عصوره الزاهية. هذه القصيدة تعود إلى سنة ١٨٩٤ ففيها انعقد مؤتمر المستشرقين العاشر في جنيف. وفي مقدمة شوقي لديوانه الصادر للمرة الأولى عام ١٩٠٠ قال إن المؤتمر عقد سنة ١٨٩٦، ولعل هذا منه نسيان أو إهمال. وقد تكرر هذا الغلط في إعادة طبع مقدمة الديوان في عدة كتب. لكن مؤتمرات المستشرقين مرصودة في عدة وثائق. أول مؤتمر لهم عقد قبل ذلك بمئة وعشرين سنة في باريس، وآخر مؤتمر - فيما وصل إلى علمنا - كان مؤتمر موسكو ٢٠٠٤، وهو السابع والثلاثون. والمؤتمر الذي حضره شوقي عقد في جنيف سنة ١٨٩٤ خلافاً لما تكاد تجمع عليه الكتب ومواقع الإنترنت. لا بد أن المستشرقين هزوا رؤوسهم دهشة وهم يسمعون مندوب مصر يلقي قصيدة، بدل أن يساهم ببحث علمي. ولكننا نعرف أن شوقي صنع علاقات طيبة مع عدد من المستشرقين، ولعل حماسة هذا الشاب الشرقي لمست ركناً في نفوسهم

١١ العاقبة الأكيدة

أرى الـمـوتَ عـلـى الـغَـبْـرا   هُـوَ الـجـامـعـةَ الـكُـبـرى

أرى الموت على الغبرا (الأرض) هو الجامعة الكبرى (هو العنصر الجامع بين الناس كلهم)، فهو القاسم المشترك بين الناس كلهم

هـو الـدربُ إلـى الـدنـيـا   هـو الـدربُ إلـى الأُخـرى

الموت هو الدرب إلى الدنيا، فلولا أن هناك ناساً يموتون لما كان ثمة موضع لناس يولدون، وهو الدرب إلى الأخرى (الحياة الأخرى)

فـإنْ لـمْ يَـكُ غـيـرُ الـمـو   تِ مِـنْ عـاقـبـةٍ تُـدرَى

فإذا لم يكن بعد الموت حياة تُدرى (تُعرف)..

فـإنْ شـئـتَ فـمُـتْ عـبـداً   وإنْ شـئـتَ فـمُـتْ حُـرًّا

فإن شئت فمت وأنت عبد، وإن شئت فمت وأنت حر، فما أقل الفرق بين عبد وحر في حياة زائلة لا يترتب عليها شيء

١٢ الدنيا بستان

وروضٍ، كما شاءَ المُحِبُّونَ، ظِلُّهُ لَـهُـمْ ولأسـرارِ الـغـرامِ مَـديـدُ

رب روض (بستان) هو كما يريده المحبون، فظله ممتد يضمهم ويضم أسرار غرامهم

تُظَلِّلُنا، والطيرَ، في جَنَباتِهِ غصونٌ قيامٌ للنسيمِ سجودُ

تظللنا، نحن والطيور في جنباته (نواحيه)، غصون ترتفع وتهبط مع النسيم (كما يقوم ثم يسجد المصلي)

وقامتْ لديها الطيرُ شتَّى فآنِسٌ بأهلٍ، ومفقودُ الأليفِ وحيدُ

ووقفت عند هذه الغصون أنواع الطير، فمنها الآنس (المنشرح) بأهل (بزوج)، ومنها الوحيد الذي لا أليف له

وباكٍ ولا دمعٌ، وشاكٍ ولا جوىً وجَذْلانُ يشدو في الرُّبى ويُشيدُ

ومنها من يبكي لكن بلا دمع، ومنها الشاكي لكن بلا جوى (حزن)، ومنها الجذلان (الفرِح) الذي يشدو (يغرد) في الهضاب ويشيد (يتغنى راضياً)

غشِيناهُ والأيامُ تَندَى شَبيبةً ويقطُرُ منها العيشُ وهْوَ رغيدُ

غشينا الروض (أتيناه) والأيام تندى (يغلفها الندى) لما نحن فيه من حلاوة الشباب، ويقطر العيش كالعسل من أيامنا رغيداً (هانئاً)

ونَحكُمُ حتى يَقبلَ الدهرُ حُكمَنا ونحنُ لسلطانِ الغرامِ عَبيدُ

ونحكم (نصر على رغباتنا) والزمن يقبل حكمنا وينفذ إرادتنا، لكننا عبيد لسلطان الغرام

أقولُ لأيامِ الصِّبا كلما نَأَتْ: أما لكَ يا عهدَ الشبابِ مُعيدُ

أقول لأيام الصبا كلما نأت (ابتعدت): أليس هناك من يعيدك يا عهد الشباب؟

ومِنْ عبثِ الدنيا، وما عبثَتْ سُدىً شَبَبْنا وشِبْنا والزمانُ وليدُ

ومن عبث الدنيا، وليس عبثها سدى (جزافاً)، أننا كنا شباباً ثم شبنا والزمان ما زال وليداً. الإنسان الطبيعي كلما تقدمت به السن يظن أن «الدنيا آخر وقت» لأن الزمن تغير كثيراً إلى حد الظن بأن أشراط الساعة أخذت تظهر؛ ولكنه عندما يرى كيف يستقبل أولاده وأحفاده من الدنيا ما استدبر يوقن أن الزمان يبقى طفلاً، وأنه هو فقط الذي شاخ

١٣ دهاء

قد أتعبَ الأعداءَ مَنْ داراهُمُ فأقِمْ عدوَّكَ باللِّيانِ وأَقْعِدِ

قد أتعب أعداءه فعلاً من داراهم. فاجعل عدوك يقوم ويقعد ويضطرب بما تبديه له من الليان (الملاطفة)

إنَّ الأراقـمَ لا يُـطـاقُ لـقـاؤهـا وتُـنـالُ مِـنْ خَـلْـفٍ بـأطـرافِ الـيـدِ

إن الأفاعي لا يطاق لقاؤها من الأمام، لكنها تُنال (تُمسك) من الخلف بأطراف اليد (بالأصابع). اتخذ طه حسين، في مقال له من خمسين صفحة صغيرة سماه «حافظ وشوقي»، من هذين البيتين تكأة لكي يتحدث عن شخصية شوقي وعن نظرته إلى التجديد: «.. هو لا يستقبل التجديد ولكن يستدبره. وهو لا يدخل البيوت من أبوابها، ولكن يأتيها من ظهورها. وهو لا يجدِّد في صراحة وشجاعة وثبات للخصوم، ولكنه يجدد في لباقة ومداورة والتواء على المناهضين. وكأن هذه القاعدة صيغت من طبع شوقي فسيطرت على حياته الأدبية، وسيطرت على حياته الشخصية أيضاً. فهو لم يواجه الناس بتجديد عنيف في الأدب قط. وهو لم ينهض لخصومةِ ناقد من نقاده، بل لم يجرؤ على أن يلقى نقاده بالعتب. إنما كان يعاملهم معاملة الأراقم، لا يلقاهم ولكنْ يأخذهم من خلف بأطراف اليد. يغري بهم ويؤلب عليهم، ثم يلقاهم باسماً مراوغاً. ولا يتحرج من زيارتهم واستزارتهم كأنهم من أحب الناس إليه.. يُظهر لهم صفحة واضحة نقية، ومن وراء هذه الصفحة صفحات بيض، وصفحات سود». انتهى كلام طه حسين

١٤ صوني جمالك عنا

قال شوقي (١٨٩٤):

اللّهَ في الخلقِ من صَبٍّ ومِنْ عانِ تَفْنى القلوبُ ويبقى قلبُكِ الجاني

اللهَ (أي اتقي اللهَ) في الخلق: الصبُّ (المحب) منهم والعاني (الأسير بحبك). القلوب تفنى عشقاً ويبقى قلبك الجاني (المجرم)

صُونـي جـمـالَـكِ عـنَّـا، إنَّـنـا بـشـرٌ مِنَ الترابِ، وهذا الحسنُ رُوحاني

احفظي جمالك بعيداً عن نظرنا، فنحن بشر من تراب وحسنك (جمالك) روحاني

١٥ نبتٌّ بين جوانحي

قال شوقي (١٨٩٤):

مُـضْـنـىً ولـيـس بِـهِ حَـراكْ لـكـنْ يَـخِـفُّ إذا يَـراكْ

عاشقكَ مضنىً (مريض) وليس به حراك، لكن يخف (يشفى/ وينشط) إذا رآكَ

ويـمـيـلُ مِـنْ طـربٍ إذا مـا مِـلْـتَ يـا غُـصـنَ الأَراكْ

ويميل من الطرب إذا ملتَ يا غصن الأراك (شجرٌ له ساق طويلة)

إن الـجـمـالَ كـسـاكَ مِـنْ وَرَقِ الـمـحـاسِـنِ مـا كَـسـاكْ

إن الجمال كساك أيها الغصن ورقاً ليس كورق الشجر بل هو المحاسن نفسها

ونَـبَـتَّ بـيـنَ جـوانـحـي والـقـلـبُ مِـنْ دمِـهِ سـقـاكْ

وقد نبتَّ أيها الغصن داخل جوانحي (أعضائي)، وسقاك قلبي من دمه

حـلـوَ الـوعـودِ! مـتـى وفـاكْ أتُـراكَ مُـنـجـزَهـا تُـراكْ

يا حلوَ الوعود متى وفاءُك بها، هل أنت منجزها يا ترى؟

مِـنْ كـلِّ لـفـظٍ لـو أذِنْـتَ لأجـلِـهِ قَـبَّـلْـتُ فـاكْ

ووعودك مكونة من كل لفظ عذب لو أذنت (سمحت) لي لقبلت فمك لأجله

يَـروي الـحـلاوةَ عـن ثـنـايـاكَ الـعِـذابِ وعَـنْ لَـمـاكْ

وهذا اللفظ يروي (ينقل شفاهاً) الحلاوة عن ثناياك (أسنانك) العذبة، وعن لَماك (ريقك)

ظُـلـمـاً أقـولُ: جـنـى الـهـوى، لـم تـجـنِ إلَّا مُـقـلـتـاكْ

أنا أظلم الحق إذ أقول الجاني هو الهوى، ما جنى علي إلا مقلتاك (عيناك)

مـن عـلَّـمَ الأجـفـانَ فـي أهـدابِـهـا مـدَّ الـشِّـبـاكْ

من الذي علَّم الأجفان القابعة خلف أهدابها (رموشها) أن تمد الشِّباك لنقَعَ فيها؟

وتَـصَـيُّـدَ الآسـادِ بـالآجـام تـسـلُـبُـهـا الـحَـراكْ

ومن علمها تصيُّدَ الأسود في الآجام (الأدغال) فتسلبها الحراك؟

١٦ المخاطرة

قال شوقي (١٨٩٥):

عـرضـوا الأمـانَ عـلـى الـخـواطِـرْ واسـتـعـرضـوا الـسُّـمْـرَ الـخـواطِـرْ

لقد عرضوا الأمان على الخواطر (النفوس) إذ استعرضوا قاماتهم الرشيقة الشبيهة بالسمر (الرماح) الخواطر (المهتزة). يتحدث عن الأغصان ويقصد النساء فمن هنا التذكير وخطاب العاقل

فـوقـفـتُ فـي حَـذَرٍ، ويَـأْبـى الـقـلـبُ إلَّا أنْ يُـخـاطِـرْ

فوقفتُ حذِراً، والقلب يأبى إلا المخاطرة

يـا قـلـبُ! شـأنَـكَ والـهـوى هـذي الـغـصـونُ وأنـتَ طـائـرْ

يا قلبي الزم شأنَك مع الهوى (أنت حر بشأن الهوى)، هذه النساء غصون، وأنت كالطائر

إنَّ الـتـي صـادتْـكَ تَـسْـعـى بـالـقـلـوبِ لـهـا الـنَّـواظِـرْ

أمر الحسناء التي صادتك هو: أن نواظر الناس (عيونهم) تسوق قلوب أصحابها إليها

١٧ وإنما الأمم الأخلاق

قال شوقي (١٨٩٥):

الصدقُ أرفعُ ما اهتزَّ الرجالُ لَهُ وخيرُ ما عَوَّدَ ابْناً في الحياةِ أبُ

الصدق أرفع (أعلى) شيء اهتزَّ له الرجال (حركتهم الشهامة)، وخير ما يعوِّد الأبُ ابنَه في الحياة

وإنما الأممُ الأخلاقُ، ما بقيتْ، فإن هُمُ ذهبتْ أخلاقُهُمْ ذهبوا

والأمم بأخلاقها، طالما بقيت لها أخلاق. فإن لم تبق أخلاق لم تبق الأمم

١٨ الغبيّ والدنيّ

قال شوقي (١٨٩٥):

أخا الحلمِ مهلاً في المكارمِ والندى وفي رحمةِ الحُسَّادِ والرفقِ بالعِدى

يا ذا الحلم (يا صاحب الحلم) تمهل ولا تبالغ في العفو والكرم، وفي الرفق بالحساد والأعداء

فلنْ تُدنيَ النفسَ التي قد قصدتَها بحِلْمِكَ أقصى من هواها وأبعَدا

فلن تدني (تقرِّب) النفس التي طوقتها بحلمك بأكثر من رغبتها في الاقتراب

ومِنْ حُرمةِ النَّعْماءِ ألّا تُنيلَها غبياً فيَنْسى أو دَنيّاً فيَجْحَدا

ومن واجب النعماء (النعمة) عليك ألا تنيلها (تمنحها) شخصاً غبياً فإنه ينسى المعروف، ولا دنياً (دنيئاً حقيراً) فإنه ينكر المعروف

١٩ مماطلة

قال شوقي (١٨٩٦):

أذعَنَ للحُسْنِ عَصِيُّ العِنانْ وحاولَتْ عيناكَ أمراً فكانْ

أذعن (خضع) للجمال هذا الرجل العصي العِنان (الممتنع، وكأنه الحصان الصعب الإمساك بعنانه)، وحاولت عيناكَ أمراً (إيقاعه في الحب) فكان لك ذلك

يا مُسْرِفاً في التِّيهِ ما ينتهي أخافُ أن يَفنَى علَيْنا الزَّمانْ

أيها المسرف في التيه (المبالغ في التكبر) الذي لا ينتهي (يقلع) عن إسرافه، أخاف أن ينتهي الزمان نفسه وأنت ما تزال في تكبرك

ويا كثيرَ الدَّلِّ في عِزِّهِ لا تنسَ لي عِزِّيَ قُبَيْلَ الهَوانْ

ويا كثير الدلِّ (التدلل)، يا مفتخراً بعزه، لا تنس أنني كنت عزيزاً قبل الهوان (الذل) في حبك

٢٠ خير الأمور الوسط

قال في ذكرى الأمير محمد عبد المنعم (١٨٩٦):

ومـا الـدنـيـا بـمـثـوىً لـلـعـبـادِ فـكـنْ ضـيـفَ الـرِّعـايـةِ والـوِدادِ

الدنيا ليست مثوى (مقراً دائماً) للناس، فكن ضيفاً محاطاً بالرعاية والحب

ولا تَـسْـتَـكْـثِـرَنَّ مِـنَ الأعـادي فـشـرُّ الـنـاسِ أكـثـرُهُـمْ خُـصـومـا

ولا تجعل أعداءك كُثراً، فأسوأ الناس أكثرهم خصوماً

ولا تـجـعـلْ تـودُّدَكَ ابـتـذالا ولا تـسـمـحْ بـحِـلْـمِـكَ أنْ يُـذالا

ولا تبتذل ودك بمنحه لمن هب ودب، ولا تتسامح بحلمك أن يذال (يهان)

وكُـنْ مـا بـيـنَ ذاكَ وذاكَ حـالا فـلنْ تُرضيِ العدوَّ ولا الحَمـيـمـا

كن وسطاً، فالمبالغة في التودد أو في التشدد غير مفيدة. وأنت ـ بعد ـ لن ترضي العدو والصديق الحميم معاً

٢١ رب الشعر

قال شوقي (١٨٩٧):

قَوافٍ لربِّ الشِّعرِ، لا النَّظْمُ طائلٌ إذا هِيَ سارتْ في البلادِ ولا النقدُ

هذه قصائد لرب الشعر (صاحب الشعر)، لا النظم الآخَرُ طائل (نافع) في التفوق عليها إذا هي سارت (انتشرت) في البلاد، ولا النقد نافع في الحد من أثرها. كان داود عمون انتقد قصيدة سابقة لشوقي، فشوقي هنا يشير إليه. وقد عاد عمون فرد على شوقي قائلاً:
أكُلَّ الذي خطَّتْ يمينُكَ مُنْزَلٌ/ وكلَّ الذي يُلقيهِ فوكَ لنا شهدُ ـ على أنَّه لو كان خصميَ مُنصفي/ لكان جزائي عندَه الشكرُ والحمدُ ـ فإنيَ قد داويتُهُ من غرورِه/ ولوْلايَ كان الداءُ ينمو ويشتدُّ

أوانـسُ أحـيـانـاً، شـواردُ تـارةً لـهـا لَـعِـبٌ آنـاً، وآنـاً لـهـا جِـدُّ

القصائد أوانس (أليفة) أحياناً، وشوارد (غريبة كالناقة الشاردة) أحياناً، وهي لاهية أحياناً، وجادة أحياناً

وتُؤْوي يـتـيـمـاتِ الـدُّهـورِ بـيـوتُـهـا فتُمسي ومِنْ مَبْنى الجَلالِ لها مَهْدُ

وأبيات قصائدي تُؤوي المعاني اليتيمة (النادرة) التي لا تأتي إلا نادراً في الدهور، وتمسي هذه المعاني وقد جُعل مبنى الجلال (البناء اللفظي الفخم) مهداً لها. إنَّ حل كلامِ شوقي (تفسيره بالنثر) يلجئنا إلى الكثير من التحايل. تراه يسمي أبيات الشعر بيوتاً، ثم ترى ما وراء ذلك، فالبيت «يؤوي» المعاني، فهي أبيات لأنها من شعر، وهي بيوت لأنها تُؤوي. لغة شوقي مركب، ويسير فيها أكثر من تيار في آن معاً. ومن هنا تكتسب رنيناً أقوى، وتشحن المعنى وتكثفه

٢٢ جمدت عيني وعينك

قال شوقي يرثي والده (١٨٩٧):

انـظُـرِ الـكـونَ وقُـلْ فـي وصْـفِـهِ   كـلُّ هـذا أصـلُـهُ مِـنْ أَبَـوَيْـنْ

انظر إلى الكون (يعني أهل الكون) وقل في وصفه: كل هذا أصله من رجل وامرأة

فَـقَـدا الـجـنَّـةَ فـي إيـجـادِنـا   ونَـعِـمْـنـا مِـنْـهُـمـا فـي جـنَّـتـيْـنْ

فقدَ آدم وحواء الجنة في سياق عملية إنجابنا، ونعِمنا بهما بجنتين: الأب جنة، والأم جنة

يـا أبـي! والـمـوتُ كـأسٌ مُـرَّةٌ   لا تـذوقُ الـنفسُ مِنها مرَّتـيْـنْ..

يا أبي! بما أن الموت كأس مرة تذوقها النفس مرة واحدة..

لا تـخـفْ بَـعـدكَ حُـزنـاً أو بُـكـا   جَـمَـدَتْ مِـنِّـي ومِـنْـكَ الـيومَ عَـيْـنْ

فلا تخفْ عليَّ بعدك حزناً أو بكاء، فبموتك جمدت عيني فلن أبكي غيرك، وجمدت عينك لأنك مت

أنـتَ قـد عـلَّـمْـتَـنـي تَـرْكَ الأسـى   كـلُّ زيْـنٍ مُـنـتـهـاهُ الـمـوتُ شَـيْـنْ

علمتني ترك الأسى (الحزن)، فكل أمر جميل منتهاه (مصيره) الموت هو على الحقيقة قبيح

لـيـتَ شِـعـري! هـلْ لـنـا أنْ نـلـتـقـي   مَـرَّةً، أمْ ذا افـتـراقُ الـمَـلَـوَيْـنْ

ليت شعري (يا تُرى) هل لنا أن نلتقي مرة أخرى، أم هذا الفراق بيننا كفراق المَلَوَيْن (الليل والنهار) فهما دائماً مفترقان لا يأتي أحدهما إلا بذهاب الآخر

٢٣ ليلة عجيبة

قال شوقي في مولد ابنته أمينة ووفاة والده (١٨٩٧):

يـا لـيـلـةً! سَـمَّـيْـتُـهـا لـيـلـتـي   لأنـهـا بـالـنـاسِ مـا مَـرَّتِ

يا لها من ليلة، وقد سميتها ليلتي أنا دون غيري لأن مثلها لم يمر بأحد قبلي

نَـبَّـهَـنـي الـمَـقْـدورُ في جُـنْـحِـهـا   وكـنـتُ بـيـنَ الـنـومِ والـيـقْـظَـةِ

أيقظني المقدور (القدر المحتوم) في وسطها، وكنت نصف نائم

الـمـوتُ عَـجْـلانُ إلـى والـدي   والـوضعُ مُـسْـتَـعصٍ عـلـى زوجـتـي

كان أبي يحتضر والموت يعاجله، والولادة مستعصية على زوجتي

حـتـى بـدا الـصـبـحُ فـولّـى أبـي   وأَقـبـلـتْ بـعـدَ الـعـنـاءِ ابـنـتـي

وبمجيء الصباح ذهب أبي، وجاءت بعد طول التعب ابنتي

فـقـلـتُ: أحـكـامُـكَ حِـرْنـا لـهـا   يـا مُـخـرجَ الـحـيِّ مِـنَ الـمـيـتِ

فقلت: استبدت بنا الحيرة لأحكامك يا رب، يا من يخرج الحي من الميت

٢٤ الحكم للقوي

قال في الحرب بين تركيا واليونان سنة (١٨٩٧) ويخاطب السلطان عبد الحميد:

بسيفِك يعلو الحقُّ، والحقُّ أَغلَبُ   ويُـنـصَـرُ ديـنُ الـلـهِ أيَّـانَ تَـضـرِبُ

الحق يعلو بسيفك، والحق ذو غلبة، ودين الله يُنصر أيان (أينما) تضرب وتحارب

وما السيفُ إلَّا آيةُ الملك في الوَرى   ولا الأمـرُ إلَّا لـلـذي يـتـغـلَّـبُ

وما السيف إلا آية (دليل) الملك عند الناس، وما الأمر (الحكم) إلا لمن يغلب في الحرب

سـهـرتَ ونـام الـمـسـلـمونَ بغِبطةٍ   ومـا يُـزعَـجُ الـنُـوّامُ والـسَّـاهـرُ الأبُ

سهرت ترعى شؤون المسلمين فناموا هانئين، ولا ينزعج النائمون أثناء نومهم إذا كان من يسهر عليهم هو أباهم

ولـمْ يـتـكـلَّـفْ قـومُـكَ الأُسْـدُ أُهْـبَـةً   ولـكـنَّ خُـلْـقاً في الـسِّـبـاعِ الـتـأهُّـبُ

لم يتكلف قومك الأسود الاستعداد تكلفاً، فالاستعداد خلق (طبع أصيل) في السباع

أسأْتُمْ، وكان السُّوءُ منكمْ إليكمُ،   إلـى خيرِ جارٍ عندَهُ الخيرُ يُطلَبُ

أسأتم أيها اليونانيون، وارتد السوء إليكم؛ أسأتم إلى أفضل جار، جارٍ يرتجى منه الخير

فلوْلا سيوفُ التُّرْكِ جرَّبَ غيرُكمْ   ولـكـنْ مِـنَ الأشـيـاءِ مـا لا يُـجـرَّبُ

ولولا أن للترك قوة لجرب غيركم العصيان، ولكن هناك أشياء لا تجرَّب لخطورتها

لـقـد فَـنِـيَـتْ أرزاقُـهُـمْ ورجـالُـهـمْ   ولـيـس بِـفـانٍ طـيـشُـهُـمْ والـتـقـلُّـبُ

هؤلاء اليونانيون نفدت مؤنتهم وقُتل رجالهم، ولكن طيشهم وتقلبهم لا ينفدان

فـإنْ يـجـدوا لـلـنفسِ بـالـعَـوْدِ راحـةً   فقد يشتهي الموتَ المريضُ المعذَّبُ

فإذا وجدوا في العودة للعصيان راحة، فهم كالمريض المتألم الذي يشتهي الموت

وإنْ هـمَّ بـالـعفوِ الـكـريـمِ رجـاؤهـمْ   فـمِـنْ كَـرَمِ الأخـلاقِ ألَّا يُـخَـيِّـبـوا

وأمّا إن همَّ (تطلَّعَ) أملهم ورجاؤهم بالعفو الكريم، فمن حُسن الأخلاق ألا يُردَّ طلبهم

٢٥ أكُفٌّ تسيل بالخصور

قال شوقي يصف حفل رقص في قصر عابدين (١٨٩٧):

حَــفَّ كــأسَــهــا الــحَــبَــبُ   فَــهْــيَ فِــضَّــةٌ ذَهَــبُ

أحاط بكأس الخمر الحبب (الفقاقيع)، فالفقاقيع مثل الفضة والخمر كالذهب

اَلــلُّــيــوثُ مــاثِــلَــةٌ   والــظِّــبَــاءُ تَــنْــسَــرِبُ

الليوث (الأسود/ الرجال) واقفون متأهبون، والظباء (الغزلان/ النساء) تنسرب (تنساب) أثناء الرقص

فــالــقُــدودُ بــانُ رُبــىً   بَــيْــدَ أنَّــهــا تَــثِــبُ

وقدودهن مثل أغصان البان، بيد أنها (غير أنها) تقفز في الرقص

والــخُــصــورُ واهِــيَــةٌ   بــالــبَــنــانِ تَــنْــجَــذِبُ

وخصورهن واهية (نحيلة ضعيفة)، ويجذبها الرجال بالبنان (أطراف الأصابع)

ســالَــتِ الأكُــفُّ بــهــا   فَــهْــيَ أَغْــصُــنٌ نُــهُــبُ

أكف الرجال سالت بالخصور، فهي غصون مليئة بالثمر وهي منهوبة على أيدي الرجال

والــمُــدامُ أكْــؤُسُــهــا   مــا تَــغِــيــضُ والــعُــلَــبُ

لا كؤوس الخمر تغيض (تنضب)، ولا العلب (الأوعية الأكبر/ والعلبة هي الوعاء الذي يحلبون فيه الناقة، ولم تكن البيرة في زمن شوقي تُعَبَّأ في العلب)

وَهْــيَ بــيْــنَــنــا سَــلَــبٌ   والــنُّــهَــى لــهــا سَــلَــبُ

والخمر بين الحاضرين سَلَب (غنيمة)، والنهى (العقول) غنيمة للخمر تأخذها وتذهب بها

لــيــلــةٌ عَــلَــتْ وغَــلَــتْ   لــيــتَ فَــجْــرَهــا كَــذِبُ

ليلة عالية القدر وغالية علينا، ليت الفجر الذي جاء بعدها كان فجراً كاذباً (الفجر الكاذب يسبق الفجر الحقيقي بمدة)

٢٥ لا أحد بعدك

قال شوقي يرثي سليمان أباظة الذي كان وزير المعارف عقب الثورة العرابية (١٨٩٧):

مــن ظــنَّ بــعــدَكَ أن يــقــولَ رثــاءَ   فــلــيــرثِ مِــنْ هــذا الــورى مَــنْ شــاءَ

من أراد بعدك رثاء أحد فليرث من الورى (الناس) من يشاء فالناس متشابهون، وأنت فقط كنت المميز

فَجَعَ المكارمَ فاجعٌ في رَبِّها والمجدَ في بانِيهِ والعلياءَ

فجع الموتُ المكارمَ وكانت الفجيعة في رب المكارم (صاحبها/أي المرثيّ)، وفجع الموتُ المجد بأخذه باني المجد، وفجع العلياء أيضاً

٢٧ أمينة في مصيدة البصر

قال شوقي في ابنته عندما بلغت سنة من عمرها (١٨٩٨):

أمينَتي في عامِها الـ أوَّلِ مثلُ المَلَكِ

ابنتي أمينة في عامها الأول مثل الملاك

صالحةٌ للحُبِّ مِنْ كُلٍّ ولِلتَّبرُّكِ

جديرة بالحب من الجميع، ويتبركون بها

فإنْ مَشَتْ فخاطِري يسبِقُها كالمُمْسِكِ

إن مشت ففكري يسبقها حتى ليكاد يمسكها خوفاً عليها وشغفاً بها

ألحَظُها كأنها مِنْ بَصَري في شَرَكِ

ألحظها (أتابعها ببصري) كأن بصري لها المصيدة فلا تفلت منه

إنَّ الليالي، وَهْيَ لا تنفكُّ حربَ أَهْلِكِ

إن الليالي (مشكلات الدنيا) وهي لا تنفك حرباً (معادية) لأهلك..

لوْ أنصَفَتْكِ طفلةً لكنتِ بنتَ الملك

لو أن هذه المشكلات كانت منصفة، يا طفلة، لكنت بنت الملك

٢٨ أنانية الطفل

قال شوقي في ابنته أمينة وكلبها:

يا حبَّذا أمينةٌ وكلبُها تحبُّهُ جداً كما يحبُّها

يا حبذا (ما أبدع!) أمينة وكلبها! وهي تحبه وهو يحبها

جاءت بِهِ إليَّ ذاتَ مَرَّةْ تحمِلُهُ، وهْيَ بِهِ كالبَرَّةْ

أحضرتْه إليَّ مرة تحمله وهي كأنها برَّة (بارّة) به

فقلتُ: أهلاً بالعروسِ وابنِها ماذا يكونُ يا تُرى مِنْ شأنِها

فقلت: أهلا بالعروس وابنها، فماذا شأنك؟

قـالـتْ: غُـلامـي يـا أبـي جَـوْعـانُ ومـا لـهُ كـمـا لـنـا لـسـانُ

قالت: غلامي جوعان، وليس له لسان ناطق مثلنا ليطلب الطعام

فَـمُـرْهُـمُ يـأتـوا بـخـبـزٍ ولَـبَـنْ ويُـحـضِـروا آنـيـةً ذاتَ ثَـمَـنْ

فلتأمرهم حتى يحضروا له الخبز واللبن الحليب في وعاء ثمين

فـقـمـتُ كـالـعـادةِ بـالـمـطـلـوبِ وجـئـتُـهـا أنـظـرُ مِـنْ قـريـبِ

فقمت بما طلبت كالعادة، ووقفت أنظر إليها من كثب

فـعَـجـنـتْ فـي الَّـلـبَـنِ الـلُّـبـابـا كـمـا تَـرانـا نُـطـعِـمُ الـكـلابـا

فعجنتْ لُبَّ الخبز في اللبن الحليب، كما كانت ترانا نطعم الكلاب

ثـم أرادتْ أنْ تـذوقَ قـبـلَـهُ فـاسـتـطْـعَـمَـتْ بـنـتُ الـكِـرامِ أكـلَـهُ

وأرادت أن تذوق قبله، فاستطعمت (ذاقت) أكله

هـنـاكَ ألـقـتْ بـالـصـغـيـرِ لِـلـورا وانـدفـعـتْ تـبـكـي بـكـاءً مُـفـتَـرى

عندئذ رمت الكلب الصغير خلفها، وأخذت تبكي بكاءً مفترى (كاذباً)

تـقـولُ: بـابـا أَنـا دَحَّـا وهْـوَ كُـخّ مـعـنـاهُ بـابـا لِـيَ وحـدي مـا طُـبِـخْ

وتقول: أنا دحًا وهو كخ، ومغزى كلامها هو أن هذا الذي «طبَخْتَه» لها وحدها

فـقـلْ لـمـنْ يـجـهـلُ خَـطْـبَ الآنـيـةْ قـدْ فُـطِـرَ الـطـفـلُ عـلـى الأنـانِـيَـةْ

المعنى الملموح: نعم، «كل إناء بما فيه ينضح» والإناء في هذا القول القديم هو نفوس البشر.
فقل لمن يجهل خطب (موضوع) الآنية (النفوس)، إن الطفل أناني بفطرته

٢٩ بنتي الغالية

قال شوقي وقد أتمت ابنته أمينة السنة الثانية:

أمـيـنـةُ يـا بِـنـتـيَ الـغـالـيـةْ أُهَـنِّـيـكِ بـالـسـنـةِ الـثـانـيـةْ

وأسـألُ أن تـسـلـمـي لـيِ الـسـنـيـنَ وأن تُـرزَقـيِ الـعـقـلَ والـعـافـيـةَ

أسأل الله أن تسلمي لي طول السنين، وأن ترزقي العقل الراجح والصحة

وأن تُـقْـسَـمـي لأَبَـرِّ الـرجـالِ وأنْ تَـلِـدي الأَنْـفُـسَ الـعـالـيـةْ

وأن تقسَمي (تكونين في قسمة ونصيب) لأبرّ رجل (رجل كثير البِرِّ والفضل)، وأن تنجبي أبناء نفوسهم متطلعة للأعلى

ولكنْ، سألتُكِ بالوالدينِ ونـاشدتُكِ اللُّعَبَ الغاليةْ
ولكن، أسألك بالوالدين، وأحلّفك بلعبك الغالية عليك (وعلينا أيضاً؟)

أتدْرينَ ما مرَّ منْ حادثٍ وما كانَ في السنةِ الماضيةْ
أتعرفين ما مرَّ من أحداث، وما وقع في السنة الماضية؟

وكَمْ بُلْتِ في حُلَلٍ مِنْ حريرٍ وَكَمْ قدْ كسرتِ مِنَ الآنيةْ
وكم قد بُلْتِ في حلل (أثواب) من حرير، وكم كسرت من الأواني؟

وكمْ سَهِرَتْ في رضاكِ الجفونُ وأنتِ على غَضَبٍ غافيةْ
وكم سهرتْ جفوننا لترضيكِ، وأنت تنامين غاضبة؟

وكمْ قد خَلَتْ من أبيكِ الجيوبُ وليستْ جيوبُكِ بالخاليةْ
وكم مرة خلا جيب أبيك من المال، وجيوبك ملأى (بالحلوى)؟

وكمْ قد شكا المُرَّ من عَيْشِهِ وأنتِ وحَلْواكِ في ناحيةْ
وكم شكا أبوك عيشته المُرَّة، وأنت منتبذة مكاناً قصياً ولا هم لك إلا الحلوى؟

وكمْ قد مرضْتِ فأسْقمتِهِ وقمتِ فكنتِ لهُ شافيةْ
وكم قد مرضت فمرض أبوك لمرضك، وقمت من المرض فشفيته بقيامك؟

ويَضحكُ إنْ جئتِهِ تضحكينَ ويبكي إذا جئتِهِ باكيةْ
ويضحك إن ضحكت، ويبكي إن بكيت

ومِنْ عَجَبٍ مرَّتِ الحادثاتُ وأنتِ لأحداثِها ناسيةْ
كل هذا مرَّ، وأنت ناسية كل شيء

فلوْ حَسَدتْ مهجةٌ وُلْدَها حسدتُكِ مِنْ طفلةٍ لاهيةْ
لو كان يمكن أن تحسد المهجة (القلب) ولدها، لحسدتك أيتها الطفلة التي تلهو دائماً

٣٠ وقد جنيت على علي

قال شوقي في مولد ابنه علي، حوالي سنة (١٨٩٨):

صار شوقي أبا علي في الزمان التَّرَلَّلي
صار شوقي «أبا علي» في هذا الزمان التَّرَلّلي (المتقلب/ كلمة تركية الأصل)

وَجَنَاهَا جِنَايَةً لَيْسَ فِيهَا بِأَوَّلِ
وجنى شوقي جناية على ولده بأن أتى به للدنيا، وهو ليس أول جانٍ، فأبو شوقي جنى على شوقي

٣١ العبقرية لا تورث

قال شوقي في مولد ابنه علي، حوالي سنة (١٨٩٨):

رُزِقْتُ صَاحِبَ عَهْدِي وتَمَّ لِيَ النسلُ بعدي
رزقت وليّ عهدي، وضمنت أن يستمر نسلي

هُمْ يَحْسُدُونِي عَلَيهِ ويَغْبِطُونِي بِسَعْدِي
يحسدونني عليه، ويغبطونني (يتمنون لأنفسهم مثلي بلا حسد) بسعدي (حظي)

ولا أَرانِي ونَجْلِي سَنَلْتَقِي عِنْدَ مَجْدِ
ولا أرى أن ابني سيساويني في المجد والمكانة

وسوفَ يعلمُ بيتي أنِّي أنا النسلُ وحدي
سوف يعلم أهل بيتي أن النسل الحقيقي الذي سيخلد هو أنا فقط

فيا عليِ لا تلُمْنِي فما احتقارُكَ قصْدي
فلا تلمني على هذا القول يا علي، فلست أقصد احتقارك (تصغير شأنك)

وأنتَ منِّي كَروحي وأنتَ مَنْ أنتَ عِندي
فأنت بالنسبة لي مثل روحي، وأنت هو أنت عندي وكفى

فإنْ أساءَكَ قَوْلي كَذِّبْ أباكَ بِوعدِ
فإن ساءك قولي، فتفضل كذِّبني بوعد بأن تكون نابغاً

٣٢ ظالم

قال شوقي (١٨٩٨):

علِّموهُ كيف يجفو فجفا ظالمٌ لاقيتُ منْهُ ما كفى
علِّموه كيف يجفو (يهجر) فجفا، هذا الظالم لاقيت منه ما يكفي

مسرِفٌ في هجرِهِ، ما ينتهي أتُراهُمْ علَّموهُ السَّرَفا
يبالغ في الهجر، ولا ينتهي (لا يكفُّ)، فهل تُراهم علموه أيضاً السَّرَف (الإسراف)

٣٣ رثاء الجدة

قال شوقي يرثي جدته لأمه واسمها تمزار، وهي من معتوقات إبراهيم باشا وأصلها من بلاد المورة «اليونان»، جلبت منها أسيرة حرب، قالها عام (١٨٩٨):

خُلِقنا للحياةِ وللمماتِ ومِنْ هذينِ كلُّ الحادثاتِ

خلقنا لنحيا ثم لنموت، ومن الحياة والموت تتشكل كل أحداث الدنيا

صلاةُ اللَّهِ يا تِمْزارُ تُجزي ثَراكِ عَنِ التِّلاوةِ والصلاةِ

صلاة الله (ثناؤه) يا جدتي تمزار تجزي (تُغني) تربتك عن التلاوة والصلاة

تَبَنّاكِ الملوكُ، وكنتِ مِنهُمْ بمنزلةِ البَنينَ أوِ البناتِ

تبناك الملوك، وكنت منهم (أي بالنسبة لهم) بمنزلة ابن أو بنت حقيقيْن

وما مَلَكُوكِ في سوقٍ، ولكنْ لدى ظِلِّ القنا والمُرهَفاتِ

ولم يشتروك في سوق العبيد، ولكنهم أخذوك سبية تحت ظل القنا (الرماح) والمرهفات (السيوف)

عَنَنْتِ لهُمْ بمُورَةَ بنْتَ عَشْرٍ وسيفُ الموتِ في هامِ الكُماةِ

عننتِ (برزت) لهم في المورة (بلاد اليونان) وعمرك عشر سنين، وكان الموت وقتها ينزل في هام (رؤوس) الكُماة (المسلحين)

تَبِعْتِ محمداً مِنْ بعدِ عيسى لِخَيرِكِ في سِنِيكِ الأُولَياتِ

أسلمت بعد أن كنت من أتباع عيسى، وهذا كان خيراً جاءك في سنوات عمرك الأولى

ولوْ لم تَظْهَري في العُرْبِ إلَّا بأحمدَ كنتِ فخرَ الوالداتِ

ولو لم تظهري (يبرز اسمك) عند العرب إلا بأحمد (أي هو/حفيدها أحمد شوقي) لكنت فخر الوالدات (فُضْلاهنّ)

وأنظُرُ في ترابِكِ ثم أُغْضي كما يُغضي الأبيُّ على القَذاةِ

أنظر إلى قبرك ثم أغضي (أخفض بصري)، مثلما يخفض الأبي (العزيز النفس) بصره على القذاة (الوسخ في العين/والمقصود الإهانة التي لا يستطيع ردها)

وأذكُرُ مِنْ حياتِكِ ما تَقَضَّى فكانَ مِنَ الغَداةِ إلى الغَداةِ

عندما أتذكر ماضي حياتك الذي انقضى أراه كأنما كان من الغداة (الصباح) إلى الصباح التالي، فعمر المرء يمر بلمحة بصر. تعليق عمران القفيني: «شوقي هنا المتنبي لا راح ولا جاء»، يشير إلى قصيدة المتنبي في رثاء جدته.. وعندما رثى شوقي أمه اتخذ قافية المتنبي وبحره، وفي قصيدته «ضخما» أيضاً لكن الضخم عند شوقي كان موكباً لا شخصاً.. انظر القطعة ١٧٢

٣٤ السلام وفطرة السباع

قال شوقي في ديسمبر (١٨٩٩):

صِـغـارٌ بـحُـلـوانَ تَـسـتـبـشِـرُ ورؤيـتُـهـا الـفـرحُ الأكـبـرُ

الصغار في «حلوان» (الضاحية التي كان شوقي يسكن بها آنذاك) مستبشرون (فرحون) بقدوم العيد، والفرح الأكبر هو رؤيتنا لهم

تَـهُـزُّ الـلـواءَ بِـعـيـدِ الـمـسـيـحِ وتُـحْـيـيـهِ مِـنْ حـيـثُ لا تَـشـعُـرُ

يلوّحون بأعلام صغيرة في عيد السيد المسيح، ويحيون العيد غير عارفين بمغزاه

ومِـنْ عَـجَـبٍ مِـنْـهُـمُ الـمـسـلـمـو نَ، أوِ الـمـسـلـمـونَ هُـمُ الأكـثـرُ

والعجيب أن منهم مسلمين، بل أكثرهم مسلمون

فـلاسـفـةٌ كـلُّـهُـمْ فـي اتِّـفـاقٍ كـمـا اتَّـفـقَ الآلُ والـمَـعْـشَـرُ

هؤلاء الأطفال فلاسفة في التسامح، ومتفقون على هذا العيد كاتفاق أهاليهم

دِسِـمْـبَـرُ شعـبـانُ عـنـدَ الـجـمـيـعِ وشـعـبـانُ لـلـكـلِّ ديـسِـمْـبَـرُ

فشهر ديسمبر (وفيه عيد الميلاد عند الغربيين، أما الأقباط فيحتفلون به في أوائل يناير، ولعل شوقي يصف هنا احتفال أجانب مصر بعيد الميلاد) هو بالنسبة للجميع كشعبان (الذي يحتفل المسلمون في منتصفه)، والعكس بالعكس

فـيـا لـيتَ شِـعـريَ! أَضَـلَّ الـصـغـارُ أمِ الـعـقـلُ مـا عـنـهُـمُ يُـؤْثَـرُ

فهل يا ترى أخطأ الصغار، أم ما يؤثر (يؤخذ) عنهم هو العقل بعينه؟

سـؤالٌ أقـدِّمُـهُ لـلـكـبـارِ لـعـلَّ الـكـبـارَ بِـهِ أخـبَـرُ

ولـيِ طـفـلـةٌ جـازتِ الـسـنَـتَـيْـنِ كـبـعـضِ الـمـلائـكِ أو أطْـهَـرُ

ولي طفلة جازت (تخطت) السنتين، وهي كملاك من الملائكة أو أطهر من ملاك

بِـعـيْـنـيـنِ فـي مـثـلِ لـونِ الـسـمـاءِ وسِـنَّـيْـنِ يـا حـبَّـذا الـجَـوْهـرُ

عيناها زرقاوان، ولها سنان كجوهرتين

أَتَـتْـنـي تُـسـائـلـنـي لُـعْـبَـةً لـتـكـسـرَهـا ضـمـنَ مـا تـكـسـرُ

جاءت تطلب مني لعبة، لتكسرها ضمن ما تكسر من أشياء

فـقـلـتُ لـهـا: أيُّـهـذا الـمـلاكُ تُـحِـبُّ الـسـلامَ، ولا أُنـكِـرُ

فقلت لها: يا أيها الملاك، أنت تحب السلام، ولا أنكر عليك ذلك

ولـكـنَّ قـبـلَـك خـابَ الـمـسـيـحُ وبـاءَ بـمـنـشـورِهِ الـقـيـصـرُ

ولكن المسيح من قبلك خاب مسعاه السلمي، والقيصر باء (خاب) بمنشوره الداعي لتوحيد المسيحيين. (أصدر القيصر قسطنطين الأول عقب عقده المجمع المسكوني الأول عام ٣٢٥م، منشوراً بتوحيد عيد الفصح بين المسيحيين في الإسكندرية وروما والقدس وغيرها من أعمال روما. وقد التزم الشرقيون بهذا، ولكن الغربيين نقضوه بعد مئات السنين في عهد البابا غريغوري)

فلا تَرْجُ سِلْماً مِنَ العالَمِينَ فإنَّ السِّباعَ كما تُفْطَرُ

فلا ترج (تأمل) سلماً من الناس، فالسباع تبقى كما تُفطَر (تخلق)

ومَنْ يَعْدَمِ الظُّفْرَ بينَ الذئابِ فإنَّ الذئابَ بِهِ تَظْفَرُ

ومن يعدَم (يفقد) الظُّفْر (يقصد التوحُش) بين البشر، الذين هم كالذئاب، ظفرت به الذئاب

٣٥ ثأر القدس

قال شوقي في «آيا صوفيا» الكنيسة التي شيدت عام ٥٣٢م، وحُوِّلت إلى مسجد عام ١٤٥٣م، ثم حُوِّلت إلى متحف عام ١٩٣٥م، بعد وفاة شوقي بثلاث سنوات، ولا تزال متحفاً. قال القصيدة سنة (١٨٩٩):

كـنـيـسـةٌ صـارتْ إلـى مـسـجـدِ هـديـةُ الـسَّـيِّـدِ لـلـسَّـيِّـدِ

كنيسة تحولت إلى مسجد، فهي هدية السيد المسيح لسيد الإسلام محمد

كـانـتْ بـهـا الـعـذراءُ مـن فِـضَّـةٍ وكـانَ رُوحُ الـلـهِ مِـنْ عَـسْـجَـدِ

كان بها تمثال للعذراء من الفضة، وكان تمثال روح الله (المسيح) من عسجد (ذهب)

جَـلّاهـمـا فـيـهـا وحَـلّاهـمـا مُـصَـوِّرُ الـرومِ الـقـديـرُ الـيـدِ

جلاهما (أبرزهما) في الكنيسة، وحلاهما (زينهما بالحُلِيِّ) مصور (نحّات) الروم ذو اليد الماهرة

فـقـلْ لِـمَـنْ شـادَ فَـهَـدَّ الـقُـوى قُوى الأجيرِ المُتْعَبِ المُجْهَدِ..

فقل لمن بنى هذا البناء المهيب وهد قوى العمال المتعبين..

كـأَنَّـهُ فِـرْعَـوْنُ لـمـا بَـنـى لِـرَبِّـهِ بـيـتـاً فـلـمْ يـقْـصِـدِ..

إنه مثل فرعون عندما بنى لربه بيتاً (الأهرام) فلم يقصد (لم يقتصد، بل بالَغَ)

أيُـعْـبَـدُ الـلَّـهُ بِـسَـوْمِ الـوَرى ما لا يُسامُ العَيْرُ في المِقْوَدِ

قل له: هل يُعبَدُ الله بسوم (بتكليف) الورى (الناس) ما لا يسام (يكلَّف) العيْر (الحمار) وهو مقيد بمقْوده

كـنـيـسـةٌ كـالـفَـدَنِ الـمُـعـتَـلـي   ومـسـجـدٌ كـالـقـصْـرِ مِـنْ أَصْـيَـدِ

هذه كنيسة كأنها الفدن (القصر) العالي، وصارت مسجداً كانه قصر من الأصيَد (الحجر اللامع)

والـلَّـهُ عـنْ هـذا وذا فـي غِـنـىً   لـوْ يـعـقـلُ الإنـسـانُ أو يَـهـتـدي

والله في غنى عن المعابد لو يعقل الإنسان ويهتدي للحق

قـد جـاءَهـا الـفـاتـحُ فـي عُـصْـبـةٍ   مِـنَ الأسـودِ الـرُّكَّـعِ الـسُّـجَّـدِ

محمد الفاتح جاء إلى الكنيسة ومعه عصبة (جماعة) من الأسود (الرجال الأشداء) الركَّع السجَّد

فـكـبَّـروا فـيـهـا، وصـلَّـى الـعِـدى   واخـتـلـطَ الـمـشـهَـدُ بـالـمـشـهَـدِ

فكبروا في الكنيسة، وصلى الأعداء أيضاً صلاتهم، فاختلط المشهدان

فـخـانَـهـا مِـنْ قـيـصـرٍ سـعـدُهُ   وأُيِّـدَتْ بـالـقَـيْـصَـرِ الأسـعَـدِ

وفيها خان قيصرَ الروم البيزنطيين سعدُه (حظه)، ووجدت تأييداً من القيصر الأسعد (ذي الحظ الأوفر/محمد الفاتح)

ونـابَ عـمَّـا كـانَ مِـنْ زُخْـرُفٍ   جـلالـةُ الـمـعـبـودِ فـي الـمـعـبـدِ

وناب عما كان فيها من زخارف جلالة الله الذي يُعبد في هذا المعبد

فـيـا لَـثـأرٍ بـيـنـنـا بـعـدَهُ   أقـامَ لـم يـقـرُبْ ولـم يَـبْـعُـدِ

فيا له من ثأر بيننا بعد هذا الفتح، وقد أقام (استمر) الثأر، لم يقترب من التحقق ولم يبتعد بل ظل في النفوس كامناً

بـاقٍ كـثـأرِ الـقُـدْسِ مِـنْ قَـبْـلِـهِ   لا نـنـتـهـي مـنْـهُ ولا يَـبْـتَـدي

وهو باق كثأر القدس قبله (التي احتلها الصليبيون ثم أخرجوا منها)، ولا ننتهي من أمر هذا الثأر، ولا هو يبتدئ في التحول إلى حرب دموية

قال شوقي هذا قبل أن يجهز الأوروبيون على الدولة العثمانية، وكانوا في زمنه يقضمون سيادتها بشتى الوسائل ويحتلون بعض أطرافها كمصر

فـلا يَـغُـرَّنْـكَ سـكـونُ الـمَـلا   فـالـشـرُّ حولَ الـصـارمِ الـمُـغْـمَـدِ

فلا تغترَّ بسكون الملأ (القوم)، فالشر يحوم حول الصارم (السيف) المغمد (الكامن في غمده)

لـنْ يـتـركَ الـرومُ عـبـاداتِـهِـمْ   أو يـنـزلَ الـتـركُ عَـنِ الـسُّـؤْدَدِ

لن يترك الروم تعبدهم في هذه التي كانت كنيسة إلا إن ينزل (يتنازل) الترك لهم عن السيادة عليها. في القصيدة قراءة للتاريخ تشبه كثيراً ما نجده في هذا الزمن (٢٠٠٨م) عند الإسلاميين من متشددين ومعتدلين، وعند كثيرين من بسطاء الناس. ولعل هذه القراءة تحتوي على قدر من الصحة أكبر بكثير مما يظن المثقفون، ولا سيما أولئك

الذين صاغ الغرب ثقافتهم أو أثر في وجدانهم. قد قرأ ماركس التاريخ من جهة الاقتصاد، أما توينبي فنظر إليه من جهة الدين. ولا أشك أن هناك طريقة ثالثة أو رابعة تجمع العوامل في توليفة أقرب إلى الصحة. شوقي هنا شاعر الإسلام الذي يحس بالموجة الأوروبية المقبلة، ولكنه يفسرها من ثقب باب الدولة العثمانية دون التفات كبير للمصالح الاستعمارية

٣٦ المستحيل

قال شوقي (١٨٩٩):

لا والقوامِ الذي، والأعينِ اللاتي   ما خنتُ رَبَّ القنا والمَشْرَفِيَّاتِ

لا وحق القوام الذي - سباني -، والأعين اللاتي - ذبحنني -، ما خنتُ صاحب القنا (الرماح) والمشرفيات (السيوف). واضح أن قوامها معتدل كالرمح، وعينيها ذبّاحتان كالسيف

ولا أردتُ لِسهمِ اللحظِ في كَبِدي   رَدّاً، ولا رأيَ لِي في المُستحيلاتِ

ولا أردت أن أردَّ سهم لحظها (نظرتها) الذي وقع في كبدي، وليس لي حتى رأي (تفكير) في ذلك فهو من المستحيلات

وأنتَ تَطْرَبُ للواشي وتُطْمِعُهُ   كالطفلِ ألقى بِسَمْعٍ للخرافاتِ

وأنت أيها المحبوب تطرب لكلام الواشي (ناقل الكلام)، وتُطمِعه (تشجعه)، كأنك الطفل الذي يلقي سمعه (يصدق) للخرافات

إن السهامَ إذا ما واصَلَتْ غَرَضاً   كانت خواطِئُها مثلَ المُصيباتِ

إن كلام الواشي كالسهام التي إن ظلت تُرمى نحو المرء تزعجه الخواطئ منها (التي تخطئ الهدف) كما تزعجه المصيبات (التي تصيب الهدف)

هذا بيت يفهمه من تعرض لحملات تشنيع، ومن اشتغل مديراً

٣٧ زاحِم

قال شوقي في دخول ابنه علي السنة الثانية (١٩٠٠):

هــــذهِ أولُ خُـــطْـــوَةْ   هــــذهِ أولُ كَـــبْـــوَةْ

هذه أول خطوة لك، وأول كبوة (سقْطة)

يــا عــلــيِ! إنْ أنــتَ أوفــيْــ   ــتَ عــلــى سِــنِّ الــفُــتُــوَّةْ

يا علي! إن أوفيت (قاربت) على سن الفتوّة، وصرت فتى يافعاً

دافــعِ الــنــاسَ وزاحِــمْ   وخُــذِ الــعَــيْــشَ بــقُــوَّةْ

فزاحم الناس، وخذ حقك ورزقك بقوة

لا تـقُـلْ: كـان أبـي، إيَّـ ـاكَ أنْ تـحـذُوَ حَـذْوَهْ

لا تقل: كان أبي يفعل كذا، إياك أن تحذو حذوي

أنـا لـمْ أَغـنـمْ مِـنَ الـنَّـا سِ سـوى فـنـجـانِ قـهـوةْ

فأنا لم أغنم (أكسب) من الناس شيئاً، ربما فنجان قهوة فقط

أنـا لـمْ أُجْـزَ عَـنِ الـمـد حِ مِـنَ الأَمْـلاكِ فَـرْوَةْ

ولم أُجْزَ (أكافأ) عن المدح من الأملاك (الملوك) فروة (كسوة فرو/وكانت الملوك تعطي الشعراء الملابس جوائز لهم)

أنـا لـمْ أُجْـزَ عَـنِ الـكُـتْـ ـبِ مِـنَ الـقُـرَّاءِ حُـظْـوَةْ

ولم أجز (أكافأ) عن كتبي بحظوة (مكانة) من القراء

ضـيَّـعَ الـكـلُّ حـيـاتـي وعَـفـافـي والـمُـرُوَّةْ

كلهم ضيَّع لي حياتي وعفافي والمروءة (كرم النفس)

٣٨ أنا الغريق..

قـلْ لـلـزَّمـانِ يَـصُـبُّ مِـنْ أحـداثِـهِ أو لا يـصـبُّ فـمـا بِـنـا إشـفـاقُ

ليصبَّ الزمان أحداثه (مصائبه) إن شاء أو لا يصب فليس بنا إشفاق (خوف)

غـمـرتْ مـصـائـبُـهُ فـأغْـرَقَـنـا بِـهـا والـغَـمْـرُ فـيـهِ تـسـتـوي الأَعـمـاقُ

غمرتنا مصائبه، وفي الغمْر تستوي (تتساوى) الأعماق، فإن غَمَرَنا من الماء شبر أو متر فالحال واحدة

٣٩ طعين القدود

لا تـأخُـذَنَّ مِـنَ الأمـورِ بِـظـاهِـرٍ إن الـظـواهـرَ تـخـدعُ الـرَّائـيـنـا

لا تأخذ بظواهر الأمور، فهي تخدع الناظرين

فَلَكَمْ رجعتُ مِنَ الأَسِنَّةِ سالماً وصَدَرْتُ عَنْ هِيفِ القدودِ طَعينا

فكثيراً ما عدتُ سالماً بعد مطاعنة بالأسنة (أطراف الرماح)، وصدرت (رجعت) بعد تعرضي للقدود الهِيف (بوزن البِيض/القدود الهيفاء الرشيقة) طعيناً (مطعوناً)

٤٠ الشكر

هــل تـرى أنــتَ، فـإنـي لـمْ أجِـدْ كجميـلِ الصُّنْعِ بالشكرِ اقتِرانا

هل ترى رأيي، فأنا لم أجد كالاقتران بين المعروف والشكر عليه

وإذا الـدنـيـا خَـلَـتْ مِـنْ خَـيِّـرٍ وخَـلَـتْ مِنْ شاكـرٍ هـانـتْ هَـوانـا

فإذا خلت الدنيا من خيِّر وممن يشكره هانت هواناً (أصبحت تافهة)

٤١ عشق العلياء

هِـيَ الـجزيـرةُ فـاحـذرْ فتـنـةَ الـنظرِ وكيفَ، والـحُبُّ يأتِي غيرَ منتَظَرِ

إنها الجزيرة (الجزيرة وسط النيل في القاهرة) فاحذر أن يفتنك نظرك، وكيف لك أن تنجح في حذرك والحب يأتي فجأة

أرضٌ ترى الأُسْدَ تَرعىَ في ملاعبِها فكـلُّ ماشٍ عـلـيْـها راكـبُ الـخَـطَرِ

هذه أرض ترى الأسود ترعى في ملاعبها (رياضها)، فكل من يمشي فيها يركب الخطر

آليتُ لا دارتِ الأشواقُ في خَلَدي ولا قطعتُ الليالـيِ واصِلَ الفِكَرِ

آليت (حلفت) ألا تدور الأشواق في خلدي (بالي)، وألا أمضي الليالي مفتكراً..

ولا أجابتْ سوى داعيِ التُّقى مُقَلِي ولا وقفتُ على غيرِ العُلى سَهَري

وألا تجيب مقلي (عيوني) سوى ما يدعوني إلى التقوى، وألا أقف (أكرس) سهري على غير العلى (الطموحات الكبيرة)..

ولا عـشـقْـتُ سوى الـعـلـيـاءِ غـانـيـةً ولا كَلِفْتُ بـغيـرِ الـمجـدِ والـخَـطَرِ

وحلفت ألا أعشق غانية (حسناء) سوى العلياء (المجد)، وألا أكْلَفَ (أهيم) إلا بالمجد والخطر..

ولا استعنتُ على دهري سوى قلمي ولا صحِبْتُ سوى الصَّمصامةِ الذَّكَرِ

وحلفت ألا أستعين على زمني بغير قلمي، وألا أصحَبَ سوى الصمصامة (السيف) الذَكَر (ذي الحديد الصلب)

٤٢ الفجر الضائع

قـلـبٌ يـذوبُ ومَـدْمَـعٌ يـجـري يـا لـيـلُ هـلْ خبـرٌ عَـنِ الـفَجْـرِ

مثلما يسأل المرء عن غائب طال أمد غيابه يَسأل شوقي الليل: هل جاءك خبر عن الفجر؟

٤٣ العمر ليلة

يـا نـاعِـمـاً رَقَـدَتْ جُـفـونُـهْ   مُـضـنـاكَ لا تَـهـدا شُـجـونُـهْ

يا ناعماً (منعَّماً في عيشته) رقد وأغمض جفونه، مضناك (عاشقك الذي أضنيته وأمرضته) لا تهدأ شجونه (أحزانه)

حـمـلَ الـهـوى لـكَ كـلَّـهُ   إن لـمْ تُـعِـنْـهُ فَـمَـنْ يُـعـيـنُـهْ

عاشقك حمل وحده ثقل الهوى كله، فإن لم تعنه (تساعده) فمن يعينه؟

مـا الـعـمـرُ إلَّا لـيـلـةٌ   كـانَ الـصـبـاحَ لـهـا جـبـيـنُـهْ

ما العمر إلا ليلة صباحها يطلع من جبين المحبوب

بـيـنَ الـرقـيـبِ وبـيـنـنـا   وادٍ تُـبـاعِـدُهُ حُـزونُـهْ

بيننا وبين الرقيب (العذول) وادٍ، ويُبعِدُ الوادي عنا حزونه (جباله)

نَـغـتـابُـهُ، ونـقـولُ: لا   بـقـيَ الـرقـيـبُ، ولا عـيـونُـهْ

نغتاب العذول، وندعو عليه: «عَدِمناه وعدمنا عيونه». ومن حلاوات الغرام، لمن لم يجربه، اغتياب العذول

٤٤ أحوال العشق

يرومونَ سُلواناً لِقلبي يُريحُهُ   ومِنْ ليَ بالسُّلوانِ أَشْرِيهِ غالِيا

يرومون (يريدون) سلواناً (نسياناً) يحل بقلبي ليريحه، ومن أين السلوان حتى اشتريه ولو غالياً

ومـا الـعـشـقُ إلا لَـذَّةٌ ثُـمَّ شِـقْـوَةٌ   كما شَقِيَ المخمورُ بالسُّكْرِ صاحِيا

وما العشق إلا لذة تليها شقوة (عذاب)، كالمخمور (السكران) يلتذ بالشرب ثم يصحو من سكرته فيشقى بالصداع

٤٥ الهمشري

يـحـكُـونَ أنَّ رجـلاً كُـرْدِيّـا   كـان عـظـيـمَ الـجـسـمِ هَـمْـشَـرِيّـا

همشري: صائع لامبالٍ، واقع بين البوهيمية والفتك

وكُـلَّـمـا مَـرَّ هـنـاكَ أو هُـنـا   يـصـيـحُ بـالـنـاسِ: أنـا أنـا أنـا

نَـمَـى حـديـثُـهُ إلـى صـبـيٍّ   صـغـيـرِ جـسـمٍ بَـطَـلٍ قـويِّ

نمى: بلغَ

فقال للقومِ: سأُدريكُمْ بِهِ   فتَعلمونَ صِدْقَهُ مِنْ كِذْبِهِ

سأُدريكم به: ساريكموه، سأعرّفكم بحقيقته

ومَدَّ نحوَهُ يميناً قاسِيَةْ   بضربةٍ كادتْ تكونُ القاضيةْ

فلم يُحَرِّكْ ساكناً ولا ارتَبَكْ   ولا انتهى عَنْ زعمِهِ ولا تَرَكْ

وقف الهمشري وما ارتبك، ولكنه ظل على زعمه ولم يتركه

بل قالَ للغالِبِ قولاً لَيِّنا: الآنَ صرنا اثنينِ أنتَ وأنا

وهكذا الدهاة، لا يخوضون معركة فاصلة، معركة إما قاتلاً وإما مقتولاً، بل يمارسون الخصم مراساً، فإذا أخذ لنفسه حيزاً أعطوه حيزه وناصفوه وتعايشوا معه. قد أعجبني الهمشري أكثر مما أعجبني الصبي

٤٦ نديم الباذنجان

كانَ لِسُلطانٍ نديمٌ وافِ   يُعيدُ ما قال بلا اختلافِ

نديم السلطان الوفي يساير السلطان في كل ما يقول

فجلسا يوماً على الخِوَانِ   وجيءَ في الأكلِ بباذِنجانِ

الخوان: المائدة

فأكلَ السلطانُ منهُ ما أكلْ   وقال هذا في المذاقِ كالعسلْ

قال النديمُ: صَدَقَ السلطانُ   لا يستوي شَهْدٌ وباذِنجانُ

لا مقارنة بين الشهد (العسل) والباذنجان، فالباذنجان بالطبع أطيب وألذ، أليس هكذا يريد السلطان؟

قال: ولكنْ عندَهُ مرارةْ   وما حَمِدْتُ مرةً آثارَهْ

السلطان يتم كلامه: الباذنجان مر. وأثره في المعدة سيء

قال: نعمْ مُرٌّ، وهذا عيبُهُ   مُذْ كنتُ يا مولايَ لا أحبُّهُ

النديم موافق. ويعلن أنه لم يحبَّ الباذنجان قط

هذا الذي ماتَ به بُقْراطُ   وسُمَّ في الكأسِ بِهِ سُقْراطُ

بل يزيد النديم أن الباذنجان قتل بقراط طبيب اليونان، وكان هو السم الذي شربه سقراط

فالتفتَ السلطانُ فيمَنْ حولَهُ   وقال: كيف تجدونَ قولَهُ

يستغرب السلطان من هذا التناقض

قال النديمُ: يا مليكَ الناسِ   عُذْراً فما في فِعْلتي مِنْ باسِ
جُعِلْتُ كيْ أنادمَ السُّلطانا   ولم أنادمْ قَطُّ باذِنجانا

أنا أنادمك فأمدحك وأسايرك، ولم أكن نديماً للباذنجان فأمدحه

٤٧ ما دام في العالم أم تلد

كانَ بِرَوْضٍ غُصُنٌ ناعمٌ   يقولُ جَلَّ الواحدُ المنفرِدْ

كان في البستان غصن ناعم يقول: سبحان الله الواحد المنفرد

فقامتي في ظَرفِها قامتي   ومِثلُ حُسنيِ في الورى ما عُهِدْ

ويقول الغصن: أما قامتي فهي في ظرفها (جمالها) قامتي - وأنتم أعلم بما هي عليه من جمال -، ومثل حسني (جمالي) ما عُهد (وُجد) في الدنيا

فأقبلَتْ خُنْفُسَةٌ تَنثني   ونجلُها يمشي بجنْبِ الكَبِدْ

فجاءت خنفساء تثني جسمها (فهكذا مشيها، يتحدب ظهرها ثم ينبسط) وابنها يمشي قريباً من كبدها

تقولُ: يا زينَ رياضِ البَها   إنَّ الّذي تطلُبُهُ قدْ وُجِدْ

وهي تقول للغصن المعجب بقامته: إن الحسن الشبيه بحسنك، والذي تفتش عنه، موجود

فانظرْ لِقَدِّ ابني ولا تفتخِرْ   ما دامَ في العالمِ أُمٌّ تَلِدْ

فانظر لقدّ ابني - وقدّ ابنها متحدب مثل قدها بالطبع -، ولا تفتخر علينا ما دام هناك في العالم أم تلد، فكل أم ترى ابنها في منتهى الجمال

٤٨ من رأيكم في الحمار

اللَّيْثُ مَلْكُ القِفارِ   وما تضمُّ الصَّحاري

الليث: الأسد، القفار: البراري الجرداء

سَعَتْ إليهِ الرَّعايا   يوماً بِكُلِّ انكسارِ

الرعايا: أفراد رعيته من مختلف الحيوانات

قالتْ: تعيشُ وتبقى   يا داميَ الأظفارِ
ماتَ الوزيرُ فمَنْ ذا   يَسُوسُ أمرَ الضَّواري

يسوس: يدبر، الضواري: الحيوانات المفترسة

قالَ: الحمارُ وزيري   قضى بهذا اختياري

فـاسـتَـضْـحَـكَـتْ ثـمَّ قـالـتْ:   مـاذا رأى فـي الـحـمـارِ؟
استضحكت: ضحكت، ثم قالت الرعايا لنفسها: ماذا رأى في الحمار من مزايا حتى يجعله وزيراً؟

وخـلَّـفـتْـهُ وطـارتْ   بِـمُـضْـحِـكِ الأخـبـارِ
خلفته (تركته) وطارت (انطلقت مسرعة) بالأخبار المضحكة

حـتـى إذا الـشـهـرُ ولَّـى   كَـلـيْـلـةٍ أو نـهـارِ
ومضى شهر بسرعة كأنه ليلة أو نهار

لـمْ يـشـعـرِ الـلـيـثُ إلَّا   ومـلـكُـهُ فـي دمـارِ
الـقـردُ عـنـدَ الـيـمـيـنِ   والـكـلـبُ عـنـدَ الـيَـسـارِ
والـقـطُّ بـيـنَ يـديْـهِ   يـلـهـو بـعَـظْـمـةِ فـارِ
فـقـالَ: مَـنْ فـي جُـدودي   مِـثْـلـي عـديـمُ الـوَقـارِ
أيـنَ اقـتـداري وبَـطْـشـي   وهـيـبـتـي واعـتِـبـاري
فـجـاءَهُ الـقـردُ سِـرّاً   وقـالَ بـعـدَ اعـتـذارِ

يـا عـالـيَ الـجـاهِ فـيـنـا   كُـنْ عـالـيَ الأنـظـارِ
يا صاحب الجاه (المكانة) بين الحيوانات، كن صاحب نظر وتدبُّر

رأيُ الـرَّعـيَّـةِ فـيـكـمْ   مِـنْ رأيِـكُـمْ فـي الـحـمـارِ
رأي الرعية فيكم مشتق من رأيكم في الحمار

٤٩ فوق التفاصيل

كـانَ لـلـغِـربـانِ فـي الـعَـصْـرِ مَـلـيـكْ   وَلَـهُ فـي الـنَّـخـلـةِ الـكُـبْـرى أَريـكْ
مليك: ملِك، أريك: سرير، أريكة

فـيـهِ كُـرْسِـيٌّ وخِـدْرٌ ومُـهـودْ   لـصِـغـارِ الـمـلـك أصْـحـابِ الـعُـهـودْ
فيه كرسي (عرش) وخدر (ستر تقبع وراءه النساء) ومهود للصغار أولياء العهد

جـاءَهُ يـومـاً «نُـدُورُ» الـخـادِمُ   وهْـوَ فـي الـبـابِ الأمـيـنُ الـحـازِمُ
ندور: اسم الغراب الخادم الواقف بباب ملك الغربان

قـالَ يـا فَـرْعَ الـمـلـوكِ الـصَّـالـحـينْ   أنـتَ مـا زلـتَ تـحـبُّ الـنـاصِـحـينْ
قال للملك: يا سليل الملوك الصالحين، أنت دوماً كنت تحب الناصحين

سُوسَةٌ كانتْ على القصرِ تَدُورْ   جازتِ القصرَ ودبَّتْ في الجُذورْ

وهناك سوسة (حشرة قارضة) كانت تدور قرب قصركم ثم دبت في الجذور تقرضها

فابعثِ الغِربانَ في إهلاكِها   قبلَ أنْ نَهلِكَ في أَشْراكِها

فابعث الغربان لقتلها قبل أن توقعنا في أشراكها (مصايدها) ونهلك

ضحكَ السلطانُ مِنْ هذا المقالْ   ثم أدْنى خادمَ الخيرِ وقالْ

المقال: القول، أدنى: قرَّب

أنا ربُّ الشَّوْكةِ الضافي الجَناحْ   أنا ذو المِنْقارِ، غَلَّابُ الرياحْ

أنا ربُّ (صاحب) الشوكة (القوة) الضافي (الواسع) الجناح، أنا ذو المنقار، وأنا الذي يغلب الرياح

أنا لا أنظرُ في هذي الأمورْ   أنا لا أُبصرُ تحتي يا نُدُورْ

أنا أعالج الأمور الخطيرة فقط

ثم لمَّا كانَ عامٌ بعدَ عامْ   قامَ بينَ الريحِ والنخلِ خِصامْ

اشتدت الريح وأخذت تهز النخل

وإذا النخلةُ أقْوى جِذْعُها   فبدا للريحِ سهلاً قلعُها

أقوى: صار فارغاً منخوراً

فَهَوَتْ للأرضِ كالتَّلِّ الكبيرْ   وهوى الدِّيوانُ وانقضَّ السَّريرْ

فسقطت النخلة أرضاً كأنها «التل الكبير» (كسقوط جيش عرابي السريع أمام الإنجليز في معركة التل الكبير، ولا أرى شوقي يعني شيئاً آخر، وهو الذي أسرف في تبكيت عرابي على هذه الهزيمة)، وهوى ديوان الملك وانقضَّ (سقط) السرير (سرير الملك: العرش)

فَدَها السلطانَ ذا الخطبُ المهولْ   ودعا خادمَهُ الغالي يقولْ

فدها (فاعترى) السلطان ذا (هذا) الخطب (الشأن) المهول، ونادى خادمه يقول له: . .

يا نُدُورَ الخيرِ أسعِفْ بالصِّياحْ   ما تُرى فَعَلَتْ فينا الرياحْ!

أسعف: ساعِدْ

قالَ: يا مولايَ لا تسألْ نُدُورْ   أنا لا أنظرُ في هذي الأمورْ

فالأمر الآن خطير و«ندور» لا ينظر في هذه الكارثة الخطيرة بل ينظر في التفاصيل

٥٠ دودتان

لِـدُودةِ الـقَـزِّ عِـنـدي	وَدُودةِ الأضـواءِ

دودة القز: دودة الحرير، دودة الأضواء: الدودة المضيئة

حـكـايـةٌ تَـشـتـهـيـهـا	مَـسـامِـعُ الأذكـيـاءِ
لـمـا رأتْ تـلـكَ هـذي	تُـنـيـرُ فـي الـظَّـلـمـاءِ
سـعـتْ إلـيـهـا وقـالـت:	تـعـيـشُ ذاتُ الـضـيـاءِ
أنـا الـمـؤمَّـلُ نـفْـعـي	أنـا الـشـهـيـرُ وفـائـي
حـلا لـي الـنـفـعُ حـتَّـى	رَضِـيـتُ فـيـه فـنـائـي

فدودة القز تموت أثناء عملية استخراج الحرير، فعندما تنسج حول جسمها شرنقة من الخيوط الحريرية يضعونها في الماء المغلي لتموت وليأخذوا الشرنقة الحريرية

وقـد أتـيـتُ لأَحـظـى	بـوجـهِـكِ الـوضَّـاءِ
فـهـل لـنـورِ الـثَّـرى فـي	مـودَّتـي وإخـائـي

فهل لك يا نور الأرض أن تقبلي مودتي وإخائي (صداقتي)

قـالـت: عـرضْـتِ عـلـيْـنـا	وجـهـاً بـغـيـرِ حـيـاءِ
مـن أنـتِ حـتـى تُـدانـي	ذاتَ الـسَّـنـا والـسَّـنـاءِ

السنا: الضوء، السناء: الرفعة

فـامـضـي، فـلا وُدَّ عـنـدي	إذْ لـسـتِ مـن أكـفـائـي
وعـنـد ذلـك مـرَّتْ	حـسـنـاءُ مـعْ حـسـنـاءِ
تـقـولُ: لله ثـوبـي	فـي حُـسْـنِـه والـبـهـاءِ
كـم عـنـدَنـا مـن أَيـادٍ	لِـلـدُّودةِ الـغـرَّاءِ

هناك أيادٍ (أفضال) لدودة القز الغراء (المشرقة)

ثـم انـثـنـتْ فـأتـتْ ذي	تـقـولُ لـلـحـمـقـاءِ

ثم انثنت (التفتت) فأتت دودة القز تقول للحمقاء دودة الضياء

هـل عـنـدكِ الآنَ شـكٌّ	فـي رُتـبـتـي الـقَـعْـسـاءِ

هل عندك الآن شك في رتبتي (مرتبتي) القعساء (العظيمة)

وقـــد رأيـــتِ صـــنـــيـــعـــي   وقـــد ســـمـــعـــتِ ثـــنـــائـــي
إن كـــان فـــيـــكِ ضِـــيـــاءٌ   إن الـــثَّـــنـــاءَ ضِـــيـــائـــي

٥١ الغزال والكلب

كانَ فيما مضى مِنَ الدَّهرِ بيتٌ   مِنْ بيوتِ الكِرامِ فيهِ غزالُ

بيت لأحد كرام الناس فيه غزال

يُطْعَمُ اللوزَ والفَطيرَ، ويُسقَى   عسلاً لم يَشُبْهُ إلَّا الزُّلالُ

يقدَّم للغزال اللوز والفطير (المخبوز المكلف بالسكر أو الدَّسَم)، ويسقى عسلاً لم يَشُبْهُ (يخالطه) إلا الماء الزلال (العذب)

فأتى الكلبَ ذاتَ يوم يُناجيـ   ـهِ، وفي النَّفْسِ تَرْحَةٌ ومَلالُ

جاء إلى الكلب يوماً يناجيه (يهامسه) وفي نفس الغزال ترحة (حزن) وملال (ملل)

قالَ: يا صاحبَ الأمانةِ قُلْ لي   كيفَ حالُ الوَرى وكيفَ الرِّجالُ

قال الغزال: يا صاحب الأمانة (فالكلب مشهور بها) كيف حال الدنيا والرجال

فأجابَ الأمينُ وهْوَ القؤولُ الصّـ   ـادقُ الكاملُ النُّهى المِفضالُ

قال الأمين (الكلب) وهو القؤول للصدق، الكامل النهى (العقل) المفضال (صاحب الفضل)

لا يَغُرَّنْكَ يا أخا البيدِ مِنْ مَوْ   لاكَ ذاكَ القَبولُ والإقبالُ

لا تغترَّ يا أخا البيد (صاحب الصحارى) من مولاك (سيدك) بقبوله لك، وإقباله عليك

أنتَ في الأَسْرِ ما سَلِمْتَ فإنْ تَمْـ   ـرضْ تُقَطَّعْ مِنْ جسمِكَ الأوصالُ

فأنت مجرد أسير لديه وستظل أسيراً ما بقيتَ سالماً، فإذا مرضت ذبحوك وقطعوا أوصالك (أعضاءك)

فاطلُبِ البِيدَ، وارْضَ بالعُشبِ قُوتاً   فهناكَ العيشُ الهنيُّ الحلالُ

فاطلب البيد (اذهب للصحارى)، وارض بالعشب قوتاً (طعاماً)، فهناك العيش الهنيء الحلال

أنا لولا العظامُ، وهْيَ حياتي   لَمْ تَطِبْ لي مَعَ ابنِ آدَمَ حالُ

أنا لولا العظام وهي أصل حياتي، لم تكن لتطيب لي مع البشر الحال

٥٢ سليمان والهدهد

وقـــفَ الـــهُـــدْهُـــدُ فـــي بـــا   بِ ســـلـــيـــمـــانَ بِـــذِلَّـــةْ

قـــالَ يـــا مَـــوْلايَ كُـــنْ لـــي عِـيـشَـتـي صـارتْ مُـمِـلَّـهْ

قال الهدهد لسليمان: يا مولاي كن لي معيناً، فعيشتي صارت مملة

مُـــتُّ مِـــنْ حـــبَّـــةِ بُـــرٍّ أحـدثَـتْ فـي الـصَّـدْرِ غُـلَّـهْ

كدت أموت من حبة بُرّ (قمح) أحدثت في صدري غُلة (عطشاً)

لا مـيـاهُ الـنِّـيـلِ تَـرويـــهـا، ولا أمـواهُ دِجْـلَـهْ

وهذه الغلة (العطش) لا ترويها مياه النيل ولا أمواه (مياه) دجلة

وإذا دامَـتْ قـلـيـلاً قـتـلـتـنـي شَـرَّ قِـتْـلَـهْ

فـأشـارَ الـسـيـدُ الـعـالـي إلـى مَـنْ كـانَ حـولَـهْ:

قـدْ جـنـى الـهُـدْهُـدُ ذنـبـاً وأتـى فـي الـلـؤمِ فِـعْـلَـهْ

قال سليمان لمن في مجلسه: قد ارتكب الهدهد ذنباً، وجاء بفعلة لئيمة

تـلـكَ نـارُ الإثـمِ فـي الـصَّـدْرِ، وذي الـشَّـكـوى تَـعِـلَّـهْ

وما في صدره إنما هي نار الإثم، وأما شكواه فهي تعلة (حجة باطلة)

مـا أرى الـحـبَّـةَ إلَّا سُـرِقَـتْ مِـنْ بـيـتِ نـمـلَـهْ

إن لِـلـظَّـالـمِ صـدراً يـشـتـكـي مِـنْ غـيـرِ عِـلَّـهْ

كان من فضل المدرسة علَيّ أن جعلتني أحفظ هذه القصيدة، فلما حاق بالحافظة المحاق، واكتفى الذهن بما ضمه وضاق، ظلت هذه القصيدة من المحفوظ القديم الذي أؤدي به صلاة الأدب. وقد عجبت كثيراً لهذا الشاب الذي لم يتجاوز الخامسة والعشرين ينظم، وهو يطلب العلم في فرنسا، أشعاراً عن الحيوان فيها أصالة وظرف وذكاء، وتنم عن تجربة واسعة ومعرفة بأغوار النفس الإنسانية. وقرأت أشعار لافونتين، وبه اقتدى شوقي في قصائده عن الحيوان، وأنا أتمنى ألا يكون شوقي سرق منه شيئاً. قرأت لافونتين بترجمة الأب نقولا أبو هنا، وسعدت به، بخفته وظرفه وجمال حكاياته. وسعدت أكثر لأن قصائد شوقي أحلى منها. وبلغت سعادتي منتهاها عندما وجدت شاعرنا مبدعاً في كل قصصه. فهو لم يسرق من الفرنسي شيئاً، بل استوحى الفكرة لا غير. وأما لافونتين فقد تأثر بإيسوب ونقل عنه، وتأثر بكليلة ودمنة ونقل عنها. وشوقي في قصائده التي على لسان الحيوان صنع قصصه وصنع لكل منها حكمتها، وبعضها ليس فيه حكمة ذات بال، بل فيه نكتة أو كشف لنفاق الإنسان. شوقي في هذا الشعر شاعر خطير، وفنان كبير، وظريف من ظرفاء الأدب العربي النادرين، وعبقري نضج في روحه ونفسه مبكراً. وهذه القصائد تصلح للأطفال، وتصلح للكبار أكثر. وكثير منها يحتاج تذوقه إلى نضج ومعرفة بدقائق النفس البشرية لا يتأتى لطفل. على أن شوقي كتب في المقدمة التي جعلها في صدر الشوقيات عندما صدرت أول مرة عام ١٩٠٠: «أتمنى لو وفقني الله لأجعل لأطفال المصريين مثل ما جعل الشعراء للأطفال في البلاد المتمدنة: منظومات قريبة المتناول، يأخذون الحكمة والأدب من خلالها على قدر عقولهم».

٥٣ النملة والمقطم

كانتِ النملةُ تمشي مرةً تحتَ المُقَطَّمْ

المقطم: جبل في القاهرة

فارتخى مَفْصِلُها مِنْ هيبةِ الطَّوْدِ المُعَظَّمْ

الطود: الجبل

قالتِ اليومَ هَلاكي حلَّ يومي وتَحَتَّمْ
ليتَ شِعْرِي كيفَ أنجو، إنْ هوى هذا، وأسْلَمْ

هوى: سقط

فَسَعَتْ تجري وعينا ها تَرى الطَّوْدَ فتنْدَمْ

تندم؟ ربما على مجيئها لهذا المكان. ولا أراها إلا ولدت فيه

سَقَطَتْ في شِبْرِ ماءٍ هُوَ عندَ النملِ كاليَمّ

ثم إنها وهي تجري سقطت في شبر ماء، وهو بالنسبة للنمل كاليم (البحر)

فبكتْ يأساً و٢١٥ صاحتْ تَجْرِي الماءِ في الفَمْ
ثم قالتْ، وهْيَ أدرى بالذي قالتْ وأعلمْ:

البيت كله حشوة طريفة

ليتَني لم أتأخرْ ليتَني لم أتقدمْ
ليتَني سلَّمْتُ، فالعا قلُ مَنْ خافَ فسَلَّمْ
صاحِ! لا تخشَ عظيماً فالذي في الغيبِ أعظمْ

صاحِ: يا صاحبي

٥٤ الثعلب الزاهد

برزَ الثعلبُ يوماً في شِعارِ الواعِظينا

ظهر الثعلب يوماً في شعار (لباس) الواعظين

فمشى في الأرضِ يَهدي ويسُبُّ الماكِرينا
ويقولُ الحمدُ للَّـ ـهِ إلهِ العالَمينا

كهف: ملاذ

وازهَدوا في الطَيْرِ إنَّ الـ ـعيشَ عيشُ الزَّاهدينا
واطلبوا الديكَ يؤذِّنْ لصلاةِ الصبحِ فينا
فأتى الديكَ رسولٌ مِنْ إمامِ النَّاسكينا

فجاء للديك رسول من الثعلب الذي ادعى أنه إمام الناسكين

عَرَضَ الأمرَ عليْهِ وَهْوَ يرجو أنْ يَلينا
فأجابَ الديكُ: عُذْراً يا أضَلَّ المُهتَدينا

أنت أيها الرسول مهتدٍ وصالح، ولكنك ضال لعدم فهمك لنوايا الثعلب

بَلِّغِ الثعلبَ عنِّي عَنْ جُدوديِ الصَّالحينا
أنهمْ قالوا، وخيرُ الـ ـقولِ قولُ العارِفينا:
مُخْطِئٌ مَنْ ظَنَّ يوماً أنَّ للثعلبِ دِينا

٥٥ وجه الشؤم

مرَّ الغرابُ بِشاةٍ قدْ غابَ عنها الفَطيمُ

الفطيم: المفطوم، ابنها

تقولُ والدمعُ جارٍ والقلبُ مِنْها كَليمُ

كليم: مجروح

يا ليتَ شِعْرِيَ يا ابْني وواجِدي، هلْ تَدومُ

هل تدوم: هل تعيش لي

فقالَ يا أمَّ سَعْدٍ هذا عذابٌ أليمُ

أم سعد: الشاة، وقال الأبياري إن العوام يلقبون الخروف سعداً

لكلِّ يومٍ خُطوبٌ تَكفي، وشُغلٌ عظيمُ

خطوب: مصائب

وبينما هُوَ يَهذي أتى النَّعِيُّ الذَّمِيمُ

بينما الغراب يهذي (يثرثر) جاء النعي (الناعي) الذميم (المذموم)

يقولُ خلَّفتُ سعداً والعظمُ منهُ هَشيمُ

هشيم: مهشم

رأى مِنَ الذِّئبِ ما قدْ رأى أبوهُ الكريمُ

فقالُ «ذو البينِ» للأمٍّ حينَ وَلَّتْ تَهيمُ

ذو البين: الغراب الذي ينذر بالبين (الفراق)

ألمْ أقلْ لكِ تَوّاً لِكُلِّ يومٍ هُمومُ

قالتْ صدقتَ، ولكنْ هذا الكلامُ قديمُ

فإن قَومِيَ قالوا: وَجْهُ الغُرابِ مَشومُ

مشوم: مشؤوم

٥٦ خيانة صغيرة

كانَ ابنُ داودٍ يُقَرِّ بُ في مجالِسِهِ حَمامَةْ

ابن داود: النبي سليمان، يقرب: يفضل. والحاكم إذا قرب شخصاً يقربه فعلاً في المجلس فيجلسه قريباً منه

خَدَمَتْهُ عُمْراً مثْلَما قدْ شاءَ، صِدقاً واستقامةْ

فمضتْ إلى عُمّالِهِ يوماً تُبَلِّغُهُمْ سَلامَهْ

والكُتْبُ تحتَ جناحِها كُتِبَتْ لها فيها الكَرامَةْ

فقد حمّلها سليمان كتباً (رسائل) وفيها تكريم لها

فأرادتِ الحمقاءُ تعـ رِفُ مِنْ رسائِلِهِ كلامَهْ

عَمَدَتْ لأوَّلِها، وكا نَ إلى خليفَتِهِ بِرامَةْ

«رامة»: مكان يعرفه سليمان والحمامة وأحمد شوقي

فرأتْهُ يأمُرُ فيهِ عا مِلَهُ بتاجٍ للحمامةْ

عامله: واليه

ويُشيرُ في الثاني بِأنْ تُعطى رِياضاً في تِهامَةْ

تهامة: منطقة في الحجاز

وأتَتْ لثالثِها ولمْ تَسْتَحْيِ أنْ فَضَّتْ خِتامَهْ

فضت ختامه: فكت الختم

فــرأتْــهُ يــأمُــرُ أنْ تــكــو نَ لـهـا عـلـى الـطـيـرِ الـزَّعـامَـةْ
فــبــكــتْ لــذاكَ تَــنَــدُّمــاً هـيـهـاتَ لا تُـجْـدي الـنَّـدامَـةْ
وأتــتْ نــبــيَّ الــلــهِ وهْــ يَ تـقـولُ: يـا ربِّ الـسَّـلامَـةْ
قــالــتْ: فـقـدتُ الـكُـتْـبَ يـا مَــوْلايَ فــي أرضِ الـيَـمـامَـةْ
لــتَــسَــرُّعــي لــمَّــا أتــا نـيِ الـبـازُ يـدفـعُـنـي أمـامَـهْ

الباز: طائر من الكواسر

فــأجــابَ بــلْ جـئـتِ الــذي كــادتْ تـقـومُ لـهُ الـقِـيـامَـةْ
لــكــنْ كــفــاكِ عــقــوبــةً مَـنْ خـانَ خـانـتْـهُ الـكَـرامَـةْ

من خان الأمانة خانته (خذلته) الكرامة (التكريم)

٥٧ الثعلب الساذج

قدْ سمِعَ الشعلبُ أهلَ القُرى يَدْعُونَ مُحْتالاً بِـ «يا ثعلبُ»
فـقـالَ: حـقَّـاً هـذهِ غـايـةٌ في الفخرِ لا تُؤتَى ولا تُطْلَبُ

سُرَّ الثعلب لأنهم جعلوه مثالاً في الاحتيال. وهكذا الطفل، ومعظم الكبار، إن تعجبت من شيء يصنعونه أسرفوا في صنعه. قل عن طفل إنه يوسخ ثيابه كثيراً، يأتِكَ بعد قليل وثيابه ملطخة بالطين. وقل عن رجل إنه سكير، تره أخذ يبالغ في السكر حتى يعزز هذه المزية. وكل واحد منا يبحث عن مزية تجعله منفرداً لا يشبه غيره.
فإن كانت مما يستحسن فبِهِ، وإن لم تكن فهي أكثر تمييزاً له

مَنْ في النُّهى مِثْلِيَ، حتَّى الورى أصبحْتُ فيهِمْ مَثَلاً يُضْرَبُ

من مثلي في النهى (العقل)، فحتى الآدميون أصبحوا يضربونني مثلاً

ما ضَرَّ لوْ وافَيْتُهُمْ زائراً أُرِيهِمُ فوقَ الذي اسْتغرَبُوا

ها هو يريد تعزيز سمعته بأنه داهية

لعلَّهُمْ يُحْيُونَ لي زينةً يحْضُرُها الديكُ أوِ الأرنبُ

زينةً: مِهرجاناً

وقَصَدَ القومَ، وحيَّاهُمُ وقامَ فيما بينَهُمْ يَخطُبُ
فأُخِذَ الزائرُ مِنْ أُذْنِهِ وأُعْطِيَ الكلبُ بِهِ يلعبُ
فلا تَثِقْ يوماً بِذي حِيلَةٍ إذْ رُبَّما ينخدِعُ الثعلبُ

٥٨ المَنصِبُ الفصيح

مِنْ أَعجَبِ الأخبارِ أنَّ الأرنبا لما رأى الديكَ يسُبُّ الثعلبا

وهْوَ على الجدارِ في أمانِ يغلِبُ بالمكانِ لا الإمكانِ

رأى الأرنب (ويبدو أنه أرنب ذكر) الديك واقفاً على الجدار العالي متحصناً بمكانه لا بإمكانه (بقدرته) يسب الثعلب

داخَلَهُ الظنُّ بأنَّ الماكِرا أمسى مِنَ الضعفِ يُطيقُ السَّاخِرا

داخله (خالجه) الظن بأن الثعلب صار ضعيفاً ولذلك فهو يطيق (يصبر على) الديك الساخر منه

فجاءه يَلعنُ مثلَ الأولِ عِدادَ ما في الأرضِ مِنْ مُغَفَّلِ

فجاء الأرنب وبدأ يسب الثعلب مثل الأول (يعني الديك) يسبه عداد (بعددِ) ما في الأرض من مغفلين (ومَن المغفل سوى الأرنب؟)

فعَصَفَ الثعلبُ بالضَّعيفِ عَصْفَ أخيهِ الذيبِ بالخَروفِ

ففتك الثعلب بالأرنب مثلما فتك أخوه الذئب بالخروف

وقالَ لي في دمِكَ المسفوكِ تَسليةٌ عن خيْبَتي في الديكِ

لي تسلية: لي عزاء

فالتفَتَ الديكُ إلى الذَّبيحِ وقالَ قوْلَ عارفٍ فصيحِ

فقال الديك من فوق جداره للأرنب الذبيح (المذبوح)

ما كُلُّنا يَنفعُهُ لسانُهُ في الناسِ مَنْ يُنْطِقُهُ مكانُهُ

ليس المهم الفصاحة، المهم الموقع الذي تتكلم منه. كان ليون تروتسكي أفصح من جوزيف ستالين، ولكن ستالين صنع لنفسه موقعاً داخل الحزب، وكوَّن قاعدة ولاء غلب بها تروتسكي

٥٩ النملة العابدة

كانتْ بأرضٍ نملةٌ تَنْبالَةْ لم تَسْلُ يوماً لَذَّةَ البِطالَةْ

كان هناك نملة تنبالة (كسولة)، لم تسل (لم تنس) يوماً لذة البطالة (القعود عن العمل)

واشتَهرتْ في النملِ بالتقشُّفِ واتصفتْ بالزُّهدِ والتَّصوُّفِ

لكنْ، يقومُ الليلَ مَنْ يقتاتُ فالبطنُ لا تملأُهُ الصَّلاةُ

لكن - يقول شوقي - يستطيع قيام الليل وإحياءه بالعبادة من يقتات (يأكل)، فالبطن لا تملأه الصلاة

والـنـمـلُ لا يَـسـعـى إلـيـهِ الـحَـبُّ ونـمـلـتـيِ شَـقَّ عـلـيـهـا الـدَّأْبُ

والنمل يسعى للحّب وليس العكس، وأما نملتي فقد شق عليها (صعب عليها) الدأب (الاجتهاد)

فـخـرجَـتْ إلى الـتـمـاسِ الـقـوتِ وجَـعـلـتْ تـطـوفُ بـالـبـيـوتِ

فخرجت تلتمس (تطلب) القوت (الطعام) وتطوف ببيوت النملات الأخريات

تـقـولُ: هـل مِـنْ نـمـلـةٍ تـقـيَّـةْ تُـنـعِـمُ بـالـقـوتِ لِـذي الـوَلِـيَّـةْ

تقول: هل من نملة تقية تنعم بالقوت (تمنح الطعام) لذي الولية (لهذه الولية). ولو كسرتَ الواو في الوِلية لما أخطأت فشوقي يعنيها أيضاً، وكدت أضع كسرة على الواو فرأيت شوقي رافعاً حاجبيه

لـقـد عـيـيـتُ بـالـطَّـوى الـمـبرِّحِ ومـنـذُ لـيـلـتـيـنِ لـم أُسَـبِّـحِ

لقد عييت (تعبت) بالطوى (الجوع) المبرح (الشديد) ومنذ ليلتين لم أسبح لله

فـصـاحـتِ الـجـاراتُ: يـا لَـلـعـارِ لـمْ تَـتْـرُكِ الـنـمـلـةُ لـلـصُّـرصـارِ

صاحت الجارات: يا للعار، لم تترك النملة شيئاً للصرصار الكسول

متـى رضِـيـنـا مـثـلَ هـذي الـحـالِ مـتـى مَـدَدْنـا الـكـفَّ لـلـسُّـؤالِ

منذ متى نرضى، معشر النمل، هذه الحال، ومتى مددنا أيدينا للسؤال (للشحذة)؟

ونـحـنُ فـي عـيـنِ الـوجـودِ أمَّـةْ ذاتُ اشـتـهـارٍ بِـعُـلُـوِّ الـهِـمَّـةْ

ونحن في نظر الناس أمة مشتهرة بعلو الهمة (الطموح والجد)

نـحـمِـلُ مـا لا يَـصْـبِـرُ الـجِـمـالُ عـن بـعـضِـهِ لـو أنـهـا نِـمـالُ

نحمل من الأثقال ما لا تطيق الجمال حمل جزء منه لو أنها مثلنا (فبالنسبة والتناسب تحمل النملة أضعاف وزنها والجمل لا يحمل هذا)

ألـمْ يـقـلْ مَـنْ قـولُـهُ الـصَّـوابُ: مـا عـنـدنـا لـسـائـلٍ جـوابُ

السائل: الشحاذ

فـامـضـي، فـإنَّـا يـا عـجـوزَ الـشُّـومِ نـرى كـمـالَ الـزُّهـدِ أنْ تَـصـومـي

الشُوم: الشؤم

٦٠ نقرة المهماز

بَـغْـلٌ أتـى الـجـوادَ ذاتَ مَـرَّةْ وقـلـبُـهُ مُـمْـتَـلِـئٌ مَـسَـرَّةْ

بغل أتى إلى الحصان مسروراً

فقالَ: فضْلي قد بدا يا خِلّي وآنَ أنْ تعرِفَ لي مَحَلِّي

فقال البغل: فضلي قد ظهر يا خلي (صديقي)، وآن أن تعرف لي مكانتي

إذْ كنتَ أمسِ ماشياً بجانبي تَعْجَبُ مِنْ رقْصيَ تحتَ صاحبي

فأمس كنتَ أنت تمشي بجانبي، وتتعجب من مشيي الراقص وصاحبي يركبني

فضحكَ الحصانُ مِنْ مقالِهِ وقالَ بالمعهودِ مِنْ دَلالِهِ

فضحك الحصان من مقاله (قوله)، وقال له بدلاله المعهود: ..

لم أرَ رقْصَ البغلِ تحتَ الغازي لكنْ سمعتُ نَقرةَ المِهْمازِ

لم أر رقصك تحت صاحبك الغازي (الفاتح)، لكنني سمعت نقرة مهمازه ينخسك به بكعبه، فأنت كنت تعاني الإهانة ولا ترقص بإرادتك

٦١ المستعجل

رأيتُ في بعضِ الرِّياضِ قُبَّرَةْ تُطَيِّرُ ابنَها بأَعلى الشجرةْ

القبرة: طائر يستحسن الناس صوته

وهْيَ تقولُ: يا جمالَ العُشِّ لا تعتمدْ على الجَناحِ الهَشِّ

وقِفْ على عودٍ بجنْبِ عودِ وافعلْ كما أفعَلُ في الصُّعودِ

لكنَّهُ قد خالَفَ الإشارةْ لما أرادَ يُظْهِرُ الشَّطارةْ

وطارَ في الفضاءِ حتى ارتَفَعا فخانَهُ جناحُهُ فوَقَعا

فانكسرتْ في الحالِ رُكْبتاهُ ولم يَنَلْ مِنَ العُلى مُناهُ

ولو تأنَّى نالَ ما تمنى وعاش طولَ عمْرِهِ مُهَنَّا

لكلِّ شيءٍ في الحياةِ وقتُهُ وغايةُ المستَعجِلينَ فوتُهُ

فوته: تضييعه

٦٢ فأر الوليمة

فأرٌ رأى القطَّ على الجِدارِ معذَّباً في أضيقِ الحصارِ

والكلبُ في حالتِهِ المعهودةْ مستجمِعاً للوثبةِ الموْعودةْ

رأى الفأر القط فوق الجدار، والكلب من الأسفل يحاصره ويستجمع قوته للوثوب عليه

فـحـاولَ الـفـأرُ اغـتـنـامَ الـفـرصـةْ وقـال أكـفـيِ الـقـطَّ هـذي الـغُـصَّـةْ

حاول الفأر اغتنام الفرصة وقال لنفسه: سأكفي القط (سأجنّبه) هذه الغصة (المشكلة)

لـعـلـه يـكـتُـبُ بـالأمـانِ لـيِ ولأصـحـابـيِ مِـنَ الـجـيـرانِ

لعله يعطيني أنا وأصحابي الفئران الأمان

فـسـارَ لـلـكـلـبِ عـلـى يـديْـهِ ومَـكَّـنَ الـتـرابَ مِـنْ عـيـنـيـهِ

فسار الفأر نحو الكلب، ونعف التراب ومكّنه من إصابة عينيه

فاشتَغَلَ «الراعيِ» عنِ الجِدارِ ونـزَلَ الـقـطُّ عـلـى بَـدارِ

فاشتغل الراعي (لقب الكلب) بتنظيف عينيه وسها عن الجدار، فنزل القط على بَدارِ (بسرعة)

مبتهجاً يُفكِرُ في ولـيـمـةْ وفـي فـريـسـةٍ لـهـا كـريـمـةْ

كان القط مبتهجاً (مسروراً) وأخذ يفكّر في وليمة، وفي فريسة كريمة (كبيرة)

يـجـعـلُـهـا لـخَـطْـبِـهِ عَـلامـةْ يَـذْكُـرُهـا فـيـذْكُـرُ الـسـلامـةْ

يريد جعل الوليمة علامة على سلامته، فكلما تذكرها تذكر أنه سلم من الخطر

فـجـاءَ ذاكَ الـفـأرُ فـي الأثـنـاءِ وقـالَ: عـاشَ الـقـطُّ فـي هَـنـاءِ

فجاءه الفأر في هذه الأثناء (في هذا الوقت) ودعا له بالعيش بهناء

رأيتَ في الشِّدَّةِ مِنْ إخلاصي ما كان فيه سببُ الخَلاصِ

وقال: قد رأيت في الشدَّة (المصيبة) من إخلاصي ما كان سبب خلاصك

وقـد أتـيـتُ أطـلـبُ الأمـانـا فـامـنُـنْ بِـهِ لـمـعـشـريِ إحـسـانـا

امنُن: تفضل علينا

فـقـالَ: حـقّـاً هـذهِ كَـرامـةْ غـنـيـمـةٌ وقـبـلَـهـا سـلامـةْ

يكفيكَ فخراً يا كريمَ الشيمةْ أنـكَ فـأرُ الـخَـطْـبِ والـولـيـمـةْ

يكفيك فخراً يا كريم الشيمة (الخلق)، أنك فأر الخطب (المصيبة) والوليمة أيضاً

وانقضَّ في الحالِ على الضعيفِ يـأكُـلُـهُ بـالـمِـلْـحِ والـرَّغـيـفِ

ثم انقض على الفأر الضعيف وأكله بالملح والرغيف. فلم كرتون لتوم وجيري قبل نحو خمسين سنة من ظهورهما

فقلتُ في المَقامِ قولاً شاعا مَنْ حَفِظَ الأعداءَ يوماً ضاعا

٦٣ حصائد الألسنة

يمامةٌ كانتْ بأعلى الشجرةْ آمنةً في عُشِّها مستترةْ

يمامة: حمامة برية

فأقبلَ الصيادُ ذاتَ يوْمِ وحام حوْلَ الروضِ أيَّ حَوْمِ
فلم يجدْ للطيرِ فيهِ ظِلَّا وهَمَّ بالرَّحيلِ حينَ مَلَّا
فبرزتْ مِنْ عُشِّها الحمقاءُ والحُمْقُ داءٌ ما لهُ دواءُ
تقولُ جهلاً بالذي سيحدثُ: يا أيُّها الإنسانُ عَمَّ تبحثُ
فالتفتَ الصيادُ صَوْبَ الصوتِ ونحوهُ سدَّدَ سهمَ الموتِ
فسقطتْ من عرشِها المكينِ ووقعتْ في قبضةِ السِّكّينِ

المكين: المنيع

تقولُ قولَ عارفٍ محقِّقِ ملكتُ نفسي لوْ ملكتُ مَنْطقي

منطقي: نُطقي

٦٤ الأسد والضفدع

قالوا استوى الليثُ على عرشِهِ فجِيءَ في المجلسِ بالضِّفْدَعِ
وقيلَ للسلطانِ هذي التي بالأمسِ آذَتْ عاليَ المِسْمَعِ

قيل للأسد هذه هي التي آذت المسمع العالي (أزعجت أذنك المبجلة)

تُنَقْنِقُ الدهرَ بِلا عِلَّةٍ وتَدَّعي في الماءِ ما تَدَّعي

تنقنق الضفدع الدهرَ (طولَ الدهرِ) بلا علة (سبب)، وتدَّعي أنها سلطانة الماء

فانظرْ - إليكَ الأمرُ - في ذَنبِها ومُرْ نعلِّقْها مِنَ الأربَعِ

مُرْ: فلتأمر

فنهضَ الفيلُ وزيرُ العُلى وقالَ: يا ذا الشرفِ الأرفَعِ
لا خيرَ في الملك وفي عِزِّهِ إن ضاقَ جاهُ اللَّيْثِ بالضِّفْدَعِ

جاه: مكانة

فكتبَ الليثُ أماناً لها وزادَ أنْ جادَ بمُسْتَنْقَعِ

كل مؤسسة لا بد أنها تضم بعض الحمقى، ويجب على مدير كل قسم، ورئيس كل شعبة ألا يضيق بهم. وإلا فمن أين يرتزقون؟

٦٥ الضيف المقيم

بَيْنا ضِعافٌ مِنْ دَجاجِ الرِّيفِ   تخطِرُ في بيتٍ لها ظريفِ

بينا (بينما) دجاجات ضعاف تخطر (تتمشى) في بيتها

إذ جاءها هِنْدِي كبيرُ العُرْفِ   فقامَ في البابِ قيامَ الضَّيْفِ

جاءها ديك هندي (ديك رومي/ديك الحبش) ذو عرف كبير ووقف منها موقف الضيف الزائر

يقول: حيَّا اللَّهُ ذي الوُجوها   ولا أراها أَبَداً مَكروها

يقول حيا الله ذي (هذه) الوجوه، ولا أراها اللهُ مكروهاً

أتيتُكُمْ أنشُرُ فيكم فضْلي   يوماً وأقضي بينَكُمْ بالعَدْلِ

وكلُّ ما عندَكُمُ حرامُ   عليَّ إلَّا الماءُ والمَنامُ

فعاوَدَ الدجاجَ داءُ الطيْشِ   وفَتَحَتْ للعِلْجِ بابَ العُشِّ

عاد إلى الدجاج داء الطيش، وفتحت للعلج (الأجنبي) باب العش

فجالَ فيهِ جَوْلَةَ المليكِ   يدعو لكلِّ فرخةٍ وديكِ

وباتَ تلكَ الليلةَ السعيدةْ   مُمَتَّعاً بدارِهِ الجديدةْ

ممتَّعاً: متمَتِّعاً

حتى إذا تهلَّلَ الصباحُ   واقتبستْ من نورِهِ الأشباحُ

تهلل: أطل، الأشباح: المخلوقات التي تبدو في الليل كالأشباح

صاحَ بها صاحبُها الفصيحُ   يقولُ: دام منزلِي المَليحُ

فانتبهتْ من نومِها المشؤومِ   مذعورةً مِنْ صيحةِ الغَشومِ

الغشوم: الظالم

تقولُ: ما تلكَ الشروطُ بيننا   غدرتَنا واللَّهِ غدراً بَيِّنا

بيِّن: واضح

فضحكَ الهنديُّ حتى استلقى   وقالَ: ما هذا العمى يا حمقى

استلقى: استلقى على ظهره من الضحك. في الزمن القديم كان الناس فيما يبدو هانئين أكثر، فكان الواحد منهم إذا استبد به الضحك استلقى على قفاه؛ أو لعلهم كانوا يفعلون ذلك لأنهم كانوا يجلسون على الأرض فيسهل عليهم الاستلقاء على القفا

متى ملكتُمْ ألسُنَ الأربابِ؟   قد كانَ هذا قبلَ فتحِ البابِ

منذ متى تملكون ألسن أرباب البيت (أصحابه)! نعم كان ذلك صحيحاً قبل أن تفتحوا لي الباب

٦٦ عصفورتان

عُـصـفـورتـانِ فـي الـحـجـا زِ حَـلَّـتـا عـلـى فَـنَـنْ

فنن: غصن

فـي خـامـلٍ مِـنَ الـرِّيـا ضِ، لا نَـدٍ ولا حَـسَـنْ

في روض من الرياض الخاملة (غير المعروفة)، وهو روض جاف غير نديّ

بَـيْـنـا هُـمـا تَـنْـتَـجِـيـا نِ سَـحَـراً عـلـى الـغُـصُـنْ

بينا (بينما) هما تنتجيان (تتهامسان) وقت السحر على الغصن

مَـرَّ عـلـى أيْـكِـهِـمـا ريـحٌ سَـرى مِـنَ الـيَـمَـنْ

مر على الأيك (الأشجار) ريح سرى (سافر ليلاً) قادماً من اليمن

حـيَّـا وقـالَ: دُرَّتـا نِ فـي وِعـاءٍ مُـمْـتَـهَـنْ

حياهما وقال: أنتما جوهرتان في وعاء ممتهن (مهمَل)؛ أي: أنكما في موضع رديء

لـقـد رأيـتُ حـولَ صـنـ ـعـاءَ وفـي ظِـلِّ عَـدَنْ

خـمـائـلاً كـأنَّـهـا بـقـيـةٌ مِـنْ ذي يَـزَنْ

رأيت هناك خمائلَ (بساتين معشوشبة) من حدائق الملك القديم ذي يزن

الـحَـبُّ فـيـهـا سُـكَّـرٌ والـمـاءُ شَـهْـدٌ ولَـبَـنْ

لـم يَـرَهـا الـطـيـرُ ولـم يـسـمـعْ بـهـا إلّا افـتَـتَـنْ

هـذا جـنـاحـيَ ارقـيـا هُ سـاعـةً مِـنَ الـزمـنْ

قـالـتْ لـهُ إحـداهُـمـا والـطـيـرُ مِـنْـهُـنَّ الـفَـطِـنْ

الفطن: الذكي

يـا ريـحُ أنـتَ ابـنُ الـسـبـيـ ـلِ مـا عـرفـتَ مـا الـسَّـكَـنْ

ابن السبيل: المسافر

هَـبْ جـنـةَ الـخُـلْـدِ الـيـمـنْ لا شـيءَ يَـعـدِلُ الـوطـنْ

افرض أن اليمن هي جنة الخلد، لا شيء يعدل (يساوي) الوطن

٦٧ من يبكيه؟

سـمـعـتُ أنَّ فـأرةً أتـاهـا   شـقـيـقُـهـا يَـنْـعـى لـهـا فـتـاهـا

أخو الفأرة جاء ينعى لها ابنها

يصيحُ: يا لي مِنْ نُحوسِ بَخْتي   مَنْ سَلَّطَ القِطَّ على ابنِ أُختي

ويصيح: يا لنحوس (نحس) حظي، لقد افترس القط ابن أختي!

فَـوَلْـوَلَـتْ وعَـضَّـتِ الـتُّـرابـا   وجـمـعـتْ لـلـمـأتـمِ الأَتْـرابـا

ولْوَلَت الفأرة وعضت التراب، وجمعت للمأتم الأتراب (الصديقات)

وقـالـتِ: الـيـومَ انـقـضـتْ لَـذَّاتي   لا خـيـرَ لـي بـعـدَكَ فـي الـحـيـاةِ

انقضت: انتهت

مَـنْ لـي بـهِـرٍّ مـثـلِ ذاكَ الـهـرِّ   يُـريـحُـني مِـنْ ذا الـعـذابِ الـمُـرِّ

من لي بهر (ليت هناك هراً) مثل الهر الذي أكل ولدي ليريحني من ذا (هذا) العذاب المر

وكـان بـالـقـربِ الـذي تـريـدُ   يَـسـمـعُ مـا تُـبـدي ومـا تُـعـيـدُ

وكان بالقرب منها ما تريد (أي الهر) وهو يسمع ما تبدي وتعيد (تكرر) من قول

فـجـاءَهـا يـقـولُ: يـا بُـشْـراكِ   إنَّ الـذي دعـوتِ قـد لَـبَّـاكِ

فجاءها يقول: أبشري، فالذي دعوتِهِ قد لبى نداءك

فـفـزِعَـت لـمـا رأتْـهُ الـفـارَهْ   واعـتـصـمـتْ مـنْـهُ ببيتِ الـجـارةْ

اعتصمت: تحصنت

وأشـرفَـتْ تـقـولُ لـلـسَّـفـيـهِ:   إنْ مُـتُّ بـعـدَ ابـنـي فَـمَـنْ يـبـكـيـهِ

أشرفت (أطلَّت) تقول للقط السفيه: إن مت أنا فمن سيبكي ولدي؟ لا أحب أن أختار هذه القصيدة للتلاميذ في كتاب مدرسي، فالنكتة التي فيها تحتاج إلى أن يمارس المرء الحياة حتى يعرف يضحك عليها ملء شدقيه

٦٨ المستَتِر السعيد

ألـمَّ عُـصـفـورٌ بـمـجـرىً صـافِ   قد غابَ تحتَ الغابِ في الألفافِ

ألمَّ (زار) عصفور مجرى مياه صافياً، ولكنه مستور تحت الغاب (القصب) في الألفاف (الأدغال)

يسقيِ الثَّرى مِنْ حيثُ لا يَدري الثَّرى   خَـشْـيَـةَ أن يُـسْـمَـعَ عـنـهُ أو يُـرى

يسقي الثرى (التراب الندي) وهو مستتر، لا يريد أن يعرف أحد مكانه

فـاغـتـرفَ الـعُـصْـفـورُ مِنْ إحـسـانِـهِ وحـرَّكَ الـصـنـيـعُ مِـنْ لـسـانِـهِ

الصنيع: المعروف

فـقـالَ: يـا نـورَ عـيـونِ الأرضِ ومُـخْـجِـلَ الـكـوثـرِ يـومَ الـعَـرْضِ

قال العصفور للجدول: يا نور عيون (ينابيع) الأرض، ويا مخجل الكوثر (نهر الجنة) يوم العرض (القيامة). قد خلع شوقي على جدوله كل صفات البشر وجعله يقول ويسمع، ثم أبى إلا أن يبعثه يوم القيامة ليُعرض على الخالق ويحاسَب

هـل لـكَ فـي أنْ أُرشـدَ الإنـسـانـا لـيـعـرفَ الـمـكـانَ والإمـكـانـا

قال له العصفور هل لك في أن أدل الإنسان على مكانك وإمكانك (قُدُراتك)

لـعـلَّ أنْ تُـشْـهَـرَ بـالـجـمـيـلِ وتُـنـسِـيَ الـنـاسَ حـديـثَ الـنـيـلِ

فستشتهر بالمعروف وتتفوق على النيل

فـالـتـفـتَ الـغـديـرُ لـلـعُـصـفـورِ وقـالَ يَـهـدي مـهـجـةَ الـمـغـرورِ

فقال الغدير للعصفور هادياً مهجته المغرورة (قلبه المغتر بالناس)

يـا أيُّـهـا الـشـاكـرُ دونَ الـعـالـمِ أمَّـنَـكَ الـلَّـهُ يَـدَ ابـنِ آدمِ

يا من تشكرني دون كل العالم، وقاك الله من يد ابن آدم

الـنـيـلُ، فـاسـمـعْ وافـهـمِ الـحـديـثـا يُـعـطـي ولـكـنْ يـأخـذُ الـخـبـيـثـا

فالنيل يعطي الخير ويأخذ من الناس كل خبيث. يأخذون منه ماء عذباً ويلقون فيه النفايات والمخلفات البشرية والصناعية

من طُولِ مـا أبـصَـرَهُ الـنـاسُ نُـسـي وصـارَ كـلُّ الـفـضـلِ لـلـمـهـنـدسِ

ولطول عهد الناس بالنيل يبصرونه أمامهم نسوا فضله، وصار الفضل لمهندس المياه

وقـد عـرفـتَ حـالـتـي وضـدَّهـا فـقـلْ لـمـنْ يـسـألُ عـنـي بـعـدَهـا

فها قد عرفت يا عصفور حالتي المستترة وضدها (عكسها)؛ أي: حالة النيل المشهور

إنْ خَـفِـيَ الـنـافـعُ فـالـنـفْـعُ ظَـهَـرْ يا سَعْدَ مَنْ صافى وصوفي واستترْ

ليَكتب المشاهير هذا البيت الأخير بماء الذهب. كلهم يتمنون لو أن الله ألقى في قلوبهم حب «الستره» وكراهية الشهرة. لكن للشهرة بريقاً عجيباً، ولا يطيقون عنها ابتعاداً. ومن يقع في أسرها تستعبدْه

٦٩ أحمال الظهر وأحمال الصدر

كـان عـلـى بـعـضِ الـدُّروبِ جَـمَـلُ حـمَّـلَـهُ الـمـالِـكُ مـا لا يُـحْـمَـلُ

فقالَ: يا لِلنَّحسِ والشَّقاءِ　　إن طال هذا لم يَطُلْ بقائي

فجاءه الثعلبُ مِنْ أمامِهِ　　وكان نالَ القَصْدَ مِنْ كلامِهِ

جاء الثعلب إلى الجمل الشاكي من ثقل حمله، وقال له وقد نال (فهم) القصد من كلامه

فقالَ: مهلاً يا أخا الأحمالِ　　ويا طويلَ الباعِ في الجِمالِ

قال: مهلاً يا أخا الأحمال (يا ذا الأحمال)، ويا طويل الباع (أيها المتفوق) في الجمال (بين الجمال)

فأنتَ خيرٌ من أخيكَ حالا　　لأنني أتعبُ مِنْكَ بالا

فأنت أفضل مني حالاً، وأنا أتعب منك بالاً

كأنَّ قُدَّاميَ ألفَ ديكِ　　تسألُني عَنْ دمِها المسفوكِ

يقول الثعلب: أتخيل قدَّامي (أمامي) ألف ديك عادوا إلى الحياة ليسألوني عن دمهم الذي سفكته

كأنَّ خلفي ألفَ ألفِ أرنبِ　　إذا نهضتُ جاذبَتْني ذَنَبي

وأتخيل كأن خلفي ألف ألف أرنب كلما قمت أخذت تجذبني من ذَنَبي مطالبة بحقها بعد أن أكلتها وجنيت عليها

ورُبَّ أُمٍّ جئتُ في مُناخِها　　فَجَعتُها بالفَتْكِ في أفراخِها

وثمة أم من أُمَّات الطير كنت جئت إلى مناخها (مكانها) وفجعتها (دهيتها بداهية) بأن فتكت بأفراخها

يبعثُني مِنْ مَرْقَدي بُكاها　　وأفتحُ العينَ على شكواها

يبعثني (يوقظني) من مرقدي بكاؤها، وأفتح عيني على شكواها

وقد عرفتَ خافيَ الأحمالِ　　فاصبِرْ، وقُلْ لأُمَّةِ الجِمالِ

الآن أيها الجمل، وقد عرفتَ الأحمال الخفية، عليك بالصبر، وقل لأمة الجمال..

ليس بحِمْلٍ ما يَمَلُّ الظَّهْرُ　　ما الحِمْلُ إلَّا ما يعانِي الصَّدْرُ

.. ليس حملاً ذلك الذي يملّه الظهر، ما الحمل الحقيقي إلا ما يعانيه الصدر من وخز الضمير

٧٠ أخو الوتد

كان لِبعضِهِمْ حمارٌ وجَمَلْ　　نالَهُما يوماً من الرِّقِّ مَلَلْ

كان لأحدهم حمار وجمل نالهما (لحق بهما) ملل من الرق (العبودية)

فـانـتـظـرا بـشـائـرَ الـظَّـلْـمـاءِ   وانـطـلـقـا مـعـاً إلـى الـبـيـداءِ
فانتظرا بشائر (أوائل) الظلام، وانطلقا إلى البيداء (الصحراء)

يـجْـتـلـيـانِ طَـلْـعـةَ الـحـريـةْ   ويـنـشَـقـانِ ريـحَـهـا الـذَّكِـيَّـةْ
يجتليان (يتفرجان على) طلعة (شكل) الحرية، ويتنشقان ريحها (رائحتها) الذكية

فـاتـفـقـا أنْ يـقـضـيـا الـعـمرَ بـهـا   وارتـضـيـا بـمـائـهـا وعـشـبِـهـا
واتفقا أن يقضيا عمريهما معاً، وارتضيا (قبِلا) بما في الصحراء من ماء وعشب

وبـعـد لـيـلـةٍ مِـنَ الـمـسـيـرِ   اِلـتـفـتَ الـحـمـارُ لـلـبـعـيـرِ
وبعد أن سارا ليلتهما، التفت الحمار للبعير (الجمل)

وقـال: كـرْبٌ يـا أخـي عـظـيـمُ   فَـقِـفْ، فَـمَـشْـيـي كُـلُّـهُ عـقـيـمُ
قال له: كرب (مصيبة) عظيم، فقف لأن كل مشيي عقيم (سدى)

فـقـال: سَـلْ فِـداكَ أمـي وأبـي   عـسـى تـنـالُ بـي جـلـيـلَ الـمـطْـلَـبِ
قال الجمل: سل (اسأل) فديتك بأمي وأبي، لعلك تنال بواسطتي المطلب الجليل (العظيم)

قـال: انـطَـلِـقْ مـعـي لإدراكِ الـمـنـى   أوِ انـتـظـرْ صـاحِـبَـكَ الـحُـرَّ هُـنـا
قال الحمار: اذهب معي لإدراك (لتحصيل) المنى، أو انتظرني هنا. الحمار يسمي نفسه حراً..

لا بُـدَّ لـي مِـنْ عـودةٍ لـلـبَـلَـدِ   لأنَّـنـي تـركـتُ فـيـهِ مِـقْـوَدي
فلا بد أن أعود للبلد، لأنني تركت هناك مقودي (رَسَني)

فـقـال: سِـرْ والـزَمْ أخـاكَ الـوَتَـدا   فـإنـمـا خُـلِـقْـتَ كـيْ تُـقَـيَّـدا
قال له الجمل: سر والزم (وصاحِب) أخاك الوتد الذي يربطونك به، فأنت قد خلقت عبداً يقيد بالقيود ولا تليق بك الحرية

٧١ أَدَبُ النعجة

كـان لـبـعـضِ الـنـاسِ نَـعـجـتـانِ   وكـانـتـا فـي الـغَـيْـطِ تَـرعـيـانِ
الغيط: الحقل

إحـداهـمـا سـمـيـنـةٌ، والـثـانـيـةْ   عـظـامُـهـا مـن الـهُـزالِ بـاديـةْ
الهزال: النحافة، بادية: ظاهرة

فكـانـتِ الأولـى تُـبـاهـي بـالـسِّـمَـنْ   وقـولِـهِـمْ بـأنـهـا ذاتُ الـثَّـمـنْ
نعجة تباهي الأخرى بأنها سمينة وغالية الثمن

فتصبرُ الأخرى على الإذلالِ حاملةً مرارةَ الإذْلالِ

الإدلال: الترفُّع

حتى أتى الجزَّارُ ذاتَ يومِ وقَلَّبَ النعجةَ دونَ القَوْمِ

جاء الجزار، وقلَّب النعجة (تفحصها) دون (أمام) القوم

فقالَ للمالِكِ: أشتريها، ونَقَدَ الكيسَ النفيسَ فيها
وانطلقتْ مِنْ فورِها لأختِها وهْيَ تشُكُّ في صلاحِ بَخْتِها
تقولُ: يا أُختاهُ خبِّريني هل تعرفينَ حاملَ السِّكِّينِ
قالتْ: دعيني وهُزالِي والزمنْ وكَلِّمي الجَزَّارَ يا ذاتَ الثَّمَنْ
لِكُلِّ حالٍ حلوُها ومُرُّها ما أَدَبُ النعجةِ إلَّا صبرُها

حسن الأدب للنعجة هو صبرها

٧٢ الذي أضحك الحمار الصغير

غزالةٌ مرَّت على أتَانِ تُقَبِّلُ الفَطيمَ في الأسْنانِ

غزالة مرت على أتان (حمارة) تقبل ولدها الفطيم (المفطوم) في فمه ومن أسنانه

وكان خلفَ الظبيةِ ابنُها الرَّشا بِوُدِّها لو حَمَلَتْهُ في الحشا

وخلف الظبية (الغزالة) كان يمشي الرشا (ولد الغزال)، وهي من حبها له تود لو حملته في الحشا (داخل جسمها)

ففعلتْ بسيِّدِ الصِّغارِ فِعْلَ الأتانِ بابنِها الحمارِ

فقبلته مثلما فعلت الحمارة بابنها الحمار

فأسرعَ الحمارُ نحوَ أمِّهِ وجاءها يضحكُ ملءَ فَمِهِ

فركض الحمار نحو أمه ضاحكاً

يصيحُ: يا أمَّاهُ! ماذا قدْ دَها حتى الغزالةُ استخَفَّتِ ابنَها

يقول: يا أمي! ماذا قد دها (حصل)، فحتى الغزالة استخفت ابنها (وجدته خفيف الدم)

٧٣ مصرع الغراب

ومُمَهَّدِ في الوَكْرِ مِنْ وَلَدِ الغرابِ مُزَقَّقِ

رب ممهد (جالس في المهد) من أولاد الغراب، مزقق (يُزَقُّ له الحَب في فمه)

كَــرُوَيْــهِــبٍ مُـتَــقَــلِّــسٍ مُــتَــأَزِّرٍ مُــتَــمَــنْــطِــقِ

كرويهب (راهب صغير)، متقلس (يلبس قلنسوة أي طاقية)، متأزر (يلبس إزاراً)، متمنطق (يضع نطاقاً؛ أي: حزاماً)

لَــبِــسَ الــرمــادَ عــلــى ســوا دِ جــنــاحِــهِ والــمَــفْــرِقِ

اتخذ لوناً رمادياً يوشح سواد جناحه ومفرقه (رأسه)

كــالــفــحــمِ غــادَرَ فــي الــرمــا دِ بــقــيــةً لــم تُــحْــرَقِ

فكأنه الفحم الذي تَرَكَ بقايا منه لم تحترق وسط الرماد

ثُــلُــثــاهُ مِــنْــقــارٌ ورأْ سٌ، والأظــافــرُ مــا بَــقــي

منقاره ورأسه ثلثا جسمه، والبقية الأظافر

ضــخــمُ الــدِّمــاغِ عــلــى الــخــلــوِّ مِــنَ الــحِــجَــا والــمــنــطــقِ

رأسه ضخم وإن لم يكن فيه حجى (عقل) أو منطق

مِــنْ أُمِّــهِ لَــقِــيَ الــصــغــيــ ـرُ مِــنَ الــبَــلِــيَّــةِ مــا لَــقــي

لقي هذا الصغير من أمه من البلية (المصيبة) ما لقي

جَــلَــبَــتْ عــلــيــهِ مــا تَــذُو دُ الأمَّــهــاتُ وتَــتَّــقــي

جلبت عليه أمه الأمر الذي تذوده (تبعده) الأمهات عن أولادهن ويتقين شره

فُــتِــنَــتْ بــه، فــتــوهــمــتْ فــيــهِ قُــوىً لــم تُــخْــلَــقِ

أعجبت به فتوهمت أن فيه قوى غير موجودة

قــالــتْ: كَــبِــرْتَ، فَــثِــبْ كــمــا وَثَــبَ الــكــبــارُ، وحَــلِّــقِ

فقالت له: كبرت فثب (فاقفز) كالكبار وحلِّق (طِرْ)

ورَمَــتْ بــه فــي الــجــوِّ، لــم تــحــرِصْ ولــم تَــسْــتَــوْثِــقِ

ورمت به في الجو دون أن تحرص عليه أو تستوثق (تتأكد)

فَــهَــوى، فَــمُــزِّقَ فــي فِــنــا ءِ الــدارِ شــرَّ مُــمَــزَّقِ

فسقط فتمزق شر تمزُّق

وســمِــعْــتُ قــاقــاتٍ تَــرَدَّ دُ فــي الــفــضــاءِ وتَــرتَــقــي

وقد سمعتُ قاقاتٍ (نعبات غُرابية) تتردد في الفضاء وتصعد فيه

ورأيـــتُ غِـــربـــانـــاً تَـــفَـــرَّ ـ   قُ فـــي الـــســمـــاءِ وتَـــلـــتـــقـــي

ورأيت الغربان مضطربة في الجو تتفرق وتلتقي

وعـــــرفـــــتُ رنَّـــــةَ أُمِّـــــهِ   فـــي الـــصـــارخـــاتِ الـــنُّـــعَّـــقِ

وعرفت رنة (صوت) أمه بين إناث الغربان الناعقات

فـأشـرْتُ، فـالـتـفـتَـتْ، فـقـلـ ـ   ـتُ لـهـا مَـقـالـةَ مُـشْـفِـقِ:

فأومأت إليها وقلت لها قول مشفق عطوف لما حدث لابنها:

أطـلـقـتِـهِ، ولـو امـتـحـنْـ ـ   ـتِ جـنـاحَـهُ لـم تُـطـلـقـي

لقد أطلقته دون أن تمتحنيه، ولو امتحنته لما أطلقتِه

وكـــمـــا تـــرفَّـــقَ والـــدا   كِ عـــلـــيـــكِ لـــم تـــتـــرفَّـــقـــي

ولم تترفقي به كما ترفق بك والداك

٧٤ إياك أن تغتر بالزهاد

ألـقـى غُـلامٌ شَـرَكـاً يَـصـطـادُ   وكـلُّ مَـنْ فـوقَ الـثَّـرى صـيَّـادُ

وضع غلام شركاً (مصيدة)، وكل من على ظهر الأرض صياد يسعى لرزقه

فـانـحـدرتْ عـصـفـورةٌ مِـنَ الـشَّـجَـرْ   لـم يَـنْـهَـهـا الـنَّـهْـيُ، ولا الـحزمُ زَجَرْ

فنزلت عصفورة من الشجر لم ينهها (يمنعها) النهي الطبيعي لمثلها عن مثل ذلك الفعل، ولم يزجرها (يمنعها) الحزم (التعقل)

قـالـتْ: سـلامٌ أيُّـهـا الـغـلامُ   قـال: عـلـى الـعـصـفـورةِ الـسـلامُ

قـالـتْ: صـبـيٌّ مـنـحـنـي الـقـنـاةِ!   قـالَ: حَـنَـتْـهـا كَـثْـرَةُ الـصَّـلاةِ

القناة: القامة

قـالـتْ: أراكَ بـاديَ الـعـظـامِ   قـال: بَـرَتْـهـا كَـثْـرَةُ الـصِّـيـامِ

عظامه مبرية لكثرة الصيام

قـالـتْ: أرى فـوقَ الـترابِ حَـبَّـا   مِـمَّـا اشـتـهـى الـطـيـرُ ومـا أَحَـبَّـا

قـالَ: تـشـبَّـهْـتُ بـأهـلِ الـخـيـرِ   وقـلـتُ أَقْـرِي بـائـسـاتِ الـطَّـيْـرِ

أقري بائسات الطير: أطعِم الطيور البائسة

قالتْ: فجُدْ لي يا أخا التَّنَسُّكِ   قـالَ: الـقُـطِـيـهِ بـاركَ الـلَّـهُ لَـكِ

قالت: جد لي (اسمح لي) يا صاحب التنسك (العبادة)، فقال: القطي الحَب

فَصَلِيَتْ في الفخِّ نارَ القَاري ومَصرَعُ العُصفورِ في المِنقارِ

فصليت (اصطلت) في الفخ بنار هذا القاري (المُطعِم)، ومنقار العصفور الذي يريد التقاط الحب هو سبب مصرعه

وهتفتْ تقولُ للأغرارِ مقالةَ العارفِ بالأسرارِ

صاحت تقول للأغرار (للمغفلين) قول العارف بالأسرار

إياكَ أنْ تَغتَرَّ بالزُّهَّادِ كمْ تحتَ ثوبِ الزُّهدِ مِنْ صيَّادِ

٧٥ الحالة القديمة

لما أتمَّ نوحٌ السفينةْ وحرَّكَتْها القُدْرةُ المُعينةْ

لما صنع نوح سفينته وحركتها قدرة الله المعينة (المساعِدة)

جرى بها ما لا جرى ببالِ فما تعالى الموجُ كالجبالِ

جرى لها ما لا يخطر ببال، فما إن علا الموج وصار كالجبال..

حتى مشى الليثُ مَعَ الحمارِ وأخذَ القِطُّ بأيدي الفارِ

.. حتى ترافق من الحيوان ما لم يكن يترافق

واستمعَ الفيلُ إلى الخِنْزيرِ مؤْتَنِساً بصوتِهِ النَّكيرِ

مؤتنساً: منشرحاً

وجلسَ الهرُّ بجنْبِ الكلبِ وقَبَّلَ الخَروفُ نابَ الذئبِ

حتى إذا حَطُّوا بسفحِ الجُودي وأيْقنوا بعودةِ الوُجودِ

ثم رست السفينة على الجودي (اسم الجبل الذي رست عليه سفينة نوح بعد أن غيض الماء) وأيقن الجميع بعودة الحياة الطبيعية

عادوا إلى ما تقتضيهِ الشِّيمَةْ ورَجَعوا للحالةِ القديمةْ

فعادوا إلى ما تقتضيه (تتطلبه) الشيمة (الطبيعة)

فقِسْ على ذلكَ أحوالَ البشرْ إنْ شَمِلَ المحذورُ أوْ عَمَّ الخطرْ

وكذلك يصنع البشر إن شملهم المحذور (الشرّ الذي منه يحذرون) أو عمهم الخطر

٧٦ النملة فارس الميدان

قدْ وَدَّ نوحٌ أن يُباسِطَ قومَهُ فدعا إليه معاشرَ الحَيَوانِ

يباسط: يرفع الكلفة

وأشـارَ أنْ يَـلِـيَ الـسـفـيـنـةَ قـائـدٌ   مـنـهـمْ يـكـونُ مِـنَ الـنُّـهـى بِـمَـكـانِ

دعا نوح إلى أن يلي (يتولى) السفينة قائد من الحيوانات يكون معروفاً بالنُّهى (العقل)

فـتـقـدمَ الـلـيـثُ الـرفـيـعُ جـلالُـهُ   وتـعـرَّضَ الـفـيـلُ الـفـخـيـمُ الـشَّـانِ

وتـلاهُـمـا بـاقـي الـسـبـاعِ، وكـلُّـهـمْ   خَـرُّوا لِـهَـيْـبَـتِـهِ إلـى الأذقـانِ

اجتمعت حوله الحيوانات، وخروا (سجدوا) لهيبته حتى مست أذقانهم الأرض

حـتـى إذا حـيُّـوا الـمـؤيَّـدَ بـالـهُـدى   ودَعَـوْا بـطـولِ الـعِـزِّ والإمـكـانِ

فلما أدوا التحية للنبي المؤيد (المدعوم) بالهدى الرباني، ودعوا له بطول العز والإمكان (القدرة)

سـبـقَـتـهُـمُ لـخـطـابِ نـوحٍ نـمـلـةٌ   كـانـتْ هـنـاكَ بـجـانـبِ الأَرْدانِ

سبقتهم في التحدث إلى نوح نملة كانت تقف قريباً من أردانه (أكمامه)

قـالـتْ: نـبـيَّ الـلَّـهِ، أرضـي فـارسٌ   وأنـا يـقـيـنـاً فـارسُ الـمـيْـدانِ

قالت: يا نبي الله أرضي بلاد فارس، وأنا خير من يتولى الأمر

سـأُديـرُ دَفَّـتَـهـا وأحـمـي أهـلَـهـا   وأقـودُهـا فـي عِـصـمـةٍ وأمـانِ

وسأدير دفة السفينة في عصمة (حماية) وأمان

ضـحـكَ الـنـبيُّ وقـالَ: إنَّ سـفـيـنـتـي   لَـهِـيَ الـحـيـاةُ وأنـتِ كـالإنـسـانِ

قال نوح: سفينتي هذه مثال مصغر للحياة، وأنت أيتها النملة مثل الإنسان

كـلُّ الـفـضـائـلِ والـعـظـائـمِ عـنـدَهُ   هُـوَ أولٌ والـغـيـرُ فـيـهـا الـثـانـي

فهو الأول في كل الفضائل والعظائم (الأمور المهمة)

ويَـوَدُّ لـو سـاسَ الـزمـانَ، ومـا لَـهُ   بـأقـلِّ أشـغـالِ الـزمـانِ يَـدانِ

ويود الإنسان لو ساس (أدار) الزمان، في حين ليس له بأقل أشغال (شؤون) الزمان يدان (ليس له يدان بالشيء: عاجز عن الشيء)

٧٧ غير مهضوم

سَقَطَ الحمارُ مِنَ السفينةِ في الدُّجى   فـبـكـى الـرفـاقُ لـفَـقْـدِهِ وتَـرَحَّـمـوا

سقط الحمار من سفينة نوح في الدجى (الظلام)، فبكت الحيوانات وترحمت عليه

حـتـى إذا طَـلَـعَ الـنـهـارُ أتَـتْ بِـهِ   نـحـوَ الـسـفـيـنـةِ مـوجـةٌ تـتـقـدَّمُ

ومع النهار جاءت به موجة تتقدم باتجاه السفينة

قـالـتْ: خُذوهُ كـمـا أتـانـيَ سـالـمـاً   لـم أبـتـلِـعْـهُ لأنَّـهُ لا يُـهْـضَـمُ

قالت: خذوه كما جاءني، فهو لا يهضم (ثقيل الظل، غير مهضوم!)

٧٨ تكفيك منه صحبة السفينة

أبـو الـحُـصَـيـنِ جـالَ فـي الـسـفـيـنـةْ   فـعـرفَ الـسـمـيـنَ والـسـمـيـنـةْ

أبو الحصين (الثعلب) تجول في سفينة نوح، وعرف السمين من الفراخ والسمينة

يـقـولُ إنَّ حـالَـهُ اسـتـحـالا   وإنَّ مـا كـان قـديـمـاً زالا

وهو يقول إن حاله استحال (تبدل)، وإن ما كان يفعله في الماضي من افتراس الطيور قد انتهى

لـكـوْنِ مـا حـلَّ مِـنَ الـمـصـائـبِ   مِـنْ غـضـبِ الـلَّـهِ عـلـى الـثـعـالـبِ

وقد أدرك أن مصيبة الطوفان كانت لغضب الله على الثعالب

ويُـغْـلِـظُ الأَيْـمـانَ لـلـدُّيـوكِ   لِـمـا عَـسـى يـبـقـى مِـنَ الـشُّـكـوكِ

وأقسم الأيمان الغليظة للديوك حتى يزيل شكوكها

قـيـلَ فـلـمَّـا تَـرَكـوا الـسـفـيـنـةْ   مـشـى مَـعَ الـسـمـيـنِ والـسـمـيـنـةْ

وعندما انتهى الطوفان، وغادروا السفينة مشى الثعلب بجانب الفراخ السمينة

حـتـى إذا مـا نَـصَـفـوا الـطـريـقـا   لـم يـبـقَ مـنـهُـمْ حـولَـهُ رفـيـقـا

وفي منتصف الطريق، هربوا منه، ويبدو أنه بادرهم بمحاولة اعتداء

وقـال، إذ قـالـوا عـديـمُ الـدِّيـنِ،   لا عَـجَـبٌ أنْ حَـنِـثَـتْ يـمـيـنـي

وقالوا له: أنت عديم الدين، فقال: لا عجب أن يميني حنثت (بَطَلت)

فـإنـمـا نـحـنُ بـنـي الـدهـاءِ   نـعـمـلُ فـي الـشِّـدَّةِ لـلـرَّخـاءِ

فنحن أهل الدهاء (الحيلة) نخطط في أيام الشدة (الأزمة) لكي ننتفع بتخطيطنا في أيام الرخاء

ومَـنْ خَـشِـيـتَ أنْ يَـبـيـعَ ديـنَـهْ   تـكـفـيـكَ منـهُ صُـحـبَـةُ الـسـفـيـنـةْ

والحكمة: الذي ليس ثابتاً على مبدأه، تكفيك صحبته في وقت الضرورة كما في سفينة نوح

٧٩ ضع رأسك بين الرؤوس

الـدُبُّ مـعـروفٌ بـسـوءِ الـظَّـنِّ   فـاسـمـعْ حـديـثَـهُ الـعـجـيـبَ عـنِّـي

لمَّا استطالَ المُكْثُ في السفينةْ   ملَّ دَوامَ العيشةِ الظَّنِينةْ

عندما طال المكث (المكوث) في سفينة نوح، مل الدب العيشة الظنينة (المشكوك في مصيرها)

وقالَ إنَّ الموتَ في انتظاري   والماءُ لا شَكَّ بِهِ قَراري

وقال لنفسه: الموت في انتظاري، وسيكون قراري (مستقري) في قاع الماء

ثمَّ رأى موجاً على بُعْدٍ عَلا   فَظَنَّ أنَّ في الفضاءِ جَبَلا

ورأى موجاً يعلو كأنه جبل في الفضاء

فقالَ: لا بُدَّ مِنَ النُّزولِ   وصلتُ أو لَمْ أحظَ بالوُصولِ

فقرر النزول سواء حظي بالوصول إلى الشاطئ أم لم يحظ

قد قالَ مَنْ أدَّبَهُ اختبارُهْ   السعيُ للموتِ ولا انتظارُهْ

فقد قال من أدَّبه (علمه) اختباره للحياة إن السعي للموت أهون من انتظاره

فأَسْلَمَ النفْسَ إلى الأمواجِ   وَهْيَ مَعَ الرياحِ في هِياجِ

فسلم الدب نفسه للأمواج وهي في هياج (صخب) مع الرياح

فشربَ التَّعيسُ مِنها فانتفخْ   ثمَّ رسا على القَرارِ ورَسَخْ

وشرب من الأمواج ماء حتى انتفخ، ورسا في قرار (قعر) البحر

وبعدَ ساعتينِ غِيضَ الماءُ   وأقلعتْ بأمرِهِ السَّماءُ

وسريعاً غيض (أنضِب) الماء، وأقلعت (صحت) السماء بأمر الله

وكانَ في صاحِبِنا بعضُ الرَّمَقْ   إذ جاءَهُ الموتُ بطيئاً في الغَرَقْ

وكان في الدب رمق (بقية حياة)، حيث إن الموت جاءه بطيئاً بعد غرقه

فلَمَحَ المرْكَبَ فوقَ الجُودِي   والرَّكْبُ في خيرٍ وفي سُعُودِ

فرأى المركب قد رسا على الجودي (اسم الجبل الذي رست عليه سفينة نوح)، والركب (الركاب) بخير وسعود (حظ طيب)

فقالَ: يا لِجَدِّيَ التعيسِ   أسأتُ ظنِّي بالنَّبيِ الرئيسِ

فقال يا لجدي (حظي) التعس إذ أسأت الظن بنوح

ما كانَ ضَرَّني لوِ امتثلتُ   ومثلَما قدْ فعَلوا فَعَلْتُ

هلا كنتُ امتثلت (أطعت) وفعلت مثل كل الحيوانات!

شوقي شاعر البلاط

في هذا الفصل ما اخترته من شعر شوقي منذ بداية القرن العشرين وحتى إبعاده إلى إسبانيا. كان شوقي شاعر بلاط منذ أن كان في المدرسة، فقد كان ينشر مدائحه في الخديوي وهو تلميذ، ثم دخل المعية الخديوية في السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر. وظل حتى وفاته يمدح الخديوي، ثم السلطان، ثم الملك. فتقسيم الفصول، كما ترى، تقسيم لغرض التقسيم؛ وكيلا يبدو الباب قطعة كبيرة في عينيك. ولعل فيه تنشيطاً على القراءة، أو معونة للقارئ في الاهتداء إلى طريقه.

٨٠ كرمة المسلمين

قال شوقي في ثورة البوكسر على المستعمرين في الصين (١٩٠٠):

لِمَنِ المساكنُ كالمقابرْ ... يَأوِي لها حَيٌّ كَغابِرْ

لمن هذه المساكن التي كأنها مقابر، ويأوي لها حي كأنه غابر (ميت)

مُتَجَنِّبُ الدنيا عدوٌّ ... للأوائلِ والأواخِرْ

من يتجنب المشاركة في أمور الدنيا يصبه الانحطاط، ويصبحْ عدواً للأوائل (لأجداده) وللأواخر (لنفسه ولمن سيأتي بعده)

ولُغاتُهُ لا لِلْمنا ... برِ قد خُلِقْنَ ولا المحابِرْ

ولغات هؤلاء الذين يتجنبون الدنيا لا تصلح للخطابة من على المنابر ولا للكتابة باستخدام المحابر (آنية الحبر)

وعلومُهُ دَرَسَتْ وعفَّا ... ها مِنَ الأزمانِ دائِرْ

ومتجنب الدنيا علومه قديمة دَرَسَتْ (امّحت)، وعفّاها (مسحها) الزمان الدائر

والأمرُ فيهِ لِكاهنٍ ... والنهْيُ مَرْجِعُهُ لِساحرْ

وصاحب الأمر فيه كاهن، وصاحب النهي ساحر مشعوذ، وهذه هي حال المتخلفين

ومِنَ العجائبِ ما لوى ... ذَنَباً ولا رَفَعَ العَقائِرْ

وعجيب أن الأمم المتخلفة لا تلوي ذنباً (لا تعترض) ولا ترفع عقائرها (أصواتها بالاحتجاج)

بينَ العِبادِ وبينَهُ ... غَوْرٌ مِنَ الأحقادِ غائِرْ

وبين المتخلف وبين بقية العباد غور (وادٍ) غائر (عميق) من الأحقاد

أممٌ يُكاثِرُها الحَصى ... عَدّاً، وليسَ لها بِكاثِرْ

في الصين أمم يكاثرها الحصى (ينافسها في الكثرة) وليس كاثراً لها (متغلباً في الكثرة)

هـيـهـاتَ قـدْ نَـفَـذَ الـقـضـا ءُ وصِـرْتُـمُ فـي حـكـم قـادرْ

انتهى الأمر أيها الصينيون فقد نفذ القضاء وصرتم محكومين لحاكم قادر (للأمم الأوروبية)

مـتـلـهِّـبِ الـطَّـغْـوى إذا أخَـذَ الـفـريـسـةَ لـمْ يُـغـادرْ

هذا الحاكم متلهب الطغوى (شديد الطغيان)، إذا أخذ فريسة لم يتركها

يـا لـيـتَ شِـعـري مَـنْ تـدو رُ عـلـيـهِ بـعـدَكُـمُ الـدوائـرْ

يا ترى من تدور عليه الدوائر (المصائب) بعدكم؟

الـوقـتُ أضـيَـقُ أنْ نُـغـا لِطَ فـي الـحـقـائقِ أوْ نـكـابـرْ

أمامنا وقت قصير ولا مجال للمغالطة والمكابرة

لـم يـبـقَ إلَّا كَـرْمَـةٌ لـلـمـسـلـمـينَ بـغـيـرِ نـاظِـرْ

بقي للمسلمين كرمة (بستان) وليس لها ناظر (ناطور/حارس)

إن نـام عـنـهـا الـحـافـظـو نَ فـإنَّ جَـفْـنَ الـشـرِّ سـاهـرْ

إن نام حافظو البستان عنه فإن عين الشر ساهرة متربصة به

مَـنْ كـان يـرقُـبُ فـرصـةً فـلـيـغـنـمِ الـفرصَ الـحـواضِـرْ

إن كنا نريد انتهاز الفرصة، فلنغنم الفرصة الحاضرة

لا يـمـشِـيَـنَّ الـسُّـلْـحَـفـا ءَ وغـيـرُه لـلـمـجـدِ طـائـرْ

ولا نمشِ السلحفاءَ (مشي السُّلَحْفاة) بينما غيرنا يطير طيراناً في تقدمه العلمي

٨١ حكمة

أَتَغْلِبُنِي ذاتُ الدَّلالِ على صِبري إذنْ أنـا أوْلـى بـالـقِـنـاعِ وبـالـخِـدْرِ

هل تغلبني الفتاة ذات الدلال وتجعلني أفقد صبري؟ إذن فأنا أولى منها بالقناع (الخمار) وبالخدر (الستار الذي «كان» يفصل الحريم عن الرجال)

تـتـيـهُ، ولـي حِـلْـمٌ إذا مـا رَكِـبْـتُـهُ رددْتُ بِـهِ أمـرَ الـغـرامِ إلـى أمـري

تتيه (تتكبر) ولي حِلم (طول بال) إذا ما ركبته (استعملته) أرجعت الأمر ليكون في يدي أنا

ومـا دَفْـعِـيَ الـلُّـوّامَ فـيـهـا سـآمـةً ولـكـنَّ نـفْـسَ الـحُـرِّ أزجَـرُ لـلـحُـرِّ

ولست أرد كلام اللائمين بشأنها مللاً منهم، ولكن لأن نفس الحر هي الأزجر (الأكثر ردعاً) له

إذا لـم يَكُنْ للمرءِ مِنْ عِيشةٍ غِنىً فلا بُدَّ مِنْ يُسْـرٍ ولا بُدَّ مِنْ عُسْرِ

وبما أن المرء لا غنى له عن العيشة فلا بد أن يأخذها بيسرها وبعسرها

وَمَنْ يَخْبُرِ الدنيا ويَشربْ بكأسِها   يجِدْ مُرَّها في الحُلوِ، والحلوَ في المُرِّ

والذي يعرف الدنيا حقاً ويشرب من كأسها يجد حلوها ممزوجاً بالمر، ومرها ممزوجاً بالحلو

وَمَنْ كان يغزو بالتَّعِلَّاتِ فَقْرَهُ   فإنِي وجدتُ الكَدَّ أَقْتَلَ للفقرِ

ومن يحارب فقره بالتعلات (بالحجج)، فإنني وجدت الكد (الاجتهاد والتعب) أحسن لقتل الفقر

وَمَنْ يستعِنْ في أمرِهِ غيرَ نفسِهِ   يَخُنْهُ الرفيقُ العَوْنُ في المَسْلَكِ الوَعْرِ

والذي يستعين في شؤونه بالآخرين يخونه الرفيق العون (المعين) في لحظة الضيق وفي المسلك (الممر) الوعر

وَمَنْ لَمْ يُقِمْ سِتْراً على عَيْبِ غيرِهِ   يعِشْ مُستباحَ العِرضِ منهَتِكَ السِتْرِ

والذي لا يستر عيوب الآخرين يعيش مستباح العرض ومنهَتِك (ممزق) الستر

وَمَنْ لَمْ يُجَمِّلْ بالتواضعِ فضلَهُ   يَبِنْ فضلُهُ عنْهُ، ويَعْطَلْ عَنِ الفَخْرِ

والذي لا يزين معروفه بالتواضع يَبِنُ (يَبعُدُ) فضلُه عنه، ويَعْطَل (يتجرد) عن الفخر

٨٢ شاعر لا يجارى

قال شوقي (١٩٠٠):

بدأَ الطيفُ بالجميلِ وزارا   يا رسولَ الرِّضا وُقِيتَ العِثارا

بدأني طيف (خيال) المحبوب بالجميل (بالمعروف) فزارني وأنا غافٍ. فيا أيها الطيف، يا أيها الرسول الذي يحمل رضا المحبوب، وقاك الله العثار (التعثر)

حسنٌ يا خيالُ صنعُكَ عِندي   أجملُ الصُّنعِ ما يُصيبُ افتقارا

حسن يا خيال صنعك (معروفك) عندي، وأجمل المعروف ما يصيب (يصادف) افتقاراً (حاجة ماسَّة)

أيُّها العاذِلونَ نِمْتُمْ ورامَ السُّـ   ـهْدُ مِنْ مُقلتيَّ أمراً فصارا

أيها العاذلون نمتم أنتم، ورام (طلب) السهد (النوم الخفيف) من مقلتيَّ (عيني) أمراً فحدث الأمر

آفةُ النُّصحِ أنْ يكونَ جِدالاً   وأذَى النُّصحِ أنْ يكونَ جِهارا

آفة (مشكلة) النصح أن يكون جدالاً، ويتحول النصح إلى أذى عندما يكون جهاراً (علانية)

سألتْني عَنِ النهارِ جُفوني   رَحِمَ اللَّهُ يا جفوني النَّهارا

سألتني جفوني متى يطلع النهار، ألا رحمة الله على النهار (يبدو أن النهار مات ولم يعد يطلع لطول ليلي)

قُلْنَ: نبكيهِ، قُلْتُ: هاتي دُموعاً   قُلْنَ: صبراً، فقلتُ: هاتي اصْطِبارا

فقالت الجفون: هلم نبكي النهار، قلت هاتي دموعاً فقد نفدت دموعي؛ فقلن اصبر، فقلت: هاتي اصطباراً (صبراً)

لَمْ نُفِقْ منكَ يا زمانُ فنشكُو   مدمنُ الخمرِ ليسَ يشكُوْ الخُمارا

أيها الزمان لم نفق (نصْحُ) بعد من مصائبك حتى نتفرغ للشكوى، ومدمن الخمر يتعود على الخمار (صداع السكر) فليس يشكوه

فاصرفِ الكأسَ مُشْفِقاً، أو فَواصِلْ   خرجَ الرُّشْدُ مِنْ أكُفِّ السُّكارى

فاصرف (أبعِد) الكأس رفقاً بي، أو فواصل سَقيي، فقد خرج الأمر من أيدي السكارى ولم يعودوا يهتمون بشيء

شُعراءَ الزمانِ مهلاً رُوَيْداً   إنَّ في مصرَ شاعراً لا يُجارى

يا شعراء الزمان مهلاً، وتريثوا، إن في مصر شاعراً لا يجارى (ينافَس)

حاملاً في الصِّبا لواءَ القوافي   مُسْتَرِقّاً لِمُلْكِهِ الأشعارا

حاملاً منذ صباه لواء (راية) القوافي (الشعر)، مسترقّاً (مستعبداً) لملكه الأشعار

٨٣ الغواني السوافر

قال شوقي يصف (كوك صو) وهو موضع في الآستانة (١٩٠٠):

تحيةُ شاعرٍ يا ماءَ جُكْسو   فليْسَ سِواكَ للأرواحِ أُنْسُ

تحية من شاعر لك يا ماء (موضع) جكسو فأنت وحدك أنس الأرواح

وَرَدْنَكَ كوثراً وسَفَرْنَ حُوراً   وهلْ بالحورِ إن أسفرنَ بأسُ؟

وردتك الحسان فكأنك نهر الجنة «الكوثر» إذ يترقرق، وسفرن عن وجوههن فإذا بهن كحور الجنة، وهل هناك بأس إذا أسفرت الحور؟

فقُلْ للجانحينَ إلى حجابٍ   أتُحجَبُ عن صنيعِ اللَّهِ نَفْسُ

فقل للجانحين (الميالين) إلى حجاب المرأة: هل تحجب النفس عن رؤية خلق الله البديع؟

إذا لم يسترِ الأدبُ الغوانيَ   فلا يُغْني الحريرُ ولا الدِّمَقْسُ

إذا الأدب لم يستر الغواني (الحسان) فلا يغني الحرير ولا الدمقس (نوع من الحرير)

تأمَّلْ هلْ ترى إلَّا جَلالاً   تُحِسُّ النفسُ منهُ ما تُحِسُّ

تأملْ هذه الوجوه الحسان ترَ جلالاً تحس النفس منه بأحاسيس حلوة

غَـشِـيـتُـكَ والأصيـلُ يـفـيـضُ تِـبْـراً   ويـنـسُـجُ لـلـرُّبـى حُـلَـلاً ويَـكـسـو
غشيتك (أتيتكَ) والأصيل (الغروب) يفيض تبراً (ذهباً)، وينسج من أشعته حللاً (أثواباً) ويكسو الربى

عـلـى فُـلْـكٍ تـسـيـرُ بـنـا الـهُـوَيْـنـى   ومِـنْ شِـعْـري نـديـمٌ لـي وجِـلْـسُ
أتيتك على فلك (سفينة) تسير الهوينى (ببطء)، وشِعري هو نديمي وجِلسي (جليسي)

٨٤ نهاية المسرحية

قال شوقي يرثي بشارة تقلا أحد مؤسسيْ جريدة الأهرام (١٩٠١):

حَـلَّ بـالأُمَّـتَـيْـنِ خَـطْـبٌ ثـقـيـلُ   رجـلٌ مـاتَ، والـرجـالُ قـلـيـلُ
الأمتان: الشَّوام والمصريون

زالَ عـنْ سـورِيـا فـتـاهـا الـمُـرَجَّـى   وعَـنِ الـنـيـلِ جـارُهُ الـمـأمـولُ
وكانت بلاد الشام كلها تسمى آنذاك سوريا

هـذه الأرضُ والأنـامُ عـلـيـهـا   مَـلـعـبٌ، ثُـمَّ يـنـقـضـي الـتـمـثـيـلُ
ملعب: مسرح

٨٥ الهوى قدر

قال شوقي (١٩٠١):

لـكَ أنْ تـلـومَ، ولـيِ مِـنَ الأعـذارِ   أنَّ الـهـوى قَـدَرٌ مِـنَ الأقـدارِ
لك يا عاذلي أن تلومني، ولكن أحد أعذاري أن الهوى قدر محتم

يا قلبُ شأنَك، لا أَمُدُّكَ في الهوى   أبـداً، ولا أدعـوكَ لـلإقـصـارِ
أنت وما تريد يا قلبي، لا أمدك بمساعدة في الحب، ولا أدعوك للإقصار (الكَفّ عنه)

أمري وأمرُك في الهوى بِيَدِ الهوى   لـو أنـهُ بِـيَـدي فَـكَـكْـتُ إِسـاري

٨٦ ضد عرابي

قال شوقي متشفياً بأحمد عرابي بعد عودته إلى مصر (١٩٠١):

صَـغَـارٌ فـي الـذَّهـابِ وفـي الإيـابِ   أَهـذا كـلُّ شـأنِـكَ يـا عُـرابـي؟
صَغار: حقارة

عفا عنكَ الأباعدُ والأداني فمَنْ يعفو عنِ الوطنِ المُصابِ

الأباعد: الإنجليز، والأداني: الخديوي (وبعفو هذين الطرفين عاد عرابي إلى مصر من منفاه)

٨٧ شكوى العظام إلى عرابي

قال شوقي متشفياً بأحمد عرابي بعد عودته من منفاه (١٩٠٢):

عُرابيِ كيف أُوفِيكَ المَلاما جمعتَ على ملامَتِكَ الأناما

فقِفْ «بالتلِّ» واستمِعِ العِظاما فإنَّ لها، كما لهُمُ، كلاما

التل: هو التل الكبير الذي وقعت عليه معركة مع الإنجليز احتلوا بعدها مصر، ويطلب شوقي من عرابي أن يستمع إلى عظام الذين استشهدوا في معركة التل الكبير، فإن للعظام مثلما للأنام (للناس) كلاماً تقوله

* * *

تقولُ لكَ العظامُ مقالَ صدقٍ ورُبَّ مقالةٍ مِنْ غيرِ نُطْقِ:

قتلتَ المسلمينَ بغيرِ حقٍّ وضيَّعْتَ الأمانةَ والذماما

* * *

نَجيئُكَ يومَ يحضُرُكَ الحِمامُ يَسُلُّ حُسامَهُ، ولنا حسامُ

وتسبِقُ سهمَهُ منَّا سِهامُ لها بالحقِّ رامٍ لا يُرامَى

لا يُرامى: لا ينافَس في رمي السهام. يريد شوقي لعظام الشهداء أن تلاحق عرابي حتى سرير الموت فتسابق عزرائيل عليه. لقد خجل الوطنيون كثيراً من بضع قصائد لشوقي ضد عرابي، ومن عشرات القصائد الأخرى في مدح توفيق وعباس حلمي، وعتَّمت ثورة ٥٢ ما استطاعت على هذه القصائد. ولعل سبب عداوة شوقي لعرابي ولاء شوقي للخديوي توفيق، أما قال له في قصيدة: «فاسمع لعبدك وابن عبدك»؟ فتوفيق هو الذي أرسله إلى فرنسا ليتعلم، وكان يراعيه، فعندما أتم شوقي تعليمه أمره توفيق بالمكوث في باريس بعض الوقت لتوسيع آفاقه. يقول شوقي في مقدمة الشوقيات: «فرأى لي الجناب العالي أيده الله أن أقضي في العاصمة ستة شهور أتمكن فيها من معرفة أشياء باريز وأهلها». وما صنعه عرابي هو أنه تحدى توفيقاً ووقف يدافع عن مصر في وجه الغزاة الإنجليز. وكان تحدى توفيقاً قبلها في ملاسنة مشهورة لها روايات عديدة. ومعركة التل الكبير موقعة حامية قتل فيها نحو ٥٥٠ من الإنجليز، و١٤٠٠ من المصريين. وكان الإنجليز أكثر عددَ جنودٍ وعددَ مدافع. وبعد انتصارهم نفى الإنجليز عرابي إلى سيلان مع عدد من قادة حركته، وظل منفياً نحو عشرين سنة

٨٨ لؤلؤة على خد المويلحي

عندما نشر شوقي ديوانه في نحو عام ١٩٠٠ تعرض له بالنقد محمد المويلحي الذي انتقد تصدير شوقي الديوان بمقدمة يروي فيها سيرته. وسخر المويلحي من شوقي لأنه روى حادثة جرت له في صباه مع الشيخ علي الليثي. ودافع عن شوقي صديقه شكيب أرسلان، فكتب إليه شوقي يشكره: «دفعت عني اليازجي بيد هدمت كيانه وألغت بيانه؛ وتحامل علي المويلحي فرددت عني الرد الذي قطع حجته. فسبحان من جعلك جلاداً لأعدائي وروبرتساً لحسادي» يشير إلى روبرتس قائد الإنجليز الذي غلب الأفريقان البيض في جنوب أفريقيا. ثم حدث بعد حين أن صفع شاب محمداً المويلحي لأنه مازحه، فكانت فرصة لشوقي كي ينتقم. فاتخذ الحادثة مادة للتفكه والشماتة في قطع كثيرة كان ينشرها باسم مستعار. هذه واحدة منها. (١٩٠٢)

لقدْ صفعوهُ صفعةً جلَّ شأنُها ... وأعيا على حِذْقِ الطبيبِ علاجُها

أعيا: أتعَبَ، حذق الطبيب: مهارته

ولوْ أتْبَعوا صَفعاً بصَفعٍ لأَحسَنوا ... وزانَ اللآلِي في النُّحورِ ازدِواجُها

فالعقد مكون من صفين من اللآلئ، والصف الأيمن يناظر الأيسر، وهذا الازدواج يجعل العقد جميلاً. المصراع الأخير من البحتري: فإن تُلْحِقِ النُّعمى بنُعمى فإنه/ يَزين اللآلِي في النظام ازدواجها

٨٩ الحال كما صورتها

في ذكرى مئة سنة على مولد فكتور هوغو (١٩٠٢)

الحالُ باقيةٌ كما صَوَّرتَها ... مِنْ عهدِ آدَمَ، ما بها تغييرُ

البؤسُ والنُعمى على حالَيْهِما ... والحظُّ يَعدِلُ تارةً ويجورُ

ومِنَ القويِّ على الضعيفِ مسيطرٌ ... ومِنَ الغنيِّ على الفقيرِ أميرُ

والنفسُ عاكفةٌ على شَهَواتِها ... تَأوي إلى أحقادِها وتثورُ

النفس منكبَّة على الشهوات، وأحياناً تلجأ إلى الحقد وإخفاء البغض، وأحياناً تثور وتظهر البغض

والعيشُ آمالٌ تَجِدُّ وتنقضي ... والموتُ أصدقُ، والحياةُ غرورُ

العيش آمال تتجدد ثم تنتهي، والموت أصدق من العيش فهو وحده الدائم

٩٠ حريق ميت غمر

قال شوقي في حريق ميت غمر (١٩٠٢):

اللّهُ يحكُمُ في المدائنِ والقُرى ... يا مِيتَ غَمْرَ خُذِي القضاءَ كما جَرى

ما جلَّ خَطْبٌ ثم قيسَ بِغيرِهِ إلّا وهوَّنَهُ القياسُ وصَغَّرا

قد جئتُ أبكِيها، وآخذُ عِبْرَةً فوقفْتُ مُعتبِراً بها مُسْتَعبِرا

مستعبِراً: باكياً. نشرت القصيدة في مايو/أيار ١٩٠٢ وقالت المجلة التي نشرتها: «إن شوقي اهتم بحادثة ميت غمر اهتماماً زائداً فسافر لمحل الحادثة ونظم قصيدته»

والأُمّهاتُ بغيرِ صبرٍ: هذهِ تبكي الصغيرَ، وتلكَ تبكي الأَصغرا

مِنْ كلِّ مُودِعَةِ الطُّلولِ دُموعَها مِنْ أجلِ طفلٍ في الطُّلولِ اسْتَأْخَرا

استأخر: تأخَّر

كانتْ تُؤَمِّلُ أنْ تطولَ حياتُهُ واليومَ تسأَلُ أنْ يعودَ فيُقْبَرا

مُدُّوا الأكُفَّ سخيةً، واستغفري يا أمةً قد آنَ أنْ تستغفِرا

أوْلى بعطفِ المُوسِرينَ وبِرِّهِمْ مَنْ كان مِثْلَهُمُ فأصبَحَ مُعْسِرا

يا أيُّها السُّجناءُ في أموالِهِمْ أَأَمِنْتُمُ الأيّامَ أنْ تتغيَّرا

لا يملِكُ الإنسانُ مِنْ أحوالِهِ ما تملِكُ الأقدارُ، مهما قَدَّرا

٩١ الوِنْش

قال شوقي يرثي عبده الحمولي (١٩٠٢):

لا يجاريهِ في تَفَنُّنِهِ العو دُ، ولا يشتكي إذا لم يجارِهْ

لشدة تفننه يعجز العود أن يلحق بصوت عبده الحمولي، وهو لا يحتاج إلى العود حتى يُظهر له تفريعات المقامات. كنت سألت الملحن المرحوم سيد إسماعيل: ترى هل كان عبده صالح يفتح أبواب النغم لأم كلثوم بقانونه، ويقود خطواتها، فقاطعني صارخاً: «أم كلثوم كانت زي الوِنش»، والونش هي الشاحنة التي تسحب السيارات المعطلة، ولا شيء يسحبها

يُسمِعُ الليلَ في الفجرِ «يا ليـ ـلُ»، فيُصغي مُسْتمهِلاً في فِرارِهْ

الليل يولي هارباً بقدوم الفجر، فيقول عبده الحمولي «يا ليل»، فيقف الليل ويتمهل حتى يسمعها قبل أن ينصرف .الله! على هذا البيت. ليقل شوقي آلاف الأبيات المغسولة بعد هذا وقبله، الشاعر بجيِّده لا برديئه. وقد أحب سعد الدين وهبة هذا البيت وأفرده من القصيدة في مقابلته المطولة مع عبد الوهاب. وقال السوربوني عن البيت: «هذا بيت واحد لشوقي من شعر الوجدان تتضاءل بجانبه قصائد ودواوين بعض المجددين»

٩٢ صليبيَّة

قال شوقي من قصيدة يهنئ بها عبد الحميد بعيد الجلوس. وانتعشت في ذلك الوقت حركات في البلاد التي يحكمها الأتراك في أوروبا تطالب بالانفصال، وتتلقى الدعم من الروس والإنجليز والفرنسيين والنمساويين. وفي سنة ١٩٠٣ قمعت إستانبول بقسوة المدن البلغارية والمقدونية في سياق ثورة مقدونيا على الحكم العثماني (١٩٠٣)

عِشْ للخلافةِ ترضاها وتُرضيها ... وتنشئُ السِّكَّةَ الكبرى وتَحميها

وقعت الدولة العثمانية معاهدة مع ألمانيا، في مارس ١٩٠٣، لإنشاء سكة حديد إستانبول ـ بغداد

وتحمِلُ الملك والإسلامَ عن أممٍ ... شَلَّاء لا تحمِلُ الأشياءَ أيديها

فالأمم الإسلامية من عرب وغيرهم يحتاجون لعبد الحميد لكي يحمل عنهم الملك والدين، فهم مشلولون وأيديهم لا تقدر على حمل الأشياء. وكلمة «الأشياء» هنا أحلى من الأعباء أو الأثقال، ليس لأنها ترجِّع صدى شلاء ـ أو ما يحب النقاد أن يسموه الموسيقى الداخلية ـ ولكن لمعناها

إنْ أَضْحَكَ الملأَ المفتونَ حاضرُها ... أبكى الأجنةَ في الأرحامِ آتيها

وحاضر هذه الأمم جيد ويضحك له مستبشراً الملأ المفتون (القوم المخدوعون)، ولكن الآتي (المستقبل) سيكون مظلماً إلى درجة أن تبكي له الأجنة في الأرحام

توهَّموا العِزَّ في ذُلٍّ يُرادُ بِهِمْ ... وشُبِّهَتْ لهُمُ النَّعماءُ تشبيها

توهم المسلمون الذل الذي يريده الغرب لهم عزاً واستقلالاً. ورأوا في وعود الغرب ما يشبه النعيم وليس بنعيم

لا عيشَ في الذلِّ إلَّا للذليلِ، ولا ... حياةَ للنفسِ إنْ ماتتْ أمانيها

ما هذهِ الحربُ، في زِيِّ السلامِ، لكمْ ... إلَّا صَليبيةٌ والكلُّ صاليها

أمم الغرب منذ ذلك الوقت يكثر في كلامها الحديث عن السلام؛ وهي كانت تساعد ثورات الأمم الكارهة للحكم العثماني ومنها أمم مسلمة، باسم السلام، ولكن القصد الدفين للغرب كما يرى شوقي صليبي ومتصل بحروب قامت قبل مئات السنين ولما تهدأ ثاراتها

يا أمَّةَ المصطفى جَلَّتْ حوائِجُكُمْ ... فقدِّموا الخيرَ عَلَّ اللَّهَ يَقضيها

لا تَسمعوا لِمُريبٍ في خلافتِكمْ ... كفى الخلافةَ ما يأتي أعاديها

٩٣ .. ناحيةً في الهرم

قال شوقي يصف حفلاً راقصاً في قصر عابدين (١٩٠٣):

طالَ عليْها القِدَمْ ... فَهْيَ وُجودٌ عَدَمْ

الخمرة القديمة انعدمت فيها كل خواص العنب واكتسبت كل خواص الخمر. معنى قديم لا يمل الشعراء من تكراره

خَبَّأها كاهِنٌ ناحيةً في الهَرَمْ

قال عشرات الشعراء هذا المعنى، وجعلوا الخمر كسروية، وجعلوها من عهد نوح ومن عهد آدم. ولكن بيت شوقي هذا ظريف كل الظرف. فقد خبأها كاهن من كهنة الفراعنة في ناحية من الهرم ونسيها

نَمَّ بِها دَنُّها وهْيَ عليهِ أنَمّ

الدن وعاء الخمر الكبير، وقد نم عن الخمر (وشى بوجودها)، ولكنها برائحتها نمَّت على الدن أكثر مما نم عليها بحجمه

بِي رَشَأٌ ناعِمٌ ما عَرَفَ العُمْرَ هَمّ

بي (أي موكَّلٌ بي لا يفارق ذهني) رشأ (غزال) ناعم (منعَّم في عيشه)، لم يعرف همّاً

أخرَجَها اللَّهُ كالزَّهْرةِ، والحسنُ كِمّ

هذه الفتاة كالزهرة، وكِمها (أكمامها التي تكون مضمومة عليها) هو الجمال بعينه

تخطِرُ عَنْ عادِلٍ لم يُرَ إلَّا ظَلَمْ

قدها الذي تخطر به عادل (مستو)، وهو ظالم لكل من يراه لما يترك من حسرة في النفوس. وهذا المعنى القديم ظل الشعراء يعالجونه ألفي سنة حتى جاء إبراهيم ناجي وقال (فيما تغني أم كلثوم):
«ظالم الحسن شهي الكبرياء»

تَسألُ أترابَها مُومِئةً بالعَنَمْ

تسأل صديقاتها، وهي تشير بأطراف أصابعها الشبيهة بالعَنَم (ثمر أحمر)

أيُّ فتىً ذلكُنَّ العَرَبيُّ العَلَمْ
يَشرَبُها ساهِراً ليلتَهُ لمْ يَنَمْ
قلنَ: تجاهَلْتِهِ؟ ذلكَ رَبُّ القلمْ
شاعرُ مصرَ الذي لوْ خَفِيَ النَّجمُ لَمْ.

أي لو خفي النجم لم يخفَ شاعرنا لشهرته

قلتُ لها: ليتَ لَمْ نُرْمَ ولمْ نُتَّهَمْ

قلت لها: ليت لم نُرْمَ (ليتك لا ترمينني بالتهمة لشرب الخمر)

عاذِلتي في الطِّلا لو أنصفَتْ لمْ أُلَمْ

التي تعذلني في الطلا (الخمر) ليست منصفة

إنْ عَبَسَ العيشُ لي عذْتُ بها فابْتَسَمْ

فأنا إن عبس الدهر لي عذت (لجأت) بالخمر فابتسم الدهر لي

يـــشـــربُـــهـــا كـــابـــرٌ   بـــيـــنَ ضـــلـــوعـــي أشـــمّ

يشرب الخمر كابر (سيد) أشم (معتز بنفسه) وهو يقيم بين ضلوعي، أي أنا

يُـــكْـــسِـــبُـــهـــا خُـــلْـــقَـــهُ   يـــمـــزِجُـــهـــا بـــالـــشِّـــيَـــمْ

وهذا الذي يشرب الخمر يضفي عليها من خلقه الحميد، ويمزجها بشيمه (بصفاته النبيلة)

تـــلـــك شـــمـــوسُ الـــدُّجـــى   أم ظَـــبَـــيـــاتُ الـــخِـــيَـــمْ

أهذه الفتيات شموس طلعت ليلاً؟ أم هي في رشاقتها كفتيات البدو التي تكون كالغزلان في الخيام؟

اِجـــتـــمـــعـــتْ فـــالـــتـــقـــتْ   حـــولَ خِـــوانٍ نُـــظِـــمْ

وقد اجتمعن الآن حول خوان (مائدة) منصوب

مـــائـــدةٌ مـــدَّهـــا   بـــحـــرُ نَـــوالٍ خِـــضَـــمّ

هذه المائدة مدَّها الخديوي، بحر النوال (العطايا) الخضم (العظيم)

تـــحـــسَـــبُـــهـــا صُـــوِّرَتْ   مِـــنْ شَـــهَـــواتِ الـــنَّـــهِـــمْ

والمائدة كأنها تحقيق لحلم شخص نهم، فمهما تخيل هذا النهِم فهو موجود عليها. قرأها الأبياري «النَّهَم» بفتح الهاء (وأرادها أحمد محفوظ وعلي شوقي اللذان أعدا ذلك الجزء من الشوقيات في حياة شوقي نَهَماً أيضاً)، ونرى فيها تجريداً لا مسوغ له، ونريدك أن تقرأها النهِم بكسر الهاء

٩٤ الجد واللعب

قال شوقي يرثي على رفاعة باشا، ابن رفاعة الطهطاوي (١٩٠٣):

كلُّ الحقائقِ فيها الشكُّ محتَمَلٌ   إلَّا المَنِيَّةَ تأبى الشكَّ والرِّيَبا

وما رأيتُ، على عِلمي وتَجْرِبتي،   كالموتِ جِدّاً، ولا ما قبْلَهُ لَعِبا

٩٥ النشور المبكر

رآه ولداه علي وحسين خارجاً من البيت في زورة (زيارة) فبكيا

بَكَيا لأجْلِ خروجِهِ في زَوْرةٍ   يا ليتَ شِعري كيفَ يومَ فراقِهِ

لو كانَ يَسمعُ يومَذاكَ بُكاهُما   رُدَّتْ إليْهِ الروحُ مِنْ إشفاقِهِ

٩٦ آدم العنب

قال شوقي يصف حفل رقص في عابدين (١٩٠٤):

مـــالَ واحـــتـــجـــبْ   وادَّعـــى الـــغَـــضـــبْ

مال بوجهه عني وابتعد مدعياً الغضب

لـــيــــتَ هـــاجِـــري يـــشـــرحُ الـــسَّـــبــبْ
مـــــــاءُ خَــــــدِّهِ شَـــفَّ عـــن لَـــهَـــبْ

ماء خده (وماء الوجه نضارته) يشف عن لهب لحمرة الخد وتورده

ســـاقـــيَ الـــطِّـــلا شُـــرْبُـــهـــا وَجَـــبْ

يا ساقي الطلا (الخمر) وجب شربها الآن

هـــاتِـــهـــا مَـــشَـــتْ فـــوقَـــهـــا الـــحِـــقَـــبْ

هاتها خمرةً مشت فوقها الحقب (الأزمان).. أي أنها معتقة

بـــابِـــلِـــيَّـــةٌ تـــنـــفُـــثُ الـــحَـــبَـــبْ

خمرة من بابل المشهورة بالخمور، تُخرِجُ الحبب (الفقاقيع)

إنَّ كَـــرْمَـــهـــا آدمُ الـــعِـــنَـــبْ

وكرمها (بستان العنب الذي منه أخذت) هو أول كَرْم خلقه الله، فهو، في الكروم، كآدم في البشر

هُـــذِّبَـــتْ فَـــفـــي دَنِّـــهـــا الأدَبْ

لقد صفت هذه الخمر وراقت فكأنها هُذِّبت، وأما هذا التهذيب والتأديب فقد تم في الدن (خابية الخمر)

إسـقِـهـا فـتـىً خـيـرَ مَـنْ شَـرِبْ
كُـلَّـمـا طَـغَـتْ راضَـهـا الـحَـسَـبْ

كلما طغت الخمرة ولعبت برأسه فإن حسبه النبيل يروضها ويجعلها لا تفضي به إلى العربدة. الأبياري يريد في شرحه «حسب الخمرة»، فهي ذات حسب عريق وهو الذي يمنعها من الطغيان. وهذا تفسير جميل، وإن كنت أرى البيت الذي قبل هذا البيت يستدعي المعنى الذي شرحته أعلاه، وبي ميل شديد إلى تفسير الأبياري فالبيت عليه أحلى: الخمرة تطغى وتعصف بشاربها، والذي يروضها هو حسبها، فهي مهذبة ومن أصل كريم وعريق

رَبَّ مـصـرَ عِـشْ وابـلُـغِ الأَرَبْ

رب مصر: صاحب مصر عباس حلمي الثاني

هـاكَ مِـدْحَـةَ الـشَّـاعِـرِ الأَرِبْ

الأرِب: الماهر

لـــــمْ يَــجِـــئْ بِـــهـــا شـــــاعـــــرٌ ذَهَـــــبْ

ولم يجئ بمثل هذه القصيدة شاعر قبل شوقي لأن وزنها مبتدع، وأما بعد شوقي فقد ارتجل حافظ إبراهيم وعبد العزيز البشري وهما يتمشيان على الكوبري أبياتاً فكاهية على هذا الوزن منها: شال وانخبط/وادعى العبط، ليت هاجري/يبلع الزلط. وينبهني صديقي الشاعر عمران القفيني إلى أن شوقي ليس أول من نظم على هذا الوزن: «أعرف أبياتاً للبارودي (المتوفى آخر ١٩٠٤)، سبقت أبيات شوقي (التي قالها في ١٩٠٤)، إلا أن يكون البارودي قالها في آخر عام في حياته بُعيد قصيدة شوقي، وهذا صعب. أول القصيدة: املأ القدح ـ واعص من نصح//وارو غلَّتي ـ بابنة الفرح»

٩٧ أسلمتهم لعيون الله

وقال وهو في الآستانة في عيد جلوس عبد الحميد (١٩٠٤):

باللَّهِ يا نَسَماتِ النيلِ في السَّحَرِ هل عندَكُنَّ عنِ الأحبابِ مِنْ خبرِ

مصرُ العزيزةُ، مالِي لا أُوَدِّعُها وَداعَ محتفِظٍ بالعهد مُدَّكِرِ

مدَّكر: متذكِّر للعهد

خلَّفْتُ فيها القَطا ما بينَ ذي زَغَبٍ وذي تمائمَ لم ينهضْ ولم يَطِرِ

القطا (من الطيور): يعني أبناءه، بعضهم له زغب (ريش نابت)، وبعضهم عليه التمائم (الخَرَزات توضع على الطفل لرد العين)

أسْلمتُهُمْ لعيونِ اللَّهِ تحرسُهُمْ وأسلموني لظلِّ اللَّهِ في البَشَرِ

سلمت أبنائي لعيون الله، وهم سلموني لظل الله بين البشر وهو السلطان عبد الحميد

وديعةٌ لهُمُ عندَ الإمامِ، ومَنْ يستودعِ الروضَ يَستثمرْ ويَدَّخِرِ

وأنا وديعة أودعها أبنائي عند إمام المسلمين، ومن يضع وديعة عند الروض (يبذر بذوراً) فهو يستثمر ويدخر للمستقبل

يا ابنَ الخلائفِ مِنْ عثمانَ! فضلُكُمُ كَواضحِ الصبحِ عند البيتِ والحَجَرِ

فضل بني عثمان كالصبح الذي يشرق في بيت الله بمكة عند الحجر الأسود المبارك

حفظتُمُ الدينَ دهراً في كرامتِهِ مجمَّلاً بحُجولِ الفتحِ والغُرَرِ

جملتم الدين بفتوحكم التي هي كالحجول والغرر (الحجول: هي البياضات في قوائم الفرس، والغرر البياضات في جبهته)

خلافةُ اللَّهِ كالعنقاءِ في يدِكُمْ فوقَ الحبائلِ والأرزاءِ والغِيَرِ

الخلافة بيدكم كالعنقاء (طائر قيل إنه لا يمكن أن يصاد)، فهي فوق الحبائل (المصائد) والأرزاء (المصائب)، والغير (النكبات)

تظلُّ في فَلَكِ العلياءِ هالتُها   يزُفُّها قمرٌ منكمْ إلى قمرِ

فالخلافة هالة (دائرة الضوء التي حول القمر) وخلفاء بني عثمان هم الأقمار يتوارثون هذه الهالة

لما اضطلَعْتَ أميرَ المؤمنينَ بها   مَلَكْتَ ناصيتَيْها مِلْكَ مقتدِرِ

لما اضطلعت بالخلافة (توليتها) ملكتها من ناصيتيها (جانبيها) بقدرة

حَمَلْتَها واثقاً باللَّهِ مصطبراً   ينوشُكَ الدهرُ فيها غيرَ مصطبِرِ

ينوشك: يتناولك بالمكروه

٩٨ شاعر النيل!

قال شوقي (١٩٠٤):

أيُّها النفْسُ تَجِدِّينَ سُدىً   هلْ رأيتِ العيشَ إلَّا لَعِبا

جرِّبي الدنيا تَهُنْ عِنْدكِ؛ ما   أَهْوَنَ الدنيا على مَنْ جَرَّبا

نِلْتِ فيما نِلْتِ مِنْ مَظْهَرِها   وَمُنِحْتِ الخُلْدَ ذِكْراً وَنَبا

نلتِ يا نفسي ضمن ما نلته من الأشياء مظاهر الدنيا، ونلت أيضاً الخلود فيها بالذكر والنبأ (الخبر الطيب)

أنا في دنيايَ أوْ آخِرَتي   شاعرُ النيلِ، وحَسْبي لَقَبا

هكذا لقَّب شوقي نفسه بشاعر النيل في سنة ١٩٠٤، وهو صريح في أن هذا خير لقب يرجوه، وبعد ذلك بعدة سنوات نال حافظ إبراهيم «نيشان النيل» ـ بعد سنة ١٩١٢ ـ ولقب إثر ذلك بشاعر النيل، وانتظر شوقي حتى سنة ١٩٢٧ لينال لقباً آخر هو أمير الشعراء

٩٩ رمضان ولَّى

قال شوقي (١٩٠٤):

رمضانُ ولَّى، هاتِها يا ساقِ   مشتاقةً تسعى إلى مُشتاقِ

جعل الخمرة مشتاقة أيضاً لشاربها

ما كانَ أكثَرَهُ على أُلَّافِها   وأقلَّهُ في طاعةِ الخلاقِ

كم كان رمضان طويلاً على ألاف (محبي) الخمرة، وكم كان قصيراً في طاعة الله

اللَّهُ غفارُ الذنوبِ جميعِها   إن كان ثمَّ مِنَ الذنوبِ بَواقِ

الله يغفر الذنوب، هذا إن كان ثمَّ (هناك) ذنوب ليغفرها بعد صيام رمضان. أرأيت إلى هذه الروح التي تثب خفة؟ شوقي يتصيد النكتة الخفية ببراعة، وهو رغم خوفه من الله، شديد التوق إلى العبث

بالأمسِ قدْ كُنَّا سَجينيْ طاعةٍ   واليومَ مَنَّ العيدُ بالإطلاقِ

هو والخمر كانا حتى يوم أمس سجيني طاعة الله، واليوم منَّ (تفضَّل) عليهما العيد بإطلاق سراحهما

ضحِكتْ إليَّ مِنَ السرورِ، ولم تزلْ   بنتُ الكرومِ كريمةَ الأعراقِ

الأعراق: الأصول

حمراءُ أو صفراءُ، إنَّ كريمَها   كالغيدِ، كلُّ مليحةٍ بمذاقِ

الخمر تكون حمراء أو صفراء؛ والخمر الكريمة (الجيدة) مثل الغيد (الحسان) فكل امرأة حسناء فريدة في حسنها ولا تماثل امرأة أخرى. في يومنا هذا يقولون: نبيذ أحمر ونبيذ «أبيض»، مراعاة للغة الأجنبية التي عنها ينقلون، ومراعاة للأجنبي الذي منه يستوردون النبيذ، ولكن النبيذ «الأبيض» هو أصفر على التحقيق

لا تسقِني إلَّا دِهاقاً، إنَّني   أُسقَى بكأسٍ في الهمومِ دِهاقِ

دهاقاً: ممتلئة

فلعلَّ سلطانَ المُدامةِ مُخرجي   مِنْ عالمٍ لم يحوِ غيرَ نِفاقِ

١٠٠ الميراث

قال شوقي في مدح عباس حلمي (١٩٠٤):

النيلُ يا ابنَ عليٍّ، وهْوَ مِنْ ذَهَبٍ،   مَصَبُّهُ لَكَ مِيراثٌ ومنبَعُهُ

النيل يا ابن علي (عباس حلمي وهو حفيد محمد علي) كأنه الذهب لما يعطي من خيرات؛ ومصبه ومنبعه (أي كله) ميراث لك

جرى يُحاكِيكَ إحساناً وعارِفَةً   فقصَّرَتْ عَنْ ندى كفَّيْكَ أذرُعُهُ

يحاكيك النيل (يقلدك) في الإحسان والعارفة (الإحسان)؛ ولكنْ، قصَّرت أذرعه بكاملها عن ندى (كرم) كفَّيك وحدهما

أَهْدى لَكَ الحمدَ واديهِ وشاطِئُهُ   وأُمَّةٌ في ظلالِ الأمْنِ تَزرَعُهُ

١٠١ الترامي

قال شوقي ينعى على مصطفى رياض، وولي رئاسة الوزارة ثلاث مرات، تملقه المعتمد البريطاني كرومر. وكان الخديوي عباس قد انتقد شيئاً على القائد البريطاني كتشنر فغضب كرومر وطلب من القصر اعتذاراً فأبى الخديوي عباس، فقدم رياض الاعتذار (١٩٠٤):

كبيرَ السَّابِقِينَ مِنَ الكِرامِ   بِرُغْمِي أنْ أنالَكَ بالمَلامِ

إذا ما لم تكنْ للقولِ أهلاً   فما لَكَ في المواقفِ والكلامِ
خطبْتَ فكُنْتَ خَطْباً لا خطيباً   أُضيفَ إلى مصائِبِنا الجِسامِ

الخطب: النكبة، الجسام: الكبيرة. قال محمد صبري السوربوني: (الشطر الأول «خطبت فكنت خطباً لا خطيباً» كنتُ أسمعُ الكبار يهتفون به في كل مناسبة في السنوات التي أعقبت القصيدة)

وهل تركتْ لكَ السبعونَ عقلاً   لعِرفانِ الحلالِ مِنَ الحرامِ

كان المهجو في السبعين، فهو قد ولد عام ١٨٣٤. وعندما مات عام ١٩١١ نال مرثية من شوقي، ولم نختر منها شيئاً

لَهِجْتَ بالاحْتِلالِ وما أتاهُ   وجُرْحُكَ مِنْهُ، لو أحسَسْتَ، دامِ

لهجتَ: أُغرمت

وما أغناهُ عمَّنْ قالَ فيهِ   وما أغناكَ عَنْ هذا التَّرامي

١٠٢ تأليب

قال شوقي يستصرخ السلطان عبد الحميد من عسف شريف مكة «عون الرفيق» بالحجاج (١٩٠٤):

ضَجَّ الحِجازُ وضجَّ البيتُ والحرمُ   واسْتَصْرَخَتْ ربَّها في مكةَ الأُمَمُ

استصرخت: استنجدت

قد مَسَّها في حِماكَ الضُّرُّ فاقْضِ لها   خليفةَ اللَّهِ، أنتَ السَّيِّدُ الحَكَمُ
لكَ الربوعُ التي رِيعَ الحَجيجُ بِها،   أَلِلشَّريفِ عليها أم لَكَ العَلَمُ؟

ريع: أخيف

أُهينَ فيها ضيوفُ اللَّهِ واضطُهدوا   إنْ أنتَ لم تنتقِمْ فاللَّهُ منتقِمُ
يدُ الشريفِ على أيدِي الوَلاءِ عَلَتْ   ونعلُهُ دونَ رُكْنِ البيتِ تُسْتَلَمُ

سلطة شريف مكة صارت أعلى من ولائه للخليفة، وصارت نعله تستلم (تُقبَّل) بدلاً من ركن البيت الحرام

عزَّ السبيلُ إلى طَهَ وتُرْبَتِهِ   فَمَنْ أرادَ سبيلاً فالطريقُ دَمُ

صار صعباً الوصول إلى طه (أي الرسول)، وتربته (قبره) في المدينة المنورة

١٠٣ تفسير آية

قال شوقي ينعى محمد عبده (١٩٠٥):

مُـفَـسِّـرَ آيِ الـلَّـهِ بـالأمـسِ بـيـنَـنـا قـمِ الـيـومَ فسِّرْ للـوَرى آيـةَ الـمـوتِ

لم يكن محمد عبده على وفاق مع الخديوي، فاكتفى شوقي شاعر الخديوي بثلاثة أبيات في رثائه

١٠٤ أحمد الوقت

قال يهنئ السلطان عبد الحميد بنجاته من قنبلة قذف بها سنة (١٩٠٥):

بَـلَـوْنـاكَ يـقـظـانَ الـصـوارمِ والـقَـنـا إذا ضَـيَّـعَ الـصِّـيـدَ الـمـلـوكَ سُـبـاتُ

بلوناك (خبرناكَ) يقظان الصوارم (السيوف) والقنا (الرماح)، في حين يضيِّع السبات (النوم) الملوك الصيد (الشامخين)

فـلـوْلاكَ مُـلْـكُ الـمـسـلـمـيـنَ مُـضـيَّـعٌ ولـوْلاكَ شـمـلُ الـمـسـلـمـيـنَ شَـتـاتُ

أكـانَ لِـهـذا الأمـرِ غـيـرُكَ صـالـحـاً وقـدْ هَـوَّنَـتْـهُ عـنـدَكَ الـسـنـواتُ؟

أكان يصلح غيرك للخلافة، وقد ملأتك السنوات خبرة وهونت عليك الحكم؟

ومَـنْ يَـسُـسِ الـدنـيـا ثـلاثـيـنَ حِـجَّـةً تُـعِـنْـهُ عـلـيـهـا حِـكْـمَـةٌ وَأَنـاةُ

من ظل يسوس الدنيا ثلاثين سنة، فإن ما اكتسبه من الحكمة والأناة (التأني) يكون له مُعيناً

وما زِلْتُ حَسّانَ المَقامِ، ولم تَزَلْ تَلِيني، وتَسْري مِنْكَ لِي النَّفَحَاتُ

وأنا مثل حسان بن ثابت شاعر الرسول، وأنت ظللت تليني (توليني الرعاية)، وتأتيني النفحات (النسائم) منك (الإيماءات والبوادر كالاستضافة في إستانبول والثناء)

زهِدْتُ الذي في راحتيْكَ، وشاقَني جـوائـزُ عـنـدَ الـلَّـهِ مُـبْـتَـغَـيـاتُ

لست طامعاً في المال الذي في كفيك، وأنا مشتاق إلى ثواب الله لقاء تأييدي لك، فتأييدك واجب ديني

ومَنْ كان مِثْلي أحمدَ الوقتِ لم تَجُزْ عليهِ، ولوْ مِنْ مثلِكَ، الصَّدَقاتُ

ومن كان مثلي أحمد الوقت (أحمد الوقت هو الرسول الذي جاء في ميعاد مضروب، أي أن شوقي هو نبي الشعر الذي ساقه القدر في وقته)، لم يجز له أن يأخذ الصدقة (ولم تجز الصدقة للنبي)

ولِي دُرَرُ الأَخْلاقِ في المدحِ والهوى ولِـلْـمُـتَـنَـبِّـي دُرَّةٌ وحَـصـاةُ

وعندما جعل نفسه «أحمد الوقت» تداعى إلى ذهن شوقي أحمد بن الحسين المتنبي، فجعل شوقي لنفسه الدرر في المدح والغزل، وأما المتنبي فله أبيات عظيمة وأخرى رديئة أخذها النقاد عليه

محمد علي علم الشرق ١٠٥

قال في ذكرى مرور مئة عام على تولي محمد علي مصر (١٩٠٥):

عَلَمٌ أنتَ في المشارقِ مُفْرَدْ ... لكَ في العالمينَ ذكرٌ مخلَّدْ

حبذا دولةٌ ومُلْكٌ كبيرٌ ... أنتَ باني رُكنيهِما يا محمدْ

تملأُ الأرضَ صافِنَاتٍ، ويُجرَى ... لكَ في البحرِ كلُّ بُرجٍ مُشَيَّدْ

يا محمد علي باشا كنت تملأ الأرض بالصافنات (الخيول)، وكان قوادك يسيِّرون لك في البحر السفن التي هي كالبروج المشيدة (الحصون العالية)

هكذا فَلْيَنَلْ سماءَ المعالي ... مَنْ سعى في الوَرى لمجدٍ وسُؤْدَدْ

هِمَّةٌ تَبْتني الممالكَ شَمَّا ... ءَ، ورأيٌ يَسوسُهُنَّ مُسَدَّدْ

وثباتٌ في الحادثاتِ، وعزمٌ ... مثلُ ريبِ الزمانِ لا يتردَّدْ

عزم مثل ريب الزمان (مصائبه) لا يتردد

لا تبالي بحاسدٍ وعدوٍّ ... آيةُ الفضلِ أنْ تُعادَى وتُحْسَدْ

كنت لا تهتم بالحاسد وبالعدو، وآية (علامة) الفضل العداوة والحسد

هِمَّةُ الفاتحينَ حُكْمٌ وقهرٌ ... وَلَكَ الهمةُ التي هِيَ أبعدْ

همة الفاتحين (طموحهم) السلطان وقهر البشر، وهمتك أبعد من ذلك فأنت باني دولة

يا مُديمَ الرُّقادِ في خيرِ مَرْقَدْ ... قُمْ فما حلَّ قَبْلَكَ الأرضَ فَرْقَدْ

يا مديم (مواصِل) الرقاد في قبرك، قم من قبرك فما سكن الأرض قبلك فرقد (الفرقد نجم معين)

وانظرِ الشرقَ كيفَ أصبحَ يَهْوِي ... وانظرِ الغربَ كيفَ أصبحَ يَصْعَدْ

١٠٦ منك يا هاجر دائي

قال شوقي (١٩٠٥):

منكَ يا هاجرُ دائي ... وبكفَّيْكَ دوائي

يا مُنى رُوحي، ودنيا ... يَ وسُؤْلِي ورجائي

سؤلي: مطلبي

أنتَ، إن شئتَ، نعيمي ... وإذا شئتَ شقائي

كلُّ ما ترضاهُ، يا موْ ... لايَ، يرضاهُ وَلائي

١٠٧ حسبنا الله ونعم الوكيل

نقل عن فلهلم الثاني إمبراطور ألمانيا قوله إنه يريد للإمبراطورية الألمانية أن تكون مثل الإمبراطورية الرومانية قوة وسعة. وأنه يريد لابن إمبراطوريته أن يقول في أي مكان حل به: «أنا مواطن ألماني»، تماماً مثلما كان الروماني يقول «سيفيك رومانوس سوم»، وهذه باللاتينية، ومعناها «أنا مواطن روماني». ويبدو أن صحف ذلك الزمان نقلت العبارة موحية أن فلهلم الثاني يريد أن يقسم العالم بين الرومان والألمان. وفي هذا الإيحاء قدر من الصحة، ففي هذا العام ١٩٠٦، وقعت «الأزمة المغربية الأولى» التي تنافس فيها الفرنسيون والإنجليز والإسبان والألمان على المغرب، وكان فلهلم، أو غليوم بالتهجئة الفرنسية، ماضياً في تكوين إمبراطورية ألمانية. فقال أحمد شوقي (١٩٠٦):

يا ربِّ ما حكمُكَ؟ ماذا ترى ... في ذلكَ الحُلْم العَريضِ الطويلْ

قد قامَ غِلْيُومُ خَطيباً فَما ... أعطاكَ مِنْ مُلْكِكَ إلَّا القليلْ

فالنِّصفُ للجِرمانِ في زَعمِهِ ... والنصفُ للرومانِ فيما يقولْ

يا رَبِّ قُلْ: سيفُكَ أمْ سيْفُهُ؟ ... أيُّهما، يا رَبِّ، ماضٍ صقيلْ

إنْ صَدَقَتْ يا ربِّ أحلامُهُ ... فإنَّ خطبَ المسلمينَ الجليلْ

لا نحنُ جِرْمانٌ لنا حِصَّةٌ ... ولا بِرومانٍ فنُعطَى فَتيلْ

فتيل: الشيء الصغير الحقير

يا ربِّ، لا تنسَ رعاياكَ في ... يومِ رعاياكَ الفريقُ الذليلْ

جنايةُ الجهلِ على أهلِهِ ... قديمةٌ والجهلُ بِئْسَ الدَّليلْ

يا ليتَ لم نَمْدُدْ لشرٍّ يداً ... وليتَ ظِلَّ السِّلْمِ باقٍ ظَليلْ

جنى علينا عُصْبَةٌ جازفوا ... فحسبُنا اللَّهُ ونِعْمَ الوكيلْ

١٠٨ زائر لندرة

قال شوقي لسعد زغلول عند سفره إلى لُنْدَرَة (لندن) للتفاوض (١٩٠٦):

يا سعدُ إنْ أنتَ دَخَلْتَ لُنْدَرَةْ ... مُنْتَصِراً مُظَفَّراً كَعَنْتَرةْ

يسخر شوقي من سعد زغلول، هذا في زمن كان فيه شوقي صديقاً لمصطفى كامل زعيم الحزب الوطني وخصماً لسعد زغلول. وكان سعد قريباً من المعتمد البريطاني كرومر

وسِرْتَ محمولاً على الأكتافِ ... بينَ قيامِ الناسِ والهُتافِ

وقيلَ تلميذُ الإمامِ مَرَّا ... يا مَرحباً به وألفَ هُورَّا

كان سعد زغلول تلميذ الإمام محمد عبده، هورَّا: مرحى بالإنجليزية

فقمْ خطيباً في بني التاميزِ   وامدحْ مُذِلَّ الوطنِ العزيزِ

بنو التاميز: الإنجليز، نسبة إلى نهر لندن التِمز، مذل الوطن: اللورد كرومر

١٠٩ جسر البسفور

قال شوقي في جسر البسفور (١٩٠٦):

أميرَ المؤمنينَ! رأيتُ جِسْراً   أَمُرُّ على الصِّراطِ، ولا عليْهِ

الصراط المستقيم مرعب، والسقوط من عليه سقوط في الجحيم

وأسمَجُ منهُ في عيني جُباةٌ   تَراهُمْ وسْطَهُ وبجانبيْهِ

يُفيدُ حكومةَ السُّلطانِ مالاً   ويعطيها الغِنى مِنْ مَعْدِنَيْهِ

الجسر يجلب للحكومة المال، ويعطيها المعدنين (الذهب والفضة)

وغايةُ أمرِهِ أنَّا سمِعْنا   لسانَ الحالِ يُنْشِدُنا لديْهِ:

أليسَ مِنَ العجائبِ أنَّ مِثلي   يُرَى ما قلَّ ممتَنِعاً عليهِ

يقول الجسر: أليس عجيباً أن مثلي يكون الشيء القليل ممتنعاً عليه (محرَّماً عليه)

وتؤخَذُ باسمِهِ الدنيا جميعاً   وما مِنْ ذاكَ شيءٌ في يديْهِ

تجبى الأموال الطائلة باسم الجسر، ولا ينال شيئاً. البيتان الأخيران قالهما الخليفة المعتمد على الله العباسي (خلافته من ٢٥٦هـ ـ ٢٧٩هـ) الذي حجر عليه أخوه الموفق طلحة، وفرض عليه ما يشبه الإقامة الجبرية

١١٠ فداديني الثلاثون

من مسرحية «الست هدى»، (١٩٠٦):

يقولونَ في أمري الكثيرَ، وشُغْلُهُمْ   حديثُ زواجِي أو حديثُ طلاقي

يقولونَ إني قدْ تزوجتُ تِسْعةً   وإنِّيَ واريْتُ التُّرابَ رِفاقي

وما أنا «عِزرِيلٌ»، وليسَ بمالِهِمْ   تزوجتُ، لكنْ كانَ ذاكَ بمالي

وتلك فداديني الثلاثونَ، كلَّما   تولَّى رجالٌ جِئْنَني بِرجالِ

١١١ لا حُرموا خيرَك

قال شوقي من مسرحية «البخيلة» على لسان الجدَّة الغنية، وقد ادَّعى حفيدها ـ كما يفعل كل مرة ـ أن نقوده نُشلت، (١٩٠٧):

لـم تَـلْـقَـنـي وتَـنْـصَـرِفْ بـمـالـي ... إلَّا وعــادتْ قــصــةُ الــنَّــشَّــالِ
لا حَـرَمَ الـلَّـهُ الـلُّـصـوصَ خَـيـرَكـا ... مـا بـالُـهـمْ لا يَـسْـرِقـونَ غَـيْـرَكـا

هذا بيت في غاية غايات الظرف، فيه تهكم مر في شطره الأول، وتخوين مبطن وماكر في شطره الثاني

١١٢ والله لا

قال شوقي يعرِّض بفارس نمر صاحب جريدة المقطم، الذي أراد الالتفاف على حكم قضائي (١٩٠٧):

يـــا فـــارســـاً تـــرجَّـــلا ... وانـــحـــطَّ بـــعـــدمـــا عـــلا
هـــلِ الـــقـــضـــاءُ لـــعـــبـــةٌ ... تَـــلـــهُـــو بِـــهـــا، والـــلَّـــهِ لا

١١٣ الهوى

وقال شوقي (١٩٠٧):

ومـا الـحـبُّ إلَّا طـاعـةٌ وتـجـاوُزٌ ... وإنْ أكـثَـروا أوصـافَـهُ والـمـعـانِـيـا

الحب طاعة المحبوب والتجاوز (التغاضي) عن سيئاته

ولا هوَ إلَّا العينُ بالعينِ تلتقِي ... وإن نَـوَّعُـوا أسـبـابَـهُ والـدَّواعِـيـا

ولا تفسير له سوى أن العين تلتقي بالعين

وعنديَ الهوى، موصوفُهُ لا صفاتُهُ ... إذا سَألوني: ما الهوى، قلتُ: ما بِيا

عندي الموصوف بالهوى (أي الهوى نفسه)، ولا أعرف صفاته، فإذا سئلت ما الهوى قلت: هو ما بي

١١٤ دنشواي

قال شوقي بعد مرور عام على فظيعة دنشواي (١٩٠٧):

يـا دِنـشَـوايَ! عـلـى رُبـاكِ سَـلامُ ... ذهـبَـتْ بـأُنْـسِ ربـوعِـكِ الأيـامُ
كـيـفَ الأراملُ فيكِ بعدَ رجالِها ... وبـأيِّ حـالٍ أصـبـحَ الأيـتـامُ
عِـشرونَ بيْتاً أقفرتْ وانتابَها، ... بـعـدَ الـبَـشـاشـةِ، وَحْـشَـةٌ وظـلامُ
يا ليْتَ شِعري في البروجِ حمائمٌ ... أم فـي الـبـروجِ مَـنِـيَّـةٌ وحِـمـامُ
نِيرونُ! لوْ أدركتَ عهدَ كُرومَرٍ ... لـعَـرفـتَ كـيـفَ تُـنَـفَّـذُ الأحـكـامُ

نُوحي حمائمَ دِنْشَوايَ، وروِّعِي شعباً بوادي النيلِ ليسَ يَنامُ
والمستشارُ إلى الفظائعِ ناظِرٌ تَدْمَى جُلودٌ حَوْلَهُ وعظامُ

في ١٣/٧/١٩٠٦ توفي جندي إنجليزي في قرية دنشواي بالمنوفية عندما كان يصطاد الحمام مع أربعة من زملائه. مات بضربة شمس بعد وقوع صدام بين الجنود وأهل دنشواي. إثر وفاة الجندي اعتقل الإنجليز اثنين وخمسين من أهالي القرية، وأقيمت محكمة صورية قضت بشنق أربعة رجال، وسجن وجلد ستة وعشرين رجلاً. والجندي المصري الذي كان يرافق الإنجليز أفاد في شهادته بغير ما يرضي المحكمة فرُفضت شهادته وحكم عليه بالحبس سنتين.

كان رئيس المحكمة المستشار أحمد فتحي زغلول (أخا سعد زغلول). وكان المعتمد الإنجليزي في مصر اللورد كرومر. من بين من شنق حسن محفوظ، وشنق عند باب بيته وعلى مرأى من أولاده وأحفاده.

كتب جورج برناردشو في مقدمة مسرحيته «جزيرة جون بول الأخرى» وصفاً بعنوان «فظيعة دنشواي»: «كانت مشنقة واحدة، وكانوا يتركون المشنوق عليها نصف ساعة ليتأكدوا من موته، وليمنحوا أسرته ما يكفي من الوقت لمشاهدته متدلياً. لذا استمرت العملية ساعتين لقتل الرجال الأربعة. وللترويح عن أنفسهم في هذا الوقت كانوا يجلدون ثمانية رجال، خمسين جلدة لكل منهم».

١١٥ وداع كرومر

استقال اللورد كرومر على إثر فظيعة دنشواي، بعد أربع وعشرين سنة في منصبه معتمداً بريطانياً بمصر. وأقيم حفل لوداعه، فخطب خطبة كان فيها قليل الأدب مع مصر ومع الإسلام. وتكهن أن تظل مصر بلداً متخلفاً. فقال شوقي يذكره أن مصر شهدت ازدهاراً.. لكن قبل الاحتلال البريطاني (١٩٠٧):

أيامُكُمْ أم عهدُ إسماعيلا أم أنتَ فِرْعَوْنٌ يسوسُ النيلا
أم حاكمٌ في أرضِ مِصْرَ بأمرِهِ لا سائلاً أبداً ولا مَسؤولا؟

أم أنت كالحاكم بأمر الله الفاطمي المستبد الأهوج

يا مالِكاً رِقَّ الرِّقابِ بِبأسِهِ هلَّا اتَّخذْتَ إلى القلوبِ سبيلا
لما رحلتَ عنِ البلادِ تشهَّدتْ فكأنَّكَ الداءُ العياءُ رَحيلا

الداء العياء: الذي لا برء منه

أوْسَعتَنا يومَ الوَداعِ إهانةً أدبٌ لَعَمْرُكَ لا يُصيبُ مَثيلا!

أوسعتنا (ملأتنا) يوم توديعك إهانة، وهذا أدب لا يصيب (يلاقي) مثيلاً له!

هلَّا بدا لَكَ أنْ تُجامِلَ بعدما صاغَ الرئيسُ لكَ الثنا إكليلا

الرئيس: رئيس الوزراء مصطفى فهمي، الذي أثنى في الحفل على كرومر

أنــذرْتَــنــا رِقّــاً يــدومُ وذِلَّــةً ... تبقى، وحالاً لا تَرى تَحويلا
أَحَسِبْتَ أنَّ اللَّهَ دونَكَ قدرةً ... لا يملِكُ التغييرَ والتَّبديلا
قالوا: جلبتَ لنا الرَّفاهةَ والغِنى ... جَحَدُوا الإلهَ وصُنْعَهُ والنِّيلا
وحياةَ مصرَ على زمانِ محمدٍ ... ونهوضَها مِنْ عهدِ إسماعيلا

ومن قال ذلك جحد ما كان من نهضة على زمان محمد (محمد علي) والخديوي إسماعيل

ومدارساً تَبني البلادَ حوافلاً ... حظُّ الفقيرِ بِهِنَّ كان جَزيلا

حوافل: حافلة، ممتلئة، ولم تكن لأبناء الأغنياء فقط

ومَعاقِلاً لا تَمَّحي آثارُها ... وجيوشَ إبراهيمَ والأُسطولا
وجداولاً بينَ الضِّياعِ جَوارياً ... تَذَرُ اليَبابَ مَزارِعاً وحُقولا

الجداول الجواري: الجداول الجارية، بين الضياع: المزارع، اليباب: الأرض الخراب غير المزروعة

والقطنَ مَزروعاً بِفضلِ محمدٍ ... في مصرَ محلوجاً بها مغزولا

لم يزرع القطن بها فقط، بل أدخل تصنيع القطن أيضاً. للبيت رنة جميلة، ومعنى جميل

قد مدَّ إسماعيلُ قبلَكَ للوَرى ... ظلَّ الحضارةِ في البلادِ ظَليلا
إنْ قِيسَ، في جُودٍ وفي سَرَفٍ، إلى ... ما تُنفقونَ اليومَ عُدَّ بخيلا
أو كان قد صَرَعَ المفتِّشَ مَرَّةً ... فلَكَمْ صَرَعْتَ بِدِنْشَوايَ قتيلا

كان الخديوي إسماعيل قد قتل إسماعيل باشا مفتش الأقاليم في حادثة شنيعة

في كُلِّ تقريرٍ تقولُ خلقتُكُمْ ... أَفَهلْ ترى تقريرَكَ التَّنْزيلا؟
هلْ مِنْ نَداكَ على المدارسِ أَنَّها ... تَذَرُ العلومَ وتأْخُذُ الفُتْبولا

نداك: كرمك، الفتبول: كرة القدم

أم مِنْ صِيانَتِكَ القضاءَ بِمِصْرَ أنْ ... تأتي بقاضي دِنْشَوايَ وَكيلا

المستشار أحمد فتحي زغلول كان رئيس المحكمة التي قضت بإعدام وجَلد وسجن الناس في فظيعة دنشواي، وكافأه كرومر بأن جعله وكيل وزارة الحقانية «العدل»

فارحلْ بحفظِ اللَّهِ جلَّ صنيعُهُ ... مُستعفِياً إنْ شئتَ أو مَعزولا
إنَّا تَمَنَّيْنا على اللَّهِ المُنى ... واللَّهُ كانَ بِنَيْلِهِنَّ كفيلا
مَنْ سَبَّ دينَ محمدٍ، فمحمدٌ ... مُتَمَكِّنٌ عندَ الإلهِ رَسولا

١١٦ باض وفرخ

قال شوقي، ونشر هذين البيتين باسم مستعار، وما أكثر ما صنع ذلك، ولكن محمد صبري السوربوني في كتابه الكبير «الشوقيات المجهولة» رصد لنا الكثير مما نشره شوقي باسم مستعار ثم لم يضمه في ديوانه (١٩٠٧):

أَيُّها البحرُ! أَلْقِ في مصرَ أملا حَـكَ حتى تُرابُها يَتَسَبَّخْ

يتسبخ: يصبح سبخة (مستنقعاً) غير صالح للزراعة

كلُّ مَنْ ضاقتِ الحياةُ عليْهِ جاءَ مصراً، وباضَ فيها وفَرَّخْ

يعرِّض شوقي بالأجانب ذوي الامتيازات من الطليان واليونانيين والإنجليز، وأستبعد أن يكون قصد أيضاً اللبنانيين الذين كان لهم في المجتمع الثقافي المصري شأن. فمن هؤلاء كان له أصدقاء خلّص كثر، وكانوا ـ مثله ـ متمصرين لا متطفلين

١١٧ أرجوزة الحِكَم

قال شوقي يخاطب النشء (١٩٠٧):

اطلبِ العلمَ لذاتِ العلمِ، لا لظهورٍ باطلٍ بينَ الملا

عندَ أهلِ العلمِ للعلمِ مَذاقْ فإذا فاتَكَ هذا فافتراقْ

طَلَبُ المحرومِ لِلعِلْمِ سُدى ليس لِلأعمى على النُّور هُدى

المحروم من تذوُّق لذة العلم لا فائدة من طلبه للعلم

فإذا فاتَكَ توفيقُ العليمْ فامتنعْ عن كلِّ تحصيلٍ عقيمْ

واطلبِ الرزقَ هنا أو ههُنا كمْ مَعَ الجهلِ يَسارٌ وغِنى

فليطلب الإنسان رزقه من غير طريق العلم، وكم من جاهل أصاب يساراً (غنى)

إنَّ لِلعلمِ جميعاً فلسفةْ من تَغِبْ عنهُ تَفُتْهُ المعرِفةْ

قل إذا خاطبتَ غيرَ المسلمينْ لَكُمُ دِينٌ رضِيتُمْ وَلْيَ دِينْ

خَلِّ لِلدَّيَّانِ فيهِمْ شانَهُ إنه أوْلى بِهِمْ سبحانَهُ

كلُّ حالٍ صائرٌ يوماً لِضِدّ فَدَعِ الأقدارَ تجري واستعِدّ

فَلَكٌ بالسَّعدِ والنحسِ يدورْ لا تُعارضْ أبداً مجرى الأمورْ

كلُّ حيٍّ، ما خلا اللَّهَ، يموتْ فاترُكِ الكِبْرَ لهُ والجَبَروتْ

اطْلُبِ الحقَّ برفقٍ تُحْمَدِ طالبُ الحقِّ بعنفٍ مُعتدِ

أَحبِبِ الطفلَ، وإنْ لمْ يَكُ لَكْ إنما الطفلُ على الأرض مَلَكْ
عَطْفَةٌ منهُ على لُعْبَتِهِ تُخرجُ المحزونَ مِنْ كُربتِهِ
واجعلِ الحجَّ إلى أمِّ القُرى غِبَّ حَجٍّ لبيوتِ الفُقَرَا

غب: بعد

ليس لي في طبِّ جالينوسَ باعْ بَيْدَ أنَّ العيْشَ درسٌ واطِّلاعْ
احذَرِ التُّخْمةَ إن كنتَ فَهِمْ إن عِزْرائيلَ في حَلْقِ النَّهِمْ
واتَّقِ البردَ فكَمْ خَلْقٍ قَتَلْ مَنْ توقَّاهُ اتَّقى نصفَ العِلَلْ
واتركِ الخمرَ لِمَشْغوفٍ بِها لا يَرى مَنْدوحةً عنْ شُرْبِها
وتَعَشَّقْ وتعفَّفْ واتَّقِ ما درى اللذةَ مَنْ لمْ يَعشقِ

سخر العقاد من هذه الأرجوزة كثيراً. ولعل المرء لا يملك إلا أن يكبت ابتسامة وهو يقرأ نصائح شوقي في اجتناب التخمة والبرد. على أن شاعرنا ربما كان يريد فقط مباراة أبي العتاهية في أرجوزته المعروفة بذات الأمثال، التي امتدح الجاحظ بيتها: (يا للشباب المرح التصابي/ روائح الجنة في الشباب). وأنا أمتدح، مجيزاً لنفسي القعود بجانب أبي عثمان، البيت: (إن الشباب والفراغ والجدة/ مفسدة للمرء أي مفسدة)، أو لعله كان يقلد ابن الوردي في لاميته النصحية (اعتزل ذكر الأغاني والغزل/ وقل الفصل وجانب من هزل) وهي على بحر الرمل كقصيدة شوقي

١١٨ النفوس حرائر

قال شوقي (١٩٠٨):

إن النفوسَ، كما علمتَ، حرائرٌ كَذَبَ الأُلى قالوا: النفوسُ إماءُ

النفوس حرة، وقد كذب الألى (الذين) قالوا إنها إماء (جوارٍ مستعبدة)

والشعبُ إن ملَّ الحياةَ ذليلةً هانَ الرجالُ عليه والأشياءُ

إذا مل شعب الحياة مع الذلة هانت عليه النفوس والأشياء (الممتلكات)

١١٩ الصعب والسهل

قال شوقي (١٩٠٨):

ما أصعبَ الفِعْلَ على مَنْ رامَهُ وأسهلَ القولَ على مَنْ أرادْ

١٢٠ سبحانهم

قال شوقي ينتقد الحزب الوطني، ويؤيد أحمد زكي باشا شيخ العروبة في خصومته مع الحزب بعد وفاة زعيمه مصطفى كامل وتزعم محمد فريد للحزب (١٩٠٨):

شَرُّ البَلِيَّةِ أنْ يكونَ زعيما مَنْ لا يُسالِمُ في الرجالِ كَريما

عابُوكَ إذ وَجدوا صَنيعَكَ بارِعاً وَرَأَوْا سبيلَكَ في الحياةِ قَويما

فَتَحُوا لِحِزْبِهِمُ الجِنانَ، وأَعْتَدُوا سُبْحانَهُمْ للكافرينَ جَحيما

كان شوقي صديقاً لزعيم الحزب الوطني مصطفى كامل، وعندما مات انصرف عن الحزب ولم يكن شديد التحمس لمحمد فريد. وكان شوقي يناصب سعد زغلول العداء لقربه من الإنجليز الذين يقتطعون قطعة كبيرة من نفوذ الخديوي عباس حلمي ولي نعمة شوقي. ورأينا شوقي يسخر من سعد زغلول عندما زار لندن سنة ١٩٠٦، ويسخر من أخيه الذي كان رئيس محكمة دنشواي، وسنرى شوقي يقترب من الأحرار الدستوريين بعض الاقتراب، وهو رجل غير حزبي، حزبه الخديوي فحسب. وسنراه يقترب من سعد زغلول بعد سنوات، بل ويصبح كثير التردد على مجالسه، ثم ينال مقعداً في مجلس الشيوخ عن الوفد، حزب سعد، سنة ١٩٢٤

١٢١ النفس الكريمة

قال شوقي (١٩٠٨):

اللَّهُ يَعلَمُ ما نفسي بِجاهلةٍ مَنْ أهلُ خُلَّتِها مِمَّنْ يُعادِيها

علم الله أنني لا أجهل أهل خلتي (صداقتي) من أعدائي

والنفسُ إنْ كَبُرَتْ رقَّتْ لحاسِدِها واستغفرتْ، كَرَماً مِنْها، لِشانِيها

شانيها: كارهها

١٢٢ إنَّ الحياةَ دقائقٌ وثوانِ

قال شوقي يرثي مصطفى كامل (١٩٠٨):

المَشْرِقانِ عليكِ يَنتحبانِ قاصِيهِما في مَأتَمٍ والدَّاني

الشرق الأقصى والشرق الأدنى ينتحبان عليك

يتساءلونَ: أَبِالسُّلالِ قَضَيْتَ، أم بالقلبِ، أم هلْ مُتَّ بالسَّرَطانِ

السلال: مرض السل

اللَّهُ يشهدُ أنَّ موتَكَ بالحِجا والجِدِّ والإقدامِ والعِرْفانِ

سبب موتك توقد الحجى (العقل)، والنشاط المفرط

إنْ كـان لـلأخـلاقِ رُكْـنٌ قـائـمٌ   فـي هـذهِ الـدنـيـا فـأنـتَ الـبـانـي
والخلدُ في الدنيا، وليسَ بِهَيِّنٍ،   عـلـيـا الـمـراتـبِ لـم تُـتَـحْ لِـجَـبانِ
وأَحَـبُّ مِـنْ طـولِ الـحـيـاةِ بِـذلـةٍ   قِـصَـرٌ يُـريـكَ تَـقـاصُـرَ الأَقـرانِ

مات مصطفى كامل عن ٣٤ سنة، وقِصَر حياته يبرز تفوقه على أقرانه

دقـاتُ قـلـبِ الـمـرءِ قـائـلـةٌ لَـهُ:   إنَّ الـحـيـاةَ دقـائـقٌ وثَـوانِ

أنفق العقاد صفحة من كتاب «الديوان» في نقد هذا البيت. ولكن العقاد، في كل كتابه الذي سخره لنقد وشتم شوقي، كان يغفل أن مما يحبه المرء في الشعر إيقاعاً تفهمه الأذن دون الدماغ. هذا بيت بديع في معناه، بديع في إيقاعه، وأحب أن أقرأه جهراً مشدداً على قافاته الخمسة

فـارفـعْ لِـنفْـسِـكَ بـعـدَ مـوتِـكَ ذكـرَهـا   فـالـذكـرُ لـلإنـسـانِ عُـمْـرٌ ثـانِ
لـو كـان لـلـذكـرِ الـحـكـيـمِ بـقـيـةٌ   لـم تـأتِ بـعـدُ، رُثِـيـتَ فـي الـقـرآن
ولـقـد نـظـرتُـكَ والـرَّدَى بِـكَ مُـحْـدِقٌ   والـداءُ مـلءَ مـعـالـمِ الـجـثـمـانِ

محدق بك: محيط بك

يـبـغِـي ويـطـغَـى والـطـبـيـبُ مُـضَـلَّـلٌ   قَـنِـطٌ، وسـاعـاتُ الـرَّحـيـلِ دَوَانِ

قنط: قانط يائس، دوان: دانية قريبة

ونـواظـرُ الـعُـوَّادِ عـنـكَ أمـالَـهـا   دمـعٌ تُـعـالِـجَ كَـتْـمَـهُ وتُـعـانـي

العواد (الزوار الذين يعودونك في مرضك) مالت نواظرهم (عيونهم) بعيداً عنك وهم يعالجون (يغالبون) الدمع لمنعه من الهمول

تُـمْـلي وتـكْـتُـبُ والـمـشـاغـلُ جَـمَّـةٌ   ويـداكَ فـي الـقـرطـاسِ تـرتَـجِـفـانِ

أما أنت فتشتغل رغم مرضك

فـهـشـشْـتَ لِـي حـتـى كـأنَّـكَ عـائـدي   وأنـا الـذي هـدَّ الـسَّـقـامُ كِـيـانِـي

رحبت بي منشرحاً كأنك أنت الذي تعودني، وكأنني أنا الذي هد السقام (المرض) كياني

ورأيـتُ كـيـف تـمـوتُ آسـادُ الـشَّـرَى   وعَـرَفْـتُ كـيـف مـصـارعُ الـشـجـعـانِ

رأيت فيك كيف تموت أسود الشرى (الشرى مأسدة كانت عند الفرات)

وجـعـلـتَ تَـسْـأَلُـنِـي الـرثـاءَ فـهـاكَـهُ   مِـنْ أدمُـعـي وسـرائِـري وجَـنـانـي

طلبت مني أن أرثيك فهاك (خذ) الرثاء من دموعي وسرائري (ضميري) وجناني (قلبي)

لـولا مـغـالـبـةُ الـشـجـونِ لـخـاطـري   لـنـظـمـتُ فـيـكَ يـتـيـمـةَ الأزمـانِ

لولا مغالبة (منازعة) الشجون (الأحزان) لخاطري (لقريحتي) لنظمت فيك قصيدة هي الدرة اليتيمة

وأنا الذي أرثي الشموسَ إذا هَوَتْ فتعودُ سِيرَتَها إلى الدَّوَرانِ
قد كنتَ تهتفُ في الوَرى بِقصائدي وتُحِلُّ فوقَ النَيِّراتِ مَكاني

النيرات: النجوم

ماذا دهاني يومَ بِنْتَ فَعَقَّني فيكَ القريضُ، وخانَني إمكاني

بنتَ: فارقتَ، عقني القريض: خانني الشعر، وخانني إمكاني (قدرتي)

يا صَبَّ مصرَ ويا شهيدَ غرامِها هذا ثرى مِصْرٍ فنمْ بأَمانِ

صب: محب

أقسمْتُ أنَّكَ في التُّرابِ طهارةٌ مَلَكٌ يَهابُ سؤالَه الملكانِ

١٢٣ العدل بين الأولاد

قال شوقي في أولاده الثلاثة (١٩٠٩):

يقولونَ: لِمْ تُطْرِي عَلِيّاً وأختَهُ وتنسى حُسَيْناً، والحسينُ كريمُ

يقولون لمْ (لماذا) تطري (تثني على) علياً وأخته أمينة، وتنسى حسيناً، وإنه لعزيز علي

فقلتُ: فؤادي للثلاثةِ منزلٌ هُما طُنُباهُ، والحسينُ صَميمُ

فقلت قلبي منزل (المنزل في العربية القديمة هو الخيمة) الأولان طنبان فيه (حبلان يشدان الخيمة) والحسين صميم (الأصل)

إذا ما بدا لي أنْ أفاضِلَ بينهُمْ أبى ليَ قلبٌ عادلٌ ورحيمُ
أُحِبُّ صغارَ العالَمِينَ لأجلِهِمْ ويَعطِفُ قلبِي ذو أَبٍ، ويتيمُ

أحب الصغار جميعاً لأجل أولادي، ويعطف قلبي (يستميله) الطفل ذو الأب والطفل اليتيم

١٢٤ ريم على القاع

قال شوقي (١٩٠٩):

ريمٌ على القاعِ بينَ البانِ والعَلَمِ أَحَلَّ سفْكَ دَمِي في الأَشْهُرِ الحُرُمِ

ريم (غزال) على القاع (السهل) بين موضعي «البان» و«العلم» أحل لنفسه أن يسفك دمي في الأشهر الحرم (ذي القعدة وذي الحجة والمحرم ورجب التي لم تكن العرب تحترب فيها)

رمى القضاءُ بِعَيْنَيْ جُؤْذُرٍ أسداً ... يا ساكنَ القاعِ أدرِكْ ساكنَ الأَجَمِ

رمى قضاء الله عن طريق عيني جؤذر (صغير البقر الوحشي) أسداً (أي رماني، وأنا الأسد، بسهام العشق التي انطلقت من عيني هذه الفتاة الجميلة)، فيا ساكن السهل أدرك (ارحم) ساكن الأجم (الغابة)، أي يا أيتها الفتاة ارحمي هذا العاشق

لمَّا رَنا حَدَّثَتْني النفسُ قائلةً ... يا وَيْحَ جنبِكَ بالسَّهْمِ المُصيبِ رُمِي

عندما رنا (نظر) قالت لي نفسي: يا ويح جنبك فقد رماه هذا الحبيب بسهم صائب

جَحَدْتُها، وكَتَمْتُ السهمَ في كَبِدي ... جرحُ الأَحِبَّةِ عندِي غيرُ ذي ألَمِ

جحدت (تجاهلت) نفسي وقولها، وكتمت السهم في كبدي، فضرب الحبيب مثل أكل الزبيب.
يقول عمران القفيني: «لو كنا سننوه بكل بيت، ونكشف من أين أخذه شوقي لاحتاج الكتاب عشرين صفحة إضافية على الأقل. على أنها «وَلَّعَتْ معي» عند هذا البيت! أليس هذا من قول المتنبي «وما لجرح إذا أرضاكم ألم؟»

رُزِقْتَ أسمحَ ما في الناسِ مِن خُلُقٍ ... إذا رُزِقْتَ «التماسَ العُذْرِ» في الشِّيَمِ

أيها الإنسان تكون قد رزقت أسمح خلق إذا رزقت التماس العذر للناس ضمن الشيم (الخصال) التي في نفسك

يا لائِمي في هواهُ، والهَوى قَدَرٌ ... لو شَفَّكَ الوَجْدُ لم تَعذِلْ ولم تَلُمِ

يا لائمي في حبه، والعشق قدر، لو شفَّك (أوجعك) الوجد (الغرام) لم تعذل (لم تلم)

لقد أَنَلْتُكَ أُذْناً غيرَ واعيةٍ ... ورُبَّ مُنْتَصِتٍ والقلبُ في صَمَمِ

لقد أعطيتك أذناً ولكنها غير مصغية، وكثيراً ما يظهر على المرء أنه منتصت (منصت)، ولكن قلبه أصم

يا ناعسَ الطَّرْفِ! لا ذقتَ الهوى أبداً ... أسهرتَ مُضناكَ في حِفظِ الهوى فَنَمِ

ويا أيها المحبوب، يا من طرفه (عيناه) ناعس، أدعو لك ألا تذوق الهوى رحمة بك. لقد أسهرت مضناك (المريض بحبك) فنم

يا نفسُ! دنياكِ تُخْفي كلَّ مُبْكِيَةٍ ... وإنْ بدا لَكِ مِنها حسنُ مُبْتَسَمِ

يا نفسي! دنياك تخبئ لك كل ما يبكي، وإن بدا لك منها مبتَسَم (ابتسام) حسن

صلاحُ أمرِكَ للأخلاقِ مَرْجِعُهُ ... فقوِّمِ النفسَ بالأخلاقِ تَسْتَقِمِ

إنْ جَلَّ ذنبي عنِ الغُفرانِ لي أَمَلٌ ... في اللَّهِ يجعلُني في خيرِ مُعْتَصَمِ

المعتَصَم: الحصن المنيع

وإنْ تَقَدَّمَ ذو تَقوى بِصالحةٍ ... قَدَّمْتُ بينَ يديْهِ عَبْرَةَ النَّدَمِ

إن قدم ذو التقوى عملاً صالحاً قدمت عبرة (دمعة) الندم على معاصيَّ

يا أفصحَ الناطقينَ الضَّادَ قاطبةً حديثُكَ الشَّهْدُ عندَ الذّائقِ الفَهِمِ

يا محمدا! حديثك النبوي هو الشهد عند الذائق (المتذوق) الفَهِم (الذكي)

أَتيْتَ والناسُ فوضى، لا تَمُرُّ بِهِمْ إلّا على صنمٍ قد هامَ في صنمِ

أتيت برسالتك والناس فوضى لا ترى فيهم إلا رجلاً جاهلاً كالصنم هائماً بصنم يعبده

أسْرى بكَ اللَّهُ ليلاً إذْ مَلائِكُهُ والرُّسْلُ في المسجدِ الأقصى على قَدَمِ

أسرى بك الله ليلاً إذ الملائك (الملائكة) والرسل قد قاموا واقفين في المسجد الأقصى لتصلي بهم

حتى بلغتَ سماءً لا يُطَارُ لها على جناحٍ، ولا يُسعَى على قَدَمِ

ثم عرج بك إلى السماء التي لا يصلها واصل، طائراً بجناح أم سائراً بقدم

وقيلَ: كلُّ نَبِيٍّ عند رُتْبَتِهِ ويا محمدُ هذا العرشُ فاسْتَلِمِ

وقيل فليلزم كل نبي رتبته، ويا محمد هذا عرش الله فاستلمه (قبِّله)

يا أحمدَ الخيرِ لِي جاهٌ بِتَسْمِيَتي وكيف لا يَتسامَى بالرَّسولِ سَمِي

يا أحمد (من أسماء الرسول) لي شرف بتسميتي فأنا أحمد، وكيف لا يتسامى (يعلو) بالرسول سميٌّ (المسمَّى بنفس الاسم)

المادِحونَ وأربابُ الهوى تَبَعٌ لِصاحبِ البُرْدَةِ الفيْحاءِ ذي القِدَمِ

كل من مدح الرسول وأرباب الهوى (ذوو الحب للرسول) تبع (تابعون) لصاحب البردة الفيحاء (العطرة) ذي القِدم (السابق/ المتقدِّم زماناً)

وصاحب البردة هو البوصيري الذي عارضه شوقي في قصيدته هذه

اللَّهُ يَشْهَدُ أنِّي لا أُعارِضُهُ مَنْ ذا يُعارضُ صَوْبَ العارِضِ العَرِمِ

إذن فشوقي لا يعارضه (ينافسه)، ومن ذا الذي ينافس صوب (انهمار) العارض (السحاب) العرم (المتدفق)

قالوا: غزوتَ، ورُسْلُ اللَّهُ ما بُعِثوا لقتلِ نَفْسٍ، ولا جاءوا لسفكِ دَمِ

قالوا إنك يا رسول الله غزوت، والرسل ما بعثوا للقتل

جهلٌ وتضليلُ أحلامٍ وسَفْسَطَةٌ، غزوتَ بالسيفِ بعدَ الغَزْوِ بالقلمِ

وما قالوه جهل وسفسطة (حجج ملفقة)

والشرُّ إنْ تَلْقَهُ بالخيرِ ضِقْتَ به ذَرْعَاً وإنْ تَلْقَهُ بالشرِّ يَنْحَسِمِ

إن واجهت الشر بالخير ضقت به ذرعاً، وإن واجهته بشر مثله حسمته (قطعت دابره)

دعـوتَـهُـمْ لـجِـهـادٍ فـيـهِ سـؤدَدُهُـمْ والـحربُ أُسُّ نظامِ الكونِ والأمَمِ

دعوت يا محمد العرب لجهاد فيه سؤدد (سيادة) لهم، والحرب هي أساس نظام الكون والأمم

يـا رَبِّ هـبَّتْ شُعوبٌ مِنْ مَنِيَّتِها واستـيـقـظَتْ أُمَمٌ مِنْ رَقْدَةِ الـعَدَمِ

يا رب قد هبت (استيقظت) شعوب أخرى من منيتها (من موتها)، واستيقظت من رقدة الفناء. وكانت اليابان قبل سنوات قلائل من هذه القصيدة قد أكدت نهضتها الباهرة بنصر مؤزر على روسيا، واستيقظ الوعي القومي عند اليونان والبلغار والصرب الذين يحكمهم الترك، وبدا جلياً أن دولة الترك التي يناصرها شوقي آيلة للتفكك

فالطُفْ لأَجْلِ رسولِ العالمينَ بِنا ولا تَـزِدْ قـومَـهُ خَـسْـفـاً ولا تَـسُـمِ

لا تزدنا خسفاً ولا تَسُمْنا (لا تُذِلّنا)

يا ربِّ أحسنْتَ بَدْءَ المسلمينَ به فتمِّمِ الفضلَ وامنحْ حُسْنَ مُخْتَتَمِ

١٢٥ الرقيب

قال شوقي في الرقيب على الصحف في تركيا، وذلك بعد أن ألغى رجال العهد الجديد منصبه (١٩٠٩):

لـنـا «رقـيـبٌ» كـانَ مـا أَثْـقَـلَـهْ الـحـمـدُ لـلّـهِ الـذي رَحَّـلَـهْ

لـو ابـتَـلَـى الـلّـهُ بـه عـاشـقـاً مـاتَ بـه لا بـالـجَـوى والـوَلَـهْ

الرقيب رقيب الصحف، والرقيب أيضاً الشخص المكلف بمراقبة العاشقين، فلو ابتلى الله برقيب الصحف التركي هذا عاشقاً لمات العاشق منه لا من الجوى (ألم العشق) ولا من الوله (شدة العشق)

لـو دامَ لـلـصُّـحْـفِ ودامـتْ لَـهُ لـم تـنـجُ مِـنْـهُ الـصُّـحُـفُ الـمُـنْـزَلَـةْ

لو دام هذا رقيباً على الصحف لامتد أذاه فأصاب «الصحف» المنزلة (الكتب السماوية/ صحف إبراهيم وموسى)

لو خالَ «بِسْمِ اللّهِ» في مُصْحَفٍ تُغْضِبُ تَحْسيناً محا البَسْمَلَةْ

لو ظن أن البسملة في المصحف تغضب تحسيناً (حسن تحسين باشا القائد البحري التركي) لمحاها

جـرائـدُ الـتُّـرْكِ عـلـى عـهـدِهِ كـانـتْ بِـلا شَـأْنٍ ولا مَـنْـزِلَـةْ

الـشـرُّ بـالـشـرِّ، فـيـا قَـوْمُ لا إثـمَ إذا راقـبْـتُـمُ مَـنْـزِلَـهْ

فقابلوا شره بشر، وراقبوا منزله جزاء ما كان يراقب الصحف

فـحـاصِـرُوا الأبـوابَ واسـتـوقِـفـوا مَـنْ أخـرَجَ الـزَّادَ ومَـنْ أَدْخَـلَـهْ

وأوقفوا للتفتيش من يحمل إليه الطعام

إنْ كان في السَّلَّةِ تفاحةٌ ضَعُوا لَهُ موضِعَها حَنْظَلَةْ

فإن وجدتم في الطعام تفاحة فأبدلوا بها حنظلة (الثمرة المرة)

ذلك يَا قومُ جزاءُ امرِئٍ كَمْ غيَّرَ الحقَّ، وكَمْ بَدَّلَهْ

تبديل بتبديل

١٢٦ انقلاب شوقي على عبد الحميد

قال شوقي في الانقلاب العثماني (١٩٠٩):

عبدَ الحميدِ! حسابُ مِثْـ ـلِكَ في يدِ الملكِ الغفورِ

سُدْتَ الثلاثينَ الطِّوا لَ ولَسْنَ بالحُكمِ القصيرِ

حكم عبد الحميد الثاني تركيا ٣٣ سنة (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩). إذا قرأ هذا الشرح معلم مدرسة، ورأى أن يدرِّس القصيدة لتلامذته، فليعلم أنني ما وضعت التواريخ حتى يفرضها على ذاكرتهم. وضعتها زيادة في الشرح، وحتى أريحك من عناء البحث

تنهَى وتأمُرُ ما بدا لَكَ في الكبيرِ وفي الصغيرِ

لا تستشيرُ، وفي الحِمَى عددُ الكواكِبِ مِنْ مُشيرِ

لا تستشير أحداً رغم أن في البلد عدد الكواكب من العقلاء المشيرين بالصواب

أينَ الرَّوِيَّةُ والأنا ةُ وحكمةُ الشيخِ الخَبيرِ

إنَّ القضاءَ إذا رَمى دَكَّ القَواعِدَ مِنْ ثَبيرِ

القضاء حين يرمي بسهمه يدك قواعد جبل ثبير

دَخَلوا السَّريرَ عليكَ يَحْـ ـتَكِمونَ في رَبِّ السَّريرِ

دخل الانقلابيون السرير (قاعة الحكم) وتحكموا في رب (صاحب) الديوان، فأسروه ونفوه إلى سالونيك (ومات هناك بعد تسع سنين/ ليست للحفظ)

أعظِمْ بِهِمْ مِنْ آسِريـ ـنَ وبالخليفةِ مِنْ أسيرِ

فما أعظمهم، وما أعظم الخليفة الأسير!

١٢٧ الصابر على معتقداته

قال في أربعين قاسم أمين، الذي مات في ١٩٠٨، ونشرت القصيدة في (١٩٠٩):

يا غائبِينَ وفي الجوانِحِ طيفُهُمْ أبكِيكُمُ مِنْ غُيَّبٍ حُضَّارِ

يا غائبين وفي الجوانح (الصدور) صورتهم، أبكيكم وأنتم غائبون عن العين حاضرون في الذهن

بيْـني وبيـنَـكُـمُ وإنْ طـالَ الـمَـدى   سَـفَـرٌ سـأُزْمِـعُـهُ مِـنَ الأَسْـفـارِ
والذي يفصلني عنكم سَفَر سوف أزمعه (أقوم به)

إنِّـي أكـادُ أَرى مَـحَـلِّـيَ بـيـنَـكُـمْ   هـــذا قـــرارُكُـــمُ وذاكَ قَـــراري
هذا قراركم (مكان استقراركم/ قبركم) وذاك بقربه قراري الذي سأنزل به

أوفـى الـرجـالِ لـعـهـدِهِ ولـرأيِـهِ   وأبـرُّهُـمْ بـصـديـقِـهِ والـجـارِ
قاسم أمين كان أوفى الرجال وأبرهم

وأشـدُّهُـمْ صـبـراً لـمـعـتَـقَـداتِـهِ   وتَـأَدُّبـاً لـمـجـادلٍ ومُـمـارِ
المماري (المجادل المكابر)

١٢٨ شعوبك يا محمد في سبات

قال شوقي يهنئ الخديوي عباس حلمي بالحج. يقول حسين أحمد شوقي في كتابه «أبي شوقي» إن الخديوي عباس حلمي عزم على شوقي أن يحج معه، ولكن شوقي تفلت من الموكب ولم يذهب للحج، وكانت هذه الاعتذارية (١٩١٠):

إلـى عَـرَفـاتِ الـلَّـهِ يـا خـيـرَ زائـرٍ   عـلـيـكَ سـلامُ الـلَّـهِ فـي عَـرَفـاتِ
لكَ الدينُ يا ربَّ الحجيجِ، جمعتَهُمْ   لِبَيْتٍ طَهورِ السَّاحِ والعَرَصاتِ
الساح: الساحات، العرصات: الساحات

أرى الناسَ أصنافاً، ومِنْ كلِّ بُقْعَةٍ   إلـيـكَ انـتـهَـوْا مِـنْ غُـربـةٍ وشَـتـاتِ
تساوَوْا، فلا الأنسابُ فيها تفاوُتٌ   لـديـكَ، ولا الأقـدارُ مـخـتـلِـفـاتِ
دعانيِ إليكَ الصالحُ ابنُ محمدٍ   فـكـانَ جـوابـيِ صـالـحَ الـدَّعَـواتِ
دعاني الخديوي «عباس بن محمد توفيق» إلى بيتك الحرام يا رب، فدعوت له بالخير

وخَـيَّـرَنـي فـي سـابـحٍ أو نَـجـيـبـةٍ   إليكَ، فلم أَخْتَرْ سوى العَبَراتِ
وخيرني في ركوب سابح (فرس) أو نجيبة (ناقة)، فاخترت عبرات الاعتذار (دموع الاعتذار)

وقَدَّمْتُ أعذاريِ وذُلِّي وخَشْيتي   وجئْتُ بِضَعفي شافِعاً وشَكاتي
اعتذرت وقدمت خضوعي، وجعلت الشافع لي ضعفي وشكاتي (مرضي)

ركـائـبُ عـبـاسِ الـعُـلا كِـسْـرَوِيَّـةٌ   ولـكـنْ لِـذي سـيـفٍ ورَبِّ قـنـاةِ
ركائب عباس (دوابُّه) كسروية (فاخرة التجهيز كدواب كسرى)، ولكنها تصلح لذي السيف، ورَبِّ (صاحب) الرمح

وفي راجتيِ ماضٍ إذا ما هززْتُهُ ... تركتُ عدوَّ اللّهِ في السَّكَراتِ

وأما أنا ففي يدي قلم ماضٍ، إذا حركته تركت أعداء الله في سكرات الموت

أتيتَ بهِ يا ربِّ نوراً وحكمةً ... ونزَّهْتَهُ عن ريبةٍ وأذاةِ

أنت جئتني يا رب بهذا القلم لتفيض منه الحكمة، ونزهته عن الريبة (العيب) والأذى

ويا رَبِّ لوْ سَخَّرْتَ ناقةَ صالحٍ ... لعبدكَ ما كانتْ مِنَ السَّلِساتِ

وحظي سيء، فلو سخر لي الله ناقة النبي صالح المعطاء السلسة، لما كانت سلسة معي

ويا رَبِّ هلْ تُغني عَنِ العبدِ حَجّةٌ ... وفي العمرِ ما فيهِ مِنَ الهَفَواتِ

وماذا ينفعني الحج وقد ارتكبت هفوات كثيرة

إذا زُرْتَ يا مولايَ قبرَ محمدٍ ... وقبَّلْتَ مَثْوى الأَعْظُمِ العَطِراتِ

مولاي الخديوي عندما تزور قبر محمد، وتُقبِّل مثوى (موضع) عظامه الطاهرة

فقُلْ لرسولِ اللّهِ: يا خيرَ مُرسَلٍ ... أبُثُّكَ ما تَدري مِنَ الحَسَراتِ

فقل له: أبثك (أخبرك بـ) حسرات قلبي

شُعوبُكَ في شرقِ البلادِ وغربِها ... كأصحابِ كهفٍ في عميقِ سُباتِ

١٢٩ مضناك جفاه مرقده

قال شوقي يهنئ الخديوي عباس حلمي (١٩١٠):

مضناكَ جفاهُ مَرقدُهُ ... وبَكاهُ وَرَحَّمَ عُوَّدُهُ

مضناك (المريض بحبك) جفاه (نَبَذَه) مرقده (سريره) فهو ساهر، وبَكاه عُوَّدُه (زائروه) وترحموا عليه

حيرانُ القلبِ مُعَذَّبُهُ ... مقروحُ الجفْنِ مُسَهَّدُهُ

جفنه مقروح (مجرَّح) من بكائه ومسهَّد (ساهر)

أَوْدَى حُرَقاً إلَّا رَمَقاً ... يُبْقِيهِ عليكَ وتُنْفِدُهُ

أودى (مات) من الحُرَق (حُرْقة في إثر حُرْقة)، ولم يبق فيه سوى رمق (بقية حياة)، وهو يحافظ على هذه البقية من أجلك وأنت تُنفِد هذه البقيه (تفنيها)

يَسْتَهْوِي الوُرْقَ تأوُّهُهُ ... ويُذيبُ الصخرَ تنهُّدُهُ

يستهوي الورق (الحمام) تأوهه، ويذيب الصخر تنهده

ويناجِي النجمَ ويُتْعِبُهُ ... ويقيمُ الليلَ ويُقْعِدُهُ

لكثرة سهره يتعب النجم وهو يناجيه (يحدثه)، ويتعب الليل أيضاً

الـحـسـنُ حَـلَـفْـتُ بِـيُـوسُـفِـهِ   والـسُّـورَةِ أنَّـكَ مُـفْـرَدُهُ

حلفت بأحسن الحسن (بيوسف النبي مضرب المثل في الحسن)، وحلفت بسورة يوسف أيضاً، أنك أنت المتفرد بالحسن

قـدْ ودَّ جـمـالَـكَ أو قَـبَـسـاً   حَـوْراءُ الـخُـلْـدِ وأَمْـرَدُهُ

وقد تمنى جمالك أو قبساً منه (بعضاً منه) حوراءُ الجنة (ذات العينين الجميلتين) وأمرد الجنة (الغلام ولما ينبت شعر وجهه)

وتـمـنَّـتْ كـلُّ مُـقَـطِّـعَـةٍ   يَـدَهـا لـو تُـبْـعَـثُ تَـشْـهَـدُهُ

وتمنت كل واحدة من تلك النسوة اللائي قطعن أيديهن لمَّا أذهلهنَّ جمال يوسف، لو بعثها الله لتشهد جمالك أنت

جَـحَـدَتْ عـيـنـاكَ زَكِـيَّ دَمِـي   أَكَـذلِـكَ خَـدُّكَ يـجـحَـدُهُ

أنكرت عيناك دمي الزكي الذي سال في حبك، فهل خدك ينكر دمي؟ (وخدك محمر من دمي النازف فكيف له أن ينكر؟)

قـد عـزَّ شُـهـودِي إذْ رَمَـتَـا   فـأشـرتُ لِـخَـدِّكَ أُشْـهِـدُهُ

عز علي العثور على شهود يشهدون لي عندما رمت عيناك بسهميهما قلبي، فأشرت لخدك المحمر حتى يكون شاهداً على هذه الجريمة

بَـيْـنـي فـي الـحـبِّ وبـيـنَـكَ مـا   لا يَـقْـدِرُ واشٍ يُـفْـسِـدُهُ

مـا بـالُ الـعـاذلِ يـفـتـحُ لـي   بـابَ الـسُّـلْـوانِ وأُوصِـدُهُ

العاذل (اللائم) يسهل عليَّ السلوان (النسيان)، لكنني أوصد (أسد) هذا الباب

ويـقـولُ: تـكـادُ تُـجَـنُّ بـه   فـأقـولُ: وأُوشِـكُ أعـبُـدُهُ

مـوْلايَ، وروُحِـي فـي يـدِهِ،   قـد ضـيَّـعَـهـا سَـلِـمَـتْ يـدُهُ

نـاقـوسُ الـقـلـبِ يـدقُّ لَـهُ   وحـنـايـا الأضـلُـعِ مـعـبَـدُهُ

يـا سـيْـفَ الـدولـةِ عِـشْ أبـداً   لـلـعـصْـرِ يـهُـزُّكَ أحـمَـدُهُ

سيف الدولة عباس حلمي الثاني، والذي يهز السيف في هذا العصر ويثير نخوته هو أحمد شوقي. وكان الذي يهز سيف الدولة الحمداني في العصر المنصرم أحمدٌ آخر هو أحمد بن الحسين المتنبي

كُـرْسِـيُّـكَ أثْـبَـتُ مِـنْ أُحُـدٍ   مـمـدودُ الـعِـزِّ مُـؤَبَّـدُهُ

كرسي حكمك ثابت كجبل أحد، وعزك مستمر للأبد

١٣٠ لو لم يقتل لمات

اغتيل بطرس غالي رئيس مجلس النظار (ما يعادل رئيس الوزراء)، على يد الصيدلي إبراهيم الورداني بست رصاصات أصابته اثنتان منها، لأنه كان ـ فيما قيل ـ يدبر لتمديد امتياز قناة السويس. وكان غالي يساير الإنجليز، مثله في ذلك مثل معظم كبار الموظفين، ويسعى للتوفيق بينهم وبين الوطنيين (أنصار الحزب الوطني، وكان الورداني منهم) والعرابيين قبل ذلك. وأدى اغتيال بطرس غالي إلى استياء كبير في نفوس القبط (١٩١٠):

بني القبطِ! إخوانَ الدُّهورِ! رُوَيْدَكُمْ   هَبُوهُ يَسوعاً في البريَّةِ ثانيا

أيها القبط! يا إخواننا على مدى الدهور، رويدكم (تمهلوا)، وهبوه يسوعاً ثانياً (أي افرضوا أنه يسوع) في البرية (العالم)

حملتُمْ لحُكْمِ اللَّهِ صَلْبَ ابنِ مَرْيَمِ   وهذا قضاءُ اللَّهِ قد غالَ غاليا

احتملتم صلب عيسى بن مريم لأنه قضاء الله، واغتيال بطرس غالي كان بقضاء الله

سديدُ المَرامِي قد رماهُ مسدِّدٌ   وداهيةُ السُّوَّاسِ لاقى الدَّواهيا

كان غالي سديد المرامي (الغايات)، ورماه بالرصاص رجل مسدد (يحسن التسديد)، وغالي داهية السواس (السياسيين) لاقى الدواهي

ووالله لوْ لمْ يُطْلِقِ النارَ مُطْلِقٌ   عليهِ لأَوْدى فَجْأَةً أو تَداوِيَا

والله لو لم تُطلَق عليه النار لأودى (مات) فجأة أو بعد التداوي من المرض. أهناك في الرثاء أوقح من هذا البيت؟

قضاءٌ ومِقْدارٌ وآجالُ أنفُسٍ   إذا هِيَ حانَتْ لم تُؤَخَّرْ ثَوانيا

ألم تَكُ مصرٌ مَهْدَنا ثم لَحْدَنا   وبينَهُما كانت لِكُلٍّ مَغانيا

المغاني: الربوع

ألم نَكُ مِنْ قَبْلِ المسيحِ ابنِ مَرْيَمٍ   وموسى وطهَ نعبدُ النيلَ جارِيا

فهلَّا تَساقَيْنا على حُبِّهِ الهوى   وهلَّا فَدَيْناهُ ضِفافاً ووادِيا

فهلا سقى بعضنا بعضاً من كأس محبتنا للنيل

وما زالَ مِنْكُمْ أهلُ وُدٍّ ورحمةٍ   وفي المسلمينَ الخيرُ ما زالَ باقِيا

فلا يَثْنِكُمْ عنْ ذِمَّةٍ قتلُ بُطْرُسٍ   فَقِدْماً عَرفنا القتلَ في الناسَ فاشِيا

فلا يجعلْكم قتل بطرس غالي ترجعون عن العهد، فقِدماً (منذ القديم) عرفنا القتل فاشياً (منتشراً) في الناس

١٣١ صداح

قال شوقي يتوجع عندما حكم على إبراهيم الورداني بالإعدام، لاغتياله بطرس غالي رئيس مجلس النظار/ الوزراء، والقصيدة مشحونة بالتقية (١٩١٠):

صَـــدَّاحُ يـــا مَـــلِـــكَ الـــكَـــنـــا   رِ ويـــا أمـــيـــرَ الـــبُـــلْـــبُـــلِ

أيها الصداح يا ملك الكنارات وأمير البلابل

يـــا لـــيـــتَ شِـــعـــري يـــا أســـيـــ   ـــرُ شَـــجٍ فـــؤادُكَ أم خَـــلِـــي

ليت شعري أيها الطائر الأسير هل فؤادك شجٍ (حزين) أم خليٌّ من الهم؟

وحـــلـــيـــفُ سُـــهْـــدٍ أم تـــنـــا   مُ الـــلـــيـــلَ حـــتـــى يَـــنْـــجَـــلـــي

هل أنت حليف سهد (سهر)، أم تنام الليل بطوله؟

يـــا طَـــيْـــرُ والأمـــثـــالُ تُـــضْـــ   ـــرَبُ لِـــلَّـــبـــيـــبِ الأَمْـــثَـــلِ

يا أيها الطائر إنما نحن نضرب مثلاً للبيب

دنـــيـــاكَ مِـــنْ عـــاداتِـــهـــا   ألَّا تـــكـــونَ لأَعـــزَلِ

الدنيا عادتها أن لا تكون للأعزل

جُـــعِـــلَـــتْ لِـــحُـــرٍّ يُـــبْـــتَـــلـــى   فـــي ذي الـــحـــيـــاةِ، ويَـــبـــتَـــلـــي

الدنيا للحر الذي يبتلى ويبتلي أعداءه بنضاله

يَـــرمـــي ويُـــرمَـــى فـــي جِـــهـــا   دِ الـــعـــيـــشِ غـــيـــرَ مُـــغَـــفَّـــلِ

أَسَـــمِـــعْـــتَ بـــالـــحَـــكَـــمَـــيْـــنِ فـــي الـــ   إســـلامِ يـــومَ الـــجَـــنْـــدَلِ

هل سمعت بقصة الحَكَمين في دومة الجندل (عندما خدع عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري)

رضـــيَ الـــصـــحـــابـــةُ آنـــذ   لـــكَ بـــالـــكـــتـــابِ الـــمُـــنْـــزَلِ

فالصحابة رضوُا بالمصحف حكماً

وهُـــمُ الـــمـــصـــابـــيـــحُ الـــرُّوا   ةُ عـــنِ الـــنـــبـــيِّ الـــمـــرسَـــلِ

حـــتـــى إذا وَسِـــعَـــتْ مُـــعـــا   ويـــةً، وضـــاقَ بِـــهـــا عَـــلـــي

حتى إذا جاءت نتيجة التحكيم لصالح معاوية بعد الخدعة، فَوَسِعَت الأمور معاوية وضاق علي بها..

رَجَـــعـــوا لِـــظُـــلْـــمٍ كـــالـــطَّـــبـــا   ئِـــعِ فـــي الـــنـــفـــوسِ مُـــؤَصَّـــلِ

لم يرض الناس، فالظلم من طبائعهم

نَـزَلـوا عـلـى حُـكْـمِ الـقـويِّ ـ وعــــنــــدَ رأيِ الأَحْــــيَــــلِ

وكان الأمر للقوي والأحيل (الأكثر حيلة)

صــــدَّاحُ حــــقٌّ مــــا أقــــو لُ حَــفَــلْــتَ أمْ لــمْ تَــحْــفِــلِ

فيا صداح ما أقوله هو الحق، فالدنيا للقوي ولصاحب الحيلة، وأنت قمت بفعل وأخذت طريق القوة ولا يعنيني أكان الحق معك أم لم يكن، فالشريعة في هذه الغابة هي أن الدنيا «تؤخذ غِلابا»

صِـحْ بِـالـصَّـبـاحِ وبَـشِّـرِ الــ أبـنـاءَ بِـالـمـسـتـقـبَـلِ

واسـألْ لـمـصـرَ عـنـايـةً تـأتِـي وتَـهْـبِـطُ مِـنْ عَـلِ

نشرت القصيدة في الشوقيات المطبوعة سنة ١٩٢٦ بعنوان «بين الحجاب والسفور» إمعاناً في التمويه على موضوعها الأصلي. وشوقي لم يضطر إلى كل هذا التمويه خوفاً من الإنجليز فحسب، بل مراعاة للأقباط أيضاً

١٣٢ بساط الريح

قال شوقي يحيي الطيارين الفرنسيين (١٩١٠):

قم سليمانُ، بساطُ الريحِ قاما مَلَكَ القومُ من الجَوِّ الزِّماما

قم يا سليمان يا من سخَّر لك الله الريح، فقد قام بساط الريح، وقد امتلك القوم زمام الأمور من الجو. هذا ولما تقم بعد حروب الجو، فلو عرف شوقي ما حدث عام ٦٧ عندما انتصرت إسرائيل في ساعة لأنها «ملكت من الجو الزمام» لظن نفسه نبياً

حينَ ضاقَ البرُّ والبحرُ بهِمْ أَسْرَجوا الريحَ وسامُوها اللِّجاما

وضعوا سرجاً على الريح كأنها فرس، وساموها (أذلوها بـ) اللجام

صارَ ما كان لكُمْ معجزةً آيةً لِلعلمِ آتاها الأناما

ما كان عندكم يا سليمان معجزة، صار آية (برهاناً) أعطاها العِلم للأنام (للبشر)

قدرةٌ كنتَ بها منفرِداً أصبحتْ حِصَّةَ مَنْ جَدَّ اعتزاما

طِلْبَةٌ قد رامَها آباؤُنا وابتغاها مَنْ رأى الدهرَ غُلاما

الطيران طلبة (هدف) طلبها آباؤنا، وابتغاها الأقدمون الذين شهدوا الزمن وهو يافع

أسقَطَتْ إيكارُ في تجرِبَةٍ وابنَ فِرْناسٍ فما اسطاعا قياما

هذه الأمنية أسقطت اليوناني إيكاروس، والعربي العباس بن فرناس، من الأعالي فماتا في شهوة الطيران

في سبيلِ المجدِ أوْدَى نَفَرٌ شُهَداءُ العلمِ أعْلاهُمْ مَقاما

في سبيل المجد أودى (مات) نفر (أناس)، وشهداء العلم هم أعلاهم مقاماً

خـلـفـاءُ الـرسـلِ فـي الأرضِ هُـمُ   يَـبـعـثُ الـلّـهُ بـهِـمْ عـامـاً فَـعـامـا

شهداء العلم هم خلفاء الأنبياء في الأرض، والله يبعث بهم حيناً بعد حين

قـطـرةٌ مِـنْ دمِـهِـمْ فـي مُـلْـكِـهِ   تـمـلأُ الـمـلـك جـمـالاً ونِـظـامـا

والقطرة الواحدة من دمهم تنير الدولة وتزين الملك

أيُّـهـا الـشـرقُ انـتـبـهْ مِـنْ غَـفْـلـةٍ   مـاتَ مَنْ في طُرُقاتِ السَّيْلِ ناما

الشرق غافل، وهو مثل النائم في طريق السيل، يأتيه السيل ليلاً فيجرفه

١٣٣ قصر أنس الوجود

قيلت هذه القصيدة في قصر أنس الوجود، معبد إيزيس على جزيرة فيلة، وبعد بناء السد العالي نقلت أحجاره وشيد من جديد على مبعدة نصف كيلومتر من موقعه الأصلي. وكان الرئيس الأميركي المنصرف لتوّه من المنصب تيودور روزفلت (١٩٠١ ـ ١٩٠٩) زار مصر وقصد أسوان ضمن جولة صيد إفريقية قتل فيها مع رفاقه ١١ ألف حيوان أرسلوا كثيراً منها مملَّحة إلى واشنطن لتَعْمُر المتاحف. وقبل أسوان كان روزفلت في الخرطوم، وفيها قال كلاماً مؤيداً للاحتلال الإنجليزي، وغاضّاً من الثقافة الشرقية والإسلامية. (١٩١٠):

أيـهـا الـمـنـتـحـي بِـأَسْـوانَ داراً   كـالـثُّـريَّـا تُـريـدُ أنْ تَـنْـقَـضَّـا

يا روزفلت! أيها المنتحي (القاصد) داراً (قصر أنس الوجود) في أسوان كأنها نجوم الثريا توشك أن تنقض على الأرض

اخْلَعِ النَّعلَ واخفِضِ الطَّرْفَ واخشعْ   لا تُـحـاوِلْ مِـنْ آيـةِ الـدَّهـرِ غَـضَّـا

اخلع نعليك احتراماً (كما فعل موسى إذ كلم ربه) واخفض بصرك، ولا تحاول الغض (الانتقاص من) آية الدهر (معجزته)

قِفْ بتلكَ القصورِ في اليَمِّ غَرْقَى   مُمْسِكاً بعضُها مِنَ الذُّعْرِ بَعْضا

هذا الأثر مكون من عدة مبان بعضها فرعوني وبعضها بطلمي، وهي متشابكة متجاورة

كـعَـذارى أَخْـفَـيْـنَ في الـمـاءِ بَضّـاً   سـابـحـاتٍ بـه، وأبـديْـنَ بَـضَّـا

كأن تلك القصور والمياه تغمر أسافلها فتيات سابحات أخفين بضاً (طرياً) من أجسامهن في الماء يسبحن به، وأظهرن بضاً فوق سطح الماء

مُـشْـرِفـاتٍ عـلـى الـزَّوالِ وكـانـتْ   مُـشْـرِفـاتٍ عـلـى الـكـواكـبِ نَـهْـضـا

الآن تشرف (توشك) هذه القصور على الزوال، وكانت في الماضي تشرف (تطل) على الكواكب ناهضة شامخة برؤوسها

شابَ مِنْ حولِها الزمانُ وشابَتْ ... وشبابُ الفنونِ ما زالَ غَضَّا

الزمان شاب والقصور شابت، ولكنها تثبت أن الفن ما زال منتعشاً شاباً غضاً (طري العود)

رُبَّ نَقْشٍ كأنَّما نَفَضَ الصَّا ... نعُ منهُ اليديْنِ بالأمسِ نَفْضا

وضحايا تكادُ تَمشي وتَرعى ... لو أصابتْ مِنْ قدرةِ اللَّهِ نَبْضا

النقوش تصور الحيوانات المذبوحة على المعبد وهي تكاد تمشي لبراعة النحت، وكل ما ينقصها النبض

ومحاريبَ كالبُروجِ بَنَتْها ... عَزَماتٌ مِنْ عَزْمَةِ الجنِّ أمضى

وربَّ محاريب عالية في المعبد بنتها همم أمضى من همة الجن (الذين سخرهم سليمان فبنوا له الصروح ومات وهم في كد وتعب)

سَقَتِ العالمينَ بالسَّعدِ والنحـ ... ـسِ إلى أنْ تعاطَتِ النحسَ مَحْضا

هذه المحاريب كان بيدها، وبيد كهنتها، حظوظ الناس من سعد ونحس، ثم حل بها النحس وزالت قدسيتها

صَنعةٌ تُدهِشُ العقولَ، وفنٌّ ... كان إتقانُهُ على القومِ فَرْضا

وأنا المُحْتَفي بتاريخِ مِصرٍ، ... مَنْ يَصُنْ مجدَ قومِهِ صانَ عِرْضا

١٣٤ تولستوي يلتقي بالمعري

قال شوقي يرثي ليف نيكولايفيتش تولستوي الذي مات في سنة ١٩١٠. ونشرت القصيدة (١٩١١):

تُولِستويُ! تُجْري آيةُ العِلْمِ دمعَها ... عليكَ، ويَبكي بائسٌ وفقيرُ

تبكيك يا تولستوي آية العلم (برهانه) والفقراء الذين تخليت لهم عن أملاكك. لا أدري لماذا بكى العلم تولستوي، إلا إن كان شوقي يعني المعرفة الإنسانية بأوسع مفهوم

إذا أنتَ جاورْتَ المَعَرِّيَّ في الثَّرى ... وجاورَ رَضْوى في الترابِ ثَبِيرُ

إذا جاورت المعري في التراب، كما تجاوَرَ جبلا رضوى وثبير، فأنتما جبلان كبيران من جبال الحكمة، . .

فقُلْ: يا حكيمَ الدَّهرِ حَدِّثْ عنِ البِلَى ... فأنتَ عَليمٌ بالأمورِ خبيرُ

فقل للمعري: حدثنا عن البِلى (تحلل الجسم بعد الدفن) فأنت عليم بالأمور

أرى راحةً بينَ الجنادلِ والحَصى ... وكلُّ فِراشٍ قد أَراحَ وَثيرُ

يقول تولستوي: أرى راحة بين الجنادل (الصخور) والحصى

نَظَرْنا بِنورِ الموتِ كلَّ حقيقةٍ ... وكُنَّا كِلانا في الحياةِ ضَريرُ

الموت لكلينا كان نوراً رأينا فيه الحقائق، وفي الحياة كنا كلانا، وليس أبو العلاء وحده، ضريرين

إليكَ اعترافي لا لِقَسٍّ وكاهنٍ ... ونَجْوايَ بعدَ اللّهِ وَهْوَ غَفورُ

أعترف لك يا أبا العلاء، وليس للقس كما يعترف المسيحيون، وأناجيك أنت بعد مناجاتي لله

فزُهدُكَ لم يُنْكِرْهُ في الأرضِ عارِفٌ ... ولا متعالٍ في السماءِ كبيرُ

وزهدك أقر به العارفون في الأرض، وأقر به رب السماء المتعالي

بيانٌ يُشَمُّ الوحيُ مِنْ نَفَحاتِهِ ... وعِلْمٌ كعلمِ الأنبياءِ غزيرُ

وبيانك يشم المرء منه عطر الوحي، فكأنه من التنزيل، وعلمك غزير كعلم الأنبياء

تُسائِلُنِي هل غيَّرَ الناسُ ما بِهِمْ ... وهل حدثتْ، غيرَ الأمورِ، أمورُ

وإنك لتسألني، أنا القادم عليك بعد ألف سنة من موتك، هل تغير الناس؟

وهل آنَ مِنْ أهلِ الكتابِ تسامُحٌ ... خليقٌ بآدابِ الكتابِ جَديرُ

وهل آن (حان) بين أهل الكتاب (أصحاب الأديان السماوية) وقت التسامح الذي هو خليق (جدير) بالكتاب (الكتب المنزلة)

أُناسٌ كما تدري، ودنيا بحالِها ... ودهرٌ رخيٌّ تارةً، وعسيرُ

الناس كما تعرفهم، والدنيا كما هي، والزمن رخي (فيه رخاء) تارة، وعسير أخرى

وأحوالُ خَلْقٍ غابرٍ متجدِّدٍ ... تشابَهَ فيها أولٌ وأخيرُ

وأحوال الخلق الماضي والمتجدد متشابهة، الأول يشبه الأخير

وقامَ مقامَ الفردِ في كلِّ أمَّةٍ ... على الحُكمِ جَمٌّ يستبِدُّ غفيرُ

وبدل حكم الفرد، قام في كل أمة على شؤون الحكم جم (جمع) غفير يستبد بالأمر

وحُوِّرَ قولُ الناسِ مولىً وعبدُهُ ... إلى قولِهِمْ: مستأجِرٌ وأَجيرُ

وحُوِّر (بُدِّل) قول الناس مولى وعبده (سيد وعبده) إلى قولهم: مستأجِر وأجير

وأضحى نفوذُ المال لا أَمْرَ في الوَرى ... ولا نَهْيَ إلّا ما يَرى ويُشيرُ

وصار لا يوجد أمر أو نهي بين الناس إلا بحسب ما يرى نفوذ المال وما يشير به

١٣٥ أمم الهلال

قال شوقي في مولد هلال العام الهجري الجديد (١٩١١):

أُمَمَ الهلالِ! مقالةٌ مِنْ صادقٍ ... والصدقُ أليَقُ بالرجالِ مَقالا

يا أمم الهلال (والهلال رمز الدولة العثمانية ورمز الإسلام) هذا قول رجل صادق، والصدق أليق بالرجال

مِـنْ عـادةِ الإسـلامِ يـرفـعُ عـامـلاً ... ويُـسَـوِّدُ الـمِـقْـدامَ والـفَـعَّـالا

الإسلام من عادته أن يرفع شأن من يعمل، وأن يسود (يعطي السيادة) الجريء الفعال

ظَـلَـمَـتْـهُ أَلْـسِـنَـةٌ تـؤاخِـذُهُ بِـكُـمْ ... وظَـلَـمْـتُـمـوهُ مُـفَـرِّطِـيـنَ كُـسـالـى

ظلمت الإسلامَ الألسنة التي تؤاخذه بسببكم، وأنتم ظلمتموه بتفريطكم في الحقوق وكسلكم

هـذا هـلالُـكُـمْ تَـكَـفَّـلَ بـالـهُـدى ... هـل تـعـلـمـونَ مَـعَ الـهـلالِ ضَـلالا

هلالكم، رمز دينكم، يكفل لكم الهداية، ولا ضلال مع وجود الهلال (فالسائر ليلاً يهتدي بهلال السماء، وهلال الإسلام يهدي المسلمين)

سَـرَتِ الـحـضـارةُ حِـقْـبَـةً فـي ضـوْئِـهِ ... ومـشـى الـزمـانُ بِـنُـورِهِ مُـخْـتـالا

الحضارة مشت في ضوء الهلال (دولة الإسلام) حقبة، وكان الزمان يمشي بنور هذا الهلال مختالاً (فخوراً)

وبَـنـى لَـهُ الـعَـرَبُ الأجـاوِدُ دولـةً ... كـالـشـمـسِ عَـرشـاً والـنـجـومِ رجـالا

وبنى العرب الأجاود (الكرام) للهلال دولة عرشها (حكومتها) كالشمس، ورجالها (قوادها) كالنجوم

حتى إذا انـقَـسَـمـوا تـقـوَّضَ مُـلْـكُـهُـمْ ... والـمـلـك إنْ بَـطَـلَ الـتـعـاونُ زالا

١٣٦ نعالج الأيام

قال شوقي في ذكرى وفاة بطرس غالي الذي اغتيل عام ١٩١٠، (١٩١١):

الـدِّيـنُ لـلـدَّيَّـانِ جـلَّ جـلالُـهُ ... لـوْ شـاءَ ربُّـكَ وَحَّـدَ الأَقْـوامـا

يا قومُ بانَ الرُّشْدُ فاقْصُوا ما جرى ... وخُذُوا الحقيقةَ وانبُذوا الأَوهاما

ظهر الحق فأقصوا (أبعِدوا) ما جرى من خلاف بين المسلمين والقبط بعد اغتيال بطرس غالي، وافهموا حقائق الوضع وانبذوا التهويل

هـذي ربـوعُـكُـمُ وتـلـكَ ربـوعُـنـا ... مـتـقـابِـلَـيْـنِ نـعـالـجُ الأيَّـامـا

هذي أماكنكم أيها القبط وهذي أماكننا، فنحن نعالج الأيام (نسعى في الدنيا) متقابلين متجاورين

هـذي قـبـورُكُـمُ وتـلـكَ قـبـورُنـا ... مـتـجـاوِرَيْـنِ جَـمـاجِـمـاً وعِـظـامـا

فَـبِـحُـرْمَـةِ الـموتـى وواجـبِ حـقِّـهِـمْ ... عـيـشـوا كـمـا يـقـضـي الـجـوارُ كـرامـا

١٣٧ حشرات الناس

قال شوقي يؤبن عمر لطفي، وهو من رواد النهضة التعاونية في مصر، وله كتب في حق المرأة وحرية المساكن وإنشاء شركات التعاون. (١٩١١):

نَـمْ مـا بَـدا لَـكَ آمِـنـاً فـي مـنـزِلٍ   اَلدهرُ أقصَرُ فيهِ مِنْ سِنَةِ الكَرى

نم كما شئت في منزل (يقصد القبر)، الدهر الطويل فيه أقصر من سنة (غفوة) الكرى (النوم)

لا تَـشْـكُـوَنَّ الـضُّـرَّ مِـنْ حَـشَـراتِـهِ،   حَشَراتُ هذا الناسِ أقبحُ مَنْظرا

لا تَشْكُ الضرّ (الأذى) من حشرات القبر، فحشرات البشر أقبح

لم تَدْرِ نفسُكَ ما الغرورُ، وطالما   دخلَ الغُرورُ على الكبارِ فصَغَّرا

كنت متواضعاً، وكثيراً ما دخل الغرور نفوس الكبار فصغرهم

فـي كُـلِّ نـاحـيـةٍ تَـخُـطُّ نِـقـابَـةً   فيها حياةُ أخي الزراعةِ لو دَرى

في كل ناحية رحت تؤسس نقابات، فيها الحياة لأخي (لصاحب) الزراعة

هـي كـيـمـيـاؤُكَ لا خـرافـةُ جابـرٍ   تَذَرُ المُقِلَّ مِنَ الجماعةِ مُكْثِرا

كيمياؤك (سرُّك/وكانت الكيمياء علماً سرياً هدفه تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب) وليس خرافة جابر بن حيان (الذي مارس الكيمياء) هي التي تترك المقلّ (الفقير) من الجماعة مكثراً (موسراً). وكيمياء عمر لطفي كانت النقابات والعمل الجماعي

والـمـالُ لا تُـجْـبَـى ثِـمـارُ رؤوسِـهِ   حتى يُصيبَ مِنَ الرُّؤوسِ مُدَبِّرا

رؤوس الأموال لا تؤتي ثمارها حتى يصيب (يجد) المال مدبراً له هو عبارة عن رؤوس الناس المبدعين

والـمـلـك بـالأمـوالِ أمـنـعُ جـانـبـاً   وأعـزُّ سـلـطـانـاً وأصـدقُ مَـظْـهَـرا

الملك بوجود الأموال يصبح أحسن تحصيناً وأعز (أقوى) سلطاناً، وأصدق تعبيراً عن حقيقته

إنَّـا لَـفـي زمـنٍ سِـفـاهُ شـعـوبِـهِ   في مُلْكِهِمْ كالمرْءِ في بيتِ الكِرا

نحن في زمنٍ سفاه شعوبه (الشعوب السفيهة الحمقاء) تعيش في بلدانها كالمرء في بيت الكراء (الأجرة)، فهي منقوصة السيادة كالمستأجر

١٣٨ حيلة المصلوب في المسمار

قال شوقي في مؤتمر المستشرقين في أثينا (١٩١٢):

وَثـلاثـةٍ شَـبَّ الـزمـانُ حِـيـالَـهـا   شُـمٌّ عـلـى مَـرِّ الـزمـانِ كِـبـارِ

رُبَّ ثلاثة (الأهرامات الكبرى) شب الزمان (صار شاباً) حيالها (بجانبها) فقد كانت - لقدمها - موجودة والزمان صغير في السن، وهي شمٌّ (شاهقة) وكبيرة على مدى الدهر

مِنْ كلِّ مَرْكوزٍ كَرَضْوَى في الثَّرى   مُتَطاوِلٍ في الجوِّ كالإعصارِ

والواحد منها مركوز (ثابت) كجبل «رضوى» في التراب، وذاهب في السماء صاعد في الأعالي كالإعصار

الجنُّ في جَنَباتِها مَطروفَةٌ   ببدائعِ البَنَّاءِ والحَفَّارِ

الجن (التي كانت بارعة في البناء إذ سخرها سليمان لبناء قصوره) تقف مطروفة (مبهورة) في جنبات الأهرامات لما أبدع البناء والحفار

والأرضُ أضْيَعُ حيلةً في نزعِها   مِنْ حيلةِ المصلوبِ في المِسمارِ

والأرض حيلتها ضائعة (أي أنها عاجزة) في نزع الأهرامات، كحيلة المصلوب في نزع المسمار المدقوق في جسمه

تلكَ القبورُ أَضَنُّ مِنْ غَيْبٍ بِما   أخفتْ مِنَ الأعْلاقِ والأذْخارِ

الأهرامات قبور، وهي أضن (أحفظ) من الغيب (والغيب حافظ كتوم فلا أحد يعرف ما يخبئ) بما أخفته من الأعلاق (الكنوز) والأذخار (الكنوز)

١٣٩ فرحانُ بالحب

قال شوقي (١٩١٢):

بي مثلُ ما بِكِ يا قُمْرِيَّةَ الوادي   ناديتُ ليلي، فقُومِي في الدُّجى نادي

بي مثل ما بك من الحزن يا قمرية (حمامة) الوادي، ناديتُ ليلي (قلت «يا ليل» كالمطربين)، فقومي في الدجى (الليل) نادي

تَذَكَّري قُبْلَةً في الشَّعْرِ حائرةً   أَضَلَّها، فَمَشَتْ في فَرْقِكِ الهادي

يخاطب حبيبته: تذكري قبلة حائرة طبعتها على شعرك فأضلَّها شعرك (أضاع لها طريقها)، ثم مشت في فَرْق الشعر مهتدية بخطه المستقيم

تَذَكَّري مَنظرَ الوادي ومجلِسَنا   على الغديرِ كعُصْفوريْنِ في الوادي

والغصنُ يحْنُو علَيْنا رِقَّةً وَجَوىً   والماءُ في قَدَمَيْنا رائحٌ غادِ

الجوى: العشق. «الماء في قدمينا رائح غاد»، هذا من نحاس شوقي المطلي بالذهب. فالعبارة ذات رنة حلوة. لكنْ تخيل كيف يروح الماء ويجيء في اتجاهين تر الصورة اهتزت، فكأن شوقي وحبيبته كانا يغمسان أقدامهما في حوض غسالة نصف أوتوماتيك لا في جدول يسير باتجاه واحد ككل جداول رب العالمين. على أن المطلي بالذهب يسر العين، وكذا بيت شوقي فهو يسر الأذن

تَذَكَّري مَوْعِداً جادَ الزمانُ به   هلْ طِرْتُ شوقاً، وهل سابقتُ مِيعادي

فنلتُ ما نلتُ من سُؤْلٍ ومِنْ أملٍ   ورُحْتُ لم أُحْصِ أفراحي وأعيادي

سؤل: مطلب

١٤٠ متقمصاً البحتري

قال شوقي في مهرجان جمعية الهلال الأحمر (١٩١٢):

جِبْريلُ هَلِّلْ في السماءِ وكَبِّرِ واكتُبْ ثوابَ المحسنينَ وسَطِّرِ

يا جبريل هلل (قل لا إله إلا الله) في السماء وكبر (قل الله أكبر)، وسجل الثواب للمحسنين

وادعُ الذي جعلَ الهلالَ شعارَهُ يفتحْ على أُمَمِ الهلالِ ويَنْصُرِ

وادع الله الذي جعل الهلال شعاراً له (للإسلام) أن يفتح على أمم الإسلام بالنصر

يا مِهْرجانَ البِرِّ أنتَ تحيةٌ للَّهِ مِنْ مَلأٍ كريمٍ خَيِّرِ

يا مهرجان البر (الخير) أنت تحية للخالق من ملأ (جمْع) كريم خيِّر

يا بنتَ إلهامِي دُعاءُ مُعَظِّمٍ لسماءِ عِزِّكِ في البَرِيَّةِ مُكْبِرِ

يا بنت إلهامي (أم الخديوي عباس حلمي) هذا الدعاء الذي يدعو به المهرجان هو دعاء من يعظم سماء عزك في البرية (بين الناس) ودعاء من يُكْبِرُكِ

أحييْتِ، في فضلِ الملوكِ وعزِّهِمْ، ما ماتَ مِنْ أمِّ الخليفةِ جعفرِ

أحييتِ في جانب فضل الملوك وكرمهم وعزهم ما ذهب زمنه من أعمال الخير التي قامت بها أمُّ الخليفة جعفر (المتوكل)

إنَّ الذي قد ردَّها وأعادَها في بُرْدَتَيْكِ أعادَ فِيَّ البُحْتُري

اللهُ الذي أحيا ذكرها في بُردتيك (في ثوبيك، أي ممثلاً فيك) أعاد في شخْصي ذكرَ الشاعر البحتري

فنظمْتُ ما نثرتْ يمينُكِ شاكراً لا يَحْسُنُ الإحسانُ ما لم يُشْكَرِ

فأنا نظمت شعراً ما نثرته يمينك من مال وأنا لك شاكر، والإحسان لا يكون جميلاً إن لم يرافقه الشكر

١٤١ ولد الهدى

في ذكرى المولد النبوي (١٩١٢):

وُلِدَ الهدى، فالكائناتُ ضياءُ وفمُ الزمانِ تبسُّمٌ وثناءُ

زانَتْكَ في الخُلُقِ العَظيمِ شَمائلٌ يُغرَى بهنّ ويُولَعُ الكُرماءُ

يا رسول الله زانتك (زينتك) في خلقك العظيم شمائل (خصال) يُغرى (يُحس بالإغراء) الكرام باتباعها، ويولَعون بها

وإذا رحِمتَ فأنت أمٌّ أو أبٌ هذانِ في الدنيا هما الرُّحماءُ

وإذا حَمَيْتَ الماءَ لم يُورَدْ، ولو أنَّ القياصرَ والملوكَ ظِماءُ

إذا حميت الماء (منعته) لم يرده أحد، ولو أن القياصرة والملوك ظماء (عِطاش)

في كلِّ نفسٌ من سُطاكَ مهابةٌ ولكلِّ نفسٍ في نداكَ رجاءُ

سطاك (سطوتك)، نداك (كرمك)

١٤٢ ردت الروح

قال شوقي يحيي المطربة ليلى لزمي (١٩١٢):

رُدَّتِ الرُّوحُ على المُضنى مَعَكْ أحسنُ الأيَّامِ يومٌ أَرْجَعَكْ

بعودتك يا حبيبي ردت الروح على المضنى (المتعب) معك، وأجمل يوم هو الذي رجعت فيه

مَوْقِعي عندَكَ لا أَعْلَمُهُ آهِ لو تَعْلَمُ عندي موقِعَكْ

١٤٣ عشوائية النبوغ

قال شوقي في جماعة رعاية الطفل (١٩١٢):

خَلَقَ اللَّهُ جُماناً وحَصىً خالقُ الإنسانِ مِنْ ماءٍ وطِينْ

خلق الله الناس جماناً (لؤلؤاً) وحصى فمنهم النابغ والخامل، مع أن الله خلق كل إنسان من ماء وطين

ولأَمْرٍ مَّا، وسِرٌّ غامِضٍ تَسْعَدُ النُّطْفَةُ أو يَشْقَى الجَنينْ

لأمر ما تسعد (تنال الحظ السعيد) النطفة (أصل الجنين) أو يشقى الجنين، يقول إن المستقبل المكتوب سعداً أو شقاء للإنسان قبل ولادته سر غامض

رُبَّ مهدٍ أَزْرَتِ البُؤْسى به فيهِ كَنْزٌ خَبَّأَ الغيبُ ثَمينْ

فهناك مهد أزرت البؤسى به (عابه البؤس) فيه طفل هو كنز ثمين خبّأه الغيب

مُرْضَعٌ يَقْطُرُ بُؤْساً يومُهُ مُغْدِقُ النُّعمَى غداً في العالَمينْ

هذا الطفل المرضَع (الرضيع) يومه مليء بالبؤس، وهو نفسه سيصبح مُغدِقاً النعيمَ في الغد على العالم

أو طويلُ الصمتِ أَعمى في الصِّبا بينَ بُرْدَيْهِ المَعَرِّيُّ المُبينْ

أو يكون صبياً طويل الصمت وأعمى، ولكن بين برديه (في ثوبه/أي هو نفسه) معريُّ المستقبل المبين (البليغ)

١٤٤ لا وجدان للبخيل

قال شوقي (١٩١٢):

إنَّ الحياةَ نهارٌ أو سحابَتُهُ فعِشْ نهارَكَ مِنْ دنياكَ إنسانا

الحياة كالنهار (سريعة الزوال) أو كسحابة النهار (وسحاب النهار سريع الانقشاع)، فعش هذا النهار من دنياك إنساناً

أرى الكريمَ بِوجدانٍ وعاطفةٍ ولا أرى لِبخيلِ القومِ وِجْدانا

لم أجد شعراً قسا على البخيل قسوة هذا البيت: البخيل لا وجدان له. والبخلاء عندي نوعان: بخيل كمريض الفصام، الذي يعرف أنه مريض، فيداري مرضه ويتكارم متكلفاً؛ وبخيل كمريض الذهان (البارانويا) الذي تتحطم دفاعاته النفسية ولا يعود يعترف بمرضه؛ فهو يرى كل الناس مسرفين مجانين ولا يقدر يفهم كيف ينفق الواحد من ماله دريهماً، وأنا مشفق عليهما كليهما

١٤٥ أخت الأندلس

قال شوقي في استيلاء البلغار على أدرنة من الدولة العثمانية (١٩١٢):

يا أخْتَ أندلُسٍ! عليكِ سَلامُ هَوَتِ الخلافةُ عنكِ والإسلامُ

يا أدرنة، يا أخت الأندلس (التي سقطت وزال عنها حكم الإسلام) عليك سلام، قد هوت (سقطت) الخلافة والإسلام عنك. ما أكثر ما في عبارة «أخت أندلس» هذه من إيجاز. ففيها موقف إسلامي، وفيها تفجع وفيها إبلاغ بسقوط المنطقة

نَزلَ الهلالُ عنِ السماءِ، فليتَها طُوِيَتْ وعَمَّ العالَمِينَ ظلامُ

الهلال (وهو الشعار على علم الدولة العثمانية) نزل عن سمائك يا أَدِرْنة بعد أن كان يرفرف فيها، فليت السماء طويت (كما ستطوى يوم القيامة) وعم الظلام العالم

واليومَ حُكْمُ اللَّهِ في مَقدونِيا لا نَقْضَ فيهِ لنا ولا إبرامُ

واليوم حكم الله في مقدونيا غير موجود، ولا نقض ولا إبرام (لا حل ولا عقد) لنا هناك

ومسيْطرِينَ على الممالِكِ سُخِّرَتْ لهُمُ الشعوبُ كأنَّها أنعامُ

رب مسيطرين على الممالك (ملوك أوروبا) سُخِّرتْ لهم الشعوب كأنها الأنعام (المواشي)

مِنْ كلِّ جزَّارٍ يرومُ الصَّدْرَ في نادي الملوكِ، وجدُّهُ غَنَّامُ

كل واحد منهم جزار في جلافته، ويروم (يطلب) التصدر في نادي (مؤتمر) الملوك، بينما كان جده غنّاماً (راعياً)

سِكِّينُهُ ويَمينُهُ وحِزامَهُ والصَّوْلَجانُ جميعُها آثامُ

هذا الملك الأوروبي سكينه ويده وحزامه وصولجانه (عصا الملك) كلها ملطخة بالآثام

عيسى ! سبيلُكَ رحمةٌ ومحبةٌ   في العالَمِينَ وعِصْمَةٌ وسلامُ

يا عيسى! نهجك رحمة ومحبة في الدنيا وأهلها وعصمة من الخطأ وسلام

ما كنتَ سفَّاكَ الدِّماءِ، ولا امْرَأً   هانَ الضِّعافُ عليهِ والأيْتامُ

يا حاملَ الآلامِ عن هذا الوَرى   كَثُرَتْ عليهِ باسمِكَ الآلامُ

يا حامل آلام الورى (الناس)، كثرت الآلام على الورى باسمك (باسم الدين ناصر الأوروبيون رعايا الدولة العثمانية المسيحيين في ثوراتهم على إستانبول)

أنتَ الذي جعلَ العِبادَ جميعَهُمْ   رَحِماً، وباسْمِكَ تُقطَعُ الأرحامُ

أنت يا عيسى جعلت الناس جميعاً رحماً (أقارب)، والآن باسمك تقطع الأرحام ويتم تهجير الناس وتبديد شملهم. التسويد من عمران القفيني

واليومَ يَهْتِفُ بالصليبِ عَصائِبٌ   هُمْ لِلإلهِ ورُوحِهِ ظُلَّامُ

اليوم تنادي عصائب (جماعات) باسم الصليب، وهم ظالمون لله ولروح الله (عيسى)

خَلَطوا صليبَكَ والخناجرَ والمُدَى   كلٌّ أداةٌ للأذى وحِمامُ

جعلوا صليبك أداة حرب وسياسة.. مع الخناجر والمدى (السكاكين)، وبها جميعاً أوقعوا الأذى والحمام (الموت)

أَوَما تَراهُمْ ذَبَّحوا جيرانَهُمْ   بينَ البيوتِ كأنَّهُمْ أغنامُ

كَمْ مُرْضَعٍ في حِجْرِ نِعمتِهِ غدا   ولهُ على حدِّ السيوفِ فِطامُ

كم طفل مرضَع (رضيع) في حجر (حضن) النعمة والرزق أصبح مفطوماً بحد السيف

وصَبِيَّةٍ هُتِكَتْ خميلةُ طُهرِها   وتناثرتْ عنْ نَوْرِهِ الأكمامُ

وكم صبية هُتكت خميلة (روضة) طهرها، وتناثرت عن نُوَّار هذا الطهر البتلات (كما تناثر ورق الورد)، هذا التشبيه المزدوج، الذي أعجب شكيب أرسلان، كناية عن تعرض الفتيات للاغتصاب. يقول شكيب أرسلان: «تقضي أمانة التاريخ أن نذكر كون الجيش الصربي تجنب الآثام في معاملة المسلمين أكثر من الجيشين البلغاري واليوناني». وتقضي أمانة التاريخ علينا أن نذكر أن الصرب في تسعينات القرن العشرين ارتكبوا ضد مسلمي البوسنة أفظع المذابح، واغتصبوا النساء بوحشية

وأخي ثمانينَ استُبيحَ وَقارُهُ   لم يُغْنِ عنهُ الضَّعفُ والأعوامُ

ورب شيخ ثمانيني انتُهك وقاره، ولم يشفع له ضعفه وعمره

ومهاجِرِينَ تنكَّرتْ أوطانُهُمْ ضلُّوا السبيلَ مِنَ الذُّهولِ وهاموا

وربِّ مهاجرين تنكرت أوطانهم (تغيرت معالمها) ضلوا سبيلهم وهاموا. يقول شكيب أرسلان، وكان عضواً في لجنة الإعانات المصرية لمنكوبي الأزمة: «بلغ عدد الذين هاجروا من مسلمي البلقان مئة وخمسين ألف نسمة دخلوا الآستانة حتى غصت بهم الجوامع والمدارس، وكان ذلك في قلب الشتاء، وفشت فيهم الكوليرة».

السيفُ إنْ رَكِبوا الفِرارَ سبيلُهُمْ والنِّطْعُ إنْ طلبوا القَرارَ مُقامُ

فإذا فروا فالسيف سبيلهم، وإذا اختاروا الإقامة فلهم النطع (البساط الجلدي يفرش تحت السياف وضحيته)

يَتَلَفَّتونَ مُوَدِّعينَ ديارَهُمْ واللحْظُ ماءٌ، والدِّيارُ ضِرامُ

يتلفتون لإلقاء نظرة وداع على ديارهم، واللحظ (العين) دموع، والديار ضرام (نار) لأن المحتلين أحرقوها

يا أُمَّةً بِفَرُوقَ فَرَّقَ بينَهُمْ قَدَرٌ تَطيشُ - إذا أَتى - الأحلامُ

يا أمة بفروق (إستانبول) فرق بينهم قدر تطيش الأحلام (العقول) إذا أتى، (فروق هي إستانبول، وكأنها لم يكفها أن سميت ببيزنطة، والقسطنطينية، والآستانة، وإستانبول، فها اسم خامس، وأطرف أسمائها «تخت الروم»)

فيمَ التخاذُلُ بينَكُمْ، ووراءَكُمْ أُمَمٌ تُضاعُ حقوقُها وتُضامُ

لماذا التخاذل بينكم (تقاعس بعضكم عن نجدة بعض)، ووراءكم أمم تُضاع حقوقها وتضام (تُظلَم)

هذا جَناهُ عليكُمُ آباؤُكُمْ، صبراً وصفْحاً فالجُناةُ كِرامُ

هذا سبَّبه لكم بناة الدولة الأوائل، فصبراً وغفراً لهم فهؤلاء الجناة كرام

رَفَعوا على السَّيفِ البناءَ فلمْ يَدُمْ؛ ما لِلبِناءِ على السيوفِ دوامُ

بنوا الدولة على القوة العسكرية فليس لها دوام

أبقى الممالِكِ ما المعارفُ أُسُّهُ والعدلُ فيهِ حائِطٌ ودِعامُ

أكثر الممالك بقاء وصموداً ما أساسه العلم، وما يدعمه العدل

فإذا جرى رُشْداً ويُمْناً أمرُكُمْ فامْشُوا بنورِ العلمِ فَهْو زمامُ

فإذا وفقتم بعد هذه الأزمة فاستنيروا بالعلم فهو الزمام (المقود) الذي يقودكم إلى الأمان

ودَعوا التفاخُرَ بالتُّراثِ وإنْ غلا فالمجدُ كَسْبٌ، والزمانُ عِصامُ

واتركوا التفاخر بالتراث (ما ورثتموه عن الأجداد)، فالمجد الحق مكتسب لا موروث، والزمان عصامي (أي هو لمن يصنع نفسه بنفسه)

صبراً أَدِرْنَةَ! كلُّ مُلْكٍ زائلٌ   يوماً، ويبقى المالِكُ العَلّامُ

فصبراً يا أدرْنة، فكل ملك زائل يوماً، والبقاء لله

١٤٦ الحب كل صبابة بمذاق

قال شوقي (١٩١٢):

ولقد يقولُ ابنايَ في نَجواهُما   ماذا يُكابِدُ في النَّوى ويُلاقي

يتعجب ولداي في نجواهما (تهامسهما) لما أكابده (أعانيه) في النوى (الفراق)

ولديَّ! مصرُ لها، كما لَكُما، هَوىً   والحُبُّ كلُّ صبابةٍ بِمَذاقِ

فيا ولديَّ، مصر لها حب في قلبي كحبي لكما، والحب هكذا: لكل صبابة (شغف) مذاق مختلف

١٤٧ نكبة بيروت

قال شوقي يرثي بيروت بعدما أنزله بها الأسطول الإيطالي. وبعد هذا القصف صار أهل بيروت يرجعون سبب كل مشكلة إلى القصف الإيطالي، ومن هنا المثل اللبناني «كل الحق ع الطليان» (١٩١٢):

بيروتُ ماتَ الأُسْدُ حتفَ أُنوفِهِمْ   لم يَشهَروا سيْفاً، ولم يَحموكِ

مات أبناؤك الأسود حتف أنوفهم (بلا قتال)، إذ لم يتح لهم أن يقاتلوا عنك

كلٌّ يَصيدُ الليثَ وَهْوَ مُقَيَّدٌ   ويَعِزُّ صيدُ الضَّيْغَمِ المَفْكوكِ

بإمكان كل واحد أن يصيد الأسد المقيد، ويعز (يصعب) صيد الضيغم (الأسد) الطليق

سالتْ دماءٌ فيكِ حولَ مساجدٍ   وكنائسٍ ومدارسٍ وبُنوكِ

تعليق عمران القفيني: «جاءت بنوك ههنا كأنها مخلوق فضائي نزل من المريخ، وهبط بجانب مسجد بعد صلاة الجمعة وتحلق الناس حوله ينظرون إليه مندهشين».
وتعليقي: «أحياناً أختار أبياتاً لا لون لها ولا طعم ولا رائحة. وعندما أمر بها شارحاً أو مشكِّلاً ـ وأنا قد قلت لك مراراً إنني أشكل كل كلمة بيدي حتى تعرف مقدار ما أنفقه من نور عينيَّ عليك يا قارئ ـ أقول في نفسي: ما أسخف هذا البيت! ثم لا تواتيني الشجاعة كي أحذفه. أعود وأقول: لا أريد تشويه الحالة الشعورية التي كنت فيها عندما اخترته أول مرة. وأمر بالبيت السخيف ثالثة، وربما رابعةً، ويصبح ـ ويا للعجب ـ كأنه طفل مشوه رزقته، فأنا أحمد الله عليه، وأدعوه أن يرزقني به رزقاً وفيراً. فكيف إذا كان في هذا البيت «بُنوك» حشو خزائنها مال وفير؟»

لَكِ في رُبا النيلِ المبارَكِ جِيرَةٌ   لو يَقْدِرونَ بدمعِهِمْ غَسَلوكِ

أبناء مصر لو تمكنوا لغسلوك بدموعهم لشدة حزنهم عليك

١٤٨ ميثاق الغواني

قال شوقي (١٩١٣):

ذُقْتُ مِنها حُلواً ومُرَّاً وكانتْ   لَذَّةُ العِشْقِ في اختلافِ المَذاقِ

ضربَتْ موعداً فلما التقيْنا   جانَبَتْني، تقولُ: فيمَ التَّلاقي

قلتُ: ما هكذا المواثيقُ، قالتْ:   ليسَ لِلغانياتِ مِنْ ميثاقِ

١٤٩ إن السيوف قليل

قال شوقي، ويذكر عزيز المصري واعتقال الحكومة التركية له، (١٩١٤):

اللَّهُ يعلمُ أنَّ في خُلَفائِهِ   عدلاً يُقيمُ المُلكَ حينَ يميلُ

والعدلُ يَرفعُ للممالِكِ حائطاً   لا الجيشُ يرفعُهُ ولا الأُسطولُ

باللَّهِ، بالإسلامِ، بالجرحِ الذي   ما انفكَّ في جَنْبِ الهلالِ يسيلُ

أستحلفك بالله، بالإسلام، بالجرح في جنب (خاصرة) الهلال (شعار الدولة العثمانية) الذي ما انفك يسيل منه الدم

هلَّا حَلَلْتَ عنِ السجينِ وِثاقَهُ   إنَّ الوِثاقَ على الأُسودِ ثَقيلُ

أيقولُ واشٍ أو يرِدِّدُ شامتٌ   صنديدُ بُرقةَ مُوثَقٌ مَكْبولُ

أتترك الواشي والشامت يقولان إن صنديد (بطل) برقة (وكان عزيز المصري قد حارب الإيطاليين الغزاة في برقة بليبيا قبل القصيدة بنحو ثلاث سنين ثم حكم عليه في إستانبول بالإعدام لدوره في الحركة العربية، وألغي الحكم) موثق (مقيد) مكبول (مقيد)

فاذكرْ أميرَ المؤمنينَ بلاءَهُ   واستَبْقِه، إنَّ السيوفَ قليلُ

فاذكر جهاده، واستبقه (دعه يبقى ليخدمك) يا أمير المؤمنين (السلطان محمد رشاد) فالرجال الذين هم سيوف قلة

١٥٠ صناديق بأقفال

قال شوقي يرثي جرجي زيدان (١٩١٤):

لا تجعلوا الدِّينَ بابَ الشرِّ بينَكُمُ   ولا مَحَلَّ مُباهاةٍ وإدْلالِ

إدلال: زهو

ما الدِّين إلَّا تُراثُ الناسِ قبلَكُمُ   كلُّ امرِئٍ لأَبيهِ تابعٌ تالِ

لِي دولةُ الشعرِ دونَ العَصْرِ وائلةٌ   مَفاخِري حِكَمِي فيها وأَمثالي

المعنى الذي ألمحه: لي دولة الشعر وائلة (راجعة/ فأنا مؤئلها) دون عصري كله، ومفاخري فيها الحكم والأمثال الموجودة في شعري

وأشكُرُ الصُّنْعَ في سِرِّي وفي عَلَني   إنَّ الصنائِعَ تزْكُو عندَ أمثالي

أشكر الصنع (المعروف) سراً وعلانية، والمعروف يزكو (يطيب) عند أمثالي

وأَتْرُكُ الغيبَ للّهِ العليمِ به   إنَّ الغيوبَ صناديقٌ بأقفالِ

بيت فيه من قعقعة اللفظ ما جعلني أسوِّده لك. فأما معناه فلا أكثر من وصف الناس عندنا للمستقبل بأنه: «بطيخة مسكرة» أي مقفلة

١٥١ أمة واحدة

قال شوقي في تكريم واصف بن بطرس غالي (١٩١٤):

رُبَّ مدْحٍ أذاعَ في الناسِ فضلاً   وأَتاهُمْ بِقُدْوَةٍ ومِثالِ

رب مدح نشر في الناس ذكر الفضل، وأعطاهم قدوة حسنة

وثناءٍ على فَتى عَمَّ قوماً   قيمةُ العِقْدِ حُسْنُ بعضِ اللآلي

ورب ثناء على رجل كان ثناء على قومه، فالعقد ثمين ببعض لآلئه، فهي تجمل غيرها

إنَّما نحنُ، مسلمينَ وقِبْطاً،   أمةٌ وُحِّدَتْ على الأجيالِ

سبقَ النيلُ بالأُبُوَّةِ فينا   فَهْوَ أصلٌ وآدمُ الجدُّ تالِ

النيل سبق غيره في الأبوة لنا، وتلاه جدنا آدم أباً لاحقاً

نحنُ مِنْ طينِهِ الكريمِ على اللـ   ـهِ، ومِنْ مائِهِ القَرَاحِ الزُّلالِ

نحن من طين النيل المكرم لدى الله، وحياتنا هي بسبب مائه القراح (الصافي) الزلال (العذب)

مَرَّ ما مَرَّ مِنْ قرونٍ علينا   رُسَّفاً في القُيودِ والأَغلالِ

رُسَّفٌ: ماشون مقيدين

وانقضى الدهرُ بينَ زغْرَدَةِ العُرْ   سِ وحَشْوِ الترابِ والإعْوالِ

طول الزمن ونحن بين زغردة عرس وبين حشو (نثر) التراب على الرؤوس والإعوال (النوح)

ما تَحَلَّى بِكُمْ يسوعُ، ولا كُنـ   ـا لِطَهَ ودينِهِ بِجَمالِ

لا يسوع ازدان بكم، ولا نحن ازدان بنا الرسول ودينه

وتُضاعُ البلادُ بالنَّومِ عنها   وتُضاعُ الأُمورُ بالإهمالِ

١٥٢ سلوا قلبي

قال شوقي في ذكرى المولد (١٩١٤):

سلوا قلبي، غداةَ سلا وتابا   لعلَّ على الجَمالِ لهُ عِتابا

أيها العاذلون اسألوا قلبي بعد أن سلا (نسي) وتاب عن الحب، فلعل لقلبي عَتْباً على جمال المحبوب لكثرة ما عذب هذا الجمال قلبي

ويُسْأَلُ في الحوادثِ ذو صوابٍ   فهل تَرَكَ الجَمالُ لهُ صوابا

والذي يُسأل في الشؤون المهمة هو الذي لديه صواب (عقل)، فهل ترك الجمال لقلبي صواباً (عقلاً)؟

وكنتُ إذا سألتُ القلبَ يوماً   تولَّى الدمعُ عن قلبي الجوابا

وكنت كلما سألت قلبي عن السلو ونسيان المحبوب، بكيت وتولى (تكفل) دمعي الجواب بدلاً من قلبي

ولي بينَ الضُّلوعِ دَمٌ ولحمٌ   هما الواهي الذي ثَكِلَ الشبابا

ولي بين ضلوعي دم ولحم هما عبارة عن قلبي الواهي (الضعيف) لأنه ثكل (عدِم) الشباب

تسرَّبَ في الدموعِ فقلتُ ولَّى   وصفَّقَ في الضلوعِ فقلتُ ثابا

تسرب قلبي من خلال دموعي، فحسبته ولى (ذهب)، ثم صفق (خفق) في ضلوعي فقلت: قد ثاب (رجع)

ولوْ خُلِقَتْ قلوبٌ من حديدٍ   لما حَملتْ كما حَمَلَ العذابا

وكلُّ بِساطِ عَيْشٍ سوفَ يُطْوى   وإنْ طالَ الزَّمانُ بِهِ وطابا

ولا يُنبيكَ عنْ خُلُقِ الليالي   كَمَنْ فَقَدَ الأحِبَّةَ والصِّحابا

لا يخبرك عن خلق (طبع) الليالي (الزمن)، مثل الذي فقد أحبابه وأصحابه

أخا الدنيا! أرى دنياكَ أفعى   تُبَدِّلُ كلَّ آونةٍ إهابا

يا أخا الدنيا (صاحبها) أرى دنياك أفعى تبدل كل آونة (حين) إهابا (جلداً)

فمَنْ يغترَّ بالدنيا فإنِّي   لبِستُ بها فأَبليْتُ الثيابا

فلمن يغتر بالدنيا أقول إنني جربت أحوالها كمن يلبس ثوباً بعد ثوب، وقد أبليت (هَرَأْتُ) الثياب

لها ضَحِكُ القِيانِ إلى غبيٍّ   ولي ضَحِكُ اللبيبِ إذا تغابى

تضحك الدنيا ضحكاً مصطنعاً كما تضحك القيان (مغنيات المجالس) للغبي، ولي أنا ضحك اللبيب (العاقل) عندما يتغابى (يدعي الغباء)

جَنَيْتُ بِرَوْضِها ورداً وشَوْكاً　　وذقتُ بكأسِها شَهداً وصابا

جنيت في بستان الدنيا الورد والشوك، وذقت بكأسها الشهد والصاب (عصير شجر الصاب المر)

فلمْ أَرَ غيرَ حُكْمِ اللَّهِ حُكْماً　　ولم أَرَ دونَ بابِ اللَّهِ بابا

ولم أَرَ مثلَ جمْعِ المالِ داءً　　ولا مثلَ البخيلِ بِهِ مُصابا

وسوَّى اللَّهُ بينَكُمُ المنايا　　ووسَّدَكُمْ مَعَ الرُّسُلِ التُّرابا

سوى الله (وزع بالتساوي) بينكم المنايا (الموت)، ووسدكم (مدَّدكم) مع الرسل في التراب.
والموت نعمة نفسية لأنه يجعل القهر محدوداً بحد، وفي البيت حوْم على هذا المعنى

وأرسلَ عائلاً منكمْ يتيماً　　دنا من ذي الجلالِ فكانَ قابا

وأرسل الله من البشر عائلاً (فقيراً/ هو النبي كما وصفه القرآن) يتيماً، دنا من الله فكان قاب..
(قريباً جداً: قاب قوسين)

وكان بيانُهُ للحقِّ سُبْلاً　　وكانتْ خيلُهُ للحقِّ غابا

وكان بيان (بلاغة) الرسول سُبُلاً (طُرُقاً) للحق، وكانت خيوله غابة يحتمي فيها الحق

وعلَّمَنا بناءَ المجدِ حتَّى　　أَخذْنا إمْرَةَ الأرضِ اغتصابا

وما نَيْلُ المَطالبِ بالتمنِّي　　ولكنْ تُؤْخذُ الدنيا غِلابا

غلاباً: انتزاعاً

وما استعصى على قومٍ مَنالُ　　إذا الإقدامُ كان لهمْ رِكابا

ما استعصى على قوم منال (هدف) إذا كان الإقدام (الشجاعة) ركابهم (وسيلة ركوبهم/ فالناقة ركاب)

أبا الزَّهراءِ قدْ جاوزتُ قدري　　بمدحِكَ بَيْدَ أنَّ لِيَ انتسابا

يا محمد، يا أبا فاطمة الزهراء، تجاوزت قدري بأن مدحتك، إلا أن لي انتساباً (صلة) بك؛
والصلة هي البلاغة التي لي منها نصيب

فما عرفَ البلاغةَ ذو بيانٍ　　إذا لمْ يتَّخِذْكَ لَهُ كتابا

ولا يعرف البلاغة صاحب بيان إلا إذا جعلك له كتاباً يستمد منه

مَدحتُ المالكينَ فزِدْتُ قَدْراً　　فحينَ مدحتُكَ اقتَدْتُ السَّحابا

مدحت المالكين (الملوك) فارتفع قدري، وحين مدحتك انتشيت حتى لقد اقتدت (وجَّهت) السحب

سـأَلـتُ الـلَّـهَ فـي أبـنـاءِ ديـنـي   فـإنْ تَـكُـنِ الـوسـيـلـةَ لـي أجـابـا

طلبت من الله الرفق بأبناء ديني، فإن تكن يا رسول الله وسيلتي لهذا الطلب فهو سيجيبني. «كلَّمته في فلان» في الأساليب القديمة معناها «توسطت لفلان»، ومثلها هنا «سألت الله في أبناء ديني» وقد يكون شوقي قاس عليها قياساً جميلاً أو يكون أخذها عن كاتب قبله؛ وما أكثر ما عند شوقي من هذه الأساليب، وما أحسن ما يستعملها!

ومـا لِـلـمـسـلـمـيـنَ سـواكَ حِـصْـنٌ   إذا مـا الـضُّـرُّ مَـسَّـهُـمُ ونـابـا

وليس للمسلمين حصن سواك يا محمد إذا مسهم (حل بهم) الضر (الأذى) ونابهم (انتابهم)

١٥٣ الباكياتك حين ينقطع البكا

قال شوقي يرثي مصطفى فهمي باشا (١٩١٤):

أأبـا الـبـنـاتِ! رُزِقْـتَـهُـنَّ كَـرائـمـاً   ورُزِقـتَ فـي أصـهـارِكَ الـكُـرمـاءِ

يا أبا البنات قد رزقتهن كريمات، ورزقت رزقاً آخر يتمثل في أزواجهن الكرماء

إن الـبـنـاتِ ذخـائـرٌ مِـنْ رحـمـةٍ   وكـنـوزُ حـبٍّ صـادقٍ ووفـاءِ

البنات ذخائر (كنوز) من الرحمة..

والـسـاهـراتُ لـعِـلَّـةٍ أو كَـبْـرَةٍ   والـصـابـراتُ لـشِـدَّةٍ وبـلاءِ

وهن الساهرات عليك لعلة (لمرض) تحيق بك أو كبرة (شيخوخة)..

والـبـاكـيـاتُـكَ حـيـنَ يـنـقـطـعُ الـبُـكـا   والـزائـراتُـكَ فـي الـعَـراءِ الـنَّـائـي

وهن الباكيات إياك حين تجف دموع الآخرين، والزائرات إياك في العراء النائي (البرية البعيدة.. في مكان دفنك)

عُـذْراً لـهُـنَّ إذا ذهـبـنَ مـع الأسـى   وطـلـبـنَ عـنـد الـدمـعِ بـعـضَ عـزاءِ

اطلب لهن العذر إذا ذهبن مع الأسى (الحزن)، وطلبن العزاء بذرف الدموع

مـا كـلُّ ذي ولـدٍ يـسـمَّـى والـداً   كـمْ مِـنْ أبٍ كـالـصـخـرةِ الـصـمَّـاءِ

لكن الأب نفسه قد لا يكون جديراً بالأبوة، فمن الآباء من هو كالصخرة الصماء (الصلبة)

١٥٤ أسخطوا الله ولم يرضوا البشر

قال شوقي ينعى على الطلبة جنوحهم للانتحار (١٩١٥):

روِّحـوا الـقـلـبَ بـلَـذَّاتِ الـصِّـبـا   فـكَـفـى الـشَّـيْـبُ مـجـالاً لـلـكَـدَرْ

روِّحوا القلب (رفِّهوا عنه) بمتع الشباب، ففي المشيب الذي سيحل بكم ما يكفي من الكدر (الكآبة)

واطلبوا العلمَ لِذاتِ العلمِ، لا   لـلـشـهـاداتِ وآرابٍ أُخَـرْ

اطلبوا العلم لذاته، لا للشهادات وللآراب (الأهداف) الأخرى

كـمْ غـلامٍ خـامـلٍ فـي درسِـهِ   صـارَ بـحرَ الـعـلـمِ أسـتـاذَ الـعُـصُرْ

كثيراً ما نجد صبِّياً خاملاً في دروس المدرسة، ثم إذا به يصير بحر العلم وأستاذ العُصُر (الزمن)

ومُـجِـدٌّ فـيـهِ أمـسـى خـامـلاً   ليس فيمنْ غابَ أو فيمنْ حَضَرْ

وكثيراً ما نجد مجتهداً في الدرس صار خاملاً.. لا هو معدود في الغائبين ولا في الحاضرين

قـاتِـلُ الـنـفـسِ، ولـو كـانـتْ لَـهُ،   أَسْـخَـطَ الـلَّـهَ ولـم يُـرْضِ الـبَـشَـرْ

والمنتحر ـ وإن تكن نفسه ملكه ـ يسخط الله، ولا يرضي البشر

١٥٥ أخت الحوت

قال شوقي في إغراق غواصة ألمانية الباخرةَ لوزيتانيا (أغرقت ١٩١٥):

ودَبَّـابـةٍ تـحـتَ الـعُـبـابِ بِـمَـكْـمَـنٍ   أمينٍ، تَرى السَّاري وليسَ يَراها

ربَّ دبَّابة (بهيمة تدبُّ).. لكنها تدب تحت العباب (الموج) في مكمن (مخبأ) أمين، ترى الساري (السائر) ولا يراها

وكانت الدبابة، ذلك السلاح، اختراعاً جديداً في عام ١٩١٥، ورآها العرب في بلادهم مع قدوم جيوش الاستعمار بعد سنة ١٩١٨، ووصفها شوقي في رثائه عمر المختار ١٩٣١ وسماها بالاسم الإنجليزي «التنك»، واستخدم اللفظ نفسه «التنك» الشاعر القروي عام ١٩٢٥ في وصف هجوم سلطان باشا الأطرش على التنك الفرنساوي. فدبَّابة شوقي في هذا البيت ليست ذلك «السلاح المعروف» كما قال بعض الشارحين

هِيَ الحوتُ، أو في الحوتِ مِنْها مَشَابِهٌ   فَـلَـوْ كـانَ فُـولاذاً لـكـانَ أخـاهـا

هي الحوت، أو لنقل: في الحوت منها مشابه (مواضع شبه)، فلو كان جسم الحوت من الفولاذ لكان أخاها

خؤونٌ إذا غاصتْ، غَدُورٌ إذا طَفَتْ   مُـلَـعَّـنَـةٌ فـي سَـبْـحِـهـا وسُـراهـا

الغواصة خؤون (خائنة) إذا غاصت وغدور (غادرة) إذا طفت فوق الماء، وملعَّنة (ملعونة) في سباحتها وفي سراها (سيرها)

فلا كـان بـانـيـهـا، ولا كـان رَكْـبُـهـا   ولا كـان بـحـرٌ ضـمَّـهـا وحَـوَاهـا

فليته انعدم من الوجود بانيها وركبها (راكبوها) والبحر الذي يضمها

وأُفٍّ عـلـى الـعِـلْـمِ الـذي تَـدَّعُـونَـهُ   إذا كـان فـي عِـلْـمِ الـنُّـفـوسِ رَدَاهـا

وأفٍّ على العلم الذي يدَّعيه الغرب إذا كان علم الناس سبباً في رداهم (هلاكهم)

١٥٦ ولقد ولدت بباب إسماعيلا

قال شوقي يهنئ حسين كامل بتوليه الحكم سلطاناً، ويقول زكي مبارك إن هذه القصيدة هي التي سببت نفي شوقي إلى إسبانيا بعد نشرها بأسبوعين، (١٩١٥):

المُلكُ فيكُمْ آلَ إِسماعيلا   لا زالَ بيتُكُمُ يُظِلُّ النِّيلا

الملك باق فيكم يا آل الخديوي إسماعيل (والسلطان الجديد ابن إسماعيل)، وأدعو أن يبقى بيتكم المالك يظلل مصر

هذي أصولُكُمُ وتلكَ فروعُكُمْ   جاء الصَّميمُ مِنَ الصَّميمِ بَديلا

إسماعيل أصل والسلطان الجديد ابنه، والخديوي المعزول عباس حلمي فرع منه (حفيده)، فأنت يا حسين كامل وعباس حلمي كلاكما صميم (أصيل)

النيلُ إنْ أَحصى لكُمْ حَسَناتِكُمْ   ملأَ الزمانَ محاسِناً والجِيلا

أحيا أبوكُمْ شاطِئَيْهِ، وابْتنى   مجداً لمصرَ على الزمانِ أَثيلا

أبوكم: الخديوي إسماعيل، أثيل: أصيل

نَشَرَ الحضارةَ فوقَ مِصرَ وسُورِيا   وامتدَّ ظِلّاً للحجازِ ظَليلا

حفظَ الإلهُ على الكنانةِ عرشَها   وأدامَ مِنْكُمْ للهلالِ كَفيلا

حفظ الله للكنانة (مصر) عرش أسرتكم، وأدامكم كفلاء للهلال (الهلال كان يتوسط علم مصر آنذاك)

أَأَخونُ إسماعيلَ في أبنائِهِ   ولقد وُلِدْتُ بِبابِ إسماعيلا

كان والد شوقي يعمل في حاشية الخديوي إسماعيل عند مولد شوقي؛ وكان شوقي في شبابه مقرباً من الخديوي توفيق ثم من الخديوي عباس حلمي؛ والآن بعد عزل عباس حلمي يقول شوقي لخلفه إنه سيواصل الولاء للأسرة المالكة لأنه ولد بباب إسماعيل والسلطان الجديد هو ابن إسماعيل بينما المعزول حفيده

ولبِسْتُ نعمتَهُ ونعمةَ بيتِهِ   فلبِسْتُ جَزْلاً وارتديتُ جَميلا

الجزل: الكثير

يا أكرمَ الأعمامِ حسبُكَ أنْ نَرى   للعَبْرتَيْنِ بِوجْنَتَيْكَ مَسِيلا

أيها السلطان الجديد، وهو عمّ الخديوي المخلوع، يكفي أن نرى للعبرتين (الدمعتين) بوجنتيك (بخديك) مسيلاً

مِنْ عَثْرَةِ ابنِ أخيكَ تَبكِي رحمةً   ومِنَ الخشوعِ لِمَنْ حَباكَ جَزيلا

تبكي من عثرة (نكبة) ابن أخيك راحماً إياه، وتبكي أيضاً من الخشوع المفروض عليك للإنجليز الذي حبوك (أعطوك) حباء جزيلا وهو السلطنة

هلْ كانَ ذاكَ العهدُ إلّا موْقِفاً ... للسُّلطتيْنِ وللبلادِ وبيلا

وهل كان العهد الماضي سوى موقف وبيل (ثقيل مزعج) للسلطتين (الخديوي والإنجليز)؟

وانفضَّ ملعَبُهُ وشاهِدُهُ، على ... أنَّ الروايةَ لم تَتِمَّ فُصولا

وانفض ملعب (مسرح) العهد الماضي وشاهده (المتفرج)، على أن (ولكن) الرواية لم تتم فصولاً. لا نظن أن هذه القصيدة كانت سبباً في نفي أحمد شوقي إلى إسبانيا، رغم ما فيها من إشارات تقدح في الإنجليز، فشوقي قد نفي في عصبة من الرجال. تفتح وعي شوقي وهو في الرابعة عشرة على الإنجليز يحتلون مصر، مع بقائها إسمياً جزءاً من الدولة العثمانية. ولكن عاطفته اتجهت نحو الخديوي توفيق بتأثير جو بيته، فقد كان أبوه في المعية الخديوية كاتباً أو حاسباً أو نحو ذلك. وحقد شوقي، ولداً غراً، على عرابي ورفاقه الذين شاقّوا الخديوي قبل الاحتلال، وتصدوا للاحتلال وفشلوا في درئه، وظل شوقي على موقفه من عرابي، ربما عِناداً. ومات الخديوي توفيق الذي كان يحاسن الإنجليز بعد عشر سنوات (١٨٩٢)، وتولى عباس حلمي الذي كان أصغر من شوقي ببضع سنوات. وكان يتململ من نفوذ الإنجليز المتعاظم. وكان شوقي يتململ معه، فهو شاعره. وبعد اثنتين وعشرين سنة مليئة بالمدائح لعباس حلمي وبالغمز من الإنجليز قامت الحرب العالمية الأولى. وكان الخديوي آنئذ في إستانبول. وإستانبول في هذه الحرب في صف ألمانيا والنمسا، ضد إنجلترا وفرنسا. قررت إنجلترا أنه آن الأوان لفصل مصر عن جسم الدولة العثمانية. فعزلت الخديوي عباس حلمي فبقي في إستانبول، وعينت عمه حسين كامل ولقبته بالسلطان. وفي هذا اللقب إشارة واضحة إلى تغير في وضع مصر من ناحية ارتباطها بإستانبول. كان شوقي في هذه الأيام في إستانبول وكان يلتقي الخديوي المعزول باستمرار ولا سيما بعد تعرضه لاعتداء بالرصاص وإصابته بجراح. وقد حاول شوقي تدبير زيارة يقوم بها الخليفة العثماني السلطان محمد رشاد للخديوي، ولكنه لم يفلح في مسعاه. وعاد شوقي إلى مصر ونشر قصيدته هذه في تهنئة سلطان مصر الجديد حسين كامل. ولكن الإنجليز كانوا قد قرروا إبعاد عدد كبير من المصريين البارزين من أعوان الخديوي المعزول. وبعبارة شكيب أرسلان: «دفع الإنجليز إلى مالطة جماً غفيراً وأزعجوا آخرين إلى أوروبة وكان فيمن أزعج عن بلاده إلى أوروبة أحمد شوقي فانتجع إسبانية، وناح على الأندلس، ولكنه خَفَضَ في عيشة راضية، وبيئة هادية، ولم يعد إلى وطنه إلا بعد أن انطفأت نار الحرب»: ويحدثنا حسين أحمد شوقي، ابن الشاعر، في كتابه «أبي شوقي» أن الأسرة ذهبت بأفرادها الستة ومعها أربعة من الخدم إلى المنفى

شاعر الأمة

في هذا الفصل شعر شوقي في منفاه، وبعد منفاه إلى حين وفاته عام ١٩٣٢. وكانت فترة خصبة في حياته الشعرية، تحلل فيها من الارتباط الوثيق بالحاكم، فعبر عن الأمة: المصرية، والعربية (وهذا جديد هذه المرحلة)، والإسلامية

١٥٧ يا نائح الطلح

قال شوقي في منفاه في إسبانيا (١٩١٥):

يـا نـائِحَ الـطَّـلْـحِ أَشْـبـاهٌ عـوادِيـنـا   نَـشْـجَـى لـوادِيـكَ أو نَـأْسَـى لِـوادِيـنـا

يا ذَكَر الحمام، أيها النائح بوادي الطلح (واد في إشبيلية فيه شجر الطلح) أشباهٌ (متشابهة) عوادينا (مصائبنا)؛ فهل نشجى (نحزن) لواديك، وادي الطلح، أم نأسى (نحزن) لوادينا، وادي النيل؟

مـاذا تَـقُـصُّ عـلـيـنـا؟ غـيـرَ أنَّ يـداً   قَـصَّـتْ جناحَكَ جالـتْ في حَـواشِيـنـا

ماذا تخبرنا؟ سوى أن اليد التي قصت جناحك (فخرج العرب من الأندلس) هي التي عبثت بجوانب وطننا. والغرب عند شوقي أمة واحدة، وعداوتهم للشرق وللمسلمين متصلة منذ الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش في إسبانيا، إلى الحرب العالمية الأولى التي كانت مشتعلة وقت هذه القصيدة وانجلى غبارها عن هدم دولة الخلافة العثمانية

كلٌّ رمَتْهُ النَّوى، رِيشَ الفِراقُ لنا   سهماً، وسُلَّ عليكَ البيْنُ سِكِّينا

كل منا رمته (أصابته) النوى (الفراق)؛ فالفراق كان سهما رِيشَ (ذُيِّل بالريش) ليصيبنا نحن، والبين (الفراق) سُلَّ سِكيناً عليك أنت

فإنْ يَكُ الجِنسُ، يا ابنَ الطَّلْحِ، فَرَّقَنا   إنَّ الـمـصـائـبَ يَـجْـمَـعْـنَ الـمُـصـابِـيـنـا

فإن كان الجنس يا ساكن وادي الطلح فرقنا (فأنت من جنس الحمام، ونحن من البشر) فالمصائب تجمع المصابين بها

لـم نَـسْـرِ مِـنْ حَـرَمٍ إلَّا إلـى حَـرَمٍ   كـالـخمرِ مِنْ بابِلٍ سارتْ لِدارينا

لم نسر (ما سرينا ومشينا) من حرم (مكان مقدس/وادي النيل) إلا لنحل حرماً في الأندلس؛ فنحن كالخمر نقلت من بابل بالعراق إلى دارين بالبحرين، وكلاهما موطن للخمر الجيدة

لـما نـبـا الـخلـدُ نـابَـتْ عنه نسـخَـتُـهُ   تـمـاثَـلَ الـوردُ خَـيْـرِيَّـاً ونِـسْـرِيـنـا

عندما نبا عنا (ابتعد) الخلد (الجنة)، أي مصر، نابت عنه نسخة منه في الأندلس؛ والخيري (المنثور الأصفر) يماثل النسرين (الورد الأبيض)

نَـسقِـي ثَـراهُـمْ ثَـنـاءً، كُـلَّـمـا نُـثِـرَتْ   دمـوعُـنـا نُـظِـمَـتْ مـنـهـا مَـراثِـيـنـا

نسقي تراب أهل الأندلس القدماء بثنائنا، وكلما انتثرت الدموع من عيوننا نثراً نظمناها نظماً في قصائدِ رثاء

كـادتْ عـيـونُ قـوافِـيـنـا تُـحَـرِّكُـهُ   وكِـدْنَ يوقِظْنَ في التُّرْبِ السَّلاطِينا

كادت عيون قوافينا (قصائدنا الجيدة) تحركِ التراب، وكادت توقظ السلاطين المدفونين في هذا التراب

جئنا إلى الصبرِ ندعوهُ كعادَتِنا   في النائباتِ، فلم يأخذْ بأيْدينا

النائبات: المصائب

ونابغيٍّ كأنَّ الحشرَ آخِرُهُ   تُميتُنا فيه ذِكراكُمْ وتُحيينا

ورب نابغي (أي ليل مخيف طويل كليل الشاعر النابغة) كأنه يفضي إلى الحشر (يوم القيامة)، كانت فيه ذكراكم أيها الأحبة بمصر تميتنا حزناً ثم تحيينا أملاً

نَطوي دُجاهُ بِجُرحٍ مِنْ فراقِكُمُ   يكادُ في غَلَسِ الأسحارِ يَطْوينا

نقضي الوقت في دجى هذا الليل وفينا جرح من فراقكم يكاد في غلس (ظلمة) الأسحار (أواخر الليل) يطوينا (يقتلنا)

نحنُ اليَواقيتُ خاضَ النارَ جوهرُنا   ولم يَهُنْ بِيَدِ التَّشْتيتِ غالينا

نحن اليواقيت (أحجار الياقوت) التي خاض النارَ جوهرها (حجرها الأصلي)، والنار هي المنفى؛ ولم تهن (ترخص) اليواقيت الغالية بالتشتيت بل تجوهرت به

ولا يحولُ لنا صِبْغٌ ولا خُلُقٌ   إذا تَلَوَّنَ كالحِرْباءِ شانِينا

ولا يحول (يتغير) لنا صبغ (لون) ولا خلق، في حين يتلون كالحرباء شانئنا (كارِهُنا)

لم تنزلِ الشمسُ ميزاناً، ولا صَعِدَتْ   في مُلْكِها الضخمِ عرشاً مثلَ وادِينا

المعنى الملموح: لم تنزل الشمس برج الميزان (لينتصف النهار)، ولا ارتقت عرشاً في مُلكها الضخم، الذي هو العالم كله، يشبه وادي النيل

وهذهِ الأرضُ مِنْ سهلٍ ومِنْ جبلٍ   قبلَ القياصِرِ دِنَّاها فَراعِينا

والأرض بسهلها وجبلها، قبل عهد قياصرة الرومان دِنَّاها (أخضعناها) في عهود الفراعنة

ولم يَضَعْ حجراً بانٍ على حجرٍ   في الأرضِ إلَّا على آثارِ بانِينا

ولم يبن أحد في الأرض بناءً إلا على آثار (تالياً لـ) بانينا الفرعوني

كأنَّ أهرامَ مِصْرٍ حائطٌ نَهَضَتْ   به يدُ الدهرِ، لا بُنيانُ فانِينا

فكأن الأهرام جدار رفعته يد الزمن، وليس من بناء الإنس الفانين

١٥٨ كل ميت أخوك

قال شوقي في مصرع اللورد كتشنر (١٩١٦):

كلُّ محمولٍ على النعشِ أخٌ   لَكَ، صافٍ وُدُّهُ بعدَ الكَدَرْ

إنْ تَكُنْ سِلْماً لهُ لم يَنْتَفِعْ   أو تَكُنْ حرباً فقد فاتَ الضَّرَرْ

سلماً له: مسالماً إياه، حرباً عليه: محارباً إياه

وإذا الموتُ إلى النفسِ مشى ... وركبتَ النجمَ، بالموتِ عَثَرْ

إذا جاءك الموت وأردت الهروب منه فركبت النجم؛ فإن النجم، وهو الذي لا يتعثر بشيء، يجد نفسه قد تعثر بالموت

رُبَّ ثاوٍ في الظُّبَى مُمْتَنِعٍ ... سَلَّهُ المِقْدارُ مِنْ جَفْنِ الحَذَرْ

رب ثاوٍ (قابعٍ) داخل طوق من الظُّبى (نصال السيوف) ممتنع (محتمٍ) استلَّه المقدار (القدر)، وأخذه الموت من جفن الحذر

و«جفن الحذر» هذه يعرف يقولها أبو تمام وشوقي والمتنبي. هي من شوقي بديعة، وإن يكن لها عند أبي الطيب أصل

١٥٩ زواج الزنى

قال شوقي في زواج الكبار بصغيرات (١٩١٦):

المالُ حَلَّلَ كلَّ غيرِ مُحَلَّلٍ ... حتَّى زواجَ الشِّيبِ بالأبكارِ

الشِّيب: الرجال الشائبون، الأبكار: العذارى

سَحَرَ القلوبَ، فَرُبَّ أمٍّ قلبُها ... مِنْ سِحْرِهِ حجرٌ مِنَ الأحجارِ

المال سَحَر القلوب، فربَّ أمٍّ حوَّل هذا السحر قلبها إلى حجر

دَفَعَتْ بُنَيَّتَها لأشأمِ مَضْجَعٍ ... ورَمَتْ بِها في غُربةٍ وإِسارِ

دفعت هذه الأم بابنتها لمضجع (سرير) مشؤوم، ورمتها في غُربة وأَسْر مع هذا العجوز

وتعلَّلتْ بالشَّرْعِ، قُلْتُ: كَذَبْتِهِ ... ما كان شرعُ اللَّهِ بالجزَّارِ

وتعللتْ (تحججت) الأم بالشرع، وأقول لها: كذبت على الشرع في تأويلاتك، فليس شرع الله جزاراً

ما زُوِّجَتْ تلكَ الفتاةُ وإنَّما ... بِيعَ الصِّبا والحُسْنُ بالدِّينارِ

بعضُ الزَّواجِ مُذَمَّمٌ، ما بِالزِّنى ... والرقِّ، إن قيسا به، مِنْ عارِ

بعض الزواج مذمَّم (مذموم)، ولكثرة ما به من العار فلو قيس به الزنى والرق (العبودية) لما رأينا بهما عاراً

فَتَّشْتُ، لم أَرَ في الزَّواجِ كفاءةً ... ككفاءةِ الأزواجِ في الأعمارِ

الكفاءة في الزواج: مفهوم فقهي يجعل النسب والمال المقياس الأهم لتكافؤ الزوجين، وشوقي يرى التقارب في العمر خير معيار للكفاءة. هذا لا يعني أن شوقي كان ضد الزواج المبكر للفتاة، فقد زوج ابنته أمينة وهي دون الخامسة عشرة من عمرها حسبما أخبرنا أخوها حسين في كتابه «أبي شوقي»

١٦٠ رثاء شكسبير

قال شوقي في ذكرى ٣٠٠ سنة على وفاة شكسبير، (١٩١٦):

أعلى الممالِكِ ما كُرْسِيُّهُ الماءُ   وما دِعامَتُهُ بالحقِّ شمَّاءُ

أعلى الدول ما كان كرسيه (عرشه) على الماء، وما كانت دعامة عرشه شماء (عالية) بالحق.
وإنجلترا كانت سيدة البحار (في عهد شوقي، وقبله بثلاثمئة سنة أيضاً في عهد شكسبير الذي شهد الأرمادا وسيطرة إنجلترا على البحار)

دستورُهُمْ عَجَبُ الدُّنيا، وشاعرُهُمْ   يَدٌ على خَلْقِهِ للَّهِ بيضاءُ

دستور الإنجليز، وهو غير مدون في صورة دستور كبقية البلاد، من الأعاجيب، وشاعرهم يد بيضاء لله (نعمةٌ منه) على خلقه

نالتْ به وحدَهُ إنجِلْتِرا شَرَفاً   ما لَمْ تنلْ بالنجومِ الكُثْرِ جوزاءُ

شَرُفَتْ إنجلترا بشكسبير أكثر مما شَرُفَ برج الجوزاء بنجومه

لمْ تُكْشَفِ النفسُ لوْلاهُ، ولا بُلِيَتْ   لها سرائرُ لا تُحصَى وأَهواءُ

لولا شكسبير لما كُشفتْ حقائق النفس البشرية، ولا بُليتْ (اختُبرتْ) سرائر (خفايا) النفس وأهواءُها التي لا تحصى. قد طالبني الصديق الشاعر عمران القفيني أن أثبت ههنا شيئاً عن شكسبير وما أودع مسرحياته من تدسس في خبايا النفس البشرية. وقد صنعت بعض ذلك في شرحي لقصيدة حافظ إبراهيم في ذكرى شكسبير، القطعة رقم ٥٠ في باب حافظ إبراهيم، ولن أكرر نفسي هنا، بل ألتقط طرف خيط تركته هناك: مسرح شكسبير شعري، ويحس به أهل اللغة الإنجليزية، ويقطفون تسعين بالمئة من حلاوته، وأما نحن فنفهم القصة والمغزى فهذه عشرة بالمئة نستمتع بها. رأيتُنا عندما لخص لنا المنفلوطي مسرحية يوليوس قيصر بلغته المنفلوطية همنا بتلخيصه هياماً، وطربنا لنثره العذب، وبيانه العربي. نعم، عزيزي عمران، شكسبير مشهور بأنه كان يتغلغل في عواطف ومصالح البشر، ويكشف عن دوافعهم، وخصوصاً ما كان منها دنيئاً شريراً، وتميز بهذا عن كتاب مسرحيين كثر في زمنه وبعد زمنه انصرفوا إلى عناصر أخرى كالحبكة والمفاجأة والإثارة

شِعرٌ من النَّسَقِ الأعلى يؤيِّدُهُ   مِنْ جانبِ اللَّهِ إلهامٌ وإيحاءُ

شعر من النسق (النظم) الأعلى (الأرقى) يرفده إلهام إلهي

بِمَنْ أماتَكَ قُلْ لي: كيفَ جُمْجُمَةٌ   غبراءُ في ظُلُماتِ الأرضِ جوفاءُ

بحق الله الذي أماتك قل لي: جمجمتك هذه التي أصبحت مغبرة مجوفة مدفونة في التراب..

كـانـت سـمـاءَ بـيـانٍ غـيـرَ مُـقْـلِـعَـةٍ   شُـؤْبـوبُـهـا عـسـلٌ صـافٍ وصَـهْـبـاءُ

كيف كانت هذه الجمجمة سماء بلاغة غير مقلعة (لا ينقطع مطرها)، وكان شؤبوبها (مطرها) عسلاً وخمراً. تعليق عمران القفيني: (في مارس/آذار ٢٠١٦، اكتشفوا بعد مسح بالرادار أن جمجمة شكسبير سرقت من قبره المكتوب عليه بيتان لأديب إنجلترا الأشهر أحدهما «ملعون من حرك عظامي»)

والناسُ صِنْفانِ: موتى في حياتِهِمُ   وآخـرونَ بـبـطـنِ الأرضِ أحـيـاءُ

لاموُكَ في جعلِكَ الإنسانَ ذِئْبَ دَمٍ   والـيـومَ تـبـدو لـهـمْ مِنْ ذاكَ أشـيـاءُ

كانوا يلومونك لأنك صورت الإنسان ذئباً متعطشاً للدم؛ واليوم ـ وكانت الحرب العالمية الأولى في أوجها ـ تبدو لهم أشياء مما كنتَ قلتَ

١٦١ دول العرب وعظماء الإسلام

قال شوقي من أرجوزة «دول العرب وعظماء الإسلام» وهي أرجوزة تاريخية طويلة من مزدوج الرجز، ونظمها في منفاه بإسبانيا (بلغت أبياتها ١٥٢٦ بيتاً):

الـحـمـدُ لـلَّـهِ الـقـديـمِ الـبـاقـي   ذي العرشِ، والسَّبعِ العُلى الطِّباقِ

الطباق: طبقات السماوات

وأفـضـلُ الـصَّـلاةِ والـسَّـلامِ   عـلـى أجـلِّ رُسُـلِ الـسَّـلامِ

صـلَّـى عـلـيـهِ الـلَّـهُ فـي سَـمـائِـهِ   وعـرشِـهِ الـسَّـابِـحِ فـي أَسـمـائِـهِ

صلى على النبي عرش الله الذي يسبّحُ في أسمائه الحسنى

لـمـا رمـى الـلَّـهُ بـهـذي الـحـربِ   عـلـى بـنـي الـشَّـرْقِ وأهـلِ الـغـربِ

وكانت الحرب العالمية الأولى مستعرة وقت قيلت الأرجوزة

تـحـرَّكـتْ سَـواكـنُ الأقْـدارِ   واطَّـرَدَتْ عـوامـلُ الأكْـدارِ

تحرك من الأقدار ما كان ساكناً، واطردت (تتابعت) أسباب الأكدار (المنغِّصات)

وحَـكَـمَ الـلَّـهُ بِـهِـجـرةِ الـوطـنْ   وطـالـمـا ابْـتَـلَـى بـهـا أهـلَ الـفِـطَـنْ

حكم الله عليّ بأن أهاجر عن مصر، والهجرة كثيراً ما ابتلى الله بها أهل الفطن (النابهين)

فـكـنـتُ أَسْـتَـعْـدي عـلـى الـهُـمـومِ   بـنـاتِ فِـكْـرٍ لـيـسَ بـالـمَـلْـمـومِ

فكنت في مهجري أستعدي (أستعين) على الهموم بنات فكرٍ ليس بالملموم (فكر مشتت)

أَسْـتَـدْفِـعُ الـفـراغَ والـعَـطـالَـةْ،   وبَـطَـلٌ مَـنْ يَـقْـتُـلُ الـبِـطـالَـةْ

أستدفع (أُبعِدُ شبح) الفراغ والعطالة (قلة العمل)، وإنه لبطل من يستطيع قتل البطالة

حـتــى أرادَ الـلَّـهُ أنْ نَـظَـمْـتُ مِنْ سِيَرِ الرجالِ ما اسْتَعْظَمْتُ

نظمت سير (قصص حياة) الرجال الذين استعظمتهم (عددتهم عظماء)

واخترتُ بحراً واسعاً مِنَ الرَّجَزْ قَـدْ زَعَـمُـوهُ مَـرْكَـباً لِـمَـنْ عَـجَـزْ

اخترت بحر الرجز للنظم وفيه جوازات كثيرة وسعة، وزعموا أنه مركب سهل للعاجز. أمَا سماه الأقدمون حمار الشعراء؟

يَــرَوْنَ رَأْيــاً وأرى خِــلافَــهْ الـكـأسُ لا تُـقَـوِّمُ الـسُّـلافَـةْ

ورأيي غير رأيهم، فالكأس لا تقوم (تحدد قيمة) السلافة (الخمر)، وكذا فالبحر الشعري لا يحدد قيمة معنى الشعر

وقـيـمـةُ الـلـؤلـؤِ فـي الـنُّـحـورِ بِـنـفـسِـهِ ولـيْـسَ بـالـبُـحـورِ

واللؤلؤ وهو في نحور (أعناق) الحسان يقوَّم بنفسه وليس بالبحور التي منها أتى. و«البحور» هذه عذبة ـ إن جازت على البحور العذوبة ـ فهي «البحور» التي أتى منها اللؤلؤ، لكنها أيضاً «بحور» الشعر

شِـعْـرٌ لـزمـتُ فـيـهِ مـا لا يَـلْـزَمُ وتَــرْكُــهُ ألــيــقُ بــي وأحْــزَمُ

ولزمت في شعري ما لا يلزم، وكان أحزم لي (أكثر حصافة) ألا أفعل ذلك. وشوقي التزم بحرفي روي بدل حرف واحد كما ترى

ومـا أَيِـسْـتُ مِـنْ كَـريـمٍ يُـغْـضِـي ولا أمِـنْـتُ حـاسِـداً ذا بُـغْـضِ

وما أيست (يَئِست) من وجود كريم يغضي (يتجاهل) على أغلاطي، كما أنني لم آمن حاسداً مبغِضاً

رُبَّ لِـسـانٍ جَـمَّـعَ الأقـوامـا وكـان كـالـجـنـسِ لـهـمْ قِـوامَـا

رب لسان (لغة) جمع شمل الأقوام وكان لهم قِواماً كالعِرْق، وهذا اللسان هو اللغة العربية

وقـد حَـبَـاهُ الـلَّـهُ بـالـجَـزيـلِ واخـتـارَهُ لـلـوحـيِ والـتَّـنـزيـلِ

هذا اللسان حباه (أعطاه) الله بالجزيل (الكثير)، واختاره للوحي والتنزيل (القرآن)

لِـسـانُـكَ الأولُ فـي الـكُـتَّـابِ ولـغـةُ الـصَّـبْـوَةِ والـعِـتـابِ

لسانك (لغتك) الأول في الكتّاب (المدرسة)، ولغة الصبوة (الشوق) والعتاب..

لا تـرضَ مـنـهُ مَـبْـلَـغَ الـرُّعـاعِ وحِـصَّـةَ الأعـمـى مِـنَ الـشُّـعـاعِ

.. هذا اللسان لا ترض أن تقف في إتقانه عند مبلغ (مستوى) الرعاع (الجهلة)، ولا تكتَفِ منه بحصة تشبه حصة الأعمى من النور

الـنـفـسُ تـرجـوُ هِـمَّـةَ الـخُـلـودِ فـي الـعِـلـمِ والـبُـنْـيـانِ والـمَـوْلـودِ

النفس تطمح إلى الخلود: بالعلم الذي تورثه للأجيال، وبالبنيان الشامخ الذي يخلد الذكر، وبالأولاد الذين يحيون ذكر آبائهم

تَـوَهَّـمُ الـحـيـاةَ بـعـدَ مـوْتِ   وتَـزْعُـمُ الـوِجْـدَانَ بـعـدَ فَـوْتِ

وتتوهم النفس وجود حياة بعد الموت، وتزعم أن هناك وجداناً (وجوداً) بعد الفوت (فوات الأوان)

ضـاقـتْ عـلـى الـنـوابـغِ الآجـالُ   فـكـانَ فـي الـذِّكْـرِ لـهـمْ مـجـالُ

ضاقت على النوابغ آجالهم (أعمارهم)، فكان خلود الذكر مجالاً لإطالة العمر

انـظـرْ إلـى الآبـاءِ كـيـفَ هـامُـوا   بـالـخُـلْـدِ، واحـتـالـتْ لـهُ الأَفْـهـامُ

انظر كيف هام القدماء بالخلود، وكيف احتالت أفهامهم (عقولهم) لتخليد ذكرهم

مَـنْ دَرَسَ الـتـاريـخَ أوْ مَـنْ دَرَّسَـهْ   يَمضي الزمانُ وهُما في المدرسةْ

لا يَـبْـلُـغـانِ فـي الـكـتـابِ غـايـةْ   ولا الـكـتـابُ بـالـغُ الـنِّـهـايَـةْ

إيـاكَ والـمـؤرخَ الـمِـقَـصَّـا   مـا كـلُّ مَـنْ قَـصَّ فـقـدْ تَـقَـصَّـى

احذر المؤرخ الذي يقتطع الأحداث كالمقص بلا تثبُّت، وما كل من قص (روى) قد تقصى (تحقّق). وفي زمننا هذا صار للمقص معنى آخر مع دخول ثقافة القص واللزق. ولعل شوقي كان سيقول في الأكاديمي الذي يلملم بحوثه من أردأ مواقع الإنترنت: (ذاكَ الذي يقصُّ ثم يَلزقُ/ مُقَوْقِلُ المنتديات النزقُ/ آكِلُ ما قد حَرَثوا وعَزَقوا/ أوْ لاحسُ الذي بها قد بَزَقوا/ بومٌ بغيرِ صوتِه يزقزقُ)

مـضـى أبـو بـكـرٍ، وولَّاهـا عُـمَـرْ   الـشـمـسُ لا تُـخْـلَـفُ إلَّا بـالـقَـمَـرْ

ذهب أبو بكر الصديق وولّى الخلافةَ عمرَ، والشمس لا يخلُفُها إلا القمر

وُلاتُـهُ فـي مُـلْـكِـهِـمْ رُهْـبـانُ   والـفُـلْـكُ حـيـثُ سـاقَـهـا الـرُّبَّـانُ

الولاة الذين ولّاهم عمر فقراء عفيفون كالرهبان، والفلك (السفينة) تذهب إلى حيث يسوقها الربان، فهم كالسفينة وعمر كالربان

أمَّـا الإمـامُ فـالأغـرُّ الـهـادي   حـامـي عَـرِيـنِ الـحـقِّ والـجـهـادِ

الإمام علي بن أبي طالب هو الأغر (المشرق) الهادي، حامي عرين (بيت الأسد) الحق والجهاد

لـو صـانـعَ الإمـامُ أو تـأنَّـى   مـا بـلـغَ الـشَّـامِـيُّ مـا تـمـنَّـى

لو كان علي صانع (دارى) أو تمهل، لما بلغ الشامي (معاوية والي الشام) ما تمنى

وقـيـلِ عِـلْـمٌ مـا لَـهُ انـتـهـاءُ   لـم يـجـرِ فـيـهِ الـرأيُ والـدَّهـاءُ

وقيل إن علم علي غزير لا نهاية له، ولكن هذا العلم لم يجرِ معه في تياره رأي ودهاء

١٦٢ حال الغريب

قال شوقي في منفاه:

قالتْ: تَغَرَّبَتِ الرجالُ، فقلتُ: في ضَيْمٍ أُرِيدَ بِجانِبي فأبَيْتُهُ

قالت: تغربت الرجال فقلت: ذلك في (بسبب) ضيم (ظلم) أُريد إلحاقه بجانبي (بي) فأبيْته (فرفضته)

قالتْ: أَخِفْتَ الموتَ، قلتُ: أَمُفْلِتٌ أنَا مِنْ حبائِلِهِ إذا ما خِفتُهُ؟

حبائله: مصائده

قالتْ: لقدْ شَمِتَ الحسودُ، فقلتُ: لوْ دامَ الزمانُ لِشامتٍ لَحَفِلْتُهُ

لحفلته: لحفلت به

قالتْ: كأنِّي بِالهجاءِ قلائداً سارتْ، فقلتُ: همَمْتُ، ثم تَركتُهُ

قلائد: عقود (وكانوا يشبهون القصائد بالعقود التي يرتديها الممدوح أو المهجو فتظل معلقة بعنقه)

١٦٣ المال

قال أحمد شوقي في كتابه النثري «أسواق الذهب» الذي كتبه وهو في منفاه بإسبانيا على شكل فقرات مسجوعة فيها الوصف والحكمة:

«يا مالُ! الدُّنيا أنتْ، والناسُ حيثُ كنتْ. حالُك وحالُ الناسِ عَجَبٌ، تَمْلِكُهُمْ مِنَ المهدْ، ويقولونَ أصَبْنا ومَلَكْنا؛ وترِثُهُمْ عندَ اللحدْ، ويقولون ورِثْنا وتَرَكْنا؛ مَنْ عاشَ قوَّمُوهُ بِما مَلَكْ، ومَنْ هَلَكَ تساءلوا كَمْ ترَكْ؟ المحرومُ مَنْ أوْثَقَكْ، والضائعُ مَنْ أطْلَقَكْ، وهُما فقيرانِ: مَنْ جَمَعَكَ ومَنْ فَرَّقَكْ. كثيرُكَ هَمّ، وقَليلُكَ غَمّ، ومَعَ التَوسُّطِ الخوفُ والطمعْ، والحرصُ والجشعْ، حَذَرَ النَّفادْ، ورغبةٌ في الازدياذْ. الملك سُوقةٌ إذا نزلَ إليكْ، والسُّوقةُ مَلِكٌ إذا علا عليكْ. فسبحانَ مَنْ قَهَرَ بكَ الخَلْقْ، وقَهَرَكَ بِرجالِ الخُلُقْ».

١٦٤ الجمال

قال أحمد شوقي في كتابه النثري «أسواق الذهب» الذي كتبه وهو في منفاه بإسبانيا على شكل فقرات مسجوعة فيها الوصف والحكمة، وهذه القطعة كانت تغلي في رأس شوقي غلياناً، لأنه يعشق «الجمال» فجاءت من بين أخواتها في الكتاب.. غير مسجوعة، وقد سودناها لك كي تتمتع بهذا النثر الذي جل عن السجع فصار كأنه الشعر (بين ١٩١٥ و١٩١٩):

«جمعتِ الطبيعةُ عبقريَّتَها فكانتِ الجمالْ. وكانَ أحسنَهُ وأشرفَهُ ما حَلَّ في الهيكلِ الآدَمِيِّ، وجاوَرَ العقلَ الشريفَ والنفْسَ اللطيفةَ والحياةَ الشاعِرةَ. فالجمالُ البَشَريُّ سيدُ الجمالِ كلِّهِ، لا المَثَّالُ البارعُ استطاعَ أنْ يَخْلَعَهُ على الدُّمَى الحِسانِ، ولا للنَّيِّراتِ الزُّهْرِ في ليالي الصحراءِ ما لَهُ مِنْ لمحةٍ وبهاءٍ، ولا لبديعِ الزَّهْرِ وغريبِهِ في شبابِ الربيعِ ما لَهُ مِنْ بشاشةٍ وطيبٍ. وليسَ الجمالُ بِلَمْحَةِ العيونِ، ولا ببريقِ الثغورِ، ولا هَيَفِ القُدودْ، ولا أَسالَةِ الخدودْ، ولا لؤلؤِ الثَّنايا وراءَ عَقيقِ الشِّفاهِ، ولكنْ.. شُعاعٌ عُلْويٌّ يَبسُطُهُ الجميلُ البديعُ على بعضِ الهياكلِ البشريةِ، يكسُوها رَوْعَةً ويجعلُها سِحْراً وفِتنةً للناسِ».

١٦٥ الأمس واليوم والغد

قال أحمد شوقي في كتابه النثري «أسواق الذهب» الذي كتبه وهو في منفاه بإسبانيا على شكل فقرات مسجوعة فيها الوصف والحكمة (بين ١٩١٥ و١٩١٩):

الأمس: «أمسِ ما أمسْ، خُطْوَةٌ إلى الرَّمْسْ. جُزْءٌ مِنْ عُمْرِكَ حَضَرْتَ وَفاتَهْ، وقَبَرْتَ بِيَدِكَ رُفاتَهْ. وَهُوَ أبو يومِكَ، والولدُ سرُّ أبيهْ، وجَدُّ غَدِكَ، فاجعلْهُ النبيلَ في الجُدودِ النَّبيهْ».

اليوم: «طَلَعَتِ الشمسْ، ونُفِضَتِ الخَمْسُ مِنْ تُرابِ أمسْ. فسبحانَ الذي أَلْهَى بالأملْ، وشَغَلَ بالعملْ، واستَنْهَضَ الإنسانَ لأعباءِ اليومِ فَحَمَلْ».

الغد: «بَرِيدُ المَلكِ القهَّارْ، مَوْعِدُهُ حواشِي الأسحارْ، أوْ غُرَّةُ النَّهارْ، حَمَلَتِ الفُجاءاتِ نجائِبُهْ، واشتَمَلَتْ على المُسْتَجَدَّاتِ حقائِبُهْ. هو الشخصُ الثالثُ في روايةِ الأيامِ والحوادثْ، والخَلَفُ مِنْ صاحِبَيْهِ والوارِثْ».

١٦٦ مقتطفات

قال أحمد شوقي في كتابه النثري «أسواق الذهب» الذي كتبه وهو في منفاه بإسبانيا على شكل فقرات مسجوعة فيها الوصف والحكمة (بين ١٩١٥ و١٩١٩):

المسجد الحرام: «حَرَمُ اللهِ المُطَهَّرْ، وبيتُهُ العتيقُ المُسَتَّرْ، الذي وَجَّهَ إليهِ الوجوهْ، وفرضَ على عِبادِهِ أن يَحُجُّوهْ؛ نظرَتْ إليه المساجدُ في كلِّ خَمْسْ، وقامت إليه قيامَ الحِرباءِ للشمسْ».

الطلاق: «حلالٌ.. عليهِ بشاعةُ الحرامْ، وحقٌّ.. يَشْرَهُ إليهِ اللئامْ، ويُكرَهُ عليهِ الكِرامْ».

الأسد: «طاغيةُ الصَّحراء، وجبارُ العَراء، وأجرأُ مَنْ وَطِئَ الغبراء. عرشُهُ غابتُهْ، وحِجابُهُ مهابتُهْ، والوَحدةُ مجلسُهُ وصَحابتُهْ».

الكاتب العمومي: «تِمْثالٌ مِنَ الجهلِ العامِّ، صنعتْهُ القرونُ والأجيالُ. حفَّارُهُ عَبَثُ الحاكمِ، وطينَتُهُ غَفْلَةُ المحكومِ، وَهُوَ الأميَّةُ على قارعةِ الطريقِ، لا يجمَعُهُ والحضارةَ مَكانٌ».

السجع: «السَّجَعُ شعرُ العربيةِ الثَّاني؛ وكلُّ موضعٍ للشعرِ الرَّصينِ محلٌّ للسجَعِ».

الشيخ المهندم: «أيُّها الشيخُ المُهَنْدَمُ، ما غَرَّكَ بالسِّنِّ حتى لبستَ للصِّبا ثيابَهْ، ونازَعْتَ حفيدَكَ شبابَهْ؟ إنما مَثَلُكَ كَمَثَلِ الضِّرْسِ المحشُوِّ المكْسُوِّ: نُزِعَ مِنْهُ العَصَبْ، وخُلِعَ عليهِ الذَّهَبْ».

١٦٧ خواطر

قال أحمد شوقي في كتابه النثري «أسواق الذهب» الذي كتبه وهو في منفاه بإسبانيا على شكل فقرات مسجوعة فيها الوصف والحكمة (بين ١٩١٥ و١٩١٩):

ما نَبَّهَ على الفضْلِ الكاذبِ مثلُ الثَّناءِ الكاذب.

هلكتْ أمةٌ تحيا بفردٍ وتموتُ بفرْد.

الصالحونَ يبنُونَ أنفسَهُمْ، والمُصْلِحونَ يبنُونَ الجماعات.

المتحيِّزُ لا يُمَيِّز.

لا سلطانَ على الذَّوْقِ فيما يُحِبُّ ويَكْرَه.

الغنيُّ مَعَ الفقيرِ في كَبَدْ: إذا مَنَعَهُ حَسَدْ، وإذا أعطاهُ حَقَدْ.

قد يُداويكَ مِنَ المرضِ اتقاؤُه، ولا يُنجيكَ مِنَ الموتِ إلَّا لِقاؤُه.

قلَّما طارَ اسمُ الشَّاعِرِ في حياتِهْ، فوقَعَ بعدَ مماتِهْ.

عندَ الكمالْ، يبتدئُ الجمالْ.

للجمالِ حينَ يزولْ، جلالةُ الملكِ المعزولْ.

رُبَّ استِحْياءٍ تحتَهُ رِياءْ.

كادَ صَفْحُ الوالدِ يسبقُ ذَنْبَ الوَلد.

لو حَطَّمَتِ السِّنُّ المرأةَ ما حَطَّمَتْ مِرآتَها.

مَنْ عاشَ وعاشَرَ أَمَلَّ مُحِبّاً أَوْ مَلَّ مَحبوباً.

كِبْرُ الصَّغيرِ قبيحٌ كتواضُعِهْ، كلاهُما في غيرِ مَوْضِعِهْ.

شورى مِنَ الحجّاجِ وزيادٍ، خيرٌ مِنَ الفَرْدِ ولوْ كانَ عُمَرْ.

اللهُ أَعْيُنْ، والنَّاسُ أَلْسُنْ، فأينَ المَفَرّ؟

تَكَثَّرْ مِنَ الحُسَّادِ بفضلِكْ، ولا تَتَكَثَّرْ مِنَ الأعداءِ بِجَهلِكْ.

١٦٨ ما أبعدَ النيل!

بعث شوقي، من منفاه بإسبانيا، إلى حافظ إبراهيم بواسطة داود بركات رئيس تحرير الأهرام ثلاثة أبيات (١٩١٧):

يا ساكِني مِصْرَ إنَّا لا نزالُ على عهدِ الوفاءِ، وإنْ غِبْنا، مُقيمِينا

يا أهل مصر! نحن مقيمون على العهد رغم غيابنا

هلَّا بَعثتُمْ لنا مِنْ ماءِ نهرِكُمُ شيئاً نَبُلُّ به أحشاءَ صادِينا

هلا بعثتم لنا من ماء النيل حتى نبل أحشاء صادينا (القلب العطشان فينا)

كلُّ المناهلِ، بعدَ النِّيلِ، آسِنةٌ ما أبعدَ النيلَ إلَّا عنْ أمانِينا

كل المناهل (موارد الماء) بعد النيل آسنة (فاسدة)، والنيل بعيد إلا أننا نتمنى قربه كثيراً فهو قريب في أمانينا

رد حافظ إبراهيم يقول:

«عجبتُ للنيلِ يدري أنَّ بُلْبُلَهُ/ صادٍ، ويسقي رُبى مصرٍ ويَسقينا

واللهِ ما طابَ للأصحابِ مورِدُهُ/ ولا ارتَضوْا بعدَهُ مِنْ عَيْشِهِمْ لِينا

لم تَنأَ عنه وإنْ فارقْتَ شاطِئَه/ وقد نأيْنا وإنْ كُنَّا مُقيمينا»

١٦٩ أردتُ أعرِّفها من أنا

كان شوقي يردد هذه الأبيات كثيراً (١٩١٧):

رأيْتُ على صخرةٍ عقرباً وقد جَعلتْ ضربَها دَيْدَنا

رأيت عقرباً على صخرة وقد جعلت العقرب ضرْب الصخرة ديدَناً (عادةً) لها

فـقـلـتُ لـهـا: إنَّــهـا صـخـرةٌ وطـبـعُـكِ مِـنْ طـبـعِـهـا أَلْـيَـنـا

فقلت لها: يا مجنونة! هذه صخرة، وهي أقسى من جسمك، وطبعُكِ (خِلقتك) وألين منها، فلا فائدة من لسعها. وجد عمران القفيني مشكلة في نصب «ألينا» ودعاني إلى التأول لها. وأشار إلى أنه رأى الأبيات في حياة الحيوان الكبرى للدميري. فهي إذن ليست لشوقي. حسناً، فلنضمر قبلها «ما انفكَّ» ولننصبها خبراً لها، أو لنضمر ـ وهذا اقتراح عمران ـ «وجدتُ»

فـقـالـتْ: صـدقْـتَ، ولـكـنَّـنـي أردتُ أُعَــرِّفُــهــا مَــنْ أَنــا

١٧٠ رثاء أمه

وقال يرثي والدته، وماتت وهو في غربته بالأندلس، (١٩١٨):

إلى اللَّهِ أشكو مِنْ عوادِي النَّوى سَهما أصابَ سُوَيْداءَ الفؤادِ وما أَصْمَى

إلى الله أشكو سهماً من عوادي (مصائب) النوى (الفراق) أصاب سويداء (حبة) القلب، ولكنه لم يُصْمِ (يقتل)

ولـم أرَ حُـكْـمـاً كـالـمقـاديرِ نـافِذاً ولا كَلِقاءِ الموتِ مِنْ بينِها حَتْما

١٧١ وطني لو شغلت بالخلد عنه..

قال شوقي (١٩١٩):

اِخـتـلافُ الـنـهـارِ والـلـيـلِ يُـنْـسـي اذكُـرا لـيِ الـصِّـبـا وأيَّـامَ أُنـسـي

اختلاف النهار والليل على الإنسان (سيْر الزمن) يُنسي الأيام الحلوة، فاذكرا لي يا صاحبيَّ أيام الصبا والأنس

وسلا مصرَ هـل سلا الـقلبُ عنهـا أو أَسـا جـرحَـهُ الـزمـانُ الـمُـؤَسِّـي

وسلا (اسألا) مصر هل سلا (انصرف) القلب عنها، أو هل أسا (شفى) جرحَ القلب الزمانُ المؤسي (الشافي)

كـلَّـمـا مـرَّتِ الـلـيـالـيِ عـلـيْـهِ رَقَّ، والـعـهـدُ بـالـلَّـيـالـيِ تُـقَـسِّـي

كلما مرت الليالي (الزمن) على قلبي صار أرقَّ، والمعهود بمرور الزمن أن يُقسِّي لا أن يرقِّق

أحــرامٌ عــلــى بــلابِـلِـهِ الـدَّوْ حُ، حـلالٌ لـلـطَّـيْـرِ مِـنْ كـلِّ جِـنْـسِ

هل الدوح (الشجر) حرامٌ (محرَّمٌ) على بلابله، وحلالٌ (محلل) للطير من الأجناس الأخرى؟ فشوقي منفيّ عن مصر، وبها من الأجانب أشكال وألوان

كــلُّ دارٍ أحــقُّ بــالأهــلِ إلَّا في خـبـيـثٍ مِـنَ الـمـذاهـبِ رِجْـسِ

البلد أحق بأهله إلا في مذهب (سلوك) المستعمرين الخبيث الملوث بالرجس (الدنس)

وطني، لوْ شُغِلْتُ بالخلدِ عنْهُ   نازَعتْني إليهِ في الخُلْدِ نَفْسي

وطني! لو انشغلت عنه بالخلد (الجنة) لنازعتني نفسي وأنا في الجنة تريد الوطن

وهَفا بالفؤادِ في «سَلْسَبيلٍ»   ظمأٌ للسَّوادِ في عينِ شمْسِ

وفي عين السلسبيل في الجنة سأرى فؤادي قد هفا به (حرَّكه) الظمأ للسواد (الأرض المخضرة) في عين شمس (الضاحية القاهرية). البيت فيه عبث بالكلمات غير قليل، فعين شمس اسم مكان وسوادها أرضها المخضرة، وعين الإنسان لها سواد في وسطها، وعين الشمس ليس بها سواد بل هي مشرقة كل الإشراق؛ والسلسبيل في البيت عين ماء في الجنة، وكلمة «سلسبيل» هي التي جلبت كل هذا التداعي وإن لم يصفها الشاعر بكلمة عين. وشعر شوقي مَراد للتداعي الحر. تراه يقول كلمة ثم تتدفق كلمات وأفكار منبثقة من هذه الكلمة، ويشحن هذه الأفكار التي جاءت بطريق التداعي الباطني بمشاعره وآرائه

شَهِدَ اللّهُ لم يَغِبْ عنْ جُفوني   شخصُهُ ساعةً، ولم يَخْلُ حِسِّي

لم يغب عن جفوني سواد (خضرة) «عين شمس» بشخصه (بشكله المادي)، كما لم يخل إحساسي من أثره

يا فؤادي لكلِّ أمرٍ قرارٌ   فيهِ يبدو وينجَلي بَعْدَ لُبْسِ

لكل أمر قرار (نهاية)، ولا بد للنفي من أن ينتهي

أينَ مرْوانُ، في المشارقِ عَرْشٌ   أُمَوِيٌّ وفي المغاربِ كُرْسي

أين عهد مروان (يقصد بني مروان، وفي عهد الوليد بن عبد الملك بن مروان فتحت الأندلس)؟ كان له عرش في دمشق شرقاً، وكرسي (عرش) في المغارب، في الأندلس

وَعَظَ البحتريَّ إيوانُ كِسْرى   وشَفَتْني القصورُ مِنْ عبدِ شَمْسِ

وعظ إيوان كسرى الشاعر البحتري، عندما ذهب إليه في خلوة روحية بعد مقتل الخليفة المتوكل؛ وأنا شفت نفسي قصور عبد شمس (بني أمية) في الأندلس

لم يَرُعْني سوى ثرىً قُرطُبِيٍّ   لَمَسَتْ فيهِ عِبْرَةَ الدهرِ خَمْسي

لم يُدخِل الروع (الرهبة) إلى قلبي سوى تراب قرطبة الذي لمستُ فيه عِبرةَ الزمن بأصابعي الخمس كلها

قريةٌ لا تُعَدُّ في الأرضِ، كانتْ   تُمْسِكُ الأرضَ أنْ تَمِيدَ، وتُرْسي

قرطبة الآن قرية لا قيمة لها في العالم، ولكنها كانت تمسك الأرض حتى لا تميد (تهتز) وترسيها على قواعدها، هذا في أيام عزها

سِنَةٌ مِنْ كرىً وطيفُ أمانٍ   وصَحا القلبُ مِنْ ضلالٍ وهَجْسِ

ذلك العز سِنَة من كرى (غفوة)، وطيف جاء في الأحلام بالأماني الجميلة، ثم صحا القلب من الضلال والهواجس

وإذا الـدَّارُ مـا بـهـا مِـنْ أنـيـسٍ وإذا الـقـومُ مـا لـهـمْ مِـنْ مُـحِـسِّ

فإذا الدار ما بها إنسان، وإذا القوم ليس لهم من يُحِسُّ بهم، فقد رحلوا

مَشَتِ الحادثاتُ في غُرَفِ الحمـ ـراءِ مَشْيَ النَّعِيِّ في دارِ عُرْسِ

مشت الحادثات (المصائب) في غرف قصر الحمراء، كمشي النعي (خبر الموت) في دار بها عرس

لا تـرى غيـرَ وافِـديـنَ عـلـى التَّـا ريخِ ساعِيـنَ في خُشوعٍ ونَكْسِ

والآن ليس بقصر الحمراء سوى السياح الوافدين لمشاهدة قطعة من التاريخ، تراهم يمشون خاشعين منكسين رؤوسهم

خرجَ الـقـومُ فـي كـتـائـبَ صُـمٍّ عن حِفاظٍ، كَمَوْكِبِ الدَّفْنِ خُرْسِ

خرج العرب في كتائبَ صَمَّتْ آذانها عن حفاظ (غيرة على الشرف)، وكانت كتائبهم خرساء (صامتة) كموكب الدفن

رِكِبُوا بالبحارِ نَعْشاً، وكانتْ تحتَ آبائِهِمْ هِيَ العرشُ أمسِ

ركبوا البحر منهزمين إلى المغرب كأنما ركبوا النعش، والبحر نفسه ركبه آباؤهم عرشاً عندما فتحوا الأندلس

رُبَّ بـانٍ لـهـادِمٍ، وجَـمُـوعٍ لِـمُـشِـتٍّ، ومُـحْـسِـنٍ لِـمُـخِـسِّ

رب بانٍ يبني الملك لحفيده الذي يهدمه، ورب جَموع (كثير الجمع) يجمع المال لمن يشتته، ومحسن يحُوز الفضائل لمخس (لمن يجعلها خسيسة)

إمْـرَةُ الـنـاسِ هِـمَّـةٌ لا تَـأَتَّـى لـجبـانٍ، ولا تَـسَـنَّـى لِـجِـبْـسِ

إمرة (قيادة) الناس همة (طموح) لا تتأتَّى لجبان، ولا تتسنَّى (تسنح) لجبس (ضعيف). قصيدة عامرة بأبيات الحكمة. عرف شوقي أن أبيات الحكمة تجلب لشعره السيرورة، فتعمَّدها وصار يرصدها، وأقر بذلك. والقصد إلى الحكمة قصداً أضعف شعر شوقي. فهو إذ يُعمل فكره في استخراج أبيات الحكمة يستهلك جزءاً من طاقته الشعورية فتبرد قصيدته، ولا تتدفق. وفي هذه القصيدة يعارض شوقي البحتري في سينيته (صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جبس)

١٧٢ ثورة ١٩١٩

قال شوقي في ثورة مصر (١٩١٩):

عَـطَـفَ الـدهـرُ عـلـى ثـورتِـكُـمْ ولـوَى الـنـاسَ عـلـيـهـا مُـعْـجَـبـيـنْ

عطف (أمَالَ) الزمن على ثورتكم قلوب الناس، ولوى (أمال) الناس عليها وهم متعجبون منها، لأنها..

هـزَّتِ الـلـيـثَ ولـمَّـا يَـصْـحُ مِـنْ   دمِ غِـلْـيـومَ وَصِـيـدٍ آخَـريـنْ

هزت الأسد (أي إنجلترا، وشعارها الأسد)، ولما يَصْحُ من نشوة البطش بغليوم قيصر ألمانيا وبالصِّيدِ (الأسياد) الآخرين الذين هُزموا في الحرب العالمية الأولى

قـامَ رهـطٌ مـنـكُـمُ فـاقـتَـحَـمـوا   كِـبـريـاءَ الـفـاتـحـيـنَ الـظَّـافِـريـنْ

قام رهط (جماعة) منكم فاقتحموا كبرياء المنتصرين. حلوٌ تعبير «اقتحموا كبرياء الفاتحين»

اسـتَـخَـفَّ الـلـيـثُ إجـمـاعَـكُـمُ   وهْـوَ نـابُ الـعَـجَـمِ الدَّاهـي الـرَّزيـنْ

واستخفت إنجلترا بإجماعكم، وهي رأس الحربة في الأجانب، والداهية الرزينة

مـسـتـعـيـذاً مِـنْـكُـمُ بـالـلَّـهِ أنْ   تُصْبِحوا الهندَ وتُمسوا الصِّينَ فِينْ

استعاذ الأسد الإنجليزي بالله منكم لئلا تصبحوا (في بدء أمركم) كالهند (وآنذاك كانت المقاومة السلمية قد بدأت هناك)، وتُمسوا (بعد ذلك) مثل الصين ـ فين (منظمة «الشين فين» الإيرلندية التي استخدمت العنف ضد الحكم البريطاني)

١٧٣ .. إذا أخلاقهم كانت خرابا

قال شوقي في اجتماع لجنة التموين، بُعَيدَ عودته من منفاه بإسبانيا، (١٩٢٠):

وَداعـاً أرضَ أنـدَلُـسٍ، وهـذا   ثـنـائـي إنْ رضـيـتِ بِـهِ ثَـوابـا

ويـا وطـنـي لـقِـيـتُـكَ بـعـدَ يـأسٍ   كـأنِّـي قـد لَـقِـيـتُ بِـكَ الـشـبـابـا

وكـلُّ مـسـافـرٍ سـيـؤوبُ يـومـاً   إذا رُزِقَ الـسـلامـةَ والإيـابـا

أُديـرُ إلـيـكَ قـبـلَ الـبـيـتِ وَجـهـي   إذا فُـهْـتُ الـشَّـهـادةَ والـمَـتـابـا

أُدير إليك يا وطني وجهي إذا تفوهت بالشهادة والمتاب (دعاء التوبة)

فـصـفْـحـاً لـلـزمـانِ لـصـبـحِ يـومٍ   بِـهِ أضـحـى الـزمـانُ إلـيَّ ثـابـا

صفحت عن الزمان ومصائبه لأنه ساق إليَّ هذا الصباح الذي ثاب (عاد) الزمان إليَّ به وصافاني

وحـيَّـا الـلَّـهُ فِـتْـيـانـاً سِـمـاحـاً   كَـسَـوْا عِـطْـفَـيَّ مِـنْ فـخـرٍ ثـيـابـا

حيا الله الفتيان السِّماح (السمحين الكرام) الذين كسوا عِطفيَّ (جانبيَّ) ثياباً من الفخر

عـبـادُكَ رَبِّ قـد جـاءوا بـمـصـرٍ   أَنِـيـلاً سُـقْـتَ فـيـهِـمْ أم سـرابـا؟

أَمَـنْ أَكَـلَ الـيـتـيـمَ لـهُ عِـقـابٌ   ومَـنْ أَكَـلَ الـفـقـيـرَ فـلا عـقـابـا؟

ولـيـس بـعـامـرٍ بُـنـيـانُ قـومٍ   إذا أخـلاقُـهُـمْ كـانـتْ خـرابـا

١٧٤ مطية لا تستريح

قال شوقي يرثي محمد فريد (١٩٢٠):

كُلُّ أعوادِ مِنبرٍ وسريرٍ ... باطلٌ غيرَ هذِهِ الأعوادِ

كل أعواد (أخشاب) منبر أو سرير (عرش) هي باطل سوى أعواد التابوت

تستريحُ المَطِيُّ يوماً، وهذي ... تنقُلُ العالمينَ مِنْ عهدِ عادِ

كل المطيّ (الدواب) تستريح يوماً، وأما هذه المطيَّة (التابوت) فهي تنقل الناس إلى القبر من عهد قبيلة «عاد» البائدة

لا وراءَ الجيادِ زِيدَتْ جَلالاً ... منذُ كانتْ، ولا على الأجيادِ

والتابوت منذ الأزل لا يزداد هيبة إن مشى وراء الجياد (الخيول) في جنازة فخمة، ولا إن رُفِعَ فوق الأجياد (الأعناق)، فهيبة الجنازة هي هيبة الموت لا هيبة الموكب

هل تَرى كالترابِ أحسنَ عدلاً ... وقياماً على حُقوقِ العبادِ

ما أعدل التراب وأحسن قيامه على حقوق الناس! أليس هو الذي يسوي بينهم؟

نزلَ الأقوياءُ فيه على الضَّعْـ ... ـفَى، وحلَّ الملوكُ بالزُّهَّادِ

١٧٥ المهد جسر المقبرة

قال شوقي يرثي الأميرة فاطمة إسماعيل (١٩٢٠):

لا يَنْفَعُ الميْتَ سوى ... صالحةٍ مُدَّخَرَهْ

لا ينفع الميت سوى صالحة (عمل صالح) يدخرها لآخرته

فاطِمُ! مَنْ يولَدْ يَمُتْ ... المهدُ جسرُ المَقْبَرَهْ

يا فاطمة! كل من يولد سيموت، فالمهد ما هو إلا جسر يوصل للمقبرة

وكُلُّ نفسٍ في غدٍ ... مَيِّتَةٌ فمُنْشَرَهْ

كل نفس ستموت غداً، ثم يأتي النشور (البعث)

وإنَّهُ مَنْ يَعمَلِ الـ ... ـخيرَ أوِ الشرَّ يَرَهْ

وإنَّما يُنَبَّهُ الـ ... ـغافلُ عندَ الغَرْغَرَهْ

الغافل الأحمق لا يتنبه للخير والشر إلا عند الغرغرة (لفْظ النَفَس الأخير)

يلفِظُها حَنْظَلَةً ... كانت بِفِيهِ سُكَّرَهْ

يلفظ روحه مرة كالحنظلة؛ وقد كانت من قبل حلوة في فمه كالسكر

وَلَنْ تَزالَ مِنْ يدٍ   إلى يدٍ هذي الكُرَةْ

الحياة كالكرة، وستظل تنتقل من يد إلى يد

١٧٦ الشجاعة الحقة

قال شوقي (١٩٢٠):

إنَّ الشجاعَ هُوَ الجبانُ عنِ الأذى   وأرى الجريءَ على الشُّرورِ جبانا

١٧٧ ليس بالقطن وحده

قال شوقي (١٩٢٠):

العصرُ حُرٌّ والشُّعوبُ طليقةٌ   ما لم يَحُزْها الجهلُ في أرسانِهِ

العصر عصر حرية، والشعوب طليقة ما لم يحزها (يضمها) الجهل في أرسانه (الرسن: مقود الفرس)

أينَ الزراعةُ في جِنانٍ تحتَكُمْ   كخمائلِ الفِردوْسِ أوْ كجِنانِهِ

أين الزراعة في الجنان التي تعيشون فوقها والتي تشبه خمائل (بساتين) الفردوس

أئِذا أصابَ القطنَ كاسدُ سوقِهِ   قُمْنا على ساقٍ إلى أثْمانِهِ

أئذا أصابت القطنَ السوقُ الكاسدة، قمنا على سيقاننا فزعاً نراقب بورصة القطن وأسعاره

يا مَنْ لِشَعْبٍ رُزْؤُهُ في مالِهِ   أنساهُ ذِكرَ مُصابِهِ بكيانِهِ

يا من ينقذ هذا الشعب الذي أنساه رزؤه (مصيبته) في ماله مصابَه (مصيبته) في كيانه

المُلك كانَ ولم يكنْ قُطنٌ، فلم   يُغلَبْ أُبُوَّتُنا على عُمْرانِهِ

كان لنا مُلك ولم يكن القطن يزرع في مصر، فلم يفشل أبوتنا (آباؤنا) في تعمير الملك

الفاطِمِيَّةُ شَيَّدَتْ مِنْ عِزِّهِ   وبَنى بَنو أيوبَ مِنْ سُلطانِهِ

الحكم الفاطمي شيد جزءاً من عز هذا الملك، وبنى الأيوبيون جانباً من سلطانه

بالقُطْنِ لم يَرْفَعْ قواعدَ مُلْكِهِ   فِرْعَوْنُ، والهَرَمانِ مِنْ بُنْيانِهِ

وفرعون لم يرفع قواعد ملكه بالقطن، ومع ذلك فالهرمان من تشييده. يتابع شوقي المتنبي في الاكتفاء بهرمين، وهكذا صنع علي محمود طه في «الجندول». ورأيت مؤرخين عرباً فعلوا ذلك، «قال الحوقليّ في صفة مصر: وبها الهرمان اللذان ليس على وجه الأرض لهما نظير». على أن بمصر من الأهرام عدداً يزيد عن ٨١، ويوصله بعضهم إلى ١١٢. وقد زرت الأهرام مرة؛ جرني صديقي إليها جراً لأنه «لا يجوز لإنسان أن يزور القاهرة ولا يزور أهرام الجيزة». كانت الحادية عشرة ليلاً، ونظرت إلى هرم خوفو فرأيته منبطحاً فاستصغرته، ربما لأنني متعود على البنايات الواقفة عمودياً. على أن كتابي يقول إن هرم خوفو أكبر بناء شيده الإنسان على وجه الدهر

١٧٨ القريض الأصيل

قال شوقي (١٩٢١):

الشِّعْرُ صِنفانِ: فَباقٍ على قائِلِهِ، أو ذاهبٌ يومَ قيلْ

الشعر صنفان: شعر يبقى أبد الدهر مفخرة لقائله، وشعر يتبخر يوم نظمه

ما فيهِ عصرِيٌّ ولا دارِسٌ الدهرُ عُمْرٌ للقَريضِ الأصيلْ

ليس في الشعر عصري ودارس (قديم)، فالقريض (الشعر) الأصيل عمره طويل بطول الزمن، أي أنه خالد

١٧٩ النيل

قال شوقي (١٩٢١):

مِنْ أيِّ عهدٍ في القرى تتدفَّقُ وبِأيِّ كفٍّ في المدائن تُغدِقُ

من أي عهد وأنت تتدفق في القرى أيها النيل؟ وبأي كف تغدق (تمنح) على المدن الخيرات

ومِنَ السماءِ نزلتَ، أمْ فُجِّرْتَ مِنْ عُلْيا الجِنانِ جَداولاً تَترقْرقُ

وهل نزلت من السماء، أم تفجرت من الجنة على هيئة جداول تترقرق

وبِأَيِّ نَوْلٍ أنتَ ناسِجُ بُرْدَةٍ للضَّفَّتيْنِ جديدُها لا يَخْلُقُ

وبأي نول (آلة النسج) تنسج بردة (ثوباً/من النبات) لضفتيك، وهي جديدة دوماً لا تَخْلُق (تهترئ)

دِينُ الأوائلِ فيكَ دينُ مُروءَةٍ لِمْ لا يُؤَلَّهُ مَنْ يَقُوتُ ويَرْزُقُ

دين القدماء الذين عبدوك دين مروءة وعرفان، فلم لا يؤلَّه من يَقوت (يُطعِم) ويرزق الناس!

مُتَقَيِّدٌ بعهودِهِ ووعودِهِ يَجري على سَنَنِ الوَفاءِ ويَصْدُقُ

النيل متقيد بوعوده فيفيض في مواسمه جارياً على سَنَن (طريقة) الوفاء

ولِمَنْ هياكلُ قد علا الباني بِها بينَ الثُّريَّا والثَّرى تَتَنَسَّقُ

ولمن هذه الهياكل التي شيدها بُناتها؟ وهي منسقة واحداً بعد الآخر وتبدو، لارتفاعها، كالمعلقة بين التراب ونجوم الثريا

منها المشيَّدُ كالبروجِ، وبعضُها كالطَّوْدِ مضطجِعٌ أشمُّ مُنَطَّقُ

منها ما هو كالبروج العالية، ومنها ما هو منبطح مفلطح كالجبل الأشم (العالي) المنطَّق (المحلّى بنطاق أي حزام/ربما من السحب أو الشجر)

أهو يشير إلى هرم منفرع وحوله حزام من ثلاثة أهرام صغيرة، أم إلى كل هرم تبدو حجارته كالنطاق الملتف عليه؟

جُدُدٌ كأوَّلِ عهدِها، وحيالَها تتقادمُ الأرضُ الفضاءُ وتَعْتَقُ

هذه الهياكل تبدو جديدة، وحيالها (بجانبها) الأرض الفضاء (الفسيحة) تتقادم وتصبح عتيقة

مِنْ كلِّ ثِقْلٍ كاهلُ الدنيا به تَعِبٌ، ووجهُ الأرضِ عنْهُ ضَيِّقُ

هذه الهياكل مكونة من كل ثقل يتعب منه كاهل (ظهر) الأرض، ويضيق به وجهها

متمَكِّنٌ كالطَّوْدِ أصلاً في الثَّرى، والفرعُ في حَرَمِ السَّماءِ مُحَلِّقُ

هذا الثقل أصله (قاعدته) متمكن في الثرى (التراب) كالطود (الجبل)، وأما فرعه (رأسه) فمحلق في حرم السماء (والسماء محرمة على الإنسان لعدم الجناح، فهي إذن حَرَم)

هِيَ مِنْ بِناءِ الظُّلمِ، إلَّا أنَّهُ يَبْيَضُّ وجهُ الظُّلمِ منهُ ويُشْرِقُ

هذه الهياكل بناء مؤسس على الظلم والسخرة، لكنها مفخرة تُحَسِّن وجه الظلم لعظمتها

ونَجيبَةٍ بينَ الطُّفولةِ والصِّبا عذراءَ تَشْرَبُها القلوبُ وتَعْلَقُ

وربَّ فتاة نجيبة بين سن الطفولة والصبا، أنيسة حتى لَتَشربها القلوب وتعلَّقُها (تعشقها)

كان الزِّفافُ إليكَ غايةَ حظِّها والحظُّ إنْ بلغَ النِّهايةَ مُوبِقُ

هذه الفتاة كانت نهايةُ حظها أن زُفَّت إليك، والحظ إن بلغ بالإنسان النهاية موبق (مميت)

في كلِّ عامٍ دُرَّةٌ تُلْقَى بِلا ثمنٍ إليكَ، وحُرَّةٌ لا تُصْدَقُ

في كل عام كان قدماء المصريين يلقون إليك أيها النيل بنتاً كالدرة بلا مقابل، ويعطونك امرأة حرة لا تُصدَق (لا تأخذ مهراً)

والحرة من النساء لها صداق، والأمة المسكينة صداقها عتقها في قول من قال ذلك

والمجدُ عندَ الغانياتِ رَغيبةٌ يُبغَى كما يُبغَى الجمالُ ويُعْشَقُ

والحسان يرغبن في المجد، وهن يسعين إليه سعيهن إلى الجمال (التجمل).. والتجميل

ما أجملَ الإيمانَ لولا ضِلَّةٌ في كلِّ دينٍ بالهدايةِ تُلْصَقُ

الإيمان جميل لولا ضلة (خرافة) في كل دين تلتصق بالهداية

مَجْلُوَّةٌ بالفُلْكِ يحدو فُلْكَها بالشاطئينِ مُزَغرِدٌ ومُصَفِّقُ

وهذه الفتاة مجلوَّة (مزينة) في الفلك (السفينة) ويحدو (يغني) للسفينة على الشاطئين المزغردون والمصفقون

ألقتْ إليكَ بنفسِها ونفيسِها وأتتْكَ شَيِّقةً حواها شَيِّقُ

ألقت إليك الفتاة بنفسها وبما عليها من نفيس الجواهر، وجاءتك مشتاقة للموت في سبيل المجد، وأنت تبتلعها مشتاقاً إليها

خلعتْ عليكَ حَياءَها وحياتَها ... أأعزُّ مِنْ هذينِ شيءٌ يُنفَقُ

أعطتك حياءها وحياتها، فهل هناك أعز من هذين؟

قومٌ وقارُ الدِّينِ في أخلاقِهِمْ ... والشعبُ ما يَعتادُ أو يَتَخلَّقُ

المصريون تأصل في أخلاقهم وقار الدين، والشعب هو ما يعتاده ويتخلق به من أخلاق

أصلُ الحضارةِ في صعيدِكَ ثابتٌ ... ونباتُها حسنٌ عليكَ مُخَلَّقُ

أيها النيل أصل الحضارة ثابت في صعيدك (ترابك)، ونبات هذه الحضارة من هياكل وأهرام زيْن لك مخلق (مطيب بالخَلوق وهو من الزعفران)

وودائعُ الفاروقِ عندَكَ دِينُهُ ... ولِواؤُهُ وبيانُهُ والمنطِقُ

وقد أودع الفاروق عمر بن الخطاب عندك دينه (الإسلام) ولواءه (حُكْمَه) وبيانه ومنطقه (لغته/اللغة العربية)

بعثَ الصحابةَ يحملونَ مِنْ الهُدى ... والحقِّ ما يُحْيِي العقولَ ويَفْتُقُ

بعث الفاروق الصحابة يفتحون مصر، وحملوا إليها الدين الذي أحيا العقل وفتق اللسان باللغة العربية

يَبْنونَ للَّهِ الكنانةَ بالقنا ... واللَّهُ مِنْ حولِ البناءِ مُوَفِّقُ

يبنون بالقنا (بالرماح) الكنانة (مصر) لله بعد أن كانت لآلهة أخرى، والله يحوطهم ويوفقهم

والفتحُ بَغْيٌ لا يهوِّنُ وقعَهُ ... إلَّا العفيفُ حسامُهُ المترفِّقُ

الفتح ظلم، ولكنَّ ما هوَّنَه عفةُ الحسام وترفق الفاتحين بأهل البلد

ما كانتِ الفسطاطُ إلَّا حائطاً ... يأوي الضعيفُ لركنِهِ والمُرْهَقُ

ولم تكن الفسطاط (وهي أول ما اختط عمرو بن العاص بمصر من مدائن) إلا جداراً يحتمي به كل ضعيف أرهقته ضرائب البطالسة

وبه تلوذُ الطيرُ في طلبِ الكَرى ... ويبيتُ قيصرُ وهْوَ منهُ مُؤَرَّقُ

وحتى الطير تلوذ (تلجأ) بهذا الجدار طلباً للكرى (النوم)، وأما قيصر البطالسة فيبيت بسبب بناء الفسطاط مؤرقاً (ساهراً قلقاً)

لِي فيكَ مدحٌ ليسَ فيهِ تكلُّفٌ ... أملاهُ حُبٌّ ليس فيهِ تَمَلُّقُ

أمدحك أيها النيل بلا تكلف، ويملي هذا المدح عليَّ حب ليس فيه تملق

مما يُحَمِّلُنا الهوى لكَ أَفْرُخٌ ... سنَطيرُ عنها وَهْيَ عندكَ تُرْزَقُ

والذي يحمِّلنا بالحب لك أبناؤنا الذين سنموت ونتركهم ورزقهم عليك

تهفو إليهِمْ في الترابِ قلوبُنا وتكادُ فيهِ بغيرِ عِرْقٍ تَخْفُقُ

تهفو (تتحرك) قلوبنا ونحن موتى في التراب إشفاقاً على أبنائنا، وتكاد قلوبنا الميتة تخفق بلا عروق

تُرجَى لهمْ، واللهُ جلَّ جلالُهُ منَّا ومنكَ بِهِمْ أبرُّ وأرفَقُ

وأنت المرجو لهؤلاء الأبناء؛ والله أبرُّ وأرفق بهم منا ومنك

فاحفَظْ ودائعَكَ التي استُودِعْتَها أنتَ الوَفِيُّ إذا اؤْتُمِنْتَ الأَصْدَقُ

فاحفظ يا نيل ما استودعناك من ودائع، أي أبناءنا، فأنت الوفي

١٨٠ نشيد مصر

قال شوقي:

بَني مِصْرٍ مكانُكُمُ تَهَيَّا فَهَيَّا مَهِّدوا لِلمُلْكِ هَيَّا

يا بني مصر! مكانكم تهيأ، فمهدوا للملك

خُذُوا شمسَ النهارِ لهُ حُلِيًّا ألم تَكُ تاجَ أوَّلِكُمْ مَلِيًّا

وخذوا الشمس حِلية لملككم، فقد كان قرص الشمس تاج الفراعنة مليّاً (طويلاً). ويصر العقاد، ويتبعه مصطفى صادق الرافعي، على أن قرص الشمس لم يكن قط حلية لتاج مصر بل معبود وحسب. وقد قص علينا العقاد في كتاب الديوان قصة طويلة عن ظروف فوز هذا النشيد بجائزة اللجنة المشكَّلة لاختيار كلمات نشيد وطني. وهو ينقد كل حرف فيه، وقال في نقده للبيت الأول: «فمن الذي يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة؟ أأجنبي يخاطبهم؟»

١٨١ تحرك أبا الهول

قال شوقي (١٩٢١):

أبا الهَوْلِ! طالَ عليكَ العُصُرْ وبُلِّغْتَ في الأرضِ أقصى العُمُرْ

يا أبا الهول طال عليك العُصُر (الزمان)، وبلَّغك الله عمراً طويلاً

فيا لِدَةَ الدهرِ! لا الدهرُ شَبَّ ولا أنتَ جاوزتَ حَدَّ الصِّغَرْ

فيا لدة الدهر (رفيق الدهر/الذي ولد معه)، لا الدهر بلغ شبابه، ولا أنت تجاوزت طفولتك

إلامَ ركوبُكَ مَتْنَ الرِّمالِ لِطَيِّ الأصيلِ وجَوْبِ السَّحَرْ

إلام (إلى متى) تظل راكباً متن (ظَهر) الرمال لكي تطوي الأصيل (الغروب) وتجوب وقت السحر (قبيل الفجر)

تُـسـافـرُ مُـنـتـقـلاً فـي الـقـرونِ فـأيَّـانَ تُـلـقِـي غـبـارَ الـسَّـفـرْ

وبهذا الطي والجوب تسافر في القرون وأنت ماكث مكانك؛ فأيان (فمتى) تنفض عنك غبار السفر وتصل إلى غايتك؟

أَبَـيْـنَـكَ عـهـدٌ وبـيـنَ الـجـبـالِ تـزولانِ فـي الـموعـدِ الـمُـنـتَـظَـرْ

هل بينك وبين الجبال عهد ألا تزولا إلا معاً في الموعد المنتظر (يوم القيامة)

أبـا الـهـولِ مـاذا وراءَ الـبـقـاءِ إذا مـا تـطـاولَ غـيـرُ الـضَّـجَـرْ

يا أبا الهول! ماذا بعد طول البقاء سوى الضجر؟

عـجـبـتُ لِـلُـقـمـانَ فـي حـرصِـهِ عـلـى «لُـبَـدٍ» والـنـسـورِ الأُخَـرْ

عجبت للقمان الحكيم في حرصه على البقاء، فقد أُعطي عمراً بعمر سبعة نسور متعاقبة، وكان آخرها النسر «لُبَد» وكان عليه حريصاً

وشـكـوى «لَـبـيـدٍ» لِـطُـولِ الـحـيـاةِ ولـو لـم تَـطُـلْ لَـتَـشَـكَّـى الـقِـصَـرْ

وعجبت لشكوى «لبيد» الشاعر من طول الحياة، ولو لم تكن حياته طويلة لاشتكى قصرها

ولـو وُجِـدَتْ فـيـكَ يـا ابـنَ الـصَّـفـاةِ لَـحِـقْـتَ بـصـانِـعِـكَ الـمُـقْـتَـدِرْ

ولو وُجِدت الحياة فيك يا أبا الهول يا ابن الصفاة (الصخرة)، لكنت لحقت بصانعك المقتدر الذي نحتك ومات

فـإنَّ الـحـيـاةَ تَـفُـلُّ الـحـديـدَ إذا لَـبِـسَـتْـهُ، وتُـبْـلـي الـحَـجَـرْ

فالحياة تفل (تثلم) الحديد إذا لبسته (لزمته)، وتبلي (تهرأ) الحجر

كـأنَّ الـرمـالَ عـلـى جـانِـبَـيْـكَ وبـيـنَ يـديْـكَ ذنـوبُ الـبَـشَـرْ

كـأنَّـك فـيـهـا لـواءُ الـقَـضـاءِ عـلـى الأرضِ أو ديـدبـانُ الـقَـدَرْ

كأنك في الرمال لواءُ (عَلَم) القضاء، أو ديدبانُ (حارس) القدر

فَـحَـدِّثْ فـقـد يُـهْـتَـدَى بـالـحـديـثِ وخَـبِّـرْ فـقـد يُـؤْتَـسَـى بـالـخـبـرْ

فحدثنا بما مر بك فقد يُهتدى بحديثك، وخبرنا فقد يؤتسى (يُتَّعظ) بما تخبر

ألـم تَـبْـلُ فِـرْعَـوْنَ فـي عِـزِّهِ إلـى الـشـمـسِ مُـعْـتَـزِيَـاً والـقـمـرْ

ألم تبلُ (تختبرْ) فرعون في أيام عزه وهو يعتزي (ينتسب) إلى الشمس والقمر، فهو ابن إلهَي الشمس والقمر

وراعَكَ ما راعَ مِنْ خيلِ قَمْبيـ ـزَ تَرْمي سنابِكُها بالشَّرَرْ

وقد راعك (أخافك) ما راعك من خيل قمبيز ملك الفرس التي راحت سنابكها (أطراف حوافرها) ترمي الشرر إذ ترتطم بالصخور

وأَبصرْتَ إسْكَندراً في المَلا قَشيِبَ العُلا في الشَّبابِ النَّضِرْ

وأبصرت الإسكندر في الملأ (في الجمْع من جنوده) وهو قشيب (جديد) العلا (المجد)، وكان في شبابه النضر

تَبَلَّجَ في مِصْرَ إكليلُهُ فلم يَعْدُ في المُلكِ عُمْرَ الزَّهَرْ

تبلج (أشرق) في مصر إكليله، ثم لم يَعْدُ (يتجاوز) في الملك عمر الأزهار

وشاهدْتَ قَيْصَرَ كيف استبدَّ وكيف أذلَّ بمصرَ القَصَرْ

القَصَر: (الرقاب)

وكيف تجبَّرَ أعوانُهُ وَساقُوا الخلائِقَ سَوْقَ الحُمُرْ

ورأيت كيف تجبر أعوان قيصر الرومان وساقوا الناس سوق الحمير

وكيف ابْتُلُوا بقليلِ العَديدِ مِنْ الفاتحينَ كريمِ النَّفَرْ

وكيف ابتلي هؤلاء الأعوان من الرومان بالعدد القليل من الفاتحين، وهذا العديدُ كريمٌ نفراً

رمَى تاجَ قيصرَ رَمْيَ الزُّجاجِ وفَلَّ الجموعَ وثَلَّ السُّرُرْ

هذا العديد القليل من الفاتحين رمى تاج قيصر فانكسر كأنه الزجاج، وفرق الجموع وثل (هدم) السُّرُر (العروش/فسرير الحكم هو العرش)

فَدَعْ كلَّ طاغيةٍ للزمانِ فإنَّ الزمانَ يُقيمُ الصَّعَرْ

فاترك يا أبا الهول كل طاغية للزمان، فالزمان يقيم (يقوّم) الصَّعَر (ميل الرؤوس/والمتكبر يُميل رأسه ميلاً خفيفاً)

أبا الهولِ لو لم تكنْ آيةً لكانَ وفاؤكَ إحدى العِبَرْ

ولو لم تكن أنت آية (برهاناً) لكان وفاؤك عبرة

أطَلْتَ على الهَرَمَيْنِ الوقوفَ كَثاكِلَةٍ لا تَريمُ الحُفَرْ

فمن وفائك وقوفك طويلاً بجانب الهرمين كأنك المرأة الفاقد التي لا تريم (تبتعد) عن الحُفَر التي دفن في إحداها ابنها

تُرَجّي لِبانِيهِما عَوْدَةً وكيفَ يعودُ الرميمُ النَّخِرْ

وأنت قاعد بجانبهما كأنك تُرَجّي (ترجو) لمن بناهما عودة للحياة، وكيف يعود الجثمان الرميم (البالي) النخر (المنخور الأجوف)

فـهـل مَـنْ يُـبَـلِّـغُ عـنَّـا الأُصـولَ بـأنَّ الـفـروعَ اقـتَـدَتْ بـالـسِّـيَـرْ

فهل ثمة من يبلغ الأصول (الأجداد) بأن الفروع (الأحفاد) اقتدوا بسيرة أجدادهم

ولـم تـفـتَـخِـرْ بـأَسـاطـيـلِـهـا ولـكـنْ بِـدُسـتـورِهـا تَـفـتَـخِـرْ

وأن الأحفاد لم يفتخروا بأساطيلهم بل بدستورهم

تَـحَـرَّكْ أبـا الـهـولِ! هـذا الـزمـانُ تَـحَـرَّكَ مـا فـيـهِ حـتَّـى الـحـجـرْ

١٨٢ الضاد سر الجمال

قال شوقي في حفل ترحيب بأمين الريحاني (١٩٢٢):

إنَّ الَّـذي مـلأَ الـلُّـغـاتِ مَـحـاسِـنـاً جـعـلَ الـجـمـالَ وسـرَّهُ في الـضَّـادِ

١٨٣ سماح لضيق الوقت

قال شوقي (١٩٢٢):

اِغْـفِـرْ لِـحـاسِـدِ نـعـمـةٍ بـالأمـسِ نـالَـكَ، أو وَقَـعْ

وقع: وقع فيك، أي ذمك ونال منك

مـا فـي الـحـيـاةِ لِأَنْ تُـعـا تِـبَ أو تُـحـاسِـبَ مُـتَّـسَـعْ

١٨٤ دستور وبرلمان

جاء تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ليلغي الحماية عن مصر، ويعترف بها مملكة مستقلة، ذات سيادة، مع احتفاظ بريطانيا بالدفاع عنها وعن السودان في حال التدخل الأجنبي. أما الاستقلال فقد أُعلن رسمياً في ١٥/٣/١٩٢٣ وشكلت لجنة من ٣٠ مصرياً بارزاً لوضع الدستور. قال أحمد شوقي في تصريح إلغاء الحماية (١٩٢٢):

أُعِدَّتِ الراحةُ الكبرى لِمَنْ تَعِبا وفازَ بالحقِّ مَنْ لمْ يَأْلُهُ طَلَبا

لم يألُهُ طلباً: لم يقصِّرْ في طلبه

لا تُثْبِتُ الـعـيـنُ شـيـئـاً أو تـحـقِّـقُـهُ إذا تـحـيَّـرَ فـيـهـا الـدمـعُ واضـطـربـا

لا تبصر العين بوضوح إذا ترقرق فيها الدمع، وكذلك فإن الإنسان المنفعل لا يكون ذهنه واضحاً

والـصبحُ يُظْلِمُ في عينيكَ ناصِعُهُ إذا سَدَلْتَ عليْكَ الشكَّ والرِّيَبا

والصبح الناصع يصبح ظلاماً في عينيك إذا سَدَلْتَ (أنزلتَ) على نفسك الرِّيَب (الشكوك)

إذا طلبتَ عظيماً فاصْبِرَنَّ لَهُ ... أو فاحشُدَنَّ رماحَ «الخَطِّ» والقُضُبا

إذا أردت تحقيق أمر عظيم فعليك بالصبر، أو بحشد رماح «الخط» (الرماح المنسوبة إلى مرفأ «الخط» في البحرين) والقُضُب (السيوف)

ولن تَرى صُحْبَةً تُرضى عَواقِبُها ... كالحقِّ والصبرِ في أمرٍ، إذا اصطَحبا

ولن تجد صحبة ترضيك عواقبها (نتائجها) كاصطحابك الحق والصبر معاً

لا تَعْدَمُ الهِمَّةُ الكبرى جوائزَها ... سِيَّانِ: من غَلَبَ الأيامَ أو غُلِبا

لا تعدم (لا تفتقد) الهمة الكبيرة جوائزها (ثمراتها)، ويستوي في ذلك من حقق النصر على مصائب الأيام أو من هُزم

وكلُّ سَعْيٍ سيَجزِي اللَّهُ ساعِيَهُ ... هيهاتَ يذهبُ سَعْيُ المُحْسِنينَ هَبَا

هبا: هباء

لم يُبْرَمِ الأمرُ، حتى يستبينَ لكُمْ ... أساءَ عاقبةً أم سَرَّ مُنْقَلَبا

لم يتم إبرام الأمر (نيل السيادة) بعد، ولذلك لم يستبن (لم يظهر) لكم بعدُ هل عاقبته (نتيجته) سيئة أم سارَّة

تَمهَّدَتْ عَقَباتٌ غيرُ هَيِّنَةٍ ... تلقى ركابُ السُّرى مِنْ مِثْلِها نَصَبا

تمهدت حتى الآن عقبات (طرق جبلية صعبة) غير سهلة، وهي عقبات تلاقي ركابُ السُّرى (الإبلُ السائرة ليلاً) من أشباهها نصباً (تعباً)

وأَقْبَلَتْ عَقَباتٌ لا يُذَلِّلُها، ... في موقفِ الفصلِ، إلَّا الشعبُ منتخِبا

وأقبلت علينا عقبات أخرى لا يذللها (يسهلها) في موقف الفصل إلا الشعب عندما ينتخب ممثليه

إذا رأيتَ الهوى في أمةٍ حَكَماً ... فاحكُمْ هنالك أنَّ العقلَ قد ذهبا

إذا رأيت الهوى (المصلحة الشخصية) متحكماً في أمة فاحكم عندئذٍ بأن عقلها قد ذهب

قالوا: الحمايةُ زالتْ، قلتُ: لا عجبٌ ... بل كان باطلُها فيكمْ هو العجبا

قالوا: الحماية البريطانية زالت، فقلت: لا عجب في ذلك، بل العجب كان وجود هذا الباطل

يا ابنَ السَّنا عالياً، والعزِّ مُمْتَنِعاً ... والبأسِ مُحْتَدِماً، والعُرْفِ مُنْسَكِبا

يا ابن السنا (الشرف)، وابن العز المصون، وابن البأس المحتدم (المتَّقد)، والعُرف (المعروف) المتدفق..

باهِ الملوكَ بهذا التاجِ، إنَّ لَهُ ... في جوْهرِ الشمسِ، لا في الناسِ، مُنْتَسَبا

باهِ (قم بالمباهاة) الملوك بتاج مصر، فهو تاج يرجع في نسبه إلى جوهر (أصل) الشمس وليس إلى الناس، والشمس معبود الفراعنة

وتِـهْ عـلـيـهِـمْ بـعـرشٍ غـيـرِ ذي لِـدَةٍ   مِنْ عهدِ «خوفو» على الماءِ استوى عَجَبا

وتهْ (لك أن تتيه وتفخر) على الملوك بعرش ليس له لدة (مثيل)، وهو عرش استوى (استقر مستوياً) على الماء (النيل) من عهد «خوفو»

وإنَّ لِـلـمـجـدِ آفـاتٍ إذا جُـمِـعَـتْ   وَجَدْتَّهُنَّ اثنتينِ: الـحـقدَ والـغـضـبا

وللمجد آفات (عيوب) تتلخص في عيبين: الحقد والغضب

إنْ سَرَّكَ الـمُـلكَ تبنيهِ على أُسسٍ   فاستنهِضِ البانِيَيْنِ: العلمَ والأدبا

استنهض (ادفع للنهوض) العنصرين اللذين يبنيان الملك وهما العلم والأدب

وارفـعْ لَـهُ مِـنْ بـنـاءِ الـحـقِّ قـاعـدةً   ومُـدَّ مِـنْ سببِ الـشـورى له طُنُبـا

وارفع للملك قاعدة هي الحق، ومُدَّ له من سبب (حَبْل) الشورى طُنُباً (حبال الخيمة)، فكأن الملك خيمة أرضها الحق والحبال التي تشدها هي الشورى

دارُ الـنـيـابـةِ قـد صُـفَّـتْ أَرائِـكُـهـا   لا تُجلسوا فوقَها الأحجارَ والخَشَبا

دار مجلس النواب اكتملت وصُفَّت فيها الأرائك (المقاعد)، فلا تُجلسوا فوقها الجهلة الذين هم كالحجارة والخشب. البرلمان المصري الأول افتتح في ١٩٢٤/٣/١٥، كان النواب ٢١٤، والشيوخ ١١٩، وأمامه حلف الملك الممدوح في هذه القصيدة أحمد فؤاد اليمين: «أحلف بالله العظيم أن أحترم الدستور وقوانين الأمة المصرية، وأحافظ على استقلال الوطن وسلامة أراضيه». وكان رئيس الوزراء آنئذٍ سعد زغلول

١٨٥ رثاء كارنارفون

يرثي شوقي اللورد كارنارفون، الذي موّل كشف مقبرة توت عنخ آمون، بينما قام بالحفر والبحث الآثاري هوارد كارتر، وحدث الكشف في ١٩٢٢/١١/٤. ومات كارنارفون بعد الكشف بأسابيع من بعوضة لسعته بأسوان في الصعيد. وكانت بريطانيا التي تحتل مصر أعطت كارنارفون امتياز التنقيب في وادي الملوك. (١٩٢٣):

فـي الـمـوتِ مـا أَعـيـا وفـي أسـبـابِـهِ   كـلُّ امـرئٍ رَهْـنٌ بِـطَـيِّ كـتـابِـهِ

في الموت ما أتعب (أعيا) الفكر، وكذا في أسباب حدوث الموت؛ والمرء مرهون بطيّ (بمضمون) كتابه (قَدَره)

إن نـامَ عـنـكَ فـكُـلُّ طِـبٍّ نـافـعٌ   أو لـمْ يَـنَـمْ فـالـطـبُّ مِـنْ أذنـابِـهِ

إن نسيك الموت ظننت الطب نافعاً، وإن تذكَّرك الموت فكأن الطب ـ وأخطاء الأطباء ـ من أذنابه (من أعوان الموت)

داءُ النفوسِ، وكلُّ داءٍ قبلَهُ   هَمٌّ نَسِينَ مجيئَهُ بِذَهابِهِ

الموت هو مرض النفوس الحقيقي، وكل مرض يلم بالنفوس قبل الموت هو مجرد هم تنسى النفوس مجيئه فور ذهابه

وشِفاءُ هذي الروحِ من آلامِها   ودواءُ هذا الجسمِ مِنْ أوصابِهِ

والموت أيضاً شفاء، فهو يخلص الروح من آلامها، ويخلص الجسم من أوصابه (أوجاعه)، إذ لا مرض بعد الموت

من سَرَّهُ ألَّا يموتَ.. فبِالعُلا   خَلَدَ الرجالُ، وبالفَعالِ النَّابِهِ

من أحب أن لا يموت، فإن الرجال يخلدون بالعلا (بالمجد) وبالفَعال النابه (بالأفعال الحسنة الذائعة الصيت)

ما ماتَ مَنْ حازَ الثَّرى آثارَهُ   واستولتِ الدنيا على آدابِهِ

لم يمت من له في التراب آثار، ومن تخاطفت الدنيا آدابه، كتوت عنخ آمون

هذا فتىً يمشي عليْهِ مُجَدِّداً   ديباجَتَيْهِ، معمِّراً بخَرابِهِ

ها هو فتى (اللورد كارنارفون) يمشي فوق تراب المدفن مجدداً ذكر توت عنخ آمون وكاشفاً وجهه للعالم مجدداً ديباجتيه (خدَّيْه)، ومعمِّراً مدفنه الذي كان مطموراً

صادَتْ بقارعةِ الصَّعيدِ بعوضةٌ   في الجوِّ صائدَ بازِهِ وعُقابِهِ

صادت بعوضة في قارعة (وسط) الصعيد ذلك الرجل الذي صاد باز توت عنخ آمون وعقابه (والباز والعقاب طيران من الجوارح)، والطير الجارح من شعارات ملوك مصر القدماء

لا تسمَعَنَّ لعُصْبَةِ الأرواحِ ما   قالوا بباطِلِ علمِهِمْ وكِذَابِهِ

لا تأبه لما قالت عصبة الأرواح (جماعة قالوا إن كارنارفون لحقته لعنة الفراعنة وطاردته أرواحهم)، فما قالوه باطل وكِذاب (كذِب)

الرُّوحُ للرَّحمنِ جلَّ جلالُهُ   هِيَ مِنْ ضَنائِنِ علمِهِ وغِيابِهِ

فالروح لله، وهي من ضنائن علمه (النفائس المخبأة). فالروح من أمر ربي

أفضى إلى خَتْمِ الزمانِ ففَضَّهُ   وحبا إلى التاريخِ في مِحرابِهِ

أفضى (وصل) كارنارفون إلى ختم الزمان ففضه (كسره) فانفتح له الزمان، وحبا (زحف) إلى التاريخ في محرابه (أهم موضع منه)

وطوى القرونَ القَهقَرى حتَّى أتى	فِـرْعَـوْنَ بـيـنَ طـعـامِـهِ وشـرابِـهِ

وطوى القرون القهقرى (إلى الخلف)، حتى أتى فرعون مسجى وعن جانبيه الطعام والشراب. وكان يوضع في مدافن ملوك مصر طعام وشراب، ومدفن توت عنخ آمون مدفن بكر لم يهتد إليه اللصوص القدماء، وعندما اكتشف كانت فيه كل محتوياته، وجاءت بعدئذ لصوصية المستعمر الجديدة. والبيتان الماضيان (أفضى.. وطوى) قال فيهما حافظ إبراهيم، على ذمة زكي مبارك، «قتلني شوقي بهذين البيتين»

أَخرجتَ مِنْ قبرٍ كتابَ حَضارةٍ	الـفـنُّ والإعـجـازُ مِـنْ أبـوابِـهِ

يا كارنارفون أخرجت من قبرٍ أشياء هي بمثابة كتاب حضارة؛ وإن الفن والإعجاز (كالتحنيط، ودقة الصنعة) من أبواب (فصول) هذا الكتاب

فرفعتَ رُكْناً للقضيَّةِ، لم يَكُنْ	سَحْبانُ يرفَعُهُ بسِحْرِ خِطابِهِ

فدعمت بذلك قضيتنا الوطنية بركن مكين، لم يكن خطيب العرب (سحبان) ليرفع هذا الركن ببلاغته. فبهذا الاكتشاف تيقن العالم أن مصر بلد مُعْرِق في الحضارة، ولا يجوز أن يستمر احتلاله

١٨٦ نبل أخلاق

قال شوقي يرثي سعيد زغلول ابن أخت سعد زغلول (١٩٢٣):

لم يكنْ في غُلُوِّهِ ضيِّقَ الصد	رِ، ولا كان عاجزاً في اعتدالِهْ

لم يكن في غلوِّه (مبالغته) ضيق الصدر بمخالفيه، ولم يكن في اعتداله عاجزاً

لا يعادِي ويَتَّقي أنْ يُعادَى	ويُخَلِّي سبيلَ مَنْ لم يُوالِهْ

لا يعادي الناس ويتقي (يتجنب) أن يعاديه الناس، ولا يشغب على من لم يواله (لم يناصره)

١٨٧ سرقة الآثار

قال شوقي في الكشف عن مقبرة توت عنخ آمون (١٩٢٣):

قِفي يا أختَ «يُوشَعَ» خَبِّرينا	أحاديثَ القرونِ الغابِرينا

قفي يا أخت يوشع (الشمس) وخبرينا أحاديث القرون (الأجيال) الغابرين (الماضين).
وسمى الشمس «أخت يُوشَع» لأن نبي اليهود المحارب «يوشع بن نون» أراد القضاء على أعدائه قبل غروب الشمس والدخول في السبت المحرم فيه القتال، وعندما جنحت للغروب أمرها الرب.. «فوقفت الشمس في كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل» ـ يَشُوع/ أصحاح ١٠، آية ١٣ ـ، وقضى عليهم

وقُصِّي مِنْ مصارِعِهِمْ علَيْنا	ومِنْ دُولاتِهِمْ ما تَعلَمينا

وقُصِّي علينا قصص مصارع (كيفية موت) الأجيال السابقة، وقصص دُولاتهم (مصائبهم التي تداولت عليهم)

نرى لكِ في السماءِ خَضيبَ قَرْنٍ ولا نُحْصي على الأرضِ الطَّعِينا

نرى لك أيتها الشمس قرناً (ظفر الشمس حين يبرز) خضيباً (مصبوغاً بالحمرة)، ولا نحصي الطعين (المطعونين) بهذا القرن على الأرض فالشمس في شروقها وغروبها تجعل الزمن يمر، وبمروره يموت الناس

مَشَيْتِ على الشَّبابِ شُواظَ نارٍ ودُرْتِ على المَشيبِ رَحَىً طَحُونا

مشيت أيتها الشمس على أيام الشباب شواظَ نار (لهباً)، ثم درت على أيام المشيب كالرحى (حجر الطاحون) الطَّحون (الشديدة الطحْن)

تُعِينينَ المَوالِدَ والمنايا وتَبنينَ الحياةَ وتَهدِمينا

بدورانك تساعدين الموالد (الوِلادات) وتساعدين المنايا (الميتات)، فدورانك هو الزمن وهو سبب ولادة الحياة وحدوث الموت

فيا لَكِ هِرَّةً أكلتْ بَنِيها وما وَلَدُوا، وتَنْتَظِرُ الجَنينا

فيا لك من هرة أكلت أولادها، وأكلت أولاد أولادها، وتنتظر الجنين القادم

أَأُمَّ المالِكينَ بني أَمونٍ لِيَهْنِكِ أنَّهُمْ نَزَعُوا أَمونا

أيتها الشمس، يا أم الفراعين من أبناء الإله آمون، هنيئاً لك أنهم نزعوا أمون (أشبهوه)

وَلَدتِ لهُ المَآمِينَ الدَّواهي ولم تَلِدي لهُ قطُّ الأمِينا

ولدت لآمون المآمين (الأبناء الشبيهين بالمأمون الخليفة العباسي الحازم)، ولم تلدي قط (أبداً) الأمين (الخليفة العباسي العابث المهزوم)

مَشَتْ بمنارِهِمْ في الأرضِ روما ومِنْ أنوارِهِمْ قَبَسَتْ أَثِينا

هؤلاء الملوك من سلالة آمون مشت بنورهم حضارة روما، ومنهم اقتبست أثينا

ملوكُ الدهرِ بالوادي أقاموا على وادي الملوكِ مُحَجَّبِينا

ملوك الزمان في الوادي (وادي النيل/أي ملوك مصر)، أقاموا الآن في «وادي الملوك» (موضع عند الأقصر) مدفونين محجوبين عن الأنظار

فَرُبَّ مُصَفَّدٍ مِنْهُمْ، وكانتْ تُساقُ لهُ الملوكُ مُصَفَّدِينا

رب ملك هو الآن مصفد (مقيد) في قبره، وكان الملوك الآخرون المهزومون في المعارك يساقون إلى حضرته مقيدين

تَقَيَّدَ في الترابِ بِغيرِ قَيْدٍ وحَلَّ على جوانِبِهِ رَهِينا

لقد تقيد في مدفنه ولكن دون أغلال، وحل التراب رهيناً (مرهوناً بمكانه لا يبرحه)

تعالى اللهُ! كان السِّحرُ فيهِمْ أَلَيْسوا لِلحجارةِ مُنْطِقِينا

سبحان الله! كانوا بارعين في السحر، أوَ لم يجعلوا الحجارة تنطق في تماثيلهم؟

ولستُ بِقائلٍ ظَلَموا وجارُوا على الأُجَراءِ أو جَلَدوا القَطينا

ولا أقول إن أولئك الملوك ظلموا الأجراء (العمال المأجورين)، أو أنهم جلدوا القطين (الخدم)

فإنَّا لم نُوَقَّ النقصَ حتى نطالِبَ بالكمالِ الأَوَّلِينا

فنحن لم نوقَّ (لم نُجنَّب) النقص لنطالب الأولين بالكمال

وما «البَسْتيلُ» إلَّا بنتُ أمسٍ وكَمْ أَكَلَ الحديدُ بِها سَجِينا

وما سجن «الباستيل» سوى بنت الأمس، وكانت قيود الحديد في الباستيل تأكل أجسام السجناء

وَرُبَّةَ بِيعَةٍ عَزَّتْ وطالَتْ بَناها الناسُ أمسِ مُسَخَّرِينا

وربَّة (رُبَّ) بِيعة (كنيسة) عزيزة (منيعة) وعالية بناها الناس بالسخرة

مُشَيَّدةٍ لِشافي العُمْيِ عيسى وكَمْ سَمَلَ القُسوسُ بِها عُيونا

وقد شيدت تلك الكنيسة لعيسى شافي العمي (العميان)، ولكن كثيراً ما سمل (فقأ) القسس فيها عيون الناس

أخا اللورداتِ مِثْلُكَ مَنْ تَحَلَّى بِحِلْيَةِ آلِهِ المُتَطَوِّلِينا

يا أخا اللوردات (أيها اللورد كارنارفون)! يُنتظر من مثلك أن يتحلى بحلية (بزينة) آله (قومه) المتطولين (القادرين)

أُبُوَّتُنا وأَعظُمُهُمْ تُراثٌ نُحاذِرُ أنْ يؤولَ لآخَرِينا

أبوتنا (آباؤنا) وعظامهم تراث ورثناه ونحاذر (نمانع) أن يؤول للآخرين

ونَأْبَى أنْ يَحُلَّ عليهِ ضَيْمٌ ويَذْهَبَ نُهْبَةً لِلنَّاهِبينا

ونرفض أن يقع على هذا التراث ضيم (ظلم)، وأن ينهبه الناهبون

سَكَتَّ فَحامَ حوْلَكَ كلُّ ظنٍّ ولو صَرَّحْتَ لم تُثِرِ الظُّنونا

لقد سكتَّ عندما اكتشفت مدفن توت عنخ آمون ولم تفصح عن محتوياته، فحامت حول مقاصدك الظنون بسبب صمتك

يقولُ الناسُ في سِرٍّ وجَهْرٍ وما لَكَ حيلةٌ في المُرْجِفينا..

وقال الناس سراً وجهراً ـ ولا حيلة لك في المرجفين (المشككين) ـ قالوا..

أَمَنْ سَرَقَ الخليفةَ وَهْوَ حَيٌّ   يَعِفُّ عنِ الملوكِ مُكَفَّنِينا

هل الذي سرق الخليفة حياً، سيعف (يترفع) عن الملوك وهم في أكفانهم. وكانت بارجة بريطانية حملت الخليفة العثماني وحيد الدين إلى منفاه عام ١٩٢٢، بعد أن ثار به الكماليون

خَليلَيَّ اهبِطا الوادي، ومِيلا   إلى غُرَفِ الشموسِ الغارِبينا

يا صاحبيَّ (والشاعر العربي له دائماً صاحبان يكلمهما) اهبطا وادي الملوك، وميلا معي (عرِّجا معي) إلى غرف الفراعنة المدفونين الذين هم كالشموس الغاربة

وخُصَّا بالعَمَارِ وبالتَّحايا   رُفاتَ المجدِ مِنْ توتَنْخَمينا

وخصا بالعمار (الريحان) والتحية رفات (بقايا) المجد من توت عنخ آمون

وقبراً كادَ مِنْ حُسْنٍ وطِيبٍ   يُضِيءُ حِجارةً ويَضوعُ طِينا

وحيِّيا قبراً كاد من جماله ورائحته الزكية يضيء بحجارته، ويتضوع العبير من طينه

وكان نزيلُهُ بالمَلْكِ يُدْعَى   فصارَ يُلَقَّبُ الكَنْزَ الثَّمِينا

ونزيل القبر كان يدعى المَلْك (المَلِك)، وأما الآن وهو ميت فصار يدعى الكنز الثمين

فَثَمَّ جلالةٌ قَرَّتْ ودامتْ   على مَرِّ القرونِ الأَرْبَعِينا

فثَمَّ (فهناك) جلالة استقرت واستمرت أربعين قرناً

وقُولا للنَّزيلِ: قدومَ سعدٍ   وحيَّا اللَّهُ مقدَمَكَ اليَمِينا

وقولا يا صاحبي لنزيل القبر، جئت إلينا الآن فقدومك قدوم سعد علينا (وكانت مصر أيامئذ تستقبل عهداً دستورياً، وفكاكاً من الحماية البريطانية) فحيا الله قدومك اليمين (الميمون)

سلامٌ يومَ وارَتْكَ المنايا   بِوادِيها، ويومَ ظَهَرْتَ فِينا

سلام عليك يوم وارتك (حجبتك) المنايا (الموت) في واديها (وادي الملوك الذي هو مقبرة كبيرة)، وسلام عليك يوم ظهورك الآن بالكشف عن مدفنك

خرجْتَ مِنَ القبورِ خُروجَ عيسى   عليكَ جلالةٌ في العالَمِينا

خرجت كما خرج عيسى من قبره ورفعه الله إليه

وأُقْسِمُ كنتَ في لُوزانَ شُغْلاً   وكنتَ عجيبةَ المُتَفاوِضينا

وأقسم أنك كنت شغلاً شاغلاً للمتفاوضين في لوزان بسويسرا (المؤتمر دام نحو ثلاثة أشهر وعقد لاقتسام تركة الدولة العثمانية)، وكلهم تعجبوا من هذا الكشف

أتعلمُ أنَّهُمْ صَلَفُوا وتاهُوا   وصَدُّوا البابَ عنَّا مُوصِدِينا

فهل تعلم أنهم صلفوا (تغطرسوا) وتاهوا (تكبروا)، وأوصدوا الباب دون الوفد المصري الذي ذهب يطالب بجلاء الإنجليز

ولـو كُـنَّـا نَـجُـرُّ هـنـاكَ سـيْـفـاً   وَجَـدنـا عـنـدَهُـمْ عَـطْـفـاً ولِـيـنـا
سَـيَـقْـضِـي كِـرْزِنٌ بـالأمْـرِ عـنَّـا   وحـاجـاتُ الـكـنـانـةَ مـا قُـضِـيـنـا

سيقضي في شأننا اللورد جورج كيرزون (وزير خارجية بريطانيا)، وحاجات الكنانة (مصر) لم يتم قضاؤها

زمـانُ الـفَـردِ يـا فِـرْعَـوْنُ وَلَّـى   ودالَـتْ دولـةُ الـمُـتَـجَـبِّـريـنـا

فيا فرعون الدفين اعلم أن زمان حكم الفرد ولّى، وانتهت دولة المتجبرين بالناس

وأصـبـحَـتِ الـرُّعـاةُ بـكـلِّ أرضٍ   عـلـى حُـكْـمِ الـرَّعـيـةِ نـازِلـيـنـا

وأصبح الرعاة (الحكام) في كل بلد نازلين عند رأي الرعية (الشعوب)

فـؤادُ أجَـلُّ بـالـدُّسـتـورِ دُنْـيـا   وأشـرفُ مِـنْـكَ بـالإسـلامِ دِيـنـا

الملك أحمد فؤاد بوجود الدستور أكثر جلالاً منك في دنياه يا فرعون، وهو بالإسلام أشرف منك في دينه

وأهـدَى فـي بـنـاءِ الـمُـلْـكِ جَـدًّاً   وأَجْـوَدُ والـداً فـي الـمُـحْـسِـنـيـنـا

وأحمد فؤاد جدُّه أكثر هداية (حِكمة) في بناء الملك (وجده هو إبراهيم باشا ابن محمد علي)، ووالده أجود من فرعون إحساناً (ووالده الخديوي إسماعيل)

بـنـى الـدَّارَ الـتـي لا عِـزَّ إلَّا   عـلـى جَـنَـبـاتِـهـا لِـلـمـالِـكـيـنـا

بنى أحمد فؤاد الدار التي لا عز للملوك إلا في جنباتها (نواحيها)، وهي دار البرلمان

فعَـجِّـلْ يـا ابـنَ إسـمـاعـيـلَ عَـجِّـلْ   وهـاتِ الـنـورَ واهْـدِ الـحـائِـريـنـا

عجل يا أحمد فؤاد بالدستور ليهدي الحائرين

مـلايـيـنٌ تَـجُـرُّ الـجـهـلَ قَـيْـداً   وتُـسْـحَـبُ بـالـقَـلـيـلِ الـمُـطْـلَـقِـيـنـا

الملايين تمشي ويقيدها الجهل، والذين يسحبون ملايين الجهال هم القلة من المطلقين (الذين نالوا حرية عقولهم بالعلم)

فـداوِ بـه الـبـصـائـرَ، فَـهْـوَ عـيـسـى   وفُـكَّ بِـراحَـتَـيْـهِ الـمُـقْـعَـدِيـنـا

فداوِ بالدستور البصائر (العقول) فالدستور مثل عيسى شافي المرضى، وفك بيديْ الدستور الكسيحين

ومَـنْ يَـرَ دونَـهُ حـقًّـاً فـإنِّـي   أراهُ وَحْـدَهُ الـحـقَّ الـمُـبِـيـنـا

ولمن يرى الحق في أمر سوى الدستور، فإنني أرى الدستور وحده الحق الواضح.
نقد طه حسين هذه القصيدة بادئاً بأن شوقي «قد شبع ثناءً وتقريظاً، وأحسبه لم يشبع نقداً بعد» وبالطبع فقد أحب طه النغمة الفرعونية في القصيدة. وآخذ شوقي في ألفاظ

كلفظة «نزعوا» في البيت السابع مما اخترنا، فقد اضطر شوقي إلى أن يشرحها عندما نشر قصيدته في الأهرام، وما كان طه ليفهمها لولا الشرح، كما قال. وأثنى طه على اللطف وخفة الروح في البيت: (أمن سرق الخليفة وهو حي/ يعف عن الملوك مكفنينا). وعن كلام شوقي عن الشأن المصري إزاء عسف المحتل الإنجليزي قال طه حسين: «الحكومة المصرية خليقة أن تقرأ وخليقة أن تتعظ وخليقة أن تعمل». وقال: «ثم ينتقل الشاعر أحسن انتقال، ويثب ويخيل إليك أنه يخطو. يثب من عصر الفراعنة إلى العصر الذي نعيش فيه. فتراه شاعراً مصرياً يعيش في هذه السنة، يحس ما نحس، ويشفق مما نشفق منه. يحب الدستور ويكلف به، ويتمنى على صاحب الجلالة في ألذ لفظ وأعذبه، وفي أمتن أسلوب وأصفاه، وفي أشد العبارات تمثيلاً لأصدق العواطف، يتمنى على صاحب الجلالة إصدار الدستور». انتهى كلام طه حسين

١٨٨ عصركم بطل

قال شوقي (١٩٢٣):

قُلْ لِلشبابِ بمصرٍ عصرُكُمْ بَطَلٌ بكلِّ غايةِ إِقدامٍ لَهُ وَلَعُ

عصركم بطل جريء، مولع بالنتائج التي تجرها الشجاعة

البَرُّ ليس لَكُمْ في طولِهِ لُجُمٌ والبحرُ ليس لَكُمْ في عُرْضِهِ شُرُعُ

وليس لكم في طول البر لُجُم (خيل على كل منها لجام)، وليس لكم في عُرض البحر (وسطه) شُرُع (سفن لها أشرعة)، يريد القول إنه ليس لمصر قوة برية أو بحرية

هل تَنهضونَ! عساكُمْ تَلْحقونَ به فليس يَلْحَقُ أهلَ السَّيْرِ مُضْطَجِعُ

فهل تنهضون! لعلكم تلحقون بعصركم، لأن المضطجع (المستلقي) لا يلحق الماشين

لا يُعْجِبَنَّكُمُ ساعٍ بِتَفرقةٍ إنَّ المِقَصَّ خفيفٌ حينَ يَقْتَطِعُ

لا تصبوا إعجابكم على من يسعى للتفرقة، فالتفرقة سهلة ولكنها تؤدي إلى تخريب دائم، كالمقص الذي يسهل عليه أن يقطع القماش ولا إصلاح لما قطع

ما لِلشَّبابِ ولِلماضي! تمرُّ بِهِمْ فيهِ على الجِيَفِ الأحزابُ والشِّيَعُ

والشباب، ما لهم وللماضي! والأحزاب والشيع (المنظمات السياسية) تأخذ الشباب وتطوف بهم على الماضي وتريهم ما به من الجيف (الجثث) وتملأهم أحقاداً

لا يَمْنَعَنَّكُمُ بِرُّ الأُبُوَّةِ أنْ يكونَ صُنْعُكُمْ غيرَ الذي صَنَعُوا

الوفاء للأبوة ليس معناه الامتناع عن صنع شيء لم يصنعه آباؤكم

وكلُّ بُنْيانِ قومٍ لا يَقومُ على دعائِمِ العَصْرِ مِنْ رُكْنَيْهِ مُنْصَدِعُ

وكل بناء للأمة لا يكون مدعماً بمفاهيم عصرية يتصدع من ركنيه (جانبيه)

كَمْ في الحياةِ مِنَ الصَّحراءِ مِنْ شَبَهٍ ... كِلْتاهُما في مُفاجَاةِ الفَتَى شَرَعُ

ما أشبه الحياة بالصحراء. كلتاهما شرع (سواء) في مفاجأة الإنسان

ولسْتَ تدري، وإن كنتَ الحريصَ، متى ... تَهُبُّ رِيحاهُما أَوْ يَطْلُعُ السَّبُعُ

مهما كنت حريصاً فأنت لا تعرف متى تهب ريح الصحراء وريح الحياة، أو متى يطلع عليك السبع

ولسْتَ تأْمَنُ عند الصَّحْوِ فاجِئَةً ... مِنَ العواصِفِ فيها الخوفُ والهَلَعُ

ولا تأمن عاصفة مفاجئة فيها خوف لك وهلع

ولسْتَ تدرِي، وإنْ قَدَّرْتَ مُجْتَهِداً، ... متى تَحُطُّ رِحالاً أو مَتى تَضَعُ

وأنت لا تدري، مهما تحسبت، متى ستحط (ستُنزل) رحلك من على ظهر مطيتك، ومتى تضعه عليها. أنت تأتي للدنيا وترحل عنها وتسافر فيها مُسَيَّراً لا مخيراً

ولسْتَ تملِكُ مِنْ أمرِ الدليلِ سِوى ... أنَّ الدليلَ وإنْ أرْداكَ مُتَّبَعُ

وفي الصحراء ـ وأيضاً في الحياة ـ ليس في يدك من أمر المرشد إلا أنه يجب عليك اتِّباعه وإن أرْداك (أهلكك)

وما الحياةُ إذا أَظْمَتْ وإنْ خَدَعَتْ ... إلَّا سرابٌ على صحراءَ يَلْتَمِعُ

والحياة تظمئك (تعطشك) وتخدعك، مثل سراب يلمع في الصحراء

١٨٩ يومٌ كبدر

قال شوقي يهنئ الأتراك بانتصارهم على اليونانيين سنة (١٩٢٣):

اللَّهُ أكبرُ! كمْ في الفتحِ من عَجَبِ ... يا خالدَ التُّرْكِ جدِّدْ خالدَ العربِ

يا خالد الترك (مصطفى كمال) جدد ذكرى خالد العرب (خالد بن الوليد)

سُئِلْتَ سِلماً على نصرٍ فجُدْتَ بها ... ولو سُئِلتَ بغيرِ النصرِ لم تُجِبِ

طُلب منك السلْم بعد انتصارك، فمنحتهم السلم وجنحت لها، ولو لم تكن قد انتصرت عليهم فلن ترضى بالسلم

قذفْتَهُمْ بالرياحِ الهُوجِ مُسْرَجَةً ... يحمِلْنَ أُسْدَ الشَّرى في البَيْضِ واليَلَبِ

وفي الحرب كنت قد قذفت اليونانيين بالرياح الهوجاء المسرجة (التي عليها السروج/ يعني الخيل)، وهي تحمل أسود الشرى (والشرى مكان قرب الفرات كثير الأسود) التي تلبس البَيْض (الخُوَذ) واليَلَب (الدروع)

يومٌ كبدرٍ، فخَيْلُ الحقِّ راقصةٌ   على الصعيدِ، وخيلُ اللّهِ في السُّحُبِ

هذا اليوم (المعركة) مثل يوم بدر، فخيل الترك التي معها الحق ترقص على التراب، وخيل الله ترقص في السحب، يقول إن الله أيد مصطفى كمال في حربه مع اليونانيين بجند من عنده كما حدث يوم بدر. انتقد طه حسين هذه القصيدة في مقالين. فأبو تمام صاحب «السيف أصدق أنباء من الكتب» هو الذي «قدَّم إلى شوقي قوافيَه وشيئاً غير قليل من ألفاظه ومعانيه». وللحق فإن قصيدة شوقي لا تصمد طويلاً لملحمة أبي تمام العظيمة. ويمضي طه حسين في لهجة تذكرنا بلهجة العقاد في الديوان: «هذه القصيدة أصدق دليل وأقواه على عجز القديم عن تصوير الحياة الحديثة، وفشل الشعر العربي العصري فيما قصد إليه من إمتاع النفوس وإشعارها لذة الجمال الفني.. هذه القصيدة هي أشبه شيء بالتمرين المدرسي يذهب به الأطفال مذهب المحاكاة للنماذج الفنية التي تلقى إليهم فيوفقون في الصورة ويخطئون في الموضوع،» انتهى كلام طه. وليتذكر القارئ أن النقد موجه إلى قصيدة من ثمانية وثمانين بيتاً، أما ما اخترناه هنا فهو زبدتها

١٩٠ شمس الخلافة

قال شوقي يهنئ الثائرين بأنقرة (١٩٢٣):

قُمْ نادِ أَنْقَرَةً، وقلْ: يَهْنيكِ   مُلْكٌ بَنَيْتِ على سيوفِ بَنيكِ

قمْ أيها المنادي وناد أنقرة، وقل هنيئاً لك هذا الملك الذي بنيتِه على سيوف أبنائك. وأنقرة كانت عاصمة مصطفى كمال أتاتورك في المعارك التي خاضها بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى لكي ينشئ تركيا الحديثة، ثم ظلت عاصمة لتركيا

مِنِّي لعهدِكِ يا فَروقُ تَحِيةٌ   كعيونِ مائِكِ أو رُبى واديكِ

ولفروق (إستانبول) مني تحية جميلة كعيون مائها وربى واديها

إنْ أنسَ لا أنسَ الشبيبةَ والهوى   وسوالفَ اللَّذَّاتِ في ناديكِ

مهما نسيت فلن أنسى عهد الشباب والحب، وسوالف اللذات (ما سلف من لذات) في مجالسك

ولياليًا لم ندْرِ أينَ عِشاؤُها   مِنْ فجرِها لولا صياحُ الديكِ

ولن أنسى لياليَ مرت سريعة فلم نعرف وقت العشاء من وقت الفجر فيها لولا صياح الديك

قلْ للخلافةِ قولَ باكٍ شمسَها   بالأمسِ لمَّا آذَنَتْ بِدُلوكِ

قل للخلافة قول من يبكي شمسها بالأمس لما آذنت بدلوك (أوشكت على الغروب)

إنَّ الذينَ توارثوكِ على الهوى   بعدَ ابنِ هندٍ طالما كَذَبوكِ

إن الذين توارثوك أيتها الخلافة على الهوى (لمصالحهم) بعد ابن هند (معاوية أول خليفة ورَّث الحكم لمن بعده توريثاً) كثيراً ما كَذَبوك (تصرفوا بغير ما يتطلبه معنى الخلافة)

لـم يَـلْـبَـسـوا بُـرْدَ الـنـبـيِّ، وإنـمـا   لَـبِـسـوا طـقـوسَ الـرومِ إذ لَـبِـسـوكِ

لم يلبسوا برد النبي (عباءة النبي/التي كان الخلفاء يتوارثونها)، أي أنهم لم يسلكوا مسلك النبي، وإنما لبسوا (اتخذوا) طقوس الروم عندما آلت إليهم الخلافة

١٩١ أعلمت للقمرين من أسلاف؟

قال شوقي يرثي الشاعر إسماعيل صبري (١٩٢٣):

شَرَفُ العصامِيِّينَ صنعُ نفوسِهِمْ   مَنْ ذا يقيسُ بِهِمْ بني الأشرافِ

قـلْ لـلـمـشـيـرِ إلـى أبـيـهِ وجـدِّهِ:   أَعَـلِـمْـتَ لـلـقَـمَـرَيْـنِ مِـنْ أَسْـلافِ

القمران: الشمس والقمر، وهما عزيزا المنال ولا أسلاف (أجداد) يفتخران بهم

١٩٢ إتقان

قال شوقي (١٩٢٣):

أيُّـهـا الـعـمـالُ أفْـنُـوا الـ   ـعُـمْـرَ كَـدّاً واكـتِـسـابـا

يخاطب العمال ويريد منهم إفناء العمر كدّاً (تعباً). وهل يملكون سوى ذلك؟ هلَّا خاطب أولاد الباشوات في زمنه!

واعـمُـروا الأرضَ فَـلَـوْلا   سـعْـيُـكُـمْ أمْـسَـتْ يَـبـابـا

يباباً: خراباً

أيـنَ أنـتـمْ مِـنْ جُـدودٍ   خَـلَّـدوا هـذا الـتـرابـا

أتـقَـنـوا الـصَّـنْـعَـةَ حـتَّـى   أَخَـذوا الـخُـلْـدَ اغـتـصـابـا

قدماء المصريين أتقنوا الصنعة (الفن) حتى نالوا بمخلفاتهم الخلود غصباً من الزمن

إن لِـلـمُـتـقِـنِ عـنـدَ الـلَّـ   ـهِ والـنـاسِ ثَـوابـا

هذا بيت بسيط، وليس فيه لا معنى بديع، ولا.. ولا شيء. لكنَّ إتقان العمل أمر نفتقده في مجتمعاتنا كثيراً، فرأيت في هذا البيت صدى لمعنى يتردد في نفسي

١٩٣ كُفِّنتِ في ثوب الزفاف

قال شوقي ينعى الخلافة (١٩٢٤):

عـادتْ أغـانـي الـعُـرْسِ رَجْـعَ نُـواحِ   ونُـعِـيـتِ بـيـنَ مـعـالـمِ الأفـراحِ

عادت (أصبحت) أغاني العرس (الفرحة بانتصار الترك على اليونانيين وتأسيس تركيا الحديثة) رجع (صدى) نواح، ونُعِيَتِ الخلافة وسط مظاهر الفرح

كُفِّنْتِ في ليلِ الزِّفافِ بِثوبِهِ وَدُفِنْتِ عندَ تَبَلُّجِ الإصباحِ

تبلُّجُ الإصباح: ظهور الفجر

والشامُ تسألُ والعراقُ وفارسٌ أَمَحا مِنَ الأرضِ الخلافةَ ماحِ

تسأل هذه البلاد هل محا الخلافة أحد من الوجود محواً

أَستغفرُ الأَخلاقَ! لستُ بجاحدٍ مَنْ كنتُ أدفعُ دونَهُ بسلاحي

عذراً أيتها الأخلاق، فلست جاحداً! لا أجحد فضل مصطفى كمال «أتاتورك» الذي كنت أدافع عنه بسلاحي (وسلاح شوقي قلمه)

ما لي أطوِّقُهُ المَلامَ، وطالما طوَّقْتُهُ المأثورَ من أَمْداحي

ما لي أطوق عنقه باللوم، وكثيراً ما طوقته بمدائحي المأثورة (التي يبقى أثرها بين الناس)

أدُّوا إلى الغازي النصيحةَ ينتصحْ إن الجوادَ يثوبُ بعدَ جِماحِ

أدُّوا (أعطوا) إلى الغازي (أتاتورك) النصيحة، والحصان الأصيل يثوب (يعود) إلى طبيعته بعد الجماح (الجموح)

١٩٤ يا ربِّ قوِّ يدها وشُدَّها

قال شوقي في افتتاح البرلمان المصري (١٩٢٤):

مصرُ الفتاةُ بَلَغَتْ أَشُدَّها

وأَنْبَتَ الدَّمُ الزكِيُّ رُشْدَها

يا رَبِّ! قَوِّ يَدَها وشُدَّها

وافتحْ لها السُّبْلَ ولا تَسُدَّها

بعد انحسار الحرب العالمية الأولى عن انهيار الدولة العثمانية التي كان شوقي يرى فيها ركناً تستند إليه مصر لحمايتها من أطماع أوروبا، وبعد نفيه وعودته إلى مصر وتولي السلطان (ثم الملك) أحمد فؤاد الحكم، ولم يكن متحمساً لشوقي، بدأ شوقي يرى أن مصر هي الأمل وهي ركن نفسها. آمن أكثر بالشعب، ولكنه رأى بعين ثاقبة ما ينقص مصر من وسائل النهوض. أجد هذه الأشطر من أجمل الشعر، ثمة هنا دعاء وضراعة لله كي يقوي مصر وهي مُقْدمة على مرحلة الاستقلال، وألمس في الأشطر إحساس شوقي بعدم الأمان

١٩٥ استبداد باسم الجماعة

قال شوقي (١٩٢٤):

الفردُ بالشورى وباسمِ نَدِيِّها لَفَظَ الخليفةَ في الظلامِ شَريدَا

هذا الفرد (مصطفى كمال) بالشورى وباسم ناديها (الجمعية العامة التي كان يرجع إليها) لفظ (رمى) الخليفة في ظلام النسيان وشرده

خَلَعَتْهُ دونَ المسلمينَ عِصابةٌ لم يجعلوا للمسلمينَ وُجودا

خلعته، دون أن يخلعه المسلمون كلهم، عصابة (جماعة) تجاهلت وجود المسلمين

إني نظرتُ إلى الشعوبِ فلم أجِدْ كالجهلِ داءً للشعوبِ مُبيدا

وإذا سَبى الفردُ المسلَّطُ مَجْلِساً أَلْفَيْتَ أحرارَ الرجالِ عبيدا

الفرد المتسلط إذا سبى (استولى على) مجلساً، فإنك تجد الرجال الأحرار صاروا عبيداً

١٩٦ فإنك شمس

قال شوقي في مكسويني حصان محجوب ثابت، ولقبوا الحصان، فيما نظن، باسم تيرنس ماك سويني Terence MacSwiney المجاهد الإيرلندي الذي صام حتى الموت في سجن الإنجليز عام ١٩٢٠، فقد كانت الشلة تزعم أن الدكتور محجوب ثابت لا يعلف حصانه، وأن الحصان سيموت من الجوع. وقد يكون ورد معك في بعض الكتب أن مكسويني هذا عدّاءٌ إيطالي. لعل أصحاب تلك الكتب رأوا الاسم ذا جرس إيطالي فصنعوا ذلك التأويل. على أنني سألت وفداً إيطالياً مكوناً من نحو سبعة صحافيين عن مكسويني هذا فلم يعرفوه، وراجعت سجلات الألعاب الأولمبية، وسجلات الرياضيين الطليان فلم أجد له أثراً، فلا بدَّ أن يكون ماك سويني الإيرلندي هو جالب اللقب على ذلك الحصان (١٩٢٤):

تُفَدِّيكَ يا مَكْسُ الجيادُ الصَّلادِمُ وتَفْدِي الأُسَاةُ النُّطْسُ مَنْ أنتَ خادِمُ

تفديك يا مكسويني (لقب حصان الدكتور محجوب ثابت) الجياد (الخيول) الصلادم (صلاب الحوافر)، وتفدي الأساة (الأطباء) النطس (الماهرون) الشخص الذي أنت خادم إياه وهو الدكتور

كأنَّك إنْ حاربْتَ فوقَكَ عَنْتَرٌ وتحتَ ابنِ سينا أنتَ حينَ تُسالِمُ

في الحرب يكون فوقك عنترة (الدكتور ثابت)، وفي السلم تكون أنت تحت ابن سينا (د. أيضاً)، فالدكتور في حالَيْ الحرب والسلم بارع

فإنَّكَ شمسٌ، والجيادُ كواكبٌ وإنَّك دينارٌ، وهُنَّ الدراهِمُ

فأنت يا مكسويني شمس والجياد (الخيول) الأخرى كواكب، وأنت دينار والجياد الأخرى دراهم

مِثالٌ بساحِ البرلمانِ مُنَصَّبٌ وآخرُ في بارِ اللِّوا لَكَ قائمُ

ولك مثال (تمثال) في ساحة البرلمان، وآخر في بار اللوا (وكانت الشلة ترتاده). وكان محجوب ثابت من شخصيات ذلك العصر التي تستدر فكاهة الشعراء. كانت له دعاوى عريضة، وصوت عالٍ في المجالس، وصار نائباً في البرلمان، وكان يُمَنِّي النفس بوزارة الصحة. والقصيدة دعابة ثقيلة على البحر الطويل، وفيها إيماء فكه إلى قصيدة جاهلية في مدح النعمان. والشعر عند العرب ديوان لحياتهم، ويدخل فيه الظرف والسخرية والدعابة والتهكم والحزن والفرح وكل شيء. كل ما يحسُنُ بالمرء أن يقوله نثراً، وما لا يحسُنُ، داخل في حد الشعر. والمدار بعد ذلك على الإجادة والفن ووفرة ما في الشعر من شعور

١٩٧ الدنيا الغدارة

قال شوقي يداعب محجوب ثابت، وقد استبدل بحصانه مَكْسِويني سيارة، (١٩٢٤):

لـكُـمْ فـي الـخَـطِّ سـيَّـارَةْ　　حـديـثُ الـجـارِ والـجـارَةْ

وقـد تَـحْـرُنُ أحـيـانـاً　　وتـمـشـي وحـدَهـا تـارَةْ

تحرن: تعاند ولا تمشي

ولا تُـشْـبِـعُـهـا عَـيْـنٌ　　مِـنَ الـبَـنْـزيـنِ فَـوَّارَةْ

تـرى الـشـارعَ فـي ذُعْـرٍ　　إذا لاحـتْ مِـنَ الـحـارَةْ

فـقـد تـمـشـي مـتـى شـاءت　　وقـد تـرجِـعُ مُـخـتـارَةْ

قـضـى الـلَّـهُ عـلـى الـسَّـوَّا　　قِ أنْ يـجـعَـلَـهـا دارَةْ

يُـقَـضِّـي يـومَـهُ فـيـهـا　　ويَـلـقَـى الـلـيـلَ مَـنْ زارَهْ

الليلَ: أي في الليل

أَدُنـيـا الـخـيـلِ يـا مَـكْـسِـي　　كـدنـيـا الـنـاسِ غَـدَّارَةْ؟

مكسي: مكسويني، حصان الدكتور محجوب ثابت

فـصـبـراً يـا فـتـى الـخَـيْـلِ　　فـنـفـسُ الـحُـرِّ صَـبَّـارَةْ

ولا والـلَّـهِ مـا كَـلَّـفْـتَ　　مـحـجـوبـاً ولا بَـارَةْ

البارة: قطعة عملة ضئيلة القيمة

فـلا الـبَـرسـيـمُ تـدرِيـهِ　　ولا تـعـرِفُ نُـوَّارَهْ

١٩٨ انتحار الحصان

قال شوقي يعزي محجوب ثابت في نفوق حصانه (١٩٢٤):

يـا مَـكْـسُ دنـيـاكَ عـارَةْ　　والـمـوتُ كـأسٌ مُـدارَةْ

يا مكس (مكسويني: حصان الدكتور محجوب ثابت) دنياك عارة (شيء مستعار)، والموت كأس تدور على الشاربين

إذا بَـلَـغْـنَ الـتَّـراقـي　　فـكـلُّ رِبـحٍ خَـسـارَةْ

إذا بلغت الأرواح التراقي (الترقوة عظمة في أعلى الصدر)، فكل ما ربحه المرء يتحول إلى خسارة

لـمَّـا جـفـاكَ ابـنُ سـيـنـا وهـامَ بـالـسَّـيَّـارَهْ

عندما جفاك (هجرك) ابن سينا (أي الدكتور محجوب ثابت)، وهام هياماً بسيارته التي..

تَـفِـرُّ مِـنْـهُ وتَـجـري كـالـنـحـلـةِ الـدَّوَّارَهْ

فـلا إلـى الـبـوقِ تُـصـغـي ولا إلـى الـزَّمَّـارَهْ

وقـد تَـهَـتَّـكَ فـيـهـا حـتـى أضـاعَ وَقـارَهْ

حَـمَـلـتَ مِـنْ ذاكَ غَـمَّـاً أذابَ مِـنْـكَ الـمَـرارَهْ

حـتـى انـتـحـرتَ جـريـئـاً والانـتـحـارُ جَـسـارَهْ

١٩٩ .. ويبكي البلشفي والاشتراقي

قال شوقي متفكهاً، والقصيدة على لسان الدكتور محجوب ثابت بعد أن نفق حصانه مكسويني:

يـمـيـنـاً بـالـطَّـلاقِ وبـالـعِـتـاقِ وبـالـدنـيـا الـمُـعَـلْـقَـمَـةِ الـمَـذاقِ

أحلف بالطلاق وبالعتاق (بعتق عبيدي)، وبهذه الدنيا المعلقمة (المرَّة) المذاق، والكلام على لسان الدكتور محجوب ثابت

وكـلِّ فَـقـارَةٍ فـي ظـهـرِ مَـكْـسـي بِـصـحـراءِ الإمـامِ، وعـظـمِ سـاقِ

وأحلف بكل فقرة في ظهر الحصان النافق مكسويني والمدفون في صحراء الإمام (الشافعي)، وأحلف بعظام ساقه

وتُـربـتِـهِ، وكـلُّ الـخـيـرِ فـيـهـا، ونـسـبـتِـهُ الـشـريـفـةِ لـلـبُـراقِ

وأحلف بتربته، وبنسبه الذي يعود للبراق (الدابة التي عرجت بالرسول إلى السماء). لا تُرضي هذه الفكاهة المتزمتين في أيامنا، ولكن عصر شوقي كان عصراً يضحك فيه الأزهريون، ويتسامرون مع الأدباء ويروون خمرياتهم، وينقدونها نقداً أدبياً لا دينياً، تماماً مثلما كان الفقهاء يفعلون في عصور الإسلام الزاهية

وبـالـخُـطَـبِ الـطِّـوالِ ومـا حَـوَتْـهُ وإنْ لـم يـبـقَ فـي الأذهـانِ بـاقِ

وأحلف بالخطب الطويلة وما فيها من معان، وإن نسيها الجميع

وكَـسْـرِي الـشِّـعْـرَ إنْ أنـشـدْتُ شـعـراً ونُـطْـقـيِ الـقـافَ واسـعـةَ الـنـطـاقِ

وأحلف بكسري للشعر وأنا أرويه، وبنطقي القاف الفخمة (وقد شبه حافظ إبراهيم قاف محجوب ثابت بطلقات المدفع)

أَيَشتُمُني «سليمانُ بنُ فوزي» وبِيبي في يَدي ومَعي طِباقي

بعد هذا الحلف كله لا يقول لنا الدكتور ماذا سيفعل، بل يشكو من أن سليمان فوزي (صاحب مجلة الكشكول المعادية للوفد) يشتمه وهو في كامل أُبَّهته يحمل بيبه (غليونه) ومعه طباقه (تَبْغُه)

تُقاقِي ذقنُهُ مِنْ غيرِ بَيْضٍ ولِي ذَقْنٌ تبيضُ ولا تُقاقِي

ذقن سليمان فوزي تقاقي (تخرج كصوت الدجاج): يتكلم وذقنه تتحرك ولكنها لا تبيض، وأما ذقني أنا ـ والكلام على لسان محجوب ـ فهي تبيض دون أن تقاقي

أنا الطَّيَّارُ: رِجْلٌ في دِمَشقٍ إذا اشتدَّتْ ورِجْلٌ في العراقِ

أنا أطير (أسافر مسرعاً) فرِجل في دمشق ورِجل في العراق إذا اشتدت الأزمات

ألا طُزٌّ على العَيْهورِ طُزٌّ وإنْ أبْدى مجاملةَ الرِّفاقِ

طز على العيهور (الفاجر) رغم ما يبدي من مجاملة

بِقارِعَةِ الطريقِ ينالُ منِّي ويوسِعُني عِناقاً في الزُّقاقِ

بقارعة الطريق (وسط الطريق وأمام الناس) ينال مني (يؤذيني)، ويوسعني (يملأني) عناقاً في الزقاق بعيداً عن الأنظار

وليس مِنَ الغريبِ سوادُ حظِّي وبالسودانِ قد طالِ التصاقِي

والدكتور محجوب أصل أبيه من دنقلة بالسودان، وظل يناصر قضية ارتباط مصر بالسودان

فسبحانَ المُفرِّقِ! حظُّ قومٍ قناطيرٌ، وأقوامٌ أَوَاقِ

فسبحان المفرق (الموزع للرزق)! فحظ البعضٍ قناطير، وحظ آخرين أواقِ (الأوقية عيار وزن ضئيل جداً بالقياس إلى القنطار)

أُمورٌ يَضحكُ السُّعَدَاءُ منها ويَبْكي البَلْشَفِيُّ والاشْتِراقِي

السعداء: الأغنياء المسعدون. الاشتراقي هذه فيها ظرف كثير، رجوت ألا يكون فاتك

٢٠٠ سحر الدرهم

قال شوقي يداعب الدكتور محجوب ثابت:

قلْ لابنِ سينا: لا طبيـ ـبَ اليومَ إلَّا الدرهمُ

قل لابن سينا (يسخر من الدكتور محجوب ثابت) إن الطبيب الحقيقي اليوم هو الدرهم

هُوَ قبلَ «بُقْراطٍ» وقبـ ـلَكَ للجراحةِ مَرْهَمُ

فهو قبل بقراط (طبيب اليونان) وقبلك يا دكتور محجوب مرهم الجراح

والـنـاسُ، مُـذْ كـانـوا، عـلـيــ ـهِ دائـــــرونَ وحُـــــوَّمُ

والناس، منذ كان ناس، يدورون ويحومون حول الدرهم

وبِـسِـحْـرِهِ تَـعـلـو الأَسـا فِـلُ فـي الـعـيـونِ وتَـعْـظُـمُ

بسحر الدرهم يعلو أسافل الناس ويعظمون في العيون

٢٠١ براغيث محجوب

قال شوقي يداعب الدكتور محجوب ثابت:

بـراغـيـثُ مـحـجـوبَ لـم أَنْـسَـهـا ولـم أَنْـسَ مـا طَـعِـمَـتْ مِـنْ دَمـي

طعِمَتْ: أَكَلَتْ

تَـشُـقُّ خـراطـيـمُـهـا جَـوْرَبـي وتـنـفُـذُ فـي الـلَّـحـمِ والأَعْـظُـمِ

تُـرَحِّـبُ بـالـضـيـفِ فـوقَ الـطـريـقِ فـبـابِ الـعـيـادةِ فـالـسُّـلَّـمِ

قـد انـتـشـرتْ جـوقـةً جـوقـةً كـمـا رُشَّـتِ الأرضُ بـالـسُّـمْـسُـمِ

وتـرقُـصُ رقْـصَ الـمَـواسِـي الـحِـدَادِ عـلـى الـجـلـدِ، والـعَـلَـقِ الأَسْـحَـمِ

ترقص رقص المواسي (السكاكين) الحداد (الحادة)، على الجلد، وترقص مثل العلق (الحشرات الماصة للدم) الأسحم (الأسود)

إذا مـا ابـنُ سـيـنـا رَمَـى بَـلْـغَـمـاً رأيـتَ الـبـراغـيـثَ فـي الـبَـلـغـمِ

وتُـبـصِـرُهـا حـولَ بِـيـبـا الـرئـيـسِ وفـي شـارِبَـيْـهِ وحـولَ الـفـمِ

بيبا: غليون، والرئيس لقب ابن سينا

وبـيـنَ حَـفـائـرِ أسـنـانِـهِ مَـعَ الـسُّـوسِ في طَـلَـبِ الـمَـطْـعَـمِ

حفائر: حُفَر، المطعم: الطعام

٢٠٢ رثاء المنفلوطي

قال شوقي يرثي المنفلوطي، ومات يوم أطلق الرصاص على سعد زغلول في محاولة اغتيال. (يوليو/تموز ١٩٢٤):

اِخـتـرتَ يـومَ الـهـولِ يـومَ وَداعِ ونَـعـاكَ في عَـصْـفِ الـريـاحِ الـنَّـاعـي

اخترت، وكأن المنفلوطي هو الذي اختار يوم موته!، يوم الهول (يوم إطلاق النار على سعد زغلول) لتودعنا، ونعاك الناعي والرياح عاصفة (قيل كان يوماً عاصفاً)

هَتَفَ النُّعاةُ ضُحىً فَأَوْصَدَ دونَهُمْ جُرْحُ الرئيسِ منافذَ الأَسماعِ

جاء النعاة (ناقلو خبر وفاة المنفلوطي) بالخبر عند الضحى، ولكنَّ إصابة سعد بجرح سدت أسماع الناس، وشغلتهم عن وفاة المنفلوطي

مَنْ ماتَ في فَزَعِ القِيامةِ لم يجِدْ قَدَماً تُشَيِّعُ أو حَفاوَةَ ساعِ

من مات في يوم القيامة لم يجد قدماً تسير في تشييعه؛ وإصابة سعد جعلت مصر كيوم القيامة. وشوقي في هذه الفترة من أصدقاء سعد، بعد أن كان عرَّض به في شعر سابق، وقد مكنه حزب سعد «الوفد» في هذه الفترة من مقعد في مجلس الشيوخ

ما ضرَّ لو صَبَرَتْ ركابُكَ ساعةً كيف الوقوفُ إذا أهابَ الدَّاعي

ماذا كان يضر لو صبرت ركابك (مطيتك) التي تأخذك إلى العالم الآخر ساعة (بعض الوقت) كي يعطيك الناس ما تستحق من التوديع، ولكن هل يمكن الوقوف إذا أهاب (حثَّ) داعي الآخرة؟

خلِّ الجنائزَ عنْكَ، لا تَحْفِلْ بِها ليس الغرورُ لِميِّتٍ بِمتاعِ

دع الجنائز والاهتمام بها، فالغرور الذي يجعل المرء حريصاً على جنازة فخمة لا يفيد الميت شيئاً

مَنْ ضاقَ بالدنيا فليسَ حكيمَها إن الحكيمَ بها رحيبُ الباعِ

حكيم الدنيا الحقيقي من كان رحيب الباع (واسع الصدر)

مَنْ شَوَّهَ الدنيا إليكَ فلم تَجِدْ في المُلْكِ غيرَ مُعَذَّبينَ جياعِ؟

يخاطب المنفلوطي: من ذا الذي شوه الدنيا في عينيك فلم تكن ترى في الملك (ملك الله/أي الدنيا) سوى المعذبين والجياع، وهذا كان حال المنفلوطي في نظراته وعبراته وما ترجم من روايات جميعاً

لا الفقرُ بالعَبَراتِ خُصَّ، ولا الغِنى غِيَرُ الحياةِ لَهُنَّ حكمُ مَشاعِ

ليست العبرات (الدموع/ وهو اسم كتاب للمنفلوطي) خاصة بالفقير ولا بالغني، وغِيَرُ (مصائب) الدنيا مشاع

ما زالَ في الكوخِ الوضيعِ بواعثٌ منها، وفي القصرِ الرفيعِ دَواعِ

يوجد في الكوخ دائما بواعث تبعث على الدموع، وفي القصر الفخم ما يدعو للدموع أيضاً

في الفقرِ حيَّاتٌ يسيِّبُها به حاوي القضاءِ، وفي الرِّياض أَفاعِ

كأن القضاء له حاوٍ ماهر من الحواة يسيب (يترك) الأفاعي تسرح في الفقر وحياة الفقراء؛ لكنْ أيضاً في الرياض (البساتين) أفاعٍ

ولَرُبَّ بُؤسٍ في الحياةِ مُقَنَّعٍ أَرْبَى على بُؤسٍ بِغَيْرِ قِناعِ

وثمة بؤس مقنَّع أربى (زاد) على بؤس صريح

سَكَنَ الأحبَّةُ والعِدى، وفرغتَ مِنْ حِقْدِ الخصومِ ومِنْ هوى الأشياعِ

الآن بموتك سكن (هدأ) الأحبة والأعداء، واسترحت من حقد الخصوم ومن ميل الأشياع (الأنصار) على حد سواء

فافزعْ إلى الزمنِ الحكيمِ، فعندَهُ نـقـدٌ تَـنَـزَّهَ عـن هـوىً ونِـزاعِ

فافزع (فالجأ) إلى الزمن الحكيم، فالنقد الذي يوفره كَرُّ السنين نقد منزه عن الغرض وعن الخصومة. وكان شوقي يكره النقاد كراهية شديدة، وفي هذه السنة كانت قد مرت ثلاث سنين على الهجمة القوية التي شنها العقاد على شوقي في كتاب الديوان. وقيل إن شوقي كان يدفع للصحف لتمدح شعره، أو لتمتنع عن نقده

فإذا قضى لك أُبْتَ مِنْ شُمِّ العُلى بَـثَـنِـيَّـةٍ بَـعُـدَتْ عـلـى الـطُّـلَّاعِ

فإذا حكم لك الزمن بالتفوق أُبْت (رجعت) من الجبال العالية سالكاً ثنية (طريقاً جبلياً) بعيدة على الطلاع (الطالعين)، يقصد المنتقدين

وأجـلُّ مـا فـوقَ الـترابِ وتـحـتَـهُ قـلـمٌ عـلـيـهِ جـلالـةُ الإجْـمـاعِ

وأجل الأحياء والأموات صاحب قلم يجمع الناس على عبقريته

٢٠٣ نجاة سعد

قال شوقي عندما اعتدى على سعد زغلول شاب أطلق الرصاص فأصابه في ذراعه، (١٩٢٤):

نـجـا وتـمـاثَـلَ رُبَّـانُـهـا وَدَقَّ الـبـشـائِـرَ رُكْـبـانُـهـا

نجا ثم تماثل للشفاء ربان السفينة، ودق ركبان السفينة (ركابها) الطبول بإعلان البشائر (الأخبار الطيبة)

وهـلَّـلَ فـي الـجـوِّ قَـيـدومُـهـا وكَـبَّـرَ فـي الـمـاءِ سُـكَّـانُـهـا

وهلل (قال لا إله إلا الله) قيدوم السفينة (مقدمتها)، وكبَّر (قال الله أكبر) سكان السفينة (دفتها)؛ والقيدوم أول السفينة والسكان في آخرها

تـحـوَّلَ عـنـهـا الأذى، وانـثـنـى عُـبـابُ الـخـطـوبِ وطُـوفـانُـهـا

تحول الأذى بعيداً عن السفينة التي هي مصر، وانثنى بعيداً عباب (موج) الخطوب (المصائب) وطوفانها

نجا نـوحُـهـا مِـنْ يـدِ الـمُـعـتـدي وضـلَّ الـمَـقـاتِـلَ عُـدْوانُـهـا

نجا نوحها (قائد السفينة ويشبهه بنوح النبي) من يد المعتدي، وقد ضل (أخطأ) المقاتل (أجزاء الجسم التي تتسبب إصابتها في الموت قتلاً) عدوان هذه اليد

وَقَى الأرضَ شرَّ مقاديرِهِ   لطيفُ السماءِ ورحمانُها

وقى (حمى) الله الأرض شرَّ مقاديره (الشرور التي كتبها علينا)

ونَجَّى الكنانةَ مِنْ فِتْنَةٍ   تهدَّدَتِ النيلَ نيرانُها

ونجى الكنانة (مصر) من فتنة كانت ستحدث لو قتل سعد، وقد هددت نيران هذه الفتنة النيل (مصر)

يسيلُ على قَرْنِ شيطانِها   عَقِيقُ الدماءِ وعِقْيانُها

وكانت ستسيل على قرن شيطان هذه الفتنة (والشيطان، حسبما يتخيله الأوروبيون، ذو قرنين) الدماء التي تشبه العقيق (الحجر الكريم الأحمر) وتشبه العِقيان (الذهب الأحمر)، فالدماء ثمينة كهذين الشيئين وحمراء مثلهما

فيا سعدُ! جُرْحُكَ ساءَ الرجالَ   فلا جُرِحَتْ فيكَ أوطانُها

جرحك ساء الرجال، وأدعو أن لا تجرح بجرحك أوطان هؤلاء الرجال

وَقَتْكَ العنايةُ بالرَّاحتَيْنِ   وطَوَّقَ جِيدَكَ إحسانُها

وقتك (حَمَتْك) العناية الإلهية براحتيها، وطوَّق جيدَك (عنقك) إحسانُ الله

أرى مصرَ يَلهو بحدِّ السلاحِ   ويلعبُ بالنارِ وِلْدانُها

وراحَ بغيرِ مجالِ العقولِ   يُجيلُ السياسةَ غِلْمانُها

وراح الغلمان بمصر يجيلون (يديرون) السياسة في مجال غير مجال العقل

وأينَ النُّبوغُ وأينَ العُلومُ   وأينَ الفنونُ وإتقانُها

فأين اعتبار النبوغ والعلم والفن والإتقان. وهذه الأربعة جميعاً مهمة عند شوقي الذي اطلع على ما حققته فرنسا من كل ذلك. وهو يردد هذه النغمة كثيراً في قصائده

وأينَ مِنَ الخُلْقِ حَظُّ البلادِ   إذا قَتَلَ الشِّيبَ شُبَّانُها

وما حظ بلدنا من الأخلاق عندما يقتل الشبانُ الشيب (الشائبين/المسنين)

وأينَ المعلِّمُ، ما خَطْبُهُ؟   وأينَ المدارسُ، ما شأنُها؟

وما شأن المعلم، وشأن المدارس؟ وهل تربي النشء على الخلق السليم

لقد عبِثَتْ بالنِّياقِ الحُداةُ   ونامَ عنِ الإبْلِ رُعْيانُها

لقد عبث الحداة (الجمَّالون الذين يغنون لجمالهم وهي تسير) بالنياق (إناث الجمل)، ونام الرعاة وأهملوا الإبل

ويا سعدُ! أنتَ أمينُ البلادِ   قدِ امتَلأَتْ مِنْكَ أَيْمانُها

أيمانها: أياديها اليمنى، فقد ملأت مصر يدها بسعد واكتفت بقيادته

وَلـنْ تَـرتَـضـيَ أنْ تُـقَـدَّ الـقـنـاةُ   ويُـبْـتَـرَ مِـنْ مـصـرَ سـودانُـهـا

لن ترضى أن تقد (تقطع) القناة منها، وفي ذلك الوقت كان الكلام كثيراً بشأن سيادة مصر على قناة السويس، ولن ترضى أن يبتر السودان فلا تعود لمصر سيادة عليه

وحُـجَّـتُـنـا فـيـهِـمـا كـالـصَّـبـاحِ   ولـيـسَ بِـمُـعْـيِـيـك تِـبْـيـانُـهـا

وحجة مصر، في القناة والسودان كليهما، واضحة ولا يعييك (يعجزك) تبيانها (توضيحها)

فـمـصـرُ الـريـاضُ، وسـودانُـهـا   عـيـونُ الـريـاضِ وخُـلـجـانُـهـا

فمصر هي البساتين، والسودان هو عيون الماء والخلجان (الأنهار) لهذه البساتين. أليس من السودان يأتي النيل لمصر؟

ومـا هُـوَ مـاءٌ، ولـكـنَّـهُ   وَرِيـدُ الـحـيـاةِ وشِـرْيـانُـهـا

وليس النيل ماء فحسب بل شريان حياة

وأمَّـا الـشـريـكُ فَـعِـلَّاتُـهُ   هِـيَ الـشَّـرِكـاتُ وأَقْـطـانُـهـا

وأما الشريك (إنجلترا، شريكة مصر في السيادة على السودان) فعلاته (حججه) في عدم إعطاء السيادة لمصر وجود شركات تحتاج إلى القطن. وقد أصيب سعد بالرصاصة في ساعده الأيمن وهو في طريقه إلى إنجلترا للتفاوض على الاستقلال مع رئيس الوزراء البريطاني رمزي مكدونالد، وقد سافر بُعيد شفائه واجتمع مع مكدونالد في سبتمبر أيلول ١٩٢٤، وتمسك الإنجليز بالسيطرة شبه المنفردة على السودان

وحـربٌ مَـضَـتْ نـحـنُ أوزارُهـا   وخَـيْـلٌ خَـلَـتْ نـحـنُ فـرسـانُـهـا

ومن حجج الإنجليز الحرب ضد المهدي في السودان لكننا كنا نحن أوزارها (أسلحتها)، ومن حججهم الخيل التي خلت (مضت)، ولكننا كنا نحن فرسان هذه الخيل

فـأيـن مِـنَ الـمَـنْـشِ بـحـرُ الـغـزالِ   وفـيـضُ نِـيـانْـزا وتَـهـتـانُـهـا

فأين من بحر المنش (القنال الإنجليزي بين فرنسا وإنجلترا) بحر الغزال (منطقة نيلية في السودان) ونيانزا (بحيرة من منابع النيل، واسمها الأشهر بحيرة فكتوريا) وفيضها وتهتانها (هطولها بالمطر)، فقد نتفهم مطالبة الإنجليز بحصة في بحر المنش أما بحر الغزال فما أبعده عنهم!

وأيـن الـتـمـاسـيـحُ مِـنْ لُـجَّـةٍ   يـمـوتُ مِـنَ الـبَـرْدِ حِـيـتـانُـهـا

وأين تماسيح النيل من لجة (بحر) يموت من البرد حيتانها، فالتمساح يعيش في جو إفريقيا الحار فقط

ولـكِـنْ رؤوسٌ لأمـوالِـهِـمْ   يـحـرِّكُ قـرنَـيْـهِ شَـيْـطـانُـهـا

ولكن الأمر هو أن رؤوس أموالهم كرؤوس الشياطين التي تحرك قرونها

ودعوى القويّ كدعوى السّباعِ   مِنَ النَّابِ والظُّفْرِ بُرهانُها

ودعوى (قضية) القوي هي كقضية السباع لا برهان عليها إلا الناب والظفر

٢٠٤ العلم والخلق

قال شوقي (١٩٢٤):

وَجَدْتُ العِلمَ لا يبْني نُفوساً   ولا يُغْني عنِ الأخلاقِ شَيَّا

ولم أرَ في السِّلاحِ أضلَّ حدَّاً   مِنَ الأخلاقِ إنْ صَحِبَتْ غَوِيَّا

كنت أحب لو كان شوقي قال غبياً بدل غوياً

٢٠٥ الروح

قال شوقي (١٩٢٤):

ضُمّي قِناعَكِ يا سعادُ أوِ ارفعي   هذي المحاسنُ ما خُلِقْنَ لِبُرقعِ

ضمي قناعك واستري به وجهك يا سعاد، أو ارفعيه، لكن.. محاسنك ما خلقها الله لكي تتبرقعي وتحجبيها

بلْ ما يضرُّكِ لوْ سمحتِ بجَلوةٍ   إنَّ العروسَ كثيرةُ المُتَطَلَّعِ

ولماذا لا تسمحين بجلوة (انكشاف العروس في عرسها)، والعروس كثيرة المتطلَّع (المتطلعين الناظرين إليها)

ليس الحجابُ لمنْ يَعِزُّ منالُهُ   إنَّ الحجابَ لِهَيِّنٍ لم يُمنعِ

الحجاب ليس لمن يكون عزيز المنال، بل للفتاة التي ليس هناك من يمنعها ويحميها، وأنت ممتنعة محمية ولست بحاجة لقناع. شوقي هنا يتغزل، لكنه يتحدث أيضاً عن «الروح» التي هي محجوبة عنا مع أنها في حفظ الله

أنتِ التي اتخذَ الجمالُ لِعِزِّهِ   مِنْ مَظْهَرٍ، ولِسِرِّهِ مِنْ مَوْضِعِ

أنت اتخذك الجمال (ذات الجميل/الله) مظهراً لعزه وموضعاً لسره

لمستْكِ راحتُهُ، ومَسَّكِ روحُهُ   فأتى البديعُ على مثالِ المبدِعِ

لمستك يد الله وروحه، فجئت بديعة لأنك مخلوقةُ المبدع

ما بالُ أحمدَ عَيَّ عنْكِ بيانُهُ   بل ما لِعيسى لم يَقُلْ أو يَدَّعِ

فكيف عَيَّ أحمد (عجز بيان الرسول محمد) عن شرحك، بل ما لعيسى لم يقل فيك شيئاً ولا ادعى معرفة بك أيتها الروح

ولسانُ موسى انحلَّ إلَّا عُقدةً ... مِنْ جانبيكِ علاجُها لم يَنجعِ

ولسان موسى النبي كان فيه لثغة ثقيلة فانحلت عقدته (بأن رافقه أخوه المُبين هارون) ولكن العقدة التي به من جانبك لم ينجع (يفد) فيها العلاج

٢٠٦ قم للمعلم

قال شوقي في حفل نادي المعلمين، وكان هذا الحفل قبل أسبوع من افتتاح البرلمان (١٩٢٤):

قُمْ لِلمعلمِ، وَفِّهِ التَّبجيلا ... كاد المعلمُ أنْ يكونَ رسولا

قم للمعلم موفياً له التبجيل، فالمعلم كاد أن يكون رسولاً. ما أكثر ما يأمر شوقي قراء شعره بالقيام، حتى لكأننا قاعدون على قلبه

أَعَلِمْتَ أشرفَ أو أجلَّ مِنَ الذي ... يبني وينشئُ أنفُساً وعقولا

سبحانَكَ اللهمَّ! خيرَ مُعلِّمٍ ... علَّمْتَ بالقلمِ القرونَ الأولى

القرون: الأجيال، يشير إلى الآية: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾

أخرجْتَ هذا العقلَ مِنْ ظُلُماتِهِ ... وهديتَهُ النورَ المبينَ سبيلا

عَلَّمت يوناناً ومصرَ، فزالتا ... عنْ كُلِّ شمسٍ ما تُريدُ أُفولا

علمت يا رب اليونان ومصر، فزالتا عن (خلّفتا) شموساً من الحضارة لا تريد أفولا (غياباً)، بخلاف شمس السماء التي تأفل كل يوم

واليومَ أصبحتا بحالِ طُفولةٍ ... في العلمِ تَلْتَمسانِهِ تطفيلا

ورجعت اليونان ومصر إلى حال الطفولة الحضارية، وهما الآن تلتمسان (تطلبان) العلم تطفيلاً (تطفلاً)

ذهبَ الذين حَمَوْا حقيقةَ علمِهِمْ ... واسْتَعذَبوا فيها العذابَ وَبِيلا

ذهب الذين حموا حقيقة (شرف) علمهم واستعذبوا (استطابوا) في سبيلها العذاب الوبيل (الشديد)

سقراطُ أعطى الكأسَ، وهْيَ مَنِيَّةٌ، ... شَفَتَيْ مُحِبٍّ يشتهي التَّقبيلا

سقراط اليوناني أعطى كأسَ السم - وهي منية (موت) - شفتيْ محب

عَرضوا الحياةَ عليهِ، وهْيَ غَباوةٌ، ... فأبى، وآثَرَ أنْ يموتَ نبيلا

عرضوا عليه التراجع عن آرائه أو الهرب من سجنه، ولكنه وجد الحياة غباوة بغير مبادئ، فرفض وآثر (فضل) أن يموت نبيلاً

إن الشجاعةَ في القلوبِ كثيرةٌ   ووجدتُ شُجعانَ العقولِ قليلا

شجاعة القلب (التحمس وخوض القتال مثلاً) شائعة، وشجاعة العقل (الصمود في سبيل المبدأ) نادرة

أَوَكُلُّ مَنْ حامى عَنِ الحقِّ اقتنى   عندَ السَّوادِ ضغائناً وذُحولا

هل كل من حامى (دافع) عن الحق صار عليه أن يقتني (يجتلب) لنفسه عند السواد (عامة الناس) الضغائن (الأحقاد) والذحول (الثارات)

لو كنتُ أعتقِدُ الصليبَ وخطبَهُ   لأقمتُ مِنْ صَلْبِ المسيحِ دليلا

لو كنت مؤمناً بالصليب وخطبه (شأنه/أن المسيح صلب ومات على الصليب كما يعتقد المسيحيون) لجعلت من صلبه دليلاً على قولي

وَنِيَتْ خُطى التعليمِ بعدَ محمدٍ   ومشى الهُوينى بعدَ إسماعيلا

ونيت (ضعُفَت) خطى التعليم في مصر بعد محمد علي باشا، ومشى التعليم الهوينى (بطيئاً) بعد الخديوي إسماعيل

حتى رأينا مصرَ تخطو إِصبعا   في العلم إنْ مَشَتِ الممالكُ مِيلا

تلكَ الكُفورُ، وحشوُها أُمِّيةٌ،   مِنْ عهدِ خوفو، لم تَرَ القِنديلا

هذه الكفور (القرى) المحشوة بالأمية من عهد الفرعون خوفو، لم تعرف الكهرباء بعد

تجدُ الذين بنى المِسَلَّةَ جدُّهُمْ   لا يُحْسِنونَ لإبرَةٍ تشكيلا

هؤلاء الذين بنى جدهم الفرعوني المسلة (نصب على شكل إبرة ضخمة) لا يحسنون تشكيل (صناعة) إبرة

رَبُّوا على الإنصافِ فِتيانَ الحِمى   تَجدوهُمُ كهفَ الحقوقِ كُهولا

أيها المعلمون: ربوا الفتيان على العدل تجدوهم في كهولتهم (رجولتهم المتقدمة) كهفاً (ملاذاً) لحفظ الحقوق

وإذا أُصيبَ القومُ في أخلاقِهِمْ   فأقِمْ عليهِمْ مأتماً وعَويلا

إني لأعذِرُكُمْ، وأحْسَبُ عِبْئَكُمْ،   مِنْ بينِ أعباءِ الرجالِ، ثقيلا

لكم العذر فعبئكم، من بين كل الرجال، ثقيل

وَجَدَ المُساعِدَ غيرُكُمْ، وحُرِمْتُمُ،   في مصرَ، عَوْنَ الأمهاتِ جليلا

غيركم وجد من يساعده في عمله، وأنتم حرمتم المساعدة الجليلة المنتظرة من الأمهات في التربية

وإذا النساءُ نشأنَ في أُمِّيةٍ   وَرِثَ الرجالُ جَهالةً وخُمولا

لـيسَ الـيتيمُ مَنِ انتهى أبواهُ مِنْ هَـمِّ الـحـيـاةِ، وخـلَّـفـاهُ ذلـيـلا
إنَّ الـيـتـيـمَ هـوَ الـذي تَـلْـقـى لَـهُ أُمّـاً تـخـلَّـتْ، أو أبـاً مَـشـغـولا

اليتيم الحقيقي هو الذي تجد له أماً تخلت عن واجباتها، وأباً شغلته المشاغل عن العناية بابنه

مـصـرٌ إذا مـا راجَـعَـتْ أيَّـامَـهـا لـم تـلـقَ لـلسبـتِ الـعـظـيـمِ بـديـلا

السبت العظيم: ١٥/٣/١٩٢٤ اليوم الذي سيفتتح فيه البرلمان بعد أسبوع من إلقاء القصيدة

الـبـرلـمـانُ غـداً يُـمَـدُّ رُواقُـهُ ظـلّاً عـلى الـوادي الـسعـيـدِ ظَـلـيـلا

غداً يُمَدُّ رواق (مظلة) البرلمان ليظلل وادي النيل

حيُّوا مِـنَ الـشـهـداءِ كـلَّ مُـغَـيَّـبٍ وضَـعـوا عـلـى أحْـجـارِهِ إكـلـيـلا
نـاشـدتُـكُـمْ تـلـكَ الـدمـاءَ زكـيَّـةً لا تـبـعـثـوا لـلـبـرلـمـانِ جَـهـولا

٢٠٧ عزة الموت

قال شوقي في أربعين عاطف بركات، وكيل وزارة التعليم، (١٩٢٤):

خَـفَـضْـتُ لِـعِـزَّةِ الـمـوتِ الـيَـراعـا وجَـدَّ جَـلالُ مـنـطِـقِـهِ فَـرَاعـا

خفضت اليراع (القلم) لعزة (سطوة) الموت، وكان منطق الموت (كلام الموت) جاداً وجليلاً فراعني (أخافني)

فـإنْ تَـقُـلِ الـرثـاءَ فـقُـلْ دمـوعـاً يُـصـاغُ بـهـنَّ، أو حِـكَـمـا تُـراعـى

فإن تقل الرثاء فليكن من الدموع يصاغ منها، أو من الحكم التي تراعى (تُتَّبع)

ولا تَـكُ مـثـلَ نـادِبَـةِ الـمُـسَـجَّـى بَـكَـتْ كَـسْـبـاً، ولـم تَـبْـكِ الـتـيـاعـا

ولا تكن مثل النادبة التي تنوح على الجثمان المسجى (الممدد)، فهي تبكي لكسب المال وليس لالتياعها (حرقتها)

خَـلَـتْ دولُ الـزمـانِ، وزُلْـنَ رُكْـنـاً ورُكْـنُ الأرضِ بـاقٍ مـا تَـداعـى

خلت (زالت) دول الزمان، وزالت أركانها، ولكن الأرض باقية لا تتداعى أركانها

ولـو آبَـتْ ثـواكـلُ كـلِّ قَـرْنٍ وَجَـدْنَ الـشـمـسَ لـمْ تَـثْـكَـلْ شُـعـاعـا

ولو رجعت النساء الثواكل (الفاقدات للأبناء) من كل قرن (جيل) مضى لوجدن الشمس على حالها لم تفقد شعاعاً واحداً من أشعتها

٢٠٨ من خانه الدهر

قال شوقي في المؤتمر الجغرافي (١٩٢٥):

يا لِلّيالي لإسماعيلَ مِنْ سِنَةٍ طالَتْ، وحَيْنٍ مِنَ الأقدارِ قد حَانا

أستغيث بالليالي لذكرى الخديوي إسماعيل من هذه السِنة (الغفوة) التي طالت، وهذا الحيْن (الهلاك) الذي جاءت به الأقدار وحان (اقترب) وقته

قد خَطَّ شِعرِي على الشِّعرَى لهُ جَدَثاً وخاطَ مِنْ لَمَحاتِ الشمسِ أكفانا

لقد خططت (بنيت) بشعري على الشعرى (النجم المعروف) جدثاً (قبراً) للخديوي إسماعيل، وخاط (حاك حياكة) شِعري له من لمحات (بريق) الشمس كفناً، فقد مدحته ونوهت بذكره

ولو مشتْ بي الليالي تحتَ كوكَبِهِ غادرتُ أحمدَ نِسْياً، وابنَ حَمْدانا

ولو قُدِّر لي أن تمشي الليالي (الزمن) بي تحت كوكبه (في ظل حكمه)، لكنت غادرت (تركت) أحمد (أحمد بن الحسين المتنبي) نسياً (منسياً) وكذلك ابن حمدان (سيف الدولة الحمداني، ونحن نتذكره بسبب المتنبي؛ فلو أفلح شوقي في شطب المتنبي لشطب معه سيف الدولة تلقائياً)

مدَّ الكنانةَ أطرافاً، ووسَّعَها مُلْكاً، وأتْرَعَها خَيْلاً وفُرْسانا

وسع إسماعيل مصر، وأترعها (ملأها) خيلاً وفرساناً

خَيالُ مُلْكٍ تَلَمَّسْنا حقيقَتَه فأخطَأتْنا، وكانتْ حَظَّ يابانا

وكان ذلك التوسيع خَيال (شبح) مُلْك أردنا له أن يكون حقيقياً، ولكن حقيقته أخطأتنا (لم تصبنا) وكانت من حظ اليابان. يطرح هذا البيت سؤالاً يحتاج إلى كتاب كبير لتوفير الإجابة. وليس عندي شيء من هذه الإجابة لذا أكتفي بتفسير السؤال: قد نهضت مصر في عهد محمد علي، وكانت لها نهضة في عهد إسماعيل (ورأى إسماعيل في أواسط سني حكمه الستة عشر اليابان تنهض بقوة)، وفي بدايات القرن العشرين ظللنا نحس أن مصر ستخرج من قمقم الدول المتخلفة وستلحق باليابان، لكن نهضة مصر انتكست كما يقول شوقي في هذا البيت (والبيت يسبق ثورة ١٩٥٢ وحكم العسكر بسبع وعشرين سنة). فلماذا لا تنهض مصر كاليابان وماليزيا وكوريا الجنوبية؟ في البيت التالي سيكون جواب شوقي أن الدهر خان مصر. وهو جواب شاعر.. وهو كلاجواب. على أن هذا البيت، الحالي، يحمل إحساساً عميقاً بأن قطار النهضة فات مصر

مَنْ خانَهُ الدهرُ خانَتْهُ صنائِعُهُ وعادَ ذَنْباً لهُ ما كان إِحسانا

من خانه الدهر خانته صنائعه (حسناته)، وعاد (صار) يُعَدُّ ذنباً من ذنوبه ما كان من إحسانه

٢٠٩ سباق في التنويه بالسبَّاقين

قال شوقي متذكراً الكشف عن مقبرة توت عنخ آمون قبل ثلاث سنوات (١٩٢٥):

دَرَجَتْ على الكَنْزِ القُرونْ وأتتْ على الدنِّ السِّنونْ

درجت (مشت) على الكنز القرون (مئات السنين)، وأتت (مرت) على الدن (وعاء الخمر) السنوات

حتى أتى العِلْمُ الجَسو رُ، ففضَّ خاتِمَهُ المصونْ

حتى جاء العلم الجريء ففض (فتح) ختم هذا الكنز المصون (المحميّ)

والعِلْمُ بَدْرِيٌّ أُحِلَّ لأهلِهِ ما يَصنعونْ

والعلم بدريٌّ (مثل مقاتلي بدر الذين غفرت لهم زلاتهم السابقة واللاحقة، لذا فلهم أن يصنعوا ما يشاؤون)، وحلال لأهل العلم كل ما يصنعون

واندسَّ كالمصباحِ في حُفَرٍ مِنَ الأجداثِ جُونْ

اندس العلم كأنه المصباح في حفر جُون (سود) هي حفر الأجداث (القبور)

خانتْ أمانةَ جارِها والقبرُ كالدنيا يخونْ

هذه القبور خانت أمانة جارها (ساكنها)، بأن سلمت جثمانه للآثاريين

يا ابنَ الثَّواقِبِ مِنْ رَعٍ وابْنَ الزَّواهرِ مِنْ أمونْ

يا توت عنخ آمون، يا ابن النجوم الثاقبة (المتقدة) من نسل رع (إله الشمس)، وابن النجوم الزاهرة من نسل آمون (إله الخصب)

هذا القيامُ، فقلْ لنا الـ يومُ الأخيرُ متى يكونْ

ظهورك بمثابة القيام (قيام المسيح من قبره، بحسب معتقد المسيحيين)، فمتى يا ترى يكون يوم القيامة؟

البعثُ غايةُ زائلٍ فانٍ، وأنتُمْ خالدونْ

البعث من القبور ودخول حياة الخلود غاية كل إنسان زائل فانٍ، وأما أنتم فخالدون أولِردي بما تركتم من معالم

السبْقُ من عاداتِكُمْ أتُرى القيامةَ تسبِقونْ؟

وعادتكم هي السبق، فهل بقيامك هذا تريد أن تسبق يوم القيامة؟

ذَهَبٌ ببطنِ الأرضِ لم تذهبْ بِلمْحتِهِ القُرونْ

عُثر على ذهب في جوف الأرض لم تذهب القرون بلمحته (بريقه)

مَلِكَ الملوكِ! تحيةٌ وولاءُ مُحْتَفِظٍ أمينْ

يا ملك الملوك تحية مني أنا الذي حفظتُ لك حسناتك وكنتُ أميناً على تراثك

هذا المَقامُ عرفتُهُ وسبقتُ فيهِ القائلينْ

فأنا عرفت مقام (مكانة) الفراعنة، وسبقت كل الشعراء في التنويه بذكرهم وآثارهم

سـالـتْ عـيـونُ قـصـائـدي وجـرى مِـنَ الـحَـجَـرِ الـمَـعـيـنْ

سالت عيون قصائدي (ينابيع قصائدي) بالأبيات العذبة، وجرى المعين (الماء) من الحجر (الآثار الحجرية للفراعنة). تلعاب لفظي متداخل. فعيون القصائد جيادها، وعيون الوجه هي التي تسيل بالدموع، والعيون هي الينابيع؛ والمعين نبع وقد يخرج من الحجر بقدرة الله، والحجر أيضاً هو آثار الفراعنة، وكلَّ أولئك قصد شوقي

أقـعـدتُ جـيـلاً لـلـهـوى وأقـمـتُ جـيـلاً آخَـريـنْ

أنا أقعدت الجيل السابق بقصائد الغزل، وأقمت الجيل الحاضر بشعري الفرعوني، يقول إنه أقام الدنيا وأقعدها بألوان شعره المختلفة. وفي حديث صحافي لأحمد شوقي، للأهرام عام ١٩٢٧، قال إن هذه القصيدة هي الأثيرة عنده. كانت جديدة آنذاك وكان ممتلئاً بها

٢١٠ تحرش

قال شوقي يذكر ربوع لبنان (١٩٢٥):

دخلَ الكنيسةَ، فارتقبْتُ فلمْ يُطِلْ فـأَتـيْـتُ دونَ طـريـقِـهِ فَـزَحَـمْـتُـهُ

دخل محبوبي الكنيسة فارتقبت (انتظرت) فلم يُطِل المكوث، وعندما خرج تحرشت به وزاحمته في الطريق

فـازْوَرَّ غـضـبـانـاً وأعـرضَ نـافـراً حـالٌ مـن الـغِـيـدِ الـمِـلاحِ عَـرَفـتُـهُ

فازور (أشاح عني) غاضباً ونفر مني، وهذا الحال أعرفه من الغيد (الحسان) الملاح (الجميلات)

فـصـرفـتُ تَـلـعـابـيِ إلـى أتـرابِـهِ وَزَعَـمْـتُـهُـنَّ لُـبـانـتـيِ، فَـأَغَـرْتُـهُ

فصرفت تلعابي (لهوي وغزلي) عنه إلى الفتيات الأخريات، وزعمت أنهن لبانتي (غايتي) فأغرته (أشعرته بالغيرة)

فـمـشـى إلـيَّ، ولـيـسَ أولَ جُـؤْذُرٍ وَقَـعَـتْ عـلـيـهِ حـبـائـلـيِ فـقَـنـصْـتُـهُ

فأتى المحبوب إلي عندئذ، وليس هو أول جؤذر (ولد بقر الوحش) رميت عليه حبائلي (شباكي) فقنصته (صدته)

٢١١ قم ناج جلق

قال شوقي في حفل تكريمه بالمجمع العلمي العربي بدمشق (١٩٢٥):

قُمْ ناجِ جِلَّقَ، وانشُدْ رَسْمَ مَنْ بانوا مَشَتْ على الرَّسْمِ أحداثٌ وأزمانُ

على طريقته التي لا يدعها يطلب شوقي من قارئه أن يقوم ليناجي (يحادث) جلق (دمشق) ولِيَنشُد (يتعقب) رسم (أثر) من بانوا (رحلوا)، وقد مشت الأحداث والسنوات على هذا الأثر

بـنـو أمـيـةَ لـلأنـبـاءِ مـا فَـتَـحـوا   ولـلأحـاديـثِ مـا سـادوا ومـا دانـوا

بنو أمية فتوحاتهم صارت نبأ من الأنباء، وما سادوا ودانوا (أخضعوا) من أقوام صار للأحاديث

كانوا ملوكاً سريرُ الشرقِ تحتَهُمُ   فهلْ سألتَ سريرَ الغربِ ما كانوا

كانوا ملوكاً تحتهم سرير (عرش) الشرق، فهل سألت عرش الغرب أيضاً ماذا كان شأنهم؟ فهم أيضاً ملكوا عرش الأندلس في الغرب

بالأمسِ قمتُ على الزَّهراءِ أندُبُهُمْ   واليومَ دمعي على الفيحاءِ هتَّانُ

بالأمس (وأنا منفي في إسبانيا) ندبت بني أمية في «الزهراء» قرب قرطبة، واليوم دمعي هتان (هطال) على الفيحاء (دمشق)

لـولا دمشـقُ لـمـا كـانـتْ طُـلَـيْـطِـلَـةٌ   ولا زَهَـتْ بـبـنـي الـعـبَّـاسِ بَـغـدانُ

لولا دمشق لما فتح العرب طليطلة بالأندلس، ولا زهت (ازدانت) بغداد ببني العباس

مررتُ بالمسجدِ المحزونِ أسألُهُ   هل في المُصَلَّى أوِ المحرابِ مَرْوانُ

مررت بالمسجد الأموي الحزين أسأله عن مروان (مروان بن الحكم أبو الخلفاء الأمويين بعد معاوية الثاني)

تغيَّرَ المسجدُ المحزونُ، واختلفتْ   عـلـى الـمـنـابـرِ أحـرارٌ وعُـبْـدانُ

تغير المسجد الأموي وتعاقبت على منابره السادة والعبيد يحكمون دمشق

خلَّفْتُ لبنانَ، جناتِ النعيمِ، وما   نُـبِّـئْـتُ أنَّ طـريـقَ الـخُـلْـدِ لُـبـنـانُ

تركت لبنان وهو في عيني الجنة، ولم يخبرني أحد أنه هو الطريق إلى الجنة لا الجنة نفسها..

حتى انحدرتُ إلى فيحاءَ وارفةٍ   فيها الندى، وبها طَيٌّ وشَيْبانُ

حتى انحدرت (نزلت) إلى فيحاء (زكية الرائحة/الفيحاء لقب دمشق) وارفة الظلال، وبها قوم أصولهم من عرب طيّء وشيبان، فههنا الجنة

نـزلـتُ فـيـهـا بِـفِـتـيـانٍ جَـحـاجِـحَـةٍ   آباؤهمْ، في شبابِ الدهرِ، غَسَّانُ

نزلت ضيفاً بفتيان جحاجحة (سادة)، آباؤهم الأقدمون ـ عندما كان الزمن في شبابه ـ قبيلة غسان. ما كان ضر شوقي لو أبعد هذه الجحاجحة عن شعره. إنها لكالذبابة في طبق المهلبية

بِيضُ الأسِرَّةِ، باقٍ فيهِمُ صَيَدٌ   مِنْ عبدِ شمسٍ، وإنْ لم تَبقَ تيجانُ

بيض الأسرة (الوجوه) فيهم صَيَد (شموخ) باقٍ من زمن عبد شمس (جد بني أمية)، وإن لم تبق لهم التيجان

المُلْكُ أنْ تعمَلوا ما اسْطَعتُمُ عملاً   وأنْ يَبينَ على الأعمالِ إتقانُ

الملك هو أن تعملوا بجد، وبإتقان

المُلْكُ أن تَخرُجَ الأموالُ ناشِطةً لِمَطْلَبٍ فيهِ إصلاحٌ وعُمْرانُ

الملك هو أن تُنفَق الأموال في الإصلاح والعمران

المُلكُ تحتَ لِسانٍ حولَهُ أدَبٌ وتحتَ عَقْلٍ على جَنبيْهِ عِرفانُ

الملك يحتاج إلى لسان يدعمه الأدب، وإلى عقل مدعوم من جانبيه بالمعرفة

المُلك أنْ تتلاقَوْا في هوى وطنٍ تفرَّقتْ فيهِ أجناسٌ وأبْدانُ

الملك هو الالتقاء في حب الوطن، وإن تفرقت (اختلفت) أجناس وأشكال المواطنين

نصيحةٌ مِلؤُها الإخلاصُ صادقةٌ والنصحُ خالِصُهُ دِينٌ وإيمانُ

والشِّعْرُ، ما لم يكنْ ذكرى وموعظةً أو حكمةً، فهْوَ تقطيعٌ وأوْزانُ

٢١٢ على قبر نابليون

قال شوقي بعد زيارة لقبر نابليون (١٩٢٥):

ليسَ في قبرٍ وإنْ نالَ السُّها ما يزيدُ الميْتَ وزناً ويَزينْ

ليس في أي قبر، حتى وإن رفعوا بنيانه ليصل إلى نجمة «السها»، ما يزيد من قيمة الميت أو يَزِينه (يُزَيِّنه)

فانزِلِ التاريخَ قبراً، أو فَنَمْ في الثَّرى غُفْلاً كبعضِ الهامِدينْ

فانزل التاريخ واتخذه قبراً (ليكن التاريخ هو موضع ذكراك فهذا هو الخلود في الدنيا)، وسوى ذلك فلتنم في الثرى (التراب) غفلاً (نكرة مجهولاً) كبعض الناس الهامدين (المنطفئين)

واخدَعِ الأحياءَ ما شِئْتَ، فلَنْ تَجِدَ التاريخَ في المُنْخَدِعينْ

اخدع الأحياء ما شئت، ولكن التاريخ لا ينخدع

لا يقولَنَّ امْرُؤٌ أصلي، فَما أصلُهُ مِسْكٌ وأصلُ الناسِ طينْ

لا يتباهَ امرؤ بأصله، فكلنا من طين وليس أحد مخلوقاً من المسك

قد تتوَّجْتَ، فقالتْ أُمَمٌ: وَلَدُ الثورةِ عَقَّ الثائرينْ

يا نابليون! عندما وضعت التاج على رأسك وأعلنت نفسك إمبراطوراً قالوا إن ابن الثورة عق (خان) الثائرين

وتزوَّجْتَ، فقالوا: ما لَهُ ولِحورٍ مِنْ بناتِ المُلْكِ عِينْ

وعندما تزوجت من بيتٍ مالك قالوا: ما لهذا الرجل ذي الأصل العادي ولبنات الملوك الحور (الجميلات العيون) العين (الجميلات العيون)

قَسَماً لو قَدَرُوا ما احتَشَموا، لا يَعِفُّ الناسُ إلَّا عاجِزينْ

وأقسم لو أن هؤلاء المعترضين قدروا على ما صنعت لما احتشموا (خجلوا) من الشيء نفسه، والناس لا يعِفُّون (يترفعون) إلا عندما يعجزون عن نيل الشيء

أرأيتَ الخيرَ وافى أمَّةً لم ينالوا حظَّهُمْ في النَّابِغينْ

هل وجدتَ أمة نالها الخير والازدهار دون أن تنال نصيبها من الأفراد النابغين؟

يَصْلُحُ المُلْكُ على طائفةٍ هُمْ جمالُ الأرضِ حِيناً بعدَ حِينْ

الملك يصبح صالحاً على طائفة (بوجود جماعة) من المتميزين الذين هم جمال الأرض، والذين يأتون حيناً بعد حين

قُمْ إلى الأهرامِ واخشعْ واطَّرِحْ خَيْلَةَ الصِّيدِ وزَهْوَ الفاتِحينْ

قم يا نابليون من قبرك وتعال إلى الأهرام واخشع أمامها، واطَّرح (اخلع) خيلة (تكبر) الصيد (الأسياد) وزهو (تكبر) الفاتحين

وأَعِدْها كَلِماتٍ أَرْبَعاً قد أحاطتْ بالقُرونِ الأربعينْ

وأعد كلماتك الأربع المشهورة التي قلتها لجنودك عند الأهرام (أربعون قرناً تطل عليكم) والتي أحاطت بـ (لخصت) أربعين قرناً من الزمان

قد عرضْتَ الدهرَ والجيشَ معاً، غايةٌ قَصَّرَ عنها الفاتحونْ

قد استعرضت جيشك والزمان معاً، وهذه غاية قصر عنها الفاتحون قبلك

عِظَةٌ قومي بها أَوْلى، وإنْ بَعُدَ العهدُ، فهل يَعتَبِرونْ

والأهرام عظة (عبرة)، وقومي من بني مصر أولى بها من غيرهم رغم بعد عهد الفراعنة، فهل تراهم يعتبرون؟

هذهِ الأهرامُ تاريخُهُمُ، كيف مِنْ تاريخِهِمْ لا يَسْتَحونْ

الأهرام تاريخهم، فكيف لا يستحون منه، إذ هم مقصرون عن إنجازات أجدادهم

قُمْ تَرَ الدنيا كما غادرتَها منزلَ الغدرِ وماءَ الخادِعينْ

قم يا نابليون، وسترى الدنيا كما غادرتها، ستراها مكان الغدر، وماء الخادعين (موضع الخادعين). وكانت العرب تنزل في المكان وتسميه ماء كذا أو كذا لوجود عين ماء فيه، فكلمة «ماء» صارت تعني «موضعاً»

وتَرَ الحقَّ عزيزاً في القَنا هَيِّناً في العُزَّلِ المُسْتَضْعَفينْ

وسترى الحق عزيزاً (قوياً) وسط القنا (الرماح)، وهيناً (مُهاناً) في صحبة العزَّل المستضعفين (الضعفاء)

وتَــرَ الــعِــزَّ لِــسَــيْــفٍ نَــزِقٍ   فــي بــنــاءِ الــمُــلــكِ، أو رأيٍ رَزيــنْ

وسترى العز للسيف النزق (الخفيف) في تشييد الملك، وللرأي الرزين (الحكيم)

سُــنَــنٌ كــانــت، ونَــظْــمٌ لــم يــزَلْ   وفــســادٌ فــوقَ بــاعِ الــمــصــلــحــيــنْ

هذه سنن (قوانين) كانت موجودة دائماً، ونظام لم يزل على حاله، نظام «الحق للقوي»، وهناك فساد فوق باع (قدرة) المصلحين

٢١٣.. وهذي الضجة الكبرى علاما؟

قال شوقي في الذكرى السابعة عشرة لوفاة مصطفى كامل (١٩٢٥):

إلامَ الــخُــلْــفُ بــيْــنَــكُــمُ إلامــا   وهــذي الــضَّــجَّــةُ الــكــبــرى عَــلامــا

إلى متى الخلف (الاختلاف) بينكم؟ وهذه الضجة الكبرى على ماذا؟

وفــيــمَ يَــكــيــدُ بــعــضُــكُــمُ لــبــعــضٍ   وتُــبْــدونَ الــعــداوةَ والــخِــصــامــا

وفي ماذا يكيد بعضكم لبعض، وتظهرون العداوة والخصومة؟

وأيــنَ الــفــوْزُ؟ لا مــصــرُ اســتــقــرَّتْ   عــلــى حــالٍ، ولا الــسُّــودانُ دامــا

وأين الفوز (النجاح)؟ فلا مصر استقرت على حال، ولا السودان دام تحت السيادة المصرية الحقيقية

وأيــنَ ذهــبْــتُــمُ بــالــحــقِّ لــمَّــا   رَكِــبْــتُــمْ فــي قــضــيــتِــهِ الــظَّــلامــا

وأين ذهبتم بالحق بعد أن انتهجتم في المطالبة به طريق التآمر والدسائس؟

شَــبَــبْــتُــمْ بــيــنَــكُــمْ فــي الــقُــطْــرِ نــاراً   عــلــى مُــحْــتَــلِّــهِ كــانــتْ سَــلامــا

شببتم (أشعلتم) بينكم ناراً في مصر من الفتن، ولكنها كانت سلاماً على المحتلين

إذا كــان الــرُّمــاةُ رُمــاةَ سُــوءٍ   أَحَــلُّــوا غــيــرَ مــرمــاهــا الــسِّــهــامــا

والرماة إذا كانوا ذوي نية سيئة لم يصوبوا سهامهم إلى المرمى (الهدف)

وَلِــيــنــا الأمــرَ حِــزْبــاً بــعــدَ حِــزْبٍ   فَــلَــمْ نَــكُ مُــصْــلِــحِــيــنَ ولا كِــرامــا

ولينا الأمر (تولينا الحكم) حزباً بعد حزب، فلم نكن مصلحين ولا كراماً

وسُــسْــنــا الأمــرَ حــيــنَ خــلا إلــيــنــا   بِــأهــواءِ الــنــفــوسِ فــمــا اســتــقــامــا

وسسنا الأمر (سيَّرنا الحكم بالسياسة) حين خلا إلينا (آل إلينا بعد رفع الحماية البريطانية) بأهواء النفوس (حسب مصالحها) فما استقام الحكم

٢١٤ خير جليس

قال شوقي في الكتاب (١٩٢٥):

أَنَا مَنْ بَدَّلَ بالكُتْبِ الصِّحابا   لَمْ أَجِدْ لي وافياً إلَّا الكِتابا

تركت أصحابي واتخذت الكتب أصحاباً، فلم أجد وافياً سوى الكتاب

صُحْبَةٌ لَمْ أَشْكُ منها رِيبَةً   وَوِدادٌ لم يُكَلِّفْني عِتابا

وصحبة الكتاب لست أشكو منها أي ريبة (شك)، ووداد الكتاب ليس فيه عتاب كوداد الأصحاب

٢١٥ تصفير المسألة

قال شوقي في تأبين عبد اللطيف الصوفاني، من رجال الحزب الوطني، (١٩٢٥):

شأنَكَ والدمعَ والبكاءَ   لا تدَّخِرْ في الشُّؤونِ ماءَ

حرر الدمع وأطلق البكاء على هواك، ولا تدخر في الشؤون (مجاري الدمع في العيون) ماء (دمعاً)

ما كان قُسّاً ولا زياداً   ولا بسِحْرِ البيانِ جاءَ

المرثي لم يكن فصيحاً كقس بن ساعدة الإيادي، ولا كزياد بن معاوية المعروف بالنابغة الذبياني، ولم يأت بسحر البيان

لكنْ إذا قامَ قالَ صِدقاً   وجانَبَ الزُّورَ والرِّياءَ

لكنه كان صادق القول، ويجانب (يتجنب) الزور (الكذب) والرياء (الادعاء). يقول زكي مبارك ما معناه: كنت مع شوقي وقد مات الصوفاني، وأخذ شوقي يردد متحيراً متبرماً: أكان الرجل فيلسوفاً، أم خطيباً؟ أم أي شيء كان؟ ثم جاءت القصيدة فإذا بها «ما كان قساً ولا زياداً...».

سبحانَ مَنْ قاتَهُ غُدُوّاً   وكَفَّ عنْ قوتِهِ عِشاءَ

فسبحان الله الذي قاته (رزقه طعامه) غدوّاً (صباحاً)، ومنعه قوته عِشاءً، لأنه مات في يومه

يا لَكِ دنيا لَذَّتْ نعيماً   للقوم، واستُعذِبَتْ بلاءَ

يا لكِ من دنيا لذت للقوم (طابت لهم) وهي نعيم، واستُعذبت (طابت) لهم أيضاً وهي بلاء، فنحن نحب الحياة في كل أحوالها

إذا انتهيْنا منها تَساوَى   ما سرَّ من حالها وساءَ

إذا انتهينا من الدنيا تساوى طرفا المعادلة وأصبح الجواب صفراً، وصار ما سرَّنا وما ساءنا من الدنيا متساويين. رويُّ القصيدة الهمزة المفتوحة، وأبياتها الثلاثة والأربعون مفتوحة الهمزة، ولكن الموسوعة الشوقية قيدت القافية وأضاعت تعب الشاعر في اجتناب الكسر والضم واصطياد الموقع الإعرابي الذي يأذن بالفتحة

٢١٦ قم في فم الدنيا وحيِّ الأزهرا

قال شوقي في حفل إصلاحات الأزهر (١٩٢٥):

قُـمْ فـي فـمِ الـدنـيـا وحـيِّ الأزهـرا وانثُرْ على سَمْعِ الزَّمانِ الجوْهرا

قم يا هذا كأنك لسان يلعلع داخل فم الدنيا، وحي الأزهر، وانثر الجواهر من كلمات هذه التحية على سمع الزمان

واخشعْ مَلِيَّاً، واقضِ حَقَّ أئمةٍ طَلَعوا بِهِ زُهْراً وماجوا أبحُرا

واخشع ملياً (طويلاً)، واقض حق الأئمة الذي طلعوا في الأزهر كالنجوم الزُّهر (المضيئة) وماجوا (تدفقوا) بالعلم كأنهم البحار

لا تحذُ حذوَ عصابةٍ مفتونةٍ يجدونَ كلَّ قديمِ شيءٍ مُنْكَرا

ولا تحذ حذو عصابة (جماعة) مفتونة (غاوية) تستنكر كل قديم

ولوِ استطاعوا في المجامعِ أنكروا مَنْ ماتَ مِنْ آبائِهِمْ أوْ عُمِّرا

وهؤلاء لو استطاعوا في المجامع (المجالس) لأنكروا آباءهم، من مات منهم ومن عُمِّر

مِنْ كلِّ ماضٍ في القديمِ وهدمِهِ وإذا تقدمَ للبنايةِ قصَّرا

وهؤلاء يتألفون من كل شخص ماض في هدم القديم، وأما إذا جاء ليبني فهو يقصر

وأتى الحضارةَ بالصِّناعةِ رثَّةً والعلمِ نزراً، والبيانِ مثَرثِرا

ويأتي الواحد منهم ليساهم في الحضارة الحديثة فيساهم بصناعة رثة (غير متقنة)، وبعلم نزر (قليل)، وبيان مثرثِر (ضحل المعنى)

يا معهداً أفنى القرونَ جِدارُهُ وطوى الليالِيَ ركنُهُ والأعصُرا

أيها الأزهر! يا معهداً عتيقاً أفنى جدارُهُ الزمن، وطوى ركنه الليالِيَ والعصور

عينٌ مِنَ الفُرقانِ فاضَ نَميرُها وَحَياً مِنَ الفُصحى جرى وتحدَّرا

الأزهر نبعٌ فاض نميره (ماؤه العذب) من القرآن، وهو حَياً (مطرٌ) من الفصحى جرى وتحدر (انسكب)

اللَّهُ أكبرُ يا ابْنَ إسماعيلَ، لم تترُكْ لصُنَّاعِ المآثرِ مَفْخَرا

الله أكبر يا ابن إسماعيل (الملك أحمد فؤاد)، فأنت لم تترك لمن يصنعون المآثر (الإنجازات) شيئاً يفخرون به إلا وسبقتهم إليه

أرْعَيْتَهُ عَيْنَ العِنايةِ مُصْلِحاً وأَجَلْتَ فيهِ يدَ البِناءِ مُعَمِّرا

لقد أرعيت الأزهر (منحته) عين العناية، وأصلحت بناءه، وأجلتَ (أدرتَ) فيه يد التعمير

وبلغتَ بالمعروفِ غايةَ صفْوِهِ   أيكونُ معروفُ الملوكِ مُكَدَّرا

وكان معروفك صافياً بلا ثمن، وهل لمعروف الملوك مقابل؟

لم تبغِ بالضُّعَفاءِ عُدْواناً، ولم   تقذِفْ على حَرَمِ الشَّريعةِ عَسْكرا

لم تبغ (ترِد) عدواناً على الضعفاء من طلبة الأزهر، ولم تقذف بالعسكر على حرم الأزهر الذي هو حرم الشريعة، كما فعلت السلطات سابقاً عندما وجهت الجنود ضد المتظاهرين الأزهريين

نظراً وإحساناً إلى عُمْيانِهِ   وكُنِ المسيحَ مُداوياً ومُجَبِّرا

فلتنظر نظراً ولتحسن إحساناً إلى من فيه من الكفيفين، وكن كالمسيح يداوي الجراح ويجبر الكسور

واللَّهِ ما تدري، لعلَّ كفيفَهُمْ   يوماً يكونُ أبا العلاءِ المبصرا

ولستَ تدري لعل أحد الكفيفين يكون ذات يوم كأبي العلاء المعري الكفيف المبصر بذكائه. كان شوقي يعرف حينئذ عن طه حسين الذي كان في السادسة والثلاثين، وكان طه قاعداً في وقت إلقاء هذه القصيدة يكتب كتاباً يهاجم فيه طرق التدريس بالأزهر لينشره في العام المقبل، وليكون له صدى مدوٍّ. كان بين طه حسين وشوقي نفور، لا بل قد نقل على لسان طه حسين في هذه السنة ١٩٢٥ أنه وصف نفسه بالعدو اللدود لشوقي. قال طه حسين لزكي مبارك (على عهدة الأخير): «مجنون أنت! ترفض كتابة مقدمة للطبعة المقبلة من ديوان شوقي. هذا تشريف لا يناله أحد، ولو أن شوقي طَلب إليَّ ذلك، وأنا من ألد أعدائه، لأجبته شاكراً. فشوقي أعظم شاعر عرفته العربية منذ المتنبي». ولعل طه كان في ذهن شوقي في القصيدة، لكن ضمن الهدامين، لا ضمن الكفيفين العباقرة. على أننا سنرى طه حسين يلتقي بشوقي ويجالسه في بعض الصحف التي كان يزورها شاعرنا حفاظاً على علاقاته الطيبة مع رؤساء تحريرها، وسنراهما يلتقيان في «عاليه» بلبنان في فندق شاهين بعد سنتين ومعهما محمد عبد الوهاب وفكري أباظة

لو تشتريهِ بنصفِ مُلْكِكَ لم تجدْ   غَبْناً، وجَلَّ المشترِي والمشترَى

لو تشتري الأزهر أيها الملك بنصف ملكك لم تجد غبناً (خسارة)، وإنك لجليل والأزهر جليل

اليومَ صَرَّحَتِ الأمورُ فأظهرتْ   ما كان مِنْ خِدَعِ السياسةِ مضمَرا

اليوم صرحت (توضحت) الأمور فأظهرت ما أضمرته (سترته) خدع السياسة

قد كان وجهُ الرأيِ أنْ نبقى يداً   ونرى وراءَ جنودِها إنجِلْتِرا

كان الرأي الحصيف أن نبقى يداً واحدة ونحن نرى إنجلترا تأتينا قادمة وراء جنودها

فإذا أتتنا بالصُّفوفِ كثيرةً   جئنا بصفٍّ واحدٍ لنْ يُكْسَرا

فرغم صفوف الجنود الكثيرة لإنجلترا فصفنا صف واحد، ولذا لن يكسر

٢١٧ قدرة ابن آدم

قال شوقي في احتفال وضع حجر الأساس لمبنى بنك مصر، وأسس طلعت حرب البنك قبلها بخمس سنوات، (قيلت القصيدة عام ١٩٢٥):

تـأنّـى حـيـنَ أسَّـسَـكَ ابـنُ حـربٍ ... وحـيـنَ بـنـى دعـائِـمَـكَ الـشِّـدادا

تأنى طلعت حرب حين أسسك يا مبنى البنك، وحين بنى دعائمك الشديدة

ولا تُـرجـى الـمـتـانـةُ فـي بـنـاءٍ ... إذا الـبَـنّـاءُ لـم يُـعْـطَ اتِّـئـادا

ولا ترجى المتانة في بناء إذا لم يُرزق البنَّاء اتئاداً (تأنّياً)

ولـم يَـبـعُـدْ عـلـى نـفْـسٍ مَـرامٌ ... إذا رَكِـبـتْ لـهُ الـهِـمَـمَ الـبِـعـادا

ولا يبعد على نفس مرام (مطلب) إذا اتخذت له الهمم (الطموحات) البعيدة (الكبيرة)

ولـم أرَ بـعـدَ قـدرتِـهِ تـعـالـى ... كـمـقـدِرَةِ ابـنِ آدمَ إنْ أرادا

٢١٨ صاحب القضية الدؤوب

قال شوقي يمدح سعد زغلول (١٩٢٦):

سَلُوا عنْهُ القضيةَ هل حَماها ... وكانَ حِمى القضيةِ مُسْتباحا

اسألوا قضية حرية مصر هل حَماها (سعد زغلول)، وكان حِماها (وطنها) مستباحاً

هو الشيخُ الفَتِيُّ، لو استراحتْ ... عن الدَّأْبِ الكواكبُ ما استراحا

إنه شيخ مسن ولكنه فتيٌّ في عزمه، ولو استراحت عن الدأب (المثابرة) الكواكب فهو لا يستريح

٢١٩ ناعٍ من الإسكندرية

قال في رثاء أحمد لطفي، وكان نقيباً للمحامين ووكيلاً للحزب الوطني (١٩٢٦):

لا تَنْهَيَنَّ الشاكلاتِ عن البُكا ... فلعل في ذَرْفِ الدموعِ شفاءَها

لا تنهين (تمنعنَّ) يا صاحبي الثاكلات (الفاقدات) عن البكاء، فربما كان في ذرف الدموع شفاء لنفوسهن الحزينة

ولِمِثْلِ نارِ الثُّكلِ، وهي شديدةٌ، ... خَلَقَ الرحيمُ لنا الشؤونَ وماءَها

ولمثل نار الثكل (الفقد) ـ وهي شديدة ـ، خلق الله الرحيم لنا الشؤون (مجاري الدمع في العينين) وخلق ماءها (دموعها)

أَوْحى إلى الحُزْنِ اللَّجُوجِ شُبُوبَها وإلى الدموعِ سَوَاكِباً إطفاءَها

الله أوحى إلى الحزن اللجوج (الملحّ) أن يشعل النار في القلوب، وأوحى إلى الدموع وهي سواكب (منهمرة) إطفاء هذه النار

ناعٍ من الإسكَندَريَّةِ هاتفٌ راعَ الكنانةَ: أرضَها وسماءَها

ثمة ناعٍ من الإسكندرية هتف بخبر موت الراحل فراع (أخاف) الكنانة (مصر) أرضاً وسماءً

وإذا البلادُ تذَكَّرتْ خُدَّامَها لم تَنْسَ موتاها ولا أحياءَها

والبلاد تتذكر من خدمها أكان ميتاً أم حياً

إن الشعوبَ كِيانُها حريةٌ تحيا عليها، أو تموتُ فداءَها

٢٢٠ ودفنتها ودفنت خير قصائدي معها

قال شوقي ينعى الخلافة، وقد انعقد مؤتمر في مصر في هذه السنة للنظر في أمر الخلافة، وكان الملك فؤاد يمني نفسه بالحصول على هذا اللقب (١٩٢٦):

بَعَثُوا الخلافةَ سِيرَةً في النَّادي: أينَ المُبايِعُ بالإمامِ يُنادي؟

بعثوا (أثاروا) سيرة الخلافة في المحافل، وسألوا: أين من يبايع لكي يسمي لنا خليفة؟

ومَنِ ابتغاها صاحباً فمحلُّها بينَ القواضِبِ والقنا المَيَّادِ

ومن ابتغى الخلافة ليكون صاحبها فإن مكانها هو بين القواضب (السيوف) والقنا (الرماح) المياد (المهتز)

لم تَسْتقِمْ للقومِ خلْفَ عِمادِهِمْ هل تستقيمُ وهُمْ بِغيرِ عِمادِ

لم تستقم الخلافة للمسلمين وهم متراصون وراء عمادهم (سندهم/أي الخليفة الذي كان موجوداً)، فهل تستقيم وقد ذهب الخليفة؟

أَتُحاوِلونَ بِلا جِهادٍ خُطَّةً لم يستطِعْها التُّرْكُ بعدَ جَهادِ

هل تحاولون إنجاح خطتكم بلا جهاد، والأتراك لم يستطيعوا إنجاحها بعد جهادهم؟

جَعَلوا الهوى سلطانَها، وَدَعَوْا لها مَنْ لا يُسَدُّ به مكانُ الهادي

جعلوا سلطان (قوة) الخلافة ـ وهم يريدون تجديدها ـ قائماً على الهوى (المصالح)، ودعوا لتسلمها من لا يسد مسد من يهدي إلى الرشد

وأنا الذي مرَّضْتُها في دائِها وجمعتُ فيهِ عواطِفَ العُوَّادِ

وأنا مرَّضتها (اعتنيت بها) وهي في أواخر أيامها، وجمعت في مرضها ذاك عواطف العواد (زوار المريض)

ونصرْتُها نصرَ المجاهدِ في ذَرا عبدِ الحميدِ وفي جناحِ رشادِ
ونصرتها كالمجاهد في ذَرا (حماية) السلطان عبد الحميد، وفي جناح (كنف) السلطان محمد رشاد

ودفنْتُها، ودفنتُ خيرَ قصائدي مَعَها، وطالَ بقبرِها إنشادي
وعندما أُلغيت الخلافة دفنتها ودفنت معها خير قصائدي في مدحها، ورثيتها بعد موتها

حتى اتُّهِمْتُ، فقيلَ تُرْكِيُّ الهوى، صَدَقوا؛ هوى الأبطالِ ملءُ فؤادي
حتى لقد اتهمني الناس بأنني تركي الهوى، وقد صدقوا فحب الأبطال يملأ قلبي

اللَّهُ يعلمُ ما انفردْتُ وإنما صوَّرْتُ شِعْريَ مِنْ شعورِ الوادي
ولم أكن، علم الله، وحدي في ذلك، وإنما صورت في شعري ذاك شعور وادي النيل كله

وفْدَ الخلافةِ! لا أُنَبِّهُكُمْ على بَلَدٍ حَفِيٍّ بالنَّزيلِ جَوادِ
فيا أيها الوفد الذي قدم مصر لمؤتمر الخلافة، لستم بحاجة لأن أنبهكم إلى بلدنا الحفي (المضياف) بالنزيل (بالضيف)، وبلدنا الجواد (الكريم)

٢٢١ وزدته حبتين

قال شوقي في حفيد له اسمه أحمد (١٩٢٦):

رُوحي ولَذَّةُ عَيْني عَوَّذْتُهُ بالحسَيْنِ
حفيدي هو روحي ومتعة عيني، عوذته (رَقَيْتُهُ) بالحسين (مشهد «الحسين» في مصر)

سُلالَتي مِنْ عَلِيٍّ وَلَدْتُهُ مَرَّتَيْنِ
هذا الطفل هو نسلي أنا من ابني علي، فكأنني أنجبت علياً مرتين

أحببتُهُ كأبيهِ وزِدْتُهُ حَبَّتَيْنِ
أحببته كحبي لأبيه وزيادة

طفلٌ علينا أميرٌ مُقَبَّلُ الرُّكبَتَيْنِ
كالأمير علينا هذا الطفل لما نحوطه به من اهتمام، وركبتاه للتقبيل

رِضاهُ غيرُ قليلٍ وسُخْطُهُ غيرُ هَيْنِ
رضاه ليس قليلاً، وسخطه (غضبه) ليس هَيْناً (هَيِّناً)

٢٢٢ صحبة المكتب

قال شوقي (١٩٢٦):

أَلا حَبَّذا صُحْبةُ المَكْتَبِ ... وأَحْبِبْ بِأَيَّامِهِ أَحْبِبِ

ألا حبذا (ما أبدع!) صحبة المكتب (الكُتَّاب)، وما أحبَّ أيامه!

ويا حَبَّذا صِبْيَةٌ يَمْرحونَ ... عِنانُ الحياةِ عليْهِمْ صَبي

وما أجمل أولئك الصبية الذين يمرحون، وعِنان الحياة (أي مقوَدها، كأنه مقوَد الحصان) خفيف عليهم فكأنه صبي مثلهم (هكذا فهمت المعنى)

ويُغدَى بِهِمْ، ويُراحُ قَطِيعاً ... على مَشرقِ الشمسِ والمَغرِبِ

يؤخذون في الغدو (الصباح)، ثم في الرواح (عند الغروب) كأنهم القطيع، عند الشروق وعند الغروب..

إلى مَرْتَعٍ أَلِفُوا غيرَهُ ... وراعٍ غريبِ العصا أَجنَبي

يؤخذون إلى مرتع (موضع الرعي/وقد شبههم بالقطيع) لم يألفوه بل ألفوا غيره، ليجدوا راعياً عصاه هي عصا الغريب، وهو أجنبي (من غير أهلهم)

ومُستقبَلٍ مِنْ قيودِ الحياةِ ... شديدٍ على النفسِ مُسْتَصْعَبِ

يؤخذون إلى مستقبل مكون من قيود الحياة، وهو شديد تستصعبه النفس

فِراخٌ بِأَيْكٍ، فَمِنْ ناهضٍ ... يَرُوضُ الجَناحَ، ومِنْ أَزْغَبِ

إنهم فراخ في الأيك (الشجر)، منهم من نهض يَروض (يدرب) جناحه، ومنهم الأزغب (الذي نبت له ريش صغير)

عصافيرُ عندَ تَهَجّي الدروسِ ... مِهَارٌ عَرابيدُ في المَلْعَبِ

عند تهجي الدروس يكونون كالعصافير فعلاً، وفي الملعب مِهار عرابيد (كلٌّ منهم مهر صاخب)

خَلِيُّونَ مِنْ تَبِعاتِ الحياةِ ... على الأمِّ يُلْقُونَها والأبِ

خليون (فارغون) من تبعات (مسؤوليات) الحياة، ويلقونها على الأم والأب

لَهُمْ جَرَسٌ مُطْرِبٌ في السَّراحِ ... وليسَ إذا جَدَّ بالمُطْرِبِ

جرس المدرسة مطرب لهم في السراح (وقت الانصراف)، وعند الجد والدرس لا يطربهم

وتلكَ الأَوَاعي بأيْمانِهِمْ ... حقائبُ فيها الغدُ المُخْتَبي

وتلك الأواعي (الحقائب) التي بأيمانهم (أيديهم اليمنى)، هي حقائب يختبئ فيها المستقبل

وفيها المؤَخَّرُ خلْفَ الزِّحامِ   وفيها المقَدَّمُ في الموْكِبِ

وفي الحقائب (أي في المستقبل) بعضهم يتأخر ويتخلف في زحمة الناس، وبعضهم يتقدم الموكب

جميلٌ عليهِمْ قَشِيبُ الثيابِ   وما لم يجمَّلْ ولم يَقْشُبِ

الثياب القشيبة (النظيفة/الجديدة) جميلة عليهم، وكذا الثياب التي هي لا جميلة ولا قشيبة، فهي جميلة عليهم أيضاً

كساهُمْ بَنانُ الصِّبا حُلَّةً   أعزَّ مِنَ المُخْمَلِ المُذْهَبِ

كساهم بنان (أصابع) الصبا حلة (ثوباً) أعز (أندر وأغلى) من المخمل المذهب

فيا ويْحَهُمْ هل أحَسُّوا الحياةَ   لقدْ لعِبوا وَهْيَ لمْ تَلعبِ

فويل لهم هل يشعرون بالحياة؟ إنهم يلعبون وهي لا تلعب

تُجرِّبُ فيهِمْ، وما يعلمونَ،   كتجرِبَةِ الطِّبِّ في الأرنبِ

الحياة تجرب أحداثها عليهم، وهم غافلون، كما يجرب العلماء عقاقيرهم في أرانب المختبرات

ودارَ الزمانُ فدالَ الصِّبا   وشَبَّ الصغارُ عنِ المكتبِ

ثم دار الزمان، فدال (انتهى) الصبا، وشب الصغار عن المكتب (الكُتَّاب)

وعُذِّبَ بالعِلْمِ طلابُهُ   وغَصُّوا بمَنهلِهِ الأَعْذَبِ

وأخذوا يدرسون في الثانويات والمعاهد ويتعذبون بطلب العلم، ويغصون (يشرَقون) بمنهله (بنبعِه) العذب

رمتهُمْ بِهِ شَهَواتُ الحياةِ   وحُبُّ النَّباهةِ والمَكْسَبِ

رمتهم (ورطتهم) بالعلم رغبات الحياة، وحب النباهة (الشهرة)، والسعي للمكسب

وزَهْوُ الأُبوَّةِ مِنْ مُنْجِبٍ   يُفاخِرُ مَنْ ليس بالمنْجِبِ

وكذلك ورطهم في العلم زهو (فخر) الأبوة، فالأب المنجب (ذو الابن النجيب) يفاخر من ليس ابنه نجيباً

قدِ انصرفوا بعدَ عِلمِ الكِتابِ   لِبابٍ مِنَ العلم لم يُكْتَبِ

وبعد انتهاء الطلبة من علم الكتب، يدخلون باباً من العلم ليس موجوداً في أي كتاب..

حياةٌ يغامرُ فيها امْرُؤٌ   تَسَلَّحَ بالنَّابِ والمِخْلَبِ

إنها الحياة. والمرء يغامر فيها وقد تسلح بناب ومخلب من العلم أو من غيره

وصـارَ إلـى الـفـاقـةِ ابـنُ الـغـنـيِّ   ولاقـى الـغِـنـى وَلَـدُ الـمُـتْـرَبِ

وقد يصبح ابن الغني فقيراً، وقد يحصل على الغنى ابن المترب (الفقير)

وقـدْ ذهـبَ الـمُـمْـتَـلـي صـحـةً   وصـحَّ الـسـقـيـمُ فـلـمْ يَـذهـبِ

وقد يموت الذي كان ممتلئاً صحة، وقد يصح المريض ويعيش

وكمْ مُنجِبٍ في تَلَقِّي الدروسِ   تَـلَـقَّـى الـحـيـاةَ فـلـم يُـنْـجِـبِ

وكثيراً ما ترى منجِباً (نجيباً) في الدروس، تلقّى درس الحياة فلم يكن نجيباً

وغـابَ الـرفـاقُ كَـأَنْ لـم يَـكُـنْ   بِـهِـمْ لـكَ عـهْـدٌ ولـم تَـصْـحَـبِ

ثم إن رفاق الدراسة غابوا عنك، فكأنه لا عهد لك بهم، ولم تصحبهم

إلـى أنْ فَـنَـوْا ثُـلَّـةً ثُـلَّـةً   فَـنـاءَ الـسَّـرابِ عـلـى الـسَّـبْـسَـبِ

وأخيراً.. يفنوْن ثلة (جماعة) بعد جماعة، مثلما يفنى السراب على السبسب (الصحراء). لا تفوت شوقي فرصة يتعجب فيها من عبث الحياة إلا اقتنصها. قال محمد صبري السوربوني عن هذه القصيدة: «كلها درر.. ولا أعرف لها نظيراً في الشعر قديمه وحديثه في بكاء الشباب وزمن الدرس والمكتب»

٢٢٣ زلزال القيامة

قال شوقي في زلزال طوكيو ويوكاهاما (١٩٢٦):

قِفْ بِطُكْيو وطُفْ على يُكُهامَهْ   وسَلِ القريتيْنِ: كيفَ القِيامَةْ

قف بإزاء طوكيو وطُفْ على (تَجَوَّلْ في) يوكوهاما، واسأل القريتين (البلدين) كيف تكون القيامة، فقد شهدا شبهها في الزلزال

دنـتِ الـسـاعـةُ الـتـي أُنـذِرَ الـنـا   سُ، وحـلَّـتْ أَشْـراطُـهـا والـعَـلامَـةْ

عندئذ اقتربت الساعة التي أنذر الله الناس بقدومها، ووقعت أشراطها (دلائلها) والعلامة (العلامة التي بها يعرف قيام الساعة)

حـازَهُـمْ مِـنْ مَـراجِـلِ الأرضِ قـبـرٌ   في مدى الظنِّ عمقُهُ ألفُ قامَةْ

حازهم (احتواهم) من المراجل (خزانات الغليان) قبر يظن المرء أن عمقه ألف قامة (ألف مرة طول الإنسان)

تـحـسَـبُ الـمـيْـتَ في نواحيهِ يُعْيِي   نَـفْـخَـةَ الـصُّـورِ أَنْ تَـلُـمَّ عِـظـامَـهْ

تحسب أن الميت في هذا القبر الجماعي يعيي نفخة الصور (يجعل نفخة البوق التي تنفخ في يوم القيامة عاجزة)، فلا تستطيع هذه النفخة أن تلم عظامه

دولةُ الشرقِ وهْيَ في ذِرْوَةِ العِزِّ ـ تَحارُ العُيونُ فيها فَخامَةْ

اليابان دولة الشرق العظيمة وهي في ذروة (قمة) العز، والعيون تحار من فخامة نهضتها.. هذه الدولة

لو تأمَّلتَها عَشِيَّةَ جاشتْ خِلْتَها في يدِ القضاءِ حمامَةْ

لو رأيتها في ذلك المساء عندما جاشت (اهتزت) لخلتها (ظننتها) حمامة صغيرة في يد القضاء

٢٢٤ شروط الملك

قال شوقي (١٩٢٦):

يا طالباً لمعالي المُلْكِ مجتَهِداً خُذْها مِنَ العلمِ أو خُذْها مِنَ المالِ

يا من يطلب أمجاد الملك مجتهداً (مثابراً في طلبها)، عليكَ بالعلم أو بالمال

بالعلمِ والمالِ يَبني الناسُ مُلْكَهُمُ لم يُبْنَ مُلْكٌ على جهلٍ وإقلالِ

بهما كليهما يبني الناس الملك، فلا ملك بجهل ولا بإقلال (فقر)

٢٢٥ سلام أرق من صبا بردى

قال شوقي يذكر قصف الفرنسيين دمشق جواً وبراً في أكتوبر تشرين الثاني ١٩٢٥، قالها عام (١٩٢٦):

سَلامٌ مِنْ صَبا بَرَدى أَرَقُّ ودَمْعٌ لا يُكَفْكَفُ يا دمشقُ

سلام أرق من صبا (نسيم) بردى (نهر دمشق)، ودمع لا يكفكف (يُمنَع من الهمول) لكِ يا دمشق

ومعذِرةُ اليَراعةِ والقوافي! جلالُ الرُّزْءِ عَنْ وصفٍ يَدِقُّ

ولك معذرة من اليراعة (القلم) والقوافي (القصائد) فهما لا يفيانِكِ حقك، فجلال (ضخامة) الرزء (المصيبة) يدق (يصعب) عن الوصف

وبي مِمَّا رَمَتْكِ بِهِ اللَّيالي جِراحاتٌ لها في القلبِ عُمْقُ

وقد حل بي مما رمتك به الليالي (أحداث الزمن) جراح عميقة الغور في القلب

دخلتُكِ والأصيلُ لهُ ائْتِلاقٌ ووجْهُكِ ضاحكُ القَسَماتِ طَلْقُ

دخلتك قبل حين من الزمن وكان للأصيل (الغروب) ائتلاق (بريق)، وكان وجهك ـ آنذاك ـ ضاحك القسمات (التقاطيع) طلقاً (مستبشراً)

وتحتَ جِنانِكِ الأنهارُ تجري ومِلءَ رُباكِ أوْراقٌ ووُرْقُ

وكانت الأنهار تجري تحت جنانك (بساتينك)، وملء رباك أوراق الشجر والوُرْق (الحمائم)

وحــوْلــيِ فِــتْــيَــةٌ غُــرٌّ صِــبــاحٌ   لــهــمْ في الــفــضــلِ غــايــاتٌ وسَــبْــقُ

وحولي فتية غر (بيض الوجوه) صِباحٌ (مشرقون)، سباقون للفضل يصلون فيه إلى الغايات البعيدة

عــلــى لَــهَــواتِــهِــمْ شُــعَــراءُ لُــسْــنٌ   وفــي أعْــطــافِــهِــمْ خُــطــبــاءُ شُــذْقُ

على لهواتهم (ألسنتهم/اللهاة لحمة الحلق المتدلية) شعراء لسن (فصحاء)، وفي أعطافهم (جنوبهم) خطباء شدق (فصحاء). وهو إذ يقول في أعطافهم خطباء إنما يقصد هم خطباء، ومن بيان العربية أنك إن قلت «بين جنبيك خير صديق» فالمعنى «أنت خير صديق»

رُواةُ قـصـائـدي، فـاعـجَـبْ لِـشِـعـرٍ   بِـكُــلِّ مَــحَــلَّــةٍ يَــرويــهِ خَــلْــقُ

هؤلاء رواة لقصائدي يحفظونها ويرددونها، فاعجب لهذا الشعر الذي يرويه خلق (ناس) في كل محلة (بلدة)

غَــمَــزْتُ إبــاءَهُــمْ حــتــى تَــلَــظَّــتْ   أنــوفُ الأُسْــدِ واضــطَّــرَمَ الــمَــدَقُّ

غمزت إباءهم (أثرت نخوتهم) حتى تلظت (اشتعلت) أنوف الأسود غضباً، واضطرم (التهب) المدق (أرنبة الأنف). عندما سأل شوقي محمد عبد الوهاب عن أجمل بيت في القصيدة اختار هذا البيت، سأله شوقي: فهمته؟ قال لا. فقط لجرسه. وغنى عبد الوهاب أبياتاً من القصيدة وتجنب هذا البيت

وضــجَّ مِــنَ الــشَّــكــيــمــةِ كــلُّ حــرٍّ   أبــيٍّ، مِــنْ أُمَــيَّــةَ فــيــهِ عِــتــقُ

وضج (سئم) من الشكيمة (حديدة اللجام يعضها الحصان) كل حر أبي (رافض)، فيه عتق (أصالة موروثة من عهد بني أمية

لَــحــاهــا الــلَّــهُ أنــبــاءً تــوالــتْ   عــلــى سَــمْــعِ الــولــيِّ بــمــا يَــشُــقُّ

لحاها (لعنها) الله هذه الأنباء التي توالت على سمع الولي (الصديق) بما يشق (يؤذي)

تَــكــادُ لــروْعَــةِ الأحــداثِ فــيــهــا   تُــخــالُ مِــنَ الــخُــرافــةِ وهْــيَ صِــدْقُ

تكاد هذه الأنباء لما فيها من روعة الأحداث (الأحداث المريعة) تخال (تُظَنُّ) من الخرافات، ولكنها للأسف صادقة

وقــيــلَ مــعــالــمُ الــتــاريــخِ دُكَّــتْ   وقــيــلَ أصــابَــهــا تَــلَــفٌ وحَــرْقُ

قيل معالم دمشق التاريخية قد دكت، وأصابها الخراب والحرق

ألــسْــتِ، دمــشــقُ، لــلإســلامِ ظِــئْــراً   ومُــرْضِــعَــةُ الأُبُــوَّةِ لا تُــعَــقُّ

ألستِ يا دمشق ظئر (مرضعة) الإسلام؟ (ودمشق احتضنت الإسلام باكراً)، وإن مرضعة الأبوة (الآباء) لا يجوز عقوقها

صلاحُ الدينِ، تاجُكِ، لم يُجمَّلْ ولم يوسَمْ بأزْيَنَ مِنْهُ فَرْقُ

صلاح الدين (المدفون في دمشق) تاج لك، وهو تاج لم يجمَّل ولم يوسم (يزيَّن) بأجمل منه فرق (رأس)

وكلُّ حضارةٍ في الأرضِ طالتْ لها مِنْ سَرْحِكِ العُلْويِّ عِرْقُ

وكل حضارة في الأرض طال عزها أخذت عِرْقاً (غصناً) من سرحك (شجرك) العلوي (المجيد)

بَنَيْتِ الدولةَ الكبرى، ومُلْكاً غبارُ حضارتيْهِ لا يُشَقُّ

بنيت يا دمشق دولة كبرى، وملكاً في المشرق وآخر في الأندلس، فلكِ بهذا حضارتان لا يشق غبارهما (لا يلحق بهما أحد)

لهُ بالشامِ أعلامٌ وعُرْسٌ بشائرُهُ بأندَلُسٍ تُدَقُّ

هذا الملك له بالشام أعلام الفرح والزينة والنصر، وهو عرس نسمع في الأندلس بشائره (أخباره السارة) تدق بها الطبول

رِباعُ الخُلْدِ، ويْحَكِ، ما دَهاها أحقٌّ أنَّها دَرَسَتْ، أحَقُّ؟

يخاطب دمشق: رباعُ (ربوع) الخلد (الجنة) ما الذي دهاها؟ وهل صحيح أنها درست (مُحِيت)؟

وأينَ دُمَى المقاصِرِ مِنْ حِجالٍ مُهَتَّكَةٍ وأستارٍ تُشَقُّ

وأين دمى (عرائس/يقصد نساء) المقاصر (البيوت)؟ أين هي من هذه الحجال (الستور) المهتَّكة (الممزقة) المشقوقة؟

بَرَزْنَ وفي نواحي الأيكِ نارٌ وخَلْفَ الأيكِ أفراخٌ تُزَقُّ

برزت النساء (خرجن) من بيوتهن بعد حرق دمشق على أيدي الفرنسيين، وكان في نواحي الأيك (الغاب) نار، وخلف الغاب أطفالهن كالأفراخ التي تزق بالحَبِّ زقّاً

إذا رُمْنَ السَّلامةَ مِنْ طريقٍ أتتْ مِنْ دونِهِ للموتِ طُرْقُ

إذا رمن (طلبن) السلامة بسلوك طريق، كان للموت قبل هذا الطريق طرق أخرى يأتي منها لهؤلاء النسوة

بِلَيْلٍ للقذائفِ والمنايا وراءَ سمائِهِ خَطْفٌ وصَعْقُ

حدث لهن هذا في ليل للقنابل والموت في سمائه خطف للأرواح وصعق للناس

إذا عَصَفَ الحديدُ احمَرَّ أُفْقٌ على جَنَباتِهِ، واسوَدَّ أُفْقُ

إذا عصف حديد المدافع احمر الأفق على جنبات الليل بالنار، واسود الأفق مرة أخرى بالدخان

سَلِي مَنْ راعَ غِيدَكِ بعدَ وَهْنٍ أَبَيْنَ فؤادِهِ والصخرِ فَرْقُ

فاسألي يا دمشق من راع (أخاف) غيدك (جميلاتك) بعد وهن (بعد حلول الظلام): هل يوجد فرق بين قلبه وبين الصخر؟

ولِلمستعمرينَ، وإنْ ألانوا، قُلوبٌ كالحجارةِ لا تَرِقُّ

وللمستعمرين ـ وإن ألانوا (أظهروا اللين) ـ قلوب مثل الحجارة لا ترق (تلين)

رماكِ بطيشِهِ، ورمى فرنسا، أخو حرْبٍ بِهِ صَلَفٌ وحُمْقُ

رماك بطيشه ـ ورمى بلده فرنسا أيضاً ـ صاحب حرب (هذا الجنرال) به صلف (تكبر) وحمق

إذا ما جاءَهُ طُلَّابُ حقٍّ يقولُ عصابةٌ خرجوا وشَقُّوا

إذا جاءه أصحاب الحق يطلبونه يعدهم عصابة (جماعة) خرجوا على السلطة وشقوا عصا الطاعة

دمُ الثوارِ تعرفُهُ فرنسا وتعلمُ أنَّه نورٌ وحقُّ

فرنسا تعرف خير المعرفة دم الثوار وتضحياتهم، وهي تعلم أن هذا الدم مجيد وينير طريق الحريّة، فهي صاحبة ثورة مجيدة

جرى في أرضِها، فيهِ حياةٌ كمُنْهَلِّ السماءِ وفيهِ رِزْقُ

وقد جرى دم الثوار في أرض فرنسا، وكان فيه حياة، كان مثل منهل السماء (المطر) الذي يأتي بالخير

بلادٌ ماتَ فِتْيَتُها لِتَحْيا وزالوا دونَ قومِهِمُ لِيَبْقُوا

تلك بلاد مات شبابها لتحيا، وزالوا (ماتوا) دون قومهم (دفاعاً عن قومهم) ليبقى القوم

وحُرِّرَتِ الشعوبُ على قَناها فَكيفَ على قَناها تُسْتَرَقُّ

وقد تحررت الشعوب على قنا (رماح) فرنسا عقب ثورتها ١٧٨٩، فكيف تسترق (تستعبد) الشعوب على هذه الرماح نفسها؟

بني سوريَّةَ، اطَّرِحوا الأماني وألقُوا عنكُمُ الأحلامَ ألْقُوا

يا بني سورية اطَّرِحوا (اتركوا جانباً) الأماني، وألقوا عنكم الأحلام

فَمِنْ خِدَعِ السياسةِ أنْ تُغَرُّوا بألقابِ الإمارةِ وهْيَ رِقُّ

فمن خِدَع السياسة أن يُغَرَّ المرء بألقاب الإمارة، بينما هي رق (عبودية). وكانت فرنسا تسعى في تفتيت سوريا إلى لبنان الكبير، ودولة جبل الدروز، وحكومة العلويين. وسايرها في هذا المسعى عدد من الساسة

وكَـمْ صَيَـدٍ بـدا لَـكَ مِـنْ ذليـلٍ   كما مالَتْ مِنَ المصلوبِ عُنْقُ

وكثيراً ما يظهر لعينيك صَيَدٌ (فخر وإمالة عنق) من شخص ذليل، فهو يُميل عنقه لا فخراً ولكن كالمصلوب

فُتوقُ المُلْكِ تَحدُثُ ثمَّ تَمضي   ولا يـمضـي لـمختَلِفيـنَ فَتْقُ

فتوق الملك (الشقوق في بنيانه) تحدث ثم يمكن إصلاحها، ولكن المختلفين من أبناء البلد لا يسهل إصلاح الفتق بينهم

نصحتُ ونحنُ مُختلفونَ داراً   ولكنْ، كلُّنا في الهمِّ شرقُ

نصحت لكم مع اختلافنا في القطر، ولكننا جميعاً نشترك في الهم، فالشرق كله مظلوم والغرب له ظالم

ويجمعُنا إذا اختلفتْ بلادٌ   بيانٌ غيرُ مختلِفٍ ونُطْقُ

ولئن اختلف بلدي عن بلدكم فإن ما يجمعنا هو البيان الذي لا نختلف فيه والنطق باللغة العربية

وقفْتُمْ بينَ موتٍ أو حياةٍ   فإنْ رُمْتُمْ نعيمَ الدهرِ فاشْقُوا

أنتم بين الموت والحياة، وإذا رمتم (أردتم) النعيم والعز طول الدهر فاشقوا (اتعبوا). وحق كلمة «اشقوْا» أن تكون بفتح القاف، ومثلها كانت قبل بضعة أبيات كلمة «يبقوا». .ولكن هذا إقواء لا تقبله الأذن

وللأوطانِ في دَمِ كلِّ حُرٍّ   يدٌ سَلَفَتْ وديْنٌ مُسْتَحَقُّ

وللأوطان في دم كل حر من أبنائها يدٌ (معروفٌ) سابق، ولها عليه دين مستحق الوفاء

ومَنْ يَسْقي ويَشْرَبُ بالمنايا   إذا الأحرارُ لم يُسقَوْا ويَسقُوا

ومن ذا الذي يسقي عدوه الموت ويشرب الموت إذا لم يفعل ذلك الأحرار

ولا يبني الممالِكَ كالضَّحايا   ولا يُدْني الحقوقَ، ولا يُحِقُّ

ولا شيء يبني الدول مثل الضحايا من أبنائها، ولا شيء مثلهم يدني (يقرب) الحقوق لأصحابها وينجزها

ففي القتلى لأجيالٍ حياةٌ   وفي الأسرى فدىً لهُمُ وعِتْقُ

ففي قتلى الحرية حياة للأجيال اللاحقة، وفي الأسرى عتق (تحرر) وفداء

ولِلْحُرِّيَّةِ الحمراءِ بابٌ   بِكُلِّ يدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ

وللحرية الحمراء المصبوغة بدم الفداء بابٌ يَدُق عليه أبناء الوطن بأيديهم المضرجة (المصبوغة بالدم)

جَـزاكُـمْ ذو الـجَـلالِ بـنـي دمـشـقٍ   وعِـزُّ الـشـرقِ أوَّلُـهُ دمـشـقُ

جزاكم الله ذو الجلال يا أبناء دمشق، فأنتم كنتم بداية عز الشرق في عصر بني أمية

٢٢٦ كان شعري الغناء في فرح الشرق

قال شوقي في حفل مبايعته بإمارة الشعر (١٩٢٧):

مـرحـبـاً بـالـربـيـعِ فـي رَيْـعـانِـهْ   وبـأنـوارِهِ وطـيـبِ زمـانِـهْ

ريعانه: أوله، أنواره: نوّار الشجر وزهره

أيـنَ نَـوْرُ الـربـيـعِ مِـنْ زَهَـرِ الـشِّـعْـ   ـرِ إذا مـا اسْـتـوى عـلـى أفـنـانِـهْ

لا مقارنة بين نَوْر (نوَّار) الربيع وزهر (نوَّار) الشعر عندما يستوي على أفنانه (أغصانه)

سَـرْمَـدُ الـحـسنِ والبَـشـاشـةِ، مهما   تـلـتَـمِـسْـهُ تـجِـدْهُ فـي إبَّـانِـهْ

فالشعر سرمد الحسن (أبدي الجمال)، ومهما (في أي وقت) تلتمس (تطلب) الشعر تجده يانعاً كأنه في إبانه (في موسمه)

حَـسَـنٌ فـي أوانِـهِ كـلُّ شـيءٍ   وجـمـالُ الـقـريـضِ بـعـدَ أوانِـهْ

كل شيءٍ جميل في أوانه، والقريض (الشعر) جماله يزيد بعد انقضاء زمن عليه

أَمَـرَ الـلـهُ بـالـحـقـيـقـةِ والـحـكـ   ـمةِ فـالـتـقَّـتـا عـلـى صَـوْلـجـانِـهْ

أمر الله الحقيقة والحكمة فالتفتا على صولجان الشعر ترافقانه دوماً. أحقاً؟ الشعراء يتَّبعهم المهتدون؟

لـم تَـثُـرْ أمـةٌ إلـى الـحـقِّ إلَّا   بِـهُـدى الـشِّـعـرِ أو خُـطـى شَـيْـطانِـهْ

لم تثر أمة للمطالبة بحقها إلا والشعر يهديها ملاكاً أو يثيرها شيطاناً

وشيطان الشاعر هو الذي يوحي إليه بالشعر في الخرافة الأدبية المعروفة، وشوقي هنا يومئ إليها

لـيـس عـزفُ الـنـحـاسِ أوقـعَ مـنـهُ   فـي شُـجـاعِ الـفـؤادِ أو فـي جـبـانِـهِ

عزف الآلات النحاسية ليس أشد وقْعاً من الشعر في قلوب الشجعان والجبناء

ظَـلَّـلَـتْـنـي عـنـايـةٌ مِـنْ فـؤادٍ   ظَـلَّـلَ الـلَّـهُ عـرشَـهُ بـأمـانِـهْ

ظللتني عناية الملك أحمد فؤاد، وأدعو الله أن يظلل عرشه بأمان منه

مَـلِـكُ الـنـيـلِ مِـنْ مَـصَـبَّـيْـهِ بـالـشَّـطْـ   ـإلـى مَـنْـبَـعَـيْـهِ مِـنْ سُـودانِـهْ

هو ملك النيل من مصبَّيْه (فرعي دمياط ورشيد اللذين يصبان ماء النيل في شاطئ المتوسط) وحتى منبعيه في السودان (فالنيل الأبيض والأزرق بمثابة المنبعين اللذين يؤلفان النيل وكلاهما يمر بالسودان قبل دخول مصر)

يـا عُـكـاظـاً تـألَّـفَ الـشَّـرْقُ فـيـهِ   مِـنْ فِـلِـسْـطـيـنِـهِ إلـى بَـغـدانِـهْ

أيها الحفل الشبيه بعكاظ، وقد تألف (تجمَّع) الشرق فيه من فلسطين إلى بغدان (بغداد)

قلَّـدتْـنـي الـمـلـوكُ مِـنْ لـؤلـؤِ الـبحـ   ـريْـنِ آلاءَهـا ومِـنْ مُـرْجـانِـهْ

لقد قلدني (طوق عنقي) الملوك آلاءهم (نِعمهم) من لؤلؤ ومرجان (لؤلؤ) البحرين، مشيراً إلى هدية حاكم البحرين له آنذاك

مـوكـبُ الـشـعـرِ حـرَّكَ الـمـتـنـبـي   فـي ثَـراهُ، وهـزَّ مِـنْ حَـسَّـانِـهْ

هذا الحفل كان موكباً للشعر، وقد حرك المتنبي في ثراه (تربته)، وهز حَسَّان الشعر (حسان بن ثابت)

رُبَّ سـامـي الـبـيـانِ نَـبَّـهَ شـأْنـي   أنـا أسـمـو إلـى نـبـاهـةِ شـانِـهْ

رب رجل سامي البيان (عالي الفصاحة/يشير إلى محمود سامي البارودي الذي سبقه في الشعر زمناً وفتح له الطريق) وأنا أسمو (أتطلع) إلى نباهة شأنه (أهميته)

كـان بـالـسَّـبْـقِ والـمـيـاديـنِ أوْلـى   لـو جـرى الـحـظُّ فـي سَـواءِ عِـنـانِـهْ

كان أولى مني بالسبق في الشعر وفي ميادينه لو أن الحظ جرى في سواء عنانه (واتاه). كان البارودي رجل ميادين، كان محارباً ووزيراً للحربية، وكان شاعراً مهماً

إنَّـمـا أَظـهـروا يَـدَ الـلـهِ عِـنـدي   وأذاعـوا الـجـمـيـلَ مِـنْ إحـسـانِـهْ

ما يصنعه هؤلاء المحتفلون هو أنهم يبرزون يد (نعمة) الله علي، ويذيعون جميل إحسان الله علي

مـا الـرَّحـيـقُ الـذي يـذوقـونَ مِـنْ كَـرْ   مـي، وإنْ عِـشْـتُ طـائـفـاً بِـدِنـانِـهْ

ورحيق شعري الذي يذوقونه ليس من كرْمي (بستاني)، وإن عشت وأنا أطوف بدنان الكرم (جِرار الخمر). فشوقي يطوف حول أوعية الخمر الكبيرة يستقي منها خمرة الشعر ليقدمها للناس وليس له سوى فضل الاستقاء لغيره

وهَـبُـونـيِ الـحَـمـامَ لَـذَّةَ سَـجْـعِ   أيـنَ فـضـلُ الـحَـمـامِ فـي تَـحْـنـانِـهْ؟

وهبوني (افرضوا أنني) كالحمام في لذة سجعه (لحنه)، أين فضل الحمام في تحنانه (غنائه)؟ فالحمام من طبعه السجع وليس له فضل فيه

وَتَـرٌ فـي الَّـلـهـاةِ مـا لِـلـمُـغـنِّـي   مِـنْ يـدٍ فـي صـفـائِـهِ ولِـيـانِـهْ

الشعر كأنه وتر في اللهاة (اللحمة المتدلية في آخر الحلق بين اللوزتين)، وليس للمغني يد (فضل) في أن يكون للوتر صفاء أو ليانة (لين)

كـان شـعـري الـغـنـاءَ فـي فَـرَحِ الـشـر   قِ وكـان الـعـزاءَ فـي أحـزانِـهْ

كان شعري غناء في أفراح الشرق، وعزاء للناس لينسوا أحزانه

قد قضى اللَّهُ أنْ يُؤلِّفَنا الجُر ... حُ، وأنْ نلتقي على أشجانِهْ

قضى الله أن يؤلفنا (يجمعنا) الجرح، وأن نلتقي على أشجانه (أحزانه)

كلَّما أنَّ بالعراقِ جريحٌ ... لمَسَ الشرقُ جنبَهُ في عُمانِهْ

كلما أنَّ (تأوه) بالعراق جريح، لمس الشرق خاصرته في عُمَان إذ يحس بالألم

وعليْنا كما عليكُمْ حديدٌ ... تتنزَّى الليوثُ في قُضْبانِهْ

وتحبسنا قضبان الحديد مثلما تحبسكم، وداخلها تتنزى (تتواثب) الليوث طلباً للحرية

٢٢٧ يحسدون الميت

قال شوقي يرثي إسماعيل أباظة، أحد الأعيان، وعضو الجمعية التشريعية، (١٩٢٧):

يقولونَ: يَرثي الرَّاحِلِينَ، فَوَيْحَهُمْ ... أأَمَّلْتُ عندَ الراحِلِينَ الجوازِيا

يلومني بعضهم لأنني أرثي الراحلين، فالويل لهم، هل أنا أؤمل عند الراحلين الجوازيَ (المكافآت)

أبَوْا، حسداً، أنْ أجعلَ الحيَّ أُسْوَةً ... لَهُمْ، ومِثالاً قدْ يُصادفُ حاذِيا

هؤلاء الحاسدون رفضوا أن أجعل الشخص الحي أسوة (قدوة) ومثالاً، وكان أملي إذ أمدح الأحياء أن يصادف الممدوح بشعري حاذياً (شخصاً يحذو حذوه)

فلمَّا رثيتُ الميْتَ أقْضيِ حقوقَهُ ... وجدْتُ حَسُوداً للرُّفاتِ وشَانِيا

فعندما رثيت الميت لقضاء حقه وتكريمه، وجدت حسوداً للرفات وشانئاً (مبغضاً) للميت

إذا أنتَ لم تَرْعَ العهودَ لهالِكٍ ... فلسْتَ لحيٍّ حافظَ العهدِ راعِيا

إذا أنت لم ترعَ (تحفظ) العهود لهالك (ميت)، فأنت لن ترعى عهد الحي

فلا يَطْوِيَنَّ الموتُ عهدَكَ مِنْ أخٍ ... وهبْهُ بِوادٍ غيرِ واديكَ نائيا

فلا تدع الموت يطوي عهدك إزاء أخ لك، وهبه يا شوقي (افترض أنه) رحل ليعيش في واد بعيد غَير واديك ولم يمت موتاً

أقامَ بأرضٍ أنتَ لاقِيهِ عندَها ... وإنْ بِتُّما تستبعِدانِ التَّلاقِيا

وافترض أن الميت سكن أرضاً ستلاقيه فيها، وإن كان اللقاء مستبعداً الآن، فالموت سيجعلنا كلنا نتلاقى في التراب

وليسَ البيانُ الهَجْوَ إنْ كنتَ ساخطاً ... ولا هُوَ زُورَ المدحِ إنْ كنتَ راضِيا

والبيان ليس الهجاء في وقت سخطك، ولا المدح الكاذب وقت رضاك

ولكنْ هُدَى اللهِ الكريمِ ووحْيُهُ حَمَلْتَ بهِ المِصباحَ في الناسِ هادِيا

ولكن البيان هدى الله وإلهامه، وأنتَ يا شوقي ـ يخاطب نفسه ـ حملت مصباح البيان تهدي الناس به

تُفِيضُ على الأحياءِ نوراً، وتارةً تُضيءُ على الموْتى الرِّجامَ الدَّواجِيا

تُفيض على الأحياء نوراً، وأحياناً تنير على الموتى الرجام (حجارة القبر) الدواجيَ (المعتمة)

هياكلُ تَفْنى، والبيانُ مُخَلَّدٌ ألا إنَّ عِتْقَ الخَمْرِ يُنْسي الأوانِيا

أجسام الناس هياكل فانية، والبيان خالد، كالخمر العتيقة فإن عتقها يجعلها جيدة وننسى معه دنانها وخوابيها المسودة المطلية بالقار

٢٢٨ الشاعر والرواة

قال شوقي في الحفل الخمسيني لدار العلوم (١٩٢٧):

نَظَمَ اللَّهُ مُلْكَهُ بعبادٍ عَبقريِّينَ أوْرَثوا الملك حُسْنا

نظم الله ملكه (كما ينظم المرء العقد من اللآلئ) بالعباقرة من خلقه الذين أورثوا الملك حسناً (تركوا له زينة)

شغلتْهُمْ عَنِ الحَسودِ المعالي إنما يُحسَدُ العظيمُ ويُشنا

شغلت هؤلاء العباقرة عن الحسود الأمجادُ، والعظيم دائماً يُحسد ويُشنأ (يُمقَت)

كُلَّما صارَ لِلْكُهولةِ شِعري أنْشَدوهُ فعادَ أمْرَدَ لَدْنا

كلما صار شعري كهلاً (كبير السن) أنشده هؤلاء الشباب الذين يتعلمون ليصبحوا عباقرة المستقبل، فعاد (فصار) أمرد (فتياً) لدناً (طري العود)

أسرةُ الشاعرِ الرواةُ، وما عَنَّوْهُ، والمرءُ بالقريبِ مُعَنَّى

الرواة هم أُسرة الشاعر، وهم لا يُعَنُّونَه (لا يتعبونه)، بينما الإنسان يتعب من أقارب النسب

هُمْ يَضِنُّونَ في الحياةِ بما قا لَ، ويُلْفَوْنَ في المماتِ أَضَنَّا

في حياة الشاعر يضنُّ الرواة بما قال (يحرصون على شعره)، وتلفيهم (تجدهم) بعد موته أضنَّ (أحرص) على شعره

وإذا ما انقضى، وأهلوه، لم يَعْدَمْ شقيقاً مِنَ الرُّواةِ أوِ ابْنا

وإذا ما انقضى (مات) ومات أهله، لم يعدم الشاعر من الرواة من يكون كالشقيق أو الابن

نحنُ في صورةِ الممالِكِ ما لم يصبحِ العلمُ والمعلمُ مِنَّا

نحن لسنا مملكة حقيقية بل شبح مملكة إلا إذا أصبح العلم والمعلم نابعين من بلدنا

لا تُنادُوا الحُصونَ والسُّفْنَ وادعُوا الـ ـعِلمَ يُنشِئْ لكُمْ حصوناً وسُفْنا

لا تنادوا من ينشئ لكم الحصون والسفن، بل نادوا العلم لكي تنشئوا به حصوناً وسفناً بأنفسكم

إنَّ رَكْبَ الحضارةِ اخترقَ الأر ضَ وشقَّ السماءَ ريحاً ومُزْنا

موكب الحضارة اخترق أعماق الأرض، وشق السماء بريحها ومزنها (غيمها)

وصحِبناهُ كالغُبارِ فلا رَحْـ ـلاً شدَدْنا ولا رِكاباً زَمَمْنا

ونحن! لقد صحبنا موكب العلم كأننا الغبار الذي يصاحب الموكب، فلم نكن جزءاً من الموكب، فما شددنا رحلاً (خُرج الدابة) ولا زممنا ركاباً (ربطنا ركاب الحصان)

٢٢٩ جارة الوادي

قال شوقي يذكر زحلة بلبنان، (١٩٢٧):

شيَّعْتُ أحلامي بِقلبٍ باكِ ولَمَمْتُ مِنْ طُرُقِ المِلاحِ شِباكي

شيعت (ودعت) أحلامي بقلب باكٍ، ولممت شباكي التي كنت أنصبها في طرق الملاح (الجميلات)

ويحَ ابنِ جَنبيَ، كلُّ غايةِ لَذَّةٍ بعدَ الشبابِ عزيزةُ الإدراكِ

مسكين ابن جنبي (قلبي)، فكل لذة كبيرة تصل الغاية تصبح بعد انقضاء الشباب عزيزة الإدراك (صعبة التحقيق)

لم تَبْقَ منَّا يا فؤادُ بقيَّةٌ لِفُتُوَّةٍ، أوْ فضلةٌ لعِراكِ

لم تبق منا يا قلبي بقية لفتوَّة (لاعتزاز الشباب بقوته) ولا فضلة لعراك (مقارعة اللهو)

كنَّا إذا صفَّقْتَ نستبقُ الهوى ونشُدُّ شدَّ العُصْبةِ الفُتَّاكِ

كنتُ وأصحابي يا قلبي إذا صفقتَ (خفقت) نسابق الهوى، ونشتد إثر الملاهي اشتداد عصبة (جماعة) من الفُتّاك (المنغمسين في اللهو)

واليومَ تَبعثُ فيَّ حينَ تَهُزُّني ما يَبعثُ الناقوسُ في النُسَّاكِ

واليوم! تبعث في نفسي يا فؤادي عندما تهزني مشاعر هادئة كالتي يبعثها الناقوس (جرس الكنيسة) في النساك (المترهبين)

يا جارةَ الوادي طربْتُ، وعادَني ما يُشبهُ الأحلامَ مِنْ ذِكراكِ

يا جارة الوادي (بلدة زحلة بلبنان) طربتُ، وعادني (زارني) من ذكراك ما يشبه الأحلام

مَثَّلْتُ في الذِّكرى هواكِ وفي الكَرى   والذِّكرياتُ صَدى السِّنينَ الحاكي

أكرر ذكراك في ذهني وفي نومي، والذكريات كأنها صدى السنين الحاكي (المقلِّد)، فهي تشبه الحدث الأصلي وتحاكيه كما يشبه الصدى الصوت الأصلي

ولقد مررتُ على الرياضِ بِرَبْوَةٍ   غَنَّاءَ، كنتُ حيالَها ألقاكِ

مررت الآن وأنا على الرياض (البساتين) بربوة غناء (تلة جميلة) كنت حيالها (عندها) كأنني ألقاك

ضحِكَتْ إليَّ وُجوهُها وَعيونُها   ووجدتُ في أنفاسِها رَيَّاكِ

ضحكت إلي وجوه الربوة (أزهارها) وعيونها (السواد في وسط الأزهار)، ووجدت في أنفاس (رائحة) الربوة رياك (عطرك)

لم أَدْرِ ما طيبُ العِناقِ على الهوى   حتى ترفَّقَ ساعدي فَطواكِ

لم أكن أدري ما طيب (لذة) العناق مع وجود الحب حتى ترفق (تأنى) ساعدي فطواك في ضمة حب

وتَأَوَّدَتْ أعطافُ بانِكِ في يَدي   واحمَرَّ مِنْ خَفَرَيْهِما خدَّاكِ

وتأودت (تمايلت) أعطاف (جنبات) بانك (شجر البان) في يدي، واحمر خدَّاك من خفريهما (خجلهما). احمر الخدان من «خفرهما» أي خجلهما، ولكن الوزن جعلها «خفريهما» فكأن لكل خد خجلاً خاصاً به

ودَخلْتُ في ليليْنِ: فَرْعِكِ والدُّجى،   ولَثَمْتُ كالصُّبحِ المُنَوِّرِ فاكِ

ومع العناق دخلت في ليلين: فرعك (شعرك)، والدجى (الليل)؛ ولثمت (قبَّلت) فاك الذي كان كالصبح المشرق

وتَعطَّلَتْ لغةُ الكلامِ، وخاطبَتْ   عينيَّ في لغةِ الهوى عيناكِ

وتعطلت لغة الكلام، وتخاطبت عيوننا بلغة الهوى

ومحوْتُ كلَّ لُبانَةٍ مِنْ خاطِري   ونَسيتُ كلَّ تَعاتُبٍ وتَشاكِ

ومحوت كل لبانة (رغبة) أخرى من خاطري، ونسيت كل تبادل للعتاب والشكوى

لا أمسِ مِنْ عُمْرِ الزَّمانِ ولا غدٌ   جُمِعَ الزمانُ فكانَ يومَ رِضاكِ

فلا الأمس ولا الغد محسوبان في عمر الزمن، فكل الزمن هو اللحظة الحاضرة، لحظة رضاك

إِنْ تُكْرِمي، يا زَحْلَ، شِعريَ إنني   أنكرتُ كلَّ قصيدةٍ إلَّاكِ

إن تكرمي شعري يا زحلة فإنني أنكرت كل القصائد إلا إياك أيتها القصيدة

أنتِ الخيالُ، بديعُهُ وغريبُهُ،   اللَّهُ صاغَكِ، والزمانُ رَواكِ

فأنت قصيدة مكونة من الخيال البديع الغريب، وقد صاغك الله ورَدَّدَكِ الزمان

٢٣٠ البناء بالحاسدين

قال شوقي في بناء الدار الجديدة لبنك مصر، ويخاطب طلعت حرب (١٩٢٧):

ما زِلْتَ أنتَ وصاحِباكَ بِرُكْنِهِ   حتى استقامَ على أعزِّ دِعامِ

ما زلت أنت وصاحباك (مدحت يكن، وفؤاد سلطان) بركن هذا المبنى حتى قام على أعز (أقوى) دِعامة

أسَّسْتُمُ بالحاسِدِينَ جِدارَهُ   وبَنَيْتُمُ بمعاوِلِ الهَدَّامِ

وأنتم بنيتم جدرانه بأجسام الحساد، وبنيتموه بمعاول الهادمين، فكأنكم استخدمتم قوى الحسد والهدم لتشحذوا بها هممكم فبنيتم ما بنيتم. معنى جديد، ها؟

شَرِكاتُكَ الدُّنيا العريضةُ، لم تُنَلْ   إلَّا بِطُولِ رِعايةٍ وقِيامِ

شركاتك يا طلعت حرب ملء الدنيا، وقد حققتها بطول الرعاية والقيام عليها

اللَّهُ سخَّر للكنانةِ خازِناً   أخذَ الأمانَ لها مِنَ الأعوامِ

الله سخر لمصر خازناً (أمين صندوق) أخذ أماناً لمصر من الزمن الغدار

وكأنَّ عهدَكَ عهدُ يوسُفَ، كلُّهُ   ظِلٌّ وسُنْبُلَةٌ وقَطْرُ غَمامِ

فكأن عهدك عهد يوسف الصديق (الذي كان خازناً لفرعون)، فعهدك كله ظل من الشجر وسنابل وقطر (مطر) من الغمام

وكأنَّ مالَ المودِعينَ وزَرْعَهُمْ   في راحتَيْكَ ودائعُ الأَيْتامِ

وكأن ودائع الناس وزرعهم (يودعون المال عندك، أو يقترضونه لتحسين مزارعهم) في يديك ودائع الأيتام التي يحرَّم العبث بها كل التحريم

ما زِلْتَ تبني رُكْنَ كُلِّ عظيمةٍ   حتى أتيْتَ بِرابِعِ الأَهرامِ

لا تفتأ تبني كل مبنى عظيم، حتى جئتنا الآن بهذا المبنى وكأنه هرم رابع

٢٣١ قد يكون الغلو رأياً أصيلا

قال شوقي يرثي أمين الرافعي، الكاتب السياسي وعضو الحزب الوطني، ثم نصير الوفد إلى أن اختلف مع سعد، (١٩٢٧):

مالَ أحبابُهُ خليلاً خليلا   وتولَّى اللِّداتُ إلَّا قليلا

شوقي يتكلم عن نفسه: مال (ذهب) أحباب شوقي واحداً واحداً، وتولى (انصرف) اللدات (الرفاق) إلا قليلاً منهم

نَصَلُوا أمسِ مِنْ غبارِ الليالي ... ومضى وحدَهُ يحُثُّ الرَّحيلا

نصلوا (انسحبوا) أمس من غبار الليالي، فكأن الزمن كوكبة خيل وفرسان مسرعة يصحبها الغبار، ومن ينسحب يترك الغبار سائراً ويتخلف عنه، ومضى شوقي يحث (يتعجل) الرحيل كما رحلوا

سكنَتْ مِنْهُمُ الركابُ، كأنْ لم ... تضطربْ ساعةً ولم تمضِ مِيلا

سكنت الركاب (الخيل) التي كانوا يركبونها، وكأنها لم تكن تضطرب (تتحرك)، وكأنها لم تمض (تمشِ) بهم ميلاً واحداً

جُرِّدوا مِنْ منازلِ الأرضِ إلَّا ... حَجَراً دارساً ورَملاً مَهِيلا

جُردوا من منازلهم في الأرض عدا الحجر الدارس (حجر القبر الممحو الأثر) والرمل المهيل عليهم

في يَبابٍ مِنَ الثَّرى ردَّهُ المو ... تُ نَقِيَّاً مِنَ الحُقُودِ غَسِيلا

وهم في يباب (قفر) من التراب رده (جعله) الموت نقياً غسيلاً (مغسولاً) من الحُقود (الأحقاد)

طَرَحوا عندَهُ الهمومَ، وقالوا ... إنَّ عبءَ الحياةِ كانَ ثقيلا

طرحوا همومهم عند شوقي وذهبوا، وقالوا إن عبء الحياة كان ثقيلاً

رُبَّ يوم يُناحُ فيهِ علَيْنا ... لو نُحِسُّ النُّواحَ والترتيلا

رب يوم يُناحُ فيه علينا نحن أيضاً، هذا لو كنا سنحس بهذا النواح والترتيل وقد متنا

بِمَراثٍ كُتِبْنَ بالدمعِ عنَّا ... أسطُراً مِنْ جَوىً وأخرى غَليلا

سيناح علينا بمراث كتبت بالدموع، ففيها أسطر من الجوى (اللوعة) وأسطر من الغليل (اللوعة)

يجِدُ القائلونَ فيها المعاني ... يومَ لا يأذَنُ البِلى أنْ نَقولا

سيجد أصحاب المراثي معانيَ لرثائنا في وقت لا يأذن لنا البِلى (تحلل الجسم) أن نقول الشعر

أخذَ الموتُ مِنْ يدِ الحقِّ سيفاً ... خالديَّ الغِرارِ عَضْباً صَقيلا

بموت الرافعي أخذ الموت من يد الحق سيفاً خالدي الغرار (حده كحد سيف خالد بن الوليد) عضباً (قاطعاً) مصقولاً

لم يَخَفْ في حياتِهِ شبحَ الفقـ ... ـرِ إذا طافَ بالرجالِ مَهُولا

لم يكن الرجل يخاف شبح الفقر إذ يطوف هذا الشبح بالرجال مهولاً (مخوفاً)

جاءَ حيناً فكانَ كالليثِ، آبى ... ما تُلاقيهِ يومَ جوعٍ هزيلا

جاع الرافعي حيناً فكان كالأسد أكثر ما يكون إباء وعزة يوم يجوع ويهزل جسمه

قيلَ: غالٍ في الرأيِ، قلتُ: هَبُوهُ　　قَدْ يكونُ الغُلُوُّ رأياً أصيلا

قيل عنه إنه كان غالياً في رأيه (مغالياً متشدداً)، فقلت: هبوه (افرضوا أنه) كذلك، قد يكون الغلوُّ (التشدد) رأياً أصيلاً للمرء وليس مجرد عناد

وقديماً بنى الغُلُوُّ نفوساً　　وقديماً بنى الغُلُوُّ عُقولا

والتشدد بنى في القديم نفوساً وعقولاً، لأنه تشدد في الحق

عاشَ لم يغْتَبِ الرجالَ، ولم يجـ　　ـعلْ شؤونَ النفوسِ قالاً وقيلا

عاش الرافعي ولم يغتب الرجال، وكان يجتنب القال والقيل

إنْ يُفِتْ فيكَ مِنْبَرَ الأمسِ شِعري　　إنَّ لِي المنبرَ الذي لنْ يزولا

لئن أفات (أضاع) شعري منبر الأمس إذ لم أسارع في تأبينك، فإن لي منبراً لن يزول. والرجل مات سنة ٢٦ ورثاه شوقي سنة ٢٧ فيما بين يدينا من تواريخ. و(يُفِت) قرأها جامع الشوقيات وصاحب الموسوعة الشوقية كلاهما (يَفُت) بفتح فضم، وفضلت الضم فالفتح

جلَّ عنْ مُنْشِدٍ سوى الدَّهرِ يُلْقيـ　　ـهِ على الغابِرِينَ جيلاً فَجيلا

فشعري جل عن أي منشد سوى الدهر، الذي يرتله على الغابرين (الفانين) جيلاً يفنى بعد جيل، وشعري باقٍ

٢٣٢ رثاء سعد

قال شوقي يرثي سعد زغلول (١٩٢٧):

شَيَّعُوا الشمسَ ومالوا بِضُحاها　　وانحنى الشرقُ عليها فَبَكاها

شيعوا (ودَّعوا) الشمس، ومالوا (ذهبوا) بضحاها، وانحنى الشرق، مطلع الشمس، عليها وبكاها. والشرق أيضاً هو بلاد الشرق

ليتني في الرَّكْبِ لمَّا أَفَلَتْ　　يُوشَعٌ هَمَّتْ فنادى فَثَناها

ليتني وأنا في ركب المشيعين إذ أفلت (غابت) هذه الشمس، ليتني كنتُ يوشع (قائد اليهود الذي أرادت الشمس المغيب فطلب إلى ربه منعها من الغروب كي يقتل أعداءه قبل دخول السبت) حين همت الشمس بالمغيب فنادى ربه فثناها (أعادها)

جلَّلَ الصُّبحَ سواداً يومُها　　فكأنَّ الأرضَ لمْ تخلَعْ دُجاها

يومُ مغيب شمس سعد جلل الصبحَ بالسواد، فكأن الأرض لم تدخل في النهار وبقيت لابسة ثوب الدجى (الظلمة)

ما دَرَتْ مصرُ بدفنٍ صُبِّحَتْ　　أم على البعثِ أفاقتْ مِنْ كَراها

لم تدر مصر هل صُبّحت بدفنٍ، أم أنها أفاقت من كراها (نومها) على البعث (يوم القيامة) لاهتياج المشاعر في يوم موت سعد

خَفَضُوا في يومِ سعدٍ هامَهُمْ   وبِسَعْدٍ رفعوا أمسِ الجِباها

خَفَض الناس جباههم في يوم موت سعد، وكانوا بهذا الرجل قد رفعوا رؤوسهم بالأمس

حَضَنَتْ نعشَكَ والتفَّتْ بِهِ   رايةٌ كنتَ مِنَ الذُّلِّ فِداها

حضنت نعشك والتفت عليه راية مصر التي كنت تفديها من أن يصيبها الذل

ضَمَّتِ الصدرَ الذي قد ضمَّها   وتلقَّى السَّهمَ عنها فَوَقاها

ضمت الراية صدراً كان يضمها ويتلقى سهم الأعادي عنها ويقيها

تَسكبُ الدمعَ على سعدٍ دماً   أمةٌ مِنْ صخرةِ الحقِّ بَناها

تسكب الدمعَ على سعد دماً أمة بناها سعد من صخرة الحق

رقدَ الثائرُ إلَّا ثورةً   في سبيلِ الحقِّ لم تَخْمُدْ جُذاها

رقد الثائر إلا أن ثورته لم تخمد جُذاها (جمراتها)

قد تولَّاها صَبيّاً فَكَوَتْ   راحتيْهِ، وفَتِيّاً فَرَعاها

قد تولّى سعد الثورة صبياً، فكوت راحتيه، وتولاها فتيّاً (شاباً) فرعاها

جالَ فيها قَلَماً مستنهِضاً   ولِساناً كلَّما أَعْيَتْ حَداها

جال (تجول) سعد في الثورة صاحبَ قلم يستنهض العزائم، وصاحبَ لسانٍ كلما تعبت الثورة حداها (أنشَدَها حداء لتسير قدماً)

ورمى بالنفْسِ في بُركانِها   فتلقَّى أوّلَ الناسِ لَظاها

ورمى نفسه في بركان الثورة فكان أول من تلقى لظاها (لهيبها) فنُفي

أَعَلِمْتُمْ بعدَ موسى مِنْ يدٍ   قذفتْ في وجهِ فِرْعَوْنَ عصاها

هل علمتم بعد موسى النبي يداً رمت في وجه المستبد عصاها كما فعل موسى بفرعون؟ إنه سعد زغلول الذي تحدى الإنجليز

أينَ مِنْ عينيَّ نفسٌ حرةٌ   كنتُ بالأمسِ بعينيَّ أراها

أين من عيني الآن تلك النفس الحرة التي كنتُ بالأمس أراها

كلما أقْبَلْتُ هزَّتْ نفسَها   وتَواصَى بِشْرُها بي ونَداها

كنت كلما أقبلت اهتزت نفس سعد، وتواصى بشرها بي ونداها (أوصت بشاشة نفسه، كرم تلك النفس، بي خيراً)

ألــمــحُ الأيّــامَ فــيــهــا، وأَرى مِـنْ وراءِ الـسِّنِّ تـمـثـالَ صِـبـاهـا

ألمح الأيام (مرور السنين) في هذه النفس، وأرى وراء السن صورة الصبا، فنفس سعد في شيخوخته احتفظت بحيوية الصبا

حَـلَّـتِ الـسَّـبْـعـونَ فـي هـيـكـلِـهـا فـتـداعـى، وَهْـيَ مـوفـورٌ بِـنـاهـا

حلت السبعون سنة في هيكل (جسم) هذه النفس، فتداعى الجسم (هَرِمَ) بينما النفس موفورة البنيان عامرة بالحيوية

روعــةُ الـنَّــادي إذا جَــدَّتْ، فــإنْ مَـزَحَـتْ لـم يُـذْهِـبِ الـمزحُ بَـهـاهـا

هذه النفس هي روعة (مهابة) النادي (المحفل) في الجدّ، فإن مزحت فالمزح لا يذهب ببهائها ووقارها

ولــهــا صــبــرٌ عــلــى حُــسَّــادِهــا يُـشْـبِـهُ الـصَّـفْـحَ، وحِـلْـمٌ عَـنْ عِـداهـا

ولها صبر على الحساد شبيه بالصفح (المسامحة)، ولها حلم (احتمال) لعداها (لأعاديها). والقول إن «صبر سعد على الحساد يشبه الصفح» جديد وجميل، ودقيق. وكلمة «يشبه» في هذا البيت مطربة لأنه ليس فيها مبالغة

أيــنَ مــنِّــي قَــلَــمٌ كــنــتُ إذا سُـمْـتُـهُ أنْ يـرثـيَ الـشَّـمـسَ رثـاهـا

أين قلمي الذي كنت إذا سمته (أجبرته) أن يفعل المستحيل، كأن يرثي الشمس، فعل؟

خـانَـنـي فـي يـومِ سـعـدٍ، وَجَـرى فـي الـمـراثـي فَـكَـبـا دونَ مَـداهـا

خانني قلمي في يوم موت سعد، وجرى في الرثاء فكبا (سقط أرضاً) دون الوصول إلى المدى (الغاية القصوى)

فـي نـعـيـمِ الـلَّـهِ نـفـسٌ أوتِـيَـتْ أنـعُـمَ الـدُّنـيـا فـلـم تـنـسَ تُـقـاهـا

فلتذهب إلى نعيم الله هذه النفس التي أوتيت (مُنحت) نِعَمَ الدنيا ولكنها لم تنس تقاها (تقواها)

لا الـحِـجـا، لـمَّـا تَـنـاهـى، غـرَّهـا بـالـمـقـاديـرِ، ولا الـعِـلْـمُ زَهـاهـا

لا هي اغترت عن الأقدار بالحجا (الحكمة) عندما نالت الحجا حتى أقصاه، ولا زهاها (غرَّها) العلم

ذهــبــتْ أوّابَــةً مُــؤمــنــةً خـالـصـاً مِـنْ حَـيْـرةِ الـشـكِّ هُـداهـا

ذهبت نفس سعد أوابة (تائبة) مؤمنة، وهُداها خالص لا تشوبه حيرة الشك في الخالق

آنَـسَـتْ خَـلْـقـاً ضَـعـيـفـاً، ورَأَتْ مِـنْ وَراءِ الـعـالَـمِ الـفـانـي إلـهـا

آنست (وجدت) هذه النفس خَلقاً (جسماً) ضعيفاً، ورأت فيما وراء العالم الفاني إلهاً خالداً

مــا دَعــاهــا الــحــقُّ إلّا ســارعــتْ   لــيــتَــهُ يــومَ «وَصِــيــفٍ» مــا دَعــاهــا

نفْس سعد ما كان يدعوها الحق إلا سارعت بالقدوم إليه، فليت هذا الحق (هنا معناه الموت) في يوم وصيف («مسجد وصيف»، عزبة سعد التي بها مات) لم يدْعُها

٢٣٣ الله أعلم والقبور

قال شوقي (١٩٢٧):

الــلَّــهُ أعــلــمُ والــقُــبــورُ   الــنــفــسُ تَــخــلُــدُ أوْ تَــبــورُ

الله والقبور يعلمان هل النفس تخلد أو تبور (تفنى)

سِــرٌّ مــضــى الــمــوتــى بِــهِ   ومــضــتْ عــلــى الــمــوتــى الــدُّهــورُ

هذا السر ذهب الموتى به، ومضت عليهم دهور

مَــنْ كــان يُــحْــيــي أو يــمــيــ   ــتُ فــلــيــسَ يُــعْــجِــزُهُ الــنُّــشــورُ

من يحيي الناس ويميتهم فلن يعجز عن النشور (البعث). القصيدة بأبياتها التسعة والثلاثين على الراء المضمومة، لا الساكنة كما أرادها بعضهم

٢٣٤ جبان

قال شوقي في مسرحية «عنترة» على لسان عبلة، تصف الرجل الجميل الجبان، (١٩٢٧ ـ ١٩٣٢):

جــمــيــلٌ ولــيــسَ بِــحــامــي الــبــيــوتِ   وَلا مــانــعٌ مِــنْ يــدٍ مــالَــهُ

إذا ما عَوى الكلبُ ضَلَّ السِّلاحَ   وبَــلَّ مِــنَ الــخــوفِ سِــرْوالَــهُ

ضلَّ: نسي

يــجــودُ بــزوجــتِــهِ لــلــمُــغِــيــرِ   ويَــرْمــي إلــى الــذئــبِ أطــفــالَــهُ

٢٣٥ شكوى التيوس

قال شوقي من مسرحية «قمبيز»، (١٩٢٧ ـ ١٩٣٢):

خَــلِّــنَــا بــالــلَّــهِ مِــنْ ســا   سَ ودَعْــنــا مِــنْ يَــسُــوسُ

كــلَّ حِــيــنٍ حــاكــمٌ يَــمْــ   ــشــي عــلــيْــنــا ويَــدوسُ

هــكــذا يــخــتــلــفُ الــحــظُّ   ســعُــودٌ ونُــحُــوسُ

إنَّ بــعــضَ الــنــاسِ أذْنــا   بٌ لِــبَــعْــضٍ هُــمْ رُؤوسُ

مَــنــزِلُ الأُسْــدِ الــصَّــحــارَى   وعــلــى الــمــرعــى الــتُّــيــوسُ

٢٣٦ طريق النجاة

قال شوقي من مسرحية «مجنون ليلى»، (١٩٢٧ ـ ١٩٣٢):

أحــبُّ الــحــســيــنَ، ولــكــنَّــمــا   لــســانــيِ عــلــيــهِ، وقــلــبــيِ مَــعَــهْ

حَــبَــسْــتُ لــســانــيَ عــنْ مَــدْحِــهِ   حِــذارَ أمــيَّــةَ أنْ تَــقْــطَــعَــهْ

إذا الــفــتــنــةُ اضــطَــرَمَــتْ فــي الــبــلادِ   ورُمْــتَ الــنــجــاةَ فَــكُــنْ إمَّــعَــةْ

اضطرمت: اشتعلت، إمَّعة: شخص لا رأي له

٢٣٧ حامل العشق

قال شوقي من مسرحية «مجنون ليلى»، على لسان قيس (١٩٢٧ ـ ١٩٣٢):

سجا الليلُ حتى هاجَ لِي الشِّعْرَ والهوى   وما البِيدُ إلّا الليلُ والشعرُ والحبُّ

سجا الليل: سكن، هاج: أهاج

ملأتَ سماءَ البِيدِ عِشْقَاً وأرضَها   وحُمِّلْتُ وحديِ ذلكَ العشقَ يا رَبُّ

يا رب! قد ملأت سماء الصحراء وأرضها عشقاً، وحُمِّلت أنا كل هذا العشق وحدي

٢٣٨ هيَّبْتَها

قال شوقي من مسرحية «مجنون ليلى»، على لسان زوج ليلى «وَرْد» يصارح قيساً بأنه لم يمسها (١٩٢٧ ـ ١٩٣٢):

اســمــعْ حــديــثــيِ إنَّــهُ   مــا خَــطَّ مــثــلَــهُ الــقــلــمْ

وسِــرُّهُ لا الأهــلُ يَــدْ   رُونَ بِــهِ ولا الــخَــدَمْ

أنــا الــذي ظُــلِــمْــتُ، قــيْــ   ـسُ، مــا أنــا الــذي ظَــلَــمْ

كَــمْ مَــرَّتِ الــلــيــلــةُ بــيِ   والــلــيْــلــتــانِ لــمْ أنــمْ

مــنــذُ حَــوَتْ داريَ لــيْــ   ـلــى مــا خَــلَــوْتُ مِــنْ نَــدَمْ

كــانــتْ إطــافَــتــيِ بِــهــا   كــالــوَثَــنِــيِّ بــالــصَّــنَــمْ

ورُبَّــمــا جــئــتُ فِــرا   شَــهــا، فَــخــانَــتْــنــيِ الــقَــدَمْ

شِــعــرُكَ يــا قــيــسُ جَــنَــى   عــلــيَّ هــذا واجــتَــرَمْ

هَيَّبْتَهـا فـامـتَـنَـعَـتْ كـأنَّـهـا صَـيْـدُ الـحَـرَمْ

شعرك جعل ليلى مهيبة ومحرمة كالصيد في الحرم

٢٣٩ قد يهون العمر إلا ساعة

قال شوقي من مسرحية «مجنون ليلى»، على لسان قيس، (١٩٢٧ ـ ١٩٣٢):

جبلَ التَّوْبادِ! حَيَّاكَ الحَيَا وسَقى اللَّهُ صِبانا، وَرَعَى

يا جبلَ التوباد (جبل في نجد) حياك الحيا (المطر)، وسقى الله ورعى أيام الصبا

وعلى سَفحِكَ عِشْنا زَمَناً ورَعَيْنا غَنَمَ الأهلِ مَعَا

هذهِ الرَّبْوَةُ كانتْ مَلْعَباً لِشَبابَيْنا وكانتْ مَرْتَعا

كَمْ بَنَيْنا مِنْ حَصاها أَرْبُعاً وانثَنَيْنا فَمَحَوْنا الأَرْبُعا

الأربُعْ: البيوت

وخَطَطْنا في نَقَا الرَّملِ، فَلَمْ تَحْفَظِ الرِّيحُ، ولا الرَّمْلُ وَعَى

نقا: كثيب

لم تزلْ ليلى بِعَيْني طِفْلَةً لم تَزِدْ عنْ أمسِ إلَّا إِصْبَعا

كلَّما جِئْتُكَ راجَعْتُ الصِّبا فأَبَتْ أيامُهُ أنْ تَرْجِعَا

قدْ يَهُونُ العمرُ إلَّا ساعةً وتهونُ الأرضُ إلَّا مَوْضِعا

بيت من خمرة شوقي المعتقة

٢٤٠ عد ظافراً أو لا تعُدْ

كليوباترا تحث أنطونيو على القتال، من مسرحية «مصرع كليوباترا» (١٩٢٧ ـ ١٩٣٢):

اِمضِ إلى الهَيْجاءِ أَنْـ ـطُنْيو كما يَمْضي الأَسَدْ

الهيجاء: الحرب

اِمضِ إلى المجدِ، وَلا يُقْعِدْكَ شُغْلٌ في البلدْ

المجدُ لا يَسْأَلُ عَنْ صاحِبَةٍ ولا وَلَدْ

يا لَيْثُ سِرْ، يا نَسْرُ طِرْ عُدْ ظافِراً، أو.. لا تَعُدْ

٢٤١ الذابلتان

قال شوقي على لسان كليوباترا وقد رأت قبيل انتحارها زنبقة في إناء، من مسرحية «مصرع كليوباترا» (١٩٢٧ ـ ١٩٣٢):

زَنْــبَــقَــةٌ فــي الآنِــيَــةْ   ضَــحِــيَّــةُ الأنــانِــيَــةْ

جَــنَــتْ عــلــيْــهــا غُــرْبَــةَ الــ   أَسْــرِ الأَكُــفُّ الــجَــانِــيَــةْ

جنت عليها (أجرمت بحقها) وكبَّدتها غربةً وأسراً في المزهرية تلك الأكف الجانية (القاطفة التي جَنَتها)

وبُــدِّلَــتْ مِــنْ سَــعَــةِ الــرَّ-   بْــوَةِ ضِــيــقَ الــبــاطِــيَــةْ

الباطية: الإناء

يَــسْــقُــونَــهــا مِــنْ جَــرَّةٍ   بــعــدَ الــعــيــونِ الــجَــارِيَــةْ

تسقى الزنبقة من الجرة بعد أن كانت تشرب من العيون الجارية

يــا جــارتــا! شــأنُــكِ لا   يَــشْــبِــهُ إلَّا شــانِــيَــهْ

لَــمْ يَــبْــقَ مِــنْ مُــلْــكِــي الــعَــرِيــ   ــضِ غــيــرُ دَارٍ خَــاوِيَــةْ

وكُلُّنا ذابِلَةٌ عمَّا قليلٍ ذَاوِيَةْ

زالَ الــنَّــعــيــمُ وفَــرَغْــ   ــنــا مِــنْ حــيــاةٍ فــانِــيَــةْ

٢٤٢ عبث في عبث

قال شوقي (١٩٢٨):

نـعيشُ ونَـمضي في عـذابٍ كَـلَـذَّةٍ   مِـنَ العـيشِ، أوْ فـي لَـذَّةٍ كَـعَـذابِ

عيشتنا وموتنا عذاب مختلط باللذة

وكلُّ أخي عَيْشٍ، وإنْ طالَ عَيْشُهُ،   تُـرابٌ لَـعَـمْـرُ الـموتِ وابْـنُ تـرابِ

وكل أخي عيش (كل حي) مهما طال عمره، فهو تراب (لأنه خلق من تراب ويؤول إلى التراب) وابن تراب (فأبواه مثله)

٢٤٣ يدور حيث تدور المجد والحسد

قال شوقي يرثي عبد الخالق ثروت، وهو رئيس وزراء مرتين في العشرينات، ومات في باريس فجأة (١٩٢٨):

يموتُ في الغابِ، أو في غيرِهِ، الأسدُ   كـلُّ الـبـلادِ وِسـادٌ حـيـنَ تُـتَّـسَـدُ

يموت الأسد في الغاب أو بعيداً عنه، وكل بلد هي وساد (وسادة) لك حين تُتَّسد هذه البلد (تُتَّخذ وسادة)

قد غَيَّبَ الغربُ شمساً لا سَقامَ بِها كانتْ على جَنَباتِ الشرقِ تتَّقِدُ

إذ مات الفقيد في باريس فقد غيَّب الغرب هذه الشمس التي لم يكن بها من سقام (مرض)، وكانت متوقدة في جنبات بلادنا في الشرق

طوى حِمايتَهُ المحتلُّ وانبسطتْ حمايةُ اللَّهِ فاستذْرى بِها البلدُ

طوى المحتل حمايته عنا، وانبسطت فوق البلد حماية الله فاستذرى (احتمى) بها

نم غيرَ باكٍ على ما شِدْتَ مِنْ كَرَمٍ ما شِيدَ للحقِّ فَهْوَ السَّرْمَدُ الأبَدُ

نم يا عبد الخالق ثروت غير آسف على الكرم (المعروف) الذي شدته (بنيته)، فما شيد للحق فهو سرمدي (أبدي)

لم يُطْغِكَ الحُكْمُ في شتَّى مظاهِرِهِ ولا استخفَّكَ لِينُ العيشِ والرَّغَدِ

لم يجعلك الحكم في شتى مظاهره طاغية مستبداً، ولا استخفك (أطربك) لين العيش والرغد (الغنى)

نَشأتَ في جَبْهةِ الدنيا وفي فمِها يَدورُ حيثُ تدورُ المجدُ والحَسَدُ

نشأت وأنت في المقدمة وذكرك على ألسنة الناس، والمجد والحسد يلازمانك، مثل كل عظيم

لكلِّ يومٍ غدٌ يمضي بِروْعتِه وما لِيومِكَ يا خَيرَ اللِّداتِ غَدُ

لكل يوم حزين غد يذهب بالروعة (بالارتياع)، ولكن يومك الذي مت فيه يا خير اللدات (الرفاق) ليس له غد ننسى فيه حزننا، فحزننا عليك دائم

٢٤٤ ما الناس إلا أول

قال شوقي في حفل نسائي في دار التمثيل العربي برئاسة هدى شعراوي (١٩٢٨):

إنَّ السماءَ جديرةٌ بالطيرِ وَهْوَ بِها جَديرُ

السماء جديرة بالطائر الذي ينشد حريته وهو جدير بها

هِيَ سَرْجُهُ المشدودُ وهْـ ـوَ على أَعِنَّتِها أميرُ

السماء للطير كالسرج للحصان، والطير إذ يمسك بأعنتها (بزمامها) مثل الأمير

حريةٌ خُلِقَ الإنا ثُ لها كما خُلِقَ الذُّكورُ

يا قاسِمُ! انظُرْ كيف سا رَ الفكرُ وانتقلَ الشعورُ

يا قاسم أمين (وتوفي قبل القصيدة بعشرين سنة) انظر كيف سار (اكتسب سيرورة وانتشر) فكرك وانتقل شعورك لغيرك

جـابـتْ قـضـيـتُـك الـبـلا   دَ كـأنَّـهـا مَـثَـلٌ يـسـيـرُ

قضية المرأة، وهي قضيتك، طافت بالبلاد كالمثل السائر

مـا الـنـاسُ إلّا أوَّلٌ   يـمـضـي فـيـخْـلُـفُـهُ الأخـيـرُ

الناس المؤثِّرون في سير الأمور هم ذلك «الأول» الذي يبادر، ثم يمضي، ثم يتبعه المتأخر زمناً

الـفـكـرُ بـيـنَـهُـمـا، عـلـى   بُـعْـدِ الـمـزارِ، هُـوَ الـسـفـيـرُ

ويصل بين الأول والأخير الفكر، وهو على البعد الزماني والمكاني سفير بين الأجيال

مـا فـي كـتـابِـكَ طَـفْـرَةٌ   تُـنـعَـى عـلـيـكَ ولا غُـرورُ

كتابك عن تحرير المرأة ليس فيه طفرة (شذوذ) تُنعى (تُنتقد) عليك، ولا غرور

ووضـعْـتَـهُ، وعـلـمـتَ أنَّـ   ـحِـسـابَ واضِـعِـهِ عـسـيـرُ

وضعت كتابك وأنت تعلم أن واضع كتاب كهذا سيتعرض للصعاب

لَـكَ فـي مـسـائِـلِـهِ الـكـلا   مُ الـعَـفُّ والـجَـدَلُ الـوَقـورُ

كنت في المسائل التي طرحتها عفيف اللسان وذا جدل رصين

عَـصْـرُ الـعـبـاقـرةِ الـنـجـو   مِ بـنـورِهِ تـمـشـي الـعَـصـورُ

قصيدة من واحد وخمسين بيتاً كلها مضمومة القافية، فلماذا جعلتها الموسوعة الشوقية وجامعو الشوقيات المتأخرون موقوفة مقيدة؟ كأنما لم يسمعوا بمجزوء الكامل المرفل؟ ولم نعلم أن شوقي لزم في هذا الأمر ما لا يلزم. فأما ما صنعه العجاج في «قد جبر الدينَ الإله فجبر» حين أسكن رويَّه، مع أن كل أشطره التي بلغت نحو المئتين كانت تكون منصوبة لو أنها أطلقت فأمر مختلف. فذلك رجز، وأبيات العجاج رُويت موقوفة، والوزن يقتضي ذلك

٢٤٥ مشى ومشت فيالق من فرنسا

قال شوقي في ذكرى استقلال سوريا (١٩٢٨):

حـيـاةٌ مـا نُـريـدُ لـهـا زِيـالا   ودنـيـا لا نـودُّ لـهـا انـتـقـالا

نحن متعلقون بهذه الحياة لا نريد لها زوالاً، ولا نود عن الدنيا انتقالاً

ولـو زادَ الـحـيـاةَ الـنـاسُ سَـعْـيـاً   وإخـلاصـاً لـزادتْـهُـمْ جـمـالا

ولو زاد الناس دنياهم مثابرة وإخلاصاً لازدادت جمالاً

كَـأنَّ الـلَّـهَ إذ قَـسَـمَ الـمـعـالـي   لأهـلِ الـواجـبِ ادَّخَـرَ الـكَـمـالا

كأنَّ الله عندما قسم المعالي (الأمجاد) ادَّخر لمن يقومون بالواجب الكمال

تـرى جِـدّاً، ولـسـتَ تـرى عـلـيْـهِـمْ وُلـوعـاً بـالـصـغـائـرِ واشـتـغـالا
ترى من «أهل الواجب» جداً ومثابرة، ولا ترى بهم ولعاً (شغفاً) أو اشتغالاً بصغائر الأمور

ولـيـسـوا أرغـدَ الأحـيـاءِ عـيْـشـاً ولـكـنْ أنـعَـمُ الأحـيـاءِ بـالا
وليسوا أغنى الناس، ولكنهم أنعم (أهدأ) الناس بالاً

وإن سـأَلَـتْـهُـمُ الأوطـانُ أعـطَـوْا دمـاً حُـرّاً، وأَبـنـاءً، ومـالا
سـأذكـرُ مـا حـيـيـتُ جـدارَ قَـبْـرٍ بـظـاهِـرِ جِـلَّـقٍ رَكِـبَ الـرِّمـالا
سأذكر ما حييت حجارة قبر بظاهر (خارج) جلق (دمشق)

تـغـيَّـبَ عَـظْـمَـةُ الـعَـظَـمـاتِ فـيـهِ وأوَّلُ سـيِّـدٍ لـقـيَ الـنِّـبـالا
تغيب في هذا القبر يوسف العظمة الذي كان أول سيد لقي بصدره النبال (السهام)

مشى ومشـتْ فيالقُ مِنْ فرنسـا تَجُرُّ مَطـارِفَ الظَّفَرِ اختيـالا
زحف لملاقاة فيالق الفرنسيين الذين كانوا يجرون مطارف (أردية) الظفر (النصر في الحرب الأولى) اختيالاً (تكبراً)

أقـامَ نـهـارَهُ يُـلْـقـي ويَـلـقَـى فـلـمـا زالَ قـرصُ الـشـمـسِ زالا
مكث نهاره يقذفهم ويتلقى قذائفهم، فلما غربت الشمس غربت حياته

فَـكُـفِّـنَ بـالـصَّـوارمِ والـعَـوالـي وغُـيِّـبَ حيـثُ جالَ وحيـثُ صالا
فكفن بالصوارم (بالسيوف) والعوالي (الرماح)، ودفن حيث جال وصال

٢٤٦ اللؤلؤة لمن نالها

قال شوقي في تمثال نهضة مصر (١٩٢٨):

وَرُبَّ امـرِئٍ لـم تَـلِـدْهُ الـبـلادُ نَـمـاهـا ونَـبَّـهَ أَنـسـالَـهـا
رب رجل لم يولد في البلاد، ولكنه نماها (أنماها) وجعل أنسالها (أبناءها الأصليين) نابهين

ولـيـسَ الـلآلـئُ مِـلْـكَ الـبُـحـورِ ولـكـنَّـهـا مِـلْـكُ مَـنْ نـالَـهـا
واللآلئ ليست ملكاً للبحر، بل يملكها من غاص ونالها، ومصر ملكها محمد علي وهو غريب عنها

ومـا كَـعَـلِـيٍّ ولا جـيـلِـهِ إذا عَـرَضَـتْ مـصـرُ أجـيـالَـهـا
وليس يوجد كمحمد علي وجيله بين أجيال مصر المتعاقبة

بـنـوْا دولـةً مِـنْ بـنـاتِ الأسِـنَّـ ـةِ لـم يـشـهـدُ الـنـيـلُ أمـثـالَـهـا
بنوا دولة من بنات الأسنة (ذوات الأسنة من سيوف ورماح) لم يشهد وادي النيل مثلها

٢٤٧ في الليل لما خلي

قال شوقي (١٩٢٩):

فــي الّــلــيــلْ لــمَّــا خِــلِــي   إلّا مِـــنَ الــبــاكــي
والــنــوحْ عــلــى الــدّوحْ حِــلِــي   لِــلــصَّــارِخِ الــشــاكــي
مــا تِــعْــرَفِ الــمِــبْــتِــلــي   فــي الــروضْ مِــنِ الــحــاكــي

عندما يخلو الليل من كل شيء إلا من عاشق يبكي، وعندما يحلو النوح على الدوح (الشجر) لمن يصرخ بشكواه، لا تعرف عندئذ المبتلي (المبتلَى) من الحاكي (المردد للصوت تقليداً ومحاكاة)

ســكــونْ وِوَحْــشَــة وظُــلــمــة   ولــيــلْ مــا لــوشْ آخِــرْ
ونِــجــمَــةْ مــالِــتْ، ونِــجْــمَــةْ   حِــلْــفِــتْ مــا تِــتَّــاخِــرْ
دا النومْ يا ليلْ نِعْمَةْ يِحْلَمْ بِها السَّاهِرْ

سكون الليل ووحشته، ونجمة مالت للمغيب، وأخرى حلفت ألا تِتّاخر (تتزحزح)

الــفــجــرِ شَــقْــشَــقْ وفــاضْ   عــلــى ســوادِ الــخَــمــيــلَــةْ
لــمَــحْ كَــلَــمْــحِ الــبــيــاضْ   مِــنِ الــعــيــونِ الــكــحــيــلَــةْ
والــلــيــلْ سَــرَحْ فــي الــريــاضْ   أَدْهَــمْ بِــغُــرَّةْ جَــمــيــلــةْ

شقشق الفجر على الخميلة (البستان) التي كانت سوداء، لمح الفجر (أبرق) مثل بريق بياض العين الكحيلة (السوداء)، وأما الليل فسرح (مشى) في البستان كأنه حصان أدهم (داكن) ولكن له غرة بيضاء جميلة

هِــنــا نُــواحْ ع الــغُــصــونْ   وهْــنــاكْ بُــكــا فــي الــمــضــاجِــعْ
لــيــهْ تِــشْــتِــهــي الــنــومْ عُــيــونْ   وِعْــيــونْ سَــوالــي هَــواجِــعْ
وِدوحْ غِــرِقْ فــي الــشُّــجــونْ   ودوحْ مــا شــافــشِ الــمَــواجِــعْ

نواح على الغصون وبكاء في الأسرَّة. ولماذا تسهر عيون حتى لَتشتهي النوم، بينما عيون أخرى سَوالٍ (سالية وناسية للهم) وهواجع (هاجعة نائمة)؟ ولماذا يكون هناك دوح (شجر) غارق في الشجون (الأحزان)، ودوح لم ير ما يوجع؟

يــا لــيــلْ أنــيــنــي سْــمِــعْــتُــهْ   والــشــوقْ رِجِــعْ لــي وعــادْ
وكُــلِّ جَــرْحِ وْســاعْــتُــهْ   وكُــلِّ جَــرْحِ بــمــيــعــادْ
كــمْ مِــنْ مِــفــارِقْ وَجَــعْــتُــهْ   ونِــضْــوِ هَــجْــرِ وبِــعــادْ

يا ليل قد سمعت أنيني، وها قد عاد لي الشوق، وكل جرح له ساعته وميعاده، وكم هناك من شخص مفارق لحبيبه قد أصبته بالوجع، وكم هناك من نضو هجر وبعاد (مهزول بسبب الهجر)

٢٤٨ قتيل السم

قال شوقي في تأبين فوزي الغزي الدمشقي المتوفى عام (١٩٢٩) وقيل دست له زوجته السم:

طُبِعَتْ مِنَ السُّمِّ الحياةُ، طعامُها وشـرابُـهـا وهـواؤُهـا الـمُـتَـنَـشَّـقُ

طبعت الحياة من السم فهذا هو طبعها، فطعامها وشرابها وهواؤها الذي نستنشقه سم

والـنـاسُ بـيـنَ بـطـيـئِـهِ وزُعـافِـهِ لا يَعـلَـمـونَ بِـأَيِّ سُـمَّـيْـهـا سُـقُـوا

والناس بين السم البطيء المفعول والزعاف (السريعِهِ) لا يعلمون أي سم تناولوا

أمـا الـوَلِـيُّ فـقـد سـقـاكَ بِـسُـمِّـهِ مـا لـيـسَ يَـسْـقـيـكَ الـعـدوُّ الأزرقُ

لكن الوليّ (الصديق) سقاك يا فوزي الغزي بسمه كما لا يسقيك العدو الأزرق (الشديد العداوة)

٢٤٩ كالعمي حول سفرة

قال شوقي (١٩٢٩):

لـيـسْـتُ بِـنـاسٍ لـيـلـةً مِـنْ رَمَـضـانَ مَـرَّتِ

فـلـمْ يَـرُعْـنـي غـيـرُ صـو تِ كـمُـواءِ الـهِـرَّةِ

لم يَرُعني: لم يُخِفني

كَـرَّتْ، ولـكـنْ كـالـجَـبـا نِ قـاعِـداً، وفَـرَّتِ

كرَّت (هجمت) لكنْ وهي قاعدة كما يفعل الجبان، ثم فرت

لـم أجْـزِهـا بِـشِـرَّةٍ عـنْ غَـضَـبٍ وشِـرَّةِ

لم أجزها (أقابلها) بشرة (بشر) عما فعلته وهو الغضب والشر

ولا رأيـتُ غـيـرَ أمٍّ بـالـبَـنـيـنَ بَـرَّةِ

ولم أر فيها سوى أم بارة بأبنائها

رأيـتُ جِـدَّ الأُمَّـهـا تِ فـي بِـنـاءِ الأُسْـرَةِ

رأيت فيها مثابرة الأمهات في بناء الأسرة

فـلـم أَزَلْ حـتـى اطـمـأنَّ جـأشُـهـا وقَـرَّتِ

فظللت معها حتى اطمأن جأشها (قلبها)، وقرت (هدأت)

أتـيْـتُـهـا بِـشَـربَـةٍ وجـئْـتُـهـا بِـكِـسْـرَةِ

جئتها بشربة وكسرة خبز

فـاضْـطـجَـعَـتْ تـحـتَ ظِـلا لِ الأمـنِ واسْـبَـطَـرَّتِ

فاضطجعت (استلقت) في ظل الأمن واسبطرت (تمددت)

وقَـرَأَتْ أورادَهـا ومـا دَرَتْ مـا قَـرَتِ

وهمَّرت تهميراً كأنها تقرأ أوراداً (أدعية)، وهي لا تدري ما تقرأ

وسَـرَحَ الـصِّـغـارُ فـي ثُـدِيِّـهـا فَـدَرَّتِ

وسرح (انساب) صغارها في ثديها (أثدائها) فدرت لهم اللبن

اخـتَـلَـطُـوا وعَـيَّـثُـوا كـالـعُـمْـيِ حَـوْلَ سُـفْـرَةِ

فاختلط واحدهم بالآخر وعيثوا (كَرْكَبوا وأفسدوا) كأنما هم قوم عميان حول سفرة (مائدة).
ليس طريفاً فقط هذا التشبيه، بل جميل

٢٥٠ تلك الحياة وهذه أثقالها

قال شوقي في حفل تكريم السيد نصير بطل رفع الأثقال، وقد فاز بميدالية ذهبية في أولمبياد ١٩٢٨ بأمستردام في رفع الأثقال (١٩٣٠):

يـا قـاهـرَ الـغـربِ الـعـتـيـدِ مـلأتَـهُ بـثـنـاءِ مصرَ عـلى الـشِّفـاهِ جـمـيـلا

يا قاهر الغرب العتيد (المكين) ملأت هذا الغرب بالثناء (المديح) على مصر يتردد جميلاً على الشفاه

قـلَّـبْـتَ فـيـهِ يـداً تـكـادُ لِـشِـدَّةٍ في البأسِ، تَرْفَعُ في الفضاءِ الفِيلا

قلبت في الغرب يدك القوية التي تكاد لشدة البأس (القوة) ترفع الفيل في الهواء

إنَّ الـذي خـلـقَ الـحـديـدَ وبـأسَـهُ جـعـلَ الـحـديـدَ لِـسـاعـدَيْـكَ ذَلـيـلا

إن الله الذي خلق الحديد وبأسه (شدته) جعل الحديد يذل لقوة ساعديك. «.. وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد.. الآية» ٢٥ الحديد، وسيد نصير كان يرفع حديداً

قُلْ لـي نُصَيْرُ، وأنـتَ بَرٌّ صـادِقٌ: أَحَـمَـلْـتَ إنـسـانـاً عـلـيـكَ ثـقـيـلا

قل لي يا سيد نصير وأنت البار الصادق: هل حملت إنساناً من الثقلاء؟

أَحَـمَـلْـتَ دَيْـنـاً فـي حـيـاتِـكَ مَـرَّةً أَحَمَلْتَ يوماً في الضُّلوعِ غَليلا

هل حملت دَيْناً؟ هل حملت في ضلوعك غليلاً (حقداً)؟

أَحَـمَـلْـتَ ظُـلْـمـاً مِـنْ قَـريـبٍ غـادرٍ أو كـاشِـحٍ بـالأمـسِ كـان خَـلـيـلا

أحملت ظلماً من قريب غادر، أو من كاشح (عدو يبطن العداوة) كان بالأمس لك من الأصدقاء؟

أَحَمَلْتَ مَنّاً، بالنهارِ مُكَرَّراً والليلِ، مِنْ مُسْدٍ إليكَ جَميلا

هل حملت منّاً (جميلاً في عنقك) يذكِّرك به بالنهار والليل رجل مُسْدٍ (معطٍ) إليك جميلاً

أَحَمَلْتَ طُغْيانَ اللئيمِ إذا اغتَنى أوْ نالَ مِنْ جاهِ الأُمورِ قَليلا

هل حملت طغيان (تجبُّر) اللئيم إذا اغتنى أو صار وجيهاً بعض الشيء

أَحَمَلْتَ في النَّادي الغَبِيَّ إذا التقى مِنْ سامِعِيهِ الحمدَ والتَّبجيلا

هل حملت في النادي (في جماعة الناس) الغبي عندما يلاقي من السامعين الحمد والتبجيل؟

تلكَ الحياةُ، وهذهِ أثقالُها وُزِنَ الحديدُ بها فعادَ ضئيلا

تلك هي الحياة وأثقالها، وُزِن (قورن) الحديد بها فعاد (فصار) ضئيل الوزن. . أي تبين أنه خفيف بالقياس إلى الحياة

٢٥١ سلوا كؤوس الطِّلا

قيل كان شوقي يجالس أم كلثوم في حفل، فقدم لها كأس شراب، فرفعتها مجاملةً إلى شفتيها، لكن الكأس ما لامست فاها. وفي اليوم التالي ـ هكذا قالوا، وهم في قصصهم يحبون أن يجعلوا الأمر يحدث في اليوم التالي مباشرة، على أنني أميل لتصديق سائر القصة، وقد رواها رياض السنباطي قبيل وفاته في مقابلة مع تلفزيون الكويت ـ قدم لها شوقي قصيدته. وغنتها بعد موته بـ ١٤ سنة. ولشوقي غنت أم كلثوم تسع قصائد، غنتها كلها بعد وفاته:

سَلُوا كؤوسَ الطِّلا: هل لامسَتْ فاها واستخبِروا الرَّاحَ: هل مَسَّتْ ثناياها

اسألوا كؤوس الطلا (الخمر) هل لامست فم المحبوبة، واستخبروا (اسألوا) الراح (الخمر) هل مست ثناياها (أسنانها)

حديثُها السِّحْرُ، إلَّا أنَّهُ نَغَمٌ جَرَتْ على فَمِ داودٍ فغنَّاها

حديثها السحر، إلا أنه نَغَمٌ (أنغام) جرت على فم داود النبي صاحب المزامير

حمامةُ الأيْكِ مَنْ بالشَّجْوِ طارَحَها ومَنْ وراءَ الدُّجى بالشوقِ ناجاها

من ذا الذي طارح (بادل) حمامة الأيك (الشجر) بالشجو (الحزن)، ومن ذا الذي في الدجى (الليل) ناجاها (هامَسَها) بالشوق

يا جارةَ الأيْكِ، أيامُ الهوى ذهبتْ كالحُلْمِ، آهاً لأيامِ الهوىٰ آها!

أيتها الحمامة يا جارة الأيك (يا ساكنة الشجر) لقد ذهبتْ أيام الهوى كأنها الحلم

٢٥٢ رثاء المويلحي

قال شوقي يرثي محمد المويلحي، وكان شوقي سخر منه في قطع عديدة لا تحمل توقيعاً قبل ثلاثين سنة ـ انظر إحداها في أشعار سنة ١٩٠٢ ـ ذلك أن المويلحي نشر نقداً لاذعاً لشوقي، ولكن شاعرنا عاد ووافاه بالهدايا واسترضاه، على عهدة العقاد في «الديوان»، (١٩٣٠):

رُبَّ سَجْعٍ كَمُرْقِصِ الشِّعْرِ لَمَّا   يختلفْ لحنُهُ ولا إيقاعُهْ

رب سجْع (سَجَع: نثر مقفى) كالشعر المرقص (المطرب جداً) لما (لم) يختلف لحنه ولا إيقاعه عن الشعر لجودة الأسجاع. في تقسيم الناقد القديم للشعر فإن «المرقص» منه في الطبقة العليا

هُوَ فيهِ بديعُ كلِّ زمانٍ   ما بديعُ الزمانِ! ما أسجاعُهْ!

المويلحي في هذا السجع بديع الأزمنة كلها، فما قيمة بديع الزمان الهمذاني، وما قيمة أسجاعه بالمقارنة!

صارَعَ العيشَ حِقبةً، ليتَ شِعري   ساعةَ الموتِ كيفَ كان صراعُهْ

والذي تَحْرِصُ النفوسُ عليْهِ   عالمٌ باطلٌ قليلٌ متاعُهْ

٢٥٣ باكيات على الحسين الفواطم

قال شوقي في رثاء الشريف حسين الذي مات في عَمَّان ودفن في القدس (١٩٣١):

لكَ في الأرضِ والسماءِ مآتِمْ   قامَ فيها أبو الملائِكِ هاشِمْ

لك مآتم في الأرض والسماء، قام فيها يقبل العزاء أبو الملوك هاشم جد النبي، وأصل السلالة الهاشمية، وكان الشريف حسين كبير هذه السلالة في زمنه

قَعَدَ الآلُ للعزاءِ، وقامتْ   باكياتٍ على الحسينِ الفَواطِمْ

قعد آل هاشم للعزاء، وقامت تبكي على الحسين نساء آل هاشم (فهن كلهن شبيهات فاطمة الزهراء بنت رسول الله)

قمْ تَحَدَّثْ أبا عليٍّ إليْنا   كيفَ غامرتَ في جِوارِ الأَراقِمْ

قم يا أيها المتوفى، يا أبا علي، وتحدث إلينا كيف خاطرت وتعاملت مع الإنجليز الأراقم (الأفاعي)

لم تُبالِ النُّيوبَ في الهامِ خُشْناً   وتعلَّقْتَ بالحَواشِي النَّواعِمْ

ولم تبال (لم تهتمَّ) بالنيوب البارزة الخَشنة في الهام (في رؤوسهم)، وتعلقت بالحواشي (الجوانب) الناعمة. أي نظرت إلى رقة كلامهم لا إلى لؤم فعلهم، وتقول العرب «هو رقيق الحاشية» إذا كان حلو الكلام ليناً

قَـد رَجَـوْنـا مِـنَ الـمـغـانِـمِ حـظّـاً وَوَرَدْنـا الـوَغـى فَـكُـنَّـا الـغَـنـائِـمْ

رجونا أن ننال شيئاً من الغنائم، ووردنا الوغى (الحرب) فكنا نحن الغنائم. يشير إلى حرب الحسين للدولة العثمانية في أواخر الحرب العالمية الأولى، وكيف وعدوه باستقلال العرب وخانوه، وفي كلام شوقي تشف خفي، فقد كان نصيراً للدولة العثمانية حتى سقوطها

٢٥٤ يا شراعاً وراء دجلة يجري

قال شوقي يشيد بالعراق والملك فيصل، وكتب هذه الأبيات ليغنيها محمد عبد الوهاب أمام فيصل في بغداد (١٩٣١):

يـا شـراعـاً وراءَ دِجـلَـةَ يَـجـري فـي دُمـوعـي، تـجـنَّـبَـتْـكَ الـعَـوادي

يا شراعاً (مركباً) يجري وراء نهر دجلة في نهر من دموعي، أدعو أن تتجنبك العوادي (المصائب). يقول كمال النجمي إن محمد عبد الوهاب كان عليلاً عندما أزمع السفر إلى بغداد ملبياً دعوة الملك فيصل، فيقول له شوقي أيها الشراع الذي سيجري، لكن ليس في دجلة بل وراء دجلة بقليل في نهر آخر من دموعي، أدعو لك أن تتجنبك المصائب

سِرْ عـلـى الـمـاءِ كـالـمـسـيـحِ رُوَيْـداً واجْـرِ فـي الـيَـمِّ كـالـشُّـعـاعِ الـهـادي

سر على الماء أيها المركب كالمسيح (وكان من معجزاته السير على الماء) رويداً (متمهلاً) واجرِ في البحر كشعاع يهدي الناس

وأْتِ قـاعـاً كَـرَفْـرَفِ الـخُـلْـدِ طِـيـبـاً أو كَـفِـرْدَوْسِـهِ بَـشـاشـةَ وادِ

وأت (جِئ) قاعاً (سهلاً) كأنه في طيبه رفرفُ الخلد (الأغصان المتدلية في الجنة)، وكأنه في بشاشة واديه فردوس الخلود

قِـفْ تـمـهَّـلْ وخُـذْ أمـانـاً لِـقـلـبـي مِـنْ عـيـونِ الـمَـهـا وراءَ الـسَّـوادِ

قف أيها المركب وتمهل، وخذ الأمان لقلبي من عيون المها (الجميلات الشبيهات ببقر الوحش) وراء السواد (بلاد العراق)

والـنُّـواسـيُّ والـنَّـدامـى! أَمِـنْـهُـمْ سـامـرٌ يـمـلأُ الـدُّجـى أو نـادِ

وماذا عن النواسي (أبي نواس) والندامى؟ هل منهم سامر (مجلس سمر) أو نادٍ (محفل) يملأ الليل

خَـطَـرَتْ فـوقَـهُ الـمِـهـارةُ تـعـدو فـي غـبـارِ الآبـاءِ والأجـدادِ

خطرت (مشت) فوق هذا السهل المهارة (الخيل) تعدو في غبار الآباء والأجداد (أي مصاحبة لهم، وغير مقصِّرة عن إنجازاتهم)

أمـةٌ تُـنـشـئُ الـحـيـاةَ، وتَـبـنـي كـبِـنـاءِ الأُبُـوَّةِ الأمـجـادِ

هذه أمة تنشئ حياة لنفسها، وتبني كما بنى الأبوةُ (الآباء) الأمجادُ (الماجدون/ ذوو المجد)

تـحـتَ تـاجٍ مِـنَ الـقـرابـةِ والـمُـلْـ ـكِ عـلـى فَـرْقِ أريَـحِـيٍّ جـوادِ

تبني الأمة نفسها تحت تاج عماده القرابة (قرابة فيصل للنبي فهو من آل هاشم) والملك، والتاج على فرق (رأس) أريحي (كريم عطوف) جواد (كريم)

مَلِكُ الشطِّ والفُراتيْنِ والبَطْـ ـحاءِ، أعْظِمْ بفيصلٍ والبلادِ

إنه ملك الشط (شط العرب) والفراتين (دجلة والفرات)، والبطحاء (مكان في مكة)، فما أعظم فيصلاً والبلاد!

٢٥٥ القدس

قال شوقي في تأبين محمد علي، أحد زعماء المسلمين في الهند، وتوفي في القدس، (١٩٣١):

بيتٌ على أرضِ الهُدى وسمائِهِ الحقُّ حائطُهُ وأُسُّ بنائِهِ

هذا البيت (المسجد الأقصى) قائم على أرض الهدى وفي سماء الهدى (الحديث النبوي: أقرب بقعة في الأرض من السماء البيت المقدس)، والحق جداره وأساسه

«الفتحُ» من أعلامِه، والطُّهرُ مِنْ أوصافِه، والقدسُ من أسمائِهِ

كلمة «الفتح» علم على المسجد الأقصى (اسم مقصور عليه)، والطهر من أوصافه، و«القدس» من أسمائه

٢٥٦ بلبل لم يتح أمثاله للخلفاء

قال في ذكرى سيد درويش (١٩٣١):

بُلْبُلٌ إسكَنْدَرِيٌّ، أيْكُهُ ليس في الأرضِ، ولكنْ في السماءْ

سيد درويش بلبل من الإسكندرية أيكُهُ (شَجَرُهُ) في السماء

ربما استَلهَم ظلماءَ الدُّجى وأتى الكوكَبَ فاستوحى الضِّياءْ

تراه يستلهم ظلام الدجى (الليل) يقعد يلحن في الليل، ويأتي الكوكب فيستوحي من الضياء فناً. وكان لسيد درويش ألحان عتيقة الطراز كالأدوار العشرة التي منها «أنا هويت» وهي من شغل الليل، وكانت له ألحان تعج بحياة النهار ومشاغل الناس كالحلوة دي قامت تعجن

ورمى أُذْنَيْهِ في ناحيَةٍ يخلِسُ الأصواتَ خلْسَ الببَّغاءْ

ويرمي أذنيه بعيداً يختلس الأصوات ليصوغ منها فنه كأنه الببغاء في جودة الاقتباس. وسيد درويش كان يختلس فنه من أصوات الناس ونداء الباعة، وكان رائداً في التعبير بالغناء عن نبض الشارع؛ فإن يكن ببغاء فببغاء الشعب

سـيـدَ الـفـنِّ! اسـتـرِحْ مِـنْ عـالَـم آخـرُ الـعـهـدِ بـنُـعـمـاهُ الـبَـلاءْ

سيد درويش! يا سيد الفن! استرح من هذا العالَم الذي آخر ما عهدناه فيه من النُّعمى (النعيم) كان بلاء، فحتى نعيم هذه الدنيا بلاء

لـقـدِ اسـتـخْـلـفـتَ فـنّـاً نـابـغـاً دَفَـعَ الـفـنُّ إلـيـهِ بـالـلِّـواءْ

لقد استخلفت (نصَّبت خليفة) فنّاً نابغاً (الفنانِ نابغة/ ويعني عبد الوهاب) دفع إليه الفن بلواء القيادة

إنَّ فـي مُـلْـكِ فـؤادٍ بُـلـبُـلاً لـم يُـتَـحْ أمـثـالُـهُ لـلـخـلـفـاءْ

إن في ملك فؤاد (في مصر) بلبلاً (عبد الوهاب) لم يحظ بمثله الخلفاء. وكان للخلفاء العباسيين خاصة مغنون مشهورون حدثنا عنهم كثيراً صاحب «الأغاني»

يَـسـتـحـي أنْ يـهـتـفَ الـفـنُّ بـهِ وجـمـالُ الـعـبـقـريَّـاتِ الـحـيـاءْ

هذا البلبل (عبد الوهاب) يستحي أن يهتف فن الشعر بمدحه، وجمال العبقرية ذلك الحياء الملازم لها

٢٥٧ عقيدة وجهاد

قال شوقي بيتاً ليكون شعاراً لجريدة الجهاد لتوفيق دياب ١٩٣١ :

قِفْ دونَ رأيِكَ في الحياةِ مُجاهِداً إنَّ الـحـيـاةَ عـقـيـدةٌ وجِـهـادُ

دون رأيك: وراء معتقدك

٢٥٨ شجرة نسيتْها الشعراء

وقال يصف النخيل بين المنتزه وأبي قير، والمنتزه حي بالإسكندرية، (١٩٣١):

أرى شَجَراً في السَّماءِ احتجبْ وشـقَّ الـعَـنـانَ بِـمَـرأىً عَـجَـبْ

أرى شجراً عالياً كأن رؤوسه تختفي في السماء، وقد شق العَنان (السحاب) في منظر عجيب

مـآذنُ قـامـتْ هُـنـا أو هُـنـاكَ ظـواهـرُهـا دَرَجٌ مِـنْ شَـذَبْ

هي كالمآذن، وفي ظواهرها (خارجها) دَرَج من شذب (قشور). والمآذن درجها من باطنها في العادة

ولـيـس يُـؤذِّنُ فـيـهـا الـرجـالُ ولـكـنْ تَـصـيـحُ عـلـيـهـا الـغُـرُبْ

ومآذننا هذه لا يؤذن فيها المؤذن، بل تصيح عليها الغُرُب (الغربان)

وبـاسِـقـةٍ مِـنْ بَـنـاتِ الـرِّمـالِ نَـمَـتْ ورَبَـتْ فـي ظِـلالِ الـكُـثُـبْ

ورب باسقة (عالية) من بنات الرمال (نخلة)، نمت وكبرت في ظلال الكثب (كثبان الرمل)

تَطُولُ وتَقْصُرُ خلْفَ الكثيبِ ... إذا الريحُ جاءَ بِهِ أوْ ذَهَبْ

أنت تراها طويلة ثم قصيرة خلف كثيب الرمل، بحسب الريح التي تحرك الكثيب. هذا معنى مصنوع. فلا نظن أن شوقي رأى كثيب الرمل يجيء ويذهب مع الريح فتطول النخلة وتقصر في عيني الرائي. لكنه وثب بخياله وصنع الصورة. وأي بأس في ذلك! قال مارون عبود عن شوقي: «وفيه من أبي تمام تصيده المعاني وأخذها عنوة إذا اقتضى الأمر».

وهذا هُوَ النخْلُ مَلْكُ الرِّياضِ ... أميرُ الحقولِ عروسُ العِزَبْ

هذا النخل ملك البساتين، وأمير الحقول، وعروس العزب (البيارات/ المزارع)

طعامُ الفقيرِ، وحَلوى الغَنيِّ ... وزادُ المسافرِ، والمُغْتَرِبْ

فيا نَخلةَ الرَّمْلِ لم تَبخَلي ... ولا قَصَّرتْ نَخَلاتُ التُّرَبْ

فنخلة الصحراء لم تبخل، ونخلة التراب كنخيل الإسكندرية ما قصَّرت في العطاء

وأَعْجَبُ كيفَ طوى ذِكْرَكُنَّ ... ولم يَحْتَفِلْ شعراءُ العربْ

أنا أعجب كيف طوى شعراء العرب ذكركن (أغفلوا ذكركن) أيتها النخلات

ألَيْسِ حَراماً خُلُوُّ القصائِـ ... ـدِ مِنْ وَصفِكُنَّ وعُطْلُ الكُتُبْ

عُطل الكتب: خلوها

٢٥٩ ركزوا رفاتك لواء

قال شوقي في رثاء عمر المختار، (١٩٣١):

رَكَزوا رُفاتَكَ في الرِّمالِ لِواءَ ... يَستنهِضُ الواديِ صباحَ مساءَ

ركز (غرس) الطليان رفاتك يا عمر المختار في الرمال لواءً (راية)، يستنهض (يثير) الوادي (بلدك) صباح مساء. و«الوادي» عند شوقي مرادف لمصر، فإذا قال «الوادي» فهو يعني مصر، وصارت على لسانه كأنها تعني «البلد».. كل بلد

يا وَيْحَهمْ! نصبوا مناراً مِنْ دمٍ ... يوحيِ إلى جيلِ الغدِ البَغْضاءَ

الويل لهم! نصبوا مناراً مضيئاً ولكنه من الدم، وهو يوحي إلى الجيل الجديد البغضاء (الكراهية للمستعمر)

خُيِّرْتَ، فاخترتَ المبيتَ على الطَّوَى ... لَمْ تَبْنِ جاهاً، أو تَلُمَّ ثراءَ

اخترت المبيت على الطوى (الجوع)، ولم تصنع لنفسك جاهاً (رياسة)، ولا ثراء

إنَّ البطولةَ أنْ تموتَ مِنَ الظَّما ... ليسَ البطولةُ أنْ تَعُبَّ الماءَ

البطولة هي الموت عطشاً، وليس أن تَعُبَّ (تكرع) الماء

والمسلمونَ، على اختلافِ ديارِهِمْ، لا يملكونَ مع المُصاب عَزاءَ
كل المسلمين لا يجدون ما يعزيهم (ينسيهم) المصاب (البلاء) بفقدك

في ذمَّة اللَّهِ الكريمِ وحفظِهِ جسدٌ ببُرْقَةَ وُسِّدَ الصحراءَ
ليكن في ذمة (حفظ) الله هذا الجسد الذي وُسِّد (سُجِّيَ/ومدد) في الصحراء ببرقة (في ليبيا)

بطلُ البداوةِ لم يكنْ يغزُو على تَنْكٍ، ولمْ يَكُ يَركبُ الأجواءَ
لم يكن بطل البداوة يغزو على تنك (دبابة)، ولا في طائرة

لكنْ أخو خيلٍ حَمَى صَهَواتِها وأدارَ مِنْ أعرافِها الهيجاءَ
لكنه كان أخا خيل (صاحب خيل) حمى صهواتها (ظهورها)، وأدار من أعرافها (شَعْر رؤوسها) الهيجاء (الحرب). هنا صورة زعيم على صهوة جواده ويده تداعب شعر عنق الفرس، واليد الأخرى توجه جنوده في الحرب، عَصَرَ شوقي هذا في أربع كلمات

لبَّى قضاءَ الأرضِ أمسِ بمُهجةٍ لمْ تخشَ، إلَّا للسماءِ، قضاءَ
لبى (أجاب) حكم القضاء الأرضي فجاد بمهجته (قلبه) التي لم تكن تخشى إلا من قضاء السماء. أرأيت كيف يداعب شوقي كلمات اللغة! ترى قضاء الطليان الجائر بشنق عمر المختار واقفاً موقف مقارنة مع قضاء الله، وترى عمر المختار يلبي قضاء الطليان فيقدم مهجته شهيداً. وهو لا يخاف القضاء الذي يلبي دعوته بل يخاف قضاء الله، كل هذا في كلمات قلائل، وهذا الإيجاز سر من أسرار البيان، وقد تعمدت أن أنثر لك البيت بكلام كثير حتى يقف كلامي، مظلوماً، وقفة مقارنة مع بيت شوقي، ولتعرف ما في الإيجاز من جمال

وأتى الأسيرُ يجُرُّ ثِقْلَ حديدِهِ أسَدٌ يجَرِّرُ حيَّةً رقْطاءَ
جاء الأسير يجر ثقل قيوده، كأنما هو الأسد يجر أفعى رقطاء (مرقطة/مُبَقَّعَة)

سبعونَ لو ركبتْ مناكبَ شاهِقٍ لترجَّلتْ هَضَباتُهُ إعياءَ
سبعون عاماً، هي عمر الشهيد، لو اعتلت مناكب (أكتاف) شاهق (جبل) لترجلت (لهبطت) هضبات الجبل تعباً من ثقل هذه السنوات

يا أيُّها الشعبُ القريبُ، أسامعٌ فأصوغَ في عُمَرَ الشهيدِ رثاءَ
يا شعب ليبيا القريب منا، هل تسمعني حتى أرثي شهيدك

ذهبَ الزعيمُ، وأنتَ باقٍ خالدٌ فانقُدْ رجالَكَ، واخترِ الزُّعماءَ
الزعيم ذهب وأنت (الشعب) باق، فانقُد (تفحَّص) رجالك، واختر الزعماء

وأرِحْ شيوخَكَ مِنْ تكاليفِ الوَغى واحملْ على فتيانِكَ الأعباءَ
واترك الشيوخ (المسنين) ليستريحوا من تكاليف (مشقات) الوغى (الحرب)، واحمل الأعباء (المشكلات) على الفتيان

٢٦٠ يا منصف الموتى من الأحياء

قال في رثاء حافظ إبراهيم (١٩٣٢):

قَدْ كُنتُ أُوثِرُ أنْ تقولَ رثائي   يا منصفَ الموتى مِنَ الأحياءِ

كنت أوثر (أفضّل) أن أموت قبلك فتقول أنت رثائي يا حافظ، يا من أنصف الموتى من ظلم الأحياء، لكثرة ما رثى حافظ الموتى

لكنْ سَبَقْتَ، وكلُّ طولِ سلامةٍ   قَدَرٌ، وكلُّ مَنِيَّةٍ بقضاءِ

لكنك سبقت، وكل سلامة تطول فهي بقدر من الله، وكل منية (موت) فبقضاء الله

بالأمسِ قد حَلَّيْتَني بقصيدةٍ   غرَّاءَ تُحفَظُ كاليدِ البيضاءِ

بالأمس (قبل خمس سنوات عند تكريمي أميراً للشعراء) حليتني (زينتني) بقصيدة غراء (باهرة) حفظتُ لك فيها الجميل فهي يد بيضاء (إحسان منك)

غِيظَ الحسودُ لها، وقمتُ بشكرِها   وكما علمتَ مودَّتي ووفائي

غيظ (اغتاظ) الحسود منها، وقمتُ أنا بواجب الشكر، وأنت تعلم مودتي ووفائي

قلمٌ جرى الحِقَبَ الطوالَ، فما جرى   يوماً بفاحشةٍ ولا بهجاءِ

قلمك جرى الحقب (المُدَد) الطويلة ولكنه لم يكتب فاحشة ولا هجاء

يا حافظَ الفصحى، وحارسَ مجدِها   وإمامَ من نَجَلَتْ مِنَ البُلَغاءِ

أنت حفظت الفصحى وحرست مجدها، وأنت إمام (زعيم) من نجلت (أنجبت) من البلغاء

جدَّدْتَ أسلوبَ الوليدِ ولفظَه   وأَتيْتَ للدُّنيا بسِحْرِ الطَّائي

جددت أسلوب الوليد (البحتري) ولفظه، وجئتنا ببيان ساحر كبيان الطائي (أبي تمام)

كمْ ضِقْتَ ذرْعاً بالحياةِ وكيْدِها   وهتفتَ بالشَّكوى مِنَ الضَّرَّاءِ

كم كنت تعبر عن ضيقك بالدنيا ومكرها، وكم هتفت (جاهرت) بالشكوى من الضراء (البلوى)

فَهَلُمَّ فارِقْ يأسَ نفسِكَ ساعةً   واطلُعْ على الوادي شعاعَ رجاءِ

فهيا اترك اليأس ساعة، واطلع على مصر شعاعاً من رجاء في مستقبل زاهر

خلَّفْتَ في الدُّنيا بياناً خالداً   وتركْتَ أجيالاً من الأبناءِ

تركت في الدنيا بياناً خالداً، وأجيالاً ممن هم أبناؤك في البلاغة

٢٦١ نغمة المهد

قال شوقي (١٩٣٢):

ألحانُ كلِّ جماعةٍ وغناؤُهُمْ   لغةٌ ونَجوى بينَهُمْ وحِوارُ

الألحان والأغاني في كل شعب لغة أخرى ونجوى (حديث هامس) فيما بينهم وحوار

لا تعشقُ الآذانُ إلَّا نَغْمَةً   كانتْ عليها في المُهودِ تُدارُ

الأذن لا تعشق إلا النغمات التي كانت تدور عليها (تسمعها) في المهد (في الطفولة). وهذه فكرة عميقة لشوقي لا نظنه أخذها من كتاب. فهو رجل سميع عرف ألحان مصر في عهد الحامولي ومحمد عثمان وأم كلثوم، وصنع من ربيبه محمد عبد الوهاب طاقة موسيقية مثقفة أهداها لأجيال من العرب من بعده. ثم سافر شوقي إلى فرنسا وعاش سنوات وسمع موسيقاهم. وظل يسافر إليها ـ مصطحباً عبد الوهاب لاحقاً ـ وظل يعيش على زادين موسيقيين: زادٍ من الشرق وزادٍ من الغرب. كان يحب موسيقى الغرب، لكن العشق ظل للموسيقى التي سمعها في المهد. ألا ترى الصبي في بلدنا يأكل مخلل الخيار المالح من يد أمه، ثم يسافر إلى أوروبا ويتغرب نصف قرن يقضيه وهو يتفحص الرقعة الملصقة على مرطبانات المخلل في السوبرماركتات بحثاً عن مخلل مصنوع بالملح لا بالسكر؟ فكيف الحال بالموسيقى التي هي ألصق بالنفس. واليوم حالنا أعجب وأعقد. فالموسيقى الغربية صارت تعطى لأطفالنا في المهد، أو في المدارس التي تحتقر اللغة العربية والتي صار يذهب إليها أبناء الأغنياء. ودخلنا مرحلة متقدمة في بيع نفوسنا للغرب. ونشأ عندنا ناس يسخرون من مفردات موسيقانا الشرقية. منذ الخمسينات بدأوا بهذا، وحذروا من «ربع الصوت» كأنه الطاعون، وقالوا إنه سبب الرخاوة والميوعة في موسيقانا. وما لربع الصوت؟ على مقام الراست العامر بربع الصوت مجَّد السنباطي مصر تمجيداً في «وقف الخلق»، وعليه أيضاً غنى عبد الوهاب «أخي جاوز الظالمون المدى» و«يا سماء الشرق»، وهما لحنان فيهما عظمة واستنهاض

٢٦٢ وجد الرعية والرعاة نياما

قال شوقي يندد بالاحتلال (١٩٣٢):

أَعطى العهودَ وأقسَمَ الأقساما   ألَّا يَطولَ مُقامُهُ فأَقاما

عاهد المستعمر الإنجليزي مصر وأقسم لها ألا يطول مقامه، ولكنه أقام (مكث)

خمسونَ عاماً في البلادِ يسوقُها   بالعُنفِ عاماً والهَوادَةِ عاما

خمسون عاماً (١٨٨٢ ـ ١٩٣٢) قضاها الإنجليز في مصر يسوقونها بالعنف عاماً وبالهوادة (اللين) عاماً

مستعمرٌ جعلَ الخِلافَ ذَريعةً   ليَهُزَّ رُمْحاً أوْ يَسُلَّ حُساما

مستعمر اتخذ من الخلافات الداخلية ذريعة (حجة) ليهز لنا الرمح ويسل علينا السيف

لـمَّـا أتـى الـوادي وعـبَّـأ جـيـشَـهُ وَجَـدَ الـرعِـيَّـةَ والـرُّعـاةَ نِـيـامـا

لما جاء المستعمر وادينا وعبأ جيشه زاحفاً وجد الرعية والحكام نائمين. بل كان في مصر من أصرَّ على عدم النوم آنذاك: عدو شوقي اللدود أحمد عرابي

لقد هجا شوقي عرابي هجاء مراً لمخالفته الخديوي توفيقاً وكان والد شوقي من حاشية الخديوي. وشمت شوقي بعرابي لهزيمته أمام الإنجليز في معركة التل الكبير (وكان شوقي آنذاك في الرابعة عشرة من العمر). وظل شوقي على موقفه حتى بعد عودة عرابي من المنفى. والآن يقر شوقي بأن الراعي (توفيقاً) كان نائماً. أما عرابي، أقر شوقي أم لم يقر، فهو الذي قاد جيش مصر برغم أنف الخديوي ليقف وقفة عز ومجد وليقدم ١٤٠٠ شهيد، ويقتل ٥٥٠ من الغزاة، وليعلن للأجيال اللاحقة أن مصر لم تُستَبح رخيصة، وليكون مناراً

يـا أيُّـهـا الـجـيـلُ الـذي يَـبـنـي غـداً كُـنْ فـي بـنـائِـكَ حـازِمـاً مِـقْـدامـا

مقدام: شجاع

وإذا بَـنَـيْـتَ الـمـلـك فـابـنِ حـقـيـقـةً لا تـبـنِ أوهــامــاً ولا أحــلامــا

٢٦٣ اطلب القطن وزاول غيره

قال شوقي في مشروع القرش، وهو آخر شعر قاله، ومات أحمد شوقي في ١٤ أكتوبر (١٩٣٢):

اجـمَـعِ الـقِـرْشَ إلـى الـقـرشِ يَـكُـنْ لَـكَ مِـنْ جَـمْـعِـهِـمـا مـالٌ لُـبَـدْ

لبد: كثير

اطـلـبِ الـقـطـنَ، وزاوِلْ غـيـرَهُ واتـخـذْ سـوقـاً إذا سـوقٌ كَـسَـدْ

اطلب القطن (اسع في إنتاجه)، وزاول (مارس) إنتاج محاصيل أخرى أيضاً، فهذا يفتح لك سوقاً بديلة إذا كسدت سوق القطن

نـحـنُ، قـبـلَ الـقُـطْـنِ، كُـنَّـا أمـةً تـهـبِـطُ الـوادي وتَـرعـى وَتَـرِدْ

كنا قبل أن يزرع بمصر القطن أمة تهبط وادي النيل وترعى الأنعام فيه وترد (تستقي الماء). لم يكن للقطن شأن كبير في مصر القديمة، وأصبح سلعة تجارية مهمة، تغني الفلاح أو تكسره بحسب السوق العالمية للقطن، منذ عهد محمد علي

فهرس القوافي

(القافية فرقم القصيدة)

حافظ إبراهيم
(١٨٧١م ـ ١٩٣٢م)

هيأتُ «عناصر الموضوع».. أو قل رؤوس الأقلام، وضبطت التواريخ، وقلت: أكتب مقدمة لهذه الأشعار التي انتخبتها من ديوان حافظ إبراهيم. ثم رميت بورقة العناصر جانباً. وأغلقت الكتب التي قرأتها عن حافظ إبراهيم، وأعدت ديوانه إلى الرف. وقلت في نفسي: أحدثك عنه حديثاً، فهذا أروح لي ولك.

وها أنت تراني متعثراً أبحث عن طرف الخيط.

غاظني حافظ، وقد عدت إليه الآن بعد سنوات كثيرة من قراءتي الأولى لديوانه. انتخبت له الأبيات المشهورة، والأبيات الجميلة، والأبيات التي تعبر عن حياته وشخصيته، ورجعت إلى ما انتخبت فازددت غيظاً.

غاظني في الأولى كثرة ما في ديوانه من القصائد المغسولة التي ليس فيها بيت يلفتك، وغاظني في الثانية أنني رأيت مختاراتي التي ضمت خير أبياته مملوءة بالحَشَف، وكان عليَّ أن أعود فأنحي منها ما لم أعد أراه جيداً.

ثم إن حافظاً غاظني مرة ثالثة لأنه خدعني بقعقعةٍ في شعره تحجب عن المرء ما في الشعر من سخف أو إحالة أو تكرار غير نافع، أو تكرار ضار بالمعنى.

وبدأت أشحذ أسناني. قلت في نفسي: أنا دائماً أقول إن الشاعر بجيده لا برديئه، وها هو أخونا في الله حافظ إبراهيم قد دسَّ لي ضمن ما كنت حسبته «جيده» أبياتاً رديئة غير أن عليها طلاء خالباً. فلأخرج عن سياستي مع شعرائي، ولأشهر على حافظ سكين التعريق. ثم عدل بي عن هذه الفعلة شيئان وشيء.

أول الشيئين أنني قرأت كتاب المازني الذي وضع فيه حافظاً على السفود. والسفود سيخُ شيِّ اللحم، وكان أخلق بنا أن نقول «وضع السفود في حافظ واشتواه»، ولكن الرافعي شاء أن يكون التعبير «على السفود»، فهو عليه!

وثانيهما أنني رأيت حشداً من الأساتيذ قد سرقوا نقدات المازني ونسبوها لأنفسهم الصغيرة، وسلخوا عبارات كاملة من المازني وزينوا بها صفحات المسوخ التي أصدروها. لا، لم يستفرغ المازني كل سفاسف شاعرنا. ولكنني، لو مضيت في عزمتي السفودية، سأكون مضطراً إلى انتقاد بعض ما انتقده الرجل، فهل أفعل ما فعله الأساتيذ؟

والشيء الثاني.. الشيء الثاني في الواقع هو ذلك الذي صنعه الأساتيذ. لكن بقي شيء آخر.. ثالث، وهو الأهم.

الشيء الثالث الذي منعني من تعقُّب ما وقع فيه حافظ من إحالات وركاكات هو أن شاعرنا كان يكتب للأذن لا للعين.

قرأت وصفاً جميلاً كتبه عبد الرحمن صدقي لحفل ألقى فيه حافظ قصيدة في تكريم يعقوب صروف ونبيه فارس. وصف صدقي إقبال حافظ على الجمهور، بقامته الطويلة وكتفيه العريضتين وهامته الكبيرة. ووصف إيماءاته «التمثيلية» وصوته الفخم وإلقاءه الأخاذ، وتكراره بعض الأبيات قبل أن يمضي في سائر القصيدة، فرأيت مصداق ما قاله كثيرون من أن حافظاً كان يمتلك مهارة كبيرة في الإلقاء. ثم قرأت ما كتبه طه حسين عن سؤاله حافظاً عن عبارة «جثا قبرُه» التي وردت في مطلع قصيدة رثى فيها مصطفى كامل (أيا قبرُ! هذا الضيف آمال أمةٍ/ فكبر وهلل والق ضيفك جاثيا)، فكيف للقبر أن يجثو على ركبتيه؟ وردَّ حافظ: «دعني من نقدك وتحليلك. ولكن، حدثني أليس يحسن وقع هذا البيت في أذنك؟ أليس يثير في نفسك الحزن؟... قال طه: ولكن. فقال حافظ: دعني من لكن، واكتف مثلي بهذا».

الرجل يستعمل اللغة القديمة، والأساليب العتيقة، ويتكلف في سبيل ذلك ما يتكلف، ويخطئ، ويحيل، ولكنه ينظم ناصباً أذنيه يسمع ما ينظمه بآذان جمهوره. والجمهور غفور للشاعر رحيم به إن هو أحسن سوق القضية بمجملها ناثراً في أثناء الأبيات درراً قليلة وسط حشد من العبارات ذات الوقع الفخيم، وليس مهماً بعد ذلك إن كانت فيها قبور جاثية.

قررت أن آخذ حافظ إبراهيم على بعضه. وفعلت. وشرحت ما اخترته من أبياته وأنا مغيظ محنق، لكنني كففت لساني عن انتقاده إلا ما ندر. كان في نظمه بوهيمياً كما كان في سلوكه منذ أن ترك الدرسة يافعاً إلى أن مات.

كان حافظ شاعراً. وملأ بشعره الأندية. وعاشت له أبيات، وقصائد كاملة أيضاً، ظل الناس يرددونها. لم يكن رجل فكر، ولا رجل سياسة، وأزيد وأقول ولا وطنياً مناضلاً. كان يحب وطنه، وهذه ليست فضيلة، فكلنا يحب وطنه. وكان يفكر في رفعة وطنه كثيراً، ويتألم لأن نهضة بلده مصر لم تكتمل، بل لقد انتكست. ولعل في هذا بعض الرد على قوم يزعمون أن العهد الملكي بمصر قبيل ثورة ١٩٥٢ كان عهد نهضة مباركة وكبيرة، وأن حركة الضباط أجهضت هذه النهضة. في شعر حافظ، مأخوذاً في مجمله ـ ومضافاً إليه شعر شوقي ـ مجموعة كبيرة من القرائن على أن مشاعر أهم شاعرين في تلك الحقبة كانت مشاعر أسىً على نهضة كانت في عصر محمد علي، وخفتت قليلاً ثم كانت تريد أن تستمر في عهد إسماعيل فأجهضتها الأمم الأوروبية، ثم بالاحتلال الإنجليزي ١٨٨٢ بدأ الانحسار، وظل متواصلاً.

من حق أي مؤرخ ـ مصرياً أو غير مصري ـ أن ينتقد حركة ضباط ٥٢، ومن حقه أن يفضل على مؤسسات حكم العسكر آنذلك المؤسسات الأشبه بالديمقراطية التي كانت في العهد الملكي، فأما تصوير العهد الملكي على أنه كان نهوضاً متصلاً، فهذا عكس الحقيقة.

رأى كثيرون حافظاً وطيب قلبه، ووفاءه لأصدقائه ولمن أحسنوا إليه، واغتفاره إساءة من أساء، وتغمده هجوم من هاجمه بالعفو السريع فعدوه رجلاً من كَمَلة الرجال. ليكن. على أن الرجل الكامل يحتفظ في ركن من شخصيته بخزانة سوداء يودع فيها قمامات سلوكه، فإن لم ير الناس في شخصية حافظ المنفتحة شيئاً عليه قفل ومفتاح، فربما كان ذلك لأنهم غضوا البصر.

كان حافظ حقاً طيب المعشر لطيفاً.. لكن ليس مع كل الناس. فهو ابن بلد، يعامل من يصغره سناً أو قدراً بجلافة ابن البلد، ويعامل من يحسن إليه بالإجلال، وهو يحفظ المعروف، ويحسن إلى الناس كثيراً. وكان سخياً سخاء خرافياً، ونوادر سخائه تملأ الكتب، والسخاء ستر يحجب عن الأعين كثيراً من علل الشخصية. وكان صاحب نكتة، وذا محضر جميل وبديهة مساعفة، ويحسن السخرية المرة. يراه المرء أول معرفته به متجهماً، ثم سرعان ما يفيض بشراً،

حتى ليقبل ضيفه الجديد عليه يريد أن يقبله بين عينيه، وهذا شيء قاله أحد من عرفوه، ونسيت من هو.

درس حافظ الشعر العربي من «الوسيلة الأدبية» وفيها قرأ شعر البارودي، ولقي البارودي وسمعه وجالسه، فحافظ امتداد طبيعي لمدرسة إحياء الشعر العربي، التي جعلوا البارودي رأسها. وقرأ أغاني أبي الفرج مراراً، وصاحبته لزوميات المعري، وسمع أشعار شوقي وكان يقفو أثره في بعض الموضوعات.

لم يكن الشاعر المثقف. كان يحب رنين الشعر العربي القديم وقرأه كثيراً وحفظ منه كثيراً، وجعلوا حفظه آية من الآيات، إذ كان يستحضر من خزانة ذاكرته ما شاء أيان شاء.

وأعود إلى غيظي.

كل هذا الغيظ الذي حدثتك عنه.. ثم أختار لحافظ بضع مئات من الأبيات! لا، وإنني لأبرز الكثير منها بالتسويد!

لم يكن لحافظ دقة أبي تمام، ولا سلاسة البحتري، ولا صنعة ابن الرومي، ولا فخامة المتنبي، ولا فحولة المعري، ولا خيال شوقي.

ولكن، كان لحافظ شيء لم يكن لأي من هؤلاء. كانت له شخصيته، تماماً مثلما لك ولي ولكل إنسان شخصيته. وعبر حافظ عن شخصيته في شعره، وليس كل أحد قادراً على أن يعبر عن شخصيته، وعن.. إمَّعيته أيضاً.

عبر عن إمعيَّته الفكرية بوضوح: لا رأي له في كرومر، ويودعه بقصيدة يذكر فيها المحاسن والمساوئ، ثم يتنصل ببيت يقول فيه إن هذا «ما يقوله الناس»؛ ولا رأي له في السفور والحجاب، ويريد في رثائه قاسم أمين أن ينتظر كي يكشف له المستقبل صحة أو خطل آراء الفقيد. وهو ناقم على الأجانب المقيمين في مصر ثم يعود ويحييهم على نشاطهم التجاري.

وعبر حافظ عن أحداث زمنه. وكانت له قدرة الخطيب، الذي أدمن النظر في عيون جمهور السامعين، على تخير العبارة الطنانة. والعبارة الطنانة من بعض المكونات المفيدة للشعر. فإن شبهت مكونات الشعر بمكونات صلصة الطماطم فاعلم أن العبارة الطنانة ليست من المواد الحافظة، التي لا مهمة غذائية لها بل هي تحفظ الصلصة من التلف السريع. لا، العبارة الطنانة جزء من الشعر، لأن إنشاد الشعر جزء من الشعر، ولأن الإيقاع جزء من الشعر،

ولأن الشعر يصبح نثراً إن عدم هذه المكونات. فهل المعنى جزء من الشعر؟ يقول لك القدماء: نعم، ولا. ويقولون إن المعاني ملقاة على قارعة الطريق، والمعول إنما هو على حسن السبك، وعلى الالتزام بعمود الشعر العربي. ويقول لك قدماء ومحدثون كثر: بل المعنى مهم، شرط ألا تتحول القصيدة إلى مقالة.

حافظ غير المثقف أشعر من حافظ لو كان مثقفاً. وأكاد أجزم بنسبة ٩٩٪ كما يقول العوام ـ في أول مناسبة تسوق تعسَ حظٌ عامياً ليقول لي هذه العبارة، سأجيبه ببرود وبكل جدية: وكيف قست هذه النسبة المئوية لطفاً؟ ـ أجزم بأنه لو كان حافظ قد تثقف وقرأ كثيراً لكان شعره في غاية الغثاثة. وكنت في مقدمة كتابي الأول في هذه السلسلة قد بحت لك بأنني حاولت الشعر وأخفقت فيه، وعبرت عن ذلك بالقول:

أتيت بقاموسي وألفيَّتي إلى الـ ـقصيدة أبغيها، وأخشى تعاليها
فألفيتها تهوى البريء ولو به جنون، بل المجنون أقصى أمانيها
فيا شعرُ، يا ولَّادُ، يا خَلْقُ، فُتَّني لأنَّ علوميِ شوهتنيَ تشويها

وفي حافظ سذاجة تظهر جلياً كلما طرق موضوعاً ثقافياً، ولكنه قد يجيء بعد أن يستعرض عضلاته الثقافية، المنفوخة بمنفاخ الدراجات، بأبيات قليلة يشكو فيها بؤسه، صادقاً في شبابه كاذباً في كهولته: كاذباً لأنه لَطَى في السنوات العشرين الأخيرة من حياته في وظيفة دسمة (بلغ راتبه الأقصى ثمانين جنيهاً في الشهر.. هذا عام ١٩٣٢، عندما كان الجنيه يُغني «أنا أنطونيو وأنطونيو أنا»).

أبيات الشكوى عند حافظ فيها عذوبة، وفيها استمرار لنغمة مألوفة عند شعراء العرب أصبحت من أركن أركان القصيدة في عصور الانحطاط. وهي بالمناسبة عصور انحطاط وانحسار وسفه وسفاسف وأنوف بعض الأكاديميين في التراب. نعم رغم السفاسف فإن مما يجعل السامع يترنح ويتخدر أن يسمع شعراً فيه نغمات عتيقة. (مثال على ذلك من دنيا الألحان أغنية لنجاة الصغيرة تقول «أيظن أني لعبة بيديه؟/أنا لا أفكر في الرجوع إليه» وتصحب هذه الكلمات ألحان تعبيرية جديدة، ثم تمضي الأغنية بلا إيقاع وبلا تطريب.. «اليوم عاد كأن شيئاً لم يكن/وبراءة الأطفال في عينيه»، وعندما يريد

عبد الوهاب أن يقيم الناس عن كراسيهم يلحن لهم البيت «حتى فساتيني التي أهملتها/ فرحت به رقصت على قدميه» تلحيناً آخر مختلفاً. . تلحيناً فيه طرب وإيقاع وجملة ميلودية متقنة من الطراز القديم). وألا ترانا نستمع إليك بأدب وأنت تلقي علينا قصيدة ألفرد دوفيني عن الذئب، فإذا أتبعتها بقصيدة البحتري حيث يقول: «كلانا بها ذئب يحدث نفسه بصاحبه» استيقظت فينا روح الصحراء التي كلانا فيها ذئب حقاً، وصفقنا لقديمنا المضمخ بمسك السنين؟

شكا حافظ من الأجانب بمصر: من اليونانيين، ومن الشوام أيضاً. ولكن حافظاً رجل رقيق، وهو ابن بلد. كان يحب صديقه خليل مطران اللبناني ويمدحه شعراً ونثراً، وكان مطران بثقافته العميقة، وفرنسيته المتقنة يساعد حافظاً في الترجمة. وكان يغشى مجالس أهل الصحافة، وجلهم من الشوام، وكانوا يرفعون ذكره عالياً بنشر قصائده في صدور جرائدهم. وفي السوريين قال حافظ بعض أجمل شعره، وطوقهم بحبه وبإعجابه. ولكن تذمره كان من المصريين الذين كانوا ـ حسب تحليله الساذج ـ متوانين وكسالى. وكان اسم أكسل رجل في مصر. . لعلك حزرت. . فلا داعي للتشهير.

هذا سجل حياة شاعرنا:

ولد في عوامة راسية قرب ديروط في الصعيد، عند قناطر التقسيم. . قناطر تقسيم حصص المياه. كان محمود سليمان باشا أحد كبار ملاك الأراضي قد أسكن إبراهيم فهمي والد شاعرنا وأمه هانم البورصلي فيها. فإبراهيم فهمي مهندس مياه، والباشا بحاجة إلى «مساعدة صديق» كي يحصل على نصيب وافر ليروي فدادينه الـ ١٦٠٠. وأنجبت هانم ـ هذا اسمها ـ الطفل حافظاً في عام ١٨٧١، ربما قبله بعام، وربما بعده بعام. ثم أختاً له. ثم مات زوجها إبراهيم فهمي ولحافظ من العمر أربع سنين. فخسر الباشا الصديق المساعد، وخسرت الأسرة العوامة.

رحلت الأم بولديها إلى القاهرة، إلى بيت أخيها، المهندس في مصلحة التنظيم، محمد نيازي البورصلي، وكان يسكن في حي المغربلين بين القلعة والتحرير. وأخوال حافظ قوم من قدامى أتراك مصر نسوا لسانهم التركي واستعربوا وتمصروا. لم يكن خال حافظ من ذوي اليسار، لكنه كان يعيش مع زوجته وحدهما ولم يرزقا بأبناء.

تربى حافظ في كنف خاله بلا أب، ولكن كان له في البيت أم، وكانت له

أم أخرى هي زوجة خاله، وكانت أخته. وقد تزوجت، من بعد، وأنجبت أربعة وماتت شابة.

درس في مدارس القاهرة حتى بداية المرحلة الثانوية، ثم كان أن رحلت العائلة كلها إلى طنطا، فانقطع حافظ عن الدراسة، إذ لم يكن بطنطا مدرسة ثانوية كما ذكر بعضهم، أو لأنه كان يكره المدرسة كما قال محمد إسماعيل كاني الذي ينتسب إلى أسرة أخت حافظ.

أخذ حافظ، وهو في السادسة عشرة يعاشر طلاب المعهد الأحمدي بطنطا، وحضر دروساً في النحو والصرف في الجامع الأحمدي. ويصف الشيخ عبد الوهاب النجار أول لقاء له بحافظ في طنطا عام ١٨٨٨، وحافظ في نحو السادسة عشرة، يقول: «فتى غض الإهاب، له ظرف ولطف محاضرة، وبديهة وحضور. . قضينا رمضان نصلي المغرب والعشاء والتراويح معاً، ثم نسمر حتى السحور، ونظل حتى يؤذن لصلاة الفجر، وبعدها نمضي في صحبتنا حتى طلوع الشمس، فيذهب كل منا إلى بيته» بتصرف عن الشيخ النجار.

مضت على حافظ سنة خصبة جداً من حيث امتلاكه لأدوات اللغة والبيان، وقاحلة بوهيمية في نظر خاله المهندس. وضاق حافظ ذرعاً بكلمات خاله التأنيبية، فقال بيتيه المشهورين: (ثقلت عليك مؤونتي/إني أراها واهية//فافرح فإني ذاهب/متوجه في داهية). وكانت الداهية استمراراً في معاشرة طلاب المعهد، فقد سكن حافظ عند صديق كان مجاوراً للجامع الأحمدي.

ولعل هذا الصديق ضاق بحافظ. . على أن شاعرنا أصبح الآن يعرف قدر نفسه، فهو يحسن أن ينظم، واستقامت على لسانه اللغة العربية الفصحى. عاد إلى منزل خاله. لكنه بدأ يبحث عن عمل. ولم يجد خيراً من المحاماة، فهو فصيح اللسان، حسن الكتابة سريع الفهم وسريع البديهة.

عمل في مكتب المحامي الشيمي، ثم وجده يدنِّق عليه في الأجر، فانتقل إلى مكتب محمد أبي شادي، ثم إلى مكتب عبد الكريم الفهيم.

قد وضحت الصورة الآن، نحن بإزاء شخص قلق. فما الذي يلقي بهذا الشاب القلق، الذي بدا أنه مشروع شاعر، في أحضان الجيش؟ ربما طوله وكتفاه العريضتان.

إلى القاهرة، والمدرسة الحربية. ولحسن حظه كان المحتل الإنجليزي قد

ألغى من منهاج هذه المدرسة معظم ما كانت تدرسه من علوم، وبعد سنتين أو ثلاث تخرج حافظ ملازماً ثانياً. وقضى في الجيش ثم في الشرطة ثلاث سنوات، كان فيها مثال الضابط المهمل.

ونقل إلى السودان في حملة كتشنر.

فقد بعث الإنجليز الجنرال هربرت كتشنر إلى الخرطوم للقضاء على الحركة المهدية وقدع أطماع فرنسا في السودان. وفي الثاني من سبتمبر/أيلول عام ١٨٩٨ كانت المواجهة بين جيش الأنصار السوداني بقيادة عبد الله التعايشي خليفة المهدي، وبين القوة البريطانية. وكان مع الثمانية آلاف جندي بريطاني ١٣ ألفاً من المصريين والسودانيين. وكان جيش التعايشي يزيد عن الخمسين ألفاً.

فتح كتشنر على جموع جيش الأنصار المدافع. كانوا يزحفون بملابسهم البيضاء موجة إثر موجة، وكان الإنجليز يعالجون زحوفهم بالمدافع أولاً ثم بالبنادق الرشاشة لمن لم يسقط بالقذائف، ثم بالبنادق يتصيدون بطلقاتها من تبقى. وانجلت هذه المقتلة عن ١٢،٠٠٠ قتيل سوداني، وأكثر منهم من الجرحى، ويخبرنا ونستون تشرشل الشاب، الذي شهد الوقيعة، أن كتشنر نفسه كان يشجع جنوده على الإجهاز على الجرحى، طائفاً بينهم قائلاً «تذكروا غوردون»، الجنرال البريطاني الذي قتله جيش المهدي قبل خمس عشرة سنة. وخسر كتشنر ٤٧ جندياً فقط. ثم إنه نسف ضريح المهدي في أم درمان. ينقل لنا الوصف مع استنكار للفعلة تشرشل نفسه. وقد قيل إن الملكة فكتوريا العجوز بكت عندما علمت بتدنيس مقام المهدي.

حتى بعض الصحف البريطانية استنكرت وحشية كتشنر وجيشه، وصفه أحدهم قائلاً، كتشنر ليس إلا آلة للقتل، ولا بأس بعرضه في المعرض الدولي بباريس مع لافتة تقول آلة القتل في السودان.

فأين كان الضابط حافظ إبراهيم وقتها؟ كان في الخرطوم وعلى رأس عمله. فماذا صنع؟ لا تذكر لنا الكتب شيئاً عن ذلك، ولم أر أحداً اهتم بالأمر أصلاً، بله أن يبحث للشاعر عن مفلص (ألاباي/برهان بالكينونة في مكان آخر).

أنت لا تشهد يوم القيامة بالبيجامة.

وتكملة القصة أن لندن أبرقت لكتشنر بما معناه: ليس ما ابتغيناه الانتقام لمقتل غوردون، الغرض وقف مطامع باريس في السودان. فانطلق كتشنر إلى فاشودة بالسودان حيث دس الفرنسيون مشط قدمهم في الباب. وبعد رفع البنادق ثم التفاوض ورحلت فرنسا عن السودان. ثم نودي بكتشنر أن اذهب إلى الترانسفال بجنوب إفريقيا.. لتصبح بطل حرب البوير. وفعل.

وذكر حافظ إبراهيم في كتابه «ليالي سطيح» بعض ما حدث في السودان. ذكر شيئاً على هامش الهامش، ولكن له دلالة.

لقد سحب البريطانيون من المصريين في الجيش الذخيرة. فغدت البنادق في أيديهم عصياً. فثار الضباط المصريون. واجتمعوا، وقال قائل منهم ـ والنقل الآن حرفي عن حافظ ـ: «أليس من الخطل أن تبقى هكذا الجنود، ونحن في بلد غير آمن، وهذه دماء أعدائنا لا تزال غريضة، وتلك أجسادهم تغدو عليها وتروح عنها جيوش العقبان والرخم، وقد أكل الحقد صدور أهل البقعة، وتغلغل الضغن في نفوسهم».

ويحدثنا حافظ بتطويل ممل عن استدراج الإنجليز للسودانيين في الجيش لمعرفة خبر هذا التمرد، وعن إسكارهم، وعن خيانة ضابط مصري لزملائه، وكيف أن الإنجليز توصلوا إلى قائمة بنحو ثمانين اسماً، ثم لم يريدوا إحداث ضجة فاختاروا منهم بالقرعة ثمانية عشر أحالوهم على الاستيداع وأعادوهم إلى مصر، وكان بينهم شاعرنا.

لا يذكر لنا حافظ، لا شعراً ولا نثراً شيئاً عن مقتلة أم درمان وما تلاها من فظائع. ونحب أن نظن أنه لكسله الشديد لم يضغط على زناد. على أننا، من قليل ما وصلنا من أشعاره في السودان التي كان يبعث بها إلى أصدقائه في مصر، نعرف أن غاية همه كانت تذكر مجالس الخمر في مصر، والشكوى المتصلة من بقائه في السودان، ورغبته الشديدة في العودة إلى مصر. لقد خدم حافظ في حلفا وطوكر وسواكن في السودان. ولكن نصه في «ليالي سطيح» الذي يعتبر الأنصار هم الأعداء صريح.

لقد كانت جموع السودانيين الذين ذبحهم كتشنر من المسلمين، وكان لسانهم عربياً، ولعل حافظ نسي ذلك وهو يكتب الأبيات الجميلة في نصرة الإسلام «سلام على الإسلام بعد محمد/ سلام على أيامه النضرات» وفي نصرة اللغة العربية «أنا البحر في أحشائه الدر كامن».

ثمة هيكل عظمي ههنا في خزانة سوداء أبقاها حافظ، وأبقاها الذين كتبوا عنه الكتب، مقفلة. وكلمة «أعدائنا» الواردة في المقتطف أعلاه من كلام حافظ بليغة في الإشارة إلى أنه وصحبه من الضباط كانوا يعتبرون جيش الأنصار السوداني «العدو».

لحافظ الضابط بضع قطع قصيرة في جندي مليح، إحداها صريحة «ومن عجب أن قلدوك مهنداً/ وفي كل لحظ منك سيف مهند». وهذا مألوف من رجل يحب الجمال وجد نفسه ضابطاً يقترب من الثلاثين وسط جنود، وانقطع عن الإناث زمناً. وفي قصص جيش إسبرطة، وجيوش العباسيين الثغرية حالات كهذه فشت حتى لقد صارت سمة من سمات ذينك المجتمعين.

أعيد حافظ أخيراً إلى مصر، محالاً على الاستيداع، ثم أحيل على المعاش بعد ثلاث سنوات ونصف السنة بناء على طلبه. كان ذلك في سنة ١٩٠٣.

تفرغ حافظ لأستاذه وإمامه محمد عبده مفتي الديار المصرية والقطب الفكري والعملي لحركة الإصلاح. ونهل من علم محمد عبده الغزير، وقيل إن الإمام كان يساعد حافظاً حتى في فهم اللغة الفرنسية التي ألم بها محمد عبده وهو في باريس. ومات الإمام عام ١٩٠٥ فرثاه حافظ بدموع حرى وظل يذكره في شعره فيما بعد. وفي عام ١٩٠٦ نجحت السيدة هانم في تزويج ولدها. لكنه لم يلبث مع زوجته سوى أربعة أشهر، لم يعد بعدها لزواج ولا لغير زواج. يقول أحمد حسن الزيات «ذوى في قلبه حب المرأة» ولا يزيد.

ونحن أيضاً لا نزيد. ولم نر في سيرة الرجل ما يدعم أية تكهنات. غير أننا نريد التنويه بكتاب جيد عن حافظ إبراهيم بقلم السعيد محمود عبد الله، ولندخل إلى التنويه من هذا الباب الذي فتحناه والمتعلق بحقيقة ميول حافظ الجنسية. يعرض المؤلف لما أورده مؤرخ حافظ وصديقه الذي عايشه، أحمد محفوظ، من أن حافظاً انصرف عن تلك الزوجة لأنه لم يشاهدها قبل الزواج، فلم تقع في نفسه موقعاً حسناً، ويدير صفحتين على أن هذا لا يكفي لتبرير انصراف الشاعر عن المرأة كلياً بعد ذلك رغم أنه أصبح موسراً. وينتهي المؤلف إلى القول إن السبب هو ما «مني به من فتور في ميله الغريزي إلى الأنثى».

بعد سنتين من هذا الزواج الفاشل توفيت والدة حافظ، وكانت تعيش معه

في منزل مستقل. فانتقل مرة أخرى للعيش مع زوجة خاله التي رعاها حافظ في شيخوختها، وظلت تقيم معه عشرين سنة حتى ماتت.

ظل حافظ بعد وفاة الإمام، بل حتى في حياته، يغشى مجالس الوجهاء من أبناء الأسر الكبيرة وينال صلاتهم، وله مدائح في أبناء هذه الأسر. وظل ينشر شعره في المحافل، وأصبح ذا صيت. طرقت قصائده في الحرب الروسية اليابانية، وفي الإمام، وفي دنشواي، الآذان، وتندر الناس بأبياته في مجالسهم. ونشر كتاباً استحضر فيه روح الكاهن الجاهلي سطيح، وألقى على لسانه كلاماً عن السودان، كما أسلفنا، وعن دهاء الإنجليز وغطرسة ضباطهم. وهاجم أحمد شوقي في بضع صفحات.

كان في هذه الفترة ينظم الشعر محاولاً الوصول إلى السدة الخديوية، ولكن شوقي كان يسد عليه الطريق، وتقرب حافظ من شوقي، وأقر له في أبيات مفرقة على عدة قصائد بالسبق، ونشأت بين الرجلين علاقة طيبة. لكن شوقي ظل حتى النهاية ينزعج كلما قرن الناس اسمه باسم حافظ، فهو شاعر مصر الأوحد. قالها كذا مرة في شعره.

فرض حافظ وجوده بأشعاره الرنانة التي كانت تزداد رنيناً عندما يلقيها في حفلات التهنئة ومحافل التأبين الكثيرة التي كانت تلتقي فيها قصيدة حافظ مع قصيدة شوقي ملقاة على لسان آخر، فشوقي لا يحسن الإلقاء.

ظل حافظ يسترضي الإنجليز بأشعار «ماتت الملكة عاش الملك» ثم بقصيدة سيئة الصيت في وداع المعتمد البريطاني اللورد كرومر في أعقاب حادثة دنشواي. كان شوقي أيامئذ وطنياً، في تصنيف من يعشقون التصنيف، لكنه كان وطنياً من النافذة لا من الباب. فهو شاعر الخديوي عباس حلمي، في وقت كانت العلاقة فيه بين عابدين (قصر الخديوي) والدوبارة (قصر المعتمد البريطاني) متوترة. وكان حافظ أيامئذ حائراً بين مجالس العائلات ذوات الأطيان، وبين مصانعة الإنجليز، ومحاولة التقرب من السدة الخديوية، ومدح السلطان عبد الحميد، ثم الترحيب بعزله، وبين مدح الشوام الذين كان يسيطرون على الصحافة، ورثاء كبرائهم.

وفي أثناء هذا كله كان حافظ يقول شعراً يتوجع فيه للأيتام، ولضحايا الحريق في مصر والزلزال في إيطاليا، ويرى شوقي يرثي تولستوي فلا يقصر، فيرثي تولستوي. ومثلما كان يصانع الإنجليز كان يهاجم احتلالهم للبلاد.

وأخيراً انفتح له باب السماء. عينه وزير المعارف أحمد حشمت رئيساً للقسم الأدبي بدار الكتب. فعرف حافظ نعمة المرتب الجيد. وعاش عشرين سنة ممسكاً بالمرتب بكلتا يديه. ليس أنه كان موظفاً حسن الدوام والانضباط.. بهذا لا يكون حافظ حافظاً. كان شاعرنا يقضي ساعات الدوام على مقهى الكتبخانة. ويطل بين الحين والآخر على دار الكتب ليتحادث مع زملائه، وكان جل حديثهم عن العلاوات والتعيينات وما إلى ذلك من أحاديث الموظفين. من سنة ١٩١١ حتى خروجه من الوظيفة (أو «إخراجه» منها على يد حكومة إسماعيل صدقي/والعهدة في «الإخراج» على أحمد حسن الزيات) عام ١٩٣٢ ظل حافظ شاعراً موظفاً. يمدح بحساب ويرثي بغير حساب، فإن قال شعراً وطنياً فهو مقيس بمقياس الاعتدال والعمومية «وبناة الأهرام في سالف الدهر كفوني الكلام عند التحدي». وقامت الحرب العالمية الأولى فأنب حافظ الألمان على إضرام نارها، وانتهت الحرب، فلم يجد حافظ من يستحق الرثاء أو المدح فمدح عمر بن الخطاب في ملحمة طويلة. وقامت ثورة ١٩١٩ في مصر، فقال حافظ شعراً وطنياً لم ينشره، لكنه انتشر بين الناس. وعاد شوقي من منفاه فحياه حافظ، وتوطد الود بين الشاعرين على قاعدة قبول حافظ أن يكون ثاني اثنين، مع أن شوقي المجلي ظل يرى نفسه الأوحد ولا ثاني له.

جمع الشاعرين مجلس سعد زغلول الذي جمع الأمة حوله، وعندما أقام سعد لشوقي حفل مبايعة بإمارة الشعر جاء حافظ مبايعاً. وبعدها بقليل، وفي العام نفسه ١٩٢٧، مات سعد زغلول فرثاه كل شعراء مصر وغير مصر.

كان من محاسن حافظ في هذه الفترة، وفي كل حياته، أنه ظل يسأل: لماذا لا نتقدم مثلما تقدمت أوروبا؟ لماذا لا نتعلم، ولماذا لا نتقن صناعاتنا، ولماذا لا تكون لنا أخلاق كأخلاقهم؟ كانت هذه الأسئلة التي يطرحها حافظ ـ رغم أنه لم تتوفر لها إجابات لا على لسانه، ولا في سلوكه الشخصي البوهيمي ـ الأسئلة الوجودية الحقيقية.

كان جواب طه حسين على مثل هذه الأسئلة حث الأمة المصرية على أن تكون جزءاً من أوروبا. وكانت إجابات بعض أصحابه الدستوريين تتمثل في اطِّراح الفصحى، وفي التخفف من التدين ـ على الأقل كانت هذه نصيحة اللورد كرومر قبل انصرافه ـ. ولكن الكل كان يجمع على ضرورة التعلم. واحتلفت

مصر بفتح جامعة، وظل حافظ متعجباً من ذلك النشاط عند الشوام، في مقابل ما ظنه خمولاً عند المصريين.

لقد كانت مصر وما زالت ـ ونكتب في ثاني يناير/كانون الثاني عام ٢٠١٧ ـ القاطرة في العالم العربي. لكنها قاطرة عتيقة تقطر عربات أعتق منها.

حملت مصر عن بغداد الراية بسقوط بغداد، وحتى قبل سقوطها، فالفاطميون كانت لهم خلافة بجانب الخليفة في بغداد، وكانوا يحكمون مصر وبعض الشام ولهم في المغارب وجود قوي وجذور. وحكم الأيوبيون مصر والشام، ومثلهم المماليك. ثم لما انضوى العرب تحت جناح الدولة العثمانية، خفت صوتهم وتبددت قيادتهم. لكن مصر كانت أول من رفع رأسه، فكان عهد محمد علي نهضة كبرى بلغ من قوتها أن جيشه هدد إستانبول، بعد أن سحق الجيش العثماني في قونية، ١٨٣٢، مما اضطر السلطان العثماني إلى الاستنجاد بقيصر روسيا لحماية عاصمته. وتدخلت القوى الأوروبية، وانكمش محمد علي، لكنه ظل يسيطر على مصر، وبعض الشام وبعض الحجاز، والسودان.

وكان الاحتلال الإنجليزي، ١٨٨٢، وقبله كان شق قناة السويس، وشهد عصر شاعرنا تململاً مصرياً متصاعداً وسعياً إلى الاستقلال الحقيقي. ونالته مصر، وظلت تقود الأمة العربية في عهد عبد الناصر. وظلت نهضتها الاقتصادية اللحاقية ـ نسبة لشهوة اللحاق بأوروبا ـ أشواقاً.

ومصر اليوم ما تزال الكبرى عددَ سكانٍ، وهي رائدة الفن السينمائي وفنون الموسيقى وما زالت في الطليعة. إلا أنها ما تزال تبحث عن جواب السؤال: كيف نلحق بأوروبا؟ ومثلما كان لهذه المعضلة أثر في نفسية حافظ إبراهيم، فلها أثر في الشخصية المصرية اليوم.

ترى الممثل السوري أو التونسي لا يكاد ينزل مصر حتى يكتشف أن عليه أولاً أن يقدم فروض الولاء اللساني. فيقول للمذيعة إن مصر أم الدنيا، وبقية هذا الموشح.

لقد تعمقت المعضلة المصرية باكتشاف النفط في دول الخليج، وبالتراجع في نمو الاقتصاد المصري. ظلت مصر القاطرة، ليس أنها قاطرة حديثة، ولكن لأن ما سواها لا يملك العمق الثقافي كي يقود. وكانت الحقبة السعودية (والتعبير لمحمد حسنين هيكل) حقبة سياسية فارغة من المحتوى النهضوي، والفكري.

نكتب هذا لما وجدناه من طرافة في التشابه بين مشاعر حافظ إبراهيم ومشاعر كثير من المصريين اليوم. فثمة أزمة نفسية عند مثقفي مصر، تلخصها عبارة «أم الدنيا». فكل نقد أو حتى تحليل يصدر عن عربي آخر محمول على الحسد. والبلوى أن بعض العرب الآخرين أصابتهم أزمة نفسية معاكسة فهم يضعون مسألة التصدر المصري موضع الشك، وموضع النفي. ثم تتدفق أنهار التلاسن فالتشاتم. هل أنت ممن يعاقر الإنترنت؟ إذن لا حاجة بي لسرد المزيد.

غير أني أقول إن العمق التاريخي لمصر بوصفها القاطرة ذخر لا يملكه بنفس القدر أي بلد عربي آخر، والفرشة الاجتماعية الواسعة والخصبة في مصر منبع للفن والأدب، والتنوع الفكري في مصر ـ حتى عندما تمر في مخاض سياسي صعب ـ أمر لا يوجد في بلد عربي آخر.

هي رب الأسرة العربية، ورب الأسرة مريض نفسياً، وجسدياً. شفاه الله. وما يستر عليه أن أهل البيت كلهم مرضى، فإن كان في جيوب بعضهم دراهم كثيرة فهي دراهم ملوثة بالزيت والزفت. ولم أجد دراهم الزيت والزفت قد عادت على أهلها بعلم ولا بحضارة، لا بل هي اجتذبت غفيراً من البلاد الفقيرة لكي يتشوهوا بالكاش. هذه حال دول الفقر العربية مع دول الخليج الغنية، يأتي الرجال والنساء من دول الفقر إلى دول الخليج، ويعيشون كما يعيش الناس في معسكر عمل. وفيها يفقد أولادهم وبناتهم الحس الحضاري ويستعيضون عنه حساً استهلاكياً سمسرياً، ويعودون إلى بلاد الفقر ليشكلوا طبقة وسطى غير منتجة.

هذا كلام لا يعيدنا إلى شاعرنا بأي قدر من السهولة. لكن ربما استطعنا العودة.. بصعوبة. هو كلام ككلام شاعرنا.. كلام شخص محبط من حالة عربية فظيعة. بين عشية وضحاها انتقلت دول عربية عديدة من حال الاستقرار الخامل إلى حال الحرب الأهلية، والآفاق ملبدة بغيوم سود.

عاش حافظ إبراهيم حياته وبلاده تبحث عن نفسها، فقد رأى، وهو بعد طفل، الإنجليز يحتلون البلد ومات ولما تقلع مصر ذلك المسمار. وظل يحلم بأن تصبح مصر كاليابان. نحن الآن نحلم بأن تعود البلاد العربية عشر سنوات إلى الوراء.. إلى ذلك الاستقرار الخامل.

ها هي أشعار حافظ إبراهيم مرتبة القديم فالأحدث.

١ المعجز الثاني

تقريظ كتاب «فحول البلاغة» لمؤلفه السيد توفيق البكري، نشر البيتان في (١٨٩٥):

هـذا كـتـابٌ مُـذْ بـدا سِـرُّهُ   لِـلـنـاسِ قـالـوا: مُـعْـجِـزٌ ثـانِ

منذ أن نشر كتابك ولم يعد سراً قال الناس هذا معجز ثانٍ بعد القرآن

أثَـابَـكَ الـلَّـهُ عـلـى جـمـعِـه   ثَـوابَ عُـثـمـانَ بـنِ عَـفَّـانِ

جزاك الله خيراً كجزاء عثمان الذي جمع القرآن

٢ استعطاف

كتب يستعطف محمد سليمان أباظة:

طالَ الحديثُ عليكُمْ أيُّها السَّمَرُ   ولاحَ لِلنومِ في أَجفانِكُمْ أثَرُ

السمر: السامرون

وذلكَ الليلُ قد ضاعتْ رَواحِلُهُ   فليسَ يُرجَى لهُ مِن بعدِها سَفَرُ

ضاعت رواحل، نياق، الليل فليس يرحل عنا فهو مقيم

هذي مضاجِعُكُمْ يا قومُ فالتَقِطُوا   طِيبَ الكَرى بِعُيونٍ شَابَها السَّهَرُ

التسويد من الشاعر عمران القفيني

أَبيتُ أَسألُ نفسي كيفَ قَاطَعَني   هذا الصديقُ ومَا لي عنهُ مُصْطَبَرُ

فمَا مُطَوَّقَةٌ قد نالَها شَرَكٌ   عندَ الغُروبِ إليهِ سَاقَها القَدَرُ..

ليست الحمامة المطوقة، التي كأن ريشها عند العنق طوق، وقعت في الشرك، الشبكة، عند الغروب..

بَاتَتْ تُجاهِدُ هَمّاً وَهيَ آيِسَةٌ   مِن النَّجَاةِ وجُنْحُ الليلِ مُعتَكِرُ..

وبَات زُغْلُولُها في وَكْرِهَا فَزِعاً   مُرَوَّعاً لِرجوعِ الأُمِّ يَنتَظِرُ..

يُحَفِّزُ الخوفُ أَحشَاهُ وتُزْعِجُهُ   إذا سَرَتْ نَسْمَةٌ أو وَسْوَسَ الشَّجَرُ..

يحرك الخوف أحشاء الزغلول، أي صغير الحمام، ويزعجه أي صوت في غياب أمه

مِنّي بِأَسْوَأَ حَالاً حين قَاطَعني   هذا الصديقُ، فَهَلّا كانَ يَدَّكِرُ؟

صغير الحمام ليس أسوأ حالاً مني عندما قاطعني هذا الصديق، فهلا تذكر صديقي صحبتنا فعدل عما أتى به؟

يا ابنَ الكِرامِ أَتَنْسَى أَنّني رَجُلٌ   لِظِلِّ جاهِكَ بعدَ اللهِ مُفْتَقِرُ
إنّي فَتاكَ فلا تَقْطَعْ مُواصَلَتي   هَبْني جَنيْتُ، فقُلْ لي كيفَ أَعْتَذِرُ؟

٣ أدرِكْ فَتاك

تهنئة الإمام الشيخ محمد عبده بمنصب الإفتاء ١٨٩٩، وبعث بالأبيات من السودان:

تبسَّمَ المصطفى في قبرِه جَذَلاً   لما سمَوْتَ إليها وَهْيَ مِعطالُ

تبسم النبي فرَحاً في قبره لما سموت وارتفعت إلى وظيفة الإفتاء، وكانت معطالاً، غير متزيِّنة بالحُلِيّ

يا مَن تيمَّنَتِ الفُتْيا بِطلعتِه   أدرِكْ فَتاكَ فقد ضاقتْ به الحالُ

يا من تيمنت، تفاءلت، وظيفة الفتيا بطلعته، محيَّاه، الحقْ فتاك فهو في ضيق، وحالته، وهو ضابط بالسودان، صعبة

٤ جيش الأقداح

وفِتيانِ أُنْسٍ أَقسَموا أن يُبدِّدُوا   جيوشَ الدجى ما بينَ أُنسٍ وأَفراحِ
فَهَبُّوا إلى خمَّارَةٍ قيلَ إنَّها   قَعيدةُ خَمْرٍ تَمزُجُ الرُّوحَ بِالراحِ

الخمارة: صاحبة الحانة

وقالوا لها: إنَّا أَتَيْنا على ظَما   نُحاولُ وِرْدَ الراحِ رَغْماً عن اللَّاحي

جئنا عطشانين نحاول ورود الخمر رغم اللاحي، الموبِّخ

فقامتْ وفي أجفانِها كَسَلُ الكَرى   وفي رِدْفِها، واسْتعرَضَتْ جيشَ أقداحِ

٥ عكوف

ذكرى مجلس شراب، بعث بها من السودان لأصحابه بمصر:

رُبَّ ليلٍ قد تعاهَدْنا على   ما تعاهَدْنا، وكُنَّا فاعلينْ
فقضَيناهُ، ولم نحفِلْ بما   سطَّرَتْ أيدي الكرامِ الكاتبينْ

الكرام الكاتبون: ملائكة تسجل كل ما يفعل الإنسان

وتواثَبْنا إلى مَشمولةٍ   ذاتِ ألوانٍ تَسُرُّ النَّاظِرينْ
عمَدَ الساقي لِأَنْ يقتُلَها   وَهْيَ بِكْرٌ أُحْصِنَتْ منذُ سنينْ

قتْل الخمر يكون بمزجها بالماء، وهي بكر أحصنت، وكانت مصونة، لم تمسها يد، منذ عُصرت

ثـم لَـمَّـا أنْ رأى عِـفَّـتَـهـا   خافَ فيها اللَّهَ ربَّ العالمينْ
وأَجَلْنا الكأسَ فيما بيننا   وعلى الصَّهباءِ بِتْنا عاكِفينْ

٦ القطيعة

يعاتب محمد البابلي، نشرت (١٩٠٠):

أخـي واللهِ قـد مُـلِـئَ الـوِطـابُ   وداخَـلَـنـي بِـصُـحـبَـتِـكَ ارتـيـابُ

ملئ الوطاب، امتلأ الوعاء وفاض بي ومللت منك، وصرت مرتاباً بصداقتك

رجـوْتُـكَ مـرَّةً وعَـتـبْـتُ أخـرى   فـلا أجـدَى الـرجـاءُ ولا الـعِـتـابُ
نـبـذْتَ مـودَّتـي، فـاهْـنَـأْ بِـبُـعـدي   فـآخِـرُ عـهـدِنـا هـذا الـكـتـابُ

٧ أضرحة الأولياء

أَحـيـاؤُنـا لا يُـرْزَقُـونَ بِـدِرهَـمٍ   وبـألـفِ ألـفٍ تُـرزَقُ الأمـواتُ

عند قبور الأولياء صناديق يضع فيها الناس الدراهم

مَن لي بِحَظِّ النائِمينَ بِحُفْرةٍ   قَامتْ على أَحْجارِها الصَّلَواتُ
يَسعَى الأنامُ لَها، ويَجري حَوْلَها   بَحرُ النُّذُورِ، وتُقْرَأُ الآياتُ

٨ قَلَماً لو سمحت!

مدح محمود سامي البارودي، أكتوبر/تشرين الأول (١٩٠٠):

أَعِرْني لِمَدحِكَ اليَراعَ الذي به   تخُطُّ، وأَقْرِضْني القريضَ المُسَدَّدا

اليراع: القلم

سَلَبْتَ بحارَ الأرضِ دُرَّ كنوزِها   فأمستْ بحارُ الشِّعرِ للدُّرِّ مَوردا

الدر: اللؤلؤ. المعنى الملموح: كأنك ـ بإحيائك الشعر وإعادته إلى رونقه القديم ـ جعلت كل لآلئ البحار موجودة في الشعر، فصارت «بحور» الشعر مصدر اللؤلؤ

٩ البدلة القديمة.. والجديدة

يصف كساء له، نشرت (١٩٠٠):

لـي كِـسـاءٌ أَنْـعِـمْ بـه مِـن كِـسـاءِ   أَنـا فـيـهِ أَتـيـهُ مِـثـلَ الـكِـسـائـي

الكسائي: من نحاة الكوفة، ومشاهير القراء

صَحِبَتْني قبل اصطحابِكَ دَهراً بَـدْلَـةٌ فـي تَـلَـوُّنِ الـحِـربـاءِ

كانت بدلته السابقة تتغير ألوانها فتبهت لتعرضها للشمس والمطر فهي كالحرباء

نَـسَـبـوهـا لِطَـيْـلَـسـانِ ابـنِ حَـرْبِ نِـسـبَـةً لـم تَـكُـنْ بِـذاتِ افـتـراءِ

طيلسان ابن حرب: كساء حباه ابنُ حرب للشاعر الحمدوي، وظل يعيره به حتى بعد أن اهترأ الكساء شر اهتراء، وكُتبت في هذه الكساء أشعار كثيرة

كَـسَـفَ الـدهـرُ لـونَـهـا واسـتـعـارتْ لَـونَ وجـهِ الـكَـذوبِ عـنـدَ الـلِّـقـاءِ

يـا رِدائـي جـعـلـتَـنـي عـنـد قَـومـي فـوق مـا أَشـتَـهـي وفـوق الـرَّجـاءِ

قـيـمـةُ الـمـرءِ عـنـدَهُـمْ بـيـن ثَـوبِ بَـاهِـرٍ لَـونُـهُ وبـيـن حِـذاءِ

قَـعَـدَ الـفـضـلُ بـي، وقُـمْـتَ بِـعِـزِّي بـينَ صَحْـبـي، جُـزِيـتَ خيرَ الجَزاءِ

١٠ الذنب للقدماء

عام (١٩٠٠):

هـذا الـظـلامُ أثـارَ كـامِـنَ دائـي يـا سَـاقِـيَـيَّ عـلـيَّ بـالـصَّـهْـبـاءِ

مَشْمُولَةً لـولا الـتُّـقَـى لَـعَـجِـبْـتُ مِـن تـحـريـمِـهـا، والـذَّنْـبُ لِـلـقُـدمـاءِ..

لولا أنني تقي لتعجبت كيف أن الله حرم الخمر، والذنب في تحريمها للقدماء..

قَرِبُوا الصَّلاةَ وهُمْ سُكارَى بَعدَما نـزلَ الـكـتـابُ بِـحِـكْـمَـةٍ وجَـلاءِ

فقد قربوا الصلاة سكارى بعد أن قال لهم القرآن «ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى» فحرم الله الخمر تحريماً كاملاً

يـا طِـبَّ جَـالـيـنـوسَ فـي أنـواعِـهِ مـا لـي أراكِ كـثـيـرةَ الأعـداءِ

أيتها الخمرة.. يا طب جالينوس، لماذا يجورون عليك كثيراً..

عَصَرُوكِ مِنْ خَدَّيْ سُهَيْلٍ خُلْسَةً ثـم اخْـتَـبَـأْتِ بِـمُـهْـجَـةِ الـظَّـلْـمَـاءِ

عصروك من خدي نجم سهيل، وهو نجم لامع محمر، ثم عتَّقوك في قلب الظلام

فَـلَـبِـثْـتِ فـيـهـا قـبـلَ نـوحِ حِـقـبَـةً وتَـداوَلَـتْـكِ أَنـامِـلُ الآنـاءِ

فبقيت في قلب الظلام زمناً سبق نوح، وتداولتك أصابع الآناء، العصور

حـتـى أتـاحَ الـلَّـهُ أن تَـتَـجَـمَّـلـي بِـيَـدِ الـكـريـمِ ورَاحَـةِ الأُدبـاءِ

حتى أذن الله أن تظهري بهية في يد الكريم وفي أكف الأدباء

١١ الكاس والطاس

بعث حافظ بهذه الأبيات إلى الكاتب محمد المويلحي (١٩٠٠):

أَوْشَكَ الديكُ أن يَصيحَ، ونَفسي ... بيـن هَـمٍّ وبيـن ظَـنٍّ وحَـدْسِ
يا غُلامُ. . المدامَ والكاسَ والطَّا ... سَ، وهَـيِّءْ لنا مَكاناً كأمْسِ
أَطْلِقِ الشمسَ مِن غَياهِبِ هذا الدَّ ... نِّ، وامْلأْ مِن ذلكَ النُّورِ كأسي
خَمْرَةٌ قيلَ إِنَّهُمْ عَصَرُوها ... مِن خُدُودِ المِلاحِ في يومِ عُرْسِ

١٢ اليأس

نشرت في ديسمبر/ كانون الأول (١٩٠٠):

سَعَيْتُ إلى أن كِدْتُ أَنْتَعِلُ الدَّما ... وعُدْتُ وما أُعْقِبْتُ إلَّا التَّنَدُّما

أنتعل الدم: ألبس الدم كأنه نعل

لَحَى اللَّهُ عهدَ القَاسِطِينَ الذي به ... تَهَدَّمَ مِن بُنيانِنا ما تَهَدَّما

القاسطين: الظالمين

إذا شئتَ أن تَلقَى السَّعادةَ بينَهُمْ ... فلا تَكُ مِصرياً ولا تَكُ مُسلِما
سلامٌ على الدنيا سَلامَ مُوَدِّعٍ ... رأى في ظلامِ القبرِ أُنساً ومَغْنَما

أَضَرَّتْ به الأُولى فَهامَ بِأُختِها ... فإن ساءتِ الأخرى فويْلاهُ منهُما

الأولى: الدنيا، الأخرى: الآخرة

فَهُبِّي رِياحَ الموتِ نُكْباً وأَطْفِئي ... سِراجَ حياتِي قبلَ أن يَتَحَطَّما

نُكباً: آتيةً من كل الجهات

فما عَصَمَتْني مِن زَماني فَضائِلي ... ولكنْ رأيتُ الموتَ لِلحُرِّ أَعْصَما

أعصم: أكثر حماية

فيا قَلْبُ لا تَجزَعْ إذا عَضَّكَ الأَسى ... فإنَّكَ بعدَ اليومِ لن تَتألَّمَا

ويا قَدَمي ما سِرْتِ بي لِمَذَلَّةٍ ... ولم تَرتَقي إلَّا إلى العِزِّ سُلَّما
فلا تُبْطِئي سَيراً إلى الموتِ، واعْلَمي ... بأنَّ كريمَ القومِ مَنْ مَاتَ مُكْرَما
ويا نَفْسُ كم جَشَّمْتُكِ الصبرَ والرِّضا ... وجَشَّمْتِني أنْ أَلْبَسَ المجدَ مُعْلَما

معلماً: متخذاً شارة الحرب، وكان الفارس البطل يميز نفسه بعلامة

فما اسْطَعْتِ أنْ تَستَمْرِئي مُرَّ طَعْمِه   وما اسْطَعْتُ بينَ القومِ أنْ أَتَقَدَّما
فهذا فِراقٌ بينَنا فتجَمَّلي   فإنَّ الرَّدى أحلى مَذاقاً ومَطْعَما
ويا قَبْرُ لا تبخلْ بِرَدِّ تَحيةٍ   على صاحبٍ أَوْفَى علينا وَسَلَّمَا

يريد أن يكون قبره كريماً فيرد التحية على من يزوره!

١٣ الإخفاق بعد الكدّ

نشرت (١٩٠٠):

كم هِمْتُ في البيدِ والآرامُ قَائِلَةٌ   والشمسُ تَرمي أَديمَ الأرضِ بِاللَّهَبِ

همت على وجهي كثيراً في الصحارى والآرام، الظباء، قائلة، غافية في قيلولة، والشمس ملتهبة

وكم لَبِسْتُ الدُّجى والتُّرْبُ نَاعِسَةٌ   والليلُ أَهْدَأُ مِنْ جَأْشي لدى النُّوَبِ

كم قد لبست ثوب الظلام والتراب ناعس مرطب بالندى، والليل أهدأ من جأشي، قلبي، لدي حلول المصائب

والنجمُ يَعجَبُ مِن أمري ويَحْسَبُني   لَدى السُّرَى ثامناً للسَّبْعَةِ الشُّهُبِ
لكنَّني غيرُ مَجْدُودٍ، وما فَتِئَتْ   يدُ المقاديرِ تُقْصيني عن الأَرَبِ

غير مجدود: غير محظوظ

فقد غَدَتْ مصرُ في حالٍ إذا ذُكِرَتْ   جادتْ جُفوني لها باللُّؤلُؤِ الرَّطِبِ
إذا نَطَقْتُ فقاعُ السِّجْنِ مُتَّكَأٌ   وإنْ سَكَتُّ فإنَّ النفسَ لم تَطِبِ

قاع السجن: كان السجن في الزمن القديم حفرة عميقة، كتلك التي سجن عمر بن الخطاب فيها الحطيئة، (ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة، فاغفر عليك سلام الله يا عمر)

أَيَشتكي الفَقرَ غَادِينا ورائِحُنا   ونحن نَمشي على أرضٍ مِن الذهبِ؟

١٤ الأيام دول

نشرت في يونيو/حزيران (١٩٠٢):

لم يبقَ شيءٌ مِن الدنيا بأَيْدينا   إلَّا بقيَّةَ دمعٍ في مآقينا
كنَّا قِلادَةَ جيدِ الدهرِ فانْفَرَطَتْ   وفي يمينِ العُلا كنَّا رياحينا
كانتْ منازِلُنا في العزِّ شامِخَةً   لا تُشرِقُ الشمسُ إلَّا في مَغانينا

كأنه يريد أن يقول إن الشمس لم تكن تشرق إلا على بلد تحكمه مصر الفرعونية، وفي هذا الكلام نظر، ولكن بما أن الإنجليز كانوا في وقتها كذلك.. فلا أحد أحسن من أحد

حتى غَدَوْنا ولا جَاهٌ ولا نَشَبٌ   ولا صديقٌ ولا خِلٌّ يُواسِينا

النشب: المال

١٥ الملك الساهر

تهنئة إدوارد السابع البريطاني بتتويجه، أغسطس/ آب (١٩٠٢):

لا تَعجَبَنَّ لِمُلْكٍ عزَّ جانبُه   لولا التعاونُ لم تَنظُرْ له أثرا

ما ثَلَّ ربُّكَ عرشاً باتَ يحرُسُه   عدلٌ، ولا مَدَّ في سلطانِ مَنْ غَدَرا

ثلَّ: هدم

خَبِرْتُهُمْ فرأيتُ القومَ قد سهِرُوا   على مرافِقِهِمْ، والمَلْكُ قد سهِرا

الإنجليز حرصوا على مصالحهم، وملكهم حرص أيضاً

تشاوَرُوا في أمور المُلْكِ مِن مَلِكٍ   إلى وزيرٍ إلى مَن يَغرِسُ الشَّجرا

وكلهم في الشورى مشتركون حتى البستاني، يشير بإعجاب إلى الديمقراطية في بريطانيا

١٦ أنا البحر

اللغة العربية تشكو حظها بين أهلها، نشرت (١٩٠٣):

رجَعتُ لِنفسي فاتَّهَمْتُ حَصاتي   ونَاديتُ قَومي فاحتَسَبْتُ حياتي

رجعت لنفسي - تقول اللغة العربية - فاتهمت حصاتي، أي عقلي، وناديت قومي لنصرتي فلم يتحركوا لي، فاحتسبت أجري عند الله في حياتي التي ستنقضي.. إذ ها هم أهلي يتركونني أموت

رَمَوْني بِعُقْمٍ في الشبابِ، ولَيْتَني   عَقِمْتُ فلم أَجزَعْ لِقولِ عُداتي

أنا شابة فهل ترمى الفتاة الشابة بالعقم.. وليتني كنت عقيماً حقاً فلا أكترث لرميي بالعقم لأنه عندئذ حقيقة لا مجرد اتهام

وَلَدْتُ، ولَمَّا لم أجِدْ لِعَرائِسي   رجالاً وأَكْفاءً وَأَدْتُ بناتي

على أنني ولدت فعلاً.. فلست عقيماً، ولدت ألفاظاً حساناً وأدباً جليلاً.. ولما وجدت قومي غير أكفاء لبناتي العرائس وأدتهن

وَسِعْتُ كتابَ اللهِ لفظاً وغايةً   وما ضِقْتُ عن آيٍ به وعِظاتِ

كل ما في القرآن من لفظ ومن غرض في هداية الناس ومن عظات قد وسعتُه وعبرت عنه، أنا اللغة العربية

فكيفَ أَضيقُ اليومَ عن وصفِ آلةٍ وتنسيقِ أسماءٍ لِمُخْتَرَعاتِ

وقد «نسق» حافظ إبراهيم وزميله خليل مطران أسماء كثيرة لمفاهيم في علم الاقتصاد عندما ترجما كتاب «الموجز في علم الاقتصاد» ونشر عام ١٩١٣، مثال ذلك تعريبهما للبورصة بـ «المَصْفَق».. أي حيث تتم الصفقات، ولعمري لو درج هذا الاسم للبورصة لكان حلواً، وكم من رجل صفقته البورصة صفقات مؤلمة على حر وجهه

أنا البحرُ في أَحشائِهِ الدُّرُّ كامِنٌ فهل سَأَلُوا الغَوَّاصَ عن صَدَفاتي

إن كنت سمعت البرنامج الإذاعي «لغتنا الجميلة» لفاروق شوشة، وفي مقدمة كل حلقة هذا البيت مقروءاً بـ «ساءلوا» بدل «سألوا»، فهذا جائز في العروض أيضاً، ونظن أن حافظاً كان سيأخذ بهذه القراءة لو سمعها، ففيها مَدٌّ كان سيعجب حافظاً الخطيب المنشد. لكن «سألوا» أحسن للمعنى، فالعرب أهملوا لغتهم ولم يكلفوا أنفسهم عناء سؤال الغواص عن دررها ولو مرة واحدة، لا مساءلته مرة بعد مرة

فيا وَيْحَكُمْ أَبْلَى، وتَبْلَى مَحاسِني ومِنكُمْ، وإنْ عَزَّ الدَّواءُ، أُسَاتي

أساتي: أطبائي

فلا تَكِلُوني لِلزَّمانِ فإنَّني أخافُ عليكُمْ أن تَحينَ وَفاتي

تكلوني للزمان: تتركوني، وتوكِّلوا بي الزمان

أَرى لِرجالِ الغَرْبِ عِزّاً ومَنْعَةً وكم عَزَّ أقوامٌ بِعِزِّ لُغاتِ

أَتَوْا أَهْلَهُمْ بِالمعجزاتِ تَفَنُّناً فيا لَيتَكُمْ تأتونَ بِالكلماتِ

أَيُطرِبُكُمْ مِن جانِبِ الغربِ نَاعِبٌ يُنادي بِوَأْدِي في ربيعِ حياتي

في تلك السنين اشتدت الدعوة إلى العامية، وقال بها عدد من المستشرقين الذين رأوا لهجات البلدان العربية مختلفة جداً، ورأوها سائرة في طريق التبلور إلى لغات

أرى كلَّ يومٍ بالجرائدِ مَزْلَقاً مِن القبرِ يُدنيني بِغيرِ أَناةِ

وأَسمَعُ لِلكُتَّابِ في مصرَ ضَجَّةً فَأَعلَمُ أنَّ الصَّائِحينَ نُعاتي

كان من بين الدعاة إلى العامية عدد من كتاب مصر أيضاً، وكان هناك من يدعون إلى تبسيط اللغة، ونبذ الألفاظ المماتة

أَيَهْجُرُني قومي ـ عفا اللهُ عنهُمُ ـ إلى لُغَةٍ لم تَتَّصِلْ بِرُواةِ

سَرَتْ لُوثَةُ الإِفْرَنْجِ فيها كما سَرى لُعابُ الأفاعي في مَسيلِ فُراتِ

سرت لوثة، جنون، الإفرنج الداعين إلى التجديد والعامية في هذه «اللغة» العربية المجددة التي لم تتصل برواة، لم ترد على ألسنة قدامى الرواة، مثلما يسري سم الأفاعي في مجرى ماء فرات، عذب

فجاءتْ كثوبٍ ضمَّ سبعينَ رُقعَةً مُشكَّلَةَ الألوانِ مُختلِفاتِ

اللغة المجددة كالثوب المرقع.. فهي مشحونة بالكلمات الأجنبية، أو غير المقبولة معجمياً

١٧ بشكل عام.. لا شيء

قال في زواج الشيخ علي يوسف صاحب «المؤيد» من صفية السادات ومحاولة والدها التفريق بينهما لعدم الكفاءة، فالشيخ جورنالجي و«السادات» عائلة تزعم أنها من نسل الحسين، وتكملة القصة أن صفية عادت إلى زوجها ورضي أبوها بعد تحايل ووسائط، ولم يقل حافظ رأياً صريحاً جريئاً بل حام حول الموضوع، نشرت القصيدة في سبتمبر/ أيلول (١٩٠٤):

فما أنتِ يا مِصرُ دارَ الأديبِ ولا أنتِ بالبلدِ الطَّيِّبِ

وكم فيكِ يا مصرُ مِن كاتبٍ أَقالَ اليَراعَ ولم يَكْتُبِ

وكم غَضِبَ الناسُ مِنْ قبلِنا لِسَلْبِ الحقوقِ، ولم نَغضبِ

أَنابِتَةَ العَصرِ إنَّ الغَريبَ مُجِدٌّ بِمِصْرَ، فَلا تَلْعَبي

نابتة العصر: النشء الجديد

يقولونَ: في النَّشْءِ خيرٌ لنا ولَلنَّشْءُ شَرٌّ مِنَ الأَجنبي

وكم ذا بِمِصْرَ مِنَ المُضْحِكاتِ كما قال فيها أبو الطَّيِّبِ

أمورٌ تَمُرُّ وعيشٌ يُمِرُّ ونحنُ مِن اللَّهْوِ في مَلْعَبِ

عيش يُمِرّ: يصبح مُرّاً

وشَعبٌ يَفِرُّ مِن الصَّالحاتِ فِرارَ السَّليمِ مِن الأَجْرَبِ

وصُحْفٌ تَطِنُّ طَنينَ الذُّبابِ وأخرى تَشُنُّ على الأقربِ

وهذا يلوذُ بقصرِ الأميرِ ويَدعُو إلى ظِلِّهِ الأَرْحَبِ

وهذا يلوذُ بقصرِ السفيرِ ويُطْنِبُ في وِرْدِهِ الأَعذَبِ

أَلِفْنا الخُمولَ ويا لَيْتَنا أَلِفْنا الخُمولَ ولم نَكْذِبِ

١٨ أمنية

يهنئ الخديوي عباساً الثاني بالعام الهجري مارس/ آذار (١٩٠٤):

أَمَولايَ إنَّ الشرقَ قد لاحَ نَجْمُهُ وآنَ له بعدَ المماتِ نُشورُ

لاح نجمه: بدا في أفقه نجم السعد، والحظ الطيب، والنشور: البعث بعد الموت

جرَتْ أمَّةُ اليابانِ شَوْطاً إلى العُلا ومصرُ على آثارِها ستسيرُ

١٩ أنا يابانية

نشرت في أبريل/ نيسان (١٩٠٤):

لا تَلُمْ كَفِّي إذا السيفُ نَبا صَحَّ مِنِّي العزمُ، والدهرُ أبى

لا تلمني إذا نبا سيفي ولم يقطع، أي فشلتُ في الحياة.. فلقد صحَّحتُ العزم، ولكن الدهر أبى أن يسعفني بالحظ.. كان حافظ قد ترك الجيش قبل سنة من تاريخ هذه القصيدة، وعاد إلى حياة لا تخلو من تشرد

رُبَّ ساعٍ مبصِرٍ في سَعْيِهِ أَخطَأَ التوفيقَ فيما طَلبا

مرحباً بالخَطْبِ يَبْلُونِي إذا كانتِ العلياءُ فيهِ السَّبَبا

مرحباً بالشدائد إذا كانت الطريق إلى المعالي

عَقَّني الدهرُ ولولا أَنَّني أُوثِرُ الحُسْنَى عَقَقْتُ الأَدَبا

إيهِ يا دُنيا اعبِسي أو فابْسِمي لا أرى بَرقَكِ إلَّا خُلَّبا

يا دنيا أنت خداعة كالبرق الذي يبشر بالمطر ولكن، لا يأتي بعده مطر

أنا لولا أنَّ لي مِن أُمَّتي خَاذِلاً مَا بِتُّ أَشْكُو النُّوَبا

أُمَّةٌ قد فَتَّ في ساعِدِها بُغْضُها الأَهلَ وحُبُّ الغُرَبا

فت في ساعدها: أضعَفَها

تَعشَقُ الأَلْقابَ في غيرِ العُلا وتُفَدِّي بِالنفوسِ الرُّتَبا

وكان حافظ برتبة ملازم أول، ولكنه كان لامبالياً وصُرف من الخدمة، وقالوا إنه كان كثير المخالفة للضباط الإنجليز أيضاً

وَهْيَ والأحداثُ تَستَهْدِفُها تعشقُ اللَّهْوَ وتَهوَى الطَّرَبا

لا تُبالِي لَعِبَ القومُ بِها أم بِها صَرْفُ اللَّيالِي لَعِبا

القوم: الإنجليز

ليتَها تسمعُ مِنِّي قِصَّةً ذاتَ شَجْوٍ وحَديثاً عَجَبا:

كنتُ أَهْوَى في زَماني غَادَةً وَهَبَ اللَّهُ لها ما وَهَبا

ذاتُ وجهٍ مَزَجَ الحسنُ بهِ صُفْرَةً تُنسِي اليَهودَ الذَّهَبا

وجهها فيه صفرة لأنها يابانية

حَـمَـلَـتْ لـي ذاتَ يـوم نَـبَـأً	لا رَعـاكَ الـلـهُ يـا ذاكَ الـنَّـبـا
وأتَـتْ تَـخْـطِـرُ والـلـيـلُ فَـتـىً	وهِـلالُ الأُفْـقِ فـي الأُفْـقِ حَـبـا
ثـم قـالـتْ لـي بِـثـغْـرٍ بـاسِـمٍ	نَـظَـمَ الـدُّرَّ بـه والـحَـبَـبـا

ثغرها باسم وتبدو أسنانها التي كأن فمها نظمها من اللؤلؤ أو من الحبب، فقاقيع الكؤوس

نَـبَّـأونـي بِـرحـيـلٍ عـاجِـلٍ	لا أرى لـي بَـعـدَهُ مُـنْـقَـلَـبـا

منقلب: رجوع

ودَعـانـي مَـوطـنـي أن أغْـتَـدي	عَـلَّـنـي أقْـضـي لـه مـا وَجَـبـا
نَـذْبَـحُ الـدُّبَّ ونَـفْـري جِـلْـدَهُ	أيَـظُـنُّ الـدُّبُّ ألَّا يُـغْـلَـبـا

الدب: روسيا

قُـلْـتُ والآلامُ تَـفـري مُـهْـجَـتـي:	وَيْكِ! ما تَصنَعُ في الحربِ الظُّبَا؟

ويك: ويحك، الظبا: الظباء

مـا عَـهِـدنَـاهـا لِـظَـبْـيٍ مَـسـرحـاً	يـبـتَـغـي مَـلـهـىً بـه أو مَـلْـعَـبـا
لـيـستِ الـحـربُ نـفـوسـاً تُـشـتَـرى	بِـالـتَّـمَـنِّـي أو عُـقـولاً تُـسْـتَـبـى

الحرب ليست مجالاً للنساء يشترين فيه نفوس الرجال بالأماني الكواذب، أو يسبين عقولهم بالدلال

أحَـسِـبْـتِ الـقَـدَّ مِـن عُـدَّتِـهـا	أم ظننتِ اللَّحْظَ فيها كالشَّبا؟

القد المياس ليس من عتاد الحرب، واللحظ الفتان ليس كالشبا، سن الرمح

فَـسَـلِـيـنـي، إنـنـي مـارَسْـتُـهـا	وركِـبْـتُ الـهـولَ فـيـهـا مَـركَـبـا
وتَـقَـحَّـمْـتُ الـرَّدَى فـي غَـارةٍ	أسْـدَلَ الـنَّـقْـعُ عـلـيـهـا هَـيْـدَبـا

اقتحمت الموت في غارة هبط فيها النقع، الغبار، فكأنه الهيدب، الغيم

قَـطَّـبَـتْ مـا بـيـن عَـيْـنـيـهـا لـنـا	فـرأيْـتُ الـمـوتَ فـيـهـا قَـطَّـبـا

يصف الحرب بأنها قطبت جبينها فكأنها الموت

جَـالَ عِـزرائـيـلُ فـي أنـحـائِـهـا	تَـحتَ ذاكَ الـنَّـقْـعِ يَـمْـشِـي الـهَـيْـذَبَـى

وتحت غبار الحرب مشى عزرائيل يخترم الأنفس ويمشي الهيذبى، مِشية سريعة للإبل

فَـدعـيـهـا لِـلَّـذي يـعـرِفُـهـا	والـزَمـي يـا ظَـبـيـةَ الـبـانِ الـخِـبـا

الزمي خباءك، خيمتك أيتها الظبية واتركي الحرب لأهلها

فَأجَابَتْنِي بِصوتٍ رَاعَنِي وأَرَتْنِي الظَّبْيَ لَيثاً أَغْلَبا:
إنَّ قَوْمِي استَعْذَبُوا وِرْدَ الرَّدَى كيف تَدعُونِيَ ألَّا أَشْرَبا؟
أنا يَابانِيَّةٌ لا أَنْثَنِي عن مُرادِي أَو أَذُوقَ العَطَبا
أنا إنْ لم أُحْسِنِ الرَّمْيَ، ولم تَستَطِعْ كَفَّايَ تَقليبَ الظُّبا

الظبا: جمع ظبة وهي حد السيف

أَخْدُمُ الجَرحَى وأَقْضِي حَقَّهُمْ وأُوَاسِي في الوَغَى مَن نُكِبَا
هَكَذا المِيكَادُ قد عَلَّمَنا أن نَرى الأَوْطانَ أُمَّاً وأَبا

الميكادو: كلمة يابانية كانت تستعمل في الإنجليزية لتعني «الحضرة الإمبراطورية اليابانية»، ولا يستعملها اليابانيون

مَلِكٌ يَكفِيكَ منهُ أَنَّهُ أَنْهَضَ الشرقَ فَهزَّ المَغْرِبا
وإذا مَارَسْتَهُ أَلفَيْتَهُ حُوَّلاً في كلِّ أَمْرٍ قُلَّبا

الحُوَّل القُلَّب: الداهية الأريب

كانَ والتَّاجَ صَغيرَيْنِ معاً وجَلالُ المُلْكِ في مَهْدِ الصِّبا

أيامئذ كان الإمبراطور الياباني هو «موتسوهيتو»، وهو أول أباطرة أسرة ميجي، بدأ الحكم وهو في الخامسة عشرة، كان صغيراً وكان تاج الأسرة جديداً، وفي عهده بدأ النهوض الكبير لليابان

فَغَدا هذا سَماءً لِلْعُلا وغَدا ذَلِكَ فيها كوكَبا
بَعَثَ الأمةَ مِن مَرقَدِها ودعاها للعُلا أن تَدْأَبا
فَسَمَتْ لِلمجدِ تَبغي شَأْوَهُ وقَضتْ مِن كلِّ شيءٍ مَأْرَبا

شأوه: غايته. ومع أسرة ميجي نهضت اليابان نهضة أدهشت العالم، وأكثر شخص في هذا العالم اندهش منها وهشَّ لها حافظ إبراهيم، لأن قلبه كان يخفق بشوق لأن تنهض مصر مثل اليابان

٢٠ الصفر والبيض

الحرب اليابانية الروسية، نشرت في نوفمبر/تشرين الثاني (١٩٠٤):

أَساحَةٌ لِلحربِ أمْ مَحْشَرُ ومَوْرِدُ الموتِ أمِ الكَوْثَرُ؟

أهذه ساحة حرب أم يوم القيامة الذي تحشر فيه النفوس؛ وهذا مورد، منهل ويَنبوع، للموت، أم هو نهر الكوثر في الجنة؟ وما الذي حشر نهر الكوثر هنا؟ سوى القافية، وسوى أن المحشر استدعاها، رغم أن المعنى يأباها

وهـذِهِ جُـنْـدٌ أَطـاعُـوا هَـوَى   أَربـابِـهِـمْ، أم نَـعَـمٌ تُـنْـحَـرُ؟

أربابهم: أسيادهم، نَعَمٌ: إبل

لِـلَّـهِ مـا أقـسَـى قُـلـوبَ الأُلَـى   قـامُـوا بـأمـرِ الـمُـلْـكِ واسْـتَـأْثَـرُوا!

الألى: الذين، استأثروا: استبدوا

وغَـرَّهُـمْ فـي الـدهـرِ سـلـطـانُـهُـمْ   فـأمْـعَـنُـوا فـي الأرضِ واسْـتَـعْـمَـرُوا

قـد أَقـسَـمَ الـبـيـضُ بِـصُـلـبـانِـهِـمْ   لا يـهـجُـرونَ الـموتَ أَوْ يُـنـصَـرُوا

البيض: الروس

وأَقْـسَـمَ الـصُّـفْـرُ بِـأوثَـانِـهِـمْ   لا يُـغْـمِـدُونَ الـسَّـيـفَ أو يَـظْـفَـرُوا

الصفر: اليابانيون

فـمَـادَتِ الأرضُ بِـأوتَـادِهـا   حـيـن الـتـقَـى الأبـيـضُ والأصـفـرُ

وأثـمَـلَـتْـهـا خَـمْـرةٌ مِـن دَمٍ   يَـلـهُـو بِـهـا الـمِـيكَـادُ والـقَـيْـصَـرُ

الميكادو: لقب إمبراطور اليابان، والقيصر: لقب إمبراطور روسيا

وأَشْـبَـهَـتْ يـومَ الـوَغَـى أُخْـتَـهـا   إذْ لاحَ فـيـهـا الـشَّـفَـقُ الأَحْـمَـرُ

أخت الأرض: الشمس

وأَصـبَـحَـتْ تـشـتـاقُ طُـوفَـانَـهـا   لَـعـلَّـهـا مِـن رِجْـسِـهـا تَـطْـهُـرُ

نبهنا المازني في كتابه الذي ندم عليه أن البيت مستوحى من أبي العلاء: (والأرضُ لِلطُّوفَانِ مُشتاقةٌ/ لعلَّها مِن دَرَنٍ تُغسَلُ)، وانظر كتابنا «تألق الشعر»، وفيه مئة وخمسون صفحة من مختاراتنا من شعر أبي العلاء، مسبوقة بثلاثين صفحة عن قصة حياته. وكانت أبيات لزوميات أبي العلاء مما يستشهد به حافظ كثيراً

أَشْـبـعـتِ يـا حَـربُ ذئـابَ الـفَـلا   وغَـصَّـتِ الـعِـقـبـانُ والأَنْـسُـرُ

هذا لِمَا أكلته هذه الجوارح والكواسر من لحم القتلى

ومِـيرَتِ الـحـيـتـانُ فـي بَـحْـرِهـا   ومَـطْـمَـعُ الإنـسـانِ لا يُـقْـدَرُ

ميرت: زُوِّدتْ بالميرة أي الغذاء، لا يقدر: لا حد له

إن كـانَ هـذا الـدبُّ لا يَـنـثَـنـي   وذلـكَ الـتِّـنِّـيـنُ لا يُـقْـهَـرُ

والـبِـيـضُ لا تَـرضَـى بِـخِـذْلانِـهـا   والـصُّـفْـرُ بـعـد الـيـومِ لا تُـكْـسَـرُ

فَـمـا لِـتـلْـكَ الـحـربِ قـد شَـمَّـرَتْ   عـن سـاقِـهـا حتى قَـضَـى الـعَـسْـكَـرُ

إن كانت النتيجة مجرد قتل بغير حسم، فلماذا الحرب والتقتيل؟ والواقع أن اليابان حسمت الحرب لصالحها بنصر مؤزر

تَسوءُنا الحربُ وإنْ أصبحتْ   تَدعُو رجالَ الشرقِ أن يَفخَرُوا

يفخر الشرقيون بانتصار اليابان الشرقية على روسيا التي تعد من بلدان الغرب

أَتى على الشرقيِّ حينٌ إذا   ما ذُكِرَ الأحياءُ لا يُذْكَرُ
ومَرَّ بالشرقِ زَمانٌ ومَا   يَمُرُّ بِالبالِ ولا يَخْطُرُ
حتى أَعادَ الصُّفْرُ أيَّامَهُ   فانتَصَفَ الأَسودُ والأسمرُ

٢١ رثاء محمود سامي البارودي

يناير/كانون الثاني (١٩٠٥):

رُدُّوا عليَّ بياني بعدَ محمودِ   إنِّي عَيِيتُ وأَعيا الشعرُ مَجهودي
ما لِلبلاغةِ غَضبَى لا تُطاوِعني   وما لِحبلِ القوافي غيرَ مَمدودِ؟
لقد نَزحتَ عن الدنيا كما نَزَحَتْ   عنها لَياليكَ مِن بيضٍ ومِن سودِ

رحلت عن الدنيا بعد أن قعدت بك الحال، وفقدت البصر، فلم تبق لك تلك الليالي السود الكئيبة، ولا تلك البيض في أيام عزك بما فيها من لهو

أغمَضْتَ عينيكَ عنها وازدَرَيْتَ بها   قبلَ المماتِ، ولم تَحفِلْ بِموْجودِ
تَجري السَّلاسَةُ في أَثناءِ مَنطِقِه   تحتَ الفصاحةِ جَرْيَ الماءِ في العودِ
إنْ هُدَّ رُكنُكَ مَنكوباً فقد رَفَعَتْ   لكَ الفضيلةُ ركناً غيرَ مَهدُودِ

بنكبتك يا محمود سامي البارودي، وعزلك ونفيك إلى سيلان هُدَّ ركنك، ولكن فضلك رفع لك ذكراً عالياً

إنَّ المناصِبَ في عَزْلٍ وتَولِيَةٍ   غيرُ المواهِبِ في ذكرٍ وتَخليدِ
أكرِمْ بها زَلَّةً في العمرِ واحِدَةً   إنْ صَحَّ أنَّكَ فيها غيرُ محمودِ

الزلة: الخطأ في تقدير الموقف أثناء الثورة العرابية، ولكن.. لعلها ليست زلة بل موقف وطني مشرف

كم وَقْفَةٍ لَكَ والأبطالُ طائِرَةٌ   والحربُ تَضربُ صِنديداً بصِنديدِ
نَسخْتَ يَومَ كَريدِ كلَّ ما نَقَلُوا   في يومِ ذي قَارَ عن هانِي بنِ مَسعودِ

يوم كريد: الحرب في جزيرة كريت تحت الراية العثمانية. وكان البارودي ضابطاً في تلك الحملة، وهانئ بن مسعود بطل ذي قار

أَودَى المعرّيِ تَقِيُّ الشعرِ مُؤمِنُهُ		فكادَ صَرحُ المعالِي بَعدَهُ يُودي

مات المعري الذي كان تقياً ومؤمناً في شعره (وإن لم يكن كذلك في معتقده!) وكاد صرح الشعر يموت بعد المعري، وقد ظل الشعر يتحدر بعد المعري ألف سنة حتى جاء البارودي فأحياه

وأَصبحَ الشعرُ والأسماعُ تنبُذُه		كأنه دَسَمٌ في جوفِ مَمعُودِ

الممعود: المصاب في معدته. وكان حافظ يشكو دائماً من أمعائه ويقول إنها نقطة الضعف التي ستقتله.. ونال حافظ علقة ساخنة على هذا التشبيه من النقاد

أَلْوَى به الضعفُ واستَرخَتْ أَعِنَّتُه		فراحَ يعثُرُ في حَشْوٍ وتَعقيدِ

ألوى بالشعر الضعف، أي أنهكه، واسترخت أعنته، كما يصبح مقود الفرس رخواً غير مشدود فهو متعب قد كف عن الجري. وهذا من بيت الطرماح، يتخيل كيف سيصبح حال الشعر بعد موته: (إذا قُبضتْ نفسُ الطِّرِمَّاحِ أخلَقَتْ/ عُرى المجدِ واستَرخى عِنانُ القصائدِ)

٢٢ سلام على الإسلام

رثاء الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، أغسطس/ آب (١٩٠٥):

**سلامٌ على الإسلامِ بعدَ محمدٍ		سلامٌ على أيامِه النَّضِراتِ**

على الدينِ والدنيا، على العلمِ والحِجا		على البِرِّ والتقوى، على الحسناتِ

**لقد كنتُ أخشى عاديَ الموتِ قبلَه		فأصبحتُ أخشى أن تطولَ حياتي**

فوالَهفي - والقبرُ بيني وبينَه -		على نظرةٍ مْن تِلكُمُ النَّظراتِ

أتحسر ألماً الآن، إذ يقف القبر عائقاً بيني وبين الإمام، على نظرة من نظراته

**وقفتُ عليهِ حاسِرَ الرأسِ خاشعاً		كأنِّي - حِيالَ القبرِ - في عَرفاتِ**

وقفت حاسراً عن رأسي. وعندما كنت حيال قبر الإمام، أي بجانبه، كنت كأني واقف بعرفات خشوعاً. التسويد من عمران القفيني

تباركْتَ؛ هذا الدينُ دينُ محمدٍ		أَيُتركُ في الدنيا بغيرِ حُماةِ؟

تباركت يا ربُ، أتترك الإسلام بدون حماة يحمونه؟

تباركْتَ؛ هذا عالِمُ الشرقِ قد قَضى		ولانتْ قناةُ الدينِ لِلغَمَزاتِ

لانت قناة الدين للغمزات: أصبح مكشوفاً معرضاً للاعتداء

**زَرعتَ لنا زرعاً فأخرجَ شَطْأَهُ		وبِنْتَ ولَمَّا نَجتَنِ الثَمراتِ**

أخرج شطأه: أنبت رؤوس سنابله، بنت: فارقت

مَشى نعشُه يختالُ عُجْباً بِرَبِّهِ ويخطِرُ بين اللَّمْسِ والقُبُلاتِ

مشى النعش مختالاً فخوراً بربه، بصاحبه، والناس يلمسونه ويقبلونه تبركاً

تكادُ الدموعُ الجارياتُ تُقِلُّهُ وتدفَعُه الأنفاسُ مُستَعِراتِ

تقله: تحمله

٢٣ آلة تسحق الكسل

إلى رجال الدنيا الجديدة، أنشدها في حفل كلية البنات الأمريكية بمصر لتوزيع الشهادات على خريجاتها، مايو/ أيار (١٩٠٦):

كاشِفَ الكَهرباءِ ليتَكَ تُعنَى بِاختراعٍ يَرُوضُ مِنَّا الطِّباعا

آلةٍ تَسْحَقُ التَّواكُلَ في الشَّرْ قِ، وتُلقي عن الرِّياءِ القِناعا

يهيب بإديسون أن يخترع آلة تزيل الكسل والنفاق

٢٤ إلى ناظر المعارف

سعد زغلول، نشرت في ديسمبر/ كانون الأول (١٩٠٦):

يا سعدُ أنتَ مَسيحُها فاجعلْ لِهذا الموتِ حَدَّا

والمسيح أحيا الموتى

يا سعدُ إنَّ بِمصرَ أيـ ـتاماً تُؤَمِّلُ فيكَ سَعْدا

السعد: الحظ الحسن

قد قامَ بينَهُمُ وبيـ ـنَ العِلْمِ ضيقُ الحالِ سَدَّا

أنا لا أَلومُ المستشا رَ إذا تَعَلَّلَ أو تَصَدَّى

كان دنلوب هو «المستشار» الإنجليزي لشؤون التعليم، وسعد زغلول هو الوزير، وكان بينهما شد وجذب. سعد يريد تعليماً وطنياً واسعاً والمستشار الإنجليزي يريد تعليما ضيقاً يوفر طبقة موظفين لإدارة الروتين الحكومي

فسبيلُه أن يَستَبِدَّ وشَأنُنا أن نَستَعِدَّا

هِيَ سُنَّةُ المُحتَلِّ في كلِّ العُصورِ، وما تَعَدَّى

وما تعدى: ما تجاوز المتوقع منه، ولكنه بالطبع معتد أثيم

٢٥ صيدوا العباد

حادثة دنشواي، وقُتل فيها جندي إنجليزي، ربما بضربة شمس وهو يصطاد ورفاقَه الحمام، فشَنق الإنجليز أربعة رجال وجلدوا العشرات في قرية دنشواي، بعد محاكمة هزيلة ثار لها الإنجليز أنفسهم، وأدت إلى عزل المعتمد البريطاني كرومر بعد أشهر. فصَّلنا القول في الحادثة في الفصل المخصص لأحمد شوقي. نشرت القصيدة في يوليو/تموز (١٩٠٦):

أيـهـا الـقـائـمـونَ بـالأمـرِ فـيـنـا　　　هـل نَـسِـيـتُـمْ وَلاءَنـا والـوِدَادا

القائمون بالأمر: الإنجليز

خفِّضُوا جيشَكُمْ وناموا هنيئاً　　　وابتَغُوا صيْدَكُمْ وجُوبوا البِلادا

وإذا أَعْـوَزَتْـكُـمُ ذاتُ طَـوْقٍ　　　بينَ تِلكَ الرُّبا فَصِيدُوا العِبادا

إنَّـمـا نـحـنُ والـحـمـامُ سَـواءٌ　　　لـم تُـغـادِرْ أَطـواقُـنـا الأَجـيـادا

لبعض الحمام شبه أطواق من الريش عند الرقبة، ونحن مطوقون بقيود الاحتلال في أجيادنا، رقابنا

لا تُـقـيِـدُوا مِـن أُمَّـةٍ بِـقَـتـيـلٍ　　　صَادَتِ الشمسُ نفسَه حينَ صَادا

تُقيدوا: تقتصّوا قصاصاً

جـاءَ جُـهَّـالُـنـا بـأمـرٍ وجِـئْـتُـمْ　　　ضِعْفَ ضِعفَيْهِ قَسْوةً واشْتِدادا

ليتَ شِعري أَتلْكَ مَحكَمَةُ التَّفْـ　　　ـتيشِ عادَتْ أَمْ عهدُ نيرُونَ عادا؟

محاكم التفتيش: محاكم ظالمة عقدها الإسبان على مدى ٣٥٠ سنة للتخلص من آثار الحكم العربي في الأندلس، نيرون: إمبراطور روماني قيل إنه أحرق روما وقعد يتفرج عليها

كيفَ يَحلُو مِنَ القَويِّ التَّشفِّي　　　مِن ضعيفٍ ألقَى إليهِ القِيادا

إِنَّـهـا مُـثْـلَـةٌ تَـشِـفُّ عـنِ الـغَـيْـ　　　ـظِ وَلـسْـنـا لِـغَـيْـظِـكُـمْ أَنْـدَادا

التشفي بالضعيف هو كالمثلة، أي التمثيل بالمقتول

أيُّـهـا الـمُـدَّعـي الـعُـمـومِـيُّ مَـهـلاً　　　بـعـضَ هـذا فـقـدْ بـلـغـتَ الـمُـرادا

المدعي العمومي في تلك المحكمة كان إبراهيم الهلباوي، وكان القاضي أحمد فتحي زغلول أخا سعد زغلول، وقد كان الهلباوي من أشهر المحامين، وندم على فعلته واعتذر من مواطنيه بعد أربع سنين، وكان له دور في الحركة الوطنية، وكان القاضي أحمد فتحي زغلول من كبار المثقفين والداعين للتحرر ومن الوطنيين في الحركة العرابية. ولكن الرجلين عاشا بعد دنشواي وماتا خائنين، وظل الشعب يحتقرهما لأنهما احتقرا الشعب ورضيا أن يكونا أداة للمحتل. ألا إن الإنسان موقف

قد ضَمِنَّا لكَ القَضاءَ بمصرٍ وضَمِنَّا لِنَجلِكَ الإِسْعادا

وترقى الهلباوي فعلاً بعد دوره الشنيع

لا جَرى النيلُ في نَواحيكِ يا مصـ ـرُ، ولا جادَكِ الحَيا حيثُ جادا

الحيا: المطر

أنتِ أنبَتِّ ذلِكَ النَّبْتَ يا مِصـ ـرُ فأضْحَى عليكِ شَوكاً قَتادا

القتاد: الشوك

إيهِ يا مِدْرَهَ القَضاءِ ويا مَن سادَ في غَفْلَةِ الزمانِ وشَادا

المدره: الزعيم

أنتَ جَلَّادُنا فلا تَنْسَ أنَّا قد لَبِسْنا على يديكَ الحِدادا

قيل: أنشد المصريون هذا البيت في جنازة الهلباوي عام ١٩٤٠

٢٦ الظلم المنظم

شكوى مصر من الاحتلال، نشرت في يناير/ كانون الثاني (١٩٠٧):

لقد كان فينا الظلمُ فوضَى فَهُذِّبَتْ حَواشِيهِ حتى باتَ ظلماً منظَّما

عَمِلْتُمْ على عِزِّ الجَمادِ وذُلِّنا فأَعْلَيْتُمُ طِينا وأَرخَصْتُمُ دما

إذا أَخصَبَتْ أَرضٌ وأَجْدَبَ أهلُها فلا أَطْلَعَتْ نَبْتاً ولا جادَها السَّما

السما: المطر

نَهَشٌّ إلى الدينارِ، حتى إذا مَشى به رُبُّهُ لِلسُّوقِ أَلْفَاهُ دِرْهَما

فإنَّ كثيرَ المالِ ـ والخَفْضُ وارِفٌ ـ قليلٌ إذا حَلَّ الغَلاءُ وخَيَّما

٢٧ العهدة على الراوي

وداع اللورد كرومر، قالها عند استقالته، ونشرت في أبريل/ نيسان (١٩٠٧):

سلامٌ، ولو أنَّا نُسيءُ إلى الأُلى أَساءُوا إلينا ما مَدَدْنا لَهُمْ يَدا

سَنُطْري أَياديكَ التي قد أَفَضْتَها علينا فَلَسْنا أُمَّةً تَجْحَدُ اليَدا

أياديك: أفضالك

أَمِنَّا فلم يَسْلُكْ بِنا الخوفُ مَسْلَكاً ونِمنا فلم يَطْرُقْ لنا الذُّعْرُ مَرقَدا

وكنتَ رَحيمَ القلبِ تَحمي ضَعيفَنا وتدفعُ عنَّا حادِثَ الدهرِ إنْ عَدا
تَشَعَّبَتِ الآراءُ فيكَ: فقائِلٌ أفادَ الغِنَى أهلَ البِلادِ وأَسْعَدا
وآخرُ لم يَقْصِرْ على المالِ هَمَّهُ يَرى أنَّ ذاكَ المالَ لا يَكْفُلُ الهُدى

بعضهم نظر إلى فوائد حصلت عليها البلاد في عهد كرومر وبعضهم قال إن المال ليس كل شيء

قَضَيْتَ على أمِّ اللُّغاتِ، وإنَّه قضاءٌ علينا أو سبيلٌ إلى الرَّدَى

كان كرومر قليل الاعتبار للغة العربية وللدين الإسلامي، ويرى أن طريق مصر هو التحرر من الماضي

ووافَيْتَ والقُطْرانِ في ظِلِّ رايَةٍ فما زِلْتَ بِالسُّودانِ حتى تَمَرَّدا
وحَاولْتَ إعطاءَ الغَريبِ مَكانَةً تَجُرُّ علَيْنا الوَيْلَ والذُّلَّ سَرمَدا

شجع كرومر الأجانب ونشاطهم التجاري، ومنحهم امتيازات غير متاحة للمصريين، وهذا جر على مصر الذل السرمدي، الأبدي

وزَاحَمَنا في العيشِ كلُّ مُمارِسٍ خبيرٍ، وكُنَّا جاهِلِينَ ورُقَّدا
وما الشَّركاتُ السُّودُ في كلِّ بَلْدَةٍ سوى شَرَكٍ يُلْقي به مَنْ تَصَيَّدا

المتصيد لخيرات البلاد الأخرى يُلقي الشرك، أي الشبكة، في هذه البلاد على هيئة شركة. الدول الخائرة العزم، حتى يومنا هذا، تتغنى بالاستثمار وتشجيع الاستثمار وجلب الاستثمارات الأجنبية. ما لها لا تتغنى بالتصنيع وبالتعليم كي يفتح أهل البلد المصانع والشركات؟

فهذا حديثُ الناسِ والناسُ أَلْسُنٌ إذا قالَ هذا، صاحَ ذاكَ مُفَنِّدا

اكتفى حافظ من وداع كرومر بسرد ما يقوله الناس من مادح وقادح. ولم يفت هذا الموقف الخنثى منتقدي حافظ

٢٨ رثاء قاسم أمين

يونيو/حزيران (١٩٠٨):

لَهْفِي عليكَ قَضيتَ مُرتَجِلاً لم تَشْكُ، لم تَسْتَوْصِ، لم تَقُلِ

مُتَّ موتاً ارتجالياً بلا شكوى من مرض وبلا وصية

إنْ رَيْتَ رأياً في الحِجابِ ولم تُعْصَمْ، فتِلْكَ مراتبُ الرُّسُلِ

لئن كنت ريت، أي رأيت، رأياً ضد الحجاب، ولم تُعصَم من الخطأ، فلا بأس فالعصمة للأنبياء

الحكمُ للأيامِ مَرجِعُهُ فيما رأيتَ، فَنَمْ ولا تَسَلِ

فلا تهتم، فالحكم بشأن الحجاب متروك للأيام المقبلة

وكــذا طُــهــاةُ الــرأيِ تَــتــركُــهُ ... لــلــدهــرِ يُــنــضِــجُــهُ عــلــى مَــهَــلِ
فــإذا أَصبْتَ فــأنــتَ خــيــرُ فَــتــىً ... وَضَــعَ الــدواءَ مَــواضِــعَ الــعِــلَــلِ
أَو لا، فَــحَــسْــبُــكَ مــا شَــرُفْــتَ بــه ... وتــركــتَ فــي دنــيــاك مِــن عــمــلِ

٢٩ الدخول بين السلطان والوالي

تهنئة السلطان عبد الحميد بعيد جلوسه، سبتمبر/ أيلول (١٩٠٨):

مِــنّــي عــلــى دارِ الــســلامِ تــحــيــةٌ ... وعــلــى الــخــلــيــفــةِ مِن بَنــي عــثــمــانِ
دار السلام، هنا، إستانبول عاصمة الخلافة

وعلى رجالِ الجيشِ مِنْ ماشٍ به ... أو راكــــبٍ أو نــــازحٍ أو دَانِ
يحيي من الجيش المشاة والخيالة، والنازح البعيد في مهمة، والداني القريب المرابط في الديار

وعلى الأُلَى سَكنُوا إلى الحُسنَى، سوى ... ذاكَ الــذي يــدعُــو إلــى الــعــصــيــانِ
الأُلى: الذين

والــيِ الــحــجــازِ الــخــارجيِّ، ومــا بِــه ... إلّا اقــتــنــاصُ الأصــفَــرِ الــرنّــانِ
بخلاف والي الحجاز الخارجي العاصي الذي يقتنص الأصفر الرنان، الذهب، من أموال الحج

ما لِلشَّريفِ المُنتَمي حَسباً إلى ... خيــرِ البَــرِيَّــةِ مِــن بــنــيِ عــدنــانِ . .
ما لي أرى شريف مكة الذي ينتمي بنسبه إلى النبي . .

أَمْــسَــى يُــمَــالِــئُــه ويَــنــصُــرُ غَــيَّــهُ ... وضَــلالَــهُ بِــحُــثَــالَــةِ الــعُــرْبــانِ
ما لي أراه يمالئ الوالي، يطاوعه، ويؤيد ضلاله ببعض من أبناء القبائل من الحثالة، أردأ الناس

تَــالــلَّــهِ لــو جَــنَّــدْتُــمــا رَمْــلَ الــنَّــقــا ... ونــزلــتُــمــا بِــمــواطِــنِ الــعِــقْــبــانِ . .
فيا والي الحجاز ويا شريفها لو جندتما من الجنود بعدد حبات رمل النقا، الكثيب، ولو رابطتما في أماكن العقبان، الصقور والنسور، في معاقلها الجبلية . .

وغَــرسْــتُــمــا أرضَ الــحــجــازِ أَسِــنَّــةً ... وأَسَــلْــتُــمــا بَــحــراً مِــن الــنــيــرانِ . .
ولو غرستما الحجاز بأسنة الرماح، ولو سالت النيران من أسلحتكما . .

وأَقــمْــتُــمــا فــيــهــا الــمَــعــاقِــلَ مَــنْــعَــةً ... مِن أرضِ نجدَ إلى خليجِ عُمانِ . .
ولو أقمتما الحصون المنيعة من نجد إلى عمان . .

لَـدَهـاكُـمـا ورَمـاكُـمـا وذَراكُـمـا   مَـاحي الـحُصونِ ومَاسِحُ البُلدانِ

لدهاكما السلطان العثماني، فاجأكما بالنكبة، ولتركِكما كالغبار تذروه الريح. . فهي الذي يمحو الحصون ويمسح البلاد مسحاً

٣٠ سورية ومصر

ألقاها في فندق شبرد لتكريم جماعة من السوريين، ونشرت في مارس/ آذار (١٩٠٨):

لِمِصْرَ أم لِربوعِ الشامِ تَنتَسِبُ   هُنا العُلا وهُناكَ المجدُ والحَسَبُ

رُكنانِ للشرقِ لا زالتْ ربوعُهُما   قلبُ الهلالِ عليها خافِقٌ يَجِبُ

لا زالت: أدعو الله أن تبقى، وخبر لا زال الجملة الإسمية (قلب الهلال خافق) الهلال: رمز الدولة العثمانية وكانت آنذاك تحكم مصر إسمياً وبلاد الشام فعلياً، يجب: يخفق

خِدْرانِ للضَّادِ لم تُهْتَكْ ستورُهُما   ولا تَحَوَّلَ عن مَغناهُما الأَدَبُ

خدران للضاد: بيتان للغة العربية، والخدر حجرة النساء في الخيمة أو البيت

أُمُّ اللغاتِ غَداةَ الفخرِ أُمُّهُما   وإنْ سَألتَ عنِ الآباءِ فالعَرَبُ

إذا أَلَمَّتْ بِوادِي النيلِ نازِلَةٌ   باتَتْ لها راسياتُ الشامِ تَضْطَرِبُ

نازلة: مصيبة، الراسيات: الجبال

وإنْ دعا في ثَرى الأهرامِ ذُو أَلَمٍ   أجابَهُ في ذُرَا لُبنانَ مُنتَحِبُ

لو أَخلَصَ النيلُ والأُردُنُّ وُدَّهُما   تَصافَحَتْ منهُما الأَمْواهُ والعُشُبُ

نَسيمَ لُبنانَ! كم جادَتْكَ عاطِرَةٌ   مِن الرياضِ وكم حَيَّاكَ مُنسَكِبُ؟

في الشرقِ والغربِ أنفاسٌ مُسَعَّرَةٌ   تَهفُو إليكَ وأكبادٌ بها لَهَبُ

أنفاس المغتربين في أصقاع الأرض تهفو، تهب حنيناً، إلى الوطن لبنان

لولا طِلابُ العُلا لم يَبْتَغُوا بَدلاً   مِن طيبِ رَيَّاكَ، لكنَّ العُلا تَعَبُ

التسويد لعمران القفيني

كم غادةٍ بِرُبوعِ الشَّامِ باكِيَةٍ   على أَليفٍ لها يَرمي بِهِ الطَّلَبُ

كم فتاة تبكي على زوج رمى به طلب المعاش إلى الهجرة

يَمضي ولا حيلَةٌ إلَّا عَزيمتُه   ويَنثَني وحُلاهُ المجدُ والذَّهَبُ

يذهب وليس معه إلا العزم، وينثني، أي يعود، ومعه مجد ومال

بِأَرضِ كُولُمْبَ أبطالٌ غَطارِفَةٌ أُسْدٌ جِياعٌ إذا ما وُوثِبوا وَثَبوا

أرض كولمب: أميركا، وفيها أسود بلاد الشام الذين يقفزون على الرزق قفزاً. جمعني جامع ذات سنة، لعلها ٢٠٠٧، بوزير الخارجية البرازيلي، وكانت تصحبه زوجته. وسألته ملياً عن أبناء بلده ذوي الأصل الشامي، ويسمونهم توركو، أي الأتراك لأنهم هاجروا في زمن كانت بلاد الشام فيه تحت الحكم التركي، وكنت مهتماً بسيرة الشاعرين القروي وفرحات اللذين عاشا في البرازيل، وتحدث طويلاً، وفي ختام حديثه أشار إلى زوجته الجالسة بجانبه: «هي أيضاً سورية الأصل»

أُسطُولُهُمْ أَمَلٌ في البحرِ مُرْتَحِلٌ وجيشُهُمْ عملٌ في البَرِّ مُغتَرِبُ
ما عابَهُمْ أَنَّهُمْ في الأرضِ قد نُثِروا فالشُّهْبُ مَنثُورةٌ مُذْ كانتِ الشُّهُبُ
رادُوا المَناهِلَ في الدنيا، ولو وَجَدُوا إلى المَجَرَّةِ رَكْباً صاعداً رَكِبوا

كانوا روّاداً لمنابع الرزق

سَعَوْا إلى الكسبِ محموداً وما فَتِئَتْ أُمُّ اللُّغاتِ بِذاكَ السَّعيِ تَكتَسِبُ

أم اللغات، اللغة العربية، انتعشت على ألسنة، وفي صحف، المغتربين زمناً. ثم ماتت في الأجيال اللاحقة

فأينَ كانَ الشَّآمِيُّونَ كانَ لها عيشٌ جديدٌ وفضلٌ ليس يَحْتَجِبُ
هذي يَدي عن بَني مِصرٍ تُصافِحُكُمْ فصافِحُوها تُصافِحْ نفسَها العَرَبُ
لولا رِجالٌ تَغالَوْا في سِياسَتِهِمْ مِنَّا ومنهُمْ لَما لُمْنَا ولا عَتَبُوا

وممن أبدى ضجراً لما ناله السوريون بمصر من نجاح حافظ إبراهيم نفسه في كتابه «ليالي سطيح»، حيث شكا من الوجود الاقتصادي السوري، ومن تقاعس المصريين عن دخول ميدان الاقتصاد بقوة، هذا إلى ترحيب دائم من حافظ بالمثقفين السوريين

إنْ يَكتُبُوا لِيَ ذنباً في مودَّتِهِمْ فإنما الفخرُ في الذَّنْبِ الذي كَتبوا

٣١ مدح مغنٍّ

نشرت في نوفمبر/تشرين الثاني (١٩٠٨):

يا جاكُ إنَّكَ في زمانِكَ واحِدٌ ولِكُلِّ عصرٍ واحدٌ لا يُلْحَقُ

جاك رومانو مغنٍّ يهودي إسكندري

إنَّ الأُلَى قد عاصَروكَ وفاتَهُمْ أنْ يَسمعُوكَ كأنَّهُمْ لم يُخلَقُوا

التسويد لعمران القفيني

قد جاءَ موسى بِالعصا، وأتيتَنا بِالعودِ يَشدُو في يديكَ ويَنطِقُ

تَتسابَقُ الأسماعُ صَوْبَكَ كلَّما غنَّيْتَها شوقاً إليكَ وتُعْنِقُ

تعنق: تتطلع مسرعةً وتمد العنق

خُلُقٌ كما شاءَ الجليسُ وشيمَةٌ يَذكُو بِها صَدْرُ النَّدِيِّ ويَعْبَقُ

ومُرُوءَةٌ لو أَنَّها قد قُسِّمَتْ بينَ اليَهودِ لأَحْسَنُوا وتَصَدَّقُوا

٣٢ تسونامي مسينا

(٢٨/١٢/١٩٠٨):

نَبِّئاني إن كنتُما تَعلمانِ ما دَهَى الكونَ أيها الفَرقَدانِ

الفرقدان: نجمان

غضِبَ اللَّهُ أم تَمَرَّدَتِ الأرْ ضُ، فَأَنْحَتْ على بَني الإِنسانِ؟

أَنْحَت: أقبلت بالأذى أو باللوم

ليس هذا، سبحانَ رَبِّي، ولا ذَا كَ، ولكنْ طَبيعَةُ الأَكْوانِ

غَلَيانٌ في الأرضِ نَفَّسَ عنهُ ثَوَرانٌ في البحرِ والبُركانِ

رَبِّ، أينَ المَفَرُّ والبحرُ والبَرُّ على الكيْدِ لِلوَرى عامِلانِ؟

كنتُ أخشَى البحارَ، والموتُ فيها راصِدٌ غَفلَةً مِنَ الرُّبَّانِ

سابحٌ تَحتَنا، مُطِلٌّ علينا حائمٌ حولَنا، مُناءٍ مُدَانِ

الموت في البحر يسبح تحت السفينة ويحوم حولها.. يبتعد ويقترب

فإذا الأرضُ والبحارُ سواءٌ في خَلاقٍ: كِلاهُما غَادِرانِ

خلاق: خلق وطبيعة

ما لِمَسِّينَ عُوجِلَتْ في صِباها ودَعاها مِنَ الرَّدَى دَاعِيانِ

مسينا في صقلية بإيطاليا، وقد ضربها ما نسميه اليوم تسونامي في آخر ثلاثة أيام من عام (١٩٠٨)، فقتل بها مئة ألف نسمة

ومَحَتْ تِلْكُمُ المَحاسِنَ منها حينَ تَمَّتْ آياتُها آيَتانِ

حين اكتملت آياتها العمرانية، معالمها، جاءت آيتان، برهانان من براهين القدرة الإلهية وهما الزلزال والفيضان، فمحتا المعالم

خُسِفَتْ، ثم أُغْرِقَتْ، ثم بادَتْ قُضِيَ الأمرُ كلُّه في ثَوانِ

وأتى أمرُها فأضحَتْ كأنْ لَمْ ... تَكُ بالأمسِ زينةَ البُلدانِ

ليتَها أُمْهِلَتْ فَتَقضي حُقوقاً ... مِن وَداعِ اللِّدَاتِ والجيرانِ

اللدات: الأصحاب، المولودون في وقت واحد

بَغَتِ الأرضُ والجبالُ عليها ... وطَغَى البحرُ أيَّما طُغْيانِ

تِلكَ تَغلي حِقداً عليها فَتَنْشَقُّ ... انشِقاقاً مِنْ كَثرةِ الغَلَيانِ

فتُجيبُ الجبالُ رَجْماً وقذفاً ... بِشُواظٍ مِن مَارجٍ ودُخانِ

مارج: لهب

وتَسُوقُ البحارُ رَدّاً عليها ... جيشَ مَوْجٍ نَائي الجَناحَيْنِ دَانِ

والجيش له جناحان ميمنة وميسرة

فهُنا الموتُ أسودُ اللونِ جَوْنٌ ... وهُنا الموتُ أحمرُ اللونِ قَانِ

الجون: الأسود، الموت الأسود: خنقاً أو غرقاً، والأحمر: جَرحاً

جَنَّدَ الماءَ والثرى لِهلاكِ الـ ... ـخَلقِ ثم استعانَ بِالنِّيرانِ

الموت جند الماء واليابسة بالطوفان والزلزال.. ثم استعان بنيران البركان

ودعا السُّحْبَ عَاتِياً فأَمَدَّتْـ ... ـهُ بِجيشٍ مِنَ الصواعقِ ثانِ

فاستحالَ النَّجاءُ واسْتَحْكَمَ اليأ ... سُ وَخارتْ عزائمُ الشجعانِ

وشَفى الموتُ غِلَّهُ مِن نفوسٍ ... لا تُباليهِ في مَجالِ الطِّعانِ

شفى الموت غله، أي غيظه، من نفوس أهل المدينة التي ما كانت تبالي الموت في مجال الطعان، الحرب والطعن بالرماح

رُبَّ طِفلٍ قد سَاخَ في بَاطِنِ الأر ... ضِ يُنادِي: أُمِّي! أَبِي! أَدرِكاني!

ساخ: غاص. يعلق المازني في كتابه المندوم عليه «شعر حافظ» على هذا البيت قائلاً: «على وفرة علامات النداء، لا يعقل أن السائخ في باطن الأرض يستطيع شيئاً من ذلك».. وتعليقنا: يا مازني، ما أصدرته أنت من شعر، وهو كثير، غثٌّ غثاثة لم تحتملها أنت نفسك، فتبرأت منه. ولا والله لم أجد لك بيتاً واحداً يحسن بالمرء أن يقرأه بله أن يحفظه. وقد كان حافظ يستقبلك في دار الكتب أحسن استقبال غافراً لك كتابك المشحون بالغض من شعره. ولعلك هاجمت الرجل لموقف قديم ناداك فيه بيا ولد، عندما انتقدت ترجمته للبؤساء. ولك يا مازني، بعدُ، حسنتان: أولاهما أنك كتبت مقالاً أبديت فيه الندم على كتابك، وثانيتهما أنك برهان عظيم على أن الناثر الكبير قد يكون مفلساً إفلاساً إدقاعياً في الشعر، فأنت ممن كتبوا أجمل نثر العربية في القرن العشرين. والآن إلى بيت الشعر الذي نحن بصدده: هذا تصوير هائل لطفل

بدأ جسمه يغوص في الوحل أو حتى في الحمم البركانية وبقيت في صدره قوة تعينه على أن يدفع إلى حنجرته بثلاث كلمات: أمي! أبي! أدركاني! فأين المستحيل في هذا؟ وانظر إلى الأبيات التي تلي هذا البيت فهي ترسم صورة مخيفة لمعاناة أولئك الضحايا في ساعة الموت المحقق

وفَتاةٍ هَيفاءَ تُشْوَى على الجَمْـ ـرِ، تُعاني مِن حَرِّهِ ما تُعاني

وأبٍ ذاهلٍ، إلى النارِ يَمشي مُستَميتاً تَمتَدُّ منهُ اليَدانِ

باحثاً عن بناتِهِ وبَنيهِ مُسرعَ الخَطْوِ مُسْتَطيرَ الجَنانِ

مستطير الجنان: منخلع القلب

تأكُلُ النارُ منه: لا هُوَ ناجٍ مِن لَظاها ولا اللَّظَى عنهُ وَانِ

وان: متوانٍ، متأخر

غَصَّتِ الأرضُ أُتْخِمَ البحرُ مِمَّا طَوَياهُ مِنْ هذهِ الأَبْدانِ

وشَكا الحُوتُ لِلنُّسورِ شَكَاةً رَدَّدَتْها النُّسورُ لِلحيتانِ

أَسْرَفا في الجُسومِ نَقْراً ونَهشاً ثم باتا مِنْ كِظَّةٍ يَشْكُوانِ

الكظة: التخمة، الحوت والنسر يشكوان التخمة لكثرة ما أكلا من لحوم الموتى

لا رَعَى اللَّهُ ساكِنَ القِمَمِ الشُّمِّ ولا حَاطَ ساكِنَ القيعانِ

يدعو على ساكن القمم الشماء العالية، النسر، وساكن قاع البحر، الحوت

قد أَغَارا على أَكُفٍّ بَراها بَارئُ الكائناتِ لِلإتقانِ

لَهْفَ نفسي وأَلْفَ لَهْفٍ عليها مِنْ أَكُفٍّ كانتْ صَناعَ الزَّمانِ

صَناع: حاذقة، متقنة لعملها

مُولَعَاتٍ بِصَيْدِ كلِّ جميلٍ نَاصباتٍ حَبائِلَ الألوانِ

فأيدي الإيطاليين تنصب حبائل، شباكاً، هي في الواقع الألوان لتصيد الفن الجميل

حَافِراتٍ في الصخرِ أو ناقِشاتٍ شائِداتٍ روائِعَ البُنيانِ

مُنْطِقاتٍ لِسانَ كلِّ جَمادٍ مُفْحِماتٍ سَواجِعَ الأفنانِ

سواجع الأفنان: الطيور المغردة على الأغصان

مُلْهَماتٍ مِنْ دِقَّةِ الصُّنْعِ ما لا يُلْهَمُ الشعرُ مِنْ دقيقِ المعاني

مِنْ تَماثيلَ كالنُّجومِ الدَّراري يَهْرَمُ الدهرُ وَهْيَ في عُنفُوانِ

الدراري: المتلألئة

إنَّ إيـطـالِـيـا بَـنُـوهـا بُـنـاةٌ فـاطْـمَـئِـنِّـي مـا دامَ فـي الـحَـيِّ بـانِ

إيطاليا بنوها، أي أبناؤها، بناة، يحسنون البناء.. فاطمئني يا مسينا فسوف يعاد بناؤك

فَـسَـلامٌ عـلـيـكِ يـومَ تَـوَلَّـيْـتِ بِـمـا فـيـكِ مِـنْ مَـغـانٍ حِـسـانِ

المغاني الحسان: الربوع الجميلة

وسَـلامٌ عـلـيـكِ يـومَ تَـعـودِيـنَ كـمـا كـنـتِ جَـنَّـةَ الـطِّـلْـيـانِ

وسَـلامٌ عـلـى امْـرِئٍ جـادَ بِـالـدَّمْـعِ، وثَـنَّـى بِـالأَصْـفَـرِ الـرَّنَّـانِ

ذاكَ حَـقُّ الإنـسـانِ عـنـد بـنـي الإنـسـانِ، لـم أَدْعُـكُـمْ إلـى إِحـسـانِ

التبرع لمسينا حق على الإنسان وليس إحساناً

٣٣ المتهم على الحالين

ذكرى مصطفى كامل، أنشدها في ذكرى وفاته الأولى فبراير/شباط (١٩٠٩):

قـد اتُّـهِـمـنـا ولَـمَّـا نَـطَّـلِـبْ جَـلـلاً إن الضـعـيـفَ عـلى الحـالـيْـنِ مُـتَّـهَـمُ

قـالـوا: لـقـد ظَـلـمـوا بـالحقِّ أنـفـسَـهُـمْ والـلَّـهُ يـعـلـمُ أن الـظـالـمـيـنَ هُـمُ

إذا سَـكـتْـنـا تَـنـاجَـوْا، تـلـكَ عـادَتُـهُـمْ وإن نـطَـقْـنـا تَـنـادَوْا: فِـتـنَـةٌ عَـمَـمُ

إن سكتنا تهامس الإنجليز يدبرون لنا تدبيراً، وإن نطقنا قالوا إننا ندعو لفتنة شاملة

٣٤ الانقلاب العثماني

نشرت في مايو/أيار (١٩٠٩)، بعد خلع عبد الحميد:

فَـرِحَ الـمـسـلـمـونَ قـبـل الـنـصـارى فـيـكَ قـبـلَ الـدُّرُوزِ قـبـلَ الـيـهـودِ

شـمِـتُـوا كـلُّـهُـمْ ولـيـس مِـنَ الـهِـمَّـةِ أنْ يَـشْـمَـتَ الـوَرى فـي طَـريـدِ

نفي عبد الحميد إلى سلانيك بعد عزله

لـكَ فـي الـدهـرِ ـ والـكـمـالُ مُـحـالٌ ـ صَـفَـحـاتٌ مـا بـيـنَ بِـيـضٍ وسُـودِ

كـانَ عـبـدُ الـحـمـيـدِ بـالأمـسِ فـرداً فـغَـدا الـيـومَ أَلْـفُ عـبـدِ الـحَـمـيـدِ

٣٥ سقوط الطاغية

أنشدها حافظ في حديقة الأزبكية في يوليو/تموز (١٩٠٩)، بعد سقوط عبد الحميد وصدور الدستور:

ومَـنْ لـم يُـشـاهِـدْ يِـلـدِزاً بـعـدَ رَبِّـهِ وقـد زالَ عـنـه الـمُـلْـكُ وانْـدَكَّ جـانِـبُـهْ. .

يلدز: قصر عبد الحميد، ربه: صاحبه

وأَسْلَمَهُ أَحبابُهُ لِقُضاتِهِ   وفَرَّ ـ ولم يَخْشَ المَعَرَّةَ ـ كاتِبُهْ . .
وقَلَّمَتِ الأَقْدارُ أَظفارَ بَطشِهِ   ودَلَّ على ما تَجْهَلُ الجِنُّ حَاجِبُهْ . .

حاجب عبد الحميد دلهم على مكانه الذي تجهله حتى الجن

فما شَهِدَ الدنيا تَزولُ ولا رأى   بَلاءَ قَضاءِ اللهِ فيمَنْ يُحارِبُهْ

من لم يشاهد تلك الأحداث فهو لم يشهد كيف تزول الدنيا، أي النعمة، وكيف يقع قضاء الله على رأس من يحارب الله بظلمه لعباده

ولم يُغْنِ عن عبدِ الحميدِ دَهَاؤُهُ   ولا عَصَمَتْ عبدَ الحميدِ تَجارِبُهْ
ولم يُخْفِهِ عن أَعيُنِ الحقِّ مَخدَعٌ   ولا نَفَقٌ في الأَرضِ جَمٌّ مَسارِبُهْ

النفق الكثير المسارب لم يستطع مواراة عبد الحميد

وأَسرَفَ في حُبِّ الحياةِ فَحاطَها   بِسُورٍ مِن الأَهوالِ لم يَنْجُ راكِبُهْ
وفي كُلِّ رُكْنٍ صُورَةٌ لو تَكَلَّمَتْ   لَمَا شَكَّ في عبدِ الحَميدِ مُخاطِبُهْ
تَماثيلُ إِيهَامٍ أُنيمَتْ وأُقْعِدَتْ   تَراءَى بِها أَعطَافُهُ ومَناكِبُهْ

كان في القصر صور وتماثيل لعبد الحميد في شتى الأوضاع للتمويه، وتبدو فيها جوانب جسمه وكتفاه، فهي صور وتماثيل كاملة للتمويه وليست لوحات بورتريه بغرض الفن

تُمَثِّلُهُ في نومِهِ وجُلُوسِهِ   وتَخْدَعُ فيهِ الموتَ حينَ يُقارِبُهْ
أقامَ عليهِ أَلفَ مَوْتٍ مُحَجَّبٍ   لِيغلِبَ موتاً واحداً عَزَّ غالِبُهْ
وأَخرَجَهُ مِنْ يِلْدِزٍ رَبُّ يِلْدِزٍ   وجَرَّدَهُ مِن سيفِ عُثمانَ وَاهِبُهْ

سيف عثمان: سيف توارثه سلاطين بني عثمان عن مؤسس دولتهم، وكان السلطان يتقلده بعد أسبوعين من توليه السلطنة

مَضى عهدُ الاسْتِبدَادِ وانْدَكَّ صرحُه   ووَلَّتْ أفاعيهِ وماتَتْ عقَارِبُهْ

٣٦ سقى الله «أيام زمان»

إلى البرنس حسين كامل باشا، رئيس مجلس شورى القوانين الذي سيصبح سلطاناً بعد ست سنين، ونشرت في نوفمبر/تشرين الثاني (١٩٠٩):

لَقد نَصَلَ الدُّجى فَمَتى تَنامُ   أَهَمٌّ ذادَ نَومَكَ أم هُيامُ

نصل الدجى: بدا في سواد الليل بياض الفجر مثلما ينصل الشعر المصبوغ فيبدو البياض في أصوله، ذاد نومك: صدّه

لَعَمْرُكَ ما أَرِقْتُ لِغَيرِ مِصْرٍ ... ومَا لي دونَها أَملٌ يُرامُ
ذَكرتُ جلالَها أيامَ كانتْ ... تصولُ بها الفَراعِنَةُ العِظامُ
وأيامَ الرجالُ بها رِجالٌ ... وأيامَ الزمانُ لها غُلامُ
هَلاكُ الفَردِ مَنْشَؤُهُ تَوانٍ ... وموتُ الشعبِ مَنْشَؤُهُ انقِسامُ
وإنَّا قد وَنِينا وانقَسَمْنا ... فلا سعيٌ هناكَ ولا وِئامُ

ونينا: توانينا وتكاسلنا

فساءَ مُقامُنا في أرضِ مصرٍ ... وطَابَ لِغيرِنا فيها المُقامُ

أسطوانة حافظ الأثيرة: الأجانب يرتعون في مصر وأوضاع المصريين سيئة

٣٧ تقييد الصحافة

من قصيدة في تحية العام الهجري، يناير/ كانون الثاني (١٩١٠):

إن البَلِيَّةَ أن تُباعَ وتُشْتَرى ... مِصْرٌ وما فيها وأَلَّا تَنطِقا
كانتْ تُواسِينا على آلامِنا ... صُحُفٌ إذا نزلَ البَلاءُ وأَطْبَقا
كانتْ صِماماً لِلنفوسِ إذا غَلَتْ ... فيها الهُمومُ وأوْشَكَتْ أنْ تُزْهَقا
ما لي أَنوحُ على الصِّحافَةِ جَازِعاً ... ماذا ألَمَّ بها، وماذا أَحْدَقا؟
قَصُّوا حَواشِيَها وظَنُّوا أنَّهُمْ ... أَمِنُوا صَواعِقَها فكانَتْ أَصْعَقا

٣٨ الأم مدرسة

أنشدها في حفل ببورسعيد لإعانة مدرسة البنات، مايو/ أيار (١٩١٠):

كم ذا يُكَابِدُ عاشقٌ ويُلاقي ... في حبِّ مِصرَ كثيرةِ العُشَّاقِ
إنِّي لَأَحمِلُ في هَواكِ صَبابَةً ... يا مِصْرُ قد خَرجتْ عنِ الأَطْواقِ

لعله يقصد: أحبك حباً خرج عن طوقي وقدرتي

لَهْفِي عليكِ مَتَى أراكِ طَليقَةً ... يَحمي كَريمَ حِماكِ شَعبٌ راقِ
مَا البابِلِيَّةُ في صفاءِ مِزاجِها ... والشَّرْبُ بينَ تَنافُسٍ وسِباقِ..

ليست الخمر البابلية الصافية والشَّرْب، أي الشاربون، الذين يتنافسون على ارتشافها..

والشمسُ تَبدُو في الكؤوسِ وتَختَفِي ... والبدرُ يُشرِقُ مِن جَبينِ السَّاقي..

بينما الخمر لامعة كالشمس ترسل أشعتها من الكؤوس الملأى وتختفي في حلوق الشاربين، والساقي الذي يدور عليهم بالخمر وجهه كالبدر..

بِأَلَذَّ مِنْ خُلُقٍ كريمٍ طَاهِرٍ قد مَازَجَتْهُ سَلامَةُ الأَذْواقِ

.. ليست ألذ من الخلق الكريم الممزوج بسلامة الذوق

مَنْ لي بتربيةِ النساءِ فإنَّها في الشرقِ عِلَّةُ ذلكَ الإخفاقِ
الأمُّ مَدرسةٌ؛ إذا أَعددْتَها أعددْتَ شَعباً طَيِّبَ الأَعْراقِ

حتى لو كان هذا أحد أشهر أبيات الشعر السائرة على الألسن فإن التربية الحسنة تنشئ شعباً طيب الخلق ومتقناً للعمل.. هذا شيء والأعراق.. أي النسب العالي شيء آخر. ولا أدري أين ذهبت كلمة «الأخلاق» عن شاعرنا كي يقعدها في مقعد القافية ويريحنا من أعراقه

الأُمُّ رَوْضٌ إنْ تَعَهَّدَهُ الحَيا بالرِّيِّ أَوْرَقَ أَيَّما إيراقِ

الأم بستان إن تعهده الحيا، وافاه المطر، أصبح مورقاً بورق كثير

أنا لا أقولُ دَعُوا النِّساءَ سَوافِراً بينَ الرجالِ يَجُلْنَ في الأسواقِ
يَفعلْنَ أفعالَ الرجالِ لَواهِياً عن واجباتِ نَواعِسِ الأَحْداقِ

لواهياً: لاهيات عابثات، «نواعس الأحداق» تعبير بارد لكنه يظل أحسن من مرادفه «الجنس اللطيف»

في دُورِهِنَّ شُؤونُهُنَّ كثيرةٌ كَشُؤونِ رَبِّ السَّيفِ والمِزْراقِ

المزراق: الحَربة

كَلَّا، ولا أدعُوكُمُ أن تُسْرِفُوا في الحَجْبِ والتَّضييقِ والإرهاقِ
ليست نِساؤُكُمُ حُلَىً وجَواهِراً خوفَ الضَّياعِ تُصَانُ في الأَحقاقِ

الأحقاق: العلب الصغار، والمفرد حُقّ

ليست نساؤُكُمُ أثاثاً يُقتَنَى في الدُّورِ بينَ مَخادِعٍ وطِباقِ

المخادع: الحجرات، الطباق: لعلها الأدوار أو الطوابق

تَتَشَكَّلُ الأزمانُ في أدوَارِها دُولاً، وهُنَّ على الجُمودِ بَواقِ

الزمن يتغير دولاً، تتداوله الحوادث والأقوام، والنساء جامدات على وضعهن

فَتوسَّطُوا في الحالَتَيْنِ وأَنصِفُوا فالشرُّ في التقييدِ والإطلاقِ
رَبُّوا البَناتِ على الفضيلةِ إنَّها في المَوْقِفَيْنِ لَهُنَّ خيرُ وِثاقِ

الموقفان: التقييد والإطلاق لحرية المرأة، الوِثاق: الحبل

وعليكُمُ أن تَستَبينَ بَناتُكُمْ نُورَ الهُدى، وعلى الحَياءِ البَاقي

٣٩ رثاء تولستوي

نوفمبر/تشرين الثاني (١٩١٠):

ولستُ أُبالِي حينَ أبكيِكَ لِلورى حَوَتْكَ جِنانٌ أم حَواكَ سَعيرُ

فإنِّي أُحِبُّ النَّابِغينَ لِعِلْمِهِمْ وأَعْشَقُ روضَ الفكرِ وَهْوَ نضيرُ

دعوتَ إلى عيسى فضجَّتْ كَنائِسٌ وهُزَّ لها عرشٌ ومَادَ سَريرُ

وفي آخر حياته مال تولستوي إلى الدين ميل زهد

وقالَ أُناسٌ إنَّه قولُ ملحدٍ وقال أناسٌ إنَّه لَبشيرُ

إذا زُرْتَ رَهْنَ المَحبِسَيْنِ بِحُفْرَةٍ بها الزهدُ ثاوٍ والذكاءُ سَتيرُ..

إن زرت حفرة رهين المحبسين أبي العلاء المعري التي فيها الزهد ثاو، مقيم، والذكاء ستير، مستور..

فقِفْ ثم سَلِّمْ، واحتشِمْ إنَّ شيخَنا مَهيبٌ على رغمِ الفناءِ وَقورُ

وسَائِلْهُ عمَّا غابَ عنكَ، فإنه عليمٌ بأسرارِ الحياةِ بَصيرُ

يُخَبِّرُكَ الأعمَى وإن كنتَ مبصراً بما لم تُخَبِّرْ أَحرُفٌ وسُطورُ

يُناديكَ: أهلاً بالذي عاش عَيْشَنا وماتَ ولم يَدْرُجْ إليه غُرورُ

وكان تولستوي من النبلاء ذوي المال والمزارع، وترك هذا كله في آخر عمره زهداً

قَضيتَ حياةً مِلؤُها البِرُّ والتُّقَى فأنتَ بِأجرِ المُتَّقينَ جديرُ

حياةُ الورى حربٌ وأنتَ تريدُها سلاماً، وأسبابُ الكفاحِ كثيرُ

أبَتْ سُنَّةُ العُمرانِ إلَّا تَناحُراً وكدحاً ولو أنَّ البقاءَ يَسيرُ

سنة العمران: طبيعة المجتمع الإنساني

ولولا امتزاجُ الشرِّ بالخيرِ لم يَقُمْ دليلٌ على أنَّ الإلَهَ قديرُ

ولم يبعثِ اللّهُ النبيينَ لِلهُدى ولم يتطلَّعْ للسريرِ أميرُ

السرير: العرش

ولم يَعشقِ العَلياءَ حُرٌّ ولم يَسُدْ كريمٌ ولم يَرْجُ الثَّراءَ فقيرُ

فكم في طَريقِ الشرِّ خيرٌ ونِعْمَةٌ وكم في طريقِ الطيِّباتِ شُرورُ

٤٠ يا وابور قل لي

إعانة ملجأ رعاية الأطفال، أنشدها في حفل بالأوبرا، فبراير/شباط (١٩١١):

صفحةُ البرقِ أَوْمَضَتْ في الغمامِ أم شهابٌ يَشُقُّ جوفَ الظلامِ؟

يصف القطار: أهو في سرعته كالبرق بين الغيوم، أم كالشهاب الساقط وسط الظلام؟

أم سَليلُ البُخارِ طارَ إلى القَصْـ ـدِ فأعيا سَوابِقَ الأَوْهامِ؟

أم أن هذا هو سليل البخار، ابن البخار أي القطار، يطير نحو مقصده فيعجز سوابق الأوهام، الخيال السابق عصره؟

مَرَّ كاللَّمْحِ لم تَكَدْ تَقِفُ العَيْـ ـنُ على ظِلِّ جِرْمِهِ المُتَرامي

أو كَشَرْخِ الشبابِ لم يَدْرِ كَاسيـ ـهِ تَوَلَّى في يَقظَةٍ أَوْ مَنامِ

مر القطار سريعاً كعصر الشباب الباكر الذي يمر وينقضي سريعاً فلا يدري كاسيه، أي صاحبه المكتسي به، أذهب الشباب في اليقظة أم في الحلم

لا يُبالي السُّرَى إذا اعتَكَرَ الليـ ـلُ وخانَتْ مَواقِعُ الأَقدامِ

يَقطَعُ البِيدَ والفَيافي وحيداً لم تُضَعْضِعْهُ وَحشةُ الإظلامِ

البيد هي الفيافي هي الصحارى

ليسَ يَثنيهِ ما يُذيبُ دِماغَ الضَّـ ـبِّ يومَ الهَجيرِ بينَ المَوامي

ليس يثني القطار عن عزمه الحر الشديد، الذي تصورت العرب أنه يذيب دماغ الضب في الهجير، القيظ، بين الموامي، أي الصحارى

لا ولا يَعتَريهِ ما يُخرِسُ النَّا بِحَ في الزَّمْهَريرِ بينَ الخِيامِ

ولا يعتريه البرد الذي يجعل الكلب يخرس عن النباح بين خيام القوم في الزمهرير

هائِمٌ كالظَّليمِ أَزْعَجَهُ الصَّيْـ ـدُ وَراعَتْهُ طَائِشاتُ السِّهَامِ

الظليم: ذكر النعام

يا حَديداً يَنسابُ فوقَ حَديدٍ كانسِيابِ الرَّقْطاءِ فوقَ الرَّغَامِ

الرقطاء: الحية المرقطة أي المنقطة، والرغام: التراب

قد مَسَحْتَ البِلادَ شرقاً وغرباً بِذِراعَيْ مُشَمِّرٍ مِقدامِ

بينَ جَنْبَيْكَ ما بِجَنْبَيَّ لَكِنْ ما بِجَنْبَيَّ مُستَديمُ الضِّرامِ

بين جنبيك أيها القطار حرارة من المرجل المشتعل كي ينتج البخار، وفي جنبيَّ أنا لهيب. لكن ضرام لهيبي، اشتعاله، دائم

أنتَ لا تعرفُ الغَرامَ، وإن كُنْـ ـتَ تُرينا زَفيرَ أهلِ الغَرامِ
أنتَ لا تعرفُ الحنينَ إلى الإلْـ ـفِ فَما هَذهِ الدُّموعُ الهَوامي
الهوامي: الهاطلة.. يتحدث عن قطار يسير بالبخار

لا تُبالي أَرُعْتَ بِالبَيْنِ أَحبا باً وأَسْرَفْتَ في أَذى المُسْتَهامِ..
لا تبالي أرعت، أأخفت، بالفراق أحباباً وأسرفت في إلحاق الأذى بالمستهام، العاشق الهائم..

أمْ جَمعْتَ الأعداءَ فوقَ صَعيدٍ وخَلَطْتَ الأُسودَ بِالآرامِ
أم جمعت الأعداء داخلك على صعيد واحد، وخلطت الأسود، الرجال، بالآرام، بالنساء. سيقول أحمد رامي بعد ثلاثين سنة من هذه القصيدة «يا وابور قُلْ لي رايح على فين.. قربت غريب وبعدت قريب/وجمعت حبيب على شمل حبيب» والوابور هو القطار، من كلمة «فيبر» ومعناها بخار

قد عَلِمْنا أنَّ الزَّكَاةَ سَبيلُ اللَّـ ـهِ قبلَ الصَّلاةِ قبلَ الصِّيامِ
لم أَقِفْ مَوقِفي لِأُنشِدَ شِعراً صُبَّ في قَالَبٍ بَديعِ النِّظامِ
إنَّما قُمْتُ فيهِ والنفسُ نَشْوى مِن كُؤُوسِ الهُمومِ، والقلبُ دَامِ
ذُقْتُ طعمَ الأَسى وكابَدْتُ عيشاً دونَ شُربِي قَذاهُ شُربُ الحِمامِ
ذقت عيشة أخف من قذاها، شوائبها ووسخها، الموت نفسه

فتَقَلَّبْتُ في الشقاءِ زماناً وتنقَّلْتُ في الخطوبِ الجِسامِ
ومَشى الهمُّ ثاقباً في فُؤادي ومَشى الحزنُ نَاخراً في عِظامي
ثاقباً: مشتعلاً

فَلِهذا وَقَفْتُ أَسْتَعطِفُ النَّا سَ على البائِسينَ في كلِّ عامِ

٤١ رثاء المرتاب

رثاء الدكتور شبلي شميل، أنشدها في فبراير/شباط (١٩١١):

سكَنَ الفيلسوفُ بعدَ اضْطِرابِ إنَّ ذاكَ السكونَ فَصْلُ الخطابِ
حزِنَ العلمُ يومَ مُتَّ، ولكنْ أَمِنَ الدينُ صَيْحَةَ المُرْتابِ
بموتك حزن العلم، واطمأن الدين من صيحة رجل مرتاب في الدين هو أنت

كنتَ تَبغي بَرْدَ اليقينِ على الأر ضِ وتَسعَى وراءَ لُبِّ اللُّبابِ
حاولت معرفة حقيقة الإنسان وخلقه وأنت بعد على الأرض حياً.. وهذا شيء قد يعرفه المرء بعد موته

فاسترِحْ أيها المجاهدُ واهْدَأْ ... قد بلغتَ المرادَ تحتَ الترابِ

هذا عزاؤنا كلنا.. فبعد الموت سنعرف حقيقة الحكاية

وعرفتَ اليقينَ وانبَلَجَ الحقُّـ ... لِعينَيْكَ ساطعاً كالشهابِ
ليتَ شِعري وقد قَضيتَ حَياةً ... بينَ شكٍّ وحَيْرَةٍ وارتيابِ..
هل أتاكَ اليقينُ مِن طُرُقِ الشكِّـ ... فَشَكُّ الحكيمِ بَدْءُ الصَّوابِ؟
لم يَكُنْ مُلْحِداً ولكنْ تَصَدَّى ... لِشؤونِ المُهَيْمِنِ الوهَّابِ
رامَ إدراكَ كُنهِهِ ما أعجزَ النا ... سَ قديماً، فلم يَفُزْ بالطِّلابِ
إيهِ شِبلي! قد أكثَرَ الناسُ فيكَ الـ ... ـقولَ حتى تفنَّنوا في عتابي
قيلَ: تَرثي ذاكَ الذي ينكرُ النُّو ... رَ ولا يَهتَدي بِهَدْيِ الكتابِ؟
قلتُ: كُفُّوا فإنَّما قمتُ أَرثي ... منه خِلّاً أمْسى طويلَ الغيابِ
أنا واللَّهِ لا أُحابيهِ في القو ... لِ فقد كانَ صَاحِبي لا يُحابي
أنا أَرْثي شَمائلاً منه عندي ... كُنَّ أَحلَى مِن الشُّهادِ المُذابِ

أرثي شمائلاً منه، أي أخلاقاً، عندي كُنَّ، أي كُنَّ بالنسبة لي، أحلى من الشهاد، جمع شهد

كانَ حُرَّ الآراءِ لا يعرِفُ الخَتْـ ... ـلَ ولا يَستَبيحُ غَيْبَ الصِّحابِ

الختل: الخداع

مُفْضِلاً محسناً على العسرِ واليسـ ... ـرِ، جميعَ الفُؤادِ رَحبَ الجَنابِ

كان جميع الفؤاد: شجاعاً، كان رحب الجناب: واسع الصدر كريماً

كان في الوُدِّ موضعَ الثقةِ الكبـ ... ـرى، وفي العلمِ موضعَ الإعجابِ
نُكِبَ الطبُّ فيهِ يومَ تَوَلَّى ... وأُصيبَتْ رَوائِعُ الآدابِ

٤٢ فراش العاشق

من قصيدة مدح في الخديوي عباس حلمي (١٩١١):

أَشْكُو لِذاتِ الخالِ ما صَنعتْ بِنا ... تلكَ العُيونُ وما جَناهُ المِعْصَمُ
لو تَنظُرِينَ إليهِ في جوفِ الدُّجَى ... متَمَلْمِلاً مِن هَولِ ما يَتَجَشَّمُ
يَمشي إلى كَنَفِ الفِراشِ مُحاذِراً ... وَجِلاً يُؤَخِّرُ رجلَهُ ويُقَدِّمُ
يَرمي الفِراشَ بِناظِرَيْهِ ويَنثَني ... جَزَعاً ويُقْدِمُ بعدَ ذاكَ ويُحْجِمُ

يخشى العاشق دخول فراشه لأنه لن يستطيع النوم، وسيتقلب متألماً من عشقه

رُشِقَتْ به في كلِّ جَنْبِ مُدْيَةٌ   وانسابَ فيه بِكلِّ رُكْنٍ أَرْقَمُ

فكأن في كل جنبات فراشه مدى، سكاكين، وقد انساب في كل ركن من أرقم، ثعبان

فكأنَّهُ في هَوْلِهِ وسعيرِهِ   وادٍ قد اطَّلَعَتْ عليهِ جَهَنَّمُ

هذا وحَقِّكِ بعضُ ما كابَدْتُهُ   مِن نَاظِرَيكِ، وما كَتَمْتُكِ أَعظَمُ

أَصْغَتْ إلى قولِ الوُشاةِ فَأَسْرَفَتْ   في هَجْرِها وجَنَتْ عليَّ وأَجْرَمُوا

حتى إذا يئِسَ الطبيبُ وجاءَها   أَنِّي تَلِفْتُ تَنَدَّمَتْ وتَنَدَّمُوا

٤٣ المتصدي للخديوي

رثاء مصطفى رياض، رئيس وزراء مصر في ثلاث حكومات، وأنشدها في حفل الأربعين يوليو/تموز (١٩١١):

وَقَفْتَ لإسماعيلَ والأمرُ أمرُهُ   وفي كَفِّهِ سيفٌ مِنَ البطشِ يَلمَعُ

كان رياض باشا نائب رئيس لجنة التحقيق في الوضع المالي لمصر في أواخر عهد الخديوي إسماعيل، ورغم أنه صنيعة إسماعيل فقد أدى دوره بأمانة مما أزعج الخديوي، لكن الإنجليز والفرنسيين دعموا رياضاً. وبعد ذلك بسنة وبعض السنة تولى رياض رئاسة أول حكومة في عهد الخديوي توفيق بعد عزل إسماعيل

إذا صاحَ لَبَّاهُ القضاءُ وأسرعتْ   إلى بابِه الأيامُ، والناسُ خُشَّعُ

كأن القضاء والقدر كانا في خدمة إسماعيل

فما أَغْلَبٌ شَاكِي العزيمةِ أَرْوَعٌ   يُصارِعُهُ في الغابِ أَغْلَبُ أَرْوَعُ..

فليس الأغلب، أي الأسد، الشاكي العزيمة، المسلح بجرأته وعزمه، الأروع، الشجاع، الذي يصارع مثيله في الغابة..

بِأَجرأَ مِن ذاكَ الوزيرِ مصادِماً   إرادَةَ إسماعيلَ والموتُ يَسمَعُ

ليس بأجرأ من هذا الوزير وهو يصادم الخديوي إسماعيل، وهو يسمع صوت الموت يتهدده

وأَرهَبْتَ حُكَّامَ الأقاليمِ فارْعَوَوْا   وكانوا أناساً في الجَهالَةِ أَوْضَعُوا

أرهبت حكام الأقاليم فارعووا، كفوا عن غيهم، وكانوا قد أوضعوا، أسرعوا، في طريق الجهالة، الضلال

فَخافُوكَ حتى لو تناجَوْا بِنَجْوَةٍ   لَخالُوا رِياضاً فوقَهُمْ يتَسَمَّعُ

تناجوا: تهامسوا

أَقمتَ عليْهِمْ زَاجِراً مِنْ نُفوسِهِمْ   إذا سَوَّلَتْ أمراً لَهُمْ قامَ يَرْدَعُ

٤٤ اعتذار عن التخلف

اعتذار إلى أحمد شوقي، عن عدم حضور زواج ابنته، نشرت في يناير/ كانون الثاني (١٩١٣):

قــد عــاقَــنــي ســوءُ حَــظِّــي　　عــن حَــفــلَــةِ الــمِــهــرَجــانِ

وقــد كَــفــانــي عِــقــابــاً　　مــا كــانَ مِــن حِــرمــانــي

إنْ فَــاتَــنــي أنْ أُوَفِّــي　　بِــالأمــسِ حَــقَّ الــتَّــهــانــي

فــاقْــبَــلْــهُ مِــنِّــي قَــضــاءً　　وكُــنْ كــريــمَ الــجَــنــانِ

الجنان: القلب

والــلَّــهُ يَــقــبَــلُ مِــنَّــا الــصَّــ　　ـلاةَ بــعــدَ الأَوانِ

٤٥ القُعود

من محاورة بين حافظ وخليل مطران في حفل أقامته جمعية رعاية الطفل بالأوبرا: نشرت في مارس/ آذار (١٩١٣):

قَــعَــدَتْ شُــعــوبُ الــشــرقِ عــن　　كــســبِ الــمَــحــامِــدِ والــمَــفــاخِــرْ

فَــوَنَــتْ وفــي شَــرعِ الــتَّــنَــا　　حُــرِ مَــن وَنَــى لا شَــكَّ خَــاسِــرْ

ونت: توانت وكسلت

تَــمــشِــي الــشــعــوبُ لِــقَــصــدِهــا　　قُــدُمــاً وشــعــبُ الــنِّــيــلِ آخِــرْ

٤٦ رثاء متأخر

(١٩١٤):

مَلِلْتُ وقوفي بينَكُمْ مُتَلَهِّفاً　　على راحلٍ فارقْتُهُ فَشَجاني

أفي كلِّ يومٍ يَبْضَعُ الحزنُ بَضْعَةً　　مِن القلبِ؟ إنِّي قد فَقدتُ جَناني

يبضع بضعة: يقطع قطعة، والجنان هو القلب

كَفانيَ ما لُقِّيتُ مِن لَوْعةِ الأسى،　　وما نابني يومَ الإمامِ كَفاني

كفاني ذلك الحزن على الإمام محمد عبده

تفرَّقَ أحبابِي وأهلِي، وأَخَّرَتْ　　يدُ اللَّهِ يَومِي فانتظرتُ أَواني

وفـي ذِمَّـتـي لِـلـيـازِجـيِّ وديـعـةٌ   وأخـرى لِـزَيْـدانٍ وقـد سَـبَـقـانـي

في ذمتي وديعة، أمانة، برثاء إبراهيم اليازجي وتوفي قبل القصيدة بثماني سنين، وأخرى برثاء جرجي زيدان، وقد سبقاني للقبر. . وهل ترانا يا حافظ سنظن أنك سبقتهما؟

فيا ليتَ شِعري ما يَقولانِ في الثَّرى   إذا الـتَـقَـيـا يـومـاً وقـد ذَكَـرانـي

وقد رَمَيا بالطَّرْفِ بينَ جُموعِكُمْ   ولـم يَشـهـدا في الـمشـهـدينِ مكاني

أيَـجـمُـلُ بـيِ هـذا الـعـقـوقُ، وإنَّـمـا   على غيرِ هذا العهدِ قد عَرَفاني

دعـانـيِ وفـائـيِ يـومَ ذاكَ فـلـم أكُـنْ   ضَـنـيـنـاً ولـكـنَّ الـقَـريـضَ عَـصَـانـي

٤٧ شعرنا وشعرهم

تحية إلى واصف غالي، وقد نشر ترجمة لقصائد من الشعر العربي القديم إلى الفرنسية، يونيو/ حزيران (١٩١٤):

غَرَستَ مِن زَهَراتِ الشرقِ طائفةً   في أرضِ هيجو فجاءتْ طُرْفةَ الجاني

غرست من زهرات الشعر العربي مجموعة في أرض هيجو، فرنسا، فكانت شيئاً طريفاً، غريباً، لمن يجني هذه الزهرات أي لمن يقرأ هذه الأشعار

أسمعْتَهُمْ مِن نَسيبِ القومِ فانطَلَقَتْ   شـؤونُ كـلِّ شَـجِـيٍّ الـقـلـبِ وَلـهـانِ

انطلقت شؤون كل شجي القلب: اندفعت الدموع من عينيه، «فالشؤون» مجاري الدمع في العيون

وزِدْتَـهُـمْ مِن كـلامِ البحتُري قِطَعاً   مثلَ الـرياضِ كَسَتْـها كَفُّ نـيِسانِ

سَلْ أَلْـفَـريـدَ ولامَـرْتـيِـنَ هـل جَـرَيـا   مـع الـولـيـدِ أو الـطَّـائـي بِـمَـيْـدانِ

ألفريد دي موسيه، ولامرتين من شعراء فرنسا، والوليد هو البحتري، والطائي هو أبو تمام

ما لـيِ أفاخِرُ بـالـمـوْتَـى وبـيـنَ يـديِ   مِن شعرِ أَحيائِنا ما ليس بِالفاني

في شعرِ شوقي وصبري ما نَتيِهُ به   عـلـى نـوابِـغِـهِـمْ، دَعْ شِـعـرَ مُـطْـرانِ

أي ناهيك بشعر مطران

٤٨ فلهلم القصاب

إلى فلهلم الثاني إمبراطور ألمانيا وقد بدأت الحرب العالمية الأولى، نشرت في يناير/ كانون الثاني (١٩١٥):

لا تَـحْـسَـبَـنَّ الـفـخـرَ مـا أَحْـرَزْتَـهُ   الـفـخـرُ بِـالـذكـرِ الـجـمـيـلِ رَهـيِـنُ

هـل شِـدْتَ فـي بِـرلـيِـنَ غـيـرَ مُـعَـسْـكَـرٍ   قـامـتْ عـلـيـه مَـعـاقِـلٌ وحُـصـونُ

وجَمَعْتَ شَعبَكَ كلَّهُ في قَبْضَةٍ   إن لم تَكُنْ لانَتْ فسوفَ تَلينُ
نَظَمَتْ تِجارَتُكَ المدائنَ والقُرى   فالنيلُ ناءَ بِها وناءَ السِّينُ

النشاط التجاري الألماني انتشر في كل مكان، وناء به، تضرر من ثقله، الناس في مصر وفي فرنسا.. والسين نهر باريس

فبِكُلِّ أرضٍ مِن رِجالِكَ عُصْبَةٌ   وبكلِّ بحرٍ مِن لَدُنْكَ سَفينُ
فالأمرُ أَمْرُكَ والمُهَنَّدُ مُغمَدٌ   والنَّهْيُ نَهْيُكَ والسُّرى مَأْمُونُ

كان الأمر والنهي لك قبل الحرب، وكانت الطرق آمنة والسرى، سير الليل، آمناً. وكان للألمان مع الدولة العثمانية عهود وتجارات وإنشاءات

فَعلامَ أرهَقْتَ الوَرى وأَثَرْتَها   شَعْواءَ فيها لِلهلاكِ فنونُ؟
تَاللَّهِ لو نُصِرَتْ جيوشُكَ لانْطَوى   أَجَلُ السلامِ وأَقْفَرَ المَسْكونُ
سَبعونَ مِليوناً إذا وَزَّعْتَها   بينَ الحَواضِرِ نَالنا مِليونُ

لو انتصرت فسوف يقفر المسكون، أي العالم، وسيتوزع السبعون مليون ألماني على الدنيا، وسيكون نصيب مصر منهم مليوناً. مع بدء الحرب العالمية الأولى كان عدد سكان ألمانيا ٦٨ مليوناً، وسكان مصر عشرة ملايين. اليوم في مطلع ٢٠١٧: ألمانيا: ٨٠، ومصر ٩٢ مليوناً

أكثَرْتَ مِن ذكرِ الإلهِ تَوَرُّعاً   وزَعَمْتَ أنَّكَ مُرسَلٌ وأَمينُ
عجباً أتذكُرُهُ وتَملأُ كَوْنَهُ   وَيْلاً، لِيَنعَمَ شعبُكَ المَغْبُونُ
وكذلكَ القَصَّابُ يذكُرُ رَبَّهُ   والنَّصْلُ في عُنُقِ الذَّبيحِ دَفينُ

٤٩ لا مثيل للإنجليز!

تهنئة السلطان حسين كامل بالسلطنة، يناير/كانون الثاني (١٩١٥):

هنيئاً أيها المَلِكُ الأجَلُّ   لكَ العرشُ الجديدُ وما يُظِلُّ

العرش الجديد: عرش مصر الذي أصبح صاحبه الآن سلطاناً لا مجرد خديوي، فدخول تركيا الحرب العالمية الأولى مع المحور ضد بريطانيا جعل بريطانيا تلغي تبعية مصر لإستانبول، وتعزل الخديوي عباساً وتولي حسين كامل العرش باسم «السلطان»، مضاهاة للقب «السلطان» العثماني. فله العرش وله ما يظله هذا العرش، وهو يظل أرض مصر

وجَدِّدْ سيرةَ العُمَرَيْنِ فينا   فإنكَ بينَنا للهِ ظِلُّ

العمران: أبو بكر وعمر

فعِشْ للنيلِ سلطاناً أبِيّاً   له في مُلْكِهِ عَقْدٌ وحَلُّ

ووَالِ القومَ إنَّهُمُ كِرامٌ مَيامينُ النَّقيبَةِ أينَ حَلُّوا

ينصحه بموالاة الإنجليز فهم ميامين النقيبة، كرام الطباع، ولهم في كل بلد يحلونه مآثر. السلطان لم يكن بحاجة للنصيحة فالإنجليز هم الذين ولوه العرش، وأما أنهم كرام ففي هذا نظر

لَهُمْ مُلْكٌ على التَّاميزِ أضْحَتْ ذُراهُ على المَعالي تَسْتَهِلُّ

ملكهم على نهر التّمز، نهر لندن، ذراه، قممه تستهل، وتظهر، على المعالي

فإن صادقْتَهُمْ صَدَقُوكَ وُدّاً وليس لهُمْ، إذا فَتَّشْتَ، مِثْلُ

وإن نادَيْتَهُمْ لَبَّاكَ مِنهُمْ أَساطيلٌ وأسيافٌ تُسَلُّ

٥٠ شكسبير

في ذكرى ثلاثمئة عام على وفاة شكسبير، نشرت في مارس/ آذار (١٩١٦):

يُحيِّيكَ مِن أرضِ الكِنانَةِ شاعِرٌ شَغوفٌ بِقوْلِ العَبقريِّينَ مُغرَمُ

نظرتَ بعينِ الغيبِ في كلِّ أمَّةٍ وفي كلِّ عصرٍ ثم أَنشأْتَ تَحكُمُ

فلم تَخْطِئِ المَرمَى، ولا غَرْوَ أن دَنَتْ لكَ الغايةُ القُصْوى، فإنَّكَ مُلْهَمُ

أَفِقْ ساعةً وانظُرْ إلى الخلقِ نظرةً تجِدْهُمْ وإن راقَ الطِّلاءُ هُمُ هُمُ

فَليتَكَ تَحيا يا أبا الشِّعرِ ساعةً لِتنظُرَ ما يُصْمي ويُدْمي ويُؤْلِمُ

يصمي: يصيب إصابة قاتلة

وقائعَ حربٍ أَجَّجَ العِلْمُ نارَها فكادَ بِها عهدُ الحَضارةِ يُخْتَمُ

الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨

وتَعْلَمَ أنَّ الطبعَ ما زالَ غالباً سواءٌ جَهولُ القومِ والمتعَلِّمُ

وَلُوعٌ بِتصويرِ الطِّباعِ فلَمْ يَجُزْ بِعاطِفَةٍ إلَّا حَسِبْناهُ يَرْسُمُ

لشكسبير ولع بتصوير طباع البشر فلم يجز، يمر، بعاطفة إلا وصفها كأنه يرسمها رسماً

وقالوا تَحَدَّانا بِما يُعْجِزُ النُّهَى فَلَسْنا إذنْ آثارَهُ نَتَرَسَّمُ

قال بعضهم: لن نترسم أثار شكسبير، ولن نحاكيه، لأنه تحدانا بما يعجز النهى، العقول

ولم يَتَحَدَّ الناسَ لكنَّهُ امْرُؤٌ بِما كانَ في مَقدُورِهِ يَتكلَّمُ

لئن كانَ في ضَخْمِ الأَساطيلِ فَخْرُكُمْ لَفَخْرُكُمْ بِالشاعِرِ الفَرْدِ أَعظَمُ

أيها الإنجليز فخركم بشكسبير أعظم من فخركم بأساطيلكم الضخمة. لو عاش حافظ حتى عام ١٩٤٥ لرأى بريطانيا تسلم قوتها البحرية للولايات المتحدة بكل هدوء ضمن خطة «الإعارة والإيجار» الأميركية. في هذا العام ٢٠١٦ ـ وأنا أكتب في اليوم قبل

الأخير من أيامه - احتفل العالم بالذكرى الأربعمئة على وفاة شكسبير. يبدو أن الرجل خالد فعلاً رغم ما رماه به تولستوي من نقد جارف ماحق، وأديب روسيا الكبير قرأ شكسبير بالإنجليزية وبالروسية ولم يجد فيه عظمة، ونال من الإنجليزي جورج أورويل ما يستحق من ردّ. وحافظ إبراهيم لم يقرأ شكسبير لا بالروسية ولا بالإنجليزية، ولكنه اطلع على بعض مسرحياته من ترجمات صديقه مطران عن الفرنسية. وللأمانة أقول إنني قرأت عدداً من مسرحيات شكسبير في بداية سن الشباب في ترجمات مطران، وعندما قرأت بعضها بلغتها لم أجد فيها شيئاً مختلفاً، ولا ألوم نفسي، بل أتذكر آدم متز. فهذا المستشرق الألماني كتب كتاباً كبيراً عن الحضارة العربية استند فيه إلى عشرات المخطوطات والكتب القديمة التي حرثها حراثةً وأظهر في كتابه معرفة عميقة باللغة العربية في شتى عصورها، آدم متز هذا عندما بدأ يتكلم عن الشعر العربي منح المتنبي فقرة صغيرة ونبذه ظِهريًّا واستخف بأبي فراس الحمداني استخفافاً، ثم رأيته منح الصنوبري صفحات عدة ومدحه كثيراً! وجدته لا يحس بما في الشعر من تيار خفي يتجاوز المعنى الظاهر. ولو عاش متز ليسمع نصح الفرنسي بلاشير في الصفحات الأخيرة من كتابه عن المتنبي لشاب إلى الرشد: لقد أقر بلاشير، وهو من خير من يفهم العربية بين كل المستشرقين، بأن الإحساس بالشعر هو شغل أبناء اللغة الأصليين، خيراً قال

٥١ بين شوقي وحافظ

نشرت القطعتان عام (١٩١٧) كتب شوقي من منفاه بإسبانيا:

يا سَاكِني مِصرَ إنَّا لا نَزالُ على ... عهدِ الوفاءِ - وإنْ غِبْنا - مُقيمِينا

هلَّا بعثْتُمْ لنا مِن ماءِ نَهرِكُمُ ... شيئاً نَبُلُّ به أحْشاءَ صَادِينا

صادينا: عطشاننا

كلُّ المَناهِلِ بعدَ النيلِ آسِنَةٌ ... مَا أبعَدَ النيلَ إلَّا عنْ أمانينا

آسنة: راكدة فاسدة

فأجابه حافظ:

عَجِبْتُ للنيلِ يَدري أن بُلبُلَهُ ... صَادٍ ويَسقي رُبَا مِصْرٍ ويَسقينا

واللَّهِ ما طابَ لِلأصحابِ مَوْرِدُهُ ... ولا ارْتَضَوْا بعدَكُمْ مِن عيْشِهِمْ لِينا

لم تَنْأَ عنهُ وإنْ فارقْتَ شاطِئَهُ ... وقد نَأَيْنا وإنْ كُنَّا مُقيمِينا

٥٢ أيا صوفيا

قالها في أعقاب الحرب العالمية الأولى وقد خيف أن تحتل دول الغرب إستانبول، وتعود آيا صوفيا كنيسة، ونشرت في (١٩٣٢):

أَيَا صُوفِيا حانَ التفَرُّقُ فاذكُري ... عهودَ كِرامٍ فيكِ صَلَّوْا وسَلَّمُوا

نفض حافظ يديه من إستانبول وظن دول الغرب ستمتلكها وتحول المعلم المشهور إلى كنيسة مثلما كان

فلا تُنكِري عهدَ المآذِنِ إنَّهُ   على اللَّهِ مِنْ عهدِ النَّواقيسِ أكرَمُ
وكيف يَذِلُّ المسلمونَ وبيْنَهُمْ   كتابُكَ يُتلَى كلَّ يومٍ ويُكْرَمُ؟
نَبِيُّكَ مَحزونٌ وبيتُكَ مُطرِقٌ   حياءً وأنصارُ الحقيقةِ نُوَّمُ
عَصَيْنا وخالَفْنا فعاقَبْتَ عادِلاً   وحَكَّمْتَ فينا اليومَ مَن ليس يَرحَمُ

في كل العصور، عند المسلمين والمسيحيين وعند كل الناس في كل الأزمات، تتردد بعد الهزيمة عبارة: «عصينا الله فهذا عقاب منه»، وهي عبارة المغلوبين المتواكلين المهملين اللاعقلانيين الكسالى الذين يلقون باللوم في هزيمتهم على الآلهة بينما المسؤول عنها حضراتهم

٥٣ حياء السلطان المعطاء

رثاء السلطان حسين كامل، نشرت في نوفمبر/تشرين الثاني (١٩١٧):

دُكَّ ما بينَ صَحْوَةٍ وعَشِيٍّ   شَامِخٌ مِن صُروحِ آلِ عَلِيٍّ

انهدم صرح شامخ من صروح آل «محمد علي» مؤسس الدولة، وهذا الصرح هو السلطان حسين كامل

حبسَ الخطْبُ فيكَ ألسِنَةَ القو   لِ، وأعيا قَريحَةَ العَبقَرِيِّ
وإذا جلَّتِ الخطوبُ وطَمَّتْ   أعجزتْ في القريضِ طَوْقَ الرَّوِيِّ
لَهْفَ نفسي على انبِساطِكَ لِلضَّيْـ   ـفِ وذَيَّالِكَ الحَديثِ الشَّهِيِّ

وكان السلطان يقرب حافظاً قبل تولي السلطنة وبعده

يَحسَبُ الدارَ دارَهُ وَهْوَ يَمشي   فوقَ زاهي بِساطِكَ الأَحْمَدِيِّ

الضيف يحسب دارك داره، وأنت تبسط له البساط الأحمدي، أي تعامله بأريحية (وأصل العبارة بساط كان للسيد أحمد البدوي وكان كلما قعد ناس عليه اتسع)

خُلُقٌ مثلَما نَشَقْتَ أَريجَ الزَّ   هْرِ جَادَتْهُ زَوْرَةُ الوَسْمِيِّ

أخلاقك كانت كرائحة الزهر وقد جادته، أمطرته، مطرة الوسمي، وهي أول مطر الربيع

واهْتِزازٌ لِلعُرْفِ مِثلُ اهتِزازِ السَّـ   ـيفِ في قَبْضَةِ الشجاعِ الكَمِيِّ

الكمي: المسلح

وحياءٌ عند العَطِيَّةِ يَنفي   خَجَلَ السائلِ الكريمِ الأَبِيِّ
رَحِمَ اللَّهُ يا حسينُ خِلالاً   فيكَ لم يَجْتَمِعْنَ في نفسِ حَيِّ

٥٤ العُمَريَّة

ألقيت في مدرج وزارة المعارف مساء الجمعة ٨ فبراير/شباط (١٩١٨):

حَسْبُ القَوافي وحَسبي حينَ أُلقِيها ... أنّي إلى ساحةِ الفاروقِ أُهديها

حسب القوافي، يكفيها، شرفاً أنها في الفاروق

مَولَى المُغيرَةِ، لا جَادَتْكَ غَادِيَةٌ ... مِن رحمةِ اللَّهِ ما جَادَتْ غَواديِها

يا مولى المغيرة، يا أبا لؤلؤة قاتل عمر، لا جادتك غادية، لا أمطرتك سحابة، من رحمة الله ما ظلت رحمة الله تجود بالسحاب على البشر

طَعَنْتَ خَاصِرَةَ الفَاروقِ منتقِماً ... مِن الحَنيفَةِ في أعلى مَجاليِها

الحنيفة: الدين الحنيف، مجاليها: تجلياتها، فالخليفة هو ممثل الدين الحنيف ورأسه

فأصبحتْ دولةُ الإسلامِ حائرةً ... تشكُو الوَجيعَةَ لمَّا ماتَ آسِيها

الوجيعة: المصيبة، آسيها: طبيبها

واللَّهِ ما غَالَها قِدْماً وكادَ لها ... واجتثَّ دَوحَتَها إلَّا مَواليِها

ما اغتال الدين منذ القدم واجتث دوحته، قطع شجرته، إلا الموالي من غير العرب

لو أَنَّها في صميمِ العُرْبِ قد بَقِيَتْ ... لَمَا نَعاها على الأيامِ ناعيها

يا ليتَهُمْ سمِعوا ما قالَه عُمَرٌ ... والروحُ قد بلغتْ منهُ تَراقيها

التراقي: عظام أعلى الصدر

لا تُكْثِروُا مِن مَواليكُمْ فإنَّ لَهُمْ ... مَطَامِعاً بَسَمَاتُ الضَّعفِ تُخْفيها

رأَيْتَ في الدِّينِ آراءً مُوفَّقَةً ... فأنزلَ اللَّهُ قرآناً يُزَكِّيها

كانت لعمر آراء عدة وافقها القرآن من بعد وزكاها، أقرَّها

سمعتَ سُورَةَ طَهَ مِن مُرَتِّلِها ... فَزُلْزِلَتْ نِيَّةٌ قد كنتَ تَنْويها

سمع عمر سورة طه فعدل عن نيته إيقاع الأذى بالمسلمين، وأسلم

ويومَ أَسْلَمْتَ عزَّ الحقُّ وارتفعتْ ... عن كاهلِ الدِّينِ أثقالٌ يُعانيها

وموقِفٍ لكَ بعد المصطفى افترقَتْ ... فيه الصحابةُ لما غابَ هاديها

لما غاب الهادي، الرسول، افترق الصحابة بين أنصار ومهاجرين، وكان لعمر موقف الفيصل

بايعتَ فيه أبا بكرٍ فبايَعَهُ ... على الخلافةِ قاصيها ودانيها

وأطفئتْ فتنةٌ لولاكَ لاسْتَعَرتْ بينَ القبائلِ، وانسابَتْ أفاعيها
فَلِلسَّقيفَةِ يومٌ أنتَ صاحبُه فيه الخلافةُ قد شِيدتْ أَواسِيها

في سقيفة بني ساعدة كان ثمة يوم، يوم مشهود بطله عمر، وفيه شيدت وبنيت أواسي الخلافة، دعائمها، جمع آسية

وقولَةٌ لِعليٍّ قالَها عمرٌ أَكْرِمْ بسامعِها أَعظِمْ بِمُلقيِها!
«حَرَّقْتُ دارَكَ لا أُبقي عليكَ بها إن لم تبايعْ»، وبنتُ المصطفى فيها
ما كان غيرُ أبي حَفْصٍ يفُوهُ بها أمامَ فارسِ عدنانٍ وحاميها

أبو حفص: عمر، فارس عدنان: علي بن أبي طالب

سَلْ قاهرَ الفُرسِ والرومانِ هل شَفَعتْ له الفتوحُ وهل أَغْنَى تَواليها

قاهر الفرس والروم: خالد بن الوليد

ما واقَعَ الرومَ إلَّا فَرَّ قَارِحُها ولا رمى الفُرْسَ إلَّا طاشَ راميها

قارحها: كبيرها المجرب

ولم يَجُزْ بلدةً إلَّا سمعتَ بها «اللَّهُ أكبرُ» تَدْوي في نواحيها

لم يجز بلدة: لم يمر بها

أَتاهُ أمرُ أبي حَفْصٍ فقَبَّلَهُ كما يُقَبِّلُ آيَ اللَّهِ تاليها

أتى أمر أبي حفص، عمر، لخالد بالعزل، فقبل الكتاب وعزل نفسه

واستقبلَ العَزْلَ في إبَّانِ سَطوتِه ومجدِهِ مُستريحَ النفسِ هاديها
إن الذي بَرأَ الفاروقَ نَزَّهَهُ عن النقائصِ والأغراضِ تنزيها

قيل إن لعمر غرضاً من عزل خالد، هو الحسد لمكانته أو الحقد عليه لخصومة قديمة، ولكن شاعرنا ينزه عمر عن النقائص والأغراض

وراعَ صاحبَ كسرى أنْ رأى عُمراً بينَ الرعيَّةِ عُطْلاً وَهْوَ راعيها

رسول كسرى ريع، تعجب ودهش، لما رأى عمر عطلاً، معطلاً من الحراسة، يمشي بين الرعية

وعَهدُهُ بِملوكِ الفرسِ أنَّ لها سُوراً مِنَ الجُندِ والأحراسِ يَحميها
رآهُ مُستغرِقاً في نومِه فرأى فيه الجلالةَ في أَسْمى معانيها
فهانَ في عينِه ما كان يُكْبِرُهُ مِنَ الأكاسِرِ والدنيا بأيديها

هان في عيني رسول كسرى ما كان يعظمه، ويبجله، من أكاسرة الفرس وهي الملوك التي تملك الدنيا

وقالَ قَوْلَهَ حقٍّ أصبحتْ مثلاً ... وأصبحَ الجيلُ بعد الجيلِ يَرويها
أَمِنْتَ لَمَّا أَقَمْتَ العدلَ بينَهُمُ ... فنِمتَ نومَ قَريرِ العينِ هانيها
وما استبدَّ بِرأيٍ في حُكومَتِهِ ... إنَّ الحكومةَ تُغري مُستبِدِّيها
إنْ جَاعَ في شِدَّةٍ قومٌ شَرِكْتَهُمُ ... في الجوعِ أو تَنجَلي عنهُمْ غَواشيها

غواشيها: جمع غاشية، مصائبها

فمَنْ يُباري أبا حَفْصٍ وسيرَتَه ... أو مَنْ يحاوِلُ لِلفاروقِ تَشبيها
يومَ اشتَهَتْ زَوجُهُ الحَلْوى فقالَ لها: ... مِنْ أينَ لي ثمنُ الحَلوَى فَأَشْريها
أَغْنَتْ عَنِ الصَّارِمِ المصقولِ دِرَّتُهُ ... فكمْ أخافَتْ غَوِيَّ النفسِ عاتيها

درته: سوطه، وكان لعمر سوط يؤدب به المخالفين والعتاة، المتجبرين بالناس

أَخافَ حتى الذَّراريِ في مَلاعِبِها ... وراعَ حتى الغَواني في ملاهيها..

الذراري: الأولاد من ذرية الرجل، فقد فر منه الأولاد في لعبهم عندما ظهر، ولم يثبت له سوى ولد واحد في قصة معروفة، وكذا الغواني، أي النساء، في لهوهن..

أَرَيْتَ تلكَ التي للَّهِ قد نذرَتْ ... أُنْشُودَةً لِرسولِ اللَّهِ تُهديها

أريت، هل رأيت، تلك المرأة التي نذرت أن تهدي للرسول أغنية..

قالتْ: نذرْتُ لئنْ عادَ النبيُّ لنا ... مِنْ غَزْوَةٍ لَعَلَى دُفِّي أُغَنِّيها
ويَمَّمَتْ حَضرةَ الهادي وقد مَلأَتْ ... أنوارُ طَلْعَتِه أرجاءَ ناديها
واستأذَنَتْ ومَشَتْ بِالدُفِّ وانْدَفَعَتْ ... تُشجي بِألحانِها ما شَاء مُشْجيها

مشت بالدف تغني وتطرب بألحانها ما شاء الله الذي يشجي القلوب

والمصطفى وأبو بكرٍ بِجانِبِهِ ... لا يُنكِرانِ عليها مِنْ أَغانيها
حتى إذا لاحَ مِن بُعْدٍ لها عمرٌ ... خارتْ قُواها وكادَ الخوفُ يُرديها

لاح عمر فكفت عن الغناء وارتبكت حتى كاد الخوف يرديها، يقتلها..

وخبَّأَتْ دُفَّها في ثوبِها فَرَقاً ... منه، ووَدَّتْ لو انَّ الأرضَ تَطويها

فرقاً: خوفاً

قد كان حِلْمُ رسولِ اللَّهِ يُؤْنِسُها ... فجاءَ بطشُ أبي حفصٍ يُخَشِّيها
فقالَ مَهْبِطُ وَحْيِ اللَّهِ مبتَسِما ... وفي ابتسامَتِه معنىً يُواسيها

مهبط الوحي: موضع هبوطه، وهو النبي

قد فَرَّ شيطانُها، لَمَّا رأى عُمراً إنَّ الشياطينَ تَخشى بأسَ مُخْزيها

وفِتيةٍ وَلِعُوا بِالرَّاحِ فانتَبَذُوا لَهُمْ مكاناً وجَدُّوا في تَعاطيها

ظهرْتَ حَائِطَهُمْ لَمَّا عَلِمْتَ بِهِمْ والليلُ مُعتَكِرُ الأرجاءِ سَاجيها

ظهرت حائطهم وتسورت عليهم والليل معتكر الأرجاء، مظلم النواحي، ساجيها، ساكنها

سَفَّهْتَ آراءَهُمْ فيها فمَا لَبِثوا أنْ أَوْسَعُوكَ على ما جئتَ تَسفيها

سفهت آراءهم، ألصقت السفه بعقولهم فيها، في الخمر، فسفهوا فعلك في التجسس عليهم

قالوا: مكانَكَ! قد جِئْنا بِوَاحِدَةٍ وجئتَنا بثلاثٍ لا تُباليها

قالوا لك مكانك، قف، فأنت أخطأت في ثلاث ونحن في واحدة

فَأْتِ البيوتَ مِنَ الأَبوابِ يا عُمَرٌ فقد يُزَنُّ مِنَ الحيطانِ آتيها

يزنُّ: يُتهم

واسْتَأْذِنِ الناسَ أنْ تَغشَى بُيوتَهُمُ ولا تُلِمَّ بِدارٍ أو تُحيِّيها

ولا تَجَسَّسْ فَهذِي الآيُ قد نَزَلَتْ بِالنَّهْيِ عنه فلم تَذْكُرْ نَواهِيها

فَعُدْتَ عنهُمْ وقد أَكْبَرْتَ حُجَّتَهُمْ لَمَّا رأيتَ كتابَ اللّهِ يُمليها

وما أَنِفْتَ وإن كانوا على حَرَجٍ مِنْ أنْ يَحُجَّكَ بِالآياتِ عَاصيها

لم تأنف حتى وهم على حرج، على إثم، من أن تنصاع لحجتهم المقرونة بالآيات رغم أنهم عصاة

وسَرْحَةٍ في سماءِ السَّرْحِ قد رَفِعَتْ بِبَيْعَةِ المصطفى مِنْ رَأْسِها تيها

ورب سرحة، شجرة، رفعت رأسها بين الشجر في السماء تيهاً، وافتخاراً، لأنها الشجرة التي جرت تحتها بيعة الرضوان

أَزَلْتَها حين غَالَوْا في الطَّوافِ بها وكانَ تَطوافُهُمْ للدِّينِ تَشويها

أنت قطعتها عندما بالغوا في الطواف بها وتقديسها

أُهدي مَناقِبه في عَهدِ دَوْلَتِه لِلشَّاهِدينَ ولِلأعْقَابِ أَحكيها

لعلَّ في أُمَّةِ الإسلامِ نابِتَةً تَجْلُو لِحاضِرِها مِرآةَ مَاضيها

لعل النابتة، أي الشباب، يجلون ويلمّعون مرآة الماضي لخدمة حاضرهم

٥٥ رثاء باحثة البادية

نشرت في سنة (١٩١٨):

مَـلَـكَ الـنُّـهـى لا تَـبْـعَـدي فـالـخَـلْـقُ فـي الـدنـيـا سِـيَـرْ

ملك ابنة حفني ناصف كانت أديبة واشتهرت بلقب باحثة البادية، وجعلها ملاكاً للنهى، أي للعقل. لا تبعدي: كلمة تقال للميتة. لتبق ذكراك حاضرة فالناس في هذه الدنيا ما هم إلا سير، ذكرى وسيرة

إنِّـي أَرى لَـكِ سِـيـرَةً كـالـروضِ أَرَّجَـهُ الـزَّهَـرْ

أرَّجه: عطَّره

وتـركـتِ شَـيـخَـكِ لا يَـعـي هـل غـابَ زيـدٌ أو حَـضَـرْ

تركت أبوك، وكان حفني ناصف معلماً ونحوياً، ذاهلاً لا يدري أغاب «زيد»، الاسم المستخدم في أمثلة النحاة، أم حضر

ثَـمِـلاً تُـرَنِّـحُـهُ الـهـمـو مُ إذا تَـحـامَـلَ أو خَـطَـرْ

كـالـفَـرْعِ هَـزَّتْـهُ الـعَـوا صِـفُ فـالـتَـوى ثـم انـكَـسَـرْ

ومات أبوها في السنة التالية

يـا بَـرَّةً بـالـوالـديْـ ـنِ أبـوكِ بَـعـدَكِ لا يَـقَـرّ

فَـسَـلـي إلَـهَـكِ سَـلْـوَةً لِأَبـيـكِ فَـهْـوَ بِـه أبَـرّ

الله أبرُّ منك بأبيك

٥٦ العود «أحمد»

أعد حافظ هذه القصيدة لاستقبال شوقي عائداً من منفاه، ونشرها قبيل وصوله، نشرها في أغسطس/ آب (١٩١٩):

وَرَدَ الـكِـنـانَـةَ عـبـقـرِيُّ زمـانِـه فـتَـنَـظَّـري يـا مـصـرُ سـحـرَ بَـيـانِـه

والـقُـطْـرُ فـي شَـوْقٍ لِأَنْـدَلُـسِـيَّـةٍ شَـوْقِـيَّـةٍ تَـشـفـيـه مِـن أَشـجـانِـه

مصر مشتاقة إلى قصيدة أندلسية من قلم شوقي تشفيها من أشجانها، أحزانها، الناتجة عن ثورة (١٩١٩)

يُـصـغـي لِأحـمَـدَ إنْ شَـدا مُـتـرنِّـمـا إصـغـاءَ أُمَّـةِ أَحـمَـدٍ لِأَذانِـه

القطر، أي مصر، يصغي لأحمد شوقي وهو يترنم بشعره كإصغاء أمة أحمد، النبي، للأذان

وَاذْكُرْ لنا الحمراءَ، كيفَ رأيتَها والقصرَ، ماذا كان مِن بُنْيانِه؟

حدثنا عن آثار العرب في إسبانيا التي أتيت منها

ماذا تَحَطَّمَ مِن ذُراهُ، وما الذي أبقَتْ صروفُ الدهرِ مِن أركانِه

قل لنا ماذا تحطم من ذرا، أعالي، قصر الحمراء، وما الذي أبقى الزمن من أركانه

إذْ مُلْكُ أندلُسٍ عَريضٌ جَاهُهُ وشَبابُهُ المَبْكِيُّ في رَيْعَانِه

وكان ملك العرب هناك ذا جاه، ومنزلة، وكان في شبابه الذي أصبحنا نبكي على زواله وهو في ريعانه، في نضارته

زالَتْ بشاشتُه، وزالَ وأقفَرَتْ مِنْ أُنسِهِ الدنيا ومِن إنسانِه

ذهب أنس وبهجة ذلك الملك وذهب إنسانه أيضاً بجلاء العرب

أشكو إليكَ مِنَ الزَّمانِ وزُمْرَةٍ جَرحَتْ فؤادَ الشِّعرِ في أَعيَانِه

يشكو من زمرة المدعين الذين جرحوا قلب الشعر بانتقاصهم أعيانه، كبار أصحابه

كم خارجٍ عن أُفْقِه حَصَبَ الوَرى بِقَريضِه والعُجْبُ مِلْءُ جَنانِه

كم من شخص خارج عن أفق الشعر لا علاقة له به، قد حصب الناس بقريضه، رماهم بحجارة هي عبارة عن قصائده، والعجب، التيه والفخر، يملأ جنانه، قلبه

يَختالُ بين الناسِ مُتَّئِدَ الخُطا رِيحُ الغُرورِ تَهُبُّ مِن أَرْدَانِه

يمشي هذا الشاعر المدعي بطيئ الخطا، تهب ريح الغرور من أردانه، أكمام ثوبه

كم صَكَّ مِسمَعَنا بِجَنْدَلِ لَفْظِهِ وأَطالَ مِحنَتَنا بِطولِ لِسانِه

جندل: صخر

قلْ لِلذي قد قامَ يَشْأُو أَحمَداً خَلِّ القَريضَ فلستَ مِن فُرسانِه

يشأو: يباري

ما كان يَأْمَنُ عَثْرَةً لو لم يَكُنْ روحُ الحقيقةِ مُمْسِكاً بِعِنانِه

ما كان شوقي ليأمن الزلل لو لم تكن الحقيقة هي الممسكة بلجام فرسه

فأتى بِما لم يَأْتِه مُتَقَدِّمٌ أو تَطْمَعِ الأذهانُ في إتيانِه

فالحمدُ لِلَّهِ الذي قد رَدَّهُ مِن بَعدِ غُربَتِه إلى أوطانِه

٥٧ مظاهرة السيدات

قالها في (١٩١٩)، وتأخر نشرها حتى مارس/ آذار (١٩٢٩):

خـرجَ الـغَـوانـي يَـحْـتَـجِـجْـ ـنَ، ورُحْـتُ أَرْقُبُ جَـمْـعَـهُـنَّـهْ
فـإذا بِـهِـنَّ تَـخِـذْنَ مِـن سُـودِ الـثـيـابِ شِـعـارَهُـنَّـهْ
فَـطَـلَـعْـنَ مـثـلَ كَـواكِـبٍ يَـسْـطَـعْـنَ فـي وَسَـطِ الـدُّجُـنَّـةْ
وأَخَـذْنَ يَـجْـتَـزْنَ الـطَّـريـ ـقَ ودارُ سَـعْـدٍ قَـصْـدُهُـنَّـهْ
يَـمْـشـيـنَ فـي كَـنَـفِ الـوَقـا رِ، وقَـدْ أَبَـنَّ شُـعُـورَهُـنَّـهْ

يمشين وقورات مع أنهن أبرزن شعورهن وسفرن

وإذا بِـجَـيْـشٍ مُـقْـبِـلٍ والـخـيـلُ مُـطْـلَـقَـةُ الأَعِـنَّـةْ
وإذا الـجـنـودُ سـيـوفُـهـا قـد صُـوِّبَـتْ لِـنُـحـورِهِـنَّـهْ
وإذا الـمـدافِـعُ والـبـنـا دقُ والـصَّـوارِمُ والأَسِـنَّـةْ..
والـخـيـلُ والـفـرسـانُ قـد ضَـرَبَـتْ نِـطـاقـاً حَـوْلَـهُـنَّـهْ
والـوردُ والـرَّيْـحـانُ فـي ذاكَ الـنـهـارِ سِـلاحُـهُـنَّـهْ
فَـتَـطـاحَـنَ الـجَـيْـشـانِ سَـا عـاتٍ تَـشـيـبُ لـهـا الأَجِـنَّـةْ
فَـتَـضَـعْـضَـعَ الـنِّـسْـوانُ والـنِّـ ـسـوانُ لـيـس لَـهُـنَّ مُـنَّـةْ

منة: قوة

ثـم انـهَـزَمْـنَ مُـشَـتَّـتـا تِ الـشَّـمـلِ نـحـوَ قُـصُـورِهِـنَّـهْ
فَـلْـيَـهـنَـأِ الـجـيـشُ الـفُـخـو رُ بِـنـصـرِهِ وبِـكَـسْـرِهِـنَّـهْ
فـكـأنَّـمـا الأَلْـمـانُ قـد لَـبِـسـوا الـبـراقِـعَ بَـيْـنَـهُـنَّـهْ
وأَتَـوْا بِـهِـنْـدِنْـبِـرْجَ مُـخْـ ـتَـفِـيـاً بِـمِـصْـرَ يَـقُـودُهُـنَّـهْ

باول فون هندنبرغ جنرال ألماني سيصبح رئيساً للجمهورية (١٩٢٥)، وسيعين هتلر مستشاراً، أي رئيس وزراء، عام (١٩٣٣)

فَـلِـذاكَ خـافُـوا بَـأْسَـهُـنَّـ وأَشْـفَـقُـوا مِـنْ كَـيْـدِهِـنَّـهْ

٥٨ أبق شيئاً

قيلت عام (١٩١٩)، وانتشرت بين الناس ولم تنشر في صحيفة:

يا مَلِيكاً بِرَغْمِهِ يَلبَسُ التَّا ... جَ، ويَرقَى لِعرشِهِ مَمْلُوكا

المليك: السلطان فؤاد ابن الخديوي إسماعيل، وتولى السلطنة عام (١٩١٧)، وتسمى ملكاً عام (١٩٢٢)

إنْ أَتَمَّتْ يَداكَ تَخريبَ مِصرٍ ... فلقد مَهَّدَ الخَرابَ أَبُوكا

وكان الخديوي إسماعيل، الذي عزل عام (١٨٧٩)، قد أسرف وأضر بمالية البلاد رغم إنشاءاته الكثيرة

أَبْقِ شيئاً - إذا مضيتَ ذَميماً ... عن قَريبٍ - يَأْتي عليهِ بَنُوكا

٥٩ الأب الثاكل

رثاء عبد الحميد رمزي، قالها على لسان والد الشاب المتوفى، ونشرت في مارس/ آذار (١٩٢٠):

ولدِي، قد طالَ سُهْدي ونَحيبي ... جئتُ أَدعوكَ فهل أنتَ مُجيبي؟

جئتُ أَرْوِي بِدموعي مضجعاً ... فيه أودعتُ مِن الدنيا نصيبي

لا تخَفْ مِن وَحشَةِ القبرِ، ولا ... تَبتئسْ إِنِّي مُوافٍ عن قريبِ

أنا لا أَترُكُ شِبلي وَحدَهُ ... في جَديبٍ مُوحِشٍ غيرِ رحيبِ

أَوَحينَ ابْتَزَّ دهري قُوَّتي ... وذَوى عُودي ووافاني مَشيبي

ابتز: سلب

واكتَسى غصنُكَ مِن أوراقِه ... تحت شمسِ العزِّ والجاهِ الخصيبِ

يَنتَويكَ الموتُ في شَرْخِ الصِّبا ... والشبابُ الغَضُّ في البُرْدِ القَشيبِ

لم يدَعْ آسِيكَ جُهداً إنَّما ... غابَ عِلمُ اللَّهِ عن عِلمِ الطَّبيبِ

آسيك: طبيبك

إيهِ يا عبدَ الحَميدِ انظُرْ إلى ... والدٍ جَمِّ الأَسى بادي الشُّحوبِ

ذاهلٍ مِن فَرطِ ما حَلَّ بِه ... بين أترابِكَ يَمشي كالغريبِ

كلَّما أبصَرَ منهُمْ واحداً ... هَزَّهُ الشوقُ إلى وجهِ الحبيبِ

٦٠ البابا والباب

كتب بها إلى السيد محمد البيلاوي لما أصبح نقيب الأشراف (١٩٢٠):

قلْ لِلنَّقيبِ لقد زُرْنا فضيلَتَه ... فذَادَنا عنه حراسٌ وحُجَّابُ

ذادنا عنه: حال بيننا وبينه

لو أَنَّني جئتُ لِلبَابا لأَكرَمَني وكان يُكْرِمُني لو جِئْتُهُ البَابُ

الباب: إمام العقيدة البابية التي ورثتْها البهائية، والباب أيضاً هو الباب، يقول حافظ، على المعنى الظاهر: لو جئت إلى الباب الخشبي لأكرمني من حيث ردني الحُجّاب

لا تخشَ جَائِزَةً قد جئتُ أطلُبُها إنِّي شريفٌ ولِلأَشرافِ أَحْسَابُ

فاهْنَأْ بِما نِلْتَ مِن فضلٍ وإن قُطِعَتْ بيْني وبَينَكَ بعدَ اليومِ أَسبابُ

٦١ مصر تتحدث عن نفسها

أنشَدَها في حفل بفندق الإنتركونتننتال لتكريم عدلي يكن بعد عودته من أوروبا قاطعاً المفاوضات مع الإنجليز، ومستقيلاً من الوزارة. نشرت في ديسمبر/ كانون الأول (١٩٢١):

وَقَفَ الخلقُ يَنظرونَ جميعاً كيف أَبني قواعدَ المجدِ وَحدي

وبُناةُ الأهرامِ في سالِفِ الدهـ ـرِ كَفَوْني الكلامَ عند التحدي

أنا تاجُ العَلاءِ في مَفرِقِ الشر قِ ودُرَّاتُهُ فَرائِدُ عِقْدي

أنا إنْ قَدَّرَ الإلَـهُ مَماتي لا ترى الشرقَ يرفعُ الرأسَ بعدي

ما رماني رامٍ وراحَ سليماً. مِن قديمٍ عنايةُ اللَّهِ جُندي

كم بَغَتْ دولةٌ عليَّ وجارَتْ ثم زالتْ وتلكَ عُقبَى التَّعَدي

هل فهِمْتُمْ أسرارَ ما كانَ عندي مِن علومٍ مخبوءَةٍ طَيَّ بَردي؟

البردي: ورق شجر كتب فيه الفراعنة علومهم

إنَّ مَجدي في الأُولَيَاتِ عَريقٌ مَن له مِثلُ أُولَيَاتي ومجدي؟

الأوليات: المجد القديم

أنا أُمُّ التَّشريعِ قد أَخَذَ الرُّو مانُ عنِّي الأُصولَ في كلِّ حَدِّ

الحد: الحكم القانوني، والقانون الروماني مشهور

ورَصَدْتُ النجومَ منذُ أَضاءَتْ في سماءِ الدُّجى فأَحْكَمْتُ رَصدي

وقديماً بَنى الأساطيلَ قومي فَفَرَقْنَ البِحارَ يَحمِلْنَ بَندي

سفني فرقت، شقت، طريقها في البحار حاملة بندي، رايتي، والكلام لمصر

أيُّ شعبٍ أَحَقُّ مِنِّي بِعيْشٍ وارفِ الظِّلِّ أخضَرِ اللَّوْنِ رَغْدِ؟

أَمِنَ العدلِ أَنَّهُمْ يَرِدُونَ الـ ـماءَ صَفْواً وأن يُكَدَّرَ وِرْدي؟

نِصْفُ قرنٍ إلّا قليلاً أُعانـي ما يُعانـي هَوانَـهُ كلُّ عَبْدِ

منذ أن احتل الإنجليز مصر عام ١٨٨٢

نظرَ اللّـهُ لـي فأرشَدَ أبنَـا ئـي فَشَدُّوا إلى العُلا أيَّ شَدِّ

إنَّما الحقُّ قُوَّةٌ مِن قُوى الدَّيَّـ انِ أمْضَى مِنْ كلِّ أبيضَ هِنديِ

قد وَعدْتُ العُلا بِكُلِّ أبِـيٍّ مِن رِجالي، فأنْجِزُوا اليومَ وَعدي

وارْفَعوا دولتي على العلمِ والأخـ لاقِ، فالعلمُ وحدَه ليس يُجْدي

إنَّ في الغربِ أعْيُناً راصِداتٍ كَحَلَتْها الأطماعُ فيكُمْ بِسُهْدِ

في الغرب أعين ساهدة ساهرة طامعة تترقب الانقضاض على ثروات مصر

فَوقَها مِجْهَرٌ يُريها خَفايا كُمْ ويَطْوي شُعاعُهُ كلَّ بُعْدِ

وهذه الأعين تنظر بمجهر مكبر لترى الخفايا، وشعاع المجهر يقرب البعيد (أصبح تلسكوباً)

فاتَّقُوها بِجُنَّةٍ مِن وِئامٍ غيرِ رَثِّ العُرا وسَعْيٍ وكَدِّ

اتقوا مطامع الغرب بجنة، وقاية، هي الوئام الشديد غير رث العرا، غير مهترئ العرا، جمع عروة

واصْفَحُوا عن هَناتِ مَن كانَ مِنكُمْ رُبَّ هَافٍ هَفا على غيرِ عَمْدِ

الهنات: الذنوب الصغيرة

نحنُ نَجتازُ موقِفاً تَعثُرُ الآ راءُ فيهِ، وعَثْرَةُ الرأيِ تُرْدي

تردي: تميت

ويَظُنُّ الغَوِيُّ أنْ لا نِظامٌ ويقولُ القويُّ قد جَدَّ جِدِّي

فَقِفُوا فيه وِقْفَةَ الحَزْمِ وارمُوا جانِبَيْهِ بِعَزْمَةِ المُسْتَعِدِّ

إن كنت لم تسمع بأن أم كلثوم غنت أبياتاً من هذه القصيدة في لحن رياض السنباطي فاسمع، واذهب واسمع الأغنية. مقدمتها وحدها تحفة

٦٢ سيرا إلى إنجلترا

وداع محمد بدر وأحمد بدر عند سفرهما إلى بلاد الإنجليز للتعلم:

سيِرا إلى الأرضِ التي أنبتَتْ عِزّاً وأضحتْ لِلمَلا مَوْئِلا

أصبحت بلاد الإنجليز للملا، للملأ أي الناس، موئلاً، ملتجأ

يَمشي عليها الدهرُ مُسْتَخْذِياً وتَجزعُ الأحداثُ أن تنزلا

مستخذياً: خاضعاً

شِـعـارُ أهـلـيـهـا وأبـنـائِـهـا أن يـعـلَـمَ الـمـرءُ وأن يـعـمَـلا
لَـئِـنْ غـدا الـدهـرُ بِـنـا مُـدبِـراً لا بـدَّ لـلـمُـدبِـرِ أن يُـقْـبِـلا

التسويد لعمران القفيني، ويقول: لعل الدهر يقبل علينا، فمنذ زمن بعيد لم يقبل! وعدد المازني لحافظ الدول التي أدبرت ثم استمر بها الإدبار حتى الاندثار

٦٣ رائحة الاستقلال

تصريح ٢٨ فبراير/شباط، نشرت في أبريل/نيسان (١٩٢٢):

أَلْـمَـحُ لِاسـتـقـلالِـنـا لَـمْـعَـةً فـي حـالِـكِ الـشـكِّ فَـأَسْـتَـرْوِحُ

أستروح: أشعر بالراحة، لأن هذا الإعلان في ٢٨ فبراير/١٩٢٢ جاء فيه من طرف بريطانيا أن الحماية رفعت عن مصر، وأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة وأن لبريطانيا الحق في حماية طرق مواصلاتها وحمايتها ضد أي اعتداء خارجي، ويبقى الوضع في السودان على حاله

وتَـطْـمِـسُ الـظـلـمـةُ آثـارَهـا فَـأَنْـثَـنـي أُنـكِـرُ مـا أَلْـمَـحُ
فـقـائـلٍ: لا تـعـجَـلُـوا إنَّـكُـمْ مَـكـانَـكُـمْ بـالأمـسِ لـم تَـبْـرَحُـوا

بعضهم رفض الإعلان البريطاني لأنه لا يغير من الحال شيئاً فاليوم مثل الأمس. مكانكم لم تبرحوا، أي لم تبرحوا مكانكم

وقـائـلٍ أوسِـعْ بِـهـا خُـطْـوَةً وراءَهـا الـغـايـةُ والـمَـطْـمَـحُ

وبعضهم قال إنها لخطوة واسعة، وبعدها تتحقق الغاية التي نطمح إليها

وقـائـلٍ أسـرَفَ فـي قـولِـه: هـذا هُـوَ اسـتـقـلالُـكُـمْ فـافْـرَحُـوا

وبعضهم قال وبالغ: هذا هو الاستقلال الحق

إن تَـسـأَلـوا الـعـقـلَ يَـقُـلْ عَـاهِـدوا واسـتَـوْثِـقـوا فـي عـهـدِكُـمْ تَـربَـحُـوا

العقل يقول، عقل شاعرنا طبعاً، اقبلوا المعاهدة، وأكدوها بالمواثيق

وأَسِّـسُـوا داراً لِـنُـوَّابِـكُـمْ لِـلـرأيِ فيـهـا والـحِـجـا أَفْـسِـحُـوا

وأسسوا دار نواب واجعلوا للحجا، للعقل، المكان الفسيح فيها

أو تَـسـألُـوا الـقـلـبَ يَـقُـلْ حَـاذِروا وصـابِـروا أعـداءَكُـمْ تُـفْـلِـحُـوا

والقلب يقول، وهو قلب شاعرنا، احذروا دهاء الإنجليز وصابروهم في نضال مستمر

إنِّـي أرى قـيـداً فـلا تُـسْـلِـمـوا أَيْـدِيَـكُـمْ فـالـقـيـدُ لا يَـسْـجَـحُ

المعاهدة تتضمن قيداً فلماذا نسلم أيدينا لمن يريد تقييدها، والقيد لا يسجح، لا يلين. وكانت ذكريات ثورة ١٩١٩ طرية بعد في الأذهان

إنْ هَيَّأُوهُ مِن حريرٍ لَكُمْ فَهْوَ على لِينٍ به أَفْدَحُ

القيد الحريري أفدح، وأقسى، من القيد الحديدي

٦٤ جاء دوري

ذكرى الشيخ محمد عبده، أنشدها في حفل بالجامعة المصرية في يوليو/تموز (١٩٢٢):

راعني فَقْدُ شَبابي وأَنا لا أُراعُ اليومَ مِن فَقْدِ مَشيبي

حَنَّ جَنباايَ إلى بَرْدِ الثَّرى حيثُ أُنْسى مِنْ عَدُوٍّ وحَبيبِ

أحن إلى التراب حيث ينساني العدو والحبيب

مَضْجَعٌ لا يَشتَكي صاحبُه شدَّةَ الدهرِ ولا شَدَّ الخطوبِ

لا ولا يُسْئِمُه ذاك الذي يُسئِمُ الأحياءَ مِن عَيْشٍ رَتيبِ

قد وَقَفْنا سِتَّةً نَبكي على عَالِمِ المشرقِ في يوم عَصيبِ

وقفَ الخمسةُ قَبلي فَمَضَوْا هكذا قبلي، وإنِّي عن قَريبِ

وقف ستة على قبر الإمام يؤبنونه، وهم على ترتيب التأبين: أحمد أبو خطوة، حسن عاصم، حسن عبد الرازق، قاسم أمين، حفني ناصف، حافظ إبراهيم. وماتوا واحداً بعد الآخر وبنفس الترتيب.. وعندما مات الرابع ١٩٠٨، كتب خامسهم، حفني ناصف، لشاعرنا حافظ:

أتذكر إذ كنَّا على القبر ستة نعدِّدُ آثار الإمام وننـدبُ

وقفنا بترتيبٍ وقد دبَّ بيننا ممات على وَفق الرثاء مرتبُ

أبو خطوة ولى وقفَّاه عاصمٌ وجاء لعبد الرازق الموتُ يطلبُ

فلبى وغابتْ بعدَه شمسُ قاسمٍ وعما قليل شمسُ مَحْيايَ تغربُ

فلا تخشَ هُلكاً ما حييتُ فإن أمت فما أنت إلا خائفٌ تترقبُ

فخاطِرْ وقَعْ تحت التُّرماي لا تخفْ ونم تحت بيتِ الوَقْفِ وهو مخرَّبُ

وخُضْ لُجَجَ الهيجاءِ أعزلَ آمناً فإن المنايا عنك تنأى وتهربُ

.. وفي تكريم حفني ناصف (١٩١٢)، وقف حافظ وقال قصيدة:

أخشى عليك المنايا حتى كأنك مِنِّي

إذا شكوتَ صداعاً أطلتُ تسهيدَ جفني

وإن عراكَ هزالٌ هيَّأتُ لحدي وقُطني

وإن دعـــــوتُ لـــــــحـــــيٍّ يـــومـــاً فـــإيَّـــاك أعـــنـــي
عُـــمـــري بـــعُـــمـــرِك رهـــنٌ فـــعـــشْ أعِـــشْ ألـــفَ قـــرنِ

٦٥ رثاء إسماعيل صبري

أنشدها في حفل التأبين في مايو/ أيار (١٩٢٣):

نـعـاكَ الـنُّـعـاةُ وحُـمَّ الـقَـدَرْ ولـم يُـغْـنِ عـنَّـا وعـنـكَ الـحَـذَرْ
حم القدر: وافى وحلّ

أُهَـنِّـي الـثَّـرى أمْ أُعَـزِّي الـوَرى لـقـد فـازَ هـذا وهـذا خَـسِـرْ
رُحِمْتَ، فقد كنتَ حُلْوَ اللِّسانِ جَلِـيَّ الـبـيـانِ صَدوقَ الـخَـبـرْ
قـلـيـلَ الـتَّـعَـجُّـبِ، جَـمَّ الأَنـاةِ حـكـيـمَ الـوُرودِ حـكـيـمَ الـصَّـدَرْ
لـقـد كـنـتُ أَغـشَـاهُ فـي دارِهِ ونَـادِيـهِ فـيـهـا زَهـا وازْدَهَـرْ
أغشاه: أزوره، ناديه: مجلسه

وأَعْـرِضُ شِـعـري عـلـى مِـسْـمَـعٍ لَـطـيـفٍ يُـحِـسُّ نُـبُـوَّ الـوَتَـرْ
عـلـى سَـمْـعٍ بَـاقِـعَـةٍ حـاضِـرٍ يَـمـيـزُ الـقـديـمَ مِـن الـمُـبْـتَـكَـرْ
رجل باقعة: شديد الذكاء والحيلة

فـيـصْـقُـلُ لَـفـظِـيَ صَـقْـلَ الـجُـمـانِ وَيـكْـسُـوهُ رِقَّـةَ أهـلِ الـحَـضَـرْ
الجمان: اللؤلؤ

كـذلـك كـانَ، عـلـيـه الـسـلامُ، إمـامـاً لـكـلِّ أَديـبٍ شَـعَـرْ
شعر: قال شعراً. وكان إسماعيل صبري ينقح شعر شوقي أيضاً

٦٦ رحلة إلى إيطاليا

نشرت في نوفمبر/تشرين الثاني (١٩٢٣):

أرضُـهُـمْ جَـنَّـةٌ وحُـورٌ وَوِلْـدا نٌ كـمـا تَـشْـتَـهـي، ومُـلْـكٌ كَـبـيـرُ
تَـحـتَـهـا ـ والـعـيـاذُ بِـالـلـهِ ـ نـارٌ وعـذابٌ ومُـنـكَـرٌ ونَـكـيـرُ
إنَّ يـومـاً كَـيـومِ رِدْجُـو ومَـسِّـيـ ـنـا وكَـالَـبْـرِيـا لَـيَـوْمٌ عَـسـيـرُ
مسينا في صقلية، وكالَبريا منطقة مشط القدم في إيطاليا وضربتها زلازل كثيرة في ذلك الزمن وقبله، ورِدجو من مدنها الصغيرة، وضربها زلزال في سنة ١٩٠٨، وآخر سنة ١٩٢٣ عند نشر القصيدة

سَاعةٌ منهُ تُهْلِكُ الحَرْثَ والنَّسْـ ـلَ وتَمْحُو ما سَطَّرَتْهُ الدُّهورُ
ذاكَ فيزُوفُ قائماً يَتَلَظَّى قد تَعالى شَهيقُه والزفيرُ

بركان فيزوف عند مدينة نابولي بإيطاليا

يُنذرُ القومَ بالرحيلِ، ولكنْ ليس يُغني مَعَ القَضاءِ النَّذيرُ
وكذاكَ الأوطانُ مَهْما تَجَنَّتْ ليس للحُرِّ عن حِماها مَسيرُ
وَلِعَ القومُ بِالنظافَةِ حتى جُنَّ فيها غَنِيُّهُمْ والفقيرُ
فإذا سِرْتُ في الطريقِ نهاراً خِلْتُ أنِّي على المرايا أسيرُ
أفرَطَ القومُ في النِّظامِ، وعندي أنَّ فرطَ النِّظامِ أَسْرٌ ونيرُ
ولَذيذُ الحياةِ ما كانَ فَوضَى ليس فيها مُسَيْطِرٌ أو أميرُ
فإذا ما سَأَلْتَني قُلْتُ عنهُمْ: أُمَّةٌ حُرَّةٌ وفَرْدٌ أسيرُ
قد بَلَوْتُ الحياةَ في الشرقِ والغَرْ بِ فَما في الحياةِ أمرٌ يَسيرُ
مِنْ ثَواءٍ فيهِ المَلالُ لِزامٌ أو رحيلٍ فيه العَناءُ كثيرُ

الثواء: الإقامة والمكث

٦٧ هجاء للشعر

ضِعْتَ بين النُّهَى وبينَ الخيالِ يا حكيمَ النفوسِ يا ابنَ المَعالي

النهى: العقول

ضِعْتَ في الشرقِ بين قومٍ هُجُودٍ لم يُفيقُوا، وأمةٍ مِكْسَالِ
قد أذَالُوكَ بين أُنْسٍ وكأسٍ وغَرامٍ بِظَبْيَةٍ أو غَزالِ
ونَسيبٍ ومِدْحَةٍ وهِجاءٍ ورثاءٍ وفِتْنَةٍ وضَلالِ
وحَماسٍ أراهُ في غيرِ شيءٍ وصَغارٍ يَجُرُّ ذَيْلَ اختِيالِ
عِشتَ ما بينَهُمْ مُذَالاً مُضاعاً وكذا كنتَ في العصورِ الخوالي
حَمَّلُوكَ العَناءَ مِنْ حُبِّ ليلى وسُلَيْمَى، ووَقْفَةِ الأطلالِ
وبُكاءٍ على عزيزٍ تَوَلَّى ورسوم راحَتْ بِهِنَّ اللَّيالي
وإذا ما سَمَوْا بِقَدْرِكَ يوماً أسكَنُوكَ الرِّحالَ فوقَ الجِمالِ
آنَ يا شِعرُ أنْ نَفُكَّ قُيوداً قَيَّدَتْنا بِها دُعاةُ المُحَالِ

فـارفَـعُـوا هـذهِ الـكَـمَـائِـمَ عـنَّـا   ودعـونـا نَـشُـمُّ رِيـحَ الـشَّـمـالِ

٦٨ إياك والإنجليز

تهنئة سعد زغلول بالنجاة من إطلاق الرصاص عليه في محطة القطار. نشرت في ١٣ يوليو/تموز (١٩٢٤):

لا تـقـرَبِ الـتَّـامـيـزَ واحْـذَرْ وِرْدَهُ   مـهـمـا بـدا لـكَ أنـه مَـعـسُـولُ

لا تقرب التاميز، نهر التِّمز.. يعني الإنجليز الذين كان سعد يشايعهم من قبل، واحذر ورده، ماءه، مهما بدا لك أنه ماء معسول، حلو

الـكـيـدُ مَـمـزوجٌ بِـأصـفَـى مـائِـه   والـخـتـلُ فـيـه مُـذَوَّبٌ مَـصـقُـولُ

الختل: الخداع

فـاحـذَرْ سِياسَتَهُـمْ وكـنْ فـي يَقْظَةٍ   سَـعْـدِيَّـةٍ إنَّ الـسـيـاسـةَ غُـولُ

نَصَلَـتْ سِياسَتُهُـمْ وحالَ صِباغُها   ولِـكُـلِّ كـاذِبَـةِ الـخِـضـابِ نُـصـولُ

نصلت سياستهم مثلما ينمو الشعر فينصل الخضاب، الصبغ، ويظهر لون الشعر الحقيقي

جَـمَـعُـوا عَـقـاقـيـرَ الـدَّهـاءِ ورَكَّـبـوا   مـا رَكَّـبُـوهُ، وعـنـدَكَ الـتَّـحـلـيـلُ

ركبوا سياستهم على نحو معقد، وعندك يا سعد القدرة على تحليل هذه السياسة إلى مكوناتها لترى ما فيها من سموم

فـادفَـعْ ونـاضِـلْ عـن مَـطـالِـبِ أمَّـةٍ   يـا سـعـدُ أنـتَ أمـامَـهـا مَـسـؤُولُ

الإنجليز يعرفون الحق ـ يقول هذا صاحب الشرح الذي عايشهم سنوات طويلة ـ ولكنهم إذا ضويقوا كانوا متعالين متعجرفين عنصريين مخادعين.. بشراً عاديين. لكن، بصراحة.. برودهم الذي ضُربت به الأمثال يضفي عليهم سمة الرَّوَقان. لله أنتم أيها الإنجليز، تعلمت منكم الكثير، ورأيت رجالاً كثراً ونساء، من عرب ومن هنود يعشقون أن يتنجلزوا، وقد رأيت في حانوت كتب بمطارٍ مؤخراً كتاباً عنوانه «كيف تصبح بريطانياً». وقد حماني من مثل هذا الشعور، وأنا أعايش أولئك القوم، أنني كنت مُكِباً على مطالعة تراث قومي، وأنني كنت أقول في نفسي كل يوم وكل ليلة: أنا عربي

٦٩ باني الهرم

سَـخَّـرَ الـعِـلْـمَ لِـيـبـنـيَ آيـةً   فـوق شطِّ الـنـيـلِ تـبـدُو كـالـعَـلَـمْ

آية: علامة، العلم: الجبل

هِـيَ ذِكـرٌ خـالـدٌ، لـكـنَّـهُ عـابِسُ الـوجـهِ إذا الـذِّكْرُ ابْـتسَـمْ
كلُّ مـا فـيـهـا، عـلـى إعـجَازِهـا، أنَّـهـا قـبـرٌ لِـجـبَّـارٍ حُـطَـمْ

حُطَم: عنيف مسيطر

لـيـتَـه سَـخَّـرَ مـا فـي عـهـدِهِ مِن قُوىً في غيرَ تَقديسِ الرِّمَمْ

الرمم: الرفات

٧٠ رثاء المنفلوطي

نشرت في سبتمبر/ أيلول (١٩٢٤):

رَحِـمَ الـلَّـهُ صـاحِـبَ الـنَّـظَـراتِ غـابَ عـنَّـا فـي أَحْـرَجِ الأوقـاتِ

مات المنفلوطي يوم إصابة سعد زغلول برصاص معتدٍ، فانشغل الناس عن تشييع المنفلوطي بحادث سعد

كـيـف غـادَرْتَـنـا سريـعـاً، وعَـهْـدي بِـكَ يـا مُـصْـطَـفَـى كـثـيـرَ الأَنـاةِ

التسويد لعمران القفيني

كنتَ في مِصْرَ شاعِراً يَبْهَرُ اللُّبَّـ بِـآيـاتِ شِـعْـرِهِ الـبَـيِّـنـاتِ
فَهَجَرْتَ الشعرَ السَّرِيَّ إلى النَّثْـ ـرِ فجئتَ الكُتَّابَ بِالمُعْجِزاتِ

السري: العالي الراقي. وللمنفلوطي بضع قصائد أشهرها قصيدة هجاء في الخديوي عباس حلمي وهو عائد من إستانبول، مطلعها: (قدوم ولكن لا أقول سعيد/ وملك وإن طال المدى سيبيد). وقيل اشترك في نظم القصيدة عدة أدباء فسميت قصيدة السفهاء، وانتشرت وطبع منها بشتى الطرق آلاف النسخ، وجرَّت على المنفلوطي سجناً لأشهر ستة

مُـتَّ عـن يَـافِـعٍ وخَـمْـسِ بَـنـاتٍ لـم تُـخَـلِّـفْ لـهـا سِوى الـذِّكـرياتِ
وتُـراثُ الأَديـبِ فـي الـشـرقِ حُـزْنٌ لِـبَـنـيـهِ، وثَـرْوَةٌ لـلـرُّوَاةِ

٧١ دين طه حسين

عن طه حسين بعد نشر كتابه في الشعر الجاهلي (١٩٢٦)، وفي البيتين ذكر للدكتور عبد الحميد سعيد عضو مجلس النواب الذي كان من المطالبين بإهدار دم طه حسين:

إنْ صَـحَّ مـا قـالـوا، ومـا أَرْجَـفُـوا وأَلْـصَـقُـوا زُوراً بِـدِيـنِ الـعَـمِـيـدْ

أرجفوا: أشاعوا بغرض الفتنة

فَـكُـفْـرُ «طَـهَ» عـنـد دَيَّـانِـهِ أَحَـبُّ مِـن إسـلامِ عـبـدِ الـحـمـيـدْ

الديان: الله

٧٢ رثاء أحمد حشمت

وكان وزيراً للمعارف، وهو من توسط لحافظ في وظيفة بدار الكتب وكان له إفضال كثير على الشاعر (١٩٢٦):

لَكَ مِنَّةٌ قد طَوَّقَتْ عُنُقِي ... ما إنْ أُريدُ لِطَوْقِها نَزْعا

مَاتَ الإمامُ وكانَ لي كَنَفاً ... وقَضَيْتَ أنتَ وكنتَ لي دِرْعا

سَلْني فإنِّي مِن صَنائِعِهِ ... وسَلِ «المعارِفَ» كم جَنَتْ نَفْعا

اسألني أيها المستمع، واسأل وزارة المعارف كم جنت من المنافع في عهد وزيرها

وغَدَوْتُ في بَلَدٍ تَكَنَّفُني ... فيهِ الشُّرورُ ولا أَرى دَفْعا

تكنفني: تحيط بي

كم مِن صديقٍ لي يُحاسِبُني ... وكَأَنَّ تحتَ ثِيابِه أَفْعَى

كم حَاوَلَتْ هَدمي مَعاوِلُهُمْ ... وأَبَى الإلَهُ فزَادَني رَفْعا

وَلَرُبَّ حُرٍّ عَابَهُ نَفَرٌ ... لا يَصْلُحُونَ لِنَعْلِهِ شِسْعا

الشسع للنعل: السير الجلدي بين الأصابع

٧٣ مبايعة شوقي

ألقيت في مهرجان تنصيب شوقي أميراً للشعراء، في ٢٩ أبريل/ نيسان (١٩٢٧):

يَعيبُونَ شَوقي أن يُرى غيرَ مُنشِدٍ ... وما ذاكَ عن عِيٍّ به أو تَرَفُّعِ

لا عيب في أن يدع شوقي إنشاد شعره لغيره، فليس هذا عن عي، قلة فصاحة، ولا عن ترفع

فهذا كَليمُ اللَّهِ قد جاءَ قبلَه ... بِهارونَ مَا يأمُرْهُ بِالوَحْيِ يَصْدَعِ

فهذا موسى الذي كلم الله جاء بأخيه هارون ليصدع، ليجهر، بما يأمر الوحيُ به موسى

تَمَلَّكْتَ مِن مُلْكِ القريضِ فَسيحَهُ ... فلم تُبْقِ يا شوقي لنا قِيْدَ إصبعِ

فبِاللَّهِ دَعْ لِلنَّاثِرينَ وَسيلَةً ... تُفيءُ عليهِمْ، واتَّقِ اللهَ واقْنَعِ

ولعمري لشوقي ناثر مبدع، بدا هذا في مقدمته للشوقيات في طبعة قديمة، وفي كتابه أسواق الذهب، واقتطفنا منه عبارات في فصلنا الذي عن شوقي في الكتاب

أَميرَ القَوافي قد أَتَيْتُ مُبَايِعاً ... وهذي وُفودُ الشرقِ قد بايَعَتْ مَعي

٧٤ صاحب القاف

قال حافظ في الدكتور محجوب ثابت، وهو طبيب كان يحلم بالوزارة، ويهتم بكل شأن سياسي في كل بلد، وكان يتكلم بالعامية محققاً القاف، وله حضور فكه في مجالس سعد زغلول، ولشوقي فيه أكثر من قصيدة (١٩٢٧):

يُرغي ويُزبِدُ بالقَافاتِ تَحْسَبُها ... قَصفَ المَدافِعِ في أُفْقِ البَساتينِ
مِن كلِّ قَافٍ كأنَّ اللّهَ صَوَّرَها ... مِن مَارِجِ النارِ تَصويرَ الشَّياطِينِ

المارج: اللهب

قد خَصَّهُ اللَّهُ بِالقَافاتِ يَعْلُكُها ... واختَصَّ سبحانَهُ بِالكَافِ والنُّونِ
لا يَأمَنُ السامِعُ المسكينُ وَثبَتَهُ ... مِن كُردُفانَ إلى أعلى فِلَسْطينِ

يقفز في حديثه من موضوع إلى آخر بعيد عنه

ولم يكنْ ذاكَ عن طيشٍ ولا خَبَلٍ ... لكنَّها عبقَرِيَّاتُ الأَساطينِ

٧٥ رثاء سعد زغلول

أنشدها في حفل تأبينه في أكتوبر/ تشرين الأول (١٩٢٧):

إيهِ يا ليلُ هل شَهدتَ المُصابا ... كيف ينصبُّ في النفوسِ انصِبابا؟
قُدَّ يا ليلُ مِنْ سوادِكَ ثوباً ... للدَّراري ولِلضُّحَى جِلْبابا

اقطع أيها الليل قطعة من سوادك لتكون ثوباً يستر النجوم اللامعة والضحى. حداداً على سعد

أُنْسُجِ الحَالكاتِ منكَ نِقاباً ... واحْبُ شمسَ النهارِ ذَاك النِّقابا
قلْ لها: غابَ كوكبُ الأرضِ في الأر ... ضِ فَغيبي عن السماءِ احتِجابا
أيـنَ سَعْدٌ؟ فذاكَ أَوَّلُ حفلٍ ... غابَ عن صدرِهِ وعافَ الخِطابا

وكان سعد في كل حفل خطيباً فصيحاً

لم يُعَوِّدْ جنودَه يومَ خَطْبٍ ... أن يُنادَى فلا يَرُدَّ الجوابا
قلْ لِمَنْ باتَ في فِلَسْطينَ يَبكي ... إن زِلزالَنا أَجَلُّ مُصابا

وكان ألمَّ بفلسطين سنتئذ زلزال مشهور ما زال الناس يؤرخون به. قالت لي عمتي رحمها الله ـ وكانت تخفي حقيقة عمرها ـ إنها تتذكر يوم الزلزال بمدينة نابلس فقد أخذها الأهل إلى الجبل وكان عمرها ثلاث سنوات.. هززت رأسي وقلت في نفسي: ٢٧ ناقص٣ يساوي ٢٤، وعرفت تاريخ ميلادها

يا كبيرَ الفؤادِ والنفسِ والآما　　لِ أينَ اعتَزَمْتَ عنَّا الذهابا؟
كيف نَنسى مواقفاً لَكَ فينا　　كنتَ فيها المَهيبَ لا الهَيَّابا؟
جَزِعَ الشرقُ كُلُّه لِعظيم　　مَلأَ الشرقَ كُلَّهُ إعجابا
تَقْتُلُ الدَسَّ بِالصَّراحَةِ قتلاً　　وتُسْقِّي مُنافِقَ القومِ صابا

الصاب: نبات مرُ

قد جَمعتَ الأحزابَ حَولَكَ صَفَّاً　　ونَظَمتَ الشيوخَ والنُّوَّابا

أي مجلسي الشيوخ والنواب

قد بَلَوْناكَ قاضِيا ووزيراً　　ورئيساً ومِدْرَهاً خلَّابا

مدره: زعيم

فوَجدناكَ مِن جميعِ نواحيـ　　ـكَ عظيماً مُوَفَّقاً غَلَّابا

٧٦ رثاء يعقوب صروف

أنشدها في حفل تأبينه بدار الأوبرا في مارس/ آذار (١٩٢٨):

أَبْكي وعينُ الشرقِ تَبكي مَعي　　على الأريبِ الكاتبِ الأَلْمَعي
كُرِّمَ بِالأمسِ وأكفانُهُ　　تَنسُجُها الأقدارُ لِلمَصرعِ

كان تكريمه قريباً وسرعان ما مات، فكأنه وهو في حفل التكريم كان غافلاً عن أن القدر جادٌّ في نسج أكفانه

يا صائِغَ الدُّرِّ لِتَكريمِه　　صُغْهُ لِمَنْعاهُ مِن الأَدْمُعِ
قد زَيَّنَ العِلْمَ بِأخلاقِه　　فعاشَ مِلْءَ العينِ والمِسمَعِ
تواضُعُ العِلْمِ له رَوْعَةٌ　　يَنهارُ منها صَلَفُ المُدَّعي
وحُلَّةُ الفَضلِ لها شارةٌ　　أَزْهى مِن السَّيْفَيْنِ والمِدْفَعِ
يُشْبِعُ مَنْ حَصَّلَ مِن عِلْمِهِ　　وَهْوَ مِن التحصيلِ لم يَشْبَعِ

يشبع الناس الذين يحصلون علومه التي ينشرها في المقتطف (فحتى الشاعر العراقي الزهاوي، وهو أسن من حافظ بتسع سنين، تربّى معرفياً على يد مجلدات المقتطف في بيت والده)، لكن صروف نفسه لم يشبع من العلم. وكان من حسن طالع جيلنا أن أصدرت دولة الكويت مجلة «العربي» عام (١٩٥٨)، وكانت علمية أدبية كالمقتطف، وزادت عن المقتطف الصور الملونة الخلابة، وترأس تحريرها عالم جليل وصاحب لغة وأدب هو أحمد زكي الكيميائي المصري فجعلها مدرسة تعلم فيها جيل من الناس، وفي «العربي» قرأت أول الأسطر ومنها تعلمت، ومنها صرت لا أرى الآداب تقوم بغير العلوم المادية، وأحسب أن الزهاوي تعلم من المقتطف أن يكون أديباً وطالب علم مادي في آن معاً

قـد غـالَـتِ الأسـقـامُ أضـلاعَـهُ والـرأسُ فـي شُغْـلٍ عـن الأَضْـلُـعِ

ظل تفكيره حيوياً رغم المرض

يَـقْـتَـطِـفُ الـزَّهْـرَ ويـخـتـارُهُ كـالـنـحـلِ لا يَـعْـفُـو عـنِ الأَيْـنَـعِ

كان يقتطف في مجلته «المقتطف» الأزهار من رياض العلم والأدب، كالنحل الذي لا يعفو عن الزهرة ويتركها لأنها يانعة بل يغشاها

فـتـحـسَـبُ الـقُـرَّاءَ فـي جَـنَّـةٍ عُـقـولُـهُـمْ فـي رَوْضِـهـا تَـرتَـعي

صَـرُّوفُ لا تَـبـعَـدْ، فـلـسـتَ الـذي يَـطـويـهِ طَـاوِي ذلـكَ الـمَـضْـجَـعِ

لا تبعد: كلمة تقال للميت، أي لا بَعُدَ ذكرك

أَسْـكَـتَـكَ الـمـوتُ، ولـكـنَّـهُ لـم يُـسْـكِـتِ الآثـارَ في الـمَـجْـمَـعِ

لم تتبدد آثارك في المجمع، المجلس، ولم يكن أنشئ مجمع اللغة العربية في مصر بعد

٧٧ نضال النساء

تحية لجمعية المرأة الجديدة، نشرت في أبريل/ نيسان (١٩٢٨):

يقولونَ: نصفُ الناسِ في الشرقِ عاطِلٌ نِساءٌ قَضَيْنَ العُمْرَ في الحُجُراتِ

وهَذي بَناتُ النيلِ يَعْمَلْنَ لِلنُّهَى ويَغْرِسْنَ غَرساً دَانِيَ الثَّمَراتِ

النهى: العقل

وفي السَّنَةِ السَّوداءِ كُنْتُنَّ قُدْوَةً لنا حينَ سالَ الموتُ بِالمُهَجاتِ

في السنة السوداء، أثناء ثورة (١٩١٩)، بادرت النساء بالاحتجاج حين أودى الموت بمهج وقلوب الناس

وَقَفْتُنَّ في وجهِ الخَميسِ مُدَجَّجاً وكُنْتُنَّ بالإِيمانِ مُعتَصِماتِ

وقفت النسوة في وجه الخميس، الجيش، وسلاحهن الإيمان بمطالب الشعب

تعَلَّمَ مِنكُنَّ الرجالُ فأصبحوا على غَمَراتِ الموتِ أهلَ ثَباتِ

٧٨ رثاء محمود سليمان

كان محمود سليمان من كبار ملاك الأراضي، وقد وظف والد شاعرنا مهندساً للري في ديروط، وأسكنه عوامة فيها ولد شاعرنا. نشرت في فبراير/شباط (١٩٢٩):

قَسَّمْتَ ما جمعتْ كَفَّاكَ مِن نَشَبٍ على بَنِيكَ فكنتَ الوالدَ الحاني

وأصبح «محمد محمود» ابن الباشا رئيساً للوزراء وكان ينعم على حافظ إبراهيم كما كان ينعم أبوه على أبيه

مـالٌ حَـلالٌ مُـزَكَّـىً مـا خَـلَـطْـتَ بِـه   مِلِّـيـمَ سُـحْـتٍ ولا حَـقَّـاً لإنـسـانِ

السحت: الحرام

٧٩ الواقف على الستين

تحية الشام، أنشدها في الجامعة الأميركية ببيروت، ونشرت في ٢ يونيو/حزيران (١٩٢٩):

أهلَ الشَّآمِ لقد طَوَّقْتُمُ عُنقي   بِمِنَّةٍ خَرجتْ عن طَوْقِ تِبيَاني

منة: نعمة

لي مَوْطِنٌ في رُبوعِ النيلِ أُعْظِمُه   ولي هُنا في حِماكُمْ مَوطنٌ ثانِ

سَكَنْتُمُ جَنَّةً فَيْحَاءَ ليسَ بِها   عيْبٌ سِوى أنَّها في العالَمِ الفاني

يا لَيْتَني كنتُ مِن دُنيَايَ في دَعَةٍ   قلبي جَميعٌ، وأَمري طَوْعَ وِجْداني

بل كان حافظ في دعة مرفهاً يقبض معاشاً محترماً من «دار الكتب»، ولكنه كان مقيداً في الوظيفة وأمره ليس طوع وجدانه، فالوظيفة المغرية حبست لسانه

أَقْضي المَصيفَ بِلُبنانٍ على شَرَفٍ   ولا أَحُولُ عنِ المَشْتى بِحُلْوانِ

ليتني وادع أقضي الصيف في لبنان على شرف، في مكان عالٍ، ولا أغير مشتاي في حلوان بمصر

تَاهَتْ بِقبرِ صَلاحِ الدِّينِ تُربَتُها   وتَاهَ أحياؤُها تِيهاً بِمُطرانِ

تفتخر الشام بأن فيها قبر صلاح الدين، هذا عن الأموات، أما الأحياء فيفتخرون بمطران، وخليل مطران ابن زحلة بلبنان، وكانت لبنان في ذلك الزمن، ١٩٢٩، قد انفصلت سياسياً عن سوريا، ولكنها بقيت في وجدان الناس جزءاً من سوريا الكبرى

يَبني ويَهْدِمُ في الشعرِ القديمِ وفي الشِّـ   ـعرِ الحديثِ فَنِعْمَ الهادمُ الباني

إذا لَمَحْتُمْ بِشِعري وَمْضَ بَارِقَةٍ   فبعضُ إحسانِه في القولِ إحساني

شَقَقْتُ أسواقَ بَيروتٍ فما أَخَذَتْ   عينايَ في سَاحِها حَانُوتَ يُوناني

.. وليس كأسواق الإسكندرية العامرة بحوانيت اليونانيين.. وحوانيت الشوام أيضاً

فقلتُ في غِبْطَةٍ: للَّهِ دَرُّهُمُ   ليس الفلاحُ لِوانٍ غيرِ يَقظَانِ

ليس الفلاح، والنجاح، لِوانٍ، لكسول مُتوانٍ

متَى أَرى الشرقَ أَدنَاهُ وأَبعَدَهُ   عن مَطْمَعِ الغربِ فيهِ غيرَ وَسْنانِ

وسنان: نعسان

لا فَرْقَ ما بينَ بُوذِيٍّ يَعيشُ به ... ومسلمٍ ويَهُودِيٍّ ونَصرانـي
إن دامَ ما نحنُ فيهِ مِنْ مُدَابَرَةٍ ... وفتنةٍ بينَ أجناسٍ وأدْيانِ

المدابرة: أن يعطي كل واحد صاحبه دبره أي ظهره فيخاصمه

رأيتُ رَأْيَ المعَرِّيِ حينَ أرهَقَهُ ... ما حلَّ بِالناسِ مِنْ بَغْيٍ وعُدوانِ
لا تَطْهُرُ الأرضُ مِنْ رِجْسٍ ومِنْ دَرَنٍ ... حتى يُعاوِدَها نوحٌ بِطُوفانِ

تمنى المعري، وكانت لزومياته تلازم حافظاً، طوفاناً يغسل الأرض من وسخها

وَلَّى الشَّبابُ وجَازَتْني فُتُوَّتُه ... وهَدَّمَ السُّقْمُ بعد السُّقْمِ أركاني
وقد وقَفْتُ على السِّتِّينَ أسألُها ... أسَوَّفَتْ أم أعَدَّتْ حُرَّ أكفاني

وقفت قبيل بلوغ الستين أسألها هل سوفت أكفاني، وأجلتها، أم أعدتها وهيأتها. الحُر: من الوجه ومن المال ومن كل شيء هو حقيقته ووسطه. قد قلتُ وأنا في التاسعة والأربعين، ونشرتها في جريدة «الحال»، في شباط/ فبراير (٢٠٠٥):

«وقفت على الخمسين» حيران في أمري ... كأنيَ ناسٍ موعداً غابَ عن فكري
أَمَسُّ جبيني بالبنان، وإنني ... لأَشْوَقُ للنسيانِ مِنِّي إلى الذِّكْرِ
بعينيَّ أرنُو للفراغِ، ولا أرى، ... ولو مَرَّ جمْعٌ من أماميَ لم أدرِ
وأطبقْتُ أجفاني، زَفَرْتُ تقلقَلَتْ ... بحلقي حُصَيَّاتٌ، وفاجَأَني عُمري

كنت أعرف أنني سرقت هذه الـ «وقفت على» من أحد، ونسيت من يكون، والآن عرفت أنني سرقتها من حافظ. وقد وقفت الآن على الستين وتجاوزتها بسنة، فأنا في العمر الذي مات عليه حافظ.. وتراني كلما قال لي أحدهم «أحسن الله ختامك» أتعجب، فلم أعد أحس بمر السنين، وتركت الأمر لصاحب الأمر.. ربما سأشعر بشيء من الفراغ بعد أن أكمل هذا الكتاب ذا المجلدات الخمسة، هذا إن بقي من الوقت وقت للشعور بالفراغ

كم مِنْ قريبٍ نَأَى عنِّي فأوجَعَني ... وكم عزيزٍ مضى قبلي فأبكاني
مَنْ كانَ يسألُ عن قومي فإنَّهُمُ ... وَلَّوْا سِراعاً وخَلَّوْا ذلكَ الوَاني

الواني: الضعيف

إنـي مَلِلْتُ وُقوفي كُلَّ آوِنَةٍ ... أبكي وأَنْظِمُ أحزاناً بِأحزَانِ
إذا تصفَّحْتَ دِيواني لِتقرَأَني ... وجدتَ شعرَ المراثي نِصفَ ديواني
أتيتُ مُسْتَشْفِياً والشوقُ يدفَعُ بي ... إلى رُباكُمْ وعُودي غيرُ فَيْنانِ

العود الفينان: الساق الناضر ذو الأغصان

فأَنزِلُوني مَكاناً أَسْتَجِمُّ بِه ويَنجَلي عن فؤادي بَرْحُ أحزاني

البرح: الأذى

وجَنِّبُوني، على شُكْرٍ، مَوائِدَكُمْ بِما حَوَتْ مِنْ أَفاوِيهٍ وأَلْوانِ

الأفاويه: التوابل

حَسْبي وحَسْبُ النُّهَى ما نِلْتُ مِنْ كَرَمٍ قد كِدْتُ أَنْسَى به أهلي وخُلّاني

٨٠ تأبين محمد المويلحي

نشرت في أبريل/ نيسان (١٩٣٠):

دمعَةٌ مِن دموعِ عهدِ الشَّبابِ كنتُ خبَّأْتُها لِيومِ المُصابِ

لَبَّتِ اليومَ يا محمدُ لَمّا راعَني نَعْيُ أَكْتَبِ الكُتَّابِ

وكان محمد المويلحي ناثراً مشهوراً وله «حديث عيسى بن هشام» على طريقة المقامات

هَدَّأَتْ لَوعَتي وسَرَّتُ قليلاً عن فؤادي ولَطَّفَتْ بعضَ ما بي

سرَّت عن فؤادي تسريةً: خففت عنه

لو شَهِدْتُمْ محمداً وَهْوَ يُملي آيَ «عيسى» ومُعجِزاتِ الكِتابِ

كتاب «حديث عيسى بن هشام».. والتورية في آي عيسى أي معجزاته، ومعجزات القرآن التي تكمن في بلاغته

وَقفَتْ حولَهُ صُفوفُ المعاني وصُفوفُ الألفاظِ مِن كلِّ بابِ

لَعَلِمْتُمْ بأنَّ عهدَ ابنِ بَحْرٍ عاوَدَ الشرقَ بعد طولِ احتِجابِ

ابن بحر: عمرو بن بحر الجاحظ

٨١ حنين للدموع

نشرت في فبراير/ شباط (١٩٣٢):

كم رَوَّحَ الدمعُ عن قلبي وكم غَسَلَتْ منه السَّوابِقُ حُزناً في حَناياهُ

كان الدمع يروح عني ويخفف حزن قلبي وكانت سوابق الدمع، الدمعات التي تنزل فوراً، تغسل الحزن في حنايا قلبي، أنحائه

لم أَدْرِ ما يَدُهُ حتى تَرَشَّفَهُ فَمُ المَشيبِ على رُغمي فأَفناهُ

لم أعرف يد الدمع، نعمته، إلا بعد أن ارتشفه فم المشيب وأفناه فجفت دموعي

قالوا تَحَرَّرْتَ من قَيدِ المِلاحِ فعِشْ   حُرّاً ففي الأسرِ ذلٌّ كنتَ تأباهُ

علَّلوني بأنني تخلصت من أسر الميل للحسان وتخلصت من ذل هذا القيد

فقلتُ يا ليتَه دامَتْ صَرامَتُهُ   ما كان أرفقَه عندي وأحناهُ

لكنني أتحسر على ذلك الميل للنساء، ففيه رفق وحنو. لعله نادم أن طلق زوجته بعد أربعة أشهر من الزواج وبقي عزباً ربع قرن فدهمته الشيخوخة فشعر بالوحدة

بُدِّلْتُ منهُ بِقَيْدٍ لستُ أُفْلِتُهُ   وكيف أُفْلِتُ قيداً صاغَهُ اللَّهُ

القيد الثاني فيه نظر. لعله الميل المتأصل في نفس حافظ للشبان! أو لعله المشيب كما يصرح البيتُ المقبل

أسرى الصبابةِ أحياءٌ وإنْ جَهَدوا   أمَّا المَشيبُ ففي الأمواتِ أسراهُ

٨٢ فاض الكيل

نشرت (١٩٣٢):

أخذتُمْ كلَّ ما تَبغُونَ مِنَّا   فما هذا التَّحَكُّمُ في العبادِ؟

فليس وراءَكُمْ غيرُ التَّجَنِّي   وليس أمامَنا غيرُ الجِهادِ

٨٣ تعميم الخصب

أنشدهما في حفل أقامه لطه حسين طلبته بعد فصله من الجامعة، نشر البيتان في ٧ أبريل/ نيسان (١٩٣٢):

قد أَجْدَبَتْ دارُ الحِجَا والنُّهَى   بعدَكَ مِنْ آرائِكَ النَّافِعَةْ

أجدبت، وأقفرت، الجامعة التي هي دار الحجا، العقل، والنهى، العقل أيضاً، من آرائك النافعة

وأَخْصَبَتْ أَرجاءُ مِصرَ بِمَنْ   صَيَّرَ مِصراً كلَّها جَامِعَةْ

٨٤ حكومة صدقي

من قصيدة في شؤون مصر السياسية، قالها في عهد وزارة إسماعيل صدقي، بعد إحالته إلى التقاعد (١٩٣٢)، وقيل إنها بلغت مئتي بيت، وعثر من هذه الأبيات على قليل، منه هذا الأقل:

قد مَرَّ عامٌ يا سعادُ وعامُ   وابنُ الكِنانَةِ في حِماهُ يُضامُ

لم يبقَ فينا مَن يُمَنِّي نفسَهُ   بِودادِكُمْ فَوِدَادُكُمْ أَحلامُ

أَمِنَ السياسةِ والمروءةِ أَنَّنا نَشقَى بِكُمْ في أرضِنا ونُضَامُ؟

إنَّا جَمعْنا للجهادِ صفوفَنا سنموتُ، أو نحيا ونحن كِرامُ

أَشكُو إلى قَصْرِ الدُّبَارَةِ ما جَنى صِدقيِ الوزيرُ وما جَبَى عَلَّامُ

قصر الدوبارة: مقر المعتمد البريطاني، وصدقي: رئيس الوزراء إسماعيل صدقي، وعلام: محمد علام وزير الزراعة

ودعا عليكَ اللَّهُ في مِحرابِه الشيخُ والقِسِّيسُ والحاخامُ

هذه لإسماعيل صدقي

فهرس القوافي

(القافية فرقم القصيدة)

معروف الرصافي

(١٨٧٥م ـ ١٩٤٥م)

نامت جارتي الهندية، فهذا حين أقعد إلى حاسوبي لأكتب شيئاً.

أُنصت وأُصيخ السمع.

نامت.

فجارتي ـ ولا أعرف لها وجهاً، ولا صادف أن التقينا في الردهة أو في المصعد ـ لا تسكت ساعة من ساعات النهار أو المساء، فإذا ساد الصمت فلا بد أنها نامت.

بقي أن أدعو الله ألا يُهيب بي ذلك الدافع الخفي فأهب من جلستي، غير هائب ولا وجل، لكي أصقل الغرفة. ولا بأس أن أقول لمن يقرأ هذا إنني أسكن منذ سنة وشهر في غرفة ملساء. أكثر ما أعجبني فيها وقت اكتريتها أنها ذات بلاط أملس، بخلاف شقة قديمة كنت أسكنها وكان بلاطها خشناً. وفي غرفتي الصغيرة تحتل معدات التنظيف مساحة يمكن تقديرها بنسبة مئوية لا بأس بها. ويطيب لي أن أمسح الغرفة بالممسحة مرتين أو ثلاثاً في اليوم، ليس لكي أرى مقدار ما تساقط من شعر جسمي في الزمن الذي انقضى بين المسحة والمسحة، ولكن كي أحس أنني أعيش في بانيو.

يا إلهي! عادت إلى الكلام. بيني وبين جارتي جدار صفيق، جدار أسمنتي حقيقي، ولكن صوت جارتي الهندية يخترق جدار الصوت. أسمعها دائماً وحدها، يبدو أن زوجها مخلوق أنيس لا يلاسنها، أو أنه يكتفي بهمهمة خفيفة.

يحسن بي أن أقوم ببعض التلميع عساها تنام.

نامت جارتي لا شك. وأنا الآن أجلس وتحتي شبه بحيرة، فالبلاط الأملس لا يجف بسرعة. ولا قومة لي لساعة أو ساعتين حتى يجف. الآن أشعر حقاً أنني أعيش في بانيو. وهذا جد ملائم للكتابة عن شاعر. فأنا إذ أكتب عن شاعر أحب ألا أعيش في بيئتي بل في بيئته. أحب أن أخرج من زماني ومكاني، وأنتقل إلى زمانه ومكانه.

لم يكن معروف الرصافي يعيش في المكان. فقد اهتزت الأرض من تحته طفلاً، وظلت تهتز. فإن ثبتت هزها.

كان سومرست موم الأديب البريطاني كذلك. كان مكانه الذي فيه يعيش ثروته الطائلة. في الأربعينات من القرن العشرين، كانت له سفرة في شرق آسيا، وحمل في حقيبته مئة ألف دولار أميركي. استهوتني الفكرة، فقلت لنفسي يجب أن أجمع مالاً كثيراً كي أقضي سنوات الشيخوخة عائشاً في ثروتي. وسألني صحفي يوماً عن أمنيتي، فقلت له: أن أجمع مليون دولار. وتردد صدى هذا التصريح، وظل الأصدقاء يسألونني: هل اكتمل لك المليون؟ الجواب: لا. بل ها قد دخلت في الشيخوخة، وإني لأرى أحياناً بجانبي ورقة، فأنظر ذات اليمين وذات الشمال، فإذا وجدت نفسي وحيداً استللت قلمي وبدأت أحسب القروش التي وفرتها. كذا يفعل كل من أوشك على التقاعد. وخير رزق للشيخ بعد أن تصد عنه الوظائف التوفير والتدنيق.

سنة، وأكون قد تخلصت من هذه السلسلة التي أحدثك فيها عن الشعراء وأسمعك شعرهم. سنة، ويأتي الزمن الشيخوخي الذي يحس فيه الإنسان بأنه يملك الكثير من الوقت، وهو في الحقيقة لا يملك منه سوى القليل. سنة، وتبدأ مرحلة جديدة تصبح فيها أحلام اليقظة صعبة. ربما لهذا السبب يقبل المسنون على الدين إقبالاً ملحوظاً، فعندما تنتهي أحلام يقظتهم ينتبهون إلى أن هناك حلماً خالداً ويركزون اهتمامهم فيه.

على أنني الآن قاعد في البانيو، وتحتي ما زال البلاط يلمع، ولمّا تجفَّ البحيرة. ولا حيلة لي في القيام. إن جاءتني فكرة حسنة فها أنذا أكتبها، وإن لم تجئ فعلى القارئ أن يحتمل كل ثرثرتي، فلا قومة لي حتى تجف بحيرتي.

جف الماء.. ليس ماء بحيرتي بل ماء حلقي. فقد عادت جارتي إلى

الكلام، ليس صراخاً هذه المرة بل كلام هادئ. ومع ذلك أقسم لو أنني أعرف لغتها لفهمت كل كلمة من كلامها، ففي صوتها خاصية غريبة هي الاستواء. إنه لا يصعد ويهبط مثل أصوات البشر، بل يظل على وتيرة واحدة، هادئاً كان أم صارخاً. وهو الآن ليس بصارخ، لكنه عالٍ، ومتواصل.

وعلى صوتها الهادئ، وكلامها الذي لا أفهمه، يمكنني أن أركز ذهني في حياة معروف الرصافي المضطربة. فإن لم أحسن التركيز فلا بأس.. فحياته كانت مضطربة.

هذا رجل بغدادي. والواقع أنه طفل بغدادي لا رجل. فعلى غير ما عودتك سوف أبدأ من شاعرنا منذ الولادة وأصعد درجة درجة حتى أوسده حفرته.

معروف الرصافي

ولدته أم عربية، في بيت أبيها جاسم، وربته عربياً. فقد كان أبوه الكردي عبد الغني محمود، العريف في الجيش العثماني، ثم شرطي الجندرمة، غائباً معظم الوقت، ثم مات ومعروف في نحو السابعة من العمر، فإن رأيته يذرف الدموع في أكثر من قصيدة على اليتيم فاعلم أنه يستقي من بئر حديقته.

كانت فاطمة بنت جاسم تعتني بولدها وترسله مع شطيرته إلى الكتاب كل يوم. ثم أخذ معروف يتردد على «المدارس الدينية»، لا أدري طبيعة هذه المدارس، ولا الجهة التي كانت تنفق عليها، وأنا أنقل لك بعض المعلومات من نجدة فتحي صفوة في كتابه عن الشاعر ضمن سلسلة «الأعمال المجهولة»، والكتاب طيب وذو أسلوب قويم، رغم أنه المؤلف فيما بدا لي لم يدقق النص بعد أن دفعه إلى المطبعة.

بعد ذلك التصق الرصافي بأستاذ كبير هو الشيخ محمود شكري الآلوسي اثنتي عشرة سنة لا يفارقه. والآلوسي بحر زاخر في علوم اللغة والأدب القديم وعلوم الدين على مذهب أهل السنة. فمن نظر في كتابه «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب» عرف أن الرصافي عبّ من البحر.

لقَّب الآلوسي تلميذه النابه «الرصافي» مستذكراً معروف الكرخي الصوفي الزاهد، والرصافة جانب بغداد الشرقي المقابل للكرخ، وكان التلميذ يتدرب على الشعر بمدح أستاذه.

عمل الرصافي في التدريس، وظل ينظم، وأخذ ينشر أشعاره في مجلات مصر وسورية وهو بعد فتى، فظن الناس أن «الرصافي» اسم يستخفي وراءه شاعر كبير لا يريد أن يتأذى بما في قصائده من صراحة. ومع إعلان الدستور العثماني ١٩٠٨، ثم خلع السلطان عبد الحميد في السنة التالية، كان الرصافي في الثالثة والثلاثين من العمر، معلماً واعياً لما تحدثه التغيرات في إستانبول على أحوال العراق. وقد نشط في تأييد ضباط جماعة «الاتحاد والترقّي» الذين أرغموا السلطان على الدستور، فانقلب عليهم، فعزلوه. وكان لجماعة الاتحاد والترقي في بغداد حضور، وأصدروا صحيفة بالعربية والتركية، وتولى الرصافي تحرير نسختها العربية.

برزت في ذلك الحين الأفكار العلمانية للرصافي. كأن صاحبنا بعد أن أخذ عن أستاذه الكبير علمه الغزير باللغة والأدب خالفه في تمسكه القوي بالدين على المنهج السلفي القريب من الوهابية.

استدعى القطب الصحافي في إستانبول «أحمد جودت» الرصافي ليحرر جريدة في عاصمة الدولة، فذهب الرصافي، ليجد أن المشروع قد ولد ميتاً.

توجه الرصافي إلى بيروت حيث احتفت به الأوساط الأدبية، وطبع له هناك، عام ١٩١٠، ديوان بوبه وقدم له اثنان من كبار أهل الأدب (محيي الدين الخياط، ومصطفى الغلاييني)، وفي هذا ما يدلك على أن أهل الأدب واللغة في ذلك الزمن عرفوا قيمة الرصافي الأدبية وعمق معرفته باللغة وأساليبها، وهو بعد في الخامسة والثلاثين من العمر. ثم عاد الرصافي إلى بغداد.

واستدعي الرصافي ثانية إلى إستانبول لتحرير صحيفة «سبيل الرشاد»، فذهب. وخلع في إستانبول الجبة والعمامة وتزوج امرأة تركية. وأخذ يدرِّس الواعظين، وكان طلعت باشا أحد كبار رجال الاتحاد والترقي يدرس العربية على يديه، ويقول «شيخي معروف الرصافي».

وعلى يدي طلعت دخل الرصافي مجلس المبعوثان نائباً في عام ١٩١٢، و«زامل في ذلك المجلس نائباً شاباً من الحجاز اسمه الشريف فيصل ولم يكن يخطر لأي منهما في ذلك الوقت ببال أن هذا الشاب الحجازي سيتوج بعد أقل من عشر سنوات ملكاً على العراق، وأن الرصافي سيصبح من أشد مناوئيه»، اهـ عن نجدة فتحي صفوة.

بقي الرصافي في النيابة أزيد من أربع سنين مؤيداً للدولة العثمانية في حربها ضد نصف العالم، الحرب العالمية الأولى. كان على بعض اتصال مع الجمعيات العربية التي تتطلع إلى نيل العرب حقوقهم، ثم صارت تتطلع ـ بعد أن بدا واضحاً أن الدولة العثمانية آيلة للتفكك ـ إلى نيل بلاد العرب الاستقلال، وكان الرصافي ينتقد هذا التحرك. قد ظل الرصافي عثماني الهوى.

وعندما قام شريف مكة، الشريف حسين، بالتحرك ضد الدولة العثمانية بدعم بريطاني رماه الرصافي بخيانة الدولة العثمانية الإسلامية وممالأة أعدائها. وبدأت أعراض الهزيمة تظهر بوضوح متسارع على الدولة العثمانية وحليفتيها ألمانيا والنمسا في الحرب العالمية الأولى، وظل الرصافي عثمانياً.

توجع الرصافي عندما سقطت بغداد بيد الإنجليز عام ١٩١٧، وظل في إستانبول حتى انتهت الحرب في عام ١٩١٨. ودخلت تركيا نفسها مع انتهاء الحرب في أتون حروب داخلية ستنتهي بقيام الدولة التركية الحديثة على يد مصطفى كمال أتاتورك.

غادر الرصافي إستانبول إلى دمشق، حيث كان الأمير فيصل يهيء نفسه لتسلم العرش بدعم بريطاني، ولأن موقف الرصافي من الإنجليز معروف فقد تعذر عليه أن يمكث في دمشق، فتوسط له محمد كرد علي في وظيفة بالقدس.

مكث الرصافي في القدس عامين سعيدين احتفى فيهما به أدباء فلسطين. كان معلماً في مدرسة المطران. لا ندري إن كان الرصافي قد عرف قبل مقدمه أن هذه المدرسة إنما أنشأها المبشرون الأنجليكان الإنجليز قبل عشرين سنة من مقدمه، وظلوا يديرونها حتى يومنا هذا. على أن الأنجليكان، بخلاف كل الطوائف، يتسمون بسماحة لم يتسم بها الحكم الإنجليزي الذي كان قد وطد لنفسه في فلسطين قبل قدوم شاعرنا. لقد دخل الجنرال إدموند ألنبي القدس في أواخر عام ١٩١٧ راجلاً احتراماً للمدينة المقدسة، ولكن وزير خارجيته في لندن آرثر بلفور، صاحب الاعتقاد بالشعوذة والرئيس السابق لجمعية غيبية لا تؤمن بأن الإنسان يموت، كان قد أصدر الوعد المعروف باسمه لليهود بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين قبل شهر وتسعة أيام من احتلال الإنجليز للقدس.

عاش الرصافي في القدس مع إخوته من الفلسطينيين وجلهم كان غافلاً عما يدبر للبلد رغم الإشارات الواضحة.

وبعد هذين العامين السعيدين استدعت بغداد ابنها. لقد بدأ زعماء العراق يحشدون قواهم تحت شعار «العراق للعراقيين». ذلك أن فيصلاً طرد من دمشق شر طردة بعد أن أخلاها الإنجليز للفرنسيين ودخلها الجنرال غورو دخولاً وقحاً وهو يبشر نفسه بأنه قد بلغ بالحروب الصليبية نهايتها بانتصار الغرب. وبدأ الإنجليز يرتبون لفيصل كي يتسنم عرش العراق.

استدعى زعماء بغداد الرصافي المعادي للإنجليز كي يحرر جريدة لهم تدعم مطلبهم.

لكن الإنجليز شقوا صف الزعماء العراقيين وتوجوا فيصل ملكاً على العراق. وصل فيصل في صيف ١٩٢١، واستقبله الرصافي بقصيدة قدح ثم بقصيدة مدح. لكن فيصلاً زوى وجهه عن زميله القديم في المبعوثان. واستعطفه الرصافي برسالة بعد سنة. ولم يقبل عليه فيصل بوجهه. فأخذ شاعرنا يبث في الناس أهاجيه في فيصل.

سافر الرصافي إلى إستانبول، وكان قد طلق زوجته التركية قبل رحيله في نهاية الحرب، ورأى أن ما كانت عليه إستانبول وهي عاصمة الإمبراطورية تغير كثيراً. فلم تعد عاصمة دولة نصف أهلها عرب، بل كبرى مدن تركيا وحسب. وبسرعة مضى الرصافي إلى بيروت يريد أن يقيم بها. لكنه عدم في بيروت مورداً للرزق مع أنه اختير عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق، فعاد إلى العراق وشارك في انتخابات المجلس التأسيسي ١٩٢٤، ولم ينجح. لا، ولم يقربه فيصل الذي بلغته أبيات الرصافي في هجائه.

عمل الرصافي في تدريس اللغة العربية موظفاً في المعارف. وأخذ يمدح الملك ورجال الحكم ويهجوهم طامعاً في منصب كبير. كان فيصل رجلاً حكيماً عاقلاً، وكان الرصافي شاعراً قلقاً.. فعاش الملك مغضياً ومحتملاً ما تجود به قريحة الشاعر، وعاش الشاعر آمناً ومقصىً عن رفيع المناصب.

لكن الله أرسل للرصافي رجلاً رقيق القلب وصاحب سياسة هو رئيس الوزراء عبد المحسن السعدون. أقنع السعدون الملك بأن يسمح للرصافي بالترشح لمجلس النواب. وانتخب الرصافي نائباً في عام ١٩٢٨. ومرت سنة وانتحر رئيس الوزراء السعدون، في الأغلب لأنه شعر أن المطلوب منه أن يكون لعبة ثانية بيد الإنجليز، حيث اللعبة الأولى فيصل نفسه.

بقي الرصافي في مجلس النواب أربع سنين، ثم ضاق رزقه فارتحل إلى الفلوجة على بعد ثمانين كيلومتراً من بغداد، وعاش في بيت أفرده له بعض من يقدر أدبه. ومات فيصل عام ١٩٣٣، ورثاه الرصافي. وعاد الرصافي إلى مجلس النواب عام ١٩٣٥ وظل فيه أربع سنين أخرى.

في الفلوجة، حيث مكث الرصافي سبع سنين، كتب كثيراً من النثر. فيها كتب «الشخصية المحمدية» الذي سنتحدث عنه بعد أن نوصل الرصافي بأمان إلى حفرة قبره.

عاد الرصافي إلى بغداد مع قيام انقلاب رشيد عالي الكيلاني ١٩٤١. كان حكام البلد الإنجليز يخوضون حربهم العالمية الثانية، ولم يكونوا في مزاج يسمح لهم بقبول انقلاب مدعوم من هتلر. فقمعوا الانقلاب الذي أيده الرصافي بكل قوة.

كان الرصافي يعيش في بغداد في دار مستأجرة مع خادمه عبد بن صالح وأولاد الخادم الكثر. فتح الرصافي دكاناً لبيع السجائر، وتوسط له أهل الخير لكي يأخذ حصة من سجائر «غازي» من الشركة ليبيعها. ونظم شاعرنا بيتاً، ربما رشحناه ليكون أسخف بيت شعر عربي، في الدعاية لسجائره: دخِّن سيجارة غازي/ واشعُرْ بفخر اعتزاز. ونشر البيت في دعايات السيجارة المذكورة في صحف بغداد. ولكن هذا لم يشفع للدكان المنحوس فسرعان ما أغلق أبوابه.. إن كان له أكثر من باب. وقال شاعرنا: «والله لو حاولت بيع الأكفان لما استأثرتْ يد الرحمن بنفس من الأنفس».

خصص مظهر الشاوي، أحد شيوخ القبائل، مرتباً للرصافي. وشاعرنا صاحب مزاج، وهو سخي متلاف. يصف لنا أحمد حسن الزيات زيارته للرصافي في بيته ببغداد.. وسأنقل لكم وصفه.

العودة عصر اليوم التالي

قد مضى ذلك المساء الذي كتبت فيه الصفحات السابقة.. والآن أكتب في عصر اليوم التالي.. فاسمعوا الآن معي ما أسمعه من خلال الجدار الأسمنتي في غرفتي! كاكا آآع.. ددي ننيكاب أوز دوب. هل فهمتم شيئاً؟ لحظة.. سورات! ماذا؟ هنا بدأت الأحرف تتوالى على نحو يصعب معه تدوينها. إن كنت تفهم لغة هذه الآدمية فأنت بحول الله قد عرفت عن جيراني ما لا أعرف. همنا هاما دي! ما معنى هذا لو سمحت؟

وأسمع بوضوح شديد: تيكا ماسالا، كاري كاري. والصوت غير الصوت. هذا في الواقع صوت بطني. فقد أخذ يتجاوب مع جارتي الهندية تحت وقع الجوع بكلمات حبيبة إلى قلبي. وكيف لا تكون حبيبة وهذه الخلطة من البهارات الهندية كافية للقضاء على كل نكهة. أُطبخ بها نعل جدك العتيق على نار هادئة وستجد له مذاقاً رائعاً. . مذاق المسالا طبعاً. لا أدري ماذا يقدمون لنا في المطاعم الهندية الرخيصة. . تأكل وتملأ بطنك وتدفع أقل مما تدفعه في شطيرة جبن.

سأقوم إلى إعداد غدائي الآن، فمنذ الصباح لم أتناول شيئاً. وعندي سمكة. ليست كالسمكة التي نصحني بها صديقي في لندن.

جلد السمك

كان الشاعر العراقي صلاح نيازي يقف أمامي في طابور مطعم الإذاعة البريطانية يسوق صينيته على السكة وأسوق صينيتي خلفه، والتفت إليَّ ووجهه مشرق بالفرح: «عيني شوف. سمك، سمك، وبجلده. عيني! لا تطرح جلد السمكة جانباً. أرجوك، أرجوك». وتغضن وجهه وكأنه يلقي قصيدة حزينة. «لا، لا. كل الفائدة في جلد السمكة. يود! مليء باليود. يصعد إلى قشرة الدماغ فوراً، وكُلِّشْ مفيد للذاكرة».

لا أذكر إن كنت عملت بنصيحته أم لم أعمل. لكنني من يومها وأنا أغمض عيني كلما قدمت إلي سمكة بجلدها، وأبلع قطعة من هذا الجلد بلعاً، وها هي ذاكرتي تسبِّح بحمد ربها. سلني عن أي شاعر أكتب الآن؟

غدائي سمكة منزوعة القشر والشوك معاً. لا أريد يوداً، ولا أريد أن أخوض لعبة البحث عن الشوك. عندي نصف سمكة منزوعة الفائدة، وسأشحنها شحناً بالكاري والمسالا، وأعود إلى شاعرنا. كائناً من كان شاعرنا. وليكن في علمك أنني عندما أملأ بطني أكتب كتابة مملة مشحونة بالثرثرة. تماماً مثلما أفعل الآن وأنا أتضور جوعاً.

العودة إلى الرصافي

اللهم أَدِم النعمة، واحفظها من الزوال.

كنا نقول إن الرصافي قعد في سنينه الأخيرة في بغداد تحت حكم الإنجليز

الذين كرههم وكرهوه. ولكنه عرف دهاءهم. ورأى كيف تتحرك السياسة العراقية في زمنهم، فكان كمن يشهد مسرح العرائس.. يرى العرائس ولا يرى الأصابع الخفية التي تحركها.

استطراد عن الإنجليز

الإنجليزي مخلوق من مخلوقات الله، يمكن أن يكون ذكياً ويمكن أن يكون بغلاً. ولكن ستين مليون بغلٍ يسيرون في اتجاه واحد يحركون الجبال، وثلاثمئة مليون عربي ـ كل واحد منهم، زعيم، أو فقيه، أو ولي من أولياء الله، له قول في خالق الكون وفي فوائد جلد السمك ـ يسير كل منهم في اتجاه مختلف يتحركون فقط حركة موضعية، كان يسميها معلم التربية البدنية «مكانك سر».

قبل أزيد من ربع قرن خاطبني زميل إنجليزي يشتغل في الراديو القومي الثالث، المتخصص في الموسيقى، وقال لي: قد نصحوني بك لهذا البرنامج الذي نريد إنتاجه في لبنان. اسم البرنامج «نجوم فوق لبنان» وهذه ترجمة حرفية لـ «ستارز أوفر لبنون». هل رأيت كلمة لبنان وهي مكتوبة باللفظ الإنجليزي؟ في الواقع أهل ذلك البلد الشقيق ينطقونها لبنين. ولكنهم إذا استمروا في إهمال اللغة العربية قد يقولونها ليبون، أو أي شيء آخر.

المهم، مضينا إلى لبنان. وذهبنا إلى الحازمية ورأينا وديع الصافي. قال لي: من وين حضرتك؟ قلت له: فلسطيني. قال لي كلمة واحدة: معلش. وكان لقاء طريفاً. أطرف ما فيه أن وديع الصافي لا يتحدث كلمة إنجليزية واحدة. فترك لي صاحبي الإنجليزي، وهو مخرج البرنامج وأنا المقدِّم، المجال لكي أسرح مع وديع الصافي في ذكريات أيام زمان مع صباح وفيروز، وبعلبك.

ثم ذهبنا إلى عجلتون لنرى فادية الحاج، وبعد السؤال الأول بدأت توجه كلامها للإنجليزي لا إليّ. ومثلها فعل وليد غلمية الذي قابلناه في معهد الموسيقى في سن الفيل. ما الذي يميز هذا الإنجليزي عني؟ أهو فهمه للموسيقى والغناء في لبنان؟ بالطبع لا. ولا هو عمره، فربما كان يصغرني ببضع سنوات. ولا حتى لغته الإنجليزية، فقد كنت أتكلم مع النجوم بالعربية أو بإنجليزية مبسطة كي أستل منهم بعض العبارات الإنجليزية، لأن البرنامج سيكون لجمهور إنجليزي.

عقدة الأجنبي متمكنة منا.

عند الرحابنة في أنطلياس

ذهبنا إلى أنطلياس والتقينا منصور الرحباني. كان قد دخل في مرحلة العزوف الشيخوخي، وبدأ يحدثني ـ وبحمد الله أنه لم يكن يحسن شيئاً من الإنجليزية ـ عن العلاقات المميزة بين المسلمين والمسيحيين. ولم يكن هذا الأمر مما يعنيني، لا في ذلك اللقاء ولا في أي لقاء آخر في حياتي كلها. فهؤلاء القوم في لبنان يتبادلون القبلات اليوم ويسحبون خناجرهم غداً، وكلهم يقتتلون: طائفياً يقتتلون، وعشائرياً يقتتلون. فإذا لم يكن ثمة تهديد من طائفة أخرى فإن أبناء الطائفة الواحدة يتسلون فيما بينهم بحرب أهلية صغيرة.

وخرجنا من عند منصور الرحباني. وفي الشارع أمام البيت وقفت كي ألقي في آلة التسجيل كلاماً يكون بمثابة المقدمة للقاء. لاحظت لون الشبابيك، إنه أحمر أحمر.. في حمرة الدم. وأعادني هذا، ليس إلى الدم الذي سفحه أشقاؤنا في حربهم الأهلية الأخيرة، بل إلى هذا الوضوح الطفولي في أغاني الرحابنة. كانت الدنيا في العالم الرحباني بسيطة وملونة بألوان أساسية. كان أغرب لون عندهم اسم مغنيتهم «فيروز»، وبخلافه فليس عندهم تلك الألوان المختلطة: الخمري والبطيخي والتركواز، بل اكتفوا بالأحمر والأصفر والأخضر والأزرق بأبسط صورة. قلت أشياء من هذا القبيل.

وسقط في يد صاحبي الإنجليزي. وبدأ يحاججني في إشارتي إلى اللون الأحمر. قلت له: أحاجيك أن تجد لي في بيروت كلها شبابيك بهذا اللون. هذا لون اختاره ناس صنعوا عالماً في الهواء، صنعوا دنيا أحلامية. هؤلاء ارتفعوا عن واقع بلدهم بما يكفي ليقولوا في كلامهم وموسيقاهم أشياء تصلح لكل زمان ومكان. لقد صنع الرحابنة في نحو سبع عشرة مسرحية عالماً من الخيال، فيه الحب والسياسة، وفيه المرح والنكتة، وفيه أجمل الشعر وأجمل الموسيقى. وحري بالمثقف العربي أن يربأ بنفسه عما تفعله إذاعات الإف إم من إعمال السكين في هذه المسرحيات، واستخراج الأغاني منها، وإلقاء الحوار في سلة المهملات. حري بالمثقف العربي أن يعود إلى هذه المسرحيات فيسمعها كاملة لكي يدخل في هذا العالم الرحباني، ويتذوق الفن على درجة تذوقية أرفع من درجة التذوق البسيطة بالأغنية وحدها منزوعة من المسرحية.

مكثت على حالي تلك مع مخرجي الإنجليزي أسبوعاً ذقت فيه مرارة عقدة الخواجا عند كبار أهل الفن، ومرارة ضيق الأفق عند هذا الرجل. وعدنا إلى لندن، وسجلت المزيد من الوصلات والمقدمات. وكان من محاسن شخصية صاحبي أنه منظم غاية التنظيم فجمع البرنامج من القصاصات الصوتية الكثيرة، وصاغه في أحسن صورة في ثلاث حلقات.

عودة ثانية إلى الرصافي

لا تنتظر من الرصافي أن يكون خانعاً للإنجليز، فهو حر، وفي شخصيته خليط من القسوة والرقة والجلافة وطيبة القلب. ولا تنتظر منه أن يكون مفكراً رصيناً لما في شخصيته من تقلب وحدة مزاج. وربما أيضاً لأنه شاعر، وربما أيضاً لأنه كف عن المطالعة في سن مبكرة مكتفياً بما تعلمه من أستاذه الآلوسي. وشر ما تعلمه الرصافي التعصب الطائفي. وهو في كتبه «السياسة في العراق»، و«الشخصية المحمدية» متحامل على الشيعة تحامل من هو واثق من أنه على حق. لكنك تراه يتعامل مع أبناء بلده من الشيعة بأريحية وطيب نفس. كان في حياته وفي أفكاره التي ستراها واضحة كل الوضوح في شعره علمانياً بعيداً عن الدين. وترك لنا مصداق ذلك في كتابه الكبير «الشخصية المحمدية».

سمعت عن الكتاب من زكي مبارك.

فقد زار الأديب المصري الشاعر الرصافي وهو في الفلوجة، وقد أنهى لتوه كتاب «الشخصية المحمدية». وجاء الرصافي لزكي مبارك بمخطوط الكتاب، اسمع زكي مبارك: «ألح عليَّ الشاعر في أن ألقي نظرة على ذلك الكتاب، وهو مخطوط في عشرة كراريس، وكنت قضيت ساعة في هدوء. فلما وقع بصري على بعض فقرات الكتاب ثرت ثورة عنيفة، وانطلقت أجادله بلا ترفق ولا تلطف. وقابل الشاعر ثورتي بأدب رائع دلني على أنه من أقطاب العقل [...] والرصافي، مؤلفاً، غير معروف، لكن كتابه عن النبي محمد كتاب هائل جداً، وترجع أهميته إلى ما فيه من نقد الأخبار والأحاديث، وقد لا تتسع الصدور لظهور هذا الكتاب، وهذا هو الشاهد على أن أسلافنا كانوا أوسع صدراً وأعلى مقاماً»، اهـ عن «وحي بغداد» لزكي مبارك.

قرأت هذه الفقرة عند زكي مبارك، وقلت في نفسي لعل كتاب الرصافي ضاع. وقرأت في مكان آخر ما يدل على أن نسخة منه محفوظة في بغداد. ثم

فجأة جاءني من يقول إن الكتاب قد طبع في ألمانيا. كنت أوشك على سفر إلى هناك، بل إلى المدينة نفسها التي زعم الزاعم أن الكتاب طبع بها.

لم أعثر على الناشر في مكتبه. ولكن صديقاً أهدى إليَّ نسخته. فإذا هو كتاب كبير حقاً، يتجاوز السبعمئة صفحة. وقد عهدت الرصافي الناثر يكتب الفقر القصيرة والكتب الصغيرة ككتابه عن السياسة في العراق.

جعلت كتاب «الشخصية المحمدية» زادي في أسبوع قضيته في لندن وآخر في أمستردام. ويا له من كتاب! ولكثرة ما فيه من جحد الغيبيات، والتشكيك في أحداث ظل الناس يروونها وكأنهم رأوها بأعينهم، ولكثرة ما فيه من نقد للدين بسن الرمح لا بسن القلم، لم يعد أحد قادراً على حجبه عن النت. فنسخته المصورة موجودة في كل مكان. والممنوع مرغوب. ولا أجادل الرجل في كلامه، وحتى عندما أُورد له من الشعر بعض ما يشبه ما جاء في نثره فإنني إن ناقشته في مسألة لغوية فلا أناقشه في أفكاره.

لم يتزوج الرصافي بعد امرأته التركية. وعاش الثلاثين سنة الأخيرة من حياته عيشة بوهيمية، حتى وهو نائب في مجلس النواب. زاره الأديب المصري أحمد حسن الزيات، صاحب «الرسالة»، في بيته في بغداد بعد عودته من الفلوجة. وكتب عن هذه الزيارة عقب وفاة الرصافي: «... ودخلنا البيت فإذا هو بيت الشاعر الأعزب المتلاف، لا أثاث ولا نظام ولا حرمة... وليس في البيت مكتب ولا مكتبة، فقد كان لا يقرأ، وإنما يتكئ على شدة ذكائه وحدة فهمه، ويكتفي بما حصل في شبابه من أدبه وعلمه. وكان في الردهة قوم يأكلون ويشربون، وفي حجرة النوم آخرون يسمرون ويلعبون، وكان الرصافي يتصدر هؤلاء وفي يمناه كأس وفي يسراه ورق [اللعب]، فلما رآني فض اللعب وأقبل بأنسه علي، ثم أخذ يشرب ويتحدث عن الحقائق العارية في غير اكتراث ولا تحفظ، ويظلم الرصافي من يقيد عليه في مثل هذه الحال... هذه صورة مصغرة لحياة الفقيد الكريم، أما عقيدته فالأمر فيها لله لا للناس».

ويصف الشاعر محمد مهدي الجواهري الرصافي وهو في آخر أيامه: «... في تلك الغرفة الجرداء التي لا أنساها أبداً، وكأنما أنا فيها الآن، كان الرصافي على سرير من السرر الرخيصة... وقد أحس بي وأنا أدب على أطراف أصابعي لئلا أوقظه... وكانت الحيرة في أين أجلس إذ ليس في الغرفة

كرسي أو خشبة أو حتى حجر للجلوس، ويتحامل الرصافي على نفسه فأُلح عليه ملتمساً ألا يفعل، فيأبى وأطيع، فأتحدث إليه آخر حديث وأوجعه قبل أن يموت بأيام».

وكتب الرصافي وصيته وأودعها لدى محام صديق، وعند وفاته قرأها على الحاضرين صديقه وراويته مصطفى علي. أوصى الرصافي بكل ما يملك، وبحقوق مؤلفاته لأسرة خادمه عبد بن صالح. وأوصى أن يدفن في أي مقبرة كانت، «على أن يكون قبري في طرف منها، وأن يكون في أرض مظلومة وهي التي لم تحفر قبلاً». والتوقيع: «المؤمن بالله وحده لا شريك له معروف الرصافي».

أحسن إلى الرصافي كل الإحسان راويته مصطفى علي، وهو لغوي مدقق وأديب، بنشر ديوان الشاعر نشراً محترماً في خمسة أجزاء. وعلى هذه الطبعة اعتمدنا. ومصطفى علي في هذه المجلدات الخمسة يروي وينقب لك عن المعنى القاموسي مع ضبط طيب للكلمة في الهامش ببيان بابها الصرفي، لكنه لا يشرح معنىً دقيقاً ولا يشفي غليل من أراد أن يعرف مناسبة القصيدة أو تاريخ نظمها.. فهو يورد من ذلك الشيء بعد الشيء. وقد أخذنا عنه تواريخ بعض القصائد، ولم نبحث كثيراً عند غيره.

الرصافي شاعر مهمل، يكتب قصيدته على ظهر مغلف أو علبة سجائر.. أو هكذا أتخيله. يكتبها قبل الحفل الذي سيلقيها فيه بيوم أو بساعتين. وقد تأتي قافيته قلقة، أو قد يحشو البيت بحشوة منكرة. وقد نقتبس له في القطعة بعد القطعة بيتاً من هذه الأبيات المتعَبة لأنه يقيم لنا السياق. لا عليك من ذلك. الرصافي كان لسان زمنه وبلده، وكان جريئاً، وكان صاحب موقف، وكان يحسن أن يقول بين الحين والحين بيتاً رناناً يردده الناس في العراق. وخير لك أن تتحرى مزاج العراق عصرئذ في شعره من أن تقرأ كتب التاريخ. وقالوا: خياله ضيق. وأقر هو بذلك في أكثر من قصيدة، وافتخر بواقعيته.

كنا ونحن نقرأ ديوانه نشعر كأن الرصافي واقف أمامنا يلقي هذه القصائد، وهذا شيء جميل. لكنك قد لا تريد أن تقرأ الألف والسبعمئة صفحة التي هي الديوان. حسناً فهذه خمسون صفحة فقط هي أجمل ما قال معروف الرصافي.

١ الضمير لثاماً

(١٩٢٢):

وَلَرُبَّ خافِيَةٍ يُكَتِّمُها الفَتى ... والوجهُ منهُ بِسِرِّها يتكلَّمُ
كلٌّ يُشيرُ إلى السَّرِيرَةِ وجهُهُ ... فكأنَّه بِضميرِهِ مُتَلَثِّمُ

السريرة: الضمير وما يخفيه المرء، والمرء لا يستطيع أن يخفي مكنونه فكأنه يضعه على وجهه كما يضع الكوفية

إنَّ الوجوهَ صَحائِفٌ مَطمُوسَةٌ ... يَمحُو كِتابَتَها ويُثْبِتُها الدَّمُ

الدم الذي يتدفق إلى الوجه كأنه الحبر الذي يكتب في الوجه ما يخفيه الضمير.. فالوجه يحمر أو يصفر بما يتدفق أو لا يتدفق من دم

إنِّي أَرى هذي الوُجوهَ نَواطِقاً ... بالسِّرِّ لكنْ نُطْقُهُنَّ مُجَمْجَمُ

مجمجم: مغمغم، غير واضح، مثل نطق الإنجليز عندما يتحدثون باليابانية، أو العكس

٢ المرأة بين الأب والزوج

ما أَهْوَنَ الأُنْثَى على ذُكرانِنا ... فلقد شَجانِيَ ذُلُّها وخُضوعُها
ضَعُفَتْ فَحُجَّتُها البكاءُ لِخَصْمِها ... فسلاحُها عند الدفاعِ دُموعُها
هِيَ مُتْعَةُ المستمتِعينَ، ولَيْتَها ... كانتْ لِزاماً لا يجوزُ مَبيعُها

بيع اللزوم في الفقه: الذي لا يجوز للمشتري فيه رد السلعة

فَوَلِيُّها عند الزواجِ يَبيعُها ... وحَليلُها عند الطلاقِ يُضيعُها

ولي المرأة: أبوها أو من يقوم بتزويجها، حليلها: زوجها

وكلاهُما مُتَحَكِّمٌ في أمرِها ... هذا يُعَرِّيها وذاكَ يُجيعُها

٣ كون عجيب

ولمَّا رأيتُ الكونَ في الأصلِ واحداً ... عجبتُ لأنَّ الخلقَ فيه ضُروبُ

ضروب: أنواع

وإنَّ اختلافَ الآدميِّينَ سِيرةً ... وهُمْ قد تَساوَوْا صُورةً لَعجيبُ
وأَعجبُ ما في الكائناتِ ابْنُ آدَم ... فما غيرُه في الكائناتِ مُريبُ
يُذَمِّمُ فعلَ السُّوءِ وهْوَ حَليفُهُ ... ويحْمَدُ قولَ الصِّدقِ وهْوَ كَذوبُ

تسويد البيتين من عمران القفيني

ولو باحَ كلٌّ بالذي هُوَ كاتِمٌ لَمَا عُدَّ في هذا الأنامِ أَديبُ

المتأدبون هم كذلك لأنهم يكتمون ما بأنفسهم من خساسة، ولو أظهر كل إنسان ما يكتمه لما كان في البشر أي شخص على خلق

وقد يَفتري المالُ الفضائلَ لِلورَى وليس لَهُمْ ممَّا افْتراهُ نَصيبُ

المال يفتري الفضائل للورى: ينسب إلى الناس محاسن ليست لهم

٤ المصير

وما المرءُ إلَّا بيتُ شِعْرٍ عَروضُهُ مَصائِبُ، لكنْ ضَرْبُهُ حُفْرَةُ القبرِ

العروض: الجزء الأخير من الشطر الأول من بيت الشعر، الضرب: الجزء الأخير من الشطر الثاني من البيت

وتَنْظِمُنا الأيَّامُ شِعراً، وإنَّما تَرُدُّ المنايا ما نَظَمْنَ إلى النثرِ

ورُبَّ نِيامٍ في المقابرِ زرتُهُمْ بِمُنهَلِّ دمعٍ لا يُنَهْنَهُ بالزَّجْرِ

زرتهم ودمعي منهل، مسكوب، لا ينهنه، لا يُردَع، بالزجر، بالنهر وبالتعنيف

أَسُكَّانَ بَطْنِ الأرضِ! هلَّا ذَكَرْتُمُ عُهوداً مضتْ منكُمْ، وأنتمْ على الظَّهْرِ

على الظهر: على ظهر الأرض

رَضِيتُمْ بأَكفَانِ البِلَى حُلَلاً لكمْ، وكنتمْ أُولي الدِّيباجِ والحُلَلِ الحُمْرِ

رضيتم بالأكفان حللاً، أي ملابس، وكنتم أولي الديباج، أصحاب الحرير، والملابس الحمر.. وكانت الملابس الحمر ملابس علية القوم، وحتى النساء فقد كن «حمر الجلابيب» كما وصفهن المتنبي دلالة على العز

فقلتُ، ولِلأَجْدَاثِ كَفِّي مُشِيرةٌ: أَلَا إنَّ هذا الشِّعْرَ مِنْ أَفْجَعِ الشِّعْرِ

٥ الفوق والتحت

نَحنُ على رَغْمِ ما عَلِمْنا نَعيشُ في غَيْهَبِ العَماءِ

غيهب: ظلام، العماء: العمى.. وأصل العماء الغيم لكن شاعرنا في الأغلب قصد العمى وهمزها كمن همز الرضا فجعلها الرضاء

نَشربُ ماءَ الظُّنونِ عَبَّاً فلم نَعُدْ منه بارتِواءِ

فليس فوقٌ وليس تحتٌ ولا اعتلاءٌ لِذي اعتِلاءِ

هذا من العلوم المعاصرة التي فهمنا منها أنه لا يوجد فوق ولا تحت، وإلا كان سكان أستراليا وكناغرها سقطوا في الفراغ.. وعلى هذا فلا صعود لمن يريد الصعود

وإنَّـمـا نـحـن فـوق نَـجْـمٍ   نـحـيـا مُـحـاطـيـنَ بِـالـهـواءِ

على الأصحّ نحن فوق كوكب

فـلـيـتَ شِـعـري أيُّ ارتِـقـاءٍ   لِـلـرُّوحِ يَـبـقَـى، أيُّ ارتـقـاءِ!

بانتفاء الفوق والتحت لم يعد للروح صعود بعد الموت!

٦ الماء المهدر

يـا مِـيـاهاً جَـرَتْ بِـدجْـلَـةَ تَـجْـتَـا   زُ مُـروراً بِـجـانِـبَـيْ بَـغـدادِ

أيـهـا الـمـاءُ أيـنَ تَـجـري ضَـيـاعـاً   وحَـوالَـيْـكَ قـاحِـلاتُ الـبَـوادي

لـو زَرعـنـا بِـكَ الـبِـقـاعَ حُـبـوبـاً   لَـحَـصـدْنـا الـنُّـضـارَ يـومَ الـحَـصـادِ

النضار: الذهب.. قد أخذ الترك والإيرانيون كل ماء دجلة تقريباً فلم يعد ثمة ماء مُهدَر

٧ شدوق الضراغم

سعى الناسُ والأقدارُ مَخْبوءَةٌ لَهُمْ   وناموا وما ليلُ الخطوبِ بِنائمِ

جَرَتْ سُفُنُ الأيامِ مشحونةً بِنا   على بحرِ عَيْشٍ بِالرَّدى مُتلاطِمِ

دَأَبْتُ لِنفسي في الحياةِ كأنَّني   مِن العيشِ مُلْقىً في شُدُوقِ الضَّراغِمِ

دأبت وثابرت في كسب الرزق كأن العيش، الرزق، تنهشه شدوق الضراغم، أفواه الأسود، وأنا بينها. تعليق عمران القفيني: «حقوق الطبع للمتنبي القائل: (فما لي وللدنيا طِلابي نجومها/ ومسعاي منها في شدوق الأراقم)»

يُخاصِمُني فيها على غيرِ طائلٍ   أُناسٌ فأُبدي الصَّفْحَ غيرَ مُخاصِمِ

وأقنعُ بالقوتِ الزهيدِ لِطيبِهِ   حِذارَ وُقوعي في خبيثِ المَطاعِمِ

خبيث المطاعم: الرزق الحرام

٨ الانعتاق الفكري

متَى تُطلِقُ الأيامُ حُرِّيَّةَ الفِكرِ   فينشَطَ فيها العَقلُ مِن عُقْلَةِ الأَسْرِ

ينشط: يفتكُّ من الربط، العقلة: العقدة

ويَصدَعَ كلٌّ بِالحقيقةِ ناطقاً   ويتركَ ما لم يَدْرِ منها لِمَنْ يَدري

يصدع: يجهر

أَرانـا إذا رُمْـنـا بـيـانَ حـقـيـقـةٍ عُزِينا، مَعاذَ اللهِ، فيها إلى الكفرِ
رمنا: أردنا، عُزينا: نُسبنا

٩ بصراحة

أُحِـبُّ صـراحـتـي قـولاً وفـعـلاً وأكـرهُ أن أَمـيـلَ إلـى الـرِّيـاءِ
ولـسـتُ مِـن الـذيـن يَـرَوْنَ خـيـراً بـإبـقـاءِ الـحـقـيـقـةِ فـي الخَـفـاءِ
ولا مِـمَّـنْ يَـرى الأديـانَ قـامـتْ بِـوحـي مُـنـزَلٍ لِـلأنـبـيـاءِ
ولـكـنْ هُـنَّ وَضْـعٌ وابْـتِـداعٌ مِـنَ الـعُـقَـلاءِ أَربـابِ الـدَّهـاءِ
ولـسـتُ مِـن الأُلَـى وَهِـمُـوا وقـالـوا بـأنَّ الـروحَ تَـعـرُجُ لِـلـسـمـاءِ
الأُلى: الذين

لأنَّ الأرضَ تَـسـبـحُ فـي فـضـاءٍ وما تلكَ الـسـمـاءُ سوى الـفـضـاءِ
ولـسـتُ مِـنَ الـذيـنَ يَـرَوْنَ فَـخـراً لِـمُـفـتـخِـرٍ بِـإهـراقِ الـدِّمـاءِ
ولا مِـمَّـنْ قـد ارتَـبـطُـوا بِـمـاضٍ فـعـاشُـوا يـنـظـرونَ إلـى الـوَراءِ
ولا مِـمَّـنْ تَـوَدَّدَ فـي حُـضـورٍ وعـنـد الـغَـيْـبِ جَـاهَـرَ بِـالـعَـداءِ
ولا مِـمَّـنْ يَـرى الأنـسـابَ مِـمَّـا يَـمُـتُّ بـه الأَنـامُ إلـى الـعَـلاءِ
ولا مِـمَّـنْ إذا وُبِـئُـوا اسـتـعـاذُوا بِـتَـمـتَـمَـةِ الـدُّعـاءِ مِـن الـوَبـاءِ
ولا مِـنْ مـعـشـرٍ صَـلَّـوْا وصَـامُـوا لِـمَـا وُعِـدُوهُ مِـن حُـسْـنِ الـجـزاءِ
ولا مِـمَّـنْ يَـرَوْنَ الـلَّـهَ يَـجـزي عـلـى الـصَّـلَـواتِ بِـالـحُـورِ الـوِضـاءِ
الحور: النساء ذوات الأعين الخالصة السواد وسط بياض ناصع، الوضاء: البيض

ولـسـتُ مِـن الـذيـن يَـرَوْنَ فَـضْـلاً كـبـيـراً لِـلـرجـالِ عـلـى الـنـسـاءِ
ولـكـنْ دَالَـتِ الأيـامُ حـتـى تَـهـاوَنَ هـؤلاءِ بِـهـؤلاءِ
دالت: مثل دارت

١٠ حديث الروح

(١٩٢٩):

أرى لـلـروحِ بِـالـبـدنِ اتـصـالاً خـفـيَّـاً لا تَـبـيـنُ لـه رسـومُ
رسوم: آثار

هـمـا مُـتـلازمـانِ فـمـا لِـكـلٍّ بِـغـيـرِ قَـريـنِـهِ أبـداً لُـزُومُ
ولـسـتُ أظـنُّ أنَّ الـروحَ تَـبـقـى إذا مُـحِيَتْ مِن الـجسـدِ الرُّسومُ

١١ الأديان

لـو قـاسَ كـلُّ فتـىً سِـواهُ بِـنفسِـهِ فـيـمـا أرادَ لَـمَـا تَـعـادى اثـنـانِ
لو أَنصَفَ الخَصمانِ ما اصْطَادَ الرِّشَا أهلُ القَضاءِ بِما ادَّعَى الخَصمانِ
لـو أخلصَ الإنسانُ في إحسانِه لم يَرْجُ أن يُجزَى على الإحسانِ
لـو لـم يَشُـكَّ بِـربِّـهِ مُـتـفـلْـسِـفٌ فـي الـديـنِ لـم يُـحْـتَـجَّ بـالـبُـرهـانِ
لـو أنَّ عـقـلَ الـمـرءِ يَـغـلِـبُ حُـبَّـهُ لِـلـنـفـسِ لـم يَـلْـجَـأْ إلـى الأديـانِ

حب النفس يجعل المرء يلجأ للدين لأنه يعِده بالخلود

لـولا جـمـودٌ فـي الـشـرائعِ مُـهـلِـكٌ لَـتـغـيَّـرَتْ بِـتَـغَـيُّـرِ الأزمـانِ
لـو كـانَ أمـرُ الـحَـجِّ مـعـقـولاً لَـمَـا كـان اسْـتِـلامُ الـقـومِ لِـلأَركـانِ

استلام: لمس، وفي الكلمة معنى التقبيل

لو حَكَّمَ العقلَ الحَجيجُ بِحَجِّهِمْ أَبَوُا الـطَّـوافَ بِـتِـلْـكُـمُ الـجُـدرانِ

١٢ الأظافر الدامية

لـقـد قـدَّمَ الـمـوتُ الـحـيـاةَ أمـامَـهُ نـذيـراً ومَـنْ يُـنـذِرْ فـلـيـس بِـغـادِرِ
فـلا عَـجَـبٌ أنَّـا نـرى كـلَّ سـاعـةٍ أَكُـفَّ الـمـنـايـا دامـيـاتِ الأَظـافِـرِ

١٣ مساعدة الموت

في ذكرى الكاتب الفلسطيني روحي الخالدي، وقالها في القدس:

وماذا عسى يُجدي التَّوجُّعُ والأَسى مِن الموتِ إذ كلٌّ على الموتِ وارِدُ
نُعينُ مَـنـايـانـا عـلـيـنـا بِـحُـزنِـنـا فـيَـقْـرُبُ مِـن آجـالِـنـا الـمُـتَـبـاعِـدُ

١٤ بلاد الدامِعَيْن

في رثاء أستاذه محمود شكري الآلوسي (١٩٢٤):

أزمَـعْـتَ عـنَّـا إلـى مَـولاكَ تَـرحـالا لَـمَّـا رأيـتَ مُـنـاخَ الـقـومِ أَوْحـالا

أزمعت: نويت، مولاك: ربك، مناخ: مكان

كَرِهْتَ طولَ مُقامٍ بين أَظْهُرِنا بحيثُ تُبصِرُنا لِلحقِّ خُذّالا

خذال: متقاعسون ومقصرون عن النجدة

ولم تَرُقْ نفسَكَ الدنيا ونحن بها لسنا نُؤكِّدُ بالأفعالِ أقوالا

وما رَكَنْتَ إلى الدنيا وزُخرُفِها ولا أردتَ بها جاهاً ولا مالا

أمّا العراقُ فأمسى الرافِدانِ به سَطرَيْنِ لِلدمعِ مِن خَدَّيْهِ قد سالا

أصبح دجلة والفرات سطرين من الدموع حزناً عليك

ما ضَرَّ مِن بَعدِما خَلَّدْتَ مِن كتبٍ أَلَّا نَرى لكَ بين الناسِ أَنْجالا

لا ضرر من أنك لم تترك عقباً من الأولاد ففي كتبك ما يكفي، وخلف الآلوسي نحو خمسين كتاباً

١٥ الدنيا المسبَّبة

في أربعين الآلوسي (١٩٢٤):

لقد تَرَحَّلْتَ في يومٍ بِنا انقَلَبَتْ حوادثُ الدهرِ فيهِ شَرَّ مُنقَلَبِ

وباتَ يَحسُو الطِّلا بِالكأسِ مِن ذهبٍ مَن كان يشربُ رَنْقَ الماءِ بِالعُلَبِ

صار يشرب الطلا، الخمر، بكؤوس الذهب من كان يشرب رنق الماء، الكدر منه، بالعلب، بآنية من خشب

والخيرُ قد ضاعَ حتى إنَّ طالِبَه لم يَلقَ منهُ سوى المَسْطورِ في الكتبِ

أمّا الرجالُ فَنارُ الشَّرِّ مُوقَدَةٌ فيهِمْ، وهُمْ بين نَفّاخٍ ومُحْتَطِبِ

الناس فيهم نار شر بعضهم ينفخ في هذه النار لتزداد اتقاداً، وبعضهم يجمع لها الحطب

أفعالُهُمْ لم تكنْ جِدّاً ولا لَعِباً لكنْ تُراوِغُ بين الجِدِّ واللَّعِبِ

هذه الميوعة.. لعل فحص مفهوم الميوعة مدخل طيب لدرس المجتمعات العربية اليوم

وليس تَنْدَى مِن النَّكْراءِ أوجُهُهُمْ كأنّما القومُ مَنجُورونَ مِن خَشَبِ

لا تندى وجوههم، أي لا يخجلون، من النكراء، الفعل المخزي، فكأنهم من خشب

بينَ الدواءِ وبينَ الدّاءِ مُعتَرَكٌ فيه قَضى ربُّنا للدّاءِ بِالغَلَبِ

لا يَخلُقُ اللّهُ مخلوقاً يَجُولُ بِهِ دَمُ الحياةِ بِلا أُمٍّ لَهُ وأَبِ

ولا يُميتُ بِلا داءٍ ولا سَقَمٍ ولا يُعيشُ بِلا كَدٍّ ولا تَعَبِ

كل شيء له سبب.. سبب وجود المرء أمه وأبوه، وسبب الموت الداء وسبب العيش الكد

وليس ذلكَ مِن عَجْزٍ بِخالِقِنا   عن أيِّ زَجٍّ بِنا في قَبضَةِ الشَّجَبِ . .

لا يعجز الله عن زجنا، وإدخالنا في قبضة الشجب، الموت. .

لكنَّه جعلَ الدنيا مُسَبَّبَةً   لكلِّ أمرٍ بها لا بُدَّ مِن سَبَبِ

لكنه جعل لكل شيء سبباً

١٦ أرثيك رغم السياسة

في ذكرى الشيخ الخالصي:

أنا أَبكي عليه مِن جِهَةِ العِلـ   ـمِ وأُغْضي عن خَوْضِهِ في السياسةْ

لا لِأَنِّي أراهُ فيها مَلوماً   بل لِأَنِّي أَعيبُ فِعلَ السَّاسَةْ

ليس في هذهِ الهَناتِ السِّيَاسِيَّـ   ـاتِ إلَّا ما يَنجَلي عن خَساسَةْ

الهنات: الأمور، ينجلي: يتكشَّف

١٧ المعقول والمنقول

قد قتلتُ الحياةَ خُبْراً، ولكنْ   أنا منها بِحَيْرتي مَقتولُ

كلُّ ما قيلَ في الحياةِ ظُنونٌ   جَرَّها في افتِكارِنا التَّخييلُ

وَيْكَ ! إنَّ المعقولَ ما صَحَّ عندي   فمَتى صَحَّ عِندكَ المنقُولُ

ويحك! فالأمر الذي يقر به العقل لا أكاد أجده صحيحاً فكيف بالمنقول، ما ذكره الأقدمون وتناقلوه

إنَّ حُبَّ الحياةِ أَوْهَمَ أنَّ الـ   ـموتَ نومٌ تحتَ الثَّرى لا يَطولُ

لحبنا للحياة نتوهم أن الموت مجرد نوم وتأتي بعده حياة أخرى

١٨ حافظ وشوقي

الشعرُ بعدَ مُصابِه بِكَبيرِهِ   في مصرَ جَلَّ مُصابُهُ بِأميرِهِ

كبير الشعر: حافظ، وأميره: شوقي

بَيْناهُ يَبكي حافِظاً بِشهيقِه   إذ قامَ يَبكي أحمداً بِزَفيرِهِ

أخَذَتْ فَرَزْدَقَهُ المنونُ وضاعَفَتْ   جُلَّى مُصيبَتِه بِأَخْذِ جَريرِهِ

يشبه حافظاً بالفرزدق وشوقي بجرير، وقد رحل شاعرا مصر متلاحقين بينهما أشهر، ورثى اللاحق السابق، ورحل جرير والفرزدق متلاحقين بينهما أشهر، ورثى اللاحق السابق

١٩ أسنان الحمار

كلُّ مَن يَخْبُرُ الأُناسِيَّ خُبْرِي ... لا يُبالي أَأَحْسَنُوا أم أَساءوا
أنا جَرَّبْتُهُمْ إلى أن تَساوى الـ ... ـيومَ عندي سِبابُهُمْ والثَّناءُ

٢٠ تقدم أيها العربي

أجَلْ إنَّ القَبائِلَ مِن مَعَدٍّ ... عَلَوْا فَتَسَنَّمُوا المجدَ المجيدا

معد: جد عرب الشمال، تسنموا: قعدوا فوق سنام الجمل، أي علوا وارتفعوا

ولكنْ أيُّها العربيُّ إنِّي ... أراكَ لِغيرِ ما يُجْدِي مُريدا

أراك أيها العربي مُريداً، طالباً، ما لا يجدي ولا ينفع

وما يُجدِي افتِخارُكَ بالأَوالي ... إذا لم تَفْتَخِرْ فخراً جديدا

الأوالي: الأوائل

أرى مستقبلَ الأَيامِ أَوْلَى ... بِمَطْمَحِ مَن يُحاولُ أنْ يَسُودا
فَوَجِّهْ وَجْهَ عزمِكَ نحوَ آتٍ ... ولا تَلْفِتْ إلى الماضِينَ جِيدا
وهل إنْ كان حاضِرُنا شقياً ... نَسُودُ بِكونِ ماضِينا سعيدا؟
تقدَّمْ أيها العربيُّ شَوطاً ... فإنَّ أمامَكَ العَيْشَ الرَّغيدا
وأَسِّسْ في بِنائِكَ كلَّ مَجْدٍ ... طَرِيفٍ، واتْرُكِ المجدَ التَّليدا

الطريف: الجديد، التليد: الموروث

فشرُّ العالَمِينَ ذَوُو خُمولٍ ... إذا فاخَرْتَهُمْ ذَكَرُوا الجُدودا
وخيرُ الناسِ ذو حَسَبٍ قديم ... أقامَ لِنفسِه حَسَباً جديدا
تراهُ إذا ادَّعَى في الناسِ فخراً ... تُقيمُ له مَكارِمُهُ الشُّهودا
فَدعْنِي والفَخارَ بِمجدِ قوم ... مضى الزمنُ القديمُ بِهِمْ حميدا
قد ابتَسَمَتْ وجوهُ الدهرِ بِيضاً ... لَهُمْ ورَأَيْنَنا فَعَبَسْنَ سُودا
وقد عَهِدُوا لنا بِتُراثِ مُلْكٍ ... أَضَعْنا في رعايَتِه العُهودا
وعاشُوا سادةً في كلِّ أرضٍ ... وعِشْنا في مواطِنِنا عبيدا
إذا ما الجهلُ خَيَّمَ في بلادٍ ... رأيتَ أُسودَها مُسِخَتْ قُرودا

٢١ الغاية الكبرى

كتبتُ لِنفسيِ عهدَ تحريرِها شِعْرا   وأشهَدْتُ فيما قد كتبتُ لها الدهرا
لذاكَ جعلتُ الحقَّ نُصْبَ مَقاصِدِي   وصَيَّرتُ سِرَّ الرأيِ في أَمرِهِ جَهرا

جهرت بما أراه حقاً، ولم أبقه سراً

وجَرَّدْتُ شِعري مِن ثيابِ ريائِهِ   فلم أَكْسُهُ إِلّا مَعانِيَهُ الغَرَّا

الغرا: الغراء، أي الناصعة

وأَرْسَلْتُه نَظماً يَروقُ انسِجَامُه   فيَحْسَبُه المُصْغي لإنشادِهِ نَثْرا
فجاءَ مُضيئاً، ليلُه كنهارِه   وإن كان بعضُ القومِ يَزعُمُه كُفرا
أُضَمِّنُه معنىَ الحقيقةِ عارياً   فيحسَبُه جُهَّالُها منطِقاً هُجرا

جهالها: يعني الجاهلين بالحقيقة، الهُجر: الفُحش

ويَحمِلُه الغَاوِي على غيرِ وجهِه   فيُوسِعُني شتماً وينظُرُني شَزْرا
رُوَيْدَكَ إنَّ الكفرَ ما أنتَ قائلٌ   وإنَّ صريحَ العُرْفِ ما خِلتَهُ نُكرا
هلِ الكفرُ إلّا أن تَرى الحقَّ ظاهراً   فتضرِبَ لِلأَنظارِ مِن دونِه سِترا

الكفر هو أن ترى الحق بادياً فتضرب، أي تنصب، ستاراً يواريه عن الأنظار

إذا كان في عُرْيِ الجُسومِ قَباحَةٌ   فأحسَنُ شيءٍ في الحقيقةِ أن تَعْرَى

إن كان العري قبيحاً بالجسم، فالحقيقة تزداد حسناً عندما تكون عارية، مكشوفة واضحة

أُحِبُّ الفتى أنْ يَستَقِلَّ بنفسِه   فيصبِحَ في أفكارِه مُطْلَقاً حُرَّا
وأَكرَهُ منهُ أن يكونَ مُقَلِّداً   فَيُحْشَرَ في الدنيا أسيراً مع الأسرى

يحشر: يُعَدّ

إذا كان في الأوطانِ لِلناسِ غايةٌ   فحريةُ الأفكارِ غايتُها الكبرى
فأوطانُكُمْ لن تستقلَّ سياسةً   إذا أنتُمُ لم تستَقِلُّوا بها فِكرا
إذا السيفُ لم يَعْضُدْهُ رأيٌ مُحَرَّرٌ   فلا تَأْمُلَنْ مِن حدِّهِ ضَرْبَةً بِكرا

يعضده: يدعمه، الضربة البكر: الضربة الأولى التي تصيب مقتلاً

إذا لم يَعِشْ حُرّاً بِموطِنِهِ الفَتى   فَسَمِّ الفتَى مَيْتاً، وموطِنَه قبرا
أَحُرِّيَّتي إنِّي اتَّخذتُكِ قِبْلَةً،   أُوَجِّهُ وجهِي كلَّ يومٍ لها عَشْرا

وأُمْسِكُ منها الركنَ مُستَلِماً له ... وفي رُكْنِها استبْدَلْتُ بِالحَجَرِ الحِجْرا

ألمس ركن الحرية وأستلمه، أي أقبله، وقد استبدلت بالحَجر الحِجر، أي العقل. جعل الحرية كعبة يقدسها (والركن والاستلام والحجر الأسود من لوازم الحج)

وإنْ لامَني قومٌ عليكِ فإنَّني ... لَمُلْتَمِسٌ لِلقومِ مِن جهلِهِمْ عُذْرا

٢٢ تحية للعبقرية

وَضَحَ الحقُّ، واستقامَ السبيلُ ... بِعظيم هُوَ النبيُّ الرسولُ

قامَ يَدعُو إلى الهُدَى بِكتابٍ ... عربيٍّ قُرآنُه تَرتيلُ

طالباً غايةً مِن المجدِ قُصْوَى ... صَدُّهُ عن بُلوغِها مُستحيلُ

ووُصولاً إلى مَقامٍ رَفيعٍ ... عَزَّ مِن قَبْلِهِ إليهِ الوُصولُ

ودهاءٍ لو ماكَرَتْهُ دَواهي الدَّ ... هرِ طُرَّاً لاغْتالَها منه غُولُ

دهاء لو اتخذت معه دواهي الدهر، مصائب الزمن، طراً، جميعاً، سبيل المكر لاغتالها منه غول، لقضى دهاؤه عليها

تَدْلَهِمُّ الخطوبُ، والرأيُ منهُ ... في دُجاها كأنهُ قِنديلُ

تدلهم: تسودّ

كلُّ أوصافِه الجليلةِ بِدْعٌ ... فَهْوَ مِن عَبْقَرِيَّةٍ مَجْبولُ

بدع: جديد غير مسبوق

أطلَقَ الناسَ مِن تَقاليدِ جهلٍ ... كلُّ فردٍ منهُمْ بِها مَغلُولُ

مغلول: مقيد

نَهضةٌ عالَمِيَّةٌ في وَغاها ... مَن أمامِ البعيرِ فَرَّ الفيلُ

أحدث النبي نهضة عالمية، وفي وغاها، في حربها، يفر الفيل من البعير.. يشير إلى غزو العرب فارس وتغلب جمالهم على فيلة الفرس

يَعرِفُ النيلُ فضلَها وعُلاها ... مِن قديمٍ ويشهَدُ الدَّردَنيلُ

النيل، حيث السودان ومصر، والدردنيل، حيث تركيا، يعرفان فضل هذه النهضة

غيرَ أنَّا عن نهجِها اليومَ حِدْنا ... واستَحَلْنا، وكلُّ حالٍ تَحولُ

استحلنا: تغيرنا، تحول: تتغير

واختَلَفْنا في الدينِ حتى افترقْنا ... فِرَقاً لا يُسيغُها المَعقُولُ

المعقول: العقل

لـو رآنـا والـشـرُّ فـيـنـا كـثـيـرٌ   مـسـتـفـيـضٌ، والـخـيـرُ نَـزْرٌ قـلـيـلُ

نزر: شحيح قليل

والـدَّعـاوَى فـي الـحـقِّ مِـنَّـا كـبـارٌ   طـالَ فـيـهـا الـتـزمـيـرُ والـتَّـطـبـيـلُ

دعاوانا في الحق: ادعاؤنا أننا على حق

قـالَ مُـسـتـنـكِـراً لِـمَـا نـحـنُ فـيـهِ:   مـا بِـهـذا قـد جـاءنـي جِـبـريـلُ

٢٣ دفاعاً عن الإسلام

يقولونَ في الإسلامِ ظُلماً بأنَّهُ   يَصُدُّ ذَويهِ عن طريقِ التقدُّمِ

وإن كان ذنبُ المسلمِ اليومَ جَهلَهُ   فماذا على الإِسلامِ مِن جهلِ مُسلمِ

هلِ العلمُ في الإسلامِ إلَّا فريضةٌ   وهلْ أُمَّةٌ سادَتْ بِغيرِ التَّعَلُّمِ

ألَا قُلْ لِمَنْ جارُوا علينا بحُكمِهِمْ   رُوَيداً فقد قَارفْتُمُ كلَّ مَأْثَمِ

قارفتم: ارتكبتم

عَلَوْنا وكنتُمْ سافِلينَ، فلم نكنْ   لِنُبْدي إِليكُمْ جفوةَ المُتَهَكِّمِ

كنا في ازدهار بينما الغرب في انحطاط، ولم نكن نظهر له الجفاء والخشونة والازدراء

ولم نترُكِ الحسنَى أَوانَ جِدالِكُمْ   وتلكَ لَعَمْرِي شيمةُ المُتَحَلِّمِ

المتحلم: الرزين الحليم

٢٤ نحن والغرب

هِمَمُ الرجالِ مَقيسَةٌ بِزمانِها   وسعادةُ الأوطانِ في عُمْرانِها

إنَّ التَّجارِبَ لِلشُّيوخِ، وإنَّما   أَمَلُ البلادِ يَكونُ في شُبَّانِها

هذي لَدى العَرَبِ الكرامِ مَبادِئُ   نَزلتْ بها الآياتُ في قُرآنِها

والعُرْبُ أكبرُ أمَّةٍ مَشهورَةٍ   بِفُتُوحِها، وعلومِها، وبيانِها

يا أمَّةً عاشَ البَرِيَّةُ أَعْصُراً   في عدلِها رَغَداً وفي إحسانِها

البرية: الناس

ثم انقضَتْ تلكَ العصورُ فجاءَها   زمنٌ بهِ انقادَتْ إلى عُبْدانِها

فَنَضَتْ مَلابِسَ عِزِّها وتَثاقَلَتْ في الذلِّ راسِفَةً بِقيْدِ هَوانِها

نضت أمة العرب، أي خلعت، ملابس العز، وأصبحت تسير متثاقلة بطيئة راسفة، أي ماشية ببطء، في قيود هي الهوان والذل

٢٥ مريم وابنها

رَمَتْ مِسمَعي ليلاً بِأَنَّةِ مُؤلَمِ فَأَلْقَتْ فؤادي بين أَنيابِ ضَيْغَمِ

رمت هذه المرأة في مسمعي، أي أذني، برنة مؤلَم، بأنين شخص متألم، فكأنها رمت قلبي بين أنياب ضيغم، أسد

تُقَطِّعُ في الليلِ الأنينَ كأنَّها تُقَطِّعُ أَحشائي بِسيْفٍ مُثَلَّمِ

مثلم: غير حاد

يَهُزُّ نِياطَ القلبِ بالحزنِ صَوْتُها إذا اهتزَّ في جوفِ الظلامِ المُخيِّمِ

فمَا خَفَقانُ النَّجْمِ إلّا لِأَجْلِها وما الشُّهْبُ إلّا أَدْمُعُ النجمِ تَرتَمي

خفقان النجم: اهتزازه، وكانت العرب ترى في النجوم اهتزازاً. يتخيل الشاعر النجم يبكي وجسمه يرتجف ودموعه تسيل وهي الشهب الساقطة

أَرى فَحْمَةَ الظلماءِ عند أنينِها فأَعجَبُ منها كيف لم تَتَضَرَّمِ

كأن الليل فحم لسواده، وأعجب لما لا يتوهج جمراً لحرارة أنينها

وبَيْتٍ بَكَتْ فيه الحياةُ نُحُوسَةً ولاحَتْ بِوجهِ العابِسِ المُتَجَهِّمِ

الحياة باكية ومنحوسة وعابسة ومتجهمة، مكشرة، في هذا البيت

دخلتُ به عند الصباحِ على التي سَقاني بُكاها في الدُّجى كأسَ عَلْقَمِ

فألفَيْتُ وجهاً خَدَّدَ الدمعُ خَدَّهُ ومُحْمَرَّ جَفْنٍ بِالبُكا مُتَوَرِّمِ

خدَّد: شقق

لقد جَثَمَتْ فوق التُّرابِ وحولَها صغيرٌ لها يَرنُو بِعيْنَي مُيَتَّمِ

جثمت، قعدت، في بيتها على التراب، وعندها طفل يرنو، أي ينظر، بعين اليتيم، أي أنه يتيم

تَراهُ وما إنْ جاوَزَ الخَمْسَ عُمْرُهُ يُديرُ لِحاظَ اليَافِعِ المُتَفَهِّمِ

بَكى حولَها جُوعاً فغَذَّتْهُ بِالبُكا وليس البُكا إلّا تَعِلَّةَ مُعْدِمِ

ليس عندها ما تغذيه به إلا البكاء، والبكاء تعلة المعدم، تصبيرة الفقير

وقفْتُ لديها والأسى في عيونِها يكلِّمُني عنها، ولم تتكلَّمِ

ومذْ عَرَضَتْ لِلإِبنِ منها التِفاتَةٌ أشارتْ إليهِ بِالمدامِعِ أنْ قُمِ
أَبُوكَ تَرامَتْ فيهِ سَفْرَةُ رَاحِلٍ إلى الموتِ لا يُرجَى له يومُ مَقْدَمِ
مشى أرمَنِيًّاً في المَعَاهِدِ فارتَمَتْ بهِ في مَهاوِي الموتِ ضَربَةُ مُسلِمِ

مشى أبوك وهو من الأرمن في المعاهد، المواقع، فرمته في مهاوي الموت، ودِيانه، ضربة من مقاتل مسلم

ولولاكَ لاخْترتُ الحِمامَ تخلُّصاً بِنفسِيَ مِن أتعابَ عَيْشٍ مُذَمَّمِ
فأنتَ الذي أخَّرتَ أُمَّكَ مَريماً عن الموتِ أنْ يُودي بِأُمِّكَ مَريمِ
أَمَريمُ مهلاً بعضَ ما تذكُرِينَهُ فإنَّكِ تَرمينَ الفؤاد بِأَسْهُمِ
لئِنْ مَلأُوا الأرضَ الفضاءَ جرائِماً فَهُمْ أَجْرَمُوا والدِّينُ ليس بِمجرِمِ

الذين أجرموا بحق الأرمن مجرمون ولكن ليس دين الإسلام هو المجرم. وكان الأرمن تعرضوا لمقتلة كبيرة في زمن الحرب العالمية الأولى على يد الأتراك

ولَمَّا رأيتُ اللَّوْمَ لُؤماً تِجاهَها سَكَتُّ فلم أنْبِسْ ولم أتَبرمِ
وأَطْرقْتُ نحوَ الأرضِ أطلُبُ عفوَها وما أنا بِالجاني، ولا بِالمُتَيَّمِ

طلبت العفو منها مع أنني لست جانياً في تلك المقتلة، ولست متيماً بها، بل مشفق عليها

بَكيتُ، وما أدري أأبكي تَضَجُّراً مِن القومِ أمْ أبْكي لِشِقْوَةِ مريمِ؟

لا أدري هل كان بكائي لأنني مللت من أفعال الترك أم لشقاء مريم. وكان الرصافي عثماني الهوى

٢٦ الروائح

هِيَ الساحةُ النَّكْراءُ فيها تلاعَبَتْ مَخاريقُ ضَيْمٍ تَخلِطُ الجِدَّ بِالدَّدِ

في ساحة السجن النكراء، القبيحة، ترى السجناء يتلاعبون فيما بينهم كأنهم مخاريق، كرات قماش، لكنها تعاني الظلم.. ولعبهم هو بين الجد والدد، أي اللعب

تَصَعَّدَ مِن جوفِ المراحيضِ فوقَها بُخارٌ إذا تَمْرُرْ به الريحُ تَفْسُدِ

وفوق الساحة روائح المراحيض

هناكَ يَوَدُّ المرءُ لو قَاءَ نفسَهُ وأَطلَقَها مِن أسرِ عَيْشٍ مُنَكَّدِ
مَقابِرُ بِالأحياءِ غَصَّتْ لُحُودُها بِخَمْسِ مِئينٍ أنْفُسٍ أو بِأَزْيَدِ
يَخوضُونَ في مُستَنقَعٍ مِن رَوائِحٍ خَبائِثَ مَهما يَزدَدِ الحَرُّ تَزْدَدِ
تَدورُ رُؤوسُ القَومِ مِن شَمِّ نَتْنِها فَمَنْ يَكُ منهُمْ عَادِمَ الشَّمِّ يُحْسَدِ

٢٧ الشمس الخجلى

خَرَجْتُ بِعيدِ النَّحْرِ صُبحاً فَلاحَ لِي مَسـارِحُ لِـلأَضـدادِ فـيـهِـنَّ مَـرتَـعُ

خرجت بعد ذبح الخراف في عيد الأضحى فرأيت مسارح ترتع فيها الأضداد، مشاهد فيها أبناء الأغنياء وأبناء الفقراء

صباحٌ بـه يـكسُـو الـغـنـيُّ وَلـيدَه ثياباً لـهـا يبكـي الـيتيمُ الـمُضَيَّعُ

خَرَجْتُ وقُرصُ الشمسِ قد ذَرَّ شارقاً تـرى الـنـورَ سـيَّـالاً بـه يَـتَـدَفَّـعُ

عندما خرجت كان قرص الشمس قد ذر شارقاً، برز عند الشروق، والنور يسيل منه

ولَـمَّـا بَـدَتْ حَـمْـراءَ أيقـنـتُ أَنَّـهـا بِـهـا خَـجَـلٌ مِـمَّـا تَـراهُ وتَـسْـمَـعُ

لما بدت الشمس وعليها احمرار أيقنت أنها خجلى مما تراه من تفاوت طبقي

٢٨ كلامي غير معقد

لَـعَـمْـرُكَ إنَّ الـحُـرَّ لا يَـتـقَـيَّـدُ أَلا فَـلْـيَـقُـلْ مـا شـاءَ فِـيَّ الـمُـفَـنِّـدُ

المفند: المنتقِد المؤنِّب

إذا أنا قَصَّدتُ القصيدَ فليس لـيِ بـه غيـرُ تِبيـانِ الـحقيقةِ مَقْصِدُ

ولا عَجَبٌ أن عابَني الشاعرُ الذي يقولُ سخيفَ الشعرِ، وَهْوَ مُقَلِّدُ

فإِنَّ ابْـنَ بُـرْدٍ، وَهْـوَ أكـبـرُ شـاعـرٍ، تَـنَـقَّـصَـهُ فـي الـشـعـرِ حَـمَّـادُ عَـجْـرَدُ

ابن برد: بشار، وحماد عجرد: غريمه وكان بينهما هجاء متصل

إذا رُمْتُ نُصحاً جئتُ بِالنُّصحِ واضحاً وما كـان مِن شأنـيِ الكلامُ المُعَقَّدُ

يبدي الرصافي عذره لعدم وجود وثبات خيال جامح في شعره

٢٩ بلبل وذباب

إذا دُفِـعَ الـشـرُّ الـقـبـيـحُ بِـمـثْـلِـهِ تَـحَـصَّـلَ شـرٌّ ثـالِـثٌ وتَـولَّـدا

ولـيِ خُـلُـقٌ يـأبَـى عـلـيَّ انـطِـبـاعُـه على الخيرِ تَسليميِ إلى الشرِّ مِقْوَدا

وتَـكْـرَهُ نـفـسـيِ كـلَّ عـبـدٍ مُـذَلَّـلٍ فقد كرهتْ حتى الطريقَ المُعَبَّدا

لكرهي للعبودية كرهت حتى الطريق المعبد

إذا ما اتَّقَتْ نفسٌ رَداها بِذِلَّةٍ فعنديَ نفسٌ تَتَّقي الذُّلَّ بِالرَّدَى

إذا تجنبت نفس من النفوس رداها، موتها، بأن تتذلل، فأنا أحمي نفسي من الذل بأن أعرضها للموت. التسويد لعمران القفيني

وكم رامَ إِسكاتي أُناسٌ أَبى لَهُمْ خَنَا الطَّبْعِ إِلَّا أَنْ يُرَوْا لِيَ حُسَّدا

الخنا: العار

ومِن عَجَبٍ أَنْ يعشَقَ الروضَ بُلبلٌ ويَمنَعَهُ ذِبَّانُهُ أَنْ يُغَرِّدا

٣٠ ليس لمصر!

أُمارِسُ دهراً مِن جَديدَيَّ داهرا وما زالَ ليلي بِالعراقَيْنِ ساهرا

من جَديديَّ: أي من زمني، والجديدان هما الليل والنهار، الدهر الداهر: الطويل الثقيل، والعراقان: تعبير قديم يشير إلى عراق العرب وعراق العجم

أَبى الحقُّ إِلَّا أن أقومَ لأَجلِه على الدهرِ في كلِّ المَواطنِ ثائرا

وأنْ أَتمادَى في جدالِ خُصومِه وأقرَعَ مِنهُمْ بِالبيانِ المُكابِرا

وتَكرَهُ نفسي أنْ أكونَ مُخادِعاً لِأُدرِكَ نفعاً أو لِأَدفَعَ ضائرا

ومِن أجلِ مَقْتي لِلمَخانيثِ أنكَرَتْ يَدي أنْ تُحَلَّى في الجِنانِ أَساوِرا

ففي الجنة تحلَّى معاصم الفائزين بالأساور

يقولونَ لي في مِصرَ لِلعلْمِ نَهضَةٌ تُفَتِّقُ أذهاناً، وتَجلُو بَصائرا

وإنَّ بِها لِلعِلْمِ قَدْراً وحُرْمَةً وإنَّ بِها لِلحَقِّ عَوْناً وناصرا

وقد ضَرَبُوا وَعْداً لِتَكريمِ شاعرٍ تَمَلَّكَ صيتاً في الأقاليمِ طائرا

هُوَ الشاعرُ الفَحْلُ الذي راحَ شعرُهُ بِإِنشادِهِ في البَرِّ والبحرِ سائرا

فلو قُلْتَ بعضَ الشعرِ في يومِ حَفْلِهِمْ تَشُدُّ به مِنَّا لِمِصرَ الأَواصِرا

يقولون للرصافي: ألا قلت بعض الشعر في هذا الحفل لتكريم أحمد شوقي أميراً للشعراء فتشد أواصرنا بمصر، أي روابطنا؟

فقلتُ: أَجَلْ. والشعرُ ليسَ بِمُعجِزي ولنْ تعدِمُوا مِنِّي على الشعرِ قَادِرا

أَلا إِنَّ شوقي شاعرٌ جِدُّ شاعرٍ يَفُوقُ الأَوالي، بل يَبُزُّ الأَوَاخِرا

يبز: يفوق، الأوالي: الأوائل

تَمَلَّكَ حُرَّ الشعرِ فَهْوَ رَقيقُهُ وقامَ عليه بالذي شاءَ آمِرا

الشعر رقيقه: الشعر عبده

إذا رامَ جَزْلاً منهُ أَنشَدَ زَاخِراً وإِنْ رامَ سهلاً منه أَنشَدَ ساحِرا

رام: أراد، زاخر: متدفق

فلا عَجَبٌ مِنْ أهلِ مصرَ وغيرِهِمْ إذا عَقَدُوا منهُمْ عليه الخَناصِرا

عقدوا الخناصر: استحسنوا. والخنصر الإصبع الصغرى.. ألا ترى أنك عندما تعد واحد اثنان ثلاثة على أصابعك فإنك تبدأ بالخنصر!

ولكنَّني قد أَنْظُرُ الحَفْلَةَ التي تقامُ له ذا اليومَ في مِصرَ سَاخِرا

إذا احتَفَلتْ مصرٌ بِشوقيٍ فمَا لَها تُقيمُ على الأحرارِ في العِلْمِ حَاجِرا

كيف تحتفل مصر بشوقي وتحجر على الأحرار وتسكتهم؟

فقد أَسْمَعَتْنا ضَجَّةً أمطَرَتْ بِها عَلِيّاً وطَهَ حَاصِباً مُتَطايِرا

أسمعتنا مصر ضجة حين أمطرت علي عبد الرازق وطه حسين حاصباً، ريحاً فيها حصىً وتراب. وقد عاقبوا الأول على كتابه «أصول الحكم في الإسلام»، وحاكموا الثاني على كتابه «في الشعر الجاهلي»

فما بالُ هذا عُدَّ في مِصرَ مارِقاً وما بالُ هذا عُدَّ في مِصرَ كافرا

علي عبد الرازق عدوه مارقاً، خارجاً عن الشرع، وطه حسين كفروه

إذا لم تَكُ الأفكارُ في مِصرَ حُرَّةً فليس لِمِصرٍ أنْ تُكَرِّمَ شاعرا

ألا إِنَّ هذا الشعرَ ليس بِطائِلٍ إذا كان عمَّا يَبْلُغُ العِلْمُ قَاصِرا

ليس بطائل: لا فائدة منه

كما أنَّ هذا العلمَ ليس بِنافِعٍ إذا لم تكنْ فيهِ النُّفوسُ حَرائرا

وإلَّا فعصرُ الجَاهِلِيَّةِ قبلَنا له السبْقُ في تَكريمِ مَن كان شاعرا

٣١ الغربال

خليليَّ إِنَّ الأرضَ غِربالُ قُدْرَةٍ تَجَمَّعَتِ الأَحياءُ ضِمنَ إطارِهِ

الأرض كغربال كبير يفحص القدرة، قدرة كل فرد على الصمود في المعترك، وكل الأحياء ضمن إطاره.. والبقاء للأصلح

فلا عيشَ في الدنيا لمنْ لم يكنْ بها قديراً على دفعِ الأذى والمَكارِهِ

فمن لم يكن ذا قدرة على دفع الأذى والمكروه عنه سقط من خروم الغربال ومات

ومَن لم يُهِنْ صَرفَ الزمانِ بِرحلَةٍ　　تُهِنْهُ صروفُ الدهرِ في عُقْرِ دارِهِ

من لم يوجه إهانة إلى مصائب الدهر بأن يرحل ليبحث عن تحقيق ذاته فإن المصائب تأتيه لتهينه في عقر داره، في وسطها

ومَا شَرُفَ الدُّرُّ الثمينُ فَريدُهُ　　إذا هُوَ لم يَبْرَحْ بُطونَ مَحارِهِ

لا يصبح اللؤلؤ الذي فريده ثمين، أي حباته الكبيرة ثمينة، لا يصبح شريفاً إلا إذا غادر داره وهي بطن المحار، أي الصدف

أرى كلَّ ذي فَقْرٍ لدى كلِّ ذي غِنىً　　أجيراً له مستخدَماً في عَقارِهِ

ولم يُعطِهِ إلَّا اليسيرَ وإنما　　على كَدِّه قامتْ صُروحُ يَسارِهِ

ينال الفقير يسيراً من المال مع أن صروح الغِنى واليسار، قصوره، قامت على تعب الفقير

لَعَمرُكَ إنَّ الدهرَ يَجري لِغايَةٍ　　فإن شئتَ أن تحيا سعيداً فَجَارِهِ

وليستْ حياةُ الناسِ إلَّا الجُهْلَ في إيبَاسِهِ واخضِرارِهِ

وما الناسُ إلَّا الماءُ يُحييهِ جَرْيُهُ　　ويُرْديهِ مُكْثٌ دائمٌ في قَرارِهِ

الماء الجاري يكون نظيفاً حياً صالحاً للشرب والراكد يرديه، أي يميته، ركوده. والقاعدة العلمية هي العكس، فالماء الجاري يموت فيها الطحلب، أما الماء الراكد فتعيش به مخلوقات كثيرة

٣٢ الملاعق

وكم مُدَّعٍ فضلَ التمدُّنِ ما له　　مِن الفضلِ إلَّا أكْلُهُ بالمَلاعِقِ

وقد تُعرِضُ الأسْماعُ عن ذي فَصاحةٍ　　وتُصْغي إلى ذي اللُّكْنَةِ المُتَشادِقِ

ذو اللكنة، العيي السيء النطق، المتشادق: الذي يحرك شدقيه أي جانبي فمه متفاصحاً

وألْطَفُ جَوْرِ الدهرِ جَوْرٌ نَرى بِه　　تَدَلُّلَ معشوقٍ وذِلَّةَ عاشِقِ

جور: ظلم

نَفَضْتُ مِن الدنيا يَدَيَّ لِأنَّني　　تعرَّفْتُ منها مَا بها مِن خَلائِقِ

الخلائق: الصفات

ولِي عندَ إخوانِ الصَّفا أرْيَحِيَّةٌ　　إلى كلِّ خِلٍّ في الزمانِ مُوافِقِ

إذا ما عَقَدنا مجلسَ الأُنسِ بِالطِّلا　　فَبَيْني وبين السُّكْرِ خَمْسُ دقائقِ

فأَقْرَعُ بالكأسِ الرَّوِيَّةِ جَبْهَتي　　بِشُرْبٍ كما عَبَّ القَطا مُتَلاحِقِ

الروية: الملآنة، وطير القطا، وهو كحمامة سمينة، يشرب ويرفع رأسه مرة بعد مرة بشكل متلاحق

أُسابِقُ نُدماني إلى السُّكْرِ طائِراً بِجِنْحٍ مِن الأُنْسِ المُضاعَفِ خَافِقِ

يسابق الندماء إلى الشرب مسرعاً كأنه يطير بجناح خافق، وما هذا الجناح سوى الأنس والفرح

فما هِيَ إلَّا بعدَ شُربي سُوَيْعَةً وقد دَبَّ مِن رأسِي الطِّلا في المَفَارِقِ

فَنادَمْتُ أصحابي على غيرِ حِشْمَةٍ وقلتُ لَهُمْ ما قلتُ غيرَ مُنافِقِ

على السكر تزيد صراحته ويقول ما في قلبه

تعوَّدْتُ سَبْقي في الفَخارِ فلم أُرِدْ مِن السُّكْرِ أنْ أَحْظَى به غيرَ سَابِقِ

لكثرة ما تعودت أن أكون سباقاً إلى المكارم صرت لا أستطيع أن أحظى بالشرب إلا سابقاً غيري

كما اعتَادَ سَبْقاً في المكارِمِ خَزْعَلٌ بلا سابقٍ فيها عليهِ، ولاحِقِ

إذا سارَ سارَ المجدُ في طَيِّ بُرْدِه يُرافِقُهُ، أَكرِمْ بهِ مِن مُرافِقِ

الشيخ خزعل والمجد يسيران معاً. وكان الشيخ خزعل محسناً لشاعرنا

فَيرحَلُ مِنْ أَنْسابِه في مَواكِبٍ وينزِلُ مِن أحسابِه في سُرادِقِ

يسير ويسير نسبه العريق معه كأنه في موكب لعظمة نسبه، وينزل فينزل معه حسبه، شرفه، فلا يكاد يسعه السرادق، الخيمة الكبيرة

وإنْ جاءَ أَغْضَى مَن رآهُ تَهَيُّباً سوى نظرِ منهُمْ بِعَيْنَيْ مُسارِقِ

إن جاء خزعل غض الناس أبصارهم لهيبته، فلا ينظر الناظر إليه إلا باستراق النظر

جَوادٌ إذا استَمْطَرْتَه جادَ كَفُّهُ بِأَغْزَرَ مِن وَبْلِ الغُيومِ الدَّوافِقِ

إذا طلبت منه العطاء كان سخياً وكفه أغزر من وبل، مطر، الغيوم المتدفقة

٣٣ الضرب بالنعل

سَبَرْتُ زماني بِالنُّهَى ومَخَضْتُهُ بتجربتي حتى تجلَّتْ عَواقِبُهْ

سبرت زماني: قست عمقه واختبرته، بالنهى: بالعقل، ومخضته: فحصته فحصاً دقيقاً

ولم أستشِرْ في الناسِ إلَّا تَجارِبي وهل يَصْدُقُ الإنسانَ إلَّا تَجارِبُهْ

أَلا رُبَّ شيطانٍ مِن الإنْسِ قد غدا يُخاتِلُني خَلْساً وعَينِي تُراقِبُهْ

يخاتلني: يخدعني

فقلتُ له اخْسَأْ إنَّما أنتَ خَائِبٌ وقبلَكَ أَعْيا الجِنَّ ما أنتَ طَالِبُهْ

فَولَّى على الأعقابِ يَحْبُو وقد دَرى، ولِلَّهِ دَرِّي، أنَّني أنا غَالِبُهْ

فَأَتْبَعْتُه مِنِّي شِهابَ تَسامُحٍ   يَشُقُّ ظلامَ الجَهلِ بِالحِلْمِ ثَاقِبُهْ

يشبه حِلمه وتسامحه بالشهاب الثاقب، أي المتوقد

ولو شئتُ أرسَلْتُ الخَديعَةَ خَلْفَهُ   تُطارِدُهُ حتى تَضيقَ مَذاهِبُهْ

ولكنْ أَبى مِنِّي الخِداعَ مُهَذَّبٌ   تعوَّدَ فِعلَ الخيرِ مُذْ طُرَّ شَارِبُهْ

رفض الخداع مني، أي شخصاً أنا هو، مهذب تعوّد فعل الخير مذ طر، نبت، شاربه

وذي سَفَهٍ أَغضَيْتُ عنه تكرُّماً   فَدَبَّتْ على رِجْلَيَّ غدْراً عَقَارِبُهْ

فقمتُ له بِالنَّعْلِ ضَرْباً، فلم تَزَلْ   يَدايَ بهِ حتى اطْمَأَنَّتْ غَوارِبُهْ

اطمأنت غواربه: هبطت أمواجه، أي سكن وهدأ

٣٤ طريد بغداد

لقد طَوَّحَتْنِي في البلادِ مُضاعَا   طَوائِحُ جاءتْ بِالخُطوبِ تِباعا

طوحتني: رمتني بعيداً

فبارَحْتُ أرضاً ما مَلأْتُ حقائِبِي   سوى حبِّها عند البِراحِ مَتاعا

البراح: المغادرة والفراق

عَتَبتُ على بغدادَ عَتْبَ مُوَدِّعٍ   أَمَضَّتْه فيها الحادثاتُ قِراعا

أمضته الحادثات قراعاً: آلمته المصائب وهو يقارعها ويحاربها

أَضاعَتْنِيَ الأيامُ فيها، ولو دَرَتْ   لَعَزَّ عليها أن أكونَ مُضاعا

فيها: أي في بغداد

ولو شئتُ كَايَلْتُ الذين انطَوَوْا بِها   عَلى الحِقدِ صاعاً بِالعَداءِ فَصاعا

كايلتهم صاعاً فصاعاً: رددت عليهم بالمثل، والصاع كيل قديم

على أَنَّني دَارَيْتُ ما شاءَ حِقدَهُمْ   فلم يُجْدِ نَفعاً ما أَتيتُ وضاعا

داريت كيدهم ما شاء الله لي.. لكن سدى

وأَشقَى الورى نَفساً وأَضْيَعُهُمْ نُهىً   لَبيبٌ يُداري في نُهاهُ رَعاعا

النهى: العقل

تَركتُ مِن الشعرِ المديحَ لأهلِه   ونزَّهتُ شِعري أنْ يكونَ قَذَاعا

القذاع: الشتم والتعيير

وأرسَلْتُه عفْواً فجاءَ كما تَرى   قَوافِيَ تَجتَابُ البلادَ سِراعا

كَأنِّي وقد جَدَّ الفِراقُ سَفينةٌ   أَشالَتْ على الريحِ الهَجومِ شِراعا

كأني سفينة أشالت، رفعت، شراعها لتستقبل الريح الهاجمة

فمالَتْ بها الأَرْوَاحُ والبحرُ مائجٌ   وقد أَوْشَكَتْ أَلواحُها تَتَداعى

الأرواح: الرياح

فَتَحْسَبُني مِن هَزَّةٍ فِيَّ أفْدَعاً   تَرقَّى هِضاباً زُلْزِلَتْ وتِلاعا

تحسبني وأنا في غربتي، وكأني راكب سفينة تتقاذفها الأمواج، أفدعَ، ملتوي الأقدام، يتضعضع كأنه يترقى ويصعد هضاباً وتلاعاً، تلالاً، ضربها الزلزال

فما أنا إلَّا قَوْمَةٌ وانْحِناءَةٌ   وسِرٌّ أذاعَتْهُ الدموعُ فَذاعا

فأنا بعد التضعضع أقوم ثم أنحني.. ومشاعري سر لكن دموعي تفضحه

٣٥ الحكم العسكري

نَفضتُ يديَّ مِن أبناءِ دهرٍ   أهانُوا الشَّهْمَ واحتَرمُوا الزَّرِيَّا

الزري: المستحق للاحتقار والازدراء

وقلَّ حياؤُهُمْ حتى رأيْنا   ظَنينَ القومِ يَتَّهِمُ البَرِيَّا

الظنين: أخو الشبهات، المطعون في سلوكه

تقلَّدَتِ السيوفَ رُعاةُ مَعْزٍ   وكانتْ قبلُ تَحتَمِلُ الهُرِيَّا

تحتمل الهري: تحمل العصيّ

وكيفَ تُساسُ مَملَكَةٌ بِعدلٍ   إذا ما الحكمُ أصبحَ عَسكَرِيَّا؟

٣٦ العلم المفيد

اِبْنُوا المدارسَ واسْتَقْصُوا بِها الأَمَلا   حتى نُطاوِلَ في بُنيانِها زُحَلا

سِيرُوا إلى العلمِ فيها سَيْرَ مُعتَزِمٍ   ثم اركَبُوا الليلَ في تحصيلِه جَمَلا

اركبوا في تحصيل العلم الليل، تقطعونه بالدرس، اركبوه كأنه جمل

لا تَجْعَلُوا العلمَ فيها كلَّ غَايَتِكُمْ   بل علِّمُوا النَّشْءَ عِلْماً يُنتِجُ العَمَلا

وجَنِّبُوهُمْ على فَعْلٍ مُعَاقَبَةً   إنَّ العِقابَ إذا كَرَّرْتَهُ قَتَلا

فَجَيِّشُوا جَيشَ عِلْمٍ مِن شَبِيبَتِنا عَرمْرَماً تَضرِبُ الدنيا به المَثَلا

العرمرم: الجيش الكبير

وإنْ غَزا مُستَظِلّاً ظِلَّ رايَتِه هَزَّ البلادَ وأَحْيا الأَعْصُرَ الأُوَلا

إنّا لَمِنْ أُمَّةٍ في عهدِ نَهضَتِها بالعلمِ والسيفِ قَبْلاً أنشأَتْ دُوَلا

ماذا تقولونَ في نَقْدي مَناهِجَكُمْ وقد كَفَيْتُكُمُ التفصيلَ والجُمَلا؟

نقدت المناهج حتى كفيتكم التفصيل والإجمال

وأَيُّ نَفعٍ لِمَنْ يأتي مَدارِسَكُمْ إنْ كانَ يَخْرُجُ منها مِثلَما دَخَلا؟

٣٧ الدور قبوراً

إذا ما عَقَّ مَوطِنَهُمْ أُناسٌ ولم يبنُوا به لِلعِلمِ دُورا

فإنَّ ثِيابَهُمْ أكفانُ موتَى وليس بُيوتُهُمْ إلّا قُبورا

٣٨ كذبة الدهر

كم كَذَّبَ الدَّهْرُ في فَعائِلِهِ وسُؤْدَدُ الجاهِلينَ مِنْ كَذِبِهْ

الدهر يكذب، ومن بعض أكاذيبه نيل الجاهلين مواقع السيادة

٣٩ التخصص

أَطعِمِ العقلَ ما اشتهاهُ مِن العِلـ ـمِ وإلّا اسْتَقَأْتَ مِن سُوءِ هَضْمِ

استقأت: تقيأت

ليس في أَرْؤُسِ الرِّجالِ دِماغٌ هاضِمٌ في ذَكائِهِ كُلَّ عِلْمِ

فَمِنَ النقصِ أن تُحاوِلَ أنْ تَضْـ ـرِبَ في كلِّ ذي العُلومِ بِسَهْمِ

أَوَليسَ البدْرُ التَّمامُ، وإن كا نَ وَحيداً، يَربُو على ألْفِ نَجْمِ

٤٠ نشيد لعبد الحميد

سَكَنّا مِن جَهالَتِنا بِقاعا يَجورُ بها المُؤَمَّرُ ما استَطاعا

المؤمر: المجعول أميراً

فكِدْنا أن نموتَ بها ارتِياعا فَهَبْنا أُمَّةً هلَكَتْ ضَياعا

تَـوَلَّـى أمـرَهـا عـبـدُ الـحـمـيـدِ

* * *

أيـا حُـرِّيَّـةَ الـصُّـحُـفِ ارْحَـمـِينـا فَـإنَّـا لـم نَـزَلْ لـكِ عـاشِـقـيـنـا
متى تَـصِـلـيـنَ كـيـمـا تُـطْـلِـقِـينـا عِـدِيـنـا فـي وِصَـالِـكِ وامْـطـلـيـنـا

متى تصلين إلينا حتى ننطلق.. قدمي لنا وعداً بالوصال أيتها المعشوقة، ثم امطلينا، كوني مماطِلة

فـإنَّـا مِـنـكِ نَـقـنَـعُ بِـالـوُعـودِ

* * *

تَـنَـعَّـمْ فـي قُـصـورِكَ غـيـرَ دَارِ أَعـاشَ الـنـاسُ أَمْ هُـمْ فـي بَـوَارِ

بوار: هلاك

فـإنَّـكَ لـم تُـطـالَـبْ بِـاعـتِـذَارِ وَهَـبْ أنَّ الـمَـمـالِـكَ فـي دَمـارِ
أَلـيـس بِـنـاءُ يِـلْـدِزَ بِـالـمَـشـيـدِ

يِلدز: قصر السلطان عبد الحميد في إستانبول

٤١ دخان ولهيب

إنْ كَلَّفَتنِي السُّكارَى شُرْبَ خَمْرَتِهِمْ شَرِبْتُ لكنْ دخاناً مِن سِكَاراتي

سكاراتي: سيجاراتي، وفي العراق يكتبون القاف البدوية كافاً، وفي مصر جيماً، وفي بلاد الشام يتحيرون، وفي الخليج يكتبونها قافاً فيقولون عن اللفافة زقارة

إنِّي لَأَمْتَصُّ جَمراً لُفَّ في وَرَقٍ إذْ تَشرَبونَ لهيباً مِلْءَ كاساتِ

٤٢ تحريم الغناء

رَطِّبْ حَياتَكَ بِالغِناءِ إذا عرا هَمٌّ يُجَفِّفُ في الحُلوقِ الرِّيقا

عرا: اعترى، وجاء مفاجئاً

واتْرُكْ مُجادَلَةَ الذين تَوَهَّمُوا هَزَجَ الغِناءِ خَلاعَةً وفُسوقا
أفأَنْتَ أغلَظُ مُهْجَةً مِن نُوقِهِمْ فقد استَحَثُّوا بِالحُداءِ النُّوقا

الحداء: الغناء للإبل

أرقَى الشعوبِ تمدُّناً وحَضارَةً مَن كانَ مِنهُمْ في الفنونِ عريقا

٤٣ الاستهلاك

أَوَما تَرى أهلَ البلادِ تَقَيَّدوا ... لِلغربِ مِن حاجاتِهِمْ بِقيودِ!
الغربُ يَكسُوهُمْ مَلابِسَ هُمْ بِها ... يَعْرَوْنَ مِن مالٍ لهُمْ ونُقودِ
وتَراهُ يَسْلَخُهُمْ بِمصنُوعاتِه ... سَلْخَ الشِّياهِ، فَهُمْ بِغَيرِ جُلودِ
هَذي سَفائِنُهُمْ تَروحُ وتَغتَدي ... بِبضائعٍ لم تُحْصَ بالتَّعديدِ
فَكأنَّما هِيَ لامْتِصاصِ دِمائِنا ... بعضُ المَحاجِمِ أو كبعضِ الدُّودِ

تمتص بضائعهم دمنا كما تمتصه المحاجم، المحجم أداة فصد الدم في الحجامة، أو الدود، العَلَق الذي يستخدمه المعالجون في امتصاص الدم

مَن كانَ مَحلُولَ العُرا في مَالِه ... وَجَبَ انْحِلالُ لِوائِهِ المَعقُودِ

من لم يحسن القيام على الميزانية وجب أن يتخلى عن حمل اللواء وقيادة البلد

٤٤ التمويه

دَعِ الأُناسِيَّ وانْسُبْني لِغَيْرِهِمُ ... إن شئتَ لِلشَّاءِ، أو إن شئتَ لِلبَقَرِ
فإنَّ في البَشَرِ الرَّاقي بِخِلْقَتِه ... مَن قد أَنِفْتُ بِه أَنِّي مِن البشرِ
وأَشنَعُ الكِذْبِ عندي ما يُمازِجُهُ ... شَيْءٌ مِن الصدقِ تمويهاً على الفِكَرِ
فإِنَّ إبطالَ هذا في النُّهَى عَسِرٌ ... وليس إِبطالُ مَحْضَ الكِذْبِ بِالعَسِرِ

٤٥ تلخيص «رأس المال»

كلُّ ما في البلادِ مِن أَموالٍ ... ليس إِلَّا نتيجةَ الأَعمالِ

تلخيص حسن للنظرية الماركسية في القيمة المضافة: قيمة كل سلعة هي مقدار ما وُضع فيها من عمل. وسيبدو في الأبيات المقبلة أن الرصافي كان يصدر عن إلمام بالنظرية الماركسية

عندنا اليومَ لِلحياةِ نظامٌ ... قد حَوى كلَّ باطلٍ ومُحالِ
حيثُ يَسعى الفقيرُ سَعْيَ أجيرٍ ... لِغَنِيٍّ مُسْتأْثِرٍ بالغِلالِ
وتَرى الغَائِصينَ في البحرِ أَمْسَى ... لِسِواهُمْ ما أَخْرَجُوا مْن لآلِ

لآل: لآلئ

أكثرُ الناسِ يكدَحُونَ لِقومٍ ... قَعَدُوا في قُصورِهِمْ والعَلالي
إنَّما الحقُّ مَذهَبُ الاشتِراكِيَّـ ... ـةِ فيما يَختَصُّ بالأموالِ

مَـذهَـبٌ قـد نَـحـا إلـيـهِ أَبُـو ذَرٍّ ــ قَـديـمـاً فـي غـابِـرِ الأَجـيـالِ
أبو ذر الغفاري: من الصحابة، وزهد ودعا إلى التسوية بين الناس في العطاء

ليس فَرضُ الزَّكاةِ في الشَّرعِ إلَّا خُـطْـوَةً نَـحـوَ مـبـتَـغـاهُ الـعـالـي
الزكاة خطوة أولى نحو هذا المذهب: الاشتراكية

مـــا رُؤوسُ الأَمـــوالِ إلَّا أَداةٌ لِـلـمَـسـاعـي كَـالـحَـبـلِ لِلأَحْـمـالِ
رؤوس الأموال أداة لتشغيل الناس ودوران عجلة الاقتصاد وليست للتخزين والكنز

أيُّـهـا الـعـامِـلـونَ إنَّ اتِّـحـاداً بَـيْـنَـكُـمْ مُـرخِـصٌ لَـكُـمْ كلَّ غَـالِ
وقال البيان الشيوعي: «يا عمال العالم اتحدوا»

فَليكُنْ بعضُكُمْ لِبعضٍ نصيراً ومُـعـيـنـاً لـه عـلـى كـلِّ حـالِ

٤٦ الازدراد

أَكَبَّ على الخِوانِ وكانَ خِفّاً فـلـمَّـا قـامَ أثـقَـلَـهُ الـقِـيـامُ
ووالى بينَها لُقَماً ضِخاماً فما مَرِئَتْ له اللُّقَمُ الضِّخامُ
وعاجَلَ بَلْعَهُنَّ بِغيرِ مَضْغٍ فَهُنَّ بِفيهِ وَضْعٌ فالتِهامُ
فضاقَتْ بَطنُهُ شِبَعاً وشَالَتْ إلى أنْ كادَ يَنقَطِعُ الحِزامُ
فأَرسَلْتُ اللِّحاظَ إليهِ شَزْراً وقلتُ له: رُوَيْدَكَ يا غُلامُ
أَرى اللُّقُماتِ تأخُذُها حَلالاً فتَدخُلُ فاكَ وَهْيَ بِه حَرامُ
فلا تأكُلْ طَعامَكَ بِازْدِرادٍ مُعاجَلَةً فَيأكُلُكَ الطَّعامُ
طَعامُ الناسِ أَعْجَبُ ما أَحَبُّوا فمْنه حياتُهُمْ وبه الحِمامُ
أعجب الأشياء التي يحبها الناس الطعام، فمنه يحيون وبه يموتون

ولو أنّي استطَعْتُ صِيامَ دَهري لَصُمْتُ فَكانَ دَيْدَنِيَ الصِّيامُ
ديدني: عادتي

ولكنْ لا أصومُ صِيامَ قَومٍ تَكاثَرَ في فُطُورِهِمُ الطَّعامُ
وناموا مُتْخَمِينَ على امتِلاءٍ وقد يَتَجَشَّأُونَ وَهُمْ نِيامُ
يتجشأ: يخرج فقاعة هواء من بطنه.. يخرجها من فمه بصوت

فقلْ لِلصَّائِمينَ أداءَ فَرْضٍ أَلا ما هكَذا فُرِضَ الصِّيامُ

٤٧ إلى الصديق اللدود

أرى بـغـدادَ مِـن بـعـدِ اغـبـرارٍ زَهَـتْ بِقُدومِ شاعـرِهـا الزَّهـاوي

ومـا الآدابُ فـي بـغـدادَ لـولا يَـراعُ جـمـيـلِـهـا إلَّا دَعَـاوِ

يراع: قلم، دعاوٍ: ادعاءات

إذا مـا قـالَ فـي بـغـدادَ شـعـراً رَوَاهُ لـه بِـأقـصَـى الأرضِ راوِ

٤٨ أبناء إماء

لقد غَمَطُوا حقَّ النساءِ فَشَدَّدُوا عليْهِنَّ في حبسٍ وطولِ ثَواءِ

غمطوا الحق: لم يقروا به، طول ثواء: طول إقامة

وقد أَلزَمُوهُنَّ الحجابَ وأنكروا عـلـيْـهِـنَّ إلَّا خَـرْجَـةً بِـغِـطـاءِ

أَهانُوا بِهِنَّ الأمَّهاتِ فأصبحوا بـمـا فـعـلـوا مِـن أَلأَمِ اللُّـؤَمـاءِ

ولـو أَنَّـهُـمْ أَبْـقَـوْا لَـهُـنَّ كـرامـةً لَكانوا بِما أَبْقَوْا مِن الكُرماءِ

ألـم تَـرَهُـمْ أَمْسَوْا عبيداً لِأَنَّـهُـمْ على الذُّلِّ شَبُّوا في حُجُورِ إِماءِ

صار رجالنا عبيداً للأجنبي لأنهم تربوا في حجور، أحضان، نساء هن كالإماء، الجواري

وهانَ عليْهِمْ حين هانَتْ نِساؤُهُمْ تَحَمُّلُ جَوْرِ السَّاسَةِ الغُرباءِ

أَيَسْعَدُ مَحْياكُمْ بِغيرِ نِسائِكُمْ وهـل سَعِدَتْ أرضٌ بِغيرِ سَماءِ

المحيا: الحياة

وما العارُ أنْ تَبدُو الفتاةُ بِمَسْرَحٍ تُـمَـثِّـلُ حَـالَـيْ عِـزَّةٍ وإبـاءِ

ولـكـنَّ عـاراً أنْ تَـزَيَّـا رجـالُـكُـمْ عـلـى مسـرحِ الـتمـثيـلِ زِيَّ نِـساءِ

٤٩ النعجة والذئب

قُلْ لِلأُلى ضَرَبُوا الحِجابَ على النِّسا أَفتعلَمُونَ بما جَرى تحتَ العَبا؟

شَرَفُ المليحةِ أن تكونَ أديبةً وحجابُها في الناسِ أنْ تَتَهَذَّبا

والوَجْهُ إن كانَ الحياءُ نِقَابَهُ أَغنَى فتاةَ الحَيِّ أنْ تَتَنَقَّبا

واللُّؤْمُ أَجمعُ أن تكونَ نِساؤُنا مثلَ النِّعاجِ، وأنْ نكونَ الأَذْؤُبا

٥٠ الذين واللواتي

هِيَ الأخلاقُ تَنبُتُ كالنباتِ ... إذا سُقِيَتْ بِماءِ المَكْرُماتِ

ولم أَرَ لِلخَلائِقِ مِن مَحَلٍّ ... يُهَذِّبُها كَحِضْنِ الأُمَّهاتِ

فَحِضْنُ الأُمِّ مدرسةٌ تَسامَتْ ... بتربِيَةِ البَنينَ أو البناتِ

وقالوا شِرْعةُ الإسلامِ تَقضي ... بتفضيلِ الذين على اللواتي

وقالوا إنَّ مَعنى العلمِ شيءٌ ... تَضيقُ به صدورُ الغانياتِ

أليسَ العِلْمُ في الإسلامِ فرضاً ... على أبنائِهِ، وعلى البناتِ؟

وكانتْ أُمُّنا في العلمِ بَحراً ... تَحُلُّ لِسائِلِيها المشكلاتِ

أمنا: أم المؤمنين عائشة

ألم نَرَ في الحِسانِ الغيدِ قَبلاً ... أَوَانِسَ كاتِباتٍ شاعراتِ؟

وقد كانتْ نساءُ القومِ قِدْماً ... يَرُحْنَ إلى الحروبِ مع الغُزَاةِ

يرحن: أراد يذهبن

لَئِنْ وَأَدُوا البناتِ فقد قَبَرنا ... جميعَ نِسائِنا قبلَ المماتِ

الجاهليون وأدوا البنات ونحن قبرنا النساء بإبقائهن في البيوت أو بالحجاب

حَجَبْناهُنَّ عن طَلَبِ المعالي ... فعِشْنِ بِجَهْلِهِنَّ مُهَتَّكاتِ

ولو عَدِمَتْ طِباعُ القومِ لُؤْماً ... لَمَا غَدَتِ النساءُ مُحَجَّباتِ

فِدىً لِخَلائِقِ الأعرابِ نَفسي ... وإن وُصِفُوا لدينا بِالجُفاةِ

فكَمْ بَرَزَتْ بِحَيِّهِمُ الغَواني ... حَواسِرَ غيرَما مُتَرَيِّباتِ

حواسر: كاشفات الشعر، غيرما متريبات: غير واقعات في شبهة أو ريبة

٥١ أَمة ومحبوسة

لم أَرَ بينَ الناسِ ذا مَظْلَمَةْ ... أَحَقَّ بِالرَّحْمَةِ مِن مُسْلِمَةْ

مَنقُوصَةٌ حتى بِميراثِها ... محجوبةٌ حتى عن المَكْرُمَةْ

قد جَعَلُوا الجهلَ صِواناً لها ... مِن كلِّ ما يَدعُو إلى المَأثَمَةْ

صواناً: حافظاً صائناً

والعلمُ أعلى رُتبةً عندَهُمْ ... مِن أنْ تُلَقَّاهُ وأن تَعْلَمَهْ

مـا تَـصـنـعُ الـمـرأةُ مَـحـبُـوسَـةً　　في بـيـتِـهـا إن أَصبحتْ مُعْدِمَةْ
كـم فـي بـيـوتِ الـقـومِ مِـن حُـرَّةٍ　　تَـبـكـي مِـن الـبُـؤْسِ بِـعَـيْـنَـيْ أَمَـةْ

٥٢ نحن السفوريين

نـحـنُ الـسُّـفُـورِيِّـيـنَ أَعْـلَـمُ بـالـذي　　شَـرَعَ الـنـبـيُّ مـحـمـدٌ مِـن ديـنِ
أَيَـكـونُ مـا شَـرعَ الـنـبـيُّ مـحـمـدٌ　　شـيـئاً يـخـالِـفُ شِرعَـةَ الـتَّـمْـدِيـنِ؟

٥٣ يا شعبي الضائع

قالها والعراق تحت الحكم العثماني:

أمَا آنَ أن يَغْشَى الـبـلادَ سُـعودُهـا　　ويذهـبَ عن هذي الـنِّـيامِ هُجُودُهـا

يغشى: يغطي، سعودها: حظها الحسن، هجودها: نومها

بَـرِئْـتُ إلـى الأحـرارِ مِـن شَـرِّ أُمَّـةٍ　　أَسـيـرةِ حُـكَّـامٍ ثِـقـالٍ قُـيـودُهـا
جَرى الجَوْرُ منها في بلادٍ وَسيعَةٍ　　فضاقَتْ على الأحرارِ ذَرعاً حُدودُها
عـجـبتُ لِـقـومٍ يـخـضَـعـونَ لِـدولـةٍ　　يَـسُـوسُـهُـمُ بِـالـمـوُبِـقـاتِ عَـمـيـدُهـا
وأَعـجَـبُ مِـن ذا أَنَّـهُـمْ يَـرهَـبُـونَـهـا　　وأمـوالُـهـا مِـنـهُـمْ، ومِـنـهُـمْ جُـنـودُهـا
وصارتْ لِـئـامُ الـنـاس تَـعـلُـو كِـرامَـهـا　　وعـابَ لـبـيـداً في الـنَّـشـيـدِ بَـلـيـدُهـا

صار اللئام يرتفعون فوق الكرام، وصار البليد يعيب في الشعر لبيداً الشاعر المشهور

ومَـا ثُـلَّـةٌ قـد أهـمَـلَـتْـهـا رُعـاتُـهـا　　بِـمَـأْسَـدَةٍ جـاءَتْ لِـعَـشْـرٍ أُسـودُهـا . .

الثلة: قطيع الغنم، المأسدة: أرض كثرت أسودها، جاءت لعشر: مضت عليها عشرة أيام بلا طعام . .

فـبـاتَـتْ ولا راعٍ يُـحـامـي مَـراحَـهـا　　فَـرائِـسَ بـيـن الـضَّـارِيـاتِ تُـبـيـدُهـا . .

بات القطيع بلا راع يحمي مراحه، أرضه، فأصبح فرائس تفترسها الأسود الضارية، المفترسة

بِـأَضْـيَـعَ مِـنـكُـمْ حـيـثُ لا ذو شَـهـامَـةٍ　　يَـذِبُّ الـرَّزَايـا عـنـكُـمُ ويَـذُودُهـا

ليست هذه الأغنام أشد ضياعاً منكم إذ لا شهم يذب الرزايا، يدفع المصائب ويذودها، يبعدها عنكم

٥٤ الإسلام ذنباً

أيـهـا الـمـسـلـمونَ لَـسْـتُـمْ مِـن الـغـر　　بِ بِـحـالٍ تَـسْـتَـوْجِـبـونَ احـتـرامـا

وإذا ما فعلتُمُ الخيرَ يوماً حَسِبُوهُ جِنايةً وأثاما
وإذا ما افترى عليكُمْ عَدُوٌّ أيَّدُوهُ وصَدَّقُوا الأوْهَاما
وإذا ما جَنَى عليكُمْ أُناسٌ سَكَتُوا عنهُمُ ومَرُّوا كِراما

مرور الكرام: أي المرور بلا اهتمام. المعنى مأخوذ من صفة الكريم النفس الذي يرى الخطأ فيمر به بلا تأنيب لصاحبه

كم بِأَرضِ البلقانِ منكُمْ قتيلٍ وأَيَامَى مُضَاعَةٍ ويَتامى

أيامى: أرامل.. وفي نهاية الحرب العالمية الأولى تفككت الدولة العثمانية وخلفت في مناطق البلقان حيث كانت تحكم كثيرين من المسلمين يتعرضون للأذى

رَحِمَ اللَّهُ أُمَّةً أصبحَ الغَر بُ يَرى كلَّ ذنبِها الإسلاما

٥٥ وعود العروبيين

عجبتُ لِقومٍ أصبحُوا يُنكِرونَنا وقد عَرفونا في الزمانِ الذي مَرَّا
هُمُ أسمَعُونا نُعْرَةً عَربيَّةً فَدَوَّى صَداها في المَسامِعِ مُصْطَرَّا

نعرة: عصبية وحماسة للنسب، مصطر: مصطخب. ينتقد العروبيين

فكمْ مِن خطيبٍ قامَ فيها مُثَرثراً فَطَرَّى لنا مِن يابِسِ القولِ ما طَرَّى
وكم شاعرٍ قد أَرخَصَ الشعرَ دونَها وكم قلمٍ فوقَ الطُّرُوسِ بِها صَرَّا

كم من شاعر بذل شعره رخيصاً في سبيل الدعوة للعروبة، وكم قلم قد سُمع له صرير فوق الطروس، الأوراق، وهو يشيد بها، بالنعرة العروبية

وكُنَّا أَجَبْناهُمْ إليها إجابَةً بها قد تَركْنا جانبَ الدِّينِ مُزْوَرَّا

وقد تفاعلت ـ يقول الرصافي ـ مع تلك الدعوات، مخالفاً بذلك الرابط الديني الذي يربطني بالدولة العثمانية

رجاءَ اتِّحادٍ في طَريقِ سياسةٍ تَعُمُّ مَراميها بني يَعْرُبٍ طُرَّا

جاريتهم رجاء التوحد في سياسة تعم مراميها، أغراضها، العرب طراً، جميعاً

فمُذْ حانَ أنْ يَخْضَلَّ غُصْنُ اعتِزازِنا ويَرتَعَ بَعدَ اليَبْسِ رَطْباً ويَخْضَرَّا..

منذ أن حان الوقت ليخضل، ليبتل بالندى، غصن اعتزازنا ويخضر..

نَصَبْنا خَياشِيمَ الرَّجاءِ لِريحِهِمْ فهبَّتْ لنا نَكبَاءَ عاتِيَةً صِرَّا

نصبنا أنوفنا راجين أن نشم رائحة طيبة، فهبت علينا ريح نكباء، مخربة، صِرٌّ، باردة

٥٦ رويدك غورو !

رُوَيْدَكَ، غُورُو، أيُّهَذا الجُنَيْرالُ فقد آلَمَتْنا مِن خِطَابِكَ أقوالُ

دخل الجنرال غورو دمشق وألم بقبر صلاح الدين ورفسه وقال: «قم فقد عدنا يا صلاح الدين، ووجودي هنا إيذان بانتصار الصليب على الهلال» العبارة في ص٣٥٩ من كتاب «غزو الشرق الأوسط الحديث» لماير وبرايزاك

ذكرتَ لنا الحربَ الصَّليبِيَّةَ التي بها اليومَ قد تَمَّتْ لِقومِكَ آمالُ

ولو أنَّنا قُلنا كما أنتَ قائِلٌ لأَنحى علينا بالتَّعَصُّبِ عُذَّالُ

أنحى بالتعصب: اتهم بالتعصب

وقالوا لنا أنتُمْ أُولُو جَاهليَّةٍ وإن خالفوا وجْهَ الصَّوابِ بِما قالوا

فقد قادَتِ الأعرابُ نحوَ عَدُوِّكُمْ خُيولاً لها في حَوْمَةِ الحربِ تَجْوالُ

الأعراب في الحجاز والأردن بقيادة الشريف حسين شريف مكة حاربوا عدوكم، يا غورو، وهو الدولة العثمانية

وقامتَ لَكُمْ منهُمْ بِمَكَّةَ رَايَةٌ لَكَمْ فُتِحَتْ فيها مِن القُدْسِ أَقْفالُ

ورفع الهاشميون في مكة راية قتال ساعدت الغرب في فتح القدس مع نهاية الحرب العالمية الأولى

٥٧ عندما يحيض الزمن

لَمَّا تَكَرَّهَنِي الأَراذِلُ سَرَّني أَنّي إِليهِمْ، يا أُمَيْمَ، بَغيضُ

وجَزَيْتُ كلَّ صنيعةٍ بِمثالِها إن الصَّنائِعَ في الرجالِ قُروضُ

صنيعة: معروف

لا تَطلُبَنَّ مِن الزمانِ حقيقَةً ما لِلحقيقَةِ في الزمانِ وَمِيضُ

تسويد عمران القفيني

وحوادثُ الأيامِ مثلُ نِسائِها في الحُكْمِ، تَطْهُرُ تارةً وتَحيضُ

أحداث الزمن تشبه في حكمنا عليها النساء تطهر وتحيض.. أي فيها ما يسر وما يسوء

وإذا الفتى قَعَدَتْ به أَفْعالُه أَعياهُ بِالنَّسَبِ الرفيعِ نُهوضُ

تسويد عمران القفيني

٥٨ يا قوم لا تتكلموا

يا قومُ لا تتكلَّموا إن الكلامَ مُحَرَّمُ
ناموا ولا تستيقظوا ما فازَ إلَّا النُّوَّمُ
أمَّا السياسةُ فاتركوا أبداً وإلَّا تَندَمُوا
إن السياسةَ سِرُّها لو تعلمونَ مُطَلْسَمُ

مطلسم: غامض

مَن شاءَ مِنكُمْ أن يعيـ ـشَ اليومَ وَهْوَ مُكَرَّمُ
فَلْيُمْسِ لا سَمْعٌ ولا بَصَرٌ لديهِ ولا فَمُ
وإذا ظُلِمتُمْ فاضحَكُوا طرباً ولا تَتَظَلَّموا
إنْ قيلَ هذا شهدُكُمْ مُرٌّ فقولوا عَلْقَمُ
أو قيلَ إنَّ نهارَكُمْ ليلٌ فقولوا مُظْلِمُ
أو قيلَ إنَّ بلادَكُمْ يا قومُ سوفَ تُقَسَّمُ
فتحمَّدوا وتشكَّروا وتَرَنَّحوا وتَرَنَّموا

٥٩ حكم الدخيل

في حفل تكريم أمين الريحاني:

أأمينُ لا تغضبْ عليَّ فإنَّني لا أَدَّعي شيئاً بغيرِ دَليلِهِ
مِن أينَ يُرجَى لِلعراقِ تقدُّمٌ وسبيلُ مُمتَلِكيهِ غيرُ سبيلِهِ

ممتلكوه: حكامه

لا خيرَ في وطنٍ يكونُ السيفُ عنـ ـدَ جبانِهِ، والمالُ عندَ بَخيلِهِ
والرأيُ عند طَريدِهِ، والعِلْمُ عنـ ـد غَريبِهِ، والحُكْمُ عند دَخيلِهِ

استاء الملك فيصل مما رآه تعريضاً به في كلمة «دخيله»، فقالوا له: لعل الرصافي يقصد الإنجليز

وقد استَبَدَّ قليلُه بِكثيرِهِ ظُلْماً، وذَلَّ كثيرُهُ لِقَليلِهِ
وإذا المَخاطَبُ كان مِثلَكَ واعياً أَغْنى اختِصارُ القولِ عن تَطْويلِهِ

يخاطب أمين الريحاني

يا مَن يُكَتِّمُ فضلَهُ مُتَواضِعاً والناسُ مُجْمِعَةٌ على تَفضيلِهِ

شَكوايَ بُحْتُ بها إليكَ وليس في شكوى الزميلِ غَضاضَةٌ لِزميلِهِ
إنَّ المريضَ لَيَستريحُ إذا اشْتَكى مِمَّا به لِطَبيبِهِ، وخليلِهِ

٦٠ ويل لبغداد

ويلٌ لِبغدادَ مِمَّا سوف تذكُره عنِّي وعنها الليالي في الدواوينِ
لقد سَقيْتُ بِفيْضِ الدَّمعِ أَربُعَها على جوانبِ وادٍ ليس يَسقِيني
ولستُ أَبذُلُ عِرضي كيْ أعيشَ به ولو تَأَدَّمْتُ زَقُّوماً بِغِسلينِ

تأدمت: اتخذت غموساً لخبزتي، الزقوم والغسلين: من طعام أهل النار

عاهَدْتُ نفسِيَ والأيامُ شاهدةٌ أَلَّا أَقَرَّ على جَوْرِ السَّلاطينِ
ما كنتُ أَحْسَبُ بَغداداً تُحَلِّئُني عن ماءِ دجلَتِها يوماً وتُظْمِيني

تحلئني: تمنعني ورود الحوض

حتى تَقَلَّدَ فيها الأمرَ زِعْنِفَةٌ مِن الأُناسِ بِأخلاقِ السَّراحينِ

زعنفة: شرذمة، حثالة، السراحين: الذئاب

لَأَجْعَلَنَّ إلى بيروتَ مُنتَسَبي لعلَّ بيروتَ بعدَ اليومِ تُؤْوِيني
قد كان في الشامِ لِلأَيَّامِ مُذْ زمنٍ ذَنْبٌ مَحَتْهُ اللَّيالي في فِلَسْطينِ

أذنبت الشام بحقي عندما جئتها وفيصل فيها فلم أحظ باستقبال حسن، فذهبت إلى القدس فعملت هناك واحتفى الناس بي

إن كان في القدسِ لي صَحْبٌ غَطارِفَةٌ فكَمْ بِبَيروتَ مِن غُرٍّ مَيامينِ

الغطارفة والميامين: السادة من أشراف الناس

٦١ ملك ينتظر آخر الشهر

لَهُمْ مَلِكٌ تَأْبى عُصَابَةُ رَأْسِهِ لها غيرَ سيفِ التَّيْمِسِيِّينَ عاصِبا

تأبى عصابة رأسه، عمامته، أن يعصبها ويلفها له إلا سيف الإنجليز، أي أن عرشه قائم بفضل وجودهم العسكري في العراق (التيمسيين نسبة إلى نهر لندن التِّمْز)

وليس لهُ مِن أَمْرِهِمْ غيرَ أَنَّهُ يُعَدِّدُ أياماً ويَأْخُذُ راتِبا

قيل عندما التقى الملك فيصل الرصافي بعد حين عاتبه قائلاً: أما زلت تقول إنني أعدد أياماً وآخذ راتباً؟ فقال الرصافي: آمل ألا يكون الأمر كذلك يا صاحب الجلالة

٦٢ الكراسي الخجلى

أنا بِالحكومةِ والسياسةِ أعرَفُ ... أَأُلامُ في تفنيدِها وأُعَنَّفُ

تفنيدها: انتقادها

سأقولُ فيها ما أقولُ ولم أَخَفْ ... مِن أنْ يقولوا شاعرٌ مُتَطَرِّفُ

هذي حكومتُنا وكلُّ شُموخِها ... كَذِبٌ، وكلُّ صنيعِها مُتَكَلَّفُ

عَلَمٌ ودُستورٌ ومجلسُ أُمَّةٍ ... كلٌّ عنِ المعنَى الصحيحِ مُحَرَّفُ

أَسماءُ ليسَ لنا سوى أَلفاظِها ... أمَّا معانِيها فليستْ تُعرَفُ

تعليق عمران القفيني: (منَعَ أسماء للوزن، ومنع المصروف قبيح حتى في الضرورات.. الشعراء الكبار يصرفون الممنوع لا العكس)

مَن يَقرأِ الدُّستورَ يَعلَمْ أنه ... وَفقاً لِصَكِّ الانتدابِ مُصَنَّفُ

تَشكُو البلادُ سياسةً ماليةً ... تجتاحُ أموالَ البلادِ وتُتلِفُ

تُجبَى ضَرائِبُها الثِّقالُ وإنَّما ... في غيرِ مَصلَحَةِ الرَّعيَّةِ تُصْرَفُ

يا قومُ خَلُّوا الفاشِسِيَّةَ إنَّها ... في السَّائِسينَ فَظاظَةٌ وتَعَجْرُفُ

الفاشِسِية: الفاشستية، وكان بدأ يتشكل حزب يأخذ بنهج الفاشستية الإيطالية

لِلإنجليزِ مَطامِعٌ بِبلادِكُمْ ... لا تنتهي إلَّا بِأنْ تَتَبَلْشَفُوا

تتبلشفوا: تصبحوا بلشفيين، والحزب البلشفي هو حزب لينين الشيوعي في روسيا/الاتحاد السوفيتي

بِاللَّهِ يا وُزَرَاءَنا ما بَالُكُمْ ... إن نحن جَادلناكُمُ لم تُنْصِفوا

هذي كَراسِيُّ الوِزارةِ تَحتَكُمْ ... كادتْ لِفَرْطِ حيائِها تَتَقَصَّفُ

أنتمْ عليها والأجانبُ فوقَكُمْ ... كلٌّ بِسُلْطَتِه عليكُمْ مُشْرِفُ

أَيُعَدُّ فَخراً لِلوزيرِ جُلوسُهُ ... فَرِحاً على الكُرْسِيِّ وَهْوَ مُكَتَّفُ

مكتف: مقيد بالحبال

كم مِن نَواصٍ لِلعِدَى سَنَجُزُّها ... ولِحىً بِأيدي الثائِرينَ سَتُنْتَفُ

نواصٍ: الناصية شعر مقدم الرأس، نجزها: نقصها. وكان من عادة العربي إذا أسر خصمه أن يحلق له شعره

٦٣ أم الدنيا

في زيارة مع وفد برلماني عراقي للقاهرة لحضور المعرض الصناعي (١٩٣٦):

إذا العروبةُ حلَّتْ عرشَ دولتِها   فمِصْرُ تاجٌ لها قد صيغَ مِن ذَهَبِ
مِن أُفْقِ فُسطاطِها في الشرقِ قد طَلَعَتْ   شمسٌ إذا غابَ قُرصُ الشمسِ لم تَغِبِ

الفسطاط: القاهرة القديمة

٦٤ من العجائب

ومِنَ العجائبِ في الزمانِ وأهلِه   بَلَهُ الفَقيهِ وفِطْنَةُ الزِّنديقِ

٦٥ الجمهورية

قالها في عهد السلطان عبد الحميد:

سوقٌ تُباعُ بها المَراتِبُ سُمِّيَتْ   دارَ الخِلافَةِ عند مَن لم يَعقِلِ

دار الخلافة: إستانبول

أَبَتِ السياسةُ أن تدومَ حُكومةٌ   خُصَّتْ بِرأيِ مُقَدَّسٍ لم يُسْأَلِ

المقدَّس الذي لا يُسأل: السلطان، فهو ليس موضع مساءلة. التسويد لعمران القفيني

إنَّ الحكومةَ، وَهْيَ جُمهورِيَّةٌ   كَشفَتَ عَمايَةَ قلبِ كلِّ مُضَلَّلِ

الحكومة، إذ تكون جمهورية، تكشف العماية، السحابة، التي تغطي قلب المضلَّلين المغرر بهم

٦٦ الأمير المأمور

قالها عند قدوم فيصل إلى بغداد (١٩٢١):

خرجَ الناسُ يُهْرَعونَ احتِفَاءً   بِقُدومِ الأميرِ غيرِ الأميرِ
مَلأُوا الشارعَ الكبيرَ لِأَمْرٍ   في كبيرِ العقولِ غيرِ كبيرِ
كيف جاءَ الأميرُ قبلَ ائتِمار الـ   ـقومِ فيما يَخْتَصُّ بِالتَّأْميرِ

ائتمار: تشاوُر

ثم سَمَّوْهُ بِالأميرِ، وهذا   مِن ضُروبِ الخِداعِ في التَّعبيرِ
أَأَميراً والآمِرونَ سِواهُ   لم يكنْ عِندهُمْ سوى مَأْمُورِ

الآمرون هم الإنجليز الذين عينوا فيصلاً ملكاً على العراق

٦٧ العهود قيوداً

لـنـا مَـلِـكٌ ولـيـس لـه رعـايـا ... وأوطـانٌ ولـيـس لـهـا حُـدودُ
وأَجـنـادٌ ولـيـس لـهُـمْ سِـلاحٌ ... ومَـمـلَـكَـةٌ ولـيـس بِـهـا نُـقـودُ
وكم عـنـد الـحـكـومـةِ مِن رجالٍ ... تَـراهُـمْ سـادةً وهُـمُ الـعـبـيـدُ
كـلابٌ لِـلأجـانـبِ هُـمْ، ولـكِـنْ ... عـلـى أبـنـاءِ جِـلـدَتِـهِـمْ أُسـودُ
ولـيـس الإنـجِـلـيـزُ بِـمُـنْـقِـذِيـنـا ... وإن كُـتِـبَـتْ لـنـا مـنـهُـمْ عُـهـودُ
متَـى شَـفِـقَ الـقَـوِيُّ على ضعيفٍ ... وكـيـفَ يُـعـاهِـدُ الـخِـرفـانَ سِـيـدُ

شفق: أشفق، سيد: ذئب

ولـكـنْ نـحـن فـي يـدِهِـمْ أَسـارَى ... ومـا كَـتَـبـوهُ مِـن عَـهْـدٍ قُـيـودُ

٦٨ الوعد الكاذب

فـعـلَ الإنـجـلـيـزُ فـيـكُـمْ فِـعـالاً ... قـد رضُـوهـا لَـكُـمْ ولـم تَـرْتَـضُـوهـا
تَـتَـشَـكَّـوْنَ فـي الـسـيـاسـةِ مـنـهـا ... ثـم أَنـتُـمْ تَـأْبَـوْنَ أن تَـرفُـضُـوهـا
وَعـدُوكُـمْ مِـن قـبـلُ مَـملَـكَـةَ الـعُـرْ ... بِ اجْـتَـلَـوْهـا بِـالـمَـيْـنِ وافْـتَـرَضُـوهـا

اجتلوها: رأوها، بالمين: بالكذب. وكان الإنجليز وعدوا الشريف حسين في سنوات الحرب العالمية الأولى مملكة للعرب يكون على رأسها، ونكثوا

قُـبَّـةٌ زُخْـرِفَـتْ لـكُـمْ بِـالأمـانـيِ ... هُـمْ بَـنَـوْهـا لـكُـمْ وهُـمْ قَـوَّضُـوهـا

٦٩ المخَّارة

قالها في واقعة (تسوشيما) البحرية بين الروس واليابان (١٩٠٤):

سَـعَّرُوهـا فـي الـبـحـرِ حربـاً ضَروسـاً ... تَـأْكُـلُ الـمـالَ نـارُهـا والـنُّـفـوسـا
قُـربَ تُـوشـيـمَ قـد تـصـادَمَ أُسْـطُـو ... لانِ أَرْدى الـيـابـانُ فـيـه الـرُّوسـا

أردى: أمات

كـلُّ مَـخَّـارَةٍ إذا حَـرَّكَـتْ دُفَّـ ... ـاعَـهـا خَـضْـخَـضَـتْ بـهِ الـقَـامُـوسـا

مخارة: سفينة تمخر عباب الماء، الدُفَّاع: السيل العظيم، القاموس: البحر.. المعنى الملموح أن السفينة عندما تتحرك بمن عليها من الجند تضعضع سطح البحر

أَلْـبَـسُـوهـا مِـنَ الـحـديـدِ وِشـاحـاً ... فَـتَـهـادَتْ عـلـى الـعُـبـابِ عَـرُوسـا

٧٠ لو أن سيفي في يدي

تعرضت برقة (في ليبيا اليوم) لغزو الإيطاليين عام (١٩١١)، وتصدى لها جنود الدولة العثمانية التي كانت تحكم بلاد العرب آنذاك، وكان مصطفى كمال أتاتورك على رأس القوة العثمانية التي أبلت بلاء حسناً، ولكن إيطاليا بمئة وخمسين ألف جندي مقابل عشرة آلاف سيطرت على كل ليبيا في خريف (١٩١٢):

يَعِزُّ علينا أهلَ بُرْقَةَ أنكُمْ ... تدورُ عليكمْ بالدمارِ رَحَى الحربِ

وأنَّا إذا ما تَستغيثونَ لم نَجِدْ ... إليكمْ على بُعدِ المسافةِ مِن دَرْبِ

وقد عَلِمَ الأعداءُ أنَّ سيوفَنا ... تَمَلْمَلُ في الأَغْمادِ شوقاً إلى الضَّرْبِ

وما نحن إلَّا الليثُ شُدَّتْ قيودُه ... وأُلْقِيَ حيَّاً شِبلُهُ في فَمِ الذئبِ

٧١ عذر المدبرين

في الحرب العثمانية الإيطالية في ما سيعرف بـ «ليبيا» (١٩١١):

لَئنْ أَدبَرَ الطِّلْيانُ عند كفاحِنا ... فإنَّ لَهُمْ في بَطشِ شجعانِنا عُذرا

أدبر: فر، لشدة بطش جنودنا فالإيطاليون معذورون أنهم فروا من القتال

فإنَّا لَقومٌ إن نَهضْنا لِحادِثٍ ... مِن الدهرِ أَفْزَعنا بِنهضَتِنا الدهرا

ونأكُلُ مُرَّ الموتِ حتى كأنَّنا ... نَلوكُ به ما بينَ أضْراسِنا تَمْرا

وكم قد نَثَرنا بِالسيوفِ جماجماً ... نَظَمْنا بِها فوق الثَّرى لِلعِدَى شِعْرا

وهلْ حَسِبُوا قتلَ النِّساءِ شجاعةً ... وقد تَركُوا عند الرجالِ لَهُمْ ثَأْرا

يَعِزُّ على أَسيافِنا اليومَ أنَّها ... تُقارعُ قوماً قَرْعُهُمْ بِالعَصا أَحْرَى

الواقع أن الدولة العثمانية سلمت ليبيا بعد كفاح طويل للمملكة الإيطالية في معاهدة لوزان الأولى في أكتوبر/تشرين الأول ١٩١٢

ومِنْ مُبْكِياتِ الدهرِ أو مُضْحِكاتِهِ ... لدى الناسِ: حُرٌّ لم يَكُنْ خَصْمُه حُرَّا

سَنَثْأَرُ حتى تَسأَمَ الحربُ ثَأْرَنا ... ونقتلُ عن كلِّ امْرِئٍ أَنْفُساً عَشْرا

وعلى ذكر العشرة فإن المحتلين الإيطاليين طبقوا في ليبيا أثناء ثورات الشعب عليهم ممارسة رومانية قديمة ـ حسب التافهون أنهم حقاً ورثة الإمبراطورية الرومانية ـ هي التعشير البشري، فكانوا يصفون رجال المقاومة صفوفاً ويعدونهم واحداً واحداً ويقتلون كل عاشر تأديباً

٧٢ الشعر الواضح

أَلا لا اهْتَدَتْ لِلشّعرِ يوماً هَواجِسي إذا هِيَ لم تَنْزعْ إلى مُسْتَبِينِهِ

ليجعل الله هواجسي، وأفكاري، لا تهتدي إلى الشعر إن هي لم تنزع، وتمِلْ، نحو الشعر الواضح المستبين

ولا غُصْتُ في بَحرِ القَريضِ مخاطِراً إذا لم أَفُزْ مِن دُرّهِ بِثَمينِهِ

إذا انتَظَمَتْ أبياتُه في قصائدي ترى كلَّ بيتٍ مُمْسِكاً بِقَرينِهِ

وما كانَ دَوْحُ الشعرِ يوماً لِتُجْتَنَى بِغيرِ اليدِ الطُّولَى ثِمارُ غُصونِهِ

دوح الشعر، شجرته، لا تقطف ثماره إلا بيد طويلة.. أي من جانب شاعر قدير

ولِلشّعرِ عَينٌ لو نَظرْتَ بِنورِها إلى الغَيبِ لاسْتَشْفَفْتَ ما في بُطونِهِ

فكمْ بِتُّ في نَهْرِ المَجَرَّةِ في الدُّجَى مِنَ الشّعرِ أُجْري مُنشآتِ سَفينِهِ

كنت أبات ليلاً في نهر المجرة، محلقاً بخيالي بين النجوم، وأنا أسير في هذا النهر منشآت سفن الشعر، أي سفنه العالية الأشرِعة

هُوَ الشعرُ لا أَعتاضُ عنهُ بِغيرِهِ ولا عن قوافيهِ ولا عن فُنونِهِ

٧٣ الأرملة المرضعة

لَقيتُها ليتني ما كنتُ أَلقاها تَمشي وقد أثقَلَ الإملاقُ مَمشاها

الإملاق: الفقر

أثوابُها رَثّةٌ والرِّجْلُ حافِيةٌ والدمعُ تذرِفُهُ في الخَدِّ عيناها

رغم تسويدي لهذا البيت الرقيق، فعمران القفيني يقول: (شكراً على هذه المعلومة، أول مرة نعرف أن الدمع يذرف، لا بل من العينين، وفوق ذلك يسيل على الخد.. ما شاء الله)

بَكتْ مِن الفقرِ فاحمرَّتْ مدامِعُها واصفرَّ كَالوَرْسِ مِن جوعٍ مُحَيَّاها

الورس: الكركم، نبات أصفر يصبغون به الطعام. وفيه بعض مرارة. وصبغوا الأرز بالعُصفُر، وبالزعفران

ماتَ الذي كان يَحميها ويُسعِدُها فالدهرُ مِن بَعدِهِ بِالفقرِ أَشقاها

الموتُ أَفْجَعَها، والفقرُ أَوْجَعها، والهَمُّ أَنحَلَها، والغَمُّ أَضْناها

أنحلها: جعلها نحيلة

تَمشي بِأطمارِها والبردُ يَلسَعُها ... كأنه عَقْرَبٌ شالَتْ زُبَاناها

الأطمار: الأسمال.. الملابس المهترئة، شالت: رفعت، زباناها: الزبانى أداة اللسع في ذيل العقرب

حتى غَدا جسمُها بِالبردِ مُرتَجِفاً ... كالغُصنِ في الريحِ، واصطكَّتْ ثناياها

ثناياها: أسنانها

تقولُ: يا رَبِّ لا تَتْرُكْ بِلا لَبَنٍ ... هَذي الرَّضيعَةَ وارحمني وإيَّاها

يا رَبِّ ما حيلَتي فيها وقد ذَبُلَتْ ... كزهرةِ الرَّوضِ فَقْدُ الغَيْثِ أَظْماها

ما بَالُها وَهْيَ طولَ الليلِ بَاكيةٌ ... والأُمُّ ساهِرَةٌ تَبكي لِمَبْكاها

يَكادُ يَنْقَدُّ قلبي حين أنظُرُها ... تبكي وتَفتَحُ لي مِن جُوعِها فاها

ينقد: يتقطَّع

كانتْ مصيبَتُها بِالفقرِ واحدةً ... وموتُ والدِها بِاليُتْمِ ثَنَّاها

هذي حِكايةُ حَالٍ جِئتُ أذكُرُها ... وليس يخفَى على الأحرارِ مغزاها

أَوْلَى الأنامِ بِعطفِ الناسِ أرملةٌ ... وأَشرفُ الناسِ مَن في المالِ وَاساها

٧٤ أرذل العمر

واهاً على شَرْخِ الشبابِ المُشتَهى ... خَلَّفَ ذِكراهُ بِقلبي ومَضى

أَطْيَبُ عَيْشِ المرءِ في شبابِه، ... فَإنْ تَولَّى فَهْوَ عيشٌ مُزْدَرَى

وهل يَطيبُ العيشُ لِلْهِمِّ الذي ... إنْ هَمَّ بِالنَّهْضَةِ خَانَتْهُ القُوى

الهم: الشيخ، المسن

وإنَّ ظَهرَ الأرضِ يَستَثْقِلُ مَنْ ... قامَ يَدِبُّ فوقَها على العَصا

٧٥ يقيني يقيني

أَيا بَغدادُ لا جازَتْكِ سُحْبٌ ... ولا حَلَّتْ بِساحَتِكِ الجُدوبُ

يدعو الله ألا تتجاوز الغيوم بغداد بل تجودها بالمطر، وألا يحل بها الجدب، القحط

تَطاوَلَ ساكِنوكِ عَليَّ ظُلماً ... فَضاقَ عليَّ مَغناكِ الرَّحيبُ

مغناك: ربعك، والمغاني هي الربوع

رَماني القومُ بِالإلحادِ جهلاً ... وقالوا عنده شَكٌّ مُريبُ

فَمَنْ ذا منكُمُ قد شَقَّ قلبي وهل كُشِفَتْ لكُمْ فيَّ الغُيوبُ
فَعِندَ اللَّهِ لي مَعَكُمْ وُقوفٌ إذا بلغتْ حَناجِرَها القلوبُ

تبلغ القلوب الحناجر في يوم القيامة

يَقيني شَرَّ فِرْيَتِكُمْ يَقيني بِأنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ رَقيبُ

يحفظني من شر افترائكم عليَّ يقيني، إيماني، بأن الله يعلم كل شيء

٧٦ ذكرى المتنبي

ألقاها في الجامعة الأميركية ببيروت (١٩٣٥):

لو حازَ مُوسى مَضاءَ عَزْمَتِهِ ما تَاهَ في التِّيهِ عندما دَخَلَهْ

لو امتلك موسى عزيمة المتنبي لما تاه في التيه، أي صحراء سيناء. وكان المتنبي قطع هذه الصحراء فاراً من كافور، وافتخر بذلك

كَمْ شاعرٍ قد قَفا له أثراً وناقدٍ راحَ يبتَغي زَلَلَهْ

اقتفى الشعراء أثر المتنبي وقلدوه، وانتقده المنتقدون طالبين له زللاً، غلطاً

فأخفقوا عاجِزينَ عن دَرَكٍ لِبعضِ ما كُلُّهُ تَيَسَّرَ لَهْ

عجزوا عن إدراك بعض المجد الذي حازه كله المتنبي

٧٧ أنشودة للمعري

في ذكرى أبي العلاء المعري (١٩٣٨):

حَيَّهَلْ يا أخَا مُضَرْ نَدَّكِرْ خيرَ مُدَّكَرْ

يا أخا مضر، أيها العربي، هيا نذكر خير من هو جدير بالذكر

نَدَّكِرْ شاعرَ البَشَرْ خيرَ مَن قالَ وافتَكَرْ

* * *

نَفْسُهُ وَهْيَ ثائِرَةْ تَرَكَتْ غيرَ خاسِرَةْ
كُلَّ دنيا وآخِرَةْ ونَفَتْ كلَّ ما اسْتَقَرْ

نفس أبي العلاء تركت الدنيا والآخرة، ونفى عقله كل المعتقدات التي استقر عليها الناس، (فأبو العلاء، وارجع إلى شرحنا لحياته ولشعره في كتابنا «تألق الشعر» ترك الدنيا لأهلها، ولم يعلق كبير أمل على الآخرة. ولم نقل في مقدمتنا لشعر الرصافي قبل صفيحات إنه كان كذلك، فها نحن نقول: كان كذلك في عدم تعليقه أملاً على الآخرة،

فأما عن ملذات الدنيا فصاحبنا نهل وعلَّ منها). استقرْ: هي استقرّ بتشديد الراء، وفي موضع كهذا، عند القافية، كان أبو العلاء يكره وضع الشدة، ونحن في العادة نضعها كي يدرك القارئ الكلمة بالنظر سريعاً، ولكننا هنا ـ إكراماً لأبي العلاء ـ رفعناها

* * *

جَـعَـلَ الـحـقَّ ذَوْقَـهُ بَـاذلاً فـيـهِ طَـوْقَـهُ

طوقه: طاقته

شَـاعـرٌ لـيـس فَـوقَـهُ شـاعـرٌ مِـن بَـنـي الـبَـشَـرْ

* * *

لـيـس لِـلـمـوتِ عـنـدَهُ مِـن تَـقـارِيـعَ بَـعـدَهُ

تقاريع: عقاب وتأنيب

إنْ عَـرا الـحَـيَّ رَدَّهُ فـاقِـدَ الـحـسِّ كـالـحَـجَـرْ

إن عرا الموت الحي، أي جاء الموت للإنسان، رده، أي جعله، فاقد الحس فكأنه حجر

* * *

نـحـن أَسْـرى ذَواتِـنـا خَـشْـيَـةً مِـن مَـمـاتِـنـا

نحن أسرى لذواتنا التي تعلق آمالاً على الخلود وذلك لشدة خشيتنا من الموت

كـم وكـم فـي حـيـاتِـنـا مُـبـتَـدا مَـا لـهُ خَـبَـرْ

فنحن نقول كل شيء له أول وله آخر، لذا لا بد من وجود حياة أخرى، ولكن، يقول الرصافي، كثيرة هي الأمور التي لها أول وليس لها آخر

٧٨ الأرض مسجدنا

الأرضُ مسجدُنا ففيمَ مَساجدٌ أَمِسْتْ تُعَدُّ اليومَ بِالآلافِ؟

كانَ الصلاةُ بِمسجدٍ وبِغيرِه في الحكمِ واحدةً لدى الأسلافِ

هلَّا جُعِلْنَ مدارساً فيَّاضةً مِن كلِّ علمٍ بِالزُّلالِ الصافي

هلا بنيتم المدارس بدل المساجد

ينتابُها أبناؤكُمْ كي يأخذُوا مِن كلِّ فنٍّ بالنصيبِ الوافي

٧٩ أمَّة وحدها

أمُّ كُلثومَ في فنونِ الأغاني أمَّةٌ وحدَها بهذا الزمانِ
هِيَ في الشرقِ وحدَها ربَّةُ الفَنِّـ فما إنْ لِلفَنِّ رَبٌّ ثانِ

٨٠ الاحتشام العاري

زهرةٌ قد بَدَتْ مِن الأكمامِ فتَجلَّى منها الجمالُ السامي

هذه الفتاة كزهرة بدت بين أكمامها، بتلاتها، فتجلى جمالها

إنَّ تجريدَها مِن الثوبِ يَحكي أنْفُساً جُرِّدَتْ مِن الآثامِ
إنَّ قُدْسَ الأقداسِ يَغضَبُ مِن أنْ تَتوارى وَسامَةُ الأجسامِ
خَلَعَتْ ثوبَها وأَغْضَتْ حياءً فَأَرَتْنا خَلاعَةً في احتِشامِ
لِسُقوطِ الرِّداءِ عن مَنكِبَيْها نهضَ الفنُّ قائماً باحترامِ

يبدو أنه يصف لوحة لعارية

٨١ المتربص

وما غَرَّني ذو ظاهرٍ مُتوَدِّدٍ إذا كان فيه باطنٌ مُتَلَصِّصُ
ويا رُبَّ وجهٍ لم يَرُقْني بَياضُهُ فلمَّا دنا مِنِّي إذا هُوَ أَبْرَصُ

رب وجه أراه من بعيد أبيض ولكنني لفراستي أحس أنه لا يعجبني فلما دنا مني إذا الشخص أبرص، فبياضه بياض علة لا بياض جمال

دعُوا كشفَ مَكنونِ الصُّدورِ لِفِطْنَتي فإنِّي بِذا مِن دونِكُمْ متخَصِّصُ
ذكاءٌ لو اجْتَزْتُ الجِدارَ بِنُورِهِ لَشَفَّ لِعينيَّ الجدارُ المُجَصَّصُ

المجصص: المطلي بالجبصين

على أنَّ لي في معرِضِ الشَّكِّ رَبْصَةً ورُبَّ يَقينٍ نالَهُ المُتَرَبِّصُ

إذا شككت في أمر فإن لي ربصة، وقفة للتروي، والمتروي يحصل على اليقين

٨٢ تعصب في مصر

مِن جَوْرِ مصرَ على العُروبَةِ أنَّها تتعمَّدُ التَّمصيرَ في آدابِها
فترى بمصرَ تعصُّباً لِأَديبِها متحَكِّمَ النَّزَغاتِ في أعصابِها

النزغات: الوساوس

فاذكُرْ أُولِي الآدابِ مِن غيرِ الأُلَى   في مصرَ يَغضَبْ منكَ أَهْلُ جَنابِها

جنابها : منطقتها

فالشاعرُ المصريُّ فيها فَاضِلٌ   وسِواهُ مَفضولٌ وإنْ يَكُ نابِها

٨٣ المختصر

لِسانُكِ يَسحرُ في ظَرْفِهِ   وجَفنُكِ يَفتِنُ في ضَعفِهِ

وقَدُّكِ يَخطِرُ في لُطْفِهِ   فَيُطْنِبُ رِدفُكِ في وَصْفِهِ

ويُوجِزُهُ خَصْرُكِ المُخْتَصَرْ

يطنب : يكثر القول

٨٤ النجوم الهاربة

والليلُ قد طالَ على مَن شَتَا   وصارَ ليلاً بارداً مُظلِما

لعلَّ هذا الرعدَ مُذْ صَوَّتا   هَرَّبَ مِنهُ تِلكُمُ الأَنْجُما

٨٥ أموت غراماً

اِسْمعِي لِي قبلَ الرحيلِ كلاما   ودعِيني أَموتُ فيكِ غَراما

كلَّما زادَ عاذِلِي فيكِ عَذْلاً   زِدْتُ في حُسْنِكِ البديعِ هُياما

٨٦ العصية على القياس

وصاحٍ وَجَّهَ النُّدَماءُ كأساً   إِليهِ فقالَ لَستُ لَها بِحاسِ

رب رجل صاح غير سكران، أعطاه الندماء كأساً فقال لست حاسياً، شارباً

وغَالَى في الإِباءِ فَمَارَسُوهُ   فَلانَ أَبِيُّهُ بعدَ المِراسِ

بالغ في الرفض لكنهم مارسوه، ألحوا عليه، فلان أبيه، ما كان رافضاً الكأس في نفسه

فقالَ، وقد مَشَتْ فيهِ ودَبَّتْ   دَبيبَ الماءِ في وَرَقِ الغِراسِ

مشت الخمر في جسمه كما يمشي الماء في ورق الشجر

لَعَمْرُكَ إنَّ في الصَّهْباءِ مَعنىً   دَقيقاً ليس يُعرَفُ بالقِياسِ

في الخمر شيء لا يدركه المرء بأن يقارنه بمفعول شيء آخر. . فيها شيء فريد

٨٧ المتكَهْرِب

قامتْ تَميسُ بِأعطافٍ وأوْراكِ ... رَقصاً على نغماتِ المِقْوَلِ الحاكي

أعطاف: خصور، المقول: اللسان في الأصل، وكل ما يصدر كلاماً، الحاكي: البيك أب، الفونوغراف

قالتْ وقد شاهدَتْ وَجدي المُبَرِّحَ ما ... أَغراكَ؟ قلتُ لها: عيناكِ عيناكِ

فاستضحَكَتْ وَهْيَ تَجْني الوردَ قائلةً ... ما أحسنَ الوردَ! قلتُ: الوردُ خَدّاكِ؟

وقلتُ: أَهوى، فقالتْ بِالدلالِ: ومَن ... تَهوى؟ فقلتُ لها: إِيّاكِ إِيّاكِ

الحسنُ يَفتِنُ والألحاظُ فاتِكَةٌ ... واحَيْرتي بين فَتّانٍ وفَتّاكِ

أَمسى غرامُكِ يَجري في عُروقِ دَمي ... كالكَهرَباءِ التي تَجري بِأَسْلاكِ

تعليق عمران القفيني: (هذا ملطوش من البارودي لطشاً ذريعاً: وسرت بجسمي كهرباءة حسنه/ فمن العروق بها سلوك تخبر)

٨٨ تحية الوفد المصري

رجالَ النيلِ حُيِّيتُمْ رِجالاً ... بِما لِلعُرْبِ فيكُمْ مِن سِماتِ

بِكُمْ طَرِبَ الفراتُ وقالَ جَهْراً ... لِوادي النيلِ إنَّكَ مِنْ لِداتي

لداتي: رفاقي المولودون في زمن معي، أترابي

كِلانا جَارِيانِ على سُهولٍ ... بِأبناءِ العُروبَةِ آهِلاتِ

وتَجمَعُنا جَوامِعُ كُبرياتٌ ... وأَكْبَرُهُنَّ سَيِّدَةُ اللُّغَاتِ

٨٩ بمنتهى الدقة

مَثَلَتْ في دَلالِها عُريَانَهْ ... فأَرَتْني محاسناً فَتّانَهْ

حيثُ طارَحْتُها الغرامَ بِبيتٍ ... بالمرايا قد زَوَّقوا جُدْرَانَهْ

ما أرى البيت إلا حجرة في مبغى. وقال الزيات إن الرصافي كان يسكن في بغداد في حي البغايا

هِيَ غَمّازَةُ اللِّحاظِ لَعوبٌ ... ذاتُ دَلٍّ ظَريفَةٌ لَحّانَهْ

لحانة: تتكلم بدلال وتلوي الكلمات ليّاً. لو كنت أشرح هذا لشخص سويدي لاضطررت لكثير من الكلام، ولكنك فاهم ما أعني!

بَـضَّـةٌ، فَـعْـمَـةٌ، لَـمِـيسٌ، رَدَاحٌ   غَـادةٌ، أَحْـوَرِيَّـةٌ، بَـهْـنَـانَـةْ

بضة: طرية، فعمة: ممتلئة، لميس: لينة، رداح: سمينة الأرداف، غادة: ناعمة، أحورية: بيضاء، بهنانة: مرحة

نَاهِدُ النَّوْدَلَيْنِ مَحْطُوطَةُ المَتْـ   ـنَيْنِ، خَوْدٌ، رَجْرَاجَةٌ، وَرْكَانَةْ

النودلان: الثديان، محطوطة المتنين: مصقولة الظهر على جانبي العمود الفقري، خود: ناعمة، رجراجة: تمشي وتهز، وركانة: ممتلئة الوركين

خَدْلَةٌ سَاقُها، مُهَفْهَفَةُ الخَصْـ   ـرِ، كَعَابٌ، بَرَّاقَةٌ، سَيْفَانَةْ

خدلة ساقها: ساقها ممتلئة، مهفهفة الخصر: ضامرة البطن، كعاب: بارزة الصدر، براقة: ذات دلال تشير للرجال، سيفانة: طويلة

ذاتُ وَجْهٍ كأَنَّهُ بَدْرُ تِمٍّ   وقَوام كأَنَّهُ خَوْطُ بَانَةْ

خوط بانة: غصن شجرة البّان

لو رآها كِسرى الملوكِ لَخَلَّى   مُلْكَهُ تاركاً لها إِيوانَهْ

وتدلَّى قُرْطٌ بِسالِفَتَيْها   رُصِّعَتْ فيهِ مَاسَةٌ بِجُمَانَةْ

الجمان: شذرات فضة على شكل اللؤلؤ

وَقَفتْ لي عُريانَةً فتقدَّمْـ   ـتُ إليها بِذِلَّةٍ واستِكانَةْ

فَتَمَشَّتْ تَخَلُّعاً، وتَثَنَّتْ،   وتَلَوَّتْ كأنَّها خَيْزُرانَةْ

ثم صَدَّتْ فأدبَرَتْ عن دَلالٍ   ثم عادتَ فأقبلَتْ عن مَجَانَةْ

المجانة: الفحش وترك الحياء

ولقد راعَنِي، وزادَ فؤادي   وَلهاً ما رأيتُ تحتَ المَثانَةْ

رَكَباً، كَعْثَباً، عَضُوضاً، مَصُوصاً،   ناشِزاً، ذا بَضاضَةٍ ورَزَانَةْ

يصف ما لا يصفه المتحرج من المرأة، وكل تلك أسماء لذلك العضو

مُشْرِفَ السطحِ، رَابِئاً، ذا انتِصابٍ،   حامِيَ الجَوْفِ، ضَنْكَهُ، رَيَّانَهْ

رائباً: بارزاً، ضنك: ضيق، ريان: ممتلئ

قد حَكَى كَوْمَةً مِنَ اللُّؤْلُؤِ الرَّطْـ   ـبِ وإنْ كانَ فائِقاً أَثْمانَهْ

حكى: أشبه

نِعمَةُ العيشَ أَتْرَفَتْهُ، وأَخْلَتْ   أَسْكِتَيْهِ مِن الأَذى، وعِجَانَهْ

الأسكتان: الشفران، خاليان من الأذى: أي من البرص، والعجان: ما بين السبيلين

عَطِرُ الريحِ، قد تَشَمَّمْتُ منهُ إذْ تَشَمَّمْتُهُ شَذَا أُقْحُوانَةْ

الريح: الرائحة

وشَرِبْتُ الرَّحيقَ وَهْوَ تِجاهي جَائِمٌ فَاتَّخَذْتُهُ فِنجَانَهْ

لو رآهُ العِنِّينُ يوماً لَأَمْسى مُبْرَأً مِن رَخَاوَةٍ وعَنَانَةْ

سَلِسَتْ في انْقِيادِها بعد أن قد أظهرتْ لي تَمَنُّعاً وحَصَانَةْ

فَدَعتْني إلى الكفاحِ بِغَمْزٍ كَرَّرَتْهُ مِن عينِها الوَسْنَانَةْ

فتَعَرَّيْتُ مِثلَها ثم أشْرَعْتُ إلى الطَّعْنِ صَعْدَةً مُرَّانَةْ

الصعدة: الرمح، المرانة: الرمح

فَرَمَتْ كَفَّها على ذَلِكَ الدَّوْسَرِ كَيْما تَشُوصَهُ بِالبَنَانَةْ

الدوسر: المسمار، يشوص: يدلك، البنانة: الأصابع

وغَدَتْ في تَجَضُّمٍ وامْتِلاجٍ بِشِفاهٍ وَرْدِيَّةٍ، غَيْسانَةْ

التجضم: الأخذ بالفم، الامتلاج للصبي: مص ثدي الأم

ثم أَضْجَعْتُها على الأرضِ واعْرَوْرَيْتُ منها مَطِيَّةً خَيفانَةْ

اعرورى فرسه: ركبها بلا سرج، خيفانة: الفرس الخفيفة

فَتَبَطَّنْتُها وقد أَخَذَ الشَّاقُولُ مِنْ ذلكَ المَحَلِّ مَكانَهْ

الشاقول: من اسم عضو التذكير

واضِعاً فَايَ فوقَ فِيها وكلٌّ قد أَمَصَّ الضَّجيعَ منهُ لِسانَهْ

فالتَصَقْنا صدراً بصدرٍ، وبطناً فوق بطنٍ، وعانةً فوقَ عانَةْ

فَغَدَتْ في ارْتِهازِها تَتَلَكَّا بِكلامٍ لا تَسْتَتِمُّ بَيَانَهْ

رهز: هزَّ

ثم قالتْ وقد ذَوَتْ مُقلَتَاها وشكَتْ مِن فُؤادِها خَفَقانَهْ

أَطْعَنُ الطَّاعِنينَ لِلضَّأْدِ مَنْ بِالضَّادِ قد أَنطَقَ الإلهُ لِسانَهْ

الضأد: عضو التأنيث

٩٠ المهندس يتأمل

كلُّ القصورِ عبيدٌ وَهْوَ سيِّدُها إذ كان أكرمَها صُنعاً وبُنيانا

هذا قصر شيراغان على البسفور

يمشي المهندسُ فيه وَهْوَ ينظُرُهُ مَشْيَ المُقَيَّدِ يستقصيهِ إمعانا

ومهندس القصر، الأرمني باليان، يمشي ببطء كأنه مقيد ويتأمل بديع ما صنعت يداه

يَضُمُّ كفَّيْهِ لِلإبْطَيْنِ مُنْبَهراً مُقَلِّباً في الأعالي منه أَجْفانا

لو كان عرشاً لِبِلْقيسٍ لَمَا خَضَعَتْ لِلأمْرِ حين أتاها مِن سليمانا

فلو رأيتَ وقد شَبَّ الحريقُ به والريحُ تَصْفِقُ لِلنيرانِ أَرْدَانا

أردان: أكمام، كأن الريح إذ تلعب بالنيران شخص يحرك أكمامه الواسعة

رأيتَ مُلْكاً كبيراً ثَمَّ مُحترقاً يُذيبُ منهُ لَهيبُ النارِ عِقْيانا

العقيان الذهب. وقد حدث الحريق بعيد الدستور وخلع السلطان عبد الحميد. وهذا القصر أصبح اليوم فندقاً، وأجرة الليلة الواحدة للجناح السلطاني فيه ٣٥ ألف دولار (من ويكيبيديا. حتى لا يحسب أحد أنني فعلتها)

٩١ الصادق الوحيد.. الخورنق

لقد خامَرَتْني في الزمانِ وأَهلِهِ شكوكٌ عليها يُعْذَرُ المُتَزَنْدِقُ

الشكوك التي خامرتني، انتابتني، في الزمن والناس كبيرة إلى درجة أن الزنديق بالمقارنة بها يصبح معذوراً، فشكوكه أقل من شكوكي

أرى الدهرَ في أمرَيْنِ يَعملُ دائباً صَناعَ اليَديْنِ فيهِما يَتَأَنَّقُ..

الزمن يعمل عملين وهو فيهما صناع اليدين، ماهر، ومتأنق..

يجدِّدُ لِلمَوْتى مَناقِبَ لم تكنْ لديْهِمْ، ولِلأحياءِ يُبْلي ويُخْلِقُ

مرور الزمن يكسب الموتى مناقب، محامد، لم تكن أصلاً موجودة فيهم، ويبلي ويخلق، يتلف، الأحياء لأنهم يكبرون ويمرضون

فكم مِن قبورٍ عَظَّمَ الناسُ أهلَها بما لم يكنْ عند النُّهَى يَتحقَّقُ

قبور كثيرة يبجل الناس أصحابها، ولكن لأمور غير حقيقية في النهى، العقول

ورُبَّ امْرِئٍ قد عاشَ يستَقْطِرُ الثَّنا فلما قَضى سالَ الثَّنا يَتَدفَّقُ

رب شخص عاش يستجلب الثناء من الناس قطرة بعد قطرة، فعندما مات تدفق عليه الثناء والمديح

سَقى الدهرُ لِلأمواتِ غَرْسَ مَناقِبٍ بِمَيْنٍ فظلَّ الغَرْسُ ينمُو فَيَبْسُقُ

الزمن يسقي للأموات أشجاراً من الحسنات بمين، بكذب، وتظل هذه الأشجار تنمو وتبسق، تعلو

إذا شَطَّ جيلٌ خَطَّ مَن جاءَ بعدَهُ أَكاذيبَ عنهُ بِالثَّناءِ تُزَوَّقُ

شط: بعُد

فما كُتُبُ التَّأريخِ في كلِّ ما رَوَتْ   لِقُرَّائِها إلَّا حديثٌ مُلَفَّقُ
نَظرنا لِأمرِ الحاضِرينَ فَرابَنا   فكيفَ بِأَمْرِ الغابِرينَ نُصَدِّقَ

نظرنا في سيرة الموجودين فرابنا ما رأينا، شككنا فيه، فكيف سنصدق ما يروى عن الغابرين، الذاهبين

وهل قد خُصِصْنا دونَ مَن ماتَ قَبلَنا   بِخُبْثِ السَّجَايا؟ شدَّما نَتَحَمَّقُ!

فهل السجايا الخبيثة، الصفات السيئة، لنا نحن، ولم يكن للميتين مثلها؟ ما أشد حمقنا!

خليليَّ هل مَن بِالرُّصافَةِ عالِمٌ   بِأَنِّي إلى مَن بِالرُّصافَةِ شَيِّقُ

يا صاحبيَّ هل يعلم أحد في الرصافة، الشاطئ الشرقي لدجلة في بغداد، أنني مشتاق إلى من بالرصافة

إذا ما تَذَكَّرْتُ العَجوزَ بَكَيْتُها   بِدمعٍ به الأهدابُ تَطفُو وتَغرَقُ

أتذكر أمي فأبكي بدموع تطفو فوقها أهداب، رموش، العين، ثم لكثرة الدموع تغرق هذه الأهداب فيها

لَحى اللّهُ قوماً لا يعيشُ بِأَرضِهِمْ   سوى مَن يُداجيهِمْ، ومَن يَتَمَلَّقُ

لحى الله، لعن، قوماً لا يعيش بينهم مرتاحاً إلا من ينافقهم ويتملق لهم

ولم يَحْظَ إلَّا اثنانِ منهُمْ بِحُظْوَةٍ   مِن المالِ مُثْرٍ، أَو مِن العِرضِ مُمْلِقُ

الذي يحظى بالقبول عند الناس واحد من اثنين: ثري، أو فقير في العرض والشرف

قتلتُ الورى خُبراً فليس بِخادِعي   حديثٌ مُطَرَّىً أو كلامٌ مُنَمَّقُ
هَذَاذَيْكَ! لا تَحْفِلْ مَقالَ مُؤَرِّخٍ   ولا يَسْتَفِزَّنْكَ الكلامُ المُشَقَّقُ

هذاذيك: قف! قف! واسمعني، لا تحفل بكلام المؤرخين، ولا تشعر بحماسة واستفزاز من الكلام المشقق: المنمق

كِذابٌ على وَجْهِ الطُّروسِ مُسَطَّرٌ   يَغَصُّ به العقلُ السليمُ ويَشْرَقُ

هذا كله كذاب، كذب، مسطر على الطروس، الأوراق، ولا يقبله العقل السليم بل يغص به ويشرق، أي يلفظه ويرفضه

فدعْ عنكَ لَغْوَ النَّاطِقينَ وخُذْ بِما   رَواهُ مِن الآثارِ ما ليس يَنطِقُ
فإنْ ذَكَرُوا النُّعمانَ يوماً فلا تَثِقْ   بِأَكْثَرَ مِمَّا قالَ عنه الخَوَرْنَقُ

لا تصدق الروايات التي يوردونها عن الملك النعمان، إلا ما بقي من أثر ملموس من قصره المعروف «الخورنق»

فأَصدَقُ منهُمْ في المسامِعِ لَهْجَةً ضَفادِعُ في المستنقعاتِ تُنقْنِقُ
مَلكتُ مِن الدنيا حقيقةَ أهلِها وإنّي على الدنيا بِها أَتَصَدَّقُ

٩٢ السكران بمجد زائل

أَلَا فاذْكُروا يا قومُ أَرْبُعَ مجدِكُمْ فقد دَرَسَتْ إلَّا بَقِيَّةَ أطلالِ
أربع: ربوع، درست: بليت

وما أنْتُمُ إلَّا كَسَكْرانَ طَافِحٍ تَحَسَّى مِن الصَّهباءِ عَشْرَةَ أرطالِ
كانوا يقيسون الشراب بالرطل ولعله كأس كبيرة

مَشى بِارْتِعاشٍ في الطريقِ فتارَةً يقومُ، وأُخرى يَنْهَوِي فوقَ أَوْحَالِ
يَمُدُّ إلى الجُدرانِ كَفَّ اسْتِنَادِهِ فتقذِفُهُ الجدرانُ قَذْفَةَ إذْلالِ
ويَفتَحُ لِلطُّرَّاقِ مُقْلَةَ حَانِقٍ فَيُغمِضُها خَزيانَ عن شَتْمِ عُذَّالِ
هذا السكران يفتح عينه بحنق وغضب للطراق، المشاة في الطريق، ثم يغمضها بخزي وذل إذ يسمع شتم من يلومونه. القصيدة طويلة جداً ويروي فيها الرصافي سيرة الطبيب القديم أبي بكر الرازي

٩٣ سقوط عبد الحميد

لقد جمعُوا الجُموعَ فَمِنْ نَصارى ومِنْ هُودٍ هناكَ ومُسلِمينا
جمع قادة المعارضة في سلانيك باليونان، وكانت تحت الحكم العثماني، جموع الجند لكي يردعوا السلطان الذي تراجع عن الدستور

فكانوا الجيشَ أُلِّفَ مِن جنودٍ مُجَنَّدَةٍ ومِن مُتطوِّعينا
تراهُمْ فيه مُتَّحِدينَ عزماً وما هُمْ فيه مُتَّحِدينَ دِينا
ولما جَدَّ جِدُّهُمُ استَقَلُّوا على ظهرِ القطارِ مُسافِرينا
فلم يَتَصَرَّمِ الأُسبوعُ إلَّا وهُمْ بِرُبا فَرُوقَ مُخَيِّمُونا
لم يمض أسبوع حتى نصبوا خيامهم في ربا فروق، من أسماء إستانبول

هنالِكَ قمتُ مُرتَحِلاً إليهِمْ لِأُبْصِرَ ما أُؤَمِّلُ أنْ يكونا
وبَاخِرَةٍ عَلَتْ في البحرِ حتى حَكَتْ بِعُبابِهِ الحِصنَ الحَصينا
وفي الميناء رست باخرة ذات مداخن عالية كأنه الحصن المنيع في عباب البحر

يُؤَثِّرُ جَريُها في البحرِ أثراً   تكادُ به تَظُنُّ الماءَ طِينا

ترك سير الباخرة أثراً في الماء يدوم بعض الوقت فكأن الماء طين

ركبتُ بها على اسمِ اللَّهِ بحراً   غدا بِسُكونِ لُجَّتِهِ رَهِينا
أَتَيْنا دارَ قُسْطَنطِينَ صُبحاً   وقد فُتِحَتْ لَهُمْ فتحاً مُبينا

دار قسطنطين: القسطنطينية، إستانبول

وظَلَّ الجيشُ جيشُ اللَّهِ يَشْفي   بِحَدِّ سيوفِه الداءَ الدَّفينا
وحَطُّوا قصرَ يِلْدِزَ عن سماءٍ   له فانحَطَّ أسفَلَ سافِلينا
هوى عبدُ الحميدِ بهِ هُوِيّاً   إلى دَرَكِ الملوكِ الظالمينا

أسقطوا السلطان عبد الحميد فهوى ليكون مع الظالمين

وأُنزِلَ عن سريرِ المُلْكِ خَلْعاً   وأُفْرِدَ لا نديمَ، ولا قرينا
فَسِيقَ إلى سَلانيكَ احتِباساً   لَهُ كَيْ يَستريحَ بِها مَصُونا

أخذه المعارضون من الجيش إلى سلانيك باليونان، وحبسوه في قصر هناك

وموتُ المرءِ خيرٌ مِن مُقامٍ   له بين الذين سَقَوْهُ هُونا
لقد نَقَضَ اليمينَ وخانَ فيها   فذاقَ جزاءَ مَن نقضَ اليَمينا
فقَرَّتْ أعينُ الدستورِ أمْناً   وشاهَتْ أوجُهُ المُتَمَرِّدينا

٩٤ المقيدون بأوجالهم

لِمَنِ القصرُ لا يُجيبُ سؤالي   آهِلاتٌ ربوعُه أم خَوالِ؟

لمن هذا القصر؟ وما له لا يجيب سؤالي؟ هل ربوعه مسكونة آهلة أم خالية مهجورة؟

ما تَداعَى مِنكَ البِناءُ، ولكنْ   قد تَداعَى بناءُ تلكَ المعالي

ما تداعى، تهدم، بناؤك، ولكن ذلك المجد قد انهدم

كنتَ مَأوَى العُلا مَثارَ الدَّنايا   مَهبِطَ العِزِّ، مَصدَرَ الإذلالِ

كان فيك العلا، المجد، وكنت مثار الدنايا، سبب الرذائل، وكنت مهبط، موضع، العز، ومصدر الإذلال للناس.. كنت كل هذا يا قصر يلدز

أينَ خاقانُكَ الذي كان يُدْعى   قاسِمَ الرزقِ، باعثَ الآجالِ

خاقان: أمير تركي.. وكان يقال عن عبد الحميد إنه يقسم الرزق للناس ويحدد آجالهم بقتلهم أو العفو عنهم

وعَـزاءً.. فـلـسـتَ أولَ قـصـرٍ   نَكَّسَ الدهرُ مِن ذُرَاهُ العَـوالـي

ذراه العوالي: قممه الشامخة

قد تَداعَى من قبلُ إيوانُ كسرى   بعدَ أن طالَ شَاهقاتِ الجبالِ

إنَّمـا نحنُ أُمَّةٌ تَدْرَأُ الضَّيْـ   ـمَ وتَأبى أن تَستَكينَ لِوالِ

نحن، رعايا الدولة العثمانية، ندرأ الضيم، ندفع الظلم ولا نستكين لولاة الأمر

يا مُلوكَ الأنامِ هَلَّا اعتبرتُمْ   بملوكٍ تَجورُ في الأفعالِ!

ليس عبدُ الحميدِ فرداً ولكن   كمْ لِعبدِ الحميدِ مِن أَمثالِ

فاتركوا الناسِ مُطلَقينَ وإلَّا   عِشْتُمُ مُوثَقينَ بِالأَوْجالِ

أعطوا الناس حريتهم، وإلا فإنكم أنتم ستكونون مقيدين أيضاً لكن بالأوجال.. بمخاوفكم

٩٥ الخطيب الساكت

يا ساكتاً وَهْوَ مَشنوقٌ على عَمَدٍ   لَأَنْتَ أبلغُ مَن نَادَى ومَن خَطبا

رغم سكوتك فأنت خطيب بليغ أيها المشنوق على عمود خشبي

طالبتَ بِالشَّرعِ حتى قد قُتِلتَ به   كذاكَ مَن جَهِلَ الشيءَ الذي طَلَبا

يا ظالمَ الشعبِ مظلوماً بِفِعلَتِه   عليكَ أم منكَ يَبكي الشعبُ مُنتحِبا

يا مُفسِداً قام تحت الدينِ مستَتِراً   لِيجعلَ الأمرَ في البُلدانِ مُضْطَرِبا

انظرْ إلى ذلكَ المصلوبِ مُتَّعِظاً   فإِنَّما قَتْلُهُ في الشرعِ قد وَجَبا

انظر أيها السامع إلى هذا المشنوق واتعظ به.. جعل المشنوق مصلوباً كي يأتي بشاهد قرآني في البيت التالي..

وآيةُ اللَّهِ في التنزيلِ قائلةٌ   مَن كان يُفسِدُ في أوطانِه صُلِبا

الآية: «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض»

٩٦ رجال الدين

لا دَرَّ دَرُّ رجالِ الدينِ إنَّهُمُ   قد أظهروا فيه مِنْهُمْ غيرَ ما كَتَمُوا

لا در درهم: عكس لله درهم

واستعمَلُوهُ كما تَهوَى مَآرِبُهُمْ   كأنه ليس إلَّا آلةً لَهُمُ

وإنْ تَصادَمْتَ بالعاداتِ تنكِرُها — فأنتَ في زعمِهِمْ بالدينِ تَصْطَدِمُ
وإنْ أتيتَ ببرهانٍ فأعجَزَهُمْ — لم يُحْسِنوا الردَّ، بل مِن عجزِهِمْ شَتَمُوا
وإن تقُلْ لَهُمُ قولاً لِتُقْنِعَهُمْ — شَدُّوا عليكَ وردُّوا قَبلَما فَهِمُوا
خلائقٌ كظلامِ الليلِ مَن يَرَها — يَقُلْ بِأمثالِ هَذي تُمْسَخُ الأُمَمُ

٩٧ سأرحل عنهم

يخاطب الشاعر محمد مهدي الجواهري:

أقولُ لِرَبِّ الشعرِ مهدي الجواهري — إلى كم تُناغِي بالقوافِي السَّواحِرِ!

تناغي: تترنم

ركبتُ بحورَ الشعرِ قبلَكَ خَائِضاً — لَعَمْرُكَ منها كلَّ طَامٍ وزَاخِرِ
وسَيَّرْتُ مِن غُرِّ القوافي بِلُجِّها — قَصائدَ سَارَتْ كالسفينِ المَواخِرِ

سيرت في لج بحور الشعر، في عمقها، قصائد كأنها السفن التي تمخر، تشق الماء

فلم أُلْفِ إلَّا مُنكِرينَ مَكانَتي — يَحيدونَ عَنِّي كالوُحوشِ النَّوَافِرِ
فقابَلْتُهُمْ بِالصَّفْحِ عنهُمْ تَرَفُّعاً — وأعرضْتُ عن شتمِ السَّفيهِ المُهَاتِرِ
أنا اليومَ مِن هذي الحياةِ على شَفاً — أُشارِفُ منهُ مَرقَدِي في المقابِرِ

أنا على شفا، على طرف، الحياة أشرف على مرقدي الأخير

سَأرحَلُ عنهُمْ عائذاً مِن شُرورِهِمْ — بِرَبٍّ كريمٍ، قابِلِ التَّوْبِ، غافِرِ

عائذ: ملتجئ

٩٨ وداع بمرارة شديدة

قال الرصافي في أواخر أيامه (١٩٤٣):

يا مَوْطناً لستُ منهُ في مُوَادَعَةٍ — عِشْ بعدَ موتيَ عَيْشَ الوَادعِ الهاني

يا وطني الذي لا موادعة منه لي، لم يكن وديعاً معي، عش وادعاً هانئاً

فكُلُّ مَن فيكَ تَعَنْيني سَعادَتُهُمْ — وكلُّ أَبنائِكَ الأعداءِ إِخواني

أعدائي من أبناء الوطن هم في الواقع إخواني

إنْ سَرَّكَ الدهرُ يوماً سَرَّني، وإذا — آذاكَ بِالمُزعِجاتِ الدهرُ آذاني

ما ضَرَّني أن كلَّ الناسِ تَحْقِرُني — إن كنتَ أنتَ جَليلَ القَدْرِ والشَّانِ

وليس يَنفَعُني عِزٌّ ولا شَرَفٌ — إن لم تكنْ أنتَ ذا عِزٍّ وسُلطانِ

يا قومُ إنِّي مِن الدنيا ضَحَيَّتُكُمْ — فَقَرِّبُوا مِن حياتي كُلَّ قُربانِ

أنا ضحية من ضحاياكم فلأكن قرباناً تنالون به الرضا

لا تَحْسَبونِيَ منكُمْ جَازِعاً ضَجِراً — وإن يَكُنْ شَظَفي في العيشِ أَضْواني

أضواني: أنحلني وأهزلني

إنِّي أَلِفْتُ على الأيامِ مَخْمَصَتي — فالنُّعْمُ والبُؤْسُ عندي اليومَ سِيَّانِ

مخمصتي: جوعي

تَختارُ نَفسي الطَّوَى بِالعِزِّ قَانِعَةً — وتتركُ القَصفَ في ذُلٍّ لِمِبْطَانِ

الطوى: الجوع، القصف: اللهو، المبطان: كبير البطن

يا لاهِجِينَ بِشَتْمي في مجالِسِهِمْ — نَاموا على الأمنِ في أَحْضانِ غُفراني

جَادَلْتُموني فما أَحسَنْتُمُ جَدَلي — حتى بَذَيْتُمْ بِذَاءَ الماجِنِ الخاني

بذيتم: قلتم البذاءات، الخاني: المفحش

ومِن عَناءِ اللَّيالي أن يُجادِلَني — مَن ليسَ يَقرعُ بالبُرهانِ بُرهاني

كم تُظهِرونَ عفافاً في تدَيُّنِكُمْ — وتُضمِرونَ ضَميرَ الفاجِرِ الزاني

٩٩ ليل متحجر

ولَيلٍ بِهِ قد بِتُّ أَخْتَلِسُ الكرى — وأرقبُ فيه النجمَ أن يَتَغَوَّرا

يتغور: يغيب

تَمَطَّى على الآكَامِ منهُ بِغَيْهَبٍ — تَكاثَفَ حتى خِلتُهُ قد تَحَجَّرا

تمطى الليل، تمدد، على الآكام، التلال، بغيهب، بسواد، كان كثيفاً حتى خلت هذا السواد قد تحجر

وكادَ دُجاهُ يُمْكِنُ الكَفَّ لَمْسَهُ — فلو سارَ سارٍ في دُجاهُ تَعَثَّرا

ولكثافة الظلمة كانت كأن بإمكان المرء لمسها بكفه، ولو سار فيها لتعثر بها.. أليست قد تحجرت؟

١٠٠ استسلام الفصحى

الشعرُ ما قلتَ يا عَبُّودُ فانْحُ به مَدحَ الصَّناديدِ لا هَجْوَ الرَّعاديدِ

يخاطب الملا عبود الكرخي الشاعر الشعبي: انح بالشعر، توجه به، إلى مدح الصناديد، الشجعان، لا هجاء الرعاديد، الجبناء

دَعْ هذهِ اللُّغَةَ الفُصحى فنحن بها ظَلْنَا نُخاطِبُ جيلاً غيرَ مَوْجودِ

فالناسُ غَيَّرَتِ الأيامُ لَهْجَتَهُمْ بِكلِّ لحنٍ على الأفواهِ مَعقُودِ

فانْظِمْ لنا زَجَلاً في الشعرِ يفهَمُه مَن في الرَّساتِيقِ مِن تلكَ العَباديدِ

انظم زجلاً يفهمه أهل الرساتيق، القرى، من العباديد، جماعات الناس

١٠١ الالتفات

لقيتُها في الطريقِ عابِرَةً يَهْصِرُ مِن قَدِّها تَبَخْتُرُها

يهصر: يُميل. كانت المرأة مقبلة عليه وهو ماش والتقيا وجهاً لوجه.. ومضى كل في طريقه..

أَعجَبَها منظري وأعجَبَني بالحسنِ عند اللقاءِ منظَرُها

فصارَ قلبي بِالحُبِّ يأمُرُني وقلبُها بالغرامِ يَأمُرُها

وحين مَرَّتْ والشَّوْقُ يُسْكِرُني بِخَمْرِهِ تارةً ويُسْكِرُها

لَفَتُّ جيدي أرى أَتَنظُرُني والتَفَتَتْ لي ترى أَأَنْظُرُها

بعد أن اجتازتني التفت لأرى هل ستلتفت هي إلي، والتفتت هي للغرض نفسه

فقلتُ والشوقُ فيَّ مُلتَهِبٌ إنْ عَذَرَتْني فسوف أَعْذِرُها

إن عذرتني على عدم التعرض لها فسوف أعذرها على ما فعلت بقلبي.. والمرأة ـ لمن يقرأ هذا ولا يعرف النساء ـ تغفر لك أن تتغنى بجمالها، ولا تغفر لك أن تتجاهله. هذه قطعة عذبة عذوبة أخاذة.. هذا موقف سجله قلم شاعر فصيح

١٠٢ بكل بساطة

أرى الحياةَ بسيطاً أمرُ صاحِبِها فكيفَ يَشكُونَ منها كَثرَةَ الحَاجِ

إن الحياةَ لَعَمْرُ اللَّهِ قائِمَةٌ بِحُكْمِ شيئينِ إدخالٍ وإخراجِ

الحياة هي أكل وتخلص من الفضلات ليس غير، ولا حاجة حقيقية للإنسان سوى هذا

١٠٣ شيخ وفتية

أنا شيخٌ وذي عَصايَ فَتِيَّةْ   قد أتَتْني مِن مَظْهَرٍ لي هَدِيَّةْ

جاءته عصا مفضضة من مظهر الشاوي الذي كان يحسن إليه في أخريات حياته

صَاغَةُ الصَابِئِينَ قد ألْبَسُوها   حِلْيَةً ذاتَ صَنعَةٍ عبقَرِيَّةْ

الصابئة في العراق اشتهروا بالصياغة. الصنعة العبقرية: المتقنة جداً، كأن من صاغها من الجن الذين يسكنون وادي عبقر

فَسأَمْشي بها قوياً سوياً   بعدَما كنتُ ماشياً كالحَنِيَّةْ

الحنية: القوس

١٠٤ معلومات وهمية

لُقِّنْتُ في عصرِ الشبابِ حَقائقاً   في الدينِ تَقْصُرُ دونَها الأَفهامُ

تلقنت شاباً معلومات دينية كثيرة ومعقدة لا تكاد تستوعبها أفهام، عقول، الناس

ثم انقَضى عصرُ الشبابِ وطيشُهُ   فإذا الحقائقُ كلُّها أَوْهامُ

١٠٥ التجارة بالوطن

لا يَخْدَعَنْكَ هُتافُ القومِ بِالوطنِ   فالقومُ في السرِّ غيرُ القومِ في العَلَنِ

أُحْبُولَةُ الدينِ رَكَّتْ مِن تَقادُمِها   فاعتاضَ عنها الوَرى أُحْبُولَةَ الوطنِ

أحبولة: مصيدة، ركت: أصبحت ركيكة ضعيفة

١٠٦ ملك بلا شعب!

قُلْ لِمَنْ صَيَّرَ المليكَ عِماداً   لِأُمورٍ في المُلْكِ تَأبى الشَّريكا..

قل لمن جعل الملك صاحب أمر لا يشاركه فيه أحد ولا يشاور أحداً..

قد رأينا شعباً بِغيرِ مَليكٍ   هل رَأَيْتُمْ بِغيرِ شَعْبٍ مَليكا؟

١٠٧ كان آدمياً

إنَّ نُوري السَّعيدَ قد كانَ قبلاً   آدَمِيّاً فَرُدَّ بِالمسخِ قِردا

قد أبَى أن يعيشَ حراً مَعَ التُّرْ   كِ وأمْسى لِلتَّيْمِسيينَ عَبْدا

التيمسيين: الإنجليز، نسبة لنهر التمز الذي يقطع لندن

مثلَ إبليسَ ما أطاقَ سُجوداً وأطاقَ الهَوانَ لَعْناً وطَرْدا

١٠٨ المعاهدة القيد

قد أبْلَعُونا حَبَّةَ استِعبادِنا لكنْ مُمَوَّهَةً بِالاسْتقلالِ

جعلونا نبلع حبة دواء هي الاستعباد لكنها مموهة بمعاهدة تعد بالاستقلال، وحبة الدواء المرة تكون مغلفة بالسكر

مَن ذا رأى ذِئبَ الذئابِ مُصافحاً بِتَوَدُّدٍ حَمَلاً مِن الأَحْمالِ

لكنَّهُمْ خافُوا انْفِكاكَ قُيودِنا فاستَوثَقُوا مِنْهُنَّ بالأقفالِ

١٠٩ الحثالة

قد كان لي وَطَنٌ أَبْكي لِنَكْبَتِه واليومَ لا وَطَنٌ عندي ولا سَكَنُ

ولا أَرى في بلادٍ كنتُ أَسكُنُها إلَّا حُثَالَةَ ناسٍ قَاءَها الزَّمَنُ

١١٠ جربوني

يا مُبْعِدِيَّ بِظُلْمٍ عن مناصِبِهِمْ وقَاطِعِينَ إلى ما أَبْتغي طُرُقي

عَلِمْتُ كلَّ خَفِيٍّ مِن ضمائِرِكُمْ وما عَلِمْتُ الذي تَرْضَوْنَ مِن خُلُقِ

لا أعرف ما الذي تريدونه من صفات تتوفر فيَّ لكي تولوني منصباً

ماذا يُوافِقُكُمْ مِن شأنِ صَاحِبِكُمْ حتى يكونَ لديْكُمْ حَائِزَ السَّبَقِ

إن كان عقلٌ فإِنِّي عاقِلٌ فَطِنٌ أو كان حُمْقٌ فَعِندي أَحْمَقُ الحُمُقِ

فَجَرِّبُوني تَفوزُوا عند تَجرِبَتي بَما تُريدونَ مِن طَيْشٍ ومِن نَزَقِ

النزق: الخفة والطيش. لابن الرومي ـ قبل ألف سنة من الرصافي ـ قصيدة تشبه هذه شبهاً كبيراً يشبه الشبه بين هذين الشاعرين البغداديين. انظرها في كتابنا «تألق الشعر» ضمن الفصل الضافي عن ابن الرومي

وإنْ أَبَيْتُمْ سوى مَنْ عِرْضُهُ دَنِسٌ فلستُ معْكُمْ على شيءٍ بِمُتَّفِقِ

لا أبعدَ اللّهُ غيري عنْ مَناصِبِكُمْ إنِّي بِتدنِيسِ عِرضي غيرُ مُرْتَزِقِ

فليكن غيري قريباً من مناصبكم فأنا لا أرتزق بتدنيس شرفي

١١١ لا يبالون لأنهم موتى

قـالَ ذُو الـحِـزْبِ إذْ أتـاهُ مَـقـالـي ... نـحـن لَـسـنـا بِـمـا يُـقـالُ نُـبـالـي

صَـادِقٌ فـي الـذي ادَّعـاهُ، وأنَّـى ... يَـأْلَـمُ الـمَـيْـتُ مِن جُروحِ النِّصـالِ

هو لا يلتفت لقولي.. فأنّى، كيف، يتألم الميت من الجرح بنصل السيف؟

إنَّـمـا تَـجْـزَعُ الـكـرامُ مِـن الـذَّمِّ ... وتَـخـشَـى الأمـجـادُ لَـذْعَ الـمَـقـالِ

الأمجاد: أهل المجد

١١٢ سنلتقي

قُـلْ لِـلـذي أنْـحَـى عـلـيَّ بِظُـلْـمِـهِ ... سَـفَـهـاً وجـارَ بِـقـولِـه وبِـفـعـلِـهِ

الـموتُ يَجمعُ بيننا وسنلْتَقي ... عـنـد الـذي تثِقُ الـخُصومُ بِعَـدْلِهِ

١١٣ أثواب الرياء

سَـوَّدَ الـلَّـهُ مِـنـكَ يـا شـيـخُ وجـهـاً ... غَـشَّ حـتـى بِـالـلِّـحـيَـةِ الـسـوداءِ

لِـحـيـة طـالَ ذَقْـنُـهـا فَـهْـوَ فـيـهـا ... أَلِـفٌ خُـطَّ بـيـنَ عَـيـنٍ وراءِ

لحيته مقسومة نصفين وذقنه في الوسط مثل الألف.. وحرف الألف هذا واقع بين العين والراء..
ففي وجهه كلمة «عار»

لـو نَـتَـفْـنـا مِـن شَـعـرِهـا وغَـزَلْـنـا ... لَـنَـسـجْـنـا خَـمـسـيـنَ ثَـوبَ رِيـاءِ

وَصَـفُـوهُ بِـالـمـسـتـقـيـمِ فـقُـلْـنـا ... إنـه الـمـسـتـقـيـمُ فـي الأمـعـاءِ

المستقيم في علم الأحياء: الجزء الأخير من الأمعاء

١١٤ استطراد

وشامِخِ الأنفِ ما ينفكُّ مُكْتَسِياً ... ثوبَ التَّكَبُّرِ في بُحبُوحَةِ الـنـادي

قد لازمَ الصمتَ عِيَّاً في مجالِسِهِ ... كـأنَّـمـا هُـوَ مِـن نُـوَّابِ بَـغـدادِ

هذا في الشعر أسلوب الاستطراد الذي برع فيه أبو تمام والبحتري. أن يتناول الشاعر موضوعاً ثم ينفتل عنه ليجري مقارنة كقولك: «رئيس الدولة قلبه مفتوح لا يخفي شيئاً، فكأن ملفات مخابراته في أيدي العدو»، فأنت قد مدحته توصلاً إلى الإساءة إليه

١١٥ آكل الثوم

ما أقبحَ الجهلَ يُبْدي عيبَ صاحبِهِ   لِلناظرينَ، وعن عَيْنَيْهِ يُخْفيهِ
كذلكَ الثُّومُ لم يَشْمَمْهُ آكِلُهُ   والناسُ تَشْتَمُّ نَتْنَ الرِّيحِ مِن فيهِ

فهرس القوافي

(القافية فرقم القصيدة)

محمد مهدي الجواهري

(١٩٠٢م ـ ١٩٩٧م)

عاش الجواهري عُمرين.

عاش خمساً وتسعين سنة ميلادية.

ومن يعش عمرين يكمل الدائرة مرتين: رثى الجواهري زوجتين، وسقط سقطتين، وخلف لنا مذكراته في جزأين اعترف فيهما بالسقطتين، وسماهما الهاويتين. وخاض في الجزأين ـ وأتم ثانيهما في عام ١٩٩١ ـ مبارزات دونكشوتية مع ناس ماتوا.

ولما كنت أدخلت نفسي في دوامة ضمير المثنَّى المزعج، فلأخاطب اثنين: القارئ والقارئة، في موضوع مختلف، ثم ستكون لي عودة إلى «شاعر العرب الأكبر» كما سماه الناس. طبعاً «الأكبر»! فمن قهر عزرائيل كل هذه السنين، فقد أمات المنافسين، وأمات الشعر العمودي، وبقي متربعاً على خرائبه.

أيتها القارئة،

القارئ يكون رجلاً أو امرأة، فإن قلنا «شخصاً» كي نريح أنفسنا من توجيه الكلام دائماً إلى مذكر «فالشخص» مذكر، ويصبح علينا عندئذ أن نقول «شخصة»! لم تحَلَّ المشكلة.

ليس عند الإنجليز هذه المشكلة، فهم يقولون قارئ، ريدر، وهي تنصرف إلى مذكر ومؤنث. قد ارتاحوا من هذه. فأما إن جاءوا للضمائر فيلحق بهم ما يلحق بنا.

انتفضتْ نساء الغرب في مطلع القرن العشرين انتفاضة كبيرة، ونِلنَ في

معظم دول العالم حق التصويت. وللآن لم يهدأن: يُرِدْن تخليص البشرية من تراث عمره آلاف السنين جعَلَ الذكر ذا حقوق أكثر من الأنثى. أولئك هن «النِّسْوِيَّات»، وفي هذه الفئة رجال كثر همُ «النسويون». وفي أواخر القرن العشرين ثارت النسويات والنسويون على الضمائر. فأصبح الكاتب في البلاد الناطقة بالإنجليزية يقول عبارة «هو أو هي» في كل مرة ورد فيها ضمير الغائب المفرد. بعضهم تفنن فصار يقول «هي أو هو»، مقدما الهي على الهو. وبعضهم صار يقول «هو» مرة، و«هي» مرة. ولحقنا من هذا العنت شيء، ولكن ضمائرنا مفصلة تفصيلاً يعود علينا بإزعاج لا تعرفه الإنجليزية، فضمير الجمع عندنا «هم وهن» فيه تذكير وتأنيث، وعند أولئك القوم للجنسين ضمير واحد في الجمع.

أنا فيما أكتب أقول «هو» ولا أبالي، تاركاً للأجيال المقبلة أن تتخلص من عبء الإرث القديم.

وقد تحمس شعراء مصر والعراق للمرأة ولتحررها. وفي كتابنا الذي بين يديك ثلاثة شعراء من مصر وثلاثة من العراق، فأما شعراء مصر فقد وقفوا وقفة الهائب من دعوة نصير المرأة ورائد الفكر النسوي قاسم أمين (ت ١٩٠٨) المصري. وتلجلجوا في شأن المرأة ومكانتها، ولم يخرج من شعرهم ولا من حياتهم فكر نسوي واضح. وأما ثلاثة شعراء العراق فقد كان لهم شأن آخر.

وقبل أن نمضي في هذا الشأن نقف وقفة قصيرة بإزاء سلسلتنا هذه: «الزبدة»، التي استعرضنا فيها أشعار نحو أربعين شاعراً منذ الجاهلية حتى خبا الشعر العمودي في أواسط القرن العشرين. ونسجل على أنفسنا أننا لم نأخذ شاعرة واحدة. فلماذا؟ لم نسلك في هذا الأمر سبيل النسويين الذين يريدون حشر المرأة في كل مجال لمجرد إعطائها فرصة. التاريخ العربي ذكوري والشعر العربي ذكوري. وعندما ثارت في العراق نازك الملائكة على الشعر العمودي، وسارت في درب شعر التفعيلة، ونظَّرت له تنظيراً باسقاً في كتاب هو أحد أهم كتب التقعيد لصناعة الشعر منذ مئات السنين، وعندما تبعتها شاعرة فلسطين فدوى طوقان، وانحرفت بسرعة عن العمودي إلى التفعيلي، كان الشعر العمودي يذوي. وهكذا فمع دخول شاعرتين كبيرتين إلى ساحة الشعر العربي كان هذا الشعر قد شق طريقاً جديداً، وإحداهما كانت من أوائل من شق الطريق، والثانية تحولت مسرعة وسارت فيه. وسلسلتنا تتناول الشعر العمودي فقط.

فلماذا لم آخذ الخنساء ضمن شعرائي؟

ديوانها صغير ومحوره ضيق. فأخذت لها قصيدة في موضوعها الوحيد: الرثاء.

ونعود إلى شعراء العراق. كان هؤلاء من أشد أنصار المرأة في كل العالم العربي، كانوا على يسار قاسم أمين. وقد اقتطفنا من أشعارهم النسوية الكثير لأنهم قالوا ذلك الشعر بحماسة، وكانوا رواد فكر في العالم العربي كله. وهنا يتدخل توجهي الشخصي، فأنا نسوي مؤيد لنيل المرأة كل ما للرجل من الحقوق. وليكن بعد ذلك في أعماق نفسيتي ذلك الإرث الذكوري المتغلغل فينا الذي لا نملك له صداً. تربية النفس على شيء جديد أبطأ من الاقتناع به فكرياً.

كان الجواهري شاعراً عمودياً. بدأ باكراً، وله أشعار كثيرة معاصرة لشوقي وحافظ والزهاوي والرصافي. وخاض عالم الشعر مع هؤلاء الذين أنهضوا الشعر العمودي نهضته الأخيرة. لكنه عاش طويلاً، فحضر في اليوتيوب، ورآه شباب زمننا هذا.. فنال بطول العمر تقديساً. وسنعود إلى الجواهري، فهذه السطور هي في التقديم لما اخترناه من شعره.

فهل مات الشعر العمودي؟

لم يمت الشكل. فما زال بعض الشباب ممن قرأ الشعر القديم وأكبَّ عليه إكباب درس وتمحيص يقول شعراً على البحور المعروفة.. أو على الأصح على بعضها. ولكن مصطلح «الشعر العمودي» يعني شيئين لا شيئاً واحداً. فهو الشعر الموزون المقفى على الطريقة القديمة، وهو أيضاً الشعر الذي يتناول المعاني بانضباط كلاسيكي. وكثير من العمودي الذي يكتبه شباب العرب اليوم رومنسي، مفرط في المجاز المزدوج، فهو عمودي وزناً، رومنسي محتوىً.

لن نحكم على الشعر العمودي بالموت. لكنه ـ حتى عند شوقي والبارودي والرصافي وكل شعراء كِتابنا هذا «إحياء الشعر» ـ شعر «يحاول» أن يكون قديماً.. يحاول أن يضاهي البحتري.. يحتفل بالمفردة المهجورة.. هو شعر لاهث. لم ينجح شوقي في الوصول إلى البحتري ولا إلى المتنبي. ولن أنجح أنا إن كتبت لك بلغة عتيقة في أن أبلغ الجاحظ، سأبقى مغموط الحظ مضئوز النصيب، واقفاً أمام صوان ملابس عتيق أتخير منه أبراداً وطيالسة وقلانس أرتديها كي تظنني عتيقاً، ثم يضحك مني الزمن. نثرُ الجاحظ لزمن الجاحظ

وشعر المتنبي لزمن المتنبي. واللغة تتغير حتى لو صك المنفلوطي رأسه بالجدار.

كان الجواهري من ساقة شعراء الإحياء، غير أنه فعل فعل صاحب لوائهم البارودي في أنه كان يلتمس الأسلوب العتيق.

أيها القارئ،

بالله عليك إلا ما ذهبت عني الآن، ومضيت إلى شعر الجواهري تقرأُه! هذه الأسطر التي أكتبها لك في هذه المقدمة، بعد فراغي من الاختيار فالتشكيل فالشرح، فضلة قلم، وبقية مداد أنثره فوق الصفحة، فكأنها قطرات العرق تتساقط من جبين الراكض الذي وصل شريط النهاية في جري المسافات الطويلة. قد أنصبت نفسي وأنا أتخير لك الشعر وأشرحه، ثم أراك بعد ذلك تمر به مر الكرام. حرام عليك أن تتسلى بقراءة مقدمتي هذه ـ على ما فيها من استطراد، يشي بضعف الاستعداد، وعلى ما يلوح عليها من غثاثة، تمشي في كتابتي كأنما بوراثة ـ وتترك شعر الجواهري وذلك الجهد الكبير الذي وضعته في انتخاله وشرحه.

خذ قصيدة الجواهري المشهورة «أم البساتين». ها هي مجلوة لك هنا كالعروس في ثلاثين بيتاً، قصيدة من بديع الشعر. صعبة قاسية حلَّيتُها بشرح يفتح لك مغاليقها. فأما أصلها فمئة وخمسة وستون بيتاً. قرأها لك صاحب هذه الأسطر في طبعة ديوان الجواهري ذات الأجزاء السبعة الصادرة في بغداد، ١٩٧٣، في حياة الشاعر، وعارضها على الطبعة التي أصدرها ذووه لديوانه الكامل بعد وفاته. قرأتها وانتخلت لك منها الأبيات الثلاثين، وأتعبت القاموس والصحاح وأسهرت المصباح.

قد فعلت مثل هذا بكل ما سيأتيك من أشعار الجواهري. ثم أراك تقرأ بيتاً أو بيتين، وتقول لنفسك: لا أريد المختارات، أريد القصيدة الأصلية كاملة. فاذهب عني، ورح اقرأ الدواوين؛ ما الذي أتى بك أصلاً.

قد اشتغلت بهذه الأشعار زمناً طويلاً، وإلا أكن مللت منها فإنني مللت من القراء الكرام، وإن كان عندي أمل في أن يأتي زمن يجد فيه الناس في هذا الجهد ما ينفع. أنا، والحال هذه، كالشيخ الذي رآه كسرى ملك الفرس يزرع شتلة زيتون، فقال له: أنت شيخ هرم، ولن تعيش لتأكل من ثمر هذه الشتلة!

فقال الشيخ: غرسوا فأكلنا، ونغرس فيأكلون. فقال كسرى: زِهْ. وأعطاه ألف شيء.. ماذا كان اسم العملة الفارسية العتيقة؟ لا أدري. لكنني أدري أن الناشرين في عالمنا لا يقولون زه.

بعض أصحابي، ولهم في القلب موضع، يرددون عليَّ أبياتاً من قصيدة للجواهري، يقولون إنها رائعة وعظيمة.. يصدعون رأسي بها. عظيمة فقط لأنهم سمعوها منه في اليوتيوب. ولم يسمعوا من شعره غيرها. فهم مثل رجل دخل كهف علاء الدين ـ بعد أن فتحَ له سمسم ـ فوجد في فم الكهف قفة دراهم فملأ منها كيسه وخرج. ليته تعمق ليجد الذهب والألماس. أنا تعمقت يا بعض أصحابي. وأخرجت لكم ألماس الجواهري، فلا تصدعوا رأسي برنين نحاسكم.

للأسف، الجواهري صعب، وأشعاره تتعطش للشرح: صعب في مفرداته، التي يلوي أعناقها لتؤدي معاني منحرفة بعض انحراف عما وضعت له؛ وصعب في معانيه التي تختفي وراء ستار من لفظ رنان.

هو معاصر لأنه عاش السياسة في زمنه، وذاق كثيراً من النفي وقليلاً من السجن والأذى، وأصدر الجرائد، ومدح الرؤساء والملوك، ودخل في الفكر الاشتراكي من باب الشيوعية بعض دخول؛ وهو قديم لأنه عاش في شعر المتنبي والبحتري وشب على الجبة والعمامة في النجف؛ وهو مثقف قرأ الكتب، لكنه لم يُغرق فيها فلم تَغرق شاعريتُه؛ وهو شاعر لأن الله خلقه شاعراً.

لا أخفي عليك أنني دخلت عالم الجواهري متأخراً. قد صرفني عنه أولئك الأصحاب الذين جعلوني أظن أن الرجل إنما نال عندهم من المكانة ما نال لأنه عاش خمساً وتسعين سنة، فسجل حضوراً في دفاترهم. لكنني، في هذه على الأقل، كنت متواضعاً. قلت في نفسي: ليكن! يقولون إن الجواهري شاعر كبير، فلأفحص عن الأمر. وفحصت. ورأيت الجواهري شاعراً كبيراً فعلاً. ورأيت تلك الشلالات الغزيرة التي هي قصائده الطويلة تحجب عن العين المعاصرة ما عنده من شاعرية.

هو في قصيدته خطيب، وكان يلقي القصائد في شتى المحافل، وكان يطرب لما يراه من إعجاب الجمهور بأبياته الرنانة. وهو في قصيدته مطيل يروي أحداثاً. وهو في قصيدته صائغ يتعب في تركيب البيت، فيتعب معه البيت ويأتي معوجاً.

ما أحوج شاعراً كهذا إلى منخلي.

استندت في اختياراتي إلى المجموعتين اللتين أشرت إليهما سابقاً، وقد خلتا، كلتاهما، من الشرح، إلا من سطر في الصفحة بعد الصفحة فيه المعنى القاموسي لمفردة.

محمد مهدي الجواهري

الجواهري من النجف بالعراق، واسم الأسرة منسوب إلى كتاب «جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام» الذي كتبه أحد قدامى الأجداد واسمه محمد حسن. وكانت لأسرته أواصر نسب مع أسر عريقة كثيرة في النجف والحلة. كان أبوه عبد الحسين فقيهاً وشاعراً. وأراد لولده الثاني «مهدي» أن يكون فقيهاً، وأراد الله غير ذلك.

نشأ الطفل مهدي مدللاً من أم تحنو عليه ـ هل تلاحظ أنني بدأت أكتب كما يكتب رقعاء منتديات النت.. لا ينقصني الآن إلا أن أقول «منذ نعومة أظفاره» حتى يكتمل الانحدار، وهل هناك أم لا تحنو على طفلها؟ ـ. الجواهري نشأ مدللاً. أمه تحنو عليه، وأبوه يحنو عليه، والأمة التي في بيتهم، واسمها تفاحة، تحنو عليه وتقص عليه القصص. وجدته لأبيه تحنو عليه. وهذه الجدة اسمها صيتة. وماتت والجواهري طفل في الخامسة، وأقيم للجدة «صيتة» عزاء مهيب لم يقم من قبل لامرأة، كما يخبرنا الجواهري.

في هذا المحفل، وفي محافل تشبهه، سمع الجواهري شعر الشعراء. وكانت النجف مدينة شعر وأدب، وكانت مدينة علم. نقصد ما كان يقصده القدماء بكلمة «علم»: علوم الدين واللغة والأدب.

لم يكمل محمد مهدي ـ قد أضيف اسم محمد لاسمه فيما بعد ـ علومه الشرعية واللغوية في حوزات النجف كي يصبح فقيهاً. بل أخذ منها ما تحتاج إليه روحه الشاعرة. كان يتعلم في بيته على أبيه وأقاربه، وليس في ذهنه سوى أنه يريد أن يصبح شاعراً. ونظم باكراً، لا ندري درجة نعومة أظفاره عندما بدأ ينظم، لكنه قرزم مثلما يقرزم الشعراء ثم استوى له الشعر وهو في نحو الثامنة عشرة. وفي هذه السن الطرية شهد الجواهري ثورة العشرين في العراق ضد الحكام الجدد: الإنجليز.

كان كثيرون من أبناء النجف لا يحملون «الجنسية» العراقية. ففي العهد

العثماني حمل الكثيرون منهم الجنسية الإيرانية فراراً من الجندية. وكأن الزلزال الكبير الذي حدث بانحسار الظل العثماني عن العراق والوطن العربي، وزلزال ثورة العشرين على المحتل الإنجليزي، لم يكونا كافيين للخروج من حالة انعدام الجنسية العراقية لدى الكثيرين.

ثم بدأ العهد الفيصلي مع تتويج الإنجليز فيصل بن الحسين ملكاً على العراق سنة ١٩٢١. ونالت الجواهري الشاب، وكثيرين من الشيعة في العراق، بقية باقية غير قليلة من أذى الطائفية، التي كانت لذلك الزمن في العراق مثل ألم الضرس الذي ينقح عليك نقحاً خفيفاً: لا يخفت فتستطيع له نسياناً، ولا يشتد فيجعلك تهرع إلى طبيب الأسنان.

ولو صدقنا الجواهري في أن عشرة بالمئة فقط من أعضاء مجلس النواب المستحدث كانوا من الشيعة، وحتى لو كذبناه وجعلنا النسبة عشرين بالمئة، فإن مجرد هذه المعلومة تدل دلالة محملة بالمغازي على أن مئات السنين التي انصرمت على حكم العثمانيين السُّنَّة للعراق، بما وقع فيها من تحاكٍّ وتنافس مع إيران الشيعية، تركت العراق محكوماً برجال السنَّة.

عُيِّن الجواهري مدرساً، ثم قيل له أنت لست عراقياً، فأين الجنسية؟ وفصل من التعليم، وعاد إلى التعليم. وزار إيران، حيث كان يعمل أخوه الأكبر، مرتين. وقال شيئاً في قصيدة طهرانية جعل ساطع الحصري، المسؤول عن شؤون التعليم في حكومة فيصل والكاتب القومي المشهور، يفصله، ثم تدخل وزير شيعي فأعاده. ثم استقال الجواهري.

ولما كان صاحبنا قد أصبح شاعراً له كلمة مسموعة بين الناس فقد تلافى البلاط الأمر بتعيينه في التشريفات. وفي هذه الوظيفة كان الشاب الشاعر لصيقاً بالملك فيصل يتمرغ في رعايته ويميل على جوانبه ميل الطفل على أبيه. ووصف لنا ذلك في صفحات كثيرة مدهشة: يندهش القارئ لهذا الأدب الملوكي الجم عند ذلك الملك العربي. كان لفيصل بعض ما لأخيه الأصغر عبد الله بن الحسين ملك الأردن من دهاء، وكان له أضعاف ما لأخيه من رقة وحلم. وكان الرصافي موظف التشزيفات يتمرد في شعره وينتقد، وكان الملك يتغمد كل ذلك بالنسيان، أو بعتب ناعم. كان فيصل يتذوق الشعر كأخيه عبد الله، وكان يبشر الجواهري بأنه سيكون شاعر العراق الأكبر.

واستقال الجواهري من القصر بعد ثلاث سنين، متمرداً على التشريفات

وعلى الملك فيصل، ولم يفت الملك أن يقرص أذن الشاعر الذي انصرف عن مليكه. ولم يفت الجواهري أن يمدح الملك السعودي الذي سلب الهاشميين ملكهم الحجازي نكاية بفيصل.

أصدر الجواهري بعد إذ تمرد وتحرر صحيفة «الفرات». ثم عاد إلى الوظيفة في التعليم ثم في ديوان وزارة المعارف. ومات الملك فيصل عام ١٩٣٣، وتولى الحكم ابنه غازي، فلم تكن للجواهري حظوة.

ومع انقلاب بكر صدقي، تموز/يوليو ١٩٣٦، أحس الجواهري بقرب الفرج، فأيد الانقلاب، وأصدر صحيفة باسم «الانقلاب». لا غرو، كان هذا أول الانقلابات التي زركشت سياسة العالم العربي في القرن العشرين فلم تكن كلمة «انقلاب» قد اكتسَت معناها السلبي، وكانت الحركة الدستورية العثمانية قبل نحو ثلاثين سنة قد سميت انقلاباً، وكان العرب يعدونها حركة حميدة. ثم بعد سنة وشهر اغتيل بكر صدقي فانقضى بذلك أول تموز يمر على رأس الجواهري. فجعل اسم جريدته «الرأي العام».

ومات الملك غازي في عام ١٩٣٩ بحادث سيارة، يزعم الجواهري أن السياسي الداهية نوري السعيد قد دبره، وبعد موته بأشهر قامت الحرب العالمية الثانية وعلى عرش العراق الطفل فيصل بن غازي وهو ابن خمس سنوات، وتولى الوصاية عليه خاله الأمير عبد الإله.

وفي عام ١٩٤١ انقلب على الحكومة ـ وكان قطباها الوصي عبد الإله، والسياسي نوري السعيد المدعوم إنجليزياً ـ رشيد عالي الكيلاني، فهرب «الوصي» و«السياسي» كلاهما من العراق، ولم يسع الإنجليز أن يسكتوا على الأمر لميول الانقلابي الألمانية، فقضوا على الحركة الانقلابية بعد أشهر، وعاد عبد الإله ونوري السعيد إلى بغداد. لم يؤيد الجواهري الانقلاب فسافر إلى إيران ومكث بها زمناً قصيراً.

نجده في سنة ١٩٤٤ في سورية يشارك في إحياء الذكرى الألفية لأبي العلاء المعري. ونراه ـ وهو الآن رجل في أوائل الأربعين من العمر ـ شاعراً له صوت عالٍ في أحداث البلاد، وله صيت ذائع. قد كانت له علاقة طيبة بالشاعر الزهاوي الذي توفي قبل سنوات، وله الآنَ علاقة طيبة بالشاعر الرصافي الذي سيموت عام ١٩٤٥ قبيل انتهاء الحرب. وبموت الرصافي صار الجواهري «شاعر العراق الأكبر» فعلاً.

أصبح الجواهري نائباً عن كربلاء في برلمان ١٩٤٧، ووالى نشر قصائده، في العراق وخارجه. وفي العام التالي هب العراقيون في انتفاضة ضد معاهدة بورتسموث التي أراد الإنجليز بها التمسك بأكبر قدر ممكن من النفوذ في العراق، بعد أن انتصروا في الحرب العالمية الثانية انتصاراً هو أشبه شيءٍ بالهزيمة. فبعد انتصارهم الباهظ طلب التاريخ ـ وأميركا ـ من الإنجليز أن يفككوا إمبراطوريتهم.

في هذه الانتفاضة على المعاهدة قتل الأخ الأصغر للجواهري، جعفر. فتدفق الجواهري بشعر كأنه النار. وبعد سنة أعدم الحكم عدداً من الشيوعيين، من بينهم يوسف سليمان يوسف، المعروف بفهد. ولم نجد للجواهري رثاء في الرجل. كان الجواهري يعطف على الشيوعيين، لكنه لم ينتظم حزبياً في حياته.

نجده في عام ١٩٥٠ في مصر بدعوة من طه حسين، ثم عام ١٩٥١ في لبنان يؤبن عبد الحميد كرامي. وعقب انتفاضة تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٢ سجن الجواهري في معتقل أبو غريب ثم رحل إلى سورية حيث وجد الملجأ الآمن. وعاد إلى العراق عام ١٩٥٧، وفي العام التالي كان انقلاب عبد الكريم قاسم، تموز/يوليو ١٩٥٨. هذا التموز الثاني للجواهري كان الضربة القاضية للملكية في العراق. فقد اغتال الانقلابيون العائلة المالكة، وجروا جثة الوصي عبد الإله في الشوارع. وقتل، أو انتحر، نوري السعيد.

قربت حكومة قاسم الشيوعيين، وتقربت من الاتحاد السوفييتي. لكن حكم العسكر يظل حكم عسكر، وقد تحير الجواهري في قاسم فقد كان يقرب هذا الاتجاه ثم ذاك لغيرما غرض سوى أن يتخلص من خصومه.

تغنى الجواهري بعبد الكريم قاسم وحكمه. ولكنه لم يتخل عن وجدانه العروبي. كان عبد الكريم قاسم لا يرد طلباً للجواهري. ولكن شاعرنا أحس بعد قليل أنه عالق في شبكة تأييد الحكم. هذا الحكم الذي دخل في مهزلة المحاكمات الصورية حتى قبل انقلاب عبد الوهاب الشواف الفاشل. فقد عين قاسم ابن خالته «عباس المهداوي» رئيساً لمحكمة «ثورية» أخذت تهين المتهمين على شاشة التلفزيون، الذي كان دخل العراق حديثاً، قبل أن ترسل العديد منهم إلى حتفهم. واصطدم الجواهري بقاسم في أكثر من مناسبة.

انسلَّ الجواهري سنة ١٩٦١ إلى بيروت ليشارك في تكريم الأخطل

الصغير، بشارة الخوري، ومضى بعدها إلى تشيكوسلوفاكيا البلد الاشتراكي ضمن «المعسكر السوفييتي».

أطيح بعبد الكريم قاسم، أوائل ١٩٦٣، وقتل قتلة شنيعة في ستوديو الإذاعة بعد محاكمة مضحكة مدتها نصف ساعة.

لكن الجواهري بقي في تشيكوسلوفاكيا سبع سنين، حتى جاء تموزه الثالث.

في ١٧ تموز/يوليو ١٩٦٨ انقلب البعثيون على الرئيس عبد الرحمن عارف الذي كان خلف أخاه عبد السلام عارف. كان انقلاباً أبيض بقيادة أحمد حسن البكر وصدام حسين، وعاد الجواهري إلى العراق ليجد التكريم والراتب التقاعدي. وهو الآن أهم شاعر عربي عمودي. فالجواهري بحكم السن والعادة لم يتمكن من السباحة في تيار شعر التفعيلة، وحافظ على طريقته.

لم تطب الإقامة للجواهري في العراق، فرحل إلى سورية عام ١٩٧٣، وعاش في كنف الرئيس حافظ الأسد بضع سنين. وظل يتنقل بين دمشق وبغداد وبراغ في تشيكوسلوفاكيا حتى سنة ١٩٨٠ عندما غادر العراق للمرة الأخيرة، وأخذ يعيش في دمشق حتى وفاته عام ١٩٩٧. وظل محتفظاً ببيته في براغ معظم هذه الفترة الأخيرة.

يصدع رأسَك «أبو فرات»، وهذه كنيته وفرات هو ابنه الشيوعي، على مدى ألف صفحة وهو يقص قصة السبعين ديناراً الفلانية، والمئة دينار العلانية. وهو مدرك أن طفولته الفقيرة ـ رغم رجحان شأن والده وأسرته في ميزان النسب ـ ظلت تعيش في أعماقه.

لا ألوم الأب الذي يغدق على أطفاله، ويهين نفسه في سبيل أن يجنبهم أي شعور بالعوز. فمن جاع صغيراً ظل جائعاً طول عمره حتى لو اغتنى كبيراً. وأدركها الجواهري وسجلها على نفسه وعلى عبد الكريم قاسم الذي نشأ في أحضان الحرمان.

في نفوسنا حجرات مغلقة، مفاتيحها في يد الطفولة.

عندما كنت في نحو الخامسة من العمر رماني أبواي في القسم الداخلي بمدرسة راهبات مار يوسف أسبوعين ليقضيا شهر عسل متأخراً في مصر. قالت لنا المعلمة جانيت: انسخوا الدرس. ولم يكن عندي ورقة. فنسخت الكلمات

على نصف الصفحة في ذيل الدرس. ولم يكن نصف الصفحة فارغاً، بل كانت عليه كلمات مكتوبة بخط دقيق، هي أسئلة وتوجيهات للمعلم، إلخ. نسخت بقلم الرصاص فوق الكلمات الصغيرة المطبوعة. ووبختني المعلمة وتراقصت شامة كبيرة مخيفة في خدها أمام وجهي. والآن وبعد أكثر من نصف قرن تراني أبخل خلق الله في الورق. اطلب مني رقم هاتف، وستراني أقص لك من طرف الورقة قطعة صغيرة لا تكاد تكفي للرقم.

سقط الجواهري عندما تصالح مع الرجعية فأنشد قصيدة في تتويج فيصل الثاني، وسقط عندما التصق بعبد الكريم قاسم. لكنه عاش حياته نابذاً للطائفية باذلاً في سبيل ذلك جهده، متعاطفاً مع الفقراء كارهاً التفاوت في الرزق بين الناس، ووجد هذان الاتجاهان صدى طيباً في شعره.

كانت حياته الطويلة بكاملها المرحلة الأولى من طفولة العالم العربي. فبعد أن رمتنا الدولة العثمانية من رحمها إلى حضن الاستعمار أخذنا نتبوَّل لاإرادياً.

وما زلنا.

إذ انغمست في تاريخ العراق في القرن العشرين كي أتمكن من فهم الجواهري وعصره عشت كوابيس الإعدامات والسحل وحكم الفرد. وصادف أن تعثرت بكتاب عن تاريخ بريطانيا، فقلت أروح عن نفسي قليلاً. وأي ترويح! قرأت كيف أعدم هنري الثامن اثنتين من زوجاته الست، وكيف ترك ثالثة تموت في سجنها. وكيف أعدَمت ابنته إليزابيث الأولى «ماري ملكة الاسكوتلنديين» على الوضم.

الوضم

الوضم خشبة الجزار التي يقطع عليها اللحم.

جيء بالملكة ماري وصعدت إلى المنصة وهي في أتم زينتها. خلعت طيلسانها بابتسامة وهي تقول: ما تعودت أن أخلع طيلساني على مشهد من الناس. وأقعى قصابها ومساعده على الركبتين وطلبا المغفرة، فغفرت لهما. ثم أقعت هي بركبتيها على وسادة وثيرة، ووضعت رأسها على الوضم بعد أن قالت: بين يديك أيها الرب أضع روحي. وبضربتين من البلطة قطع رأسها، وعندما رفعه الجلاد صائحاً «عاشت الملكة»، يقصد إليزابيث، سقط الرأس لأن الشعر كان مستعاراً.

وكانت حرب أهلية، وأعلنت بريطانيا الجمهورية، وأقعى تشارلز الأول على ركبتيه أمام الوضم، وكانت ضربة واحدة. ثم أعيدت الملكية بعد بضعة عقود، وعاقب تشارلز الثاني أنصار الجمهورية قدرَما استطاع. وجاء جيمس الثاني وحاول أن يكون الحاكم الفرد، ولكن بريطانيا كانت قد شبَّت وتحول برلمانها إلى مؤسسة تعرف كيف ترعى مصالح الطبقة التي تمثلها. لا أصبحت بريطانيا ديمقراطية ولا غدت حريصة على حقوق الإنسان، لكنها تبينت الطريق إلى «حكم الطبقة» لا حكم الفرد. تخلصت من نزوات الفرد يوم عزلت جيمس الثاني عن الحكم فيما عرف بـ «الثورة المجيدة»، ١٦٨٨.

التاريخ ليس فيزياء، والمستقي العبر منه كالأعمى يدخل بيته الجديد. أدري أن الشعوب العربية تعيش طفولتها، ولا أدري كم جيلاً سيعيش ويموت قبل أن تشب.

ها هو الجواهري يمدح قاسماً ويجعله البطل و«الزعيم الأوحد» ثم بعد سنة يفر من وجهه، ثم بعد سنة يصله خبر قتله فيحمد الله ويوقد الشموع. وها هو يمدح عبد الناصر قبيل الهزيمة ويرثيه بعدها. لا نضع الشعراء على درجات، ولا نصنفهم، ولا نحكم عليهم بحصافة فكرهم الاجتماعي أو السياسي، بل بجودة شعرهم: بحرارته، وبصدقه، وبما فيه من صنعة متقنة.

١ الأمنيات

النجف (١٩٢١):

جَلَبَتْ لِي الهمَّ، والهمُّ عَنا   آهِ ما أرْوَحَنِي لولا المُنى

الأمنيات وأحلام اليقظة جلبت لي الهم، وهو عناء، وما كان أروحني، أي ما كان أكثر ارتياحي، لولا هذه الأمنيات

إنَّما أشكو حياةً كلُّها   تَبِعاتٌ كنتُ عنها في غِنى

غَرَّدَ الطيرُ فقالوا: مُسْعَدٌ   رُبَّ نَوْحٍ خالَهُ الغِرُّ غِنا

يظنون الطير عندما يغرد سعيداً، لكن ربَّ نوح، أنين، ظنه الغر، الغشيم الجاهل، غناء.. وكذا الشاعر يتغنى بالشعر ولكنه متألم

وانْثَنى الغُصنُ، ولولا أنَّه   حامِلٌ ما لم يُطِقْهُ ما انثَنى

وينثني الغصن فيظنونه يتمايل غنجاً.. لكنه ما انثنى إلا من ثقل الثمر الذي يحمله

٢ القنوط

النجف (١٩٢٣):

قــد كـنــتُ أَقــربَ لـلــرجَــا ... ءِ فـصِـرْتُ أقـربَ لـلـقُـنـوطِ

القنوط: اليأس

كــلُّ الــبــلادِ إلــى صـعــو ... دِ والــعــراقُ إلــى هــبــوطِ

يــا نــائــمــاً مــا نــبَّــهــتْـ ... ـهُ الـحـادثـاتُ مِـن الـغَـطـيـطِ

الغطيط: الشخير

لـم يـبـقَ مِـن نَـسْـجِ الأَكُـفِّ ـ ... الـمُـحـكَـمـاتِ سـوى الـخـيـوطِ

لم يبق من أمجاد الماضي، التي هي كالبساط الذي أُحكِم نسجه، سوى خيوط

٣ هذَّبه الحب

النجف (١٩٢٤):

عـاطـفـاتُ الـحـبِّ مـا أبـدَعَـهـا ... هَـذَّبتْ طَـبـعـي وصَـفَّـتْ خُـلُـقـي

حُــرَقٌ تَــمــلأُ رُوحــي رِقَّــةً ... أنــا لا أُنــكـرُ فـضـلَ الـحُـرَقِ

ثِـقْ بـأنَّ الـقـلـبَ لا تَـشـغَـلُـهُ ... ذكــريــاتٌ غــيــرُ ذِكــراكَ ثِــقِ

لـسـتَ تَـدري بـالـذي قـاسـيـتُـه، ... كـيـف تَـدرِي طَـعـمَ مـا لـم تَـذُقِ

لــم تَــدَعْ مِــنِّــيَ إلَّا رَمــقــاً، ... وفــداءٌ لــكَ حــتــى رَمــقــي

رمق: بقيةٌ من حياة

أنـا، مـا عِـشـتُ، على دينِ الهوى ... فـهَـواكُـمْ بَـيْـعَـةٌ فـي عُـنـقـي

بيعة: عهد ومبايعة. سودت هذه القطعة كلها لأنني كنت قرأتها في برنامج تلفزي اسمه «قال الشاعر»، ثم سمعت نفسي أقرأها من اليوتيوب بضع مرات فأخذت مكانها في أذني، كذا هو الشعر.. نسمع القصيدة مراراً فنخلع عليها ما قد لا يكون لها من حلل الجمال

٤ فارس الشعر

النجف (١٩٢٤):

أنـا فـي الـشـعـرِ فـارِسٌ إن أُغـالَـبْ ... يَـكُـنِ الـطـبـعُ لـي مِـجَـنّـاً وتُـرسـا

أغالَب: أُبارى، الطبع: القريحة الطبيعية، والشاعر المطبوع هو الذي يقول الشعر منطلقاً من طبع، وليس بعد طول فكر وصناعة، المجن: الترس

وإذا ما ارتَـمَـتْ عـلـيَّ الـقَـوافـي   نِـلْـتُ مُـخـتـارَهـا وعِـفْـتُ الأَخَـسَّـا

إذا رمت القوافي نفسها علي اخترت أحسنها وعفت وكرهت الخسيس منها

إنْ أَكُـنْ أَصـغَـرَ الـمُـجـيـدينَ سِـنَّـاً   فـأنـا أكـبَـرُ الـمُـجـيـدينَ نَـفْـسـا

النفس الكبيرة: الشخصية الواثقة الشامخة

طَـبَّـقَـتْ شُـهـرتـي الـبـلادَ ومـا جـا   وَزَ عُـمـري عَـشْـراً وسَـبْـعـاً وخَـمْـسـا

الجواهري من مواليد ١٩٠٢، وفي الأمر خلاف شديد اقتضى من علي جواد الطاهر صفحات كثيرة.. ضاعت سدى

٥ عَزَّ المرتقى

النجف (١٩٢٤):

وَطني، ومَنْ لَكَ أن تَعودَ فَترتَقي؟   مِـنْ بعـدِ مـا أَعيـا وعَـزَّ الـمُـرتَـقى

كيف لك يا وطني أن تعود للصعود، بعد أن أعيا، صعُبَ، المرتقى، طريق الصعود، وصار عزيزاً، صعباً

لـو يَـعـلَـمُ الـشـجـرُ الـذي أَنْـبَـتَّـه   مـا حلَّ فـيـكَ مِـن الأذى مـا أَوْرَقـا

٦ السهر اللذيذ

إيران (١٩٢٦):

كـم أُرى مُـنـتـظِـراً وعْـدَكُـمُ   ثَـقُـلَ الـوعـدُ عـلـى الـمُـنـتَـظِـرِ

قـد سـهِـرنـا فـوجـدْنـا أنَّـه   فـوقُ طعـمِ الـنـومِ طَـعْـمُ الـسـهـرِ

وجدنا السهر في حبكم ألذ من النوم

٧ نظرية

(١٩٢٦):

سَـحَـرتْـنـا ظـواهـرُ الأمـرِ حـتـى   أَوْهَـمَـتْـنـا أنَّ الـبـلادَ قَـويَّـةْ

نَـتَـغَـنَّـى، وعـصـرُنـا مِـن نُـحـاسٍ،   بـأغـانـي عُـصـورِنـا الـذَّهـبِـيَّـةْ

كُـلُّـنـا بـالـذي تَـمـنَّـى سـعـيـدٌ   لا نُـبـالـي أنَّ الـبـلادَ شَـقِـيَّـةْ

كـثُـرَ الـمُـدَّعـونَ، لَـمَّـا اختـلـفْـنـا   فـي الـبَـديـهِـيِّ، فِـكـرةٌ فَـلـسَـفِـيَّـةْ

عندما نختلف في موضوع بديهي يأتي الأدباء والنقاد بفكرة يدعون أنها فلسفية

لو يقولُ الأديبُ في الشرقِ «إن الـ أرضَ تَحتي»، لَسُمِّيَتْ نَظرِيَّةْ

٨ القصائد الشاربة الآكلة

بغداد (١٩٢٧):

أَيَدري مَن يُرَدِّدُها حِساناً خَلاءً مِن زِحافٍ أو سِنادِ..

هل علم من يردد أشعاري الخالية من المشكلات العروضية كالزحاف والسناد..

بِأنَّ الشعرَ تَشربُ مِن عُيوني قَوافيهِ، وتَأكُلُ مِن فؤادي؟

هل يعلم أن قوافي الشعر ترهقني كأنها تشرب الماء من عيوني، وتأكل من قلبي؟ فالشعر ينطلق من أعماق وجداني

٩ حبس الغيث

بغداد (١٩٢٨):

سَكَتُّ حتى شَكَتْني غُرُّ أشعاري واليومَ أَنطِقُ حُرّاً غيرَ مِهذارِ

ثُرْ يا شعورُ على ضَيْمٍ تُكابِدُهُ أو لا، فلسْتَ على شَيءٍ بِثَوّارِ

ثر يا شعور على ظُلم تعانيه، وإن لم تفعل فلست ثائراً على شيء

لو في يَدي، لَحَبَسْتُ الغيثَ عن وطنٍ مُستسلِمٍ، وقَطَعْتُ السَّلسَلَ الجاري

السلسل الجاري: الماء المترقرق كأنه، وهو يجري، سلسلةٌ من حلقات. وفي العراق سلسلان جاريان: دجلة والفرات

العذرَ يا وطناً أَغلَيْتُ قيمَتَه عن أنْ يُرى سِلعَةً للبائعِ الشاري

العذرَ: أطلبُ المعذرة

وكيف يُسمَعُ صوتُ الحقِّ في بلدٍ لِلإفْكِ والزُّورِ فيهِ أَلْفُ مِزْمارِ؟

الإفك والزور: الكذب والافتراء.. ففي البلد كثيرون ممن يزمرون للكاذبين ويمجدونهم. تسويد عمران القفيني

ما ذَا السُّكونُ؟ ألا تَهتاجُ نَخوَتُكُمْ أنَّ العُروبَةَ قد حُفَّتْ بِأخْطارِ؟

ما ذا: أي ما هذا

١٠ الإنجليز يقتلون شابين

بغداد (١٩٢٨):

مشى نَعْشٌ يَجُرُّ وَرَاهُ نَعْشاً سَحابٌ مُقْلِعٌ قَفَّى سَحابا

النعش يأتي بعده نعش والمشيعون كالسحاب المقلع، المنكشف الزائل، الذي يقفي سحاباً زال قبله. يصور جمهورين كبيرين يشيعان نعشين واحداً بعد الآخر

سيعلمُ مَن يَخالُ الجَوَّ صَفْواً   بِأنَّ الجوَّ مملوءٌ ضَبابا
ومَن ظَنَّ المجالِسَ عامِراتٍ   بِمدحٍ، أنَّها شُحِنَتْ سِبابا
ولو عَرَفَتْ بِلادي ما أرادَتْ   بِها النُّوَّابُ لم تُرِدِ انتِخابا
وقد تَخِذُوا لُحومَ بَنيهِ زاداً   وقد لَبِسُوا جُلودَهُمُ ثِيابا
فيا وطني مِن النَّكَباتِ فَأْمَنْ   فقد وَفَّتكَ حَظَّكَ والنِّصابا

يهزأ: أنت يا وطني آمن من حلول المصائب بك لأنك أخذت منها النصاب، أي النصيب، الوافي

١١ أزمات وصدمات

بغداد (١٩٢٩):

ستبقَى طَويلاً هذهِ الأزَماتُ   إذا لم تُقَصِّرْ عُمرَها الصَّدَماتُ
مَشتْ كلُّ جَاراتِ العراقِ طَموحَةً   سِراعاً، وقامَتْ دونَه العَقَباتُ

الدول المجاورة تقدمت، والعراق بينه وبين التقدم عقبات، صعاب

ومِن عجبٍ أنَّ الذين تَكَفَّلُوا   بِإنقاذِ أهلِيهِ هُمُ العَثَراتُ

من تكفلوا بإنقاذ أهل العراق هم أنفسهم العثرات، العقبات المعيقات

غَداً يُمنَعُ الفِتيانُ أن يَتعلَّمُوا   كما اليومَ، ظُلماً، تُمنَعُ الفتياتُ
أقولُ لِقومٍ يَحْمَدُونَ أَناتَهُمْ   وما حُمِدَتْ في الواجِباتِ أَناةُ

الأناة: التروي والبطء

بِأسرعَ مِن هذي الخُطَى تُدرَكُ المُنى،   بِطَاءٌ لَعَمري منكُمُ الخُطُواتُ

تحقيق الأماني إنما يتم بخطى أسرع من خطاكم البطيئة

١٢ الأمم تتعثر وتقوم.. وتندثر أيضاً

بغداد (١٩٢٩):

هل أنقذَ الشامَ كُتَّابٌ بِما كَتَبوا   أو شاعرٌ صانَ بَغداداً بِما نَظَما؟
يا أمَّةً غَرَّها الإقبالُ ناسِيَةً   أنَّ الزمانَ طَوى مِن قبلِها أُمَما

غرَّ الأمة الإقبال، الازدهار، ونسيت أن الزمن طوى، أباد، أمماً في السابق

سَيُلحِقُونَ فِلَسْطِينا بِأَنْدَلُس وَيَعطِفُونَ عليها البيتَ والحَرَما
وَيَسْلُبُونَكِ بَغداداً وجِلَّقَةً وَيتركونَكِ لا لحماً ولا وَضَما

سيسلبونكِ أيتها الأمة بغداد وجلقة، دمشق، ويتركونك وليس بك لحم ولا وضم، والوضم هو الخشبة التي يقطع عليها القصاب اللحم.. ولم ترض القافية هنا بكلمة عظم فجاء الشاعر بكلمة رضيت عنها القافية ولم يرض المعنى

يا أُمَّةً لِخُصوم ضِدَّها احْتَكَمَتْ كيف ارتَضَيْتِ خَصيماً ظالماً حَكَما
سَلِي الحوادِثَ والتاريخَ هل عَرفا حقّاً ورَأياً بِغيرِ القُوَّةِ احتُرِما

١٣ ضد الغالبية

أنا ضِدَّ الجُمهورِ في العيشِ والتفـ ـكيرِ طُرَّاً وضِدَّهُ في الدينِ

الجمهور: الغالبية

كلُّ ما في الحياةِ مِن مُتَعِ العيـ ـشِ ومِنْ لَذَّةٍ بِها يَزدَهِيني

يزدهيني: يفرحني

ابْسِمي لي تَبْسِمْ حَياتِي، وإنْ كا نَتْ حياةً مَليئةً بِالشُّجونِ

أيتها الحبيبة ابتسمي لي فحياتي مملوءة بالشجون، الهموم

أنصِفيني تُكَفِّري عنْ ذُنوبِ النَّـ ـاسِ طُرّاً، فَإِنَّهُمْ ظَلَموني

طراً: جميعاً

مَتِّعيني قبلَ المَماتِ، فما يُدْ ريكِ ما بَعدَهُ وما يُدْرِيني
فَستُغْرِينَ بِالمَحاسِنِ رِضْوا ناً فَيُلقيكِ بين حُورٍ وعِينِ

بعد الموت ستذهبين ليوم الحساب وستقومين بإغراء رضوان حارس الجنة فيجعلك ضمن الحور العين

وأنا في جَهَنَّم مَعَ أَشْيا خِ غُواةٍ بِغَيِّهِمْ غَمَروني
عن يَساري أَعْمى الْمَعَرَّةِ والشَّيْـ ـخُ الزَّهَاوِيُّ مُقْعَداً عن يَميني

يحشر الجواهري نفسه، محقاً، مع اثنين من كبار الشاكين في تاريخ شعرنا العربي: الزهاوي، والمعري.. وزاد فجعل الزهاوي مقعداً حتى لا يكون المعري الوحيد صاحب العاهة

١٤ الشريف حسين

بغداد (١٩٢٩):

سلامٌ على شيخِ الجزيرةِ كلِّها سلامٌ على تاريخِهِ المُتَألِّقِ

الشريف حسين كان شريف مكة، وجعله شيخ الجزيرة العربية كلها.. وفي هذا تعريض بحكام نجد السعوديين الذين أخذوا الحجاز من الحسين

أبا فيصلٍ بعضَ التَّعَزِّي فكَمْ رَمَتْ ... شَهامةُ قومٍ شَملَهُم بِالتَّفَرُّقِ

كثيراً ما شتتت الشهامة شمل القوم وفرقتهم.. والحسين تفرق بنوه فمنهم من ملَك الأردن ومنهم من ملَك العراق، وهو نفسه ذهب إلى قبرص منفياً عن الحجاز سنة ١٩٢٥

ولِي فيكَ قبلَ اليومِ غُرُّ قَصائِدٍ ... كفاها سُمُوّاً أنَّها بَعضُ مَنطِقي

يكفي قصائدي فيك علواً أنها من شعري أنا

مِنَ اللَّاءِ غَذَّاها جَريرٌ بِروُحِهِ ... ولاءَمَ شَطْرَيْها نَسيجُ الفَرزدقِ

ومِن قبلُ كانُوا إن أرادُوا انتِقَاصَةً مِن الشعرِ قالوا عنه لم يَتَعَرَّقِ

كانوا ينتقصون من شعر الشاعر إذا لم يكن زار العراق وأقام بها «فتعرق» شعره

فإنْ لا تَبُذَّ المُفْلِقِينَ فإنَّها ... يُقَصِّرُ عنها شَاعِرٌ غيرُ مُفْلِقِ

إن لم تبذ، أي تفُق، هذه القصيدة الشعراء المفلقين، الفحول، فإنها لا تصدر عن شاعر غير فحل

سَهِرتُ لها الليلَ التَّمامَ أُجيدُها ... أَغوُصُ على غُرِّ المعاني، وأَنتَقي

الليل التمام: أطول ليلة في السنة

فمَنْ يَتَنَكَّرْ مِن هُمومٍ فإنَّني ... لَأُنكِرُ أنْ أعتَادَ غيرَ التَّحَرُّقِ

من يتنكر من الهموم، يعتبر حضورها في نفسه شيئاً منكراً رديئاً، فأنا أستغرب أن أتعود شيئاً سوى التحرق والتوهج

وأُنْكِرُ نَفسيِ أن تُرى في انبِسَاطَةٍ ... وأُنْكِرُ صَدرِيِ أن يُرى غيرَ ضَيِّقِ

أَخِفُّ إلى المرآةِ كُلَّ صَبيحَةٍ ... أَرى هل أَشابَ الهَمُّ بِالأَمْسِ مَفرِقي

أخف، أسرع، إلى المرآة، صباحاً لأرى هل جعل الهم مفرق رأسي يشيب مما عانيته ليلاً من هموم

١٥ جنس الشعراء

بغداد (١٩٣١):

غريبٌ عالَمُ الشعراءِ تَقْسُو ... ظُروفُهُمُ، وأَلْسُنُهُمْ تَرِقُّ

كبعضِ الناسِ هُمْ، فإذا استُثِيرُوا ... فبينَهُمُ وبينَ الناسِ فَرْقُ

١٦ علي وعمر

قال الجواهري محيياً بعثة الجامعة المصرية إلى العراق، بغداد (١٩٣١):

إنَّ السِّياسةَ لم تُبَقِّـ ـعلى البلادِ ولَمْ تَذَرْ
وبِرَغمِ ما في الرَّافِدَيْـ ـنِ مِن المصائبِ والغِيَرْ

الغير: المصائب

وبِرَغمِ أنَّا قد تَرَعَّـ ـمَ عِندنا حتى البَقَرْ
فهُنا شَبابٌ ناهضو نَ عُقوقُهُمْ إحدَى الكُبَرْ

عقوقنا نحن للشباب وتخلينا عنهم إحدى الكبر، الآثام

تَمشي على نُورِ الثَّقا فَةِ مَشْيَ مُوثُوقِ الظَّفَرْ

تمشي الشباب على نور الثقافة بثقة بالظفر، الفوز. لم تقعد كلمة «واثق» في صندوق الوزن فأقعد الشاعر موثوقاً.. وصلت الفكرة

فيها الشجاعةُ مِن عَليٍّ والسياسةُ مِن عُمَرْ
شَوْقي يعيشُ كما يَليـ ـقُ بِمَنْ تَفكَّرَ أو شَعَرْ

يعيش أحمد شوقي عيشة منعمة تليق بالمفكر وبالشاعر

وتَحُوطُ إبراهيمَ عا طِفَةُ الأميرِ مِن الصِّغَرْ

وحافظ إبراهيم تحوطه رعاية أمير الشعراء شوقي من وقت أن كانا صغيرين.. ليس كذلك بالضبط.. فقد كان بينهما دائماً تنافس، وانتقد حافظ شوقي في كتابه «ليالي سطيح»، ثم صارا صديقين ودودين في آخر عشرين سنة من حياتهما، وسيموتان كلاهما بعد سنة واحدة من قصيدة الجواهري هذه

أمَّا هُنا فالشعرُ شي ءٌ لِلتَّمَلُّحِ يُدَّخَرْ

أما في العراق فالشعر يدخر ويخبّأ للتملح، للتسلية

١٧ الطموح

بغداد (١٩٣١):

مضتْ حِجَجٌ عَشْرٌ ونَفسي كأنَّها مِن الغيظِ سَيْلٌ سُدَّ في وجهِهِ المَجْرَى

حجج: سنوات

خَبِرْتُ بها ما لو تَخَلَّدْتُ بعدَه لَمَا ازدَدْتُ عِلماً بِالحياةِ ولا خُبْرا

وأَبصَرْتُ ما أَهْوى على مِثْلِهِ العَمَى　　وأُسمِعْتُ ما أَهوى على سَمْعِهِ الوَقْرا

أبصرت أشياء كنت أحب لو عميت فلم أرها، وأسمعني الناس أشياء كان الوقر، ضعف السمع، أحب إلي من سماعها

وليس بِحُرٍّ مَن إذا رامَ غايَةً　　تَخَوَّفَ أن تَرْمِي به مَسْلَكاً وَعْرا

رام غاية: سعى نحو هدف

وما أنتَ بالمُعْطي التَّمَرُّدَ حَقَّهُ　　إذا كنتَ تَخشَى أنْ تَجوعَ وأن تَعْرَى

مَشى الدهرُ نَحوي مُستَثِيراً خُطوبَهُ　　كأنِّي بِعينِ الدهرِ قَيْصَرُ أو كِسرى

وقد كان يكفي واحِدٌ مِن صُروفِهِ　　لقد أَسْرَفَتْ إذْ أقبَلَتْ زُمَراً تَتْرى

من صروفه: من مصائب الدهر، تترى: متواترة متتابعة

وما كان ذَنبي عندَهُ غيرَ أنَّني　　إذا مَسَّني بِالخَيْرِ لم أُطِلِ الشُّكْرا

طُموحٌ يُريني كلَّ شيءٍ أَنالُهُ　　وإنْ جَلَّ قَدْراً، دونَ ما أَبتَغي قَدْرا

حُبِيتُ بِنُدْمانٍ وخَمْرٍ فَغاظَني　　بِأَنِّيَ لا مُلْكاً حُبِيتُ ولا قَصْرا

حُبيت: أُعطيتُ

ولو بِهِما مُتِّعْتُ ما زِلْتُ سَاخِطاً　　على الدَّهرِ، إذْ لم يَحْبُني حَاجَةً أُخْرى

وجُوزِيتُ شَرّاً عنْ طُموحِي، فَها أنا　　بِرَغمِيَ لا خَلّاً تَخِذْتُ ولا خَمْرا

لا حصلت على خمر ولا على خل. وصانع النبيذ إذا لم يحسن عمله تحول عصير عنبه إلى خل لا خمر.. والخل أقل سعراً بكثير

وإنْ تُلْهِبِ الشَّكْوى قَوَافِيَّ حُرْقَةً　　وغيظاً فإنِّي قادِحٌ كَبِداً حَرَّى

ولو حُمَّ لِي أنْ أَحْكُمَ الناسَ ساعةً　　وأن أَتَولَّى فيهِمُ النَّهيَ والأَمْرا..

حم: قُضيَ. كل واحد فينا يحلم أن يتحكم في رقاب الناس ولو ساعة من الزمن ليرفع راية العدل.. هكذا نظن كلنا. ولكن الإنسان غشوم. فلو جاءته ساعة كهذه الساعة لما صنع إلا ما يصنعه كل طاغية. محمد مهدي الجواهري يريد في هذه الساعة أن يعاقب المنافقين الطعانين في الظهر

لَمَزَّقْتُ وَجْهاً بِالخَديعَةِ باسِماً　　ولاشَيْتُ ثَغْراً بِالضَّغِينَةِ مُفْتَرَّا

لاشيت: أفنيت، مفتراً: مبتسماً

وقَطَّعْتُ كَفّيْ مَنْ يَمُدُّ يَمينَهُ　　يُصَافِحُني في حينَ تَطْعَنُني اليُسرى

١٨ النواميس المفسَّرة

بغداد (١٩٣١):

حُرِّيةُ الفكرِ ما زالت مُهَدَّدَةً   في الرَّافِدينِ بِهَمَّازٍ ومَشَّاءِ

هماز: مُغتاب، مشاء: يمشي بين الناس ناقلاً أقوال بعضهم لبعض إفساداً، وتمام العبارة القرآنية: مشاء بنميم

وبِالنَّواميسِ ما كانتْ مُفَسَّرَةً   إلَّا لِصالحِ هيئاتٍ وأَسماءِ

النواميس: القوانين، ما كانت: لم تكن. بعد سنين سيجد الجواهري نفسه مقرباً من وزير معارف، وسيطلب منه طلباً واحداً: أن يجعل ولده ينجح في إحدى السنوات بالمدرسة الثانوية بعد أن أسقطته درجاته المدرسية، وكان للجواهري ما أراد. المصدر: مذكرات الجواهري

١٩ عذبيني لو سمحتِ

بغداد (١٩٣٢):

لا تَشِحّي ولا تَجودي، ولكنْ   أُترُكيني ما بينَ جَزْرٍ ومَدِّ

ثم قُولي هاكَ الذي تَبتغيهِ   ثم لَمَّا أَقولُ: هَاتيهِ، رُدِّي

لَوحَةٌ ما لها النَّظيرُ وُقوفُ الـ   ـعاشقِ الصَّبِّ بينَ أَخْذٍ وَرَدِّ

هذه لوحة نفسيَّة لا نظير لها: وقوف الصب، أي العاشق، محتاراً في أمر المعشوق

لا لِأجلي لكنْ لِأجلِ التَّلَهّي   بِقوافِيَّ حَرِّكي بعضَ وَجْدي

يريدها أن تحرك وجده، أي غرامه، ليس لأجله بل كي يتلهّى، ويتسلى، بالقوافي أي يقول شعراً

٢٠ أسود وثعالب

بغداد (١٩٣٢):

وفاتَتْ أُناساً قُدرةٌ فتَمَسْكَنُوا   ولم يُخْلَقوا أُسْداً، فعاشُوا ثعالِبا

إلى رُوحِ مَكيافيلَ نَفْحُ تَحِيَّةٍ   وصوبُ غَمامٍ يَترُكُ القَبرَ عَاشِبا

أهدي نفح تحية، أي تحية منفوحة ممنوحة، إلى روح مَكيافيلّي الإيطالي صاحب كتاب «الأمير» الذي وصف غشْمَ القوي وصلفه ودهاء الضعيف ومكره، وأهديه دعاء بصوب غمام، أي بمطر، يجعل العشب ينبت على جنبات القبر

أَبانَ لنا وَجْهَ الحقيقةِ بعدَما   أقامَ الوَرى سِتراً عليها وحاجِبا

ولو رُمْتُ لِلعَوْراتِ كَشْفاً أَرَيْتُكُمْ   مِنَ الناسِ حتى الأنبياءِ عجائِبا

٢١ إقرار بالتفوق لشوقي

قال الجواهري ضمن رثاء أحمد شوقي، وكان رثى حافظاً قبله، بغداد (١٩٣٢):

لقد فاتَ بِالسَّبْقِ كلَّ الجِيا ... دِ في الشعرِ هذا الجوادُ الأغَرّ

الجواد الأغر: الفرس الذي في جبهته غرة بيضاء

كأنَّ عُيونَ القوافي الحسا ... نِ، مِن قبلُ كانتْ له تُدَّخَرْ

٢٢ تغير حُسن الجعفري

قال الجواهري وزار في سامراء أطلال «الجعفري»، قصر الخليفة المتوكل على الله:

والجَعْفَرِيُّ فلم يُقَصِّرْ رَسْمُهُ الـ ... ـباقي بِرَغْمِ الدهرِ عن تمثيلِهِ

الجعفري، قصر الخليفة العباسي جعفر المتوكل، قبل نحو ١٢٠٠ سنة، لم تقصر رسومه، أي أطلاله، في تمثيل القصر، أي إعطاء صورة عما كان عليه.. رغم مرور كل هذه السنين

بادي الشُّحوبِ، تكادُ تَقرأُ لَوْعَةً ... لِنعيمِهِ المسلوبِ فوق طُلولِهِ

وكأنَّما هُوَ لم يَجِدْ عن جعفرٍ ... بَدَلاً يُسَرُّ به، ولا عن جيلِهِ

جعفر المتوكل الخليفة الذي بناه

ولقد شَجَتْني عَبْرَةٌ رَقْراقَةٌ ... حَيْرانَةٌ في العينِ عند دخولِهِ

إنِّي سألتُ الدهرَ عن تخطيطِهِ ... عن سطحِهِ، عن عَرضِهِ، عن طُولِهِ

فأجابَني: هذي الخُرَيْبَةُ صَدْرُهُ ... والبَلْقَعُ الخالي مَجَرُّ ذُيولِهِ

صدر القصر، واجهته، هي هذه الأطلال الخربة، ومجر ذيوله، أي بقية مرافقه، بلقع خال، أرض قاحلة

وسَلِ الرِّياحَ السَّافِياتِ فإنَّها ... أدْرى بِكُلِّ فُروعِهِ وأُصولِهِ

السافيات: التي تأتي بالتراب

وتَعلَّمَنْ أنَّ الزمانَ إذا انْتَحَى ... شُهُبَ السَّما كانتَ مَداسَ خُيولِهِ

انتحى: قصد

مَدَّتْ بَنُو العبَّاسِ كَفَّ مُطاوِلٍ ... فمَشى الزمانُ لَهُمْ بِكَفِّ مَغُولِهِ

استطال بنو العباس ومدوا سلطانهم فوق الناس، فنكبهم الزمن بالمغول الذين أنهوا خلافتهم في العراق

٢٣ تقصير اللغة

بغداد (١٩٣٢):

كم في الطبيعةِ مِن معنىً يُضَيِّعُهُ   على القَراطيسِ نَقصٌ في التَّعابيرِ

القراطيس: الأوراق

حتى كأنَّ عيونَ الشعرِ يُعْوِزُها   وَصفُ الدَّقائِقِ مِن هذي التَّصاويرِ

فَما تُلِمُّ بِها إلَّا مُقارَبَةً   ولا تُحيطُ بِها إلَّا بِتَقديرِ

يتألم الشاعر، وحق له، لأن الشعر واللغة عاجزان عن أداء المعاني.. هذه أبيات يقولها رجل كان يمد يده عميقاً داخل روحه وهو يقول الشعر، ويحاول أن يمسك بأبدع سمكة ملونة.. ثم قد تخرج يده وبها سمكة شبوط

٢٤ إذا لم تكن ذئباً..

بغداد (١٩٣٣):

دَعِ النُّبلَ لِلعاجِزِ القُعْدُدِ   وما اسْطَعْتَ مِن مَغْنَمٍ فازْدَدِ

القعدد: القاعد عن القتال، الجبان

ولا تُخْدَعَنَّ بقولِ الضِّعافِ   مِنَ الناسِ إنَّكَ عَفُّ اليَدِ

الضعاف يمدحونك لأنك نظيف اليد.. فلا تنخدع بذلك، أنت فقط جبان لا يجرؤ على الوصول إلى الثمار المحرمة

سَفاسِفُ تَضحَكُ مِن أمرِها   صَرامَةُ ذي القُوَّةِ الأَيِّدِ

أقوال الناس هذه سفاسف، أي سخافات، يضحك منها الأيِّد، أي القوي

فلا تَغْدُ طَوْعاً لأمثالِها   متى ما تُغَرَّرْ بِها تَنْقَدِ

فلا تنخدع بأقوالهم، فإنك إن تغرر بها وتخدع أصبحت مقوداً لا حراً

إليكَ النصيحةَ مِن مُصْطَلٍ   بِنارِ التَّجارِبِ مُسْتَحْصِدِ

مستحصد: مجرب ناضج

رِدِ العيشَ مُزدَحِمَ الضَّفَّتَيْنِ   مِنَ الغِشِّ مُلتَحِمَ المَوْرِدِ

رد العيش، عليك ورود العيش، وهو كالنهر المزدحمة ضفتاه بالغش وقد التحم الناس وتكاثفوا وتقاتلوا على الخيرات

وكُنْ رجلَ الساعةِ المُجْتَلي   مِنَ اليومِ ما يُرتَجى في غَدِ

كن رجل الساعة الواقعي الذي يجتلي، أي يرى، اليوم ما يرجى حدوثه غداً.. أي أنه ذو بصيرة

إذا ما مَخَضْتَ نفوسَ الرجالِ: مِن الأقربينَ إلى الأبعدِ . .

مخضت: محصت وفحصت بدقة

تَيَقَّنْتَ أنَّ الذي يَدَّعُونَ مِن المجدِ لِلآنَ لم يُولَدِ

المجد كما يصفونه شيء خرافي لم يوجد بعد

هُمُ الناسُ لا يَفضُلونَ الوُحوشَ بِغيرِ التَّحَيُّلِ لِلمَقْصِدِ

الناس يتميزون عن الوحوش فقط بأنهم ذوو حيلة في الوصول إلى مقاصدهم

فلا تَأْتِ سَاحَةَ هذي الذئابِ تُنازِلُها بِفَمٍ أَدْرَدِ

فم أدرد: فم سقطت أسنانه

وما اسْطَعْتَ فاقطَعْ يَدَ المُعْتَدى عليهِ، وقَبِّلْ يَدَ المُعْتدي

كن ظالماً ـ ذلك أحسن من أن تكون مظلوماً ـ وشارك الظالمين في قطع يد الضعيف الذي اعتُديَ عليه، وقبِّل يد المعتدي.. يا لها من نصيحة.. لكننا رأينا كثيراً من الرجال «الناجحين» يرمون كل المبادئ في سلة المهملات حرصاً على أن يكونوا مع القوي، وعلى من يخدم مصالحهم. قال البريطاني بول ميسون، في كتاب له صدر عام ٢٠١٥: «في أغسطس ٢٠١٤، قضيت عشرة أيام في غزة، في مجتمع يتم تدميره تدميراً منتظماً بقصف طائرات بلا طيار، وبالقصف المدفعي، وبالقنص. قتل ١٥٠٠ مدني، ثلثهم أطفال. وفي فبراير ٢٠١٥ رأيت الكونغرس الأميركي يصفق واقفاً خمساً وعشرين مرة للرجل الذي أعطى الأوامر بتلك الهجمات» اهـ بول ميسون

أَقولُ لِنفسي وقد عَرْبَدَتْ رِجالٌ لِغاياتِها: عَربِدي

وإنَّكِ إنْ لم تُواتي الحياةَ بِنَفْسِ المُخاطِرِ تُسْتَعْبَدي

يا نفسي إذا لم تواتي الحياة، تُقبلي عليها، بنفسية المجازف فسيكون نصيبك الاستعباد

٢٥ التجارب المؤذية

بغداد (١٩٣٤):

لم يبقَ مَن يستَثيرُ الشعرُ نَخْوَتَهُ ومَن يُحرِّكُهُ لُطفُ التَّراكيبِ

تعليق عمران القفيني: (يبدو أن الشعر سيخيِّب ظننا ـ ونرجو ذلك ـ ويبقى صامداً. في زمن الجواهري «لم يبق من يستثير الشعر نخوته»، وفي زمن المتنبي قبله بأكثر من ألف سنة كذلك تعب «ببيع الشعر في سوق الكساد»، وإن قصد المتنبي شيئاً في ذلك السياق، إلا أنه كان يشكو كساد بضاعته في المحصلة)

أعلى مِن الشعرِ عند القومِ مَنزلةً نفخُ البُطونِ وتَطريزُ الجلابيبِ

أهم من الشعر عند الناس أن يأكلوا حتى الانتفاخ، وأن يلبسوا الجلابيب المطرزة

قالوا: استفدْتَ مِن الأيامِ تَجرِبَةً. والموتُ أروحُ مِن بعضِ التجاريبِ

قالوا لي إنك استفدت من مصائب الأيام تجارب، وأقولُ إن الموت أروح، أخف وقعاً، من بعض التجارب التي يمر بها الإنسان

تُعفي الشَّدائِدُ أَقواماً بِلا أدبٍ وتَبتَلي غيرَ مُحتاجٍ لِتأديبِ

٢٦ الجَلَب

بغداد (١٩٣٤):

أَلا إِنَّ وضعَ النَّهْيِ والأمرِ عندنا غريبٌ، وأهلُ النَّهْيِ والأمرِ أَغْرَبُ

الأمر والنهي: يقصد الحكم

تَداولَ هذا الحكمَ ناسٌ لو انَّهُمْ أَرادُوهُ طَيفاً في مَنامٍ لَخُيِّبُوا

تداول الحكم، وتبادله فيما بينهم، ناس غير لائقين للحكم حتى لو أنهم ـ في أوضاع طبيعية ـ أرادوا أن يحلموا به حلماً لما استطاعوا

وإنَّ مِن المُستَحْدَثِ الحكمِ عادةً يَرى فُرصةً منه اقْتِداراً فيَضْرِبُ

إنها لعادة عند المستحدَث الحكم، الجديد عليه، أن يقتنص الفرصة فيضرب بقسوة. وفي هذا تعريض بالملك فيصل وبمن جاء معه من سورية وأصبح يتحكم في الناس بالعراق، ومن هؤلاء ساطع الحصري المسؤول عن التعليم، وكان الجواهري ناقماً عليه

وما جئتُ أَهْجُوهُ فلم يَبقَ مَوضِعٌ نَزيهٌ لهُ بِالهَجْوِ يُؤْتَى فَيُثْلَبُ

يثلب: يذم

أفي كلِّ يومٍ بالعراقِ مُؤَمَّرٌ غَريبٌ بهِ، لا الأُمُّ منهُ ولا الأَبُ

مؤمَّر: صاحب أمر ونهي

أكلُّ بَغيضٍ يُثْقِلُ الأرضَ ظِلُّهُ وتأْبَاهُ، يُجْبَى لِلعراقِ ويُجْلَبُ؟

أكل شخص بغيض، كريه، ثقيل.. وحتى ظله على الأرض ثقيل، وترفضه الأرض يجبى، يؤتى به، للعراق؟

٢٧ أحِبَّ نفسَك

بغداد (١٩٣٤):

لِأُمِّ القَوافي الويلُ إنْ لم يَقُمْ لَها ضَجيجٌ، ولم تَرتَجَّ منها المَحافِلُ

الويل للشعر إن لم يكن مؤثراً

أرى القومَ مَنْ يَقْذَعْ يُقَرَّبْ إليْهِمُ   ومَن يَجْتَنِبْ يَكْثُرْ عليه التَّحامُلُ

الشاعر المقذع، الشتَّام، يصبح مقرباً لتفادي ضرره، ومن يجتنب الشتم يتحاملون عليه

وأعلمُ عِلماً يقطعُ الظنَّ أنَّه   لِكلِّ امْرئٍ في كلِّ شيءٍ عَواذِلُ

أعرف يقيناً أن الإنسان يجد من يعذله، يلومه، على كل شيء يأتي به. تسويد عمران القفيني

فما اسْطَعْتَ فاجعلْ دَأْبَ نفسِكَ خيرَها   ولا تُدْخِلَنَّ الناسَ فيما تُحاوِلُ

فما الحُرُّ إلّا مَنْ يُشاوِرُ عقلَهُ   وأُمُّ الذي يَستَنْصِحُ الغيرَ ثاكِلُ

نَصيحُكَ إمّا خائفٌ أو مُغَرِّرٌ   كلا الرجُليْنِ في المُلِمّاتِ خاذِلُ

الذي تطلب نصيحته إما خائف فلا يمحضك النصح، أو مغرر، مضلل، وكلاهما يخذلك في الملمات، الصعاب الطارئة

٢٨ الحكم بالترقيع

بغداد (١٩٣٤):

هُوَ الحكمُ، إنْ حَقَّقْتَ، لُعبةُ لاعبٍ   يُسَمُّونَ تَرقيعاتِهِ بِالتَّجارِبِ

الحكم مجرد ترقيع وإرضاء فلان على حساب فلان، ويسمون هذا الترقيع «التجارب». «هو» في أول البيت ضمير شأن كـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وقد أولع به شعراء العراق

فتجربةٌ لِلحُكمِ خَلْقُ مُوظَّفٍ   وتجربةٌ للشَّعبِ تَخريجُ نائبِ

فمن هذه «التجارب» خلق وظيفة لموظف، ومنها انتخاب الشعب لنائب

وإنَّ بلاداً بالتَّجارِبِ هُدِّمَتْ   وضُيِّعَ أهلُوها لَإحدى العجائبِ

تُعَطَّلُ أَربابُ المواهبِ رَيْثَما   يُتَمِّمُ تَخريجُ الضِّعافِ المواهبِ

يتم تعطيل أصحاب المواهب بحجة منح فرصة للصف الثاني.. والنتيجة تخريج، وتعيين، غير الموهوبين. ومن ذلك تعيين الجواهري، وهو الشاعر الفصيح، مدرساً في مدرسة ابتدائية، وحجب المناصب اللائقة به عنه

مِن الظلمِ أن تأتي قصيدةُ شاعرٍ   لِتُصلِحَ حالاً، أو مقالةُ كاتبِ

فما دامَ حكمٌ للتَّجاريبِ رَاهِناً   فليس لنا غيرُ انتظارِ العَواقِبِ

ما دام الحكم في بلادنا مرهوناً للتجارب فلن تنفع فيه القصائد والمقالات، بل نجلس وننتظر العواقب، النتائج

وما خيرُ شعبٍ لستَ تَعثُرُ بينَه   على قارِئٍ مِن كلِّ ألفٍ وكاتبِ

وما خيرُ شعب: أي لا خيرَ في شعبٍ، أسلوب قديم

تَمشَّى يَجُرُّ الفقرَ رِدْفاً وراءَه؛ وأَتْعِسْ بِمَصْحُوبٍ وأَتْعِسْ بِصاحِبِ

مشى هذا الشعب يجر الفقر وراءه كأنه أردفه خلفه على حصان؛ وما أتعس المصحوب، هذا الراكب، وما أتعس صاحبه الفقر

٢٩ فيضان الفرات

(١٩٣٥):

طَغى فَضُوعِفَ منه الحسنُ والخَطَرُ وفاضَ فالأرضُ والأشجارُ تَنغَمِرُ

طغى الفرات بفيضانه فتضاعف جماله وخطره معاً

وراعَتِ الطائرَ الظَّمآنَ هَيبَتُهُ فمَرَّ وَهْوَ جَبانٌ فوقَهُ حَذِرُ

الطيور خافت هيبة النهر إذ فاض

هُوَ الفُراتُ وكم في أمرِهِ عَجبٌ في حالَتَيْهِ، وكم في آيِهِ عِبَرُ

بَيْنا هُوَ البَحْرُ لا تُسْطَاعُ غَضْبَتُهُ إذا اسْتَشاطَ فلا يُبقي ولا يَذَرُ..

بينما الفرات كالبحر لا يطيق الناس غضبه..

إذا بِه وَاهِنُ المَجرَى يُعارِضُهُ عُودٌ، ويَمْنَعُهُ مِن سَيْرِهِ حَجَرُ

إذا به بعد حين واهن المجرى، ضعيف الجريان، يعترض مجراه عود فيؤثر فيه، ويعترضه حجر فيمنع جريانه

٣٠ الكراسي الشواغر

بغداد (١٩٣٥):

تَصَفَّحْتُ أعمالَ الوَرى فوجدتُها مَخازِيَ غَطَّوْها بِشَتَّى السَّتائِرِ

وحُبِّبَ تَدليسٌ، وذُمَّتْ صَراحةٌ فلا عيشَ إلَّا عن طَريقِ التآمُرِ

ولم يبقَ مَعنىً لِلمناصِبِ عندنا سوى أنَّها مِلْكُ القريبِ المُصاهِرِ

تُسَنُّ ذُيولٌ لِلقوانينِ يُبْتَغَى بها جَلْبُ قومٍ لِلكَراسِي الشَّواغِرِ

وكانتْ طِباعٌ لِلعشائِرِ تُرتَجى فقد لُوِّثَتْ حتى طِباعُ العَشائِرِ

وكان لنا منهُمْ سلاحٌ فأصبَحوا سلاحاً علينا بين حينٍ وآخَرِ

ولا تحسَبَنَّ الشعرَ سَهلاً مَهَبُّهُ بِهذي المَساوِي بين بادٍ وحاضِرِ

لا تحسب الشعر سهل الهبوب وسط هذه المساوئ..

فإنَّ عظيماً أن يخلِّدَ شاعرٌ مخازِيَ جيلٍ بِالقَوافي السَّوائِرِ

فإن عظيماً، فظيعاً، أن يخلد الشاعر مخازي جيله بقصائد سائرة مشهورة

سنُضحِكُ قُرَّاءَ التَّواريخِ بعدَنا ونَبدُو لَهُمْ فيهِنَّ إِحدى النَّوادِرِ

فلو قصرنا شعرنا على التنديد بالمساوئ سيضحك منا قراء التاريخ مستقبلاً، وسيتندرون بنا

٣١ دموع يزيد

بغداد (١٩٣٥):

تولَّى يَزيدٌ دَفَّةَ الحُكمِ فانطَوى على الجمرِ مَن قد كان بِالحُكمِ أَجْدَرا

تولى يزيد الحكم بعد أبيه معاوية فأحس الجديرون بالحكم، من نسل علي، بجمر في أحشائهم

بنُو هاشمٍ رَهْطُ النبيِّ وفيهِمُ تَرعرَعَ هذا الدينُ غَرْساً وأَثْمرا

هؤلاء همّ بنو هاشم قوم النبي الذين ترعرع فيهم الدين مغروساً وحين أثمر وانتشر

تَرَدَّى على كُرْهٍ رِداءَ خِلافَةٍ ولم يُلْقِ عنهُ بعدُ لِلخَمْرِ مِئْزَرا

تردى، لبس، يزيد ثوب الخلافة كارهاً له.. ذلك أنه لم يخلع عنه مئزر، أي ثوب، الخمر. وكان يزيد صاحب شعر وخمر وسماع وصيد

وشَقَّ عليه أن يُصَوِّرَ نفسَه على غيرِ ما قد عُوِّدَتْ أن تُصَوَّرا

وشق عليه، صعُب عليه، أن يصور نفسه بغير صورتها، فلم يغير عاداته

وأن يُبْتَلى بِالأمرِ والنَّهْيِ مُكرَهاً وأنْ يَجْمَعَ الضِّدَّيْنِ سُكراً ومِنْبَرا

وصعب عليه أن يبتلى بالأمر والنهي، أي بالحكم، وأن يجمع بين السكر واعتلاء المنبر لخطبة الجمعة

على أنَّه بِالرَّغْمِ مِنْ سَقَطاتِهِ وقد جاءَهُ نَعْيُ الحُسيْنِ تَأَثَّرا

لكنه رغم سقطاته، عيوبه، تأثر عندما ورده خبر مقتل الحسين بن علي

أقولُ لأقوامٍ مَضَوْا في مُصابِهِ يَسومُونَهُ التَّحريفَ حتى تَغَيَّرا

أقول للشيعة الذي أخذوا يعرّضون مصاب الحسين، نكبة كربلاء ومقتل الحسين، للتحريف حتى تغيرت الرواية

دَعُوا رَوْعَةَ التاريخِ تأخذْ مَحَلَّها ولا تُجهِدُوا آياتِهِ أن تُحَوَّرا

اتركوا روعة التاريخ، ذلك الفزع الذي حدث في التاريخ، تأخذ محلها التاريخي الحقيقي، ولا تلووا أعناق الحقائق لكي تبدلوا آيات، علامات، التاريخ

٣٢ على قبر الزهاوي

بغداد (١٩٣٦):

على رَغْمِ أنفِ الموتِ ذِكرُكَ خَالِدُ ... تَرِنُّ بِسَمْعِ الدهرِ منكَ القَصائِدُ

لـقـد كـنـتَ فَـخـراً لِـلـعـراقِ وزِيـنَـةً ... تُـزَانُ نَـواديـهِ بـهـا والـمَـعـاهِـدُ

وكنتَ على خِصْبِ العِراقِيِّ شاهِداً ... إذا أَعْـوَزَتْـنـا فـي الـتَّـباهـي شَـواهِـدُ

ثَوى اليومَ في هَذي الحُفَيْرَةِ عالِمٌ ... بِـأَسـرارِهـا، لـلَّـهِ بِـالـعـقـلِ نَـاشِـدُ

ثوى، أقام، بهذه الحفيرة، القبر، عالم بأسرار القبر والموت، وناشد، أي ساعٍ، لمعرفة الله بالعقل

أقامَ على العلمِ الصحيحِ اعتِقادَهُ ... عَـدُوٌّ لِأَشـبـاحِ الـخُـرافـاتِ طَـارِدُ

وكـان نَـقـيّـاً فِـكْـرَةً وعـقـيـدةً ... عـزيـزاً عـلـيـه أنْ تُـسِـفَّ الـعَـقـائـدُ

تسف: تنحطّ

يـؤكِّـدُ أنَّ الـديـنَ حُـبٌّ ورحـمـةٌ ... وعـدلٌ، وأنَّ الـلـهَ لا شَـكَّ واحِـدُ

وأنَّ الذي قد سَخَّرَ الدِّينَ طامعاً ... يُـتـاجِـرُ بِـاسـمِ الـلَّـهِ لـلَّـهِ جَـاحِـدُ

جَـمـيـلٌ أعـانَ الـرَّافِـدَيْـنِ بِـثـالِـثٍ ... مِـنَ الـشِّـعـرِ تَـنـمـيـهِ بُـحـورٌ رَوافِـدُ

أعان بلاد الرافدين، نهري دجلة والفرات، برافد ثالث هو الشعر.. وشعره كانت ترفده بحور من الفكر والفصاحة

٣٣ التكريم الموعود

بغداد (١٩٣٦):

حبانِي العراقُ السَّمْحُ أحسنَ ما حَبا ... به شـاعِـراً لِـلـحـقِّ والـخـيـرِ داعِـيـا

رجاءً كما استَمْطَرْتَ في الصيفِ مُزْنَةً ... ورزقاً كما أَسْأَرْتَ في الكأسِ باقِيا

منحني العراق أملاً ضعيفاً، كضعف أمل من يطلب المطر من مزنة، أي غيمة، في الصيف، ومنحني رزقاً قليلاً كأنه ما أسأرتَ، أي أبقيتَ في قعر الكأس

وعَيْشاً إذا استعرضتُهُ قلتُ عنده ... «كفى بِكَ داءً أنْ تَرى الموتَ شافِيا»

عندما أنظر في عيشتي في العراق أردد مع المتنبي قوله.. يكفيك مما بك من الضيق الذي يشبه الداء أن تعتبر الموت جيداً لأنه يشفيك

ووَاعَـدَنـي بـعـدَ الـمَـمـاتِ احـتِـفـاءَةً ... يُـجَـوِّدُ فـيـهـا الـمُـنـشِـدُونَ الـمَـراثِـيـا

ووعدني العراق بعد مماتي باحتفاء ينشد فيه الشعراء المراثي، فالمرء يكرَم بعد موته لا في حياته

٣٤ الخرافات

بغداد (١٩٣٧):

ورُبَّ رُؤوسٍ بَرْزَةٍ عَشَّشَتْ بِها خُرافاتُ جهلٍ فاشْتَكَيْنَ صُداعا

برزة: مشهورة

وساوِسُ لو حقَّقْتَها لَوجدتَها مِن المهدِ كانت أَذْؤُباً وضِباعا

أصل هذه الوساوس والخرافات التي يؤمنون بها تخويف الطفل بالذئب والضبع وهو صغير

بها نَوَّمَتْنا الأمَّهاتُ تَخَوُّفاً وما أيقَظَتْنا الحادثِاتُ تِباعا

وإنَّ شباباً يرقُبُ الموتَ جائعاً مَتى اسْطَاعَ عن حَوضِ البلادِ دِفاعا؟

الجائع لن يستطيع الدفاع عن الوطن

يَرى في الصناعاتِ احتِقاراً، وَيَزْدَهي إذا طَمْأَنَ التوظيفُ منه طَماعا

يحتقر الشباب المهنة، ويزدهون، يفرحون، إذا طَمْأن التوظيف طمعهم في نيل الرزق

وجَدْتُ جَباناً مَن وجدتُ مهذَّباً وجَدْتُ جَهولاً مَن وَجَدْتُ شُجاعا

المهذب أجده جباناً، والشجاع.. أكتشِفُ أنه جاهل

٣٥ نِعم الخصم

في ذكرى ياسين الهاشمي رئيس الوزراء، بغداد (١٩٣٨):

سايَرْتُ حُكمَكَ ناقِماً لم أدَّرِعْ حزباً، ولم أزْحَفْ بِظِلِّ زَعيمِ

عشت أثناء حكمك ناقماً معارضاً، ولكنني لم أتخذ حزباً درعاً لي، ولم أناصر زعيماً أتفيأ ظَله

حاشا! ولم أهْتِفْ لِغيرِكَ داعياً أو أنْ أَخُصَّ سَواكَ بالتَّقديمِ

لم أكن داعية لغيرك، ولم أفضل غيرك عليك.. رغم معارضتي لك

لكنْ طُموحٌ ليس يُرضي أهلَهُ أن تستَمِرَّ سياسةُ التَّرميمِ

لكن، كان عندي طموح. ولا يرضى أصحاب مثل هذا الطموح بسياسة الترقيع والترميم غير الجذرية

سايَرْتُ حكمَكَ ناقِماً، ووجدتُني بِإزاءِ شَهْمٍ في الخصامِ حَليمِ

وجدت نفسي أمام رجل حليم وشهم مع خصومه

رَحْبٍ بِنقدِ خُصومِه مُتَفَتِّحٍ بِالبِشرِ آونةً وبِالتَّفهيمِ

رحب، واسع الصدر، لنقد يوجهه الخصوم إليه، ويستميل الناس بالبشر، والبشاشة، وبتفهيمهم مقاصده

يُعطيهِمُ نِصْفاً، ويعلمُ أنَّه رَجلٌ يَسوسُ وليس بِالمَعصومِ

يعطيهم نصفاً، ينصفهم، وهو يدرك أنه رجل سياسة وليس نبياً معصوماً

٣٦ بكاء زوجة

في رثاء زوجته أم فرات، بغداد (١٩٣٩):

خلعتُ ثوبَ اصْطِبارٍ كان يَستُرُني وبانَ كِذْبُ ادِّعائي أنَّني جَلِدُ

تركت التظاهر بالصبر، وتبين للناس أن ادعائي بأنني جلد، صبور، ادعاء كاذب

بَكيْتُ حتى بَكى مَن ليس يَعرِفُني ونُحْتُ حتى حَكاني طَائرٌ غَرِدُ

٣٧ الطبيعة ترقص

ألقاها في مهرجان بلبنان (١٩٣٩):

زَهْوُ حُمْرِ القِبابِ في الجَبلِ الأخْـ ـضرِ يَسْبي كَزَهْوِ أهلِ القِبابِ

إشراق القباب، الخيام، الحمر في هذه الجبال الخضر بلبنان يسبي العقل مثل إشراق الناس هناك

والكرومُ المُعَرَّشاتُ حَبالَى مُرْضِعاتٍ كَرائِمَ الأعنابِ

الكروم المعرَّشة، المرفوعة أغصانها فوق العرائش، حبلى بالثمر.. وهي تُرضع من مائها عناقيد العنب الكريمة، أي التي من النوع الأصيل الذي ـ كما سيأتيك ـ يصلح للخمر

حَانياتٍ على الدَّوالِي تَحَلَّيْـ ـنَ عَناقيدَ زِينةً لِلكَعابِ

تحنو الكروم بأوراقها على الغصون الدوالي، المتدلية، والمتحلية بالعناقيد التي تصلح زينة للكعاب، للفتاة الشابة

رافعاتِ الرؤوسِ شكراً، وأُخرى ساجداتٍ شكراً على الأَعْتابِ

بعض غصون العنب رافع الرأس كأنما تشكر الله، وبعضها منبطح على الأرض ساجد شكراً. و«الأعتاب» تذكر المرء «بالعتبات المقدسة» في النجف بلد الشاعر، وفيها سجود كثير وعبادة

سِلْنَ في الحقلِ مثلَ رُوحٍ لِجِسمٍ وتَمَدَّدْنَ فيه كالأَعصابِ

وتصايَحْنَ: أينَ، أينَ النَّدامى؟ وتغامَزْنَ ثَمَّ لِلأَكوابِ

تصايحت الكروم: أين الندامى ليشربوا خمري؟ وتغامزن ثم، أي هناك، للأكواب المهيأة

وتَخازَرْنَ والمَعاصِرَ أَبْصا راً حِداداً مَليئَةً بِالسِّبابِ

تخازرت الكروم ومعاصر الخمر، أي نظر بعضها إلى بعض بأطراف العيون.. وهي نظرات غضبى لأن المعاصر أبطأت في استقبال العنب لعصره

نـظـراتٍ كـانـتْ خِـطـابـاً بـلـيـغـاً ولدى العاصِرينَ فَحْوَى الخِطابِ

أصحاب المعاصر عندهم الجواب فسرعان ما سيباشرون القطف فالعصر

كيـف لا تَـرقُصُ الـطـبيـعـةُ في أرِ ضِ ثَـراهـا مُـخَـضَّـبٌ بِـالـشَّـرابِ

٣٨ المهادنة

بغداد (١٩٤٠):

أنـا الـيـومَ إذْ صَـانَعْـتُ أحسـنُ حالَةً وأُحـدوثَـةً مِـنِّـي كَـغـيـرِ مُـصَـانِـعِ

اليوم إذ صانعت، داريتُ وتنازلتُ، أحسن حالاً وأحدوثة، سيرة، مما كنت عليه قبلئذ وأنا عنيد

خَبَتْ جُـذْوَةٌ لا أَلْـهَـبَ الـلّـهُ نـارَهـا إذا كـان حـتـمـاً أن تَـقُضَّ مَـضَـاجِـعي

فلتنطفئ ولتخْبُ جذوة، جمرة، عنادي، ولا أعاد الله اتقادها، إن كانت ستقض مضاجعي، ستقلقني. . ومؤكد أنها ستقلقني

بَلى، وشكرتُ الـعُـمْـرَ أن مَدَّ حَبْلَهُ إلـى أنْ حَـبـانـي مُـهْـلَـةَ الـمُـتَـراجِـعِ

وشكرت عمري لأنه طال، فمنحني بذلك مهلة للتراجع عما كنت عليه

تَـمَـنَّـيْـتُ مَـنْ قـاسَـتْ عـنـاءَ مَـطـامِـحـي تـعـودُ لِـتَـهْـنـا فـي رَخـاءِ تَـواضُـعـي

تمنيت لو تعود زوجتي المتوفاة أم فرات، التي عانت من طموحاتي، حتى تجد الهناء والراحة في ظل تواضع هذه الطموحات والتخفف منها

٣٩ شكر

إلى نوري الأورفه لي، بغداد (١٩٤١):

كـم مِـن يـدٍ بـيـضـاءَ ضِـقْـتُ بِـشُـكْـرِهـا ذَرْعـاً، وعـاشَـتْ ـ لا تـضـيـقَ ـ يَـداكـا!

ما أكثر الأيادي البيض، المعاريف. . جمع معروف، التي لم أعرف كيف أشكرك عليها فضقت بها ذرعاً؛ أدعو الله أن تعيش يداك وألّا تضيقَ هاتان اليدان

حـاشـاي لـم أَدْلِـفْ إلـيـكَ تَـزَلُّـفـاً كـلَّا، ولـسـتَ تُـريـدُه حـاشـاكـا

حاشاي أن أكون دلفت إليك، دخلت خلسة، دخول متزلف متملق. . وحاشاك أن تريد من المرء مثل هذا التذلل

لـلـشـعـرِ مـنـزِلَـةٌ لَـدَيَّ أُجِـلُّـهـا وأُجِـلُّـهـا ـ لـو أَقْـدِرُ ـ الأفْـلاكـا

لـكـنْ وجـدتُ الـشـعـرَ مِـهـنـةَ عـاجِـزٍ إن لـم يَـقُـمْ عَـنِّـي بِـشُـكـرِ نَـداكـا

نداك: سخاؤك

٤٠ المتشاغل

لبنان (١٩٤٢):

عَجَّ الرصيفُ بأَسرابِ المَها وهَفا   قلبي بِزَفْرَةِ قنَّاصٍ، ولم يَصِدِ

عج، ازدحم، الرصيف بأسراب الحسان، وهفا وتطلع قلبي إليهن وزفرت زفرة صياد. . لكن لم يصد

فمِنْ مُوافِيَةٍ وعْداً، وراقِبَةٍ   وعداً، وأينَ التي وفَّتْ ولم تَعِدِ؟

فواحدة منهن تعطي وعداً، وأخرى تترقب وعداً، ولكن أين التي وفت حتى دون أن يكون هناك وعد؟

قالُوا تَشاغَلَ عنْ أهلٍ وعن وَلَدٍ   فقال نَهداكِ: لم يَشْغَلْهُ مِن أَحَدِ

سِوى رَضيعَيْ لِبانٍ تَوْأَمٍ حُبِسا   رَهْنَ الغِلالَةِ إِشفاقاً مِن الحَسَدِ

لم يشغلني سوى النهدين، اللذين كأنهما طفلان رضيعان محبوسان في غلالة، ثوب رقيق، كأنما للاستتار من عيون الحساد

٤١ السوفييت

قال الجواهري في معركة ستالينغراد التي صدَّ فيها السوفييت الألمان، بغداد (١٩٤٣):

أمَّ غُوركي ليتَ عندي وَحْيَهُ   لِأُوَفِّي بِنْتَكِ اليومَ الثَّناءَ

يخاطب الأم بطلة رواية «الأم» لمكسيم غوركي الروائي الروسي، ثم السوفييتي: ليت عندي إلهام غوركي لكي أوفي بنتك، المرأة الروسية المحاربة ضد الغزو الألماني، ما تستحقه من ثناء

لو يعودُ اليومَ حياً لَرأى   مِثْلَها ألفاً تَهُزُّ البُلَغاءَ

لو عاد غوركي للحياة لرأى ألف امرأة مثلك تهز مشاعر البلغاء

بل ولولا أنَّ غُوركي أمُّه   مثلُ هَذي لم يَبُزَّ النُّبَغاءَ

ولولا أن أم غوركي نفسه كانت مثل الأم التي كتب عنها لما بزَّ البلغاء، تفوق عليهم

يا تُولُسْتويُ، ولم تَذهبْ سُدىً   ثَورةُ الفِكرِ، ولا طَارَتْ هباءَ

يخاطب روح الأديب الروسي تولستوي، الذي مات سنة ١٩١٠: لم تذهب سدى الثورة الفكرية التي انبثقت عنك

يا ثَرِيّاً وَهَبَ الناسَ الثَّراءَ   قُم تَرَ الناسَ جميعاً أَثْرِياءَ

يا تولستوي، أيها الثري الذي وهب ثروته للفلاحين، قم من قبرك لترى كيف أصبح الناس كلهم أثرياء في ظل الحكم الشيوعي. (قد خاطب تولستوي وهو في قبره الشاعر حافظ إبراهيم في قصيدة له «رقم ٣٩» في هذا الكتاب ضمن الفصل عن حافظ، وخاطبه في قبره أحمد شوقي في القصيدة «رقم ١٣٤» هنا أيضاً)

قُمْ تَجِدْهُمْ مَالِكي غَلَّتِهِمْ مِن على عَهْدِكَ كانُوا أُجَراءَ
هكَذا الفكرةُ تَزْكُو ثَمراً إنْ زَكَتْ غَرساً وإن طابَتْ نَماءَ

٤٢ الطحالب

بغداد (١٩٤٤):

أُمَمٌ تَجِدُّ، ونَلْعَبُ ويُعَذَّبونَ ونَطْرَبُ

الأمم الأخرى تلقى العذاب بالجهد والعمل وخوض الحروب.. ونحن نطرب، والقصيدة من بنات الحرب العالمية الثانية

ونعيشُ نحن كما يعيـ شُ على الضِّفافِ الطُّحْلُبُ
مَتطفِّلينَ على الوجو دِ نَعُومُ فيه ونَرْسُبُ
نُوحِي التَّطَيُّرَ كالغُرا بِ إلى النفوسِ ونَنْعَبُ

التطير: التشاؤم، النعيب: صوت الغراب

ونَبُثُّ رُعباً في الصفو فِ بما نَدُسُّ ونَكذِبُ
ندعو إلى المُستعمِريـ نَ، لِسَوْطِهِمْ نَتجنَّبُ

ندعو لمهادنة المستعمرين كي نتجنب سياطهم. وكان رشيد عالي الكيلاني في العراق انقلب على الحكم في أوائل الأربعينات، ولكن الإنجليز خلال الحرب العالمية الثانية قمعوا انقلابه، وتعاون عدد من الساسة في العراق مع الإنجليز لتجنب بطشهم وللانتفاع بالتقرب منهم

نَهوى تَقَرُّبَهُمْ وفيـ هِ حَتفُنا يَتَقَرَّبُ
إن العراقَ بما نُحَشِّـ دُ ضِدَّهُ ونُؤَلِّبُ

نؤلب: نحشد الرأي المعادي

بيتٌ على يدِ أهلِهِ مِمَّا جَنَوْا يَتَخَرَّبُ
إنَّ الحياةَ سريعةٌ وجريئةٌ لا تُغْلَبُ
وتدوسُ مَن لا يستطيـ عُ لِحَاقَها وتُؤَدِّبُ

٤٣ المغامر المجاهر

قالها للرصافي وأجاب عنها الرصافي بقصيدة مطلعها: بكَ اليومَ لا بي أصبحَ الشعرُ زاهراً/ وقد كنتُ قبلَ اليومِ مثلَكَ شاعراً بغداد (١٩٤٤):

تَمَرَّسْتَ بِالأُولى فكنتَ المغامِراً وفكرتَ بالأُخرى فكنتَ المجاهرا

الأولى: الدنيا، الأخرى: الآخرة

وفضّلتَ عيْشاً بينَ تِلكَ وهذهِ   بهِ كنتَ - بل لولاهُ - ما كنتَ شاعرا

فضلت أن تعيش بين المغامرة في الحياة وبين المجاهرة برأيك في شأن الآخرة.. وبهذا كنت شاعراً ولولا تمسكك بالأمرين: المغامرة والمجاهرة لما كنت شاعراً

وكنتَ جريئاً حين يدعوكَ خاطِرٌ   مِن الفِكرِ أن تدعُو إليكَ المَخاطرا

كنت جريئاً حين يدعوك خاطر من خواطر الفكر لذا كأنك كنت تدعو المخاطر لتلم بك

على ثِقةٍ أنْ لستَ في الناسِ واجِداً   على مثلِه - إلّا القليلَ - مُناصِرا

وكنتَ واثقاً أنك لن تجد مناصراً على مثله، على مثل ذلك الخاطر الفكري، إلا قليلين

وكنتَ صَريحاً في حياتِكَ كلّها   وكان - وما زالَ - المُصارِحُ نادِرا

فإنْ شابَها ما لم تَجِدْ عنه نُدْحَةً   شَفَعْتَ به حُكْمَ الظُّروفِ مُسايِرا

إن شاب الحياة ضرورة لم تجد ندحة عنها، مخرجاً منها، فإنك تساير الناس بحكم الظروف، وليس لأنك تخليت عن فكرك. وهكذا كان الرصافي.. يهادن قليلاً ثم يعود ويطلق أفكاره الجريئة

فقد كنتَ عن وَحْيِ الضرورةِ ناطِقاً   وقد كنتَ عن محضِ الطبيعةِ صادِرا

وإنّيَ إذْ أُهْدي إليكَ تَحيَّتي   أَهُزُّ بكَ الجيلَ العَقوقَ المُعاصِرا

أَهُزُّ بكَ الجيلَ الذي لا تهزُّهُ   نوابِغُه، حتى تَزورَ المَقابِرا

هذا الجيل العاق لا تهز وجدانه أفكار ومعاناة النوابغ إلا بعد موتهم. ومات الرصافي بعد القصيدة بسنة على سرير معدني من الذي لا يكلف سوى دينار، بحسب تقديرِ الجواهري الذي زاره في آخر أيامه، وبعد موته نصبوا له تمثالاً معدنياً أيضاً ولكنه كلّف آلاف الدنانير

٤٤ قف بالمعرة

ألقاها في دمشق في الاحتفالات بألفية أبي العلاء المعري (١٩٤٤):

قِفْ بالمَعَرَّةِ وامسحْ خدَّها التَّرِبا   واستَوْحِ مَنْ طَوَّقَ الدنيا بما وَهَبا

قف بالمعرة، بلد أبي العلاء، وامسح بكفك خدها المغبرّ، واستوحِ، استنزل الوحي والإلهام، من شاعرها الذي طوق عنق الدنيا بطوق متمثل في فكره وأدبه

واستَوْحِ مَنْ طَبَّبَ الدنيا بِحكمَتِهِ   ومَنْ على جُرحِها مِن رُوحِهِ سَكَبا

أبا العَلاءِ، وحتى اليومِ ما بَرِحَتْ   صَنَّاجَةُ الشعرِ تُهدي المُتْرَفَ الطَّرَبا

يا أبا العلاء ما زالت صناجة الشعر، صاجاته الإيقاعية الرنانة، كعهدها تُطرب المترف، الغني. أي أن الشعر ما زال مجرد تسلية للأغنياء الممدوحين

يَستَنْزِلُ الفكرَ مِن عُليا مَنازِلِهِ رأسٌ لِيَمْسَحَ مِن ذي نِعْمَةٍ ذَنَبا

ترى رأس الشاعر، أي ذهنه، ينزل بالفكر من مراتبه العليا لكي يمسح ذيل ذي النعمة، الغني، فيمدحه تملقاً

وزُمْرَةُ الأدبِ الكابي بِزُمْرَتِهِ تَفَرَّقَتْ في ضَلالاتِ الهوى عُصَبا

وزمرة الأدب الكابي بزمرته، الخامد بسبب هذه الزمرة، تفرقوا عصباً، جماعات شتى، وكلهم منشغلون بضلالات أهوائهم، مصالحهم

تَصَيَّدُ الجاهَ والألْقابَ ناسِيَةً بِأَنَّ في فِكْرَةٍ قُدْسِيَّةٍ لَقبا

هذه الزمرة تصَّيَّد، أي تتصيد، الجاه والألقاب ناسية أن الفكر بما فيه من قدسية هو خير لقب

وأنَّ لِلعبقَرِيِّ الفَذِّ وَاحِدةً إمَّا الخلودَ وإمَّا المالَ والنَّشَبا

وناسية أن العبقري الفذ، المتفرد، له احتمال واحد من اثنين: الخلود أو نيل النشب، المال

على الحصيرِ، وكُوزُ الماءِ يَرْفِدُهُ وذِهْنُه، ورُفوفٌ تَحمِلُ الكُتُبا..

وهو جالس على حصير وليس لديه سوى كوز ماء وذهن وقاد، وحوله رفوف عليها الكتب..

أَقامَ بِالضَّجَّةِ الدنيا وأقعَدَها شيخٌ أَطَلَّ عليها مُشْفِقاً حَدِبا

.. بهذه الصفة أقام الدنيا وأقعدها هذا الشيخ، المعري، الذي نظر إلى الدنيا نظرة إشفاق وحدب، حنان، لما يلاقيه أهلها من عناء

لم ينسَ أنْ تَشْمَلَ الأنعامَ رحْمَتُه ولا الطيورَ ولا أَفراخَها الزُّغُبا

لم ينس المعري أن تشمل رحمته المواشي والطيور وأفراخها الزغب، التي ما نبت من ريشها إلا الضعيف.. وكان المعري نباتياً جارفاً

حَنا على كلِّ مَغْصوبٍ فَضَمَّدَهُ وشَجَّ مَنْ كانَ، أيّاً كانَ، مُغتَصِبا

كان يحنو على كل مظلوم فيضمد جرحه، وكان يشج، يجرح، المغتصبين أياً كانوا بنقده لهم

سَلِ المَقاديرَ، هل ما زِلْتِ سادِرَةً أم أنتِ خَجْلى لِمَا أَرهَقْتِهِ نَصَبا؟

اسأل الأقدار هل ما زلت سادرة، لامبالية، أم أنت تشعرين بالخجل لكثرة ما أرهقت المعري نصباً، ما حمَّلته من العناء؟

نَعَوْا عليكَ، وأنتَ النورُ، فَلسَفَةً سَوداءَ لا لَذَّةً تَبغي ولا طَرَبا

نددوا بفلسفتك لأنها سوداء لا فيها لذة ولا طرب.. لكنك كنت مستنيراً

لا أَكْذِبَنَّكَ إنَّ الحُبَّ مُتَّهَمٌ بِالجَوْرِ يَأْخُذُ منَّا فوقَ ما وَهَبا

الحب والعشق متهم بالجور، بالظلم، فهو يعطينا قليلاً من المتعة، ويأخذ منا الكثير من راحة البال

عانَى لَظَى الحُبِّ بَشّارٌ وعُصْبَتُه فهل سِوى أَنَّهُمْ كانُوا له حَطَبا

فبشار بن برد وصحبه ذاقوا عذاب الحب، وكانوا حطباً لناره

هل كنتَ تَخْلُدُ إذْ ذَابُوا وإذْ غَبَروا لو لم تَرُضْ مِن جِماحِ النَّفسِ ما صَعُبا

فبينما أولئك الشعراء قد ذابوا وغبروا، مضوا وانتهت سيرتهم، لكنك باقٍ خالد لأنك رضت جماح النفس، روضت نفسك المنفلتة وضبطت شهواتك

تَأْبَى انحِلالاً رِسالاتٌ مُقَدَّسَةٌ جاءتْ تُقَوِّمُ هذا العالَمَ الخَرِبا

أَجلَلْتُ فيكَ مِنَ المِيزَاتِ خَالِدَةً: حُرِّيَّةَ الفِكْرِ، والحِرمانَ، والغَضَبا

لِثورةِ الفكرِ تاريخٌ يُحَدِّثُنا بِأَنَّ أَلفَ مَسيحٍ دونَها صُلِبا

تاريخ ثورة الفكر يقول إن ألف مفكر صلب كالمسيح دونها، أي حماية لثورة الفكر

٤٥ ترحيب بطه حسين

وعد طه حسين بزيارة العراق، دمشق (١٩٤٤):

أُنَبِّيكَ أَنَّ الرَّافِدَيْنِ تَطَلَّعَتْ ضِفافُهُما واستَنْهَضَ الشَّجَرُ الزَّرْعا

تطلعتْ ضفاف النهرين اللذين يرفدان العراق إلى مقدمك وأخذ الشجر يطلب من الزرع أن ينهض لاستقبالك

نَمَى خبرٌ أنْ سوفَ تَسعَى إِلَيْهِما فكادَ إِليكَ النخلُ مِن طَرَبٍ يَسْعَى

وصل خبر أنك ستأتي فكاد النخل يمشي لاستقبالك. مجنون طه حسين! سمع بيتين كهذين في الترحيب به ثم لا يزور العراق.. من يُقَل فيه بيتان كهذين يأتِ إلى العراق زحفاً على ركبتيه وراحتيه. قد ألقى الجواهري القصيدة في دمشق، في خضم احتفال بذكرى المعري، وردَّ طه رداً جميلاً قائلاً إنه ينتظر أن تتهيأ الأسباب. وطه حسين الذي كان في ذلك المهرجان مثل أم العروس متصدراً الندوات ويلقي خطباً كأنها مكتوبة لرئيس دولة ـ نقل ذلك كلّه لنا كتاب صدر عن مجمع دمشق ـ كان «أليطاً»، والأليط في لغة أهل مصر: المتكبر تكبراً أنيقاً، العارف قدر نفسه، التارك بينه وبين الآخرين مسافة محسوبة بالسنتمتر. لكن طه أحب الجواهري وساعده ورفده، وكان طه حسين يعرف أقدار الناس، ويبذل للأدباء من جاهه، ومن مال الدولة

٤٦ يافا

(١٩٤٥):

بِيافا يومَ حُطَّ بِها الرِّكابُ تَمَطَّرَ عارِضٌ ودَجا سَحابُ

يوم أُنزل ركابنا في يافا، أي وصلناها، أمطر عارض، غيم، ودجا سحاب، أي عقد ظلمةً في الجو

وقفتُ موزَّعَ النظراتِ فيها لِطَرْفي في مَغانيها انسِيابُ

ومَوْجُ البحرِ يَغسِلُ أَخْمَصَيْها وبالأنواءِ تغتَسِلُ القِبابُ

الأنواء: الأمطار

وبَيّاراتُها ضَرَبَتْ نِطاقاً يُخَطِّطُها، كما رُسِمَ الكِتابُ

البيارات: بساتين البرتقال، وكانت تحيط بيافا وتخطط لها حدودها، كما تكون الكتابة في صفحة الكتاب، أي المصحف، محاطة بإطار

أَقَلَّتني مِن الزَّوْراءِ ريحٌ إلى يافا وحَلَّقَ بي عُقابُ

حملتني من الزوراء، لقب بغداد، ريح، وحلق بي عقاب، العقاب من الكواسر. سافر الجواهري إلى فلسطين بالطائرة (أول مرة يفعلها، ثم إن شاعرنا وقع في حب السفر جواً).. وحط في مطار اللد القريب من يافا

ركِبْناهُ لِيُبلِغَنا سَحاباً فجاوزَه لِيَبلُغنا السحابُ

ركبنا هذا العقاب، الطائرة، ليبلغ بنا السحاب، فتجاوز السحاب علواً فصار السحاب هو الذي يريد أن يصعد إلينا

أحَقّاً بينَنا اختلَفَتْ حُدودٌ؟ وما اختلفَ الطريقُ ولا التُّرابُ

ولا افترَقَتْ وُجوهٌ عن وُجوهٍ ولا الضادُ الفصيحُ ولا الكِتابُ

لَئِنْ حُمَّ الوَداعُ فَضِقْتُ ذرعاً بِه، واشْتَفَّ مُهْجَتِيَ الذَّهابُ

حم: أزف وحان وقُضي، اشتف مهجتي: برى قلبي برياً

فَمِن أَهلي إلى أَهلي رُجوعٌ وعن وَطَني إلى وَطَني إِيابُ

وقال الجواهري من بعد: ليتني ما كنت رأيت فلسطين كي لا أتحسر على ضياعها

٤٧ تقحمت صدري

في ذكرى الحسين، بغداد (١٩٤٧):

تَقَحَّمْتَ صَدرِي ورَيْبُ الشُّكُوكِ يَضِجُّ بِجُدرانِهِ الأَرْبَعِ

يخاطب الحسين: دخلت في قلبي بقوة رغم أن قلبي مملوء بالشكوك في أمر الدين

وقَدَّسْتُ ذِكرَكَ لم أَنْتَحِلْ ثيابَ التُّقاةِ ولم أَدَّعِ

وقدست ذكرك، لكن دون أن ألبس لبوس الأتقياء ودون ادعاء بأنني متدين

٤٨ جراح الشهيد

ألقاها في حفل بعد سبعة أيام من مقتل أخيه الأصغر جعفر، بغداد (١٩٤٨):

أَتَعْلَمُ أمْ أنتَ لا تَعْلَمُ ... بِأنَّ جِراحَ الضَّحايا فَمُ؟
يَصيحُ على المُدْقِعينَ الجِياعِ ... أَرِيقُوا دِماءَكُمْ تُطْعَمُوا

هذا الفم يصيح على المدقعين، الفقراء، طالباً منهم أن يثوروا لكي ينالوا رزقهم وحقهم

ويَهْتِفُ بِالنَّفَرِ المُهْطِعينَ ... أهِينُوا لِئامَكُمُ تُكْرَمُوا

المهطعين: الخانعين

أَتَعْلَمُ أَنَّ جِراحَ الشَّهيدِ ... تَظَلُّ عن الثَّأْرِ تَستَفْهِمُ
تَمُصُّ دَماً ثم تَبْغي دماً ... وتَبقَى تُلِحُّ وتَسْتَطْعِمُ

تستطعم: تطلب الطعام.. من دم العدو

فقُلْ لِلمُقيمِ على ذِلَّةٍ ... هَجيناً يُسَخَّرُ أو يُلْجَمُ

الهجين: غير الأصيل، يلجم: يوضع له لجام لكي يروض ويذلل

تَقَحَّمْ، لُعِنْتَ، أَزيزَ الرَّصاصِ ... وجَرِّبْ مِنَ الحَظِّ ما يُقْسَمُ

اقتحم الرصاص وجرب الحصول على ما قسمه الله لك من حظ

وخُضْها كما خَاضَها الأسبَقُونَ ... وثَنِّ بِما افْتَتَحَ الأَقْدَمُ

ثنِّ: كن ثانياً بعد آبائك الأمجاد.. أي أكمل مسيرتهم

يقولونَ مَن هُمْ أُولاءِ الرَّعاعُ؟ ... فَأفْهِمْهُمُ بِدَمٍ مَنْ هُمُ
وأَفْهِمْهُمُ بِدمٍ أَنَّهُمْ ... عَبيدُكَ إنْ تَدْعُهُمْ يَخْدُمُوا

أفهم المستعمرين بأنهم، بأن المستعمرين، عبيدك

وأَنَّكَ أشرفُ مِنْ خَيرِهِمْ ... وكَعْبُكَ مِن خَدِّهْ أكْرَمُ

أنت أشرف من أحسنهم، وكعبك أكرم من خد هذا الذي هو أحسنهم

أرى أُفُقاً بِنَجيعِ الدِّماءِ ... تَنَوَّرَ، واختَفَتِ الأَنجُمُ

أرى الأفق محمراً لكن احمراره هذا من النجيع، الدم

ستَبقى طويلاً تُجَرُّ الدماءُ ... ولَن يُبرِدَ الدَّمَ إلَّا الدَّمُ

ستواصل الدماء جر مزيد من الدماء، ولن يبرد دم شهدائنا إلا سكب دم الأعداء

وأُخْتٍ تُناشِدُ عنكَ النجومَ   لَعلَّكَ مِن بَيْنِها تَنْجُمُ

تنجم: تظهر

وتَزعُمُ أنَّكَ تأتي الصَّباحَ   وقد كَذَّبَ القبرُ ما تَزْعُمُ

تزعم أختك أنك ستأتي في الصباح، ولكن قبرك يكذب زعمها

يَميناً لَتَنْهَشُني الذكرياتُ   عليكَ كما يَنْهَشُ الأَرْقَمُ

الأرقم: الثعبان

٤٩ ضياع فلسطين

بغداد (١٩٤٨):

فما ذَهَبَتْ فِلَسطينٌ بِسِحْرٍ   ولا كُتِبَ الفَناءُ بِلا مِدادِ

فلسطين لم تذهب بقدرة سحرية بل بسبب عدو قوي، والفناء للشعوب والبلاد لا يكون من الطلاسم بل من أسباب واضحة كأنها كتبت بالمداد، الحبر

ولا طاحَ البِناءُ بِلا انحِرافٍ   ولا بَنَتِ اليَهودُ بِلا عِمادِ

طاح: سقط، عماد: قوة واستعداد، وهو في الأصل عمود الخيمة

٥٠ الذوق، وقلة الذوق

بغداد (١٩٤٩):

تَعالَيْ أَذُقْكِ فكُلُّ الثِّمارِ   تَرِفُّ، ونُوَّارُها يُقطَفُ

يريد أن يذوق المحبوبة! فالثمار تتمايل على غصونها ومصيرها أن تقطف لنأكلها لا أن تبقى لنتفرج عليها

صِراعٌ يَطولُ فكَمْ تَهدُفينَ   إلى الرُّوحِ مِنِّي وكم أَهْدُفُ..

صراع يطول بين الفتى والفتاة.. هو صراع الغزل والدلال.. والفتاة تهدف إلى امتلاك روح فتاها.. وهو يهدف إلى..

إلى الجِسمِ مِنكِ، وكم تَعرِفيـ   ـنَ أينَ المَحَزُّ وكم أَعْرِفُ

يهدف إلى جسمها.. وهي تعرف أين المحز، المفصل، وهو يعرف.. والبارع هو الذي «يطبق المفصل» مثلما يعرف القصاب جيداً أين مكان التقاء العظمتين فيدس سكينه في المكان الصحيح. يقول إن العاشقين كليهما يعرفان طقوس هذه اللعبة جيداً

وما بينَ هَذَيْنِ يَمشي الزمانُ   ويُفْني مُلوكاً ويَسْتَخْلِفُ

وبين هدف المرأة إلى امتلاك روح الرجل وتكوين أسرة، وهدف الرجل إلى المغامرة تنشأ الأجيال ويمشي الزمن ويخلد الجنس البشري

٥١ صبية الاستعمار

ألقاها في لبنان، في تأبين عبد الحميد كرامي (١٩٥٠):

باقٍ، وأعمارُ الطُّغاةِ قِصارُ، مِنْ سِفْرِ مَجدِكَ، عاطِرٌ مَوَّارُ

سيبقى ذكر عاطر موار، مترقرق، من كتاب مجدك.. بينما أعمار الطغاة قصيرة، إذ لا يدوم لهم ذكر

فإذا ذَكرتُ بكَ البِلادَ فَعاذِرٌ فَهِيَ الحبيبُ لِنفسِكَ المُخْتارُ

فإن ذكرت في تأبينك أوضاع البلاد فأنت تعذرني لأنها الحبيبة إلى نفسك

عبدَ الحميدِ وما تزالُ كعهدِها شَعْبٌ يُذَلُّ، وأُمَّةٌ تَنْهارُ

البلاد يا عبد الحميد على حالها

تَنْهَى وتأمُرُ ما تَشاءُ عِصابَةٌ يَنْهَى ويأْمُرُ فوقَها اسْتِعمارُ

وقيل إن القصيدة سببت للشاعر مشكلة مع السلطات اللبنانية، فمنع من دخول لبنان مدة من الزمن، وأزال المنع ابن المؤبن «رشيد كرامي» عندما صار رئيس وزراء

٥٢ نامي

(١٩٥٠):

نامي جِياعَ الشعبِ نَامي حَرَسَتْكِ آلِهَةُ الطَّعامِ

نامي فإنْ لم تَشبَعي مِن يَقْظَةٍ فَمِنَ المَنامِ

نامي على زَبَدِ الوُعو دِ يُدَافُ في عَسَلِ الكَلامِ

نامي يا جموع الشعب على زبد الوعود، والزبد الرغوة، يداف، يخلط، بالكلام المعسول من الحاكمين بقرب تحقق الرخاء

نامي تَزُرْكِ عَرائِسُ الـ أحلامِ في جُنْحِ الظلامِ

تَتَنَوَّري قُرْصَ الرَّغيـ ـفِ كَدَوْرَةِ البَدْرِ التَّمامِ

نامي حتى تتنوري، تشاهدي، الرغيف كأنه البدر

وتَرَيْ زَرائِبَكِ الفِسا حَ مُبَلَّطاتٍ بِالرُّخامِ

في الأحلام ترى الشعوب بيوتها ـ التي هي كالزرائب، بيوت الماشية ـ قصوراً مبلطة بالرخام

نامي تَصِحّي، نِعْمَ نَوْ مُ المرءِ في الكُرَبِ الجِسامِ

نامي إلى يومِ النُّشو رِ ويومَ يُؤْذَنُ بالقِيامِ

النشور: البعث من القبور

نـامـيِ وسـيـرِي في مَـنـا　　مِـكَ ما استَـطَـعْـتِ إلـى الأمـامِ
نـامـيِ عـلـى تـلـكَ الـعِـظـا　　تِ الـغُـرِّ مِـنْ ذاكَ الإمـامِ
نـامـيِ يُـسـاقَـطْ رِزْقُـكِ الـ　　ـمَـوْعُـودُ فـوقَـكِ بـانـتِـظـامِ
نـامـيِ فـمـا الـدنـيـا سـوى　　جِـسْـرٍ عـلـى نَـكَـدٍ مُـقـامِ
نـامـيِ عـلـى الـمـجـدِ الـقـديـ　　ـمِ وفـوقَ كَـوْمٍ مِـن عِـظـامِ

النائم على كوم عظام هو المفتخر بعظام أجداده، هو «العظامي» في مقابل «العصامي» المفتخر بما أنجز بنفسه

٥٣ العواء

بغداد (١٩٥٣):

عَدا عَلَيَّ كما يَسْتَكْلِبُ الذِّيبُ　　خَلْقٌ ببغدادَ أنماطٌ أَعاجِيبُ

عدا علي: ظلمني، استكلب: توحش

تِسعونَ كَلباً عَوى خَلفِي وفَوْقَهُمُ　　ضَوْءٌ مِنَ القَمَرِ المَنْبُوحِ مَسْكوبُ

يشير إلى المثل: كلب ينبح القمر، لمن يشتمك ولا يستطيع أن يؤذيك

وقبلَ أَلْفٍ عَوى أَلْفٌ فمَا انتَقَصَتْ　　أَبا مُحَسَّدَ بِالشَّتْمِ الأعاريبُ

قبل ألف عام عوى ألف كلب على أبي محسد، المتنبي، ولم ينتقص ذلك شيئاً من مجده

٥٤ انتظار الفرج

بغداد (١٩٥٥):

كُنَّا نقولُ إذا ما فاتَنا سَحَرٌ　　لا بُدَّ مِن سَحَرٍ ثانٍ يُواتِينا

السحر: قبيل الشروق، يواتينا: يتاح لنا

لا بُدَّ مِن مَطلَعٍ لِلشمسِ يُفرِحُنا　　ومِن أَصيلٍ على مَهْلٍ يُحَيِّينا
واليومُ نَرقُبُ في أَسحارِنا أَجَلاً　　تقومُ مِن بعدِه عَجْلى نَواعِينا

٥٥ صنائع الاستعمار

ألقيت بدمشق في ذكرى عدنان المالكي، الضابط الذي اغتيل بتدبير نوري السعيد كما قيل، وأراد الشاعر إغاظة حكام العراق بقصيدته، ومنح بعد القصيدة اللجوء السياسي في الشام (١٩٥٦):

واهُزْأَةَ الأَحلافِ بينَ مُسَخِّرٍ　　ومُسَخَّرِينَ، وسَيِّدٍ وإِماءِ

يا للسخرية لحلف يقوم بين السيد والعبد، وبين المستعمر والقوم الذين تحت استعماره

يا مَن رأى حِلْفاً عجيباً أمرُهُ بينَ الثَّرى وكَواكِبِ الجَوْزاءِ
دَوَّى على المستعمِرينَ صَواعِقاً وَعْيُ الشعوبِ ويَقْظَةُ الدَّهْماءِ

الدهماء: عامة الناس.. ويستعملها الجواهري بالمعنى الإيجابي خلافاً للمألوف

وتَكَشَّفُوا عُرْياً على أضوائِها مثلَ اللُّصوصِ بِليلةٍ قَمْراءِ
وتَقَيَّحَتْ مِن زِمْنَةٍ فَتعفَّنَتْ بِصَديدِهِنَّ ضَمائرُ الأُجَراءِ

ضمائر المأجورين الذين يعملون لصالح المستعمر تقيحت من الزمنة، المرض المزمن، وتعفنت بما فيها من صديد، مِدَّة وقيح

فهُمُ كفاجِرَةٍ تُغَطِّي جَهدَها صِدْقَ الفُجورِ بِكاذِبِ الخُيَلاءِ
السَائِرونَ القَهْقَرى، لم يَعرِفُوا بينَ الجهاتِ السِّتِّ غيرَ وَراءِ
وهُمُ يَزُمُّونَ الحقائبَ خَشيةً مِن فَجْأَةِ الأقدارِ كالنُّزلاءِ

يجعلون متاعهم وأموالهم في حقائب لكي يفروا من البلد إن فاجأتهم الثورة. وكان الوصي عبد الإله ونوري السعيد قد فرا فراراً من العراق في خضم حركة رشيد عالي الكيلاني قبل القصيدة بخمس عشرة سنة

٥٦ البساتيل

دمشق (١٩٥٦):

جَزائِرُ! دَارَتْ بِمُستعمِرٍ رَحىً مَن يُضَرَّسْ بِها يَهْلَعِ

أيتها الجزائر لقد دارت على المستعمر الرحى، الطاحون، التي تجعل من يضرس بها، يطحن، يشعر بالهلع

مَشَتْ لَكِ باريسُ أمُّ الحقو قِ وَحْشاً يَدِبُّ على أَرْبَعِ
تُهَدِّمُ بَسْتيلَ في مَوضعٍ وتَبني بَساتِيلَ في مَوضعِ

هدمت فرنسا الباستيل، رمز سطوة الملكية، بباريس؛ وبنت بساتيل في مستعمراتها لاضطهاد الشعوب

٥٧ بردى والنيل

في ذكرى عدنان المالكي، دمشق (١٩٥٧):

هُنا بِجِلَّقَ عملاقٌ على بَرَدَى وثَمَّ في مصرَ يَحمِي النِّيلَ جَبَّارُ

هنا في الشام وعلى ضفاف بردى يقف عملاق هو الجيش السوري الذي كان من بناته عدنان المالكي صاحب الذكرى وثَمّ، أي هناك، جبار يحمي النيل

اسْلَمْ جَمالُ لنا نَسْلَمْ، فقد عَرَفَتْ بِكَ الكرامةَ في الشَّرْقَيْنِ أمصارُ

جمال عبد الناصر، وكان يتم آنذاك الإعداد لوحدة مصر وسورية التي تمت وشيكاً

وانصاعَ يَبري سيوفَ الهندِ لاهِبَةً مُـهـنَّـدٌ يَـعْـرُبِـيُّ الـحَـدِّ بَـتَّـارُ

انصاع: انشغل

تَغشَى المشاكِلُ مَتْنَيْهِ فَيحسِمُها لا حيثُ تَطْغَى ولكنْ حيثُ يَختارُ

هذا السيف العربي الذي هو عبد الناصر تغشى المشاكل متنيه، تحل المشاكل بجانبيه، فيحسم أمرها ليس بالضرورة في مكان وقوعها بل في المكان الذي يختاره هو

لم يَعرفِ الدهرُ مِثلَ العُرْبِ مِن صُبُرٍ بِهِمْ على الضُّرِّ إلحاحٌ وإصرارُ

صبر: صابرون، وفيهم على الضر، أي رغم الضيق، إصرار

نحنُ الذين أعَرْنا الكونَ بَهجَتَهُ لـكِـنَّـمـا الـدهـرُ إقبـالٌ وإدْبـارُ

شِدْنا الحياةَ وكُوفِئْنا المَماتَ كما شادَ الخَوَرْنَقَ كيْ يَردَى سِنِمَّارُ

شاد العرب حياة وحضارة عمّت الآخرين وكوفئوا بهبوط وانحطاط دولتهم، فهم مثل «سنمار» المهندس الذي بنى للنعمان قصر الخورنق ثم قتله النعمان

٥٨ الرتوع

إلى شكري القُوَّتْلي، رئيس سورية، دمشق (١٩٥٧):

أنـا والـلَّـهِ راتِـعٌ فـي ذَرا لُـطْــ ـفِـكَ ما بـي إلى سِـواكَ احتِيـاجُ

يخاطب رئيس سورية شكري القوتلي، وكان الجواهري في ضيافة سورية. في ذرا: في كنف

غيرَ أنّيِ بِالمالِ أَضْوَى، وإنْ أَسْـ ـمَـنَ غَيـرِي، إنَّ النُّـفوسَ مِزاجُ

بالمال أضْوَى، أُصبحُ مهزولاً، وإن كان المال يجعل غيري سميناً. وكان الجواهري يتلقى المال من الحكومة السورية والعراقية والتشيكوسلوفاكية والمصرية ومن بعض أثرياء العراق.. كل هذا في أوقات مختلفة تلتقي وتفترق.. وتألّفته الحكومة العراقية بعد انتفاضة تشرين بمزرعة من ثلاثة آلاف دونم معظمها غامر، بور غير صالح للزراعة، واعتبر المنحة حقاً، لكنه سكت زمناً بعدها

٥٩ الذئب

بغداد (١٩٥٩):

مَن مِنكُم، رَغمَ الحياةِ وعبئِها لم يَحتَسِبْ لِلموتِ ألفَ حِسابِ

ذِئـبٌ تَـرَصَّـدَنـي وفـوقَ نُـيُوبِـه دَمُ إخْـوَتـي وأَقـارِبي وصِحـابـي

الموت ذئب يقف لي بالمرصاد، وأنا أرى على أنيابه دم من مات من أهلي وأصحابي

٦٠ في تمجيد الحاكم

في افتتاح المستنصرية متحفاً ومزاراً (١٩٦٠):

أَعِدْ مجدَ بغدادٍ ومجدُكَ أَغلَبُ   وجَدِّدْ لها عهداً وعهدُكَ أَطيَبُ

تَسَرَّبَ هَمْسٌ أنَّ فَقعاً بِقَرْقَرٍ   يُعِدُّ شِراكاً لِلهِزَبْرِ ويَنْصِبُ

الفقع الفطر، والقرقر المكان المنخفض (وفقع بقرقر: أي شخص تافه)، وقد بلغني أن هذا الشخص ينصب شباكاً للأسد، والأسد هو عبد الكريم قاسم. وكان الجواهري ذا منزلة عنده.. ثم تغير الوضع في أواخر عهده

وأنَّ الذي خلفَ الحدودِ يَمُدُّهُ   كَلِصٍّ يجوسُ البيتَ ليلاً ويَهرُبُ

المتآمرون على حكمك تَمُدُّهم بالمال جهة خارجية

أبا الشعبِ لا يَتْعَبْ خَؤُونٌ مُغامِرٌ   فخلفَكَ شَعْبٌ لِلخَؤُونِينَ مُتعِبُ

أبو الشعب: عبد الكريم قاسم، حاكم العراق

سَلِ الشعبَ زَحفاً تَدْرِ كيف زُحوفُه   وبَذلاً تَجِدْ أَرواحَهُ كيف تُوهَبُ

ستهوي رؤوسٌ ما اشتَكى مِنكَ إِصْبَعٌ   وتُلوَى رِقابٌ ما التَوى مِنكَ مَنْكِبُ

وكان قاسم تعرَّض لمحاولة اغتيال أصيب فيها في كتفه برصاصة

٦١ فاوست

في مهرجان الأخطل الصغير، بيروت (١٩٦١)، وقد اتخذ الجواهري المناسبة حجة ليفر من بطش عبد الكريم قاسم

يا مَن يُقايِضُني صَدى الـ   ـهَمَساتِ والسَّمَرِ المُريبِ

يريد أن يعقد مقايضة.. فمن ذا يمنحني السمر المريب، هذا سمَر مريب غير بريء بل به خمر ونساء..

وتَنابُزَ القُبُلاتِ في   نَجْوى كَمُسْتَرَقِ الدَّبيبِ

من ذا يعطيني تنابز، تبادل، القبلات مع نجوى، همس، كأنها دبيب على أطراف الأصابع مسترَقٌ استراقاً:.

ويداً تَخَبَّطُ في الهوى   ويداً تُعابِثُ في الجُيوبِ

ومن يعطيني يد محبوب تتخبط أثناء العناق، ويد حبيب تعبث في الجيوب.. والجيب هو فتحة العنق في القميص

يـا مَـن يُـقـايِـضُـنـي ربيـ ـعَ العُمْرِ ذا المرجِ العَشيبِ

من ذا يعطيني الشباب الذي هو كالربيع المعشب

بِالعَبْقَرِيَّةِ كلِّها بِخُرافَةِ الذِّهنِ الخَصيبِ

وله مقابل ذلك العبقرية الشعرية وخرافة الذهن الخصيب

شيطانَ غُوتَةَ! يا رَبيـ ـبَ الغَدْرِ والدَّمِ والحُروبِ

يا شيطان غوتِهْ، يا مِفستوفيليس الذي جعله غوتِهْ في ملحمته يخوض مقايضة شبيهة مع البطل فاوست (شيطان غوته عرض العلم اللامتناهي والملذات مقابل أن يتملك روح البطل)

ومُقايِضَ السَّبعينَ بِالـ ـعِشرينَ عن ثَمَنٍ رَهيبِ

يا من يقايض فيعطيني سن العشرين بدل سن السبعين مقابل الثمن الرهيب

لو جِئتَني لَوَجَدْتَني مَحضَ السميعِ المُستَجيبِ

لبنانُ يا وطني إذا حُلِّئْتُ عن وطني الحبيبِ

حلئتُ: أبعدْتُ عن الماء

أَبِشارةٌ! وبِأَيِّما شَكوى أَهُزُّكَ يا حبيبي

هل صَكَّ سَمْعَكَ أَنَّني مِن رافِدَيَّ بِلا نَصيبِ؟

هل وصل إلى سمعك يا بشارة الخوري أنه لا نصيب لي من الرافدين، العراق؟

٦٢ المنفيّ

براغ (١٩٦١):

أنا مِنْ تِلْكُمُ الضَّحايا، رَمَتْ بي فِكرةٌ حُرَّةٌ وَراءَ الحُدودِ

لم أُطِقْ كَتْمَها، وأَعلَمُ كلَّ الـ ـعِلْمِ أَنّي بِها أَحُزُّ وَريدي

أنا في عِزَّةٍ هُنا، غيرَ أَنّي في فُؤادي يَنِزُّ جُرْحُ الشَّريدِ

لي عِتابٌ على بِلادي شَديدٌ وعلى الأَقْرَبِينَ جِدُّ شَديدِ

يا لِبغدادَ حين يَنْتَصِفُ التّا ريخُ مِن كلِّ ناكِرٍ وجَحُودِ

٦٣ أم البساتين

قال الجواهري عام (١٩٦١) وهو لاجئ سياسي في براغ:

حَيَّيْتُ سَفْحَكِ عن بُعْدٍ فَحَيِّيني يا دِجْلَةَ الخيرِ يا أُمَّ البَساتينِ

يا دجلة.. يا ساقية البساتين فكأنك أمها.. حييتُ سفحك، شاطئك، وأنا بعيد عنه

حَيَّيْتُ سَفْحَكِ ظَمآناً أَلوذُ به لَوْذَ الحَمائِمِ بين الماءِ والطِّينِ
يا دِجْلَةَ الخيرِ يا نَبْعاً أُفارِقُه على الكَراهَةِ بين الحينِ والحينِ
إِنّي وَرَدْتُ عيونَ الماءِ صَافِيةً نبعاً فنبعاً فما كانتْ لِتَروِيني
وأنتَ يا قَارباً تَلْوِي الرِّياحُ بِه لَيَّ النَّسائِمِ أَطْرافَ الأَفانينِ

تلوي الرياح القارب يميناً ويساراً كما تلوي النسائم أطراف الأفانين، الأغصان، ليّاً

ودِدْتُ ذاكَ الشِّراعَ الرَّخْصَ لو كَفَني يُحاكُ منه غَداةَ البَيْنُ يَطوِيني

وددت أن الشراع الرخص، الناعم، يخاط لي منه كفني عندما يغيبني البين، الفراق. فالموت أسهل من فراق الوطن

يا أُمَّ بغدادَ مِنْ ظَرْفٍ ومِنْ غَنَجٍ مَشَى التَّبَغْدُدُ حتى في الدَّهاقِينِ

من ظرفك يا دجلة يا أم بغداد، التي لولاها لما كانت بغداد، ومن رقتك وغنجك انتشر التبغدد، التمدُن والرقة والدلال والنعمة، حتى في الدهاقين، ملاك الأرض من العجم. وظلت كلمة البغددة حتى يومنا تعني الدلال والنعمة

يا أُمَّ تِلكَ التي مِن أَلْفِ لَيْلَتِها لِلآنَ يَعْبَقَ عِطْرٌ في التَّلاحِينِ

يخاطب دجلة: يا أم تلك المدينة (بغداد) التي ظل أثر قصصها المسماة «ألف ليلة وليلة» عابقاً في التلاحين، الغناء

يا دِجلةَ الخيرِ ما يُغْليكِ مِنْ حَنَقٍ يُغْلي فُؤادي، وما يَشجيكِ يَشجِيني

ما يجعلك تغلين من الحنق والغضب يجعل فؤادي يغلي أيضاً

أَدري بِأَنَّكِ مِن ألفٍ مَضَتْ هَدَراً لِلآنَ تَهْزَيْنَ مِن حُكْمِ السَّلاطِينِ

من ألف سنة مضت هدراً، مهدورة لم نشهد فيها ازدهاراً، وحتى اليوم أنتِ تهزأين من حكم السلاطين

تَهْزَيْنَ أنْ لم تَزَلْ في الشرقِ شَارِدَةً مِن النَّواوِيسِ أَرواحُ الفَراعينِ

تهزأين لأن الشرق يعاني من المستبدين، فكأن أرواح الفراعنة ظلت شاردة من النواويس، القبور، وتحل في أجساد الحكام الحاليين.. وفرعون العراق وقتذاك عبد الكريم قاسم

تَهْزَيْنَ مِن خِصْبِ جَنَّاتٍ مُنَثَّرَةٍ على الضِّفافِ ومِن بُؤْسِ الملايينِ

تهزأين من هذا التضاد بين الخصب والجنان على شاطئيك وبين وجود الملايين من الفقراء

يا دجلةَ الخيرِ كم مِن كَنْزِ مَوْهِبَةٍ لديكِ في القُمْقُمِ المسحورِ مَخزونِ

ما أكثر المواهب التي كبتت في العراق كأنها مخزونة في قمقم مسحور، جرة النحاس التي يحبس فيها المارد

لعلَّ يوماً عَصوفاً جارفاً عَرِماً آتٍ فتُرضيكِ عُقْباهُ وتُرضيني

لعل هناك ثورة عارمة ستأتي ونرضى بعقباها، بنتيجتها

يا دِجلَةَ الخيرِ إنَّ الشعرَ هَدْهَدَةٌ لِلسَّمْعِ ما بين تَرخيمٍ وتَنوينِ

هدهدة للسمع: تحريك هادئ له، كما تحرك الأم وليدها كي ينام، التنوين: الغنة، الصوت الأنفي الحنون

حتى الضَّفادِعُ في سفحَيْكِ سَارِيَةً عَاطَيْتُها فَاتِناتٍ حُبَّ مَفْتُونِ

حتى الضفادع في شاطئيك أحببتها وتبادلت معها وهي سارية، ماشية ليلاً، وفاتنة، حب المفتون بها. وسبقت للجواهري أبيات جعل فيها نقيق الضفادع رسولاً بين المحبين

غَازَلْتُهُنَّ خَليعاتٍ وإنْ لَبِسَتْ مِن الطَّحالِبِ مَزْهُوَّ الفَساتينِ

خليعات: عاريات.. رغم أن الضفادع تلبس لباساً معجِباً من الطحالب

يا دِجلةَ الخيرِ مِن كلِّ الألَى خَبِرُوا بَلوايَ لم أُلْفِ حتَّى مَن يُواسِيني

من بين كل من عرفوا بمصيبتي لم أجد من يواسيني

يا دِجلةَ الخيرِ يا مَن ظَلَّ طائِفُها عن كلِّ ما جَلَتِ الأحلامُ يُلهِيني

طائف دجلة، طيفها الذي ينتابني في صحو أو منام، يلهيني عن كل طيف تجلوه، وتبديه، الأحلام

يا دِجلةَ الخيرِ خَلِّيني وما قَسَمَتْ لِيَ المقاديرُ مِن لَدْغِ الثَّعابينِ
وأَرْكَبُ الهولَ في رَيْعانِ مَأْمَنَةٍ حُبُّ الحياةِ بِحُبِّ الموتِ يُغرِيني

أركب المخاطر في ريعان مأمنة، في عز زمن الأمان، وحبي للحياة الكريمة يغريني بأن أستهين بالموت.. بل بأن أحبه

وما البُطولاتُ إعجازٌ وإن قَنِعَتْ نفسُ الجبانِ عن العَلياءِ بِالهُونِ

البطولات ليست معجزات بل هي سهلة على الشجاع، فأما نفس الجبان فترضى بالهون، الذل، بدلاً من العلياء، المجد

لا يُولَدُ المرءُ لا هِرّاً ولا سَبُعاً لكنْ عُصارَةُ تَجريبٍ وتَلْقينِ
إنَّ المصائبَ طَوْعاً أو كَرَاهِيَةً أَعَدْنَ نَحْتي، كما أَبدَعْنَ تَلوِيني
يا دِجلةَ الخيرِ كم مَعْنىً مَزَجْتُ له دَمِي بِلَحْمِيَ في أَحْلى المَواعينِ

ما أكثر المعاني التي وضعت فيها دمي ولحمي، أي الأشعار التي كانت قطعة من روحي، ثم جعلت ذلك في أحلى المواعين، الآنية.. وأواني المعنى في الشعر هي الأبيات والقوافي

سَهِرْتُ ليلَ أخي ذُبْيانَ أحضِنُه　　　حَضْنَ الرَّواضِعِ بينَ العَتِّ واللِّينِ

سهرت بليل كليل النابغة الذبياني الموصوف بالطول والكآبة، وأنا أحضن الشعر كما تحضن المرضع رضيعها وهي تعالجه بين جذب ولين (تلقمه ثديها بقوة ليأخذه ويبدأ يمص، ثم تترفق به حتى ينسجم ويرضع).. خوش تشبيه

أُعيدُ مِن خَلْقِه نَحتاً وخَضْخَضَةً　　　والنجمُ يَعجَبُ مِن تلكَ التَّمارينِ

أكتب شعري وأغير فيه وأبدل والمعاني والألفاظ والأوزان تتفاعل وتعتلج اعتلاجاً.. أنحت الألفاظ نحتاً ثم أخضخضها لتستقر.. ولا أحد معي سوى النجم يراقبني ويعجب لهذه التمارين الغريبة

حتى إذا آضَ رَيَّانَ الصِّبا غَضِراً　　　مَهوَى قلوبِ الحسانِ الخُرَّدِ العِينِ..

حتى إذا آض، أي صار، الشعر مكتملاً كأنه الفتى الشاب الممتلئ حيوية، وصار مهوى، موضع، قلوب الفتيات الحسان الخرد، الناعمات، العين ذوات الأعين الواسعة

أَتاحِ لِي سُمَّ حَيَّاتٍ مُرَقَّطَةٍ　　　تَدِبُّ في حَمَأٍ بِالحِقْدِ مَسنُونِ

عندئذ.. جلب عليَّ الشعر هجمات الأعداء التي هي مثل سم حيات مرقطة، منقطة، تزحف في حمأ مسنون، في طين نتن، هو الحقد

فهل بِحَسْبِ اللَّيالي مِن صَدَى أَلَمِي　　　أَنِّي مَضيغَةُ أنيابِ السَّراحينِ؟

ألا يكفي الليالي، المصائب، من صدى ألمي، من بعض آلامي، أنني صرت مضغة بين أنياب السراحين، الذئاب؟

٦٤ غريب الدار

براغ (١٩٦٢):

يا غريبَ الدارِ، والأيّـ　　　ـامُ كالناسِ تُدارَى

وبناتُ الدهرِ يَغلِبْـ　　　ـنَ بَني الدهرِ ابْتِكارا

بنات الدهر، أي المصائب، تغلب أبناء الدهر، أي الناس، بما تبتكره من أفانين العذاب

يا غريبَ الدارِ لم تَكـ　　　ـفُلْ لهُ الأيامُ دَارا

يا لِبَغدادَ مِنَ التا　　　ريخِ هُزْءاً واحتِقارا

حَلَّأَتْهُ ومَرَتْ لِلـ　　　ـوَغْدِ أَخْلافاً غِزارا

حلأت بغداد المغترب، صدَّته عن الماء، ومرت للوغد، أي حلبت له، أخلافاً غزارا، أي ضروعاً مليئة بالحليب

واصْـطَـفَـتْ بُـومـاً وأَجْـلَـتْ عـن ضِـفـافَـيْـهـا كَـنـارا

بغداد اصطفت، اختارت، البوم، وطردت عن ضفافيها، ضفتيها على دجلة، الكنار

لـيـس عـاراً أنْ تُـوَلِّـي مِـن مُـسِـفِّـيـنَ فِـرارا

يقول لنفسه: ليس عاراً أن تفر من وجه المسفين، الهابطين أهل الإسفاف

جَـافِـهِـمْ كـالـنَّـسْـرِ إذْ يَـأْ نَـفُ دِيـدَانـاً صِـغـارا

جافهم: عالجهم بالجفاء والبُعد

خِـلْـقَـةٌ صُـبَّـتْ عـلـى الـفَـجْـرَةِ دَعْـهـا والـفِـجَـارا

الخلقة التي جبلت على الفجور دعها وفجورها

أنـتَ لا تَـقـدِرُ أن تَـزْ رَعَ فـي الـعُـورِ احْـوِرارا

الاحورار: شدة سواد بؤبؤ العين مع شدة بياض حوله.. وهذه صفة حميدة وهيهات أن تزرعها فيمن هو أعور

يـا غـريـبَ الـدَّارِ فـي قـا فِـلَـةٍ سـارَتْ وسـارا

لِـمَـصـيـرٍ واحـدٍ ثُـمَّـ تَـنـاسَـتْ أيـن صَـارا

سـامِـحِ الـقـومَ انـتِـصـافـاً واخـتَـلِـقْ مِـنـكَ اعـتِـذارا

اختلق أعذاراً لمن أساءوا إليك

عَـلَّـهُـمْ مِـثْـلَـكَ فـي مُـفْـتَـرَقِ الـدَّرْبِ حَـيـارَى

فـإذا مـا عَـاصِـفُ الـدهـرِ بِـكُـمْ أَلْـوَى وجَـارا

ألوى بكم الدهر: رماكم

فَـكُـنِ الأوْثَـقَ عـهـداً وكُـنِ الأوْفَـى ذِمـارا

الذمار: الشرف

أو، فـلا لَـوْمٌ، ولا عُـذْرٌ ولا قَـولٌ يُـمـارَى

يمارى فيه: يجادَلُ بشأنه

٦٥ كردستان

ميونخ (١٩٦٣):

قـلبِـي لِـكُـرِدسـتـانَ يُـهـدَى والـفَـمُ ولـقـد يَـجـودُ بِـأَصْـغَـرَيْـهِ الـمُـعْـدِمُ

المعدم، أي الفقير، ليس له ما يقدمه سوى أصغريه: قلبه ولسانه

شَعْبٌ دعائِمُهُ الجَماجِمُ والدَّمُ   تَتحطَّمُ الدنيا ولا يَتَحَطَّمُ

٦٦ حلم النصر

قالها قبيل نكسة (١٩٦٧)، وكنا وقتها نحلم بنصر وشيك ومؤكد، براغ:

يا ناصِرَ الأُمَّةِ الكبرَى وحاضِنَها   لا العُجْبُ يَملأُ بُرْدَيْهِ ولا البَرَمُ..

يا عبد الناصر الذي نصر الأمة الكبرى، كل الأمة العربية وليس مصر فقط، ولا يملأ ثوبيك العُجب، التكبر، ولا البرم، الملل..

أَنقِذْ فِلَسطينَ مَردُوداً بِها حَرَمٌ   على ذَويهِ، ومَرْكُوزاً بِها عَلَمُ

التركيب للمتنبي: (مخلىً له المرجُ، منصوباً بصارخةٍ/له المنابرُ، مشهوداً بها الجمع). وكان المتنبي يسلي بقصيدته سيف الدولة عن هزيمة ألمت بجيشه، والجواهري هنا يحث عبد الناصر على حرب ستفضي إلى هزيمة نكراء

ولَبِّ في جَنَباتِ القُدسِ صَارِخَةً   مِن قَبلُ أَدْرَكَها في الرومِ مُعْتَصِمُ

قم بتلبية امرأة تصرخ في نواحي القدس، وكان المعتصم قد أدرك وأنقذ مثل هذه المرأة عندما اعتدى عليها الروم

جَمَعْتَ تِسعينَ مِليوناً كما جَمَعَتْ   لُبْدَ اللُّيوثِ على أشبالِها أَجَمُ

جمعت التسعين مليون عربي مثلما جمعت الأجم، الغابات، الأسود اللبد، التي لها لبدة من شعر الرأس، ومعها أشبالها

وصُغْتَ مِن أَنْهُرٍ شَتَّى وأَخْلِجَةٍ   بَحراً بِمُصْطَخِبِ الأمواجِ يَلتَطِمُ

وصُنتَ بِالقُوَّةِ الحقَّ الذي دَلَفَتْ   تِسعونَ عاماً عليهِ وَهْوَ يُهْتَضَمُ

دلفت: مشت، يهتضم: يظلم

٦٧ اشتياق

براغ (١٩٦٧):

سَهِرْتُ وطالَ شوقيَ لِلعراقِ   وهل يَدنُو بَعيدٌ بِاشتِياقِ

٦٨ الصفو والكدر

من قصيدة في حفل تكريم أقامته له وزارة الإعلام العراقية، بعد انقلاب البعث، بغداد (١٩٦٩):

يا سامِرَ الحَيِّ إنَّ الدهرَ ذو عَجَبٍ   أَعْيَتْ مَذاهِبُهُ الجُلَّى على الفِكَرِ

مذاهبه الجلى: أفعاله العظيمة التي يَذهب بها كل مذهب

كـأنَّ نـعـمـاءَهُ حُـبْـلَـى بِـأَبْـؤُسِـهِ   مِن ساعةِ الصَّفْوِ تَأتي ساعةُ الكَدَرِ

كأن النعمة حبلى وستلد قريباً البؤس والشقاء

يُنَغِّصُ العيشَ أنَّ الموتَ يُدرِكُهُ   فنحن مِن ذَيْنِ بينَ النَّابِ والظُّفُرِ

ينغص علينا حياتنا أن الموت سيدرك هذه الحياة ويفنيها. . فنحن بين ذين، أي هذين، بين ناب السبع وظفره

٦٩ ضد الشعر الحديث

بغداد (١٩٦٩):

في الشعرِ مِن فَرْطِ ما احْتَكُّوا بِهِ دَبَرٌ   كـمـا تَـأَكَّـلَ عَـظْـمَ الـنـاقَـةِ الـقَـتَـدُ

في الشعر دبر، أي قروح وجروح كالتي في قفا البعير، أو مثلما يحفر خشب القتد، الرحل، عظم الناقة

تَشَكَّتِ الضَّـادُ مِمَّـا يُـنـزِلُـونَ بِـهـا   كما اشتَكى الجسمُ مِمَّا تُفْرِزُ الغُدَدُ

نَـجَـوْا بِـزَعْـمِـهِـمُ مِـن أَسْـرِ قـافـيـةٍ   والـشـعـرُ لـولا إِسَـارٌ نُـثْـرَةٌ قِـدَدُ

يزعمون أنهم استراحوا من أسر القافية، ولولا هذا الأسر لصار الشعر منثوراً وصار قدداً، قطعاً

يـا شـاتِـمِيَّ وفي كَفِّي غَلاصِمُهُمْ   كمُوسِعِ اللَّيْثِ شَتْماً وَهْوَ يَزْدَرِدُ

يا من يشتمونني وفي يدي غلاصمهم، غضاريف حناجرهم، أنتم مثل من يشتم الليث وهو يفترسه ويزدرده، يبلعه

أَتَلْطِمُونَ جبينَ الشمسِ أنْ قَذِيَتْ   عُـيـونُـكُـمْ فَـبِـهـا مِـنْ ضَـوئِـهـا رَمَـدُ

إذا أصبح في عيونكم قذى وأصابها الرمد لشدة ضوء الشمس فلا ينفعكم أن تلطموا الشمس

٧٠ النساء

بغداد (١٩٦٩):

إِنِّـــي ورَبِّ صـــاغَـــهُـــنَّ   كـمـا اشْـتَـهـى هـيـفـاً لِـطَـافـا

يحلف بالله الذي صاغ وخلق الفتيات هيفاً، هيفاوات ممشوقات، ولطيفات

لَأَرى الــجِــنــانَ إذا خَــلَــتْ   مِــنْــهُــنَّ أَوْلَــى أنْ تُــعــافــا

تُعافُ الجنة بدونهن. لا يخشَ الجواهري شيئاً فالجنة طافحة بهن، فأما أنه سيدخل الجنة ففي الأمر نظر

٧١ النصف الأفضل

براغ (١٩٧٠):

لِجَاجُكَ في الحبِّ لا يَجْمُلُ ... وأنتَ ابْنُ سبعينَ لو تَعقِلُ

اللجاج: كثرة الأخذ والعطاء

تَقَضَّى الشبابُ وودَّعْتَهُ ... ورُحْتَ على إِثْرِهِ تُرْقِلُ

انقضى وزال الشباب، وأنت الآن ترقل، تسرع، وراء الشباب الذاهب متجهاً صوب الموت

مَضى مِنكَ فيهِ رَبيعُ الحياةِ ... وماتَ بِه نِصفُكَ الأَفضلُ

ما كان ضره لو قال: نصفك «الأسفل»

٧٢ هلُمِّي

براغ (١٩٧٠):

وقالَ محمدُ المِصباحُ يوماً ... لِفاتِنةٍ مِن الغِيدِ الحِسانِ

مِن الجِيكِ السَّواحِرِ لَسْتَ تَدري ... بِهِنَّ المُحْصَناتِ مِن الزَّواني:

الجيك: التشيك

هَلُمِّي أَرْسُمَنْكِ غَداً، فقالَتْ: ... غداةَ غَدٍ، وفي المَقْهى الفُلاني

فقالَ: بِمَرْسَمي حيثُ اسْتَتَمَّتْ ... مِنَ الرَّسْمِ المَعاني والمَباني

فقالتْ: لا، ومَن أَعطاكَ ذِهْناً ... وعَلَّمَكَ التَّفَنُّنَ في البَيانِ!

قالت له: لا، وحقِّ من منحك المخ، وعلمك التفنن في الكلام مع النساء!

أَداةُ الرَّسْمِ تَحْمِلُها سِلاحاً ... على فَخِذَيْكَ مَشْحُوذَ السِّنانِ

ولكنْ، كلُّ ما تَبْغِيهِ مِنِّي ... خُفُوتُ الضَّوْءِ في ضَنْكِ المكانِ

ضنك: ضيق

٧٣ رثاء عبد الناصر

براغ (١٩٧١):

أَكْبَرْتُ يومَكَ أن يكونَ رِثاءَ ... الخالِدونَ عَهِدْتُهُمْ أَحياءَ

قد كنتَ شاخِصَ أُمَّةٍ، نَسَماتِها ... وهَجيرَها، والصُّبحَ والإِمْساءَ

شاخص أمة: نصبها ورمزها، هجيرها: ظهيرتها

قد كانَ حَوْلَكَ أَلْفُ جارٍ يَبتَغي هَـدْمـاً، وَوَحْـدَكَ مَـنْ يُـريـدُ بِـنـاءَ

أُثني عليكَ، على الجُموعِ يَصوغُها الزُّ عـمـاءُ، إذْ هِـيَ تَـخْـلُـقُ الـزُّعَـمـاءَ

أمدح الجموع التي جمعتها أنت حولك فصارت جماهير موحدة، وغيرك من الزعماء تخلقه الجماهير لا يخلقها

ونُكِسْتَ، فانْتَكَسَتْ، وكنتَ لِواءَها يَـهـوي، فـمـا رَضِـيَـتْ سِـواكَ لِـواءَ

الجموع انتكست بنكستك في عام ٦٧، وهوى لواؤها وهو أنت، ولكنها ظلت تريدك. فبعد هزيمة ٦٧ تنحى عبد الناصر، فخرجت الجماهير، في مصر وغير مصر، تطالبه بالبقاء رئيساً

٧٤ النفط

براغ (١٩٧٢):

خـمـسـونَ عـامـاً والـعـرا قُ عـلـى الـبـلاءِ مُـصَـفَّـدُ

مصفد: مقيد

ذهـبـاً يـسـيـلُ وفـي مَـصـا رِفِ لَـنـدَنٍ يَـتَـجَـمَّـدُ

يسيل البترول ذهباً ويرسله مصاصو الدم إلى بنوك لندن ليتجمد هناك بأسمائهم

صُـهْـبُ الـسِّـبـالِ يَـهُـزُّهـا طِـفـلٌ جَـمـيـلٌ أَسْـوَدُ

صهب السبال، شُقْر اللحى أي الإنجليز، يهز عواطفهم الطفل الجميل الأسود، يعني الذهب الأسود.. النفط

يَـتَـخَـطَّـفـونَ نَـظـيـرَهُ مِـن أَيِّ حِـضْـنٍ يُـولَـدُ

فهم يتخطفونه من أي بلد يكتشف فيه

٧٥ ثورة على الموت

فارنا، بلغاريا (١٩٧٣):

في دَمي ثورةٌ على الموتِ تَكفي أنْ تُـعَـفِّي عـلـيـه، لـو كـان يُـكْـفَـى

في دمي عنفوان يكفي أن يعفي على الموت، يمحوه محواً.. هذا لو كان الموت يكفى، يُكفَى شرُّه

يَـنـفَـدُ الـعـمـرُ شَـدَّمـا كـان حَـوْجـاً كَـسِـراجٍ فـي فَـحْـمَـةِ الـلـيـلِ يُـطْـفَـا

ينفد العمر وينتهي والمرء في أمس الحاجة إليه، كالسراج الذي ينطفئ والليل حالك السواد

ليتَ أنَّ الحِمامَ، إذْ لم يَكُنْ بُدٌّ ـ مِنَ الموتِ، عِلَّةٌ ثم تُشْفَى

يَجِدُ المرءُ بعدَها العيشَ أحْلَى وهِباتِ الدنيا ألَذَّ وأصْفَى

ليتَ شِعري والموتُ مِثلُ عُقَابِ الـ ـجَوِّ يُدْمِي بِنا مَخالِبَ عُقفا . .

الموت مثل العقاب، الطائر الكاسر، يدمي مخالبَه المعقوفة بقبضه علينا . . فليت شعري . .

أَقَرابينُ نحن شَوْهاءُ تُزْجَى لِلْإِلَه الغضبانِ قُربى وزُلْفى؟

أنحن قرابين شوهاء، مشوهة لأننا نموت في سن الشيخوخة عادة، تقدم للإله زلفى، تقرباً منه؟

٧٦ المتصابي

براغ (١٩٧٣):

لا تَلُمْ أَمْسَكَ فيما صَنعا أمسِ قد فاتَ، ولن يُسْتَرْجَعا

أَمسِ قد ماتَ، ولن يَبْعَثَهُ حَملُكَ الهَمَّ لهُ، والهَلَعا

اِطَّرِحْهُ واسْتَرِحْ مِن ثِقْلِهِ لا تُضِعْ أَمْسَكَ واليومَ مَعا

ما أخَسَّ المرءَ يَشكُو يومَهُ فإذا وَلَّى بَكاهُ جَزِعا

نظل نشكو في يومنا . . فإذا ذهب بكيناه

يا بَقايا ذِكرياتٍ كُلَّما جُسَّ عُودٌ مِن صَداها رَجَّعا

الذكرى مثل عود بأوتار كلما لمسناه رجَّع صداها، كررها وذكرنا بها

حَدِّثي ما شِئتِ عن أُبْدُوعَةٍ ولقد يَأتي الزَّمانُ البِدَعا

أيتها الذكريات قُصّي على الناس أبدوعة، عجيبة من العجائب

عن فتىً أخْصَبَ في شَتْوَتِهِ لاعِناً فيها الربيعَ البَلْقَعا

قصي قصة فتى جاءه الخصب والإلهام الشعري في شتاء العمر، وهو عجوز . . والجواهري الآن قد تخطى السبعين، وراح يلعن الربيع الذي لا يكون فيه إلهام

عاشَ في العِشرينَ شيخاً، ورَعَى بعدَ سِتِّينَ شَباباً مُمْرِعا

عندما كان في العشرين كان وقوراً كشيخ مسن، وبعد الستين صار صاحب شباب ممرع، خصب

قِفْ على بْراهَا وجُبْ أَرْبَاضَها وسَلِ المُصْطافَ والمُرْتَبَعا

براها: الاسم التشيكي لبراغ. يريد أن يجوب أرباض براغ، هضباتها، وأن يسائل أماكن الاصطياف والارتباع، الأماكن التي ينزلها القوم صيفاً وربيعاً

وسَلِ الخَلَّاقَ هل في وُسْعِهِ فوقَ ما أَبْدَعَهُ أنْ يُبْدِعا

مَرَّتِ الأَسْرابُ تَتْرى.. مَقْطَعٌ مِن نَشيدِ الصَّيفِ يَتْلُو مَقْطَعا

مرت أسراب الحسان تترى، متلاحقة متواترة، فكأنها مقطع من نشيد الصيف

وتَخَفَّفْنَ فما زِدْنَ على ما ارتَدَتْ حَوَّاءُ إِلَّا إِصْبَعا

حواء ارتدت ورقة توت.. وهن ارتدين تنانير تزيد عن ورقة التوت بإصبع

رَحْمَتا لِابْنِ زُرَيْقٍ لو رَأى فَلَكَ الأَزْرارِ ماذا أَطْلَعا

وكان ابن زريق البغدادي قال «أستودع الله في بغداد لي قمراً/ بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه» متخيلاً زوجته المحبوبة قمراً ولكن هذا القمر يطلع ـ ليس من فلك من أفلاك السماء، بل ـ من فلك أزرار قميصها

كُلَّ مَضْمُومٍ إلى صاحِبِهِ مُشْرَئِبَّيْنِ إلى النُّورِ مَعا

ومن وراء أزرار قميص التشيكية الجميلة لمح الجواهري نهداً مضموماً إلى صاحبه وقد اشرأبَّا معا، أي رفعا رأسيهما، نحو النور. سيأتي مظفر النواب ويشبه النهد برأس القط

٧٧ إلى أمونة

براغ (١٩٧٣):

ما لَذَّةُ الوَصلِ لم يَلْوِ الصُّدُودُ بِهِ والحُبِّ لم يَخْتَلِسْ مِنْ أَمْنِهِ الفَرَقُ؟

ما لذة الوصل الذي لم يلو به، لم يذهب به، الصدود.. وما لذة الحب الذي لم يسرق منه الأمان الفرق، الخوف؟ يقول إن لذة وصل الحبيبة يكون في وجود احتمال صدودها، ولذة الحب في تلك المخاوف من الوشاة

تلكَ الثَّلاثُونَ والتِّسْعُ التي دَلَفَتْ تَسَاقُنا عَنَتاً طَوْراً وتَرْتَفِقُ

دلفت، أي مضت، على زواجنا ٣٩ سنة، وكانت تسوقنا أمامها سوقاً عنيفاً تارةً وترتفق، تتلطف بنا تارة أخرى

سِرْنا على الشَّوْكِ يُدمِينا ونَأْلَفُهُ وفي مَفاوِزَ تَرمِينا ونَلْتَصِقُ

مفاوز: صحارى

كُنَّا نَرى الجَمْرَ مَشْبُوباً ونَحْتَرِقُ ومَغرِسَ الرِّجْلِ مَلْغُوماً ونَخْتَرِقُ

مغرس الرجل: موضع غرس القدم

إِنِّي وعَيْنَيْكِ لا أُمْنَى بِداجِيَةٍ إِلَّا وأَنتِ لِيَ الإِصباحُ والفَلَقُ

لا أمنى، أصابُ، بداجية، بمشكلة مظلِمة، إلا وأنت لي صبح وفلق، إشراق الشمس. وسيفقد الجواهري زوجته آمنة بعد عشر سنين وسيقول: (ها نحن أمونة نناى ونفترق/ والليل يمكث والتسهيد والحرق)

٧٨ محكُّ الرجال

المغرب (١٩٧٤):

تَقَحَّمْتُ الوَغى وتَقَحَّمَتْنِي وخُضْتُ عَجاجَها حَرباً سِجالا

الوغى: الحرب، عجاجها: غبارها. وما عرف الجواهري حرباً ولا عرف ضرباً، إن كانت إلا مماحكات وخصومات

ولم أرَ كالخُصُومَةِ مِن مِحَكٍّ يُبينُ لَكَ الرُّجُولَةَ والرِّجالا

عندما تخاصم رجلاً تكتشف فيه الرجولة والشهامة، أو العكس

٧٩ فرح ومرح

طنجة (١٩٧٤):

لِلَّهِ دَرُّكِ طَنْجُ مِنْ وَطَنٍ وَقَفَ الدَّلالُ عليه والغَنَجُ

طنجة وقف عليها الدلال، صار وقفاً عليها ثابتاً صفة لها

صَفَتِ النُّفوسُ فَلَفَّها مَرَحٌ يَهفُو بِها، وتَلاقَتِ المُهَجُ

النفوس صافية ويهفو بها، يحركها المرح، والقلوب تتلاقى

فَيَدٌ على خَصْرٍ ولا رَصَدٌ وفَمٌ على ثَغْرٍ ولا حَرَجُ

يتراقصون ويده على خصرها ولا رصد، دون رقيب.. والبقية عندك

٨٠ ابتسام في الطرقات

براغ (١٩٨٠):

كَعَهْدِكَ ما تَزالُ بِراغُ تُزْهَى كأنَّ ثُلَيْجَ شَتْوَتِها اغْتِلامُ

ما زالت براغ كعهدك بها زاهية، والثلج الخفيف في شتوتها كأنه اغتلام، شبق..

أَعَنْها قلتُ أم عَنِّي؟ سواءٌ كِلانا عِنْدَهُ كَلَفٌ عُرامُ

فهل تراني شبهت هذا التشبيه وفي ذهني براغ، أم في ذهني نفسي؟ كلا الأمرين سواء، فكلانا لديه كلف، أي رغبة، عارمة. نعم يا محمد مهدي.. تشبيه الثلج بالاغتلام يصرف الذهن إلى هذا الرجل الثمانيني وقد صحا من نومه وأحس بعارض أبيض يعرض له..

تَحَدَّبَتِ الثلوجُ على زُروعٍ تَغَشَّاها لِيُدْفِئَها رُكامُ

أحاطت الثلوج بالزروع، وهذا الركام تغشاها، وضمها، ليدفئها

وبُيِّضَتِ الفِجاجُ فَكُلُّ دَرْبٍ   على شَفَتَيْهِ يَضْطَرِبُ ابْتِسامُ

وساد البياض الفجاج، الطرق الضيقة، فكل طريق كأنه فم مفتوح تظهر فيه الأسنان.. كأنه فم يتبسم

٨١ الدخول في الثمانين

براغ (١٩٨٢):

حَسْبُ الثَّمانِينَ مِن فَخْرٍ ومِن جَذَلِ   غِشيانُها بِجَنانٍ يافِعٍ خَضِلِ

يكفي الثمانين فخراً وفرحاً أنني أغشاها، آتيها، بقلب يافع، فتيّ، خضل، ريان مبتلّ بماء الشوق

كَمْ هَزَّ دَوْحَكَ مِنْ قِزْمٍ يُطَاوِلُهُ   فلم يَنَلْهُ ولم تَقْصُرْ، ولم يَطُلِ

كثيراً ما هز دوحك، شجرتك الكبيرة، قزم يريد أن يطاول هذا الدوح.. فلا هو ناله ولا الدوح قصُر

وكم سَعَتْ إِمَّعاتٌ أن يكونَ لها   ما ثارَ حَوْلَكَ مِن لَغْوٍ ومِن جَدَلِ

كثيرون من الإمعات، الناس الذين لا شخصية مستقلة لهم، سعوا أن يثور حولهم ما ثار حولك من جدل، ومن لغو، كلام فارغ أيضاً

ثَبِّتْ جَنانَكَ لِلبَلْوى فقد نُصِبَتْ   لَكَ الكمائِنُ مِن غَدْرٍ ومِن خَتَلِ

ثبت قلبك للمصيبة، فقد نصبت لك الكمائن من الغدر والختل، الخداع

لا تَنْسَ أَنَّكَ مِن أَشْلاءِ مُجتَمَعٍ   يَدِينُ بِالحِقدِ والثَّاراتِ والدَّجَلِ

كنتَ الغَريبَ بِهِ: لا أنتَ تَأْلَفُهُ   فَتستَريحَ، ولا عنهُ بِمُنْعَزِلِ

أنت من مجتمع مريض بالحقد والثأر والدجل، وكنت غريباً فيه لكنك لم تكن عنه بمعزل

فكيفَ تَطْمَعُ أن تُعفِيكَ ثاكِلَةٌ   أنتَ النَّذيرُ لها بِالوَيلِ والثَّكَلِ؟

فكيف تطمع أن تتركك ثاكلة أنت الذي جئتها بالثكل وفقدان الولد. يعني كيف يعفيك المجتمع الفاسد وأنت الذي شننت عليه حرب الإصلاح لتقتل فساده؟

٨٢ إلى عدن

(١٩٨٢):

مِن مَوطِنِ الثلجِ زَحَّافاً إلى عَدَنِ   خَبَّتْ بِيَ الريحُ في مُهْرٍ بِلا رَسَنِ

ذاهباً من براغ حيث الثلج إلى عدن.. خبت، أسرعت، بي الريح وأنا في مهر لكن ليس له رسن، أي مقود، وهذا المهر هو الطائرة

حَسِبْتُنِي، وعُقابُ الجَوِّ يَصْعَدُ بيِ   إلى السَّماواتِ، مَحمُولاً إلى وطني

وأنا راكب الطائرة ظننُتني ذاهباً إلى العراق

ما أقربَ الشَّمسَ مِنِّي، غيرَ أنَّ دَمِي   ما إنْ يُصَلِّي لِغَيرِ الشعرِ مِن وَثَنِ

يرى نفسه في الطائرة قريباً من الشمس معبودة القدماء، لكنه لا يصلي إلا للشعر

٨٣ الانسلال

دمشق (١٩٩٣):

خَطَرٌ أن يُصْبِحَ المرءُ خَطيرا   يَملِكُ الدنيا، ويَنْسَلُّ حَسيرا

خطير: مهم. ما أصعب أن ينال المرء في دنياه كل المجد.. ثم ينسل منها حسيراً، متحسراً على فقدان كل شيء

واجِماً والرَّوْضُ مِن صَنْعَتِهِ   وظَمِيئاً وَهْوَ يَنسابُ غَديرا

صعب أن يقف المرء واجماً، ساكتاً حزيناً، بينما هو الذي زرع الروض. وصعب أن يكون عطشان وهو ينساب غديراً متدفقاً بالشعر العذب. الشاعر يخلق الجمال ولا يستمتع به

فهرس القوافي

(القافية فرقم القصيدة)

فهرس القوافي العام
(القافية، فرقم القطعة، فاسم الشاعر)

أبواب الكتاب

١ البارودي ٢ الزهاوي ٣ شوقي ٤ حافظ ٥ الرصافي ٦ الجواهري

ومَدِّ ١٩ الجواهري
يَصِدِ ٤٠ الجواهري
يُنادي ٢٢٠ شوقي
أرادْ ١١٩ شوقي
الأَسَدْ ٢٤٠ شوقي
العَميدْ ٧١ حافظ
المنفرِدْ ٤٧ شوقي
لُبَدْ ٢٦٣ شوقي
مخلَّدْ ١٠٥ شوقي
أَشُدَّها ١٩٤ شوقي
تُجيدَهْ ٢ الزهاوي
رُقَادَهْ ٢ الزهاوي
بَرِيدُهُ ٢٥ البارودي
حُقُودُها ٢٣ الزهاوي
زَنْدُهُ ٢١ البارودي
عُوَّدُهُ ١٢٩ شوقي
هُجُودُها ٥٣ الرصافي
أثرا ١٥ حافظ
أَجْدَرا ٣١ الجواهري
الجوْهرا ٢١٦ شوقي
الدهرا ٢١ الرصافي
العِثارا ٨٢ شوقي

الكُبرى ١١ شوقي
الكَرى ١٣٧ شوقي
المجاهرا ٤٣ الجواهري
المَجْرَى ١٧ الجواهري
تُدارَى ٦٤ الجواهري
جَرى ٩٠ شوقي
حُرًّا ٨٨ الزهاوي
حَسيرا ٨٣ الجواهري
دُورا ٣٧ الرصافي
ساهرا ٣٠ الرصافي
عُذرا ٧١ الرصافي
مَرًّا ٥٥ الرصافي
ونارا ٣١ الزهاوي
يَتَغَوَّرا ٩٩ الرصافي
يَطيرا ٢ الزهاوي
أَثَرُ ٢ حافظ
أَشْعُرُ ٣٦ الزهاوي
الأكبرُ ٣٤ شوقي
الحُرُّ ٣٣ الزهاوي
الضَّميرُ ٢ الزهاوي
الكَوْثَرُ ٢٠ حافظ
تَبورُ ٢٣٣ شوقي

إحياء الشعر

البارودي والزهاوي وشوقي وحافظ والرصافي والجواهري

عندما بايعوا أحمد شوقي بإمارة الشعر، قال الزهاوي: «منكم أمير ومنا أمير»، فكأنه همس في أذن عقلي الباطن همسةً تجلت في هذا الكتاب، فما إن فرغتُ من وضع خطته حتى رأيتني قد أخذت ثلاثة شعراء من مصر، وثلاثة من العراق زاعماً أن هؤلاء قد أحيوا الشعر العربي بعد قرون من الموت السريري. في البدء كان البارودي، لا خلاف، قد لبث زمناً يحاول أن يلبس عباءة المتنبي، ويراها فضفاضةً عليه، حتى تقاذفته رياح السياسة فرفعته إلى رئاسة الوزراء، ثم رمته بعد أشهر في سيلان منفياً، فلبس عباءة نفسه، فكان بشيرَ عصر جديد في الشعر العربي. ثمّ مضيتُ أرتب الشعراء بحسب سنة الميلاد. أفهمنا الزهاوي أن الشعر يمكن أن يقال بلغة عصرية، وزاد فشحن شعره بالفكر والفلسفة. وفي مصر اعتلى شوقي كتفي البارودي، وظلّ مثله يقلد القدماء؛ ولكنه، بثقافته العريضة وبحياة مصر السياسية النشطة في زمنه حلّق فوق النسور. والقلب كان شاعريته. وواكب حافظ إبراهيم شوقي ونافسه في محافل التهاني والتأبين بشعر فيه رنين يصلح للمنابر، وعاش شعر حافظ بما فيه من سهولة وفصاحة ولقلة ما فيه من إيماءات تاريخية اكتظ بها شعر شوقي. وأسهل من شعر حافظ كان شعر الرصافي، فشاعر العراق، على فصاحة لسانه، كان يشبه حافظاً في بوهيميّته وفي قلة احتفاله بالإشارات التاريخية. وخاتمة شعراء هذا الكتاب الجواهري، هذا شاعر عاش القرن العشرين كله، تنقص سنتان من أوله وثلاث من آخره. كان منبريَّ الأسلوب كحافظ، وكانت حياته ترجمة شعرية لحياة العراق السياسية في القرن العشرين، قال الشعر في زمن بني عثمان، وزمن الإنجليز، وزمن فيصل، وكان مقرباً لعبد الكريم قاسم ثم هجره، وناوش العهد البعثي قرباً وبعداً. أصدق التاريخ ما تجده في قصائد الشعراء، فإنْ زعمَ زاعمٌ أن هذا الكتاب كتاب تاريخ فَليزعم.

مرفق مع الكتاب تسجيلات صوتية من قصائد «إحياء الشعر» بصوت المؤلف عارف حجاوي، وهي مرقمة بحسب ترقيمها في الكتاب.

تم التسجيل في استديوهات مركز الجزيرة للتدريب الإعلامي.



القاهره – المعادي – شارع المعراج
almashriq.books@gmail.com

